

محافظة
دبي
العلم والثقافة
مكتبة
GOVERNMENT OF DUBAI

فتح العيب

في الكشف عن قناع الرب
وهو حاشية الطيبي على الكشاف

للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي
المتوفى سنة ٧٤٣ هـ رحمه الله تعالى

المشرف الناشر على الإخراج العلمي للكتاب
الدكتور محمد عبد الرحمن سلطان العلماء

دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع

مكتبة
العلم والثقافة

مكتبة
العلم والثقافة

فتوح الغيب

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الريب

تأليف : الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ©

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية بالأردن : (٢٠١٠/٧/٢٥٣٣)

الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٢٣١٨٠٤

ما وزد في حواشي هذا الكتاب يعبر عن رأي محققه ولا يعبر بالضرورة عن رأي الجائزة

ص.ب.: ٤٢٠٤٢ دبي - الامارات العربية المتحدة

هاتف: ٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦

فاكس: ٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨

الموقع على الانترنت: www.quran.gov.ae

البريد الالكتروني: Rs@quran.gov.ae

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

وحدة البحوث والدراسات

أسهم في نشر هذا الكتاب

ADIB



مصرف أبوظبي
الإسلامية

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرب

وهو حاشية الطيبي على الكشاف
للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي
المتوفى سنة ٧٤٣ هـ رحمه الله تعالى

الجزء الثامن

تفسير السور من هود إلى نهاية إبراهيم

حقق هذا الجزء
الدكتور حمزة محمد وسيم البكري

المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب
الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام
مكيّة، وهي مئة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الرَّكَتُوبُ أَحْكَمْتُ أَيَّنَّهُ، ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾]
﴿أَحْكَمْتُ أَيَّنَّهُ﴾: نُظِمَتْ نَظْمًا رَاصِنًا مُحْكَمًا لَا يَقَعُ فِيهِ نَقْضٌ وَلَا خَلَلٌ، كَالْبِنَاءِ
الْمُحْكَمِ الْمُرَصَّفِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَقْلًا بِالْهَمْزَةِ،

سورة هود عليه السلام
مكيّة، وهي مئة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (ويجوز أن يكون نقلاً): الضمير في «يكون» راجع إلى «أَحْكَمْتُ»، وهو عطف
على «نُظِمَتْ نَظْمًا» من حيث المعنى، فعلى الأول: الهمزة ليست للنقل، بل وُضِعَ «أَحْكَمُ»
ابتداءً لذلك، ومثله «كَلَّمَ» بالتشديد في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:
164]، لأنه ليس للتكثير، بل هو موضوع لذلك، قاله ابن الأثير. فقوله: «نقلًا» مصدر فعل
محذوف، أي: نُقِلَ نَقْلًا.

من: حَكَمَ - بَضَمَ الكاف - : إذا صار حكيماً، أي: جُعِلْتَ حكيمة، كقوله تعالى: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقيل: مُنِعْتَ مِنَ الفساد، من قولهم: أَحَكَمْتُ الدابة: إذا وَضَعْتَ عليها الحَكَمَةَ لَتَمْنَعَهَا مِنَ الجِماحِ، قال جرير:

أبني حَنيفَةَ أَحَكَمُوا سَفْهَاءَكُمْ
إني أَخافُ عليكم أنْ أَغْضِبَا

وعن قتادة: أَحَكَمْتَ مِنَ الباطل.

﴿ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾ كما تُفَصِّلُ القلائِدُ بالفرائد، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصاص، أو: جُعِلْتَ فُصُولاً، سورة سورة، وآية آية، وفُرِّقَتْ في التنزيل، ولم تَنْزِلْ جُمْلَةً واحِدة، أو: فَصَّلَ فيها ما يحتاجُ إليه العباد، أي: بُيِّنَ وَلُخِّصَ

قوله: (حَكَمَ: [إذا] صار حكيماً): وَأَنْشِدَ لِلنَّمْرِ بْنِ تَوَّابٍ:

وَأَبِغْضَ بَغِيضَكَ بَغِيضاً رَوِيْداً
إِذَا أَنْتَ حَاوَلْتَ أَنْ تَحْكُمَا^(١)

قال الأصمعي: إذا حاولت أن تكون حكيماً.

قوله: (أبني حنيفة) البيت^(٢): يقول: امنعوا سفهاءكم عن إيذائي وشتمي، فإني أخاف أن أغضب وأصيبكم بسوء من هجو وغيره.

قوله: (كما تُفَصِّلُ القلائِدُ بالفرائد^(٣))، الراغب: «الفصل: إبانة أحد الشيتين عن الآخر، حتى يكون بينهما فُرْجَةٌ، ومنه قيل: المفاصل، والواحد: مفصل، وفصل القوم عن مكان كذا، وانفصلوا: فارقه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعَيْرُ﴾ [يوسف: ٩٤]، وُستَعْمَلُ في الأفعال والأقوال، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]،

(١) انظر: «الصَّحاح» للجوهري، و«لسان العرب» لابن منظور، كلاهما في مادة (حكَمَ)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢٠٩: ١) و(٢١٨: ٢)، وغيرها.

(٢) انظر: «ديوان جرير» ص ٥٠.

(٣) الفرائد: الشُّذْرُ الذي يَفْصِلُ بَيْنَ اللُّوْلُوِّ والذهب، واحِدُهُ: فَرْدَةٌ. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (فرد).

وَقُرِّي: «أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ»، أي: أَحْكَمْتُهَا أَنَا ثُمَّ فَصَّلْتُهَا، وَعَنْ عِكْرِمَةَ وَالضَّحَّاكِ: «ثُمَّ فَصَّلْتُ»، أَي: فَفَرَّقْتُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

فإن قلت: ما معنى ﴿ثُمَّ﴾؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي مُحْكَمَةٌ أَحْسَنَ الإِحْكَامِ ثُمَّ مُفَصَّلَةٌ أَحْسَنَ التَّفْصِيلِ، وَفُلَانٌ كَرِيمٌ الأَصْلُ ثُمَّ كَرِيمٌ الفِعْلُ.....

أي: يُفَصَّلُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحُكْمِ، وَفُضِّلَ الْخِطَابُ: مَا فِيهِ قَطْعُ الْحُكْمِ، وَحُكْمٌ فَيَصِلُ، وَلِسَانٌ مَفْصِلٌ^(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أُحْكَمْتَهُ أَيَّنُّهُ ثُمَّ فَصَّلْتُمْ﴾ إشارة إلى ما قال: ﴿تَيْنَنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩]، وَالْمُفَصَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ: السُّبُغُ الأَخِيرُ^(٢)، وَالْفَوَاصِلُ: أَوَاخِرُ الآيِ، وَفَوَاصِلُ القِلَادَةِ: شَذَرٌ يُفَصَّلُ بِهِ بَيْنَهَا^(٣).

قوله: (ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال): قوله: «في الحال»: يحتمل أمرين: أن يُراد: التراخي في الرتبة - كما مرَّ مراراً - وأن يُراد التراخي في الإخبار، كما قال القاضي^(٤)، وقال أبو البقاء في غير هذا الموضع: «ثُمَّ - هاهنا - : غيرٌ مُقْتَضِيَةٌ ترتيباً في المعنى، وإنما

(١) المَفْصِلُ - بفتح الميم وكسر الصاد -، والمِفْصَلُ - بكسر الميم وفتح الصاد - : اللسان. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (فصل).

(٢) قال الإمام الزركشي في «الرهان» (١: ٢٤٤-٢٤٧): «الْقُرْآنُ العَزِيزُ أَرْبَعَةٌ أَقْسَامٌ: الطُّوْلُ وَالْمِثْوَنُ وَالْمِثْوَنُ وَالْمُفَصَّلُ، فَالسُّبُغُ الطُّوْلُ: أَوْلُهَا: البقرة، وَآخِرُهَا: براءة، لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُدُّونَ الأَنْفَالَ وَبِرَاءَةَ سُورَةٍ وَاحِدَةً، وَالْمِثْوَنُ: مَا وَلِيَ السُّبُغَ الطُّوْلُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ سُورَةٍ مِنْهَا تَزِيدُ عَلَى مِثْوَةِ آيَةٍ أَوْ تُقَارِبُهَا، وَالْمِثْوَنُ: مَا وَلِيَ المِثْوَنِ، وَالْمُفَصَّلُ: مَا بَلَى المِثْوَنَ مِنَ قِصَارِ السُّورِ، سُمِّيَ مُفَصَّلًا لِكَثْرَةِ الفُصُولِ الَّتِي بَيْنَ السُّورِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وَقِيلَ: لِقِلَّةِ المَنْسُوخِ فِيهِ، وَآخِرُهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وَفِي أَوَّلِهِ اثْنَا عَشَرَ قَوْلًا: أَحَدُهَا: الجاثية، وَثَانِيهَا: القتال - أَي: سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ -، وَثَالِثُهَا: الحجرات، وَرَابِعُهَا: ﴿قَت﴾، وَخَامِسُهَا: الصافات، وَسَادِسُهَا: الصَّف، وَسَابِعُهَا: ﴿تَبَارَكَ﴾، وَثَامِنُهَا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾، وَتَاسِعُهَا: الرحمن، وَعَاشِرُهَا: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾، وَالْحَادِي عَشَرَ: ﴿سَبِّحْ﴾، وَالثَّانِي عَشَرَ: ﴿وَأَلْصَحَى﴾، وَالصَّحِيحُ عِنْدَ أَهْلِ الأَثَرِ: أَنْ أَوَّلَهُ ﴿قَت﴾، وَانْتَهَى بِاخْتِصَارِ.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٦٣٨.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢١٩).

و﴿كُنْتُ﴾ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، و﴿أَحْكَمْتُ﴾ صِفَةٌ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾ صِفَةٌ ثَانِيَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا بَعْدَ خَبْرٍ، وَأَنْ يَكُونَ صِلَةً لـ﴿أَحْكَمْتُ﴾ و﴿فُصِّلْتُ﴾، أَي: مِنْ عِنْدِهِ إِحْكَامُهَا وَتَفْصِيلُهَا، وَفِيهِ طِبَاقٌ حَسَنٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَحْكَمَهَا حَكِيمٌ، وَفُصِّلَهَا - أَي: بَيَّنَّهَا وَشَرَحَهَا - خَيْرٌ عَالِمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْأُمُورِ.....

رَتَّبَتِ الْأَخْبَارَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ^(١).

وَإِخْتِلَافُ الْمَعْنَيْنِ بِحَسَبِ إِخْتِلَافِ تَفْسِيرِ اللَّفْظَيْنِ، أَعْنِي: ﴿أَحْكَمْتُ﴾ و﴿فُصِّلْتُ﴾، رَوَى الْمُصَنِّفُ عَنْ قَتَادَةَ: «أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ»^(٢) مِنْ الْبَاطِلِ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فُصِّلْتُ: ٤٢].

وَقَالَ الْإِمَامُ: «إِحْكَامُهَا: عِبَارَةٌ عَنِ مَنَعِ الْفَسَادِ، أَي: لَمْ تُنَسَخْ بِكِتَابٍ كَمَا تُنَسَخُ الْكِتَابُ الْمُتَقَدِّمَةُ، أَوْ أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ فِي أُمُورٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ مَعَانِيهَا التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ وَالنُّبُوَّةَ وَالْمَعَادَ، وَهِيَ فِي غَايَةِ مِنَ الْإِحْكَامِ، وَثَانِيهَا: أَنَّ آيَاتِهَا غَيْرُ مُتَنَاقِضَةٍ، وَالنَّقْضُ ضِدُّ الْإِحْكَامِ، وَثَالِثُهَا: أَنَّ أَلْفَظَهَا بَلَّغَتْ فِي الْبَلَاغَةِ»^(٣) وَالْفَصَاحَةِ بِحَيْثُ لَمْ تَقْبَلِ الْمُعَارِضَةَ، وَهِيَ مُشْعِرَةٌ بِالْإِحْكَامِ»^(٤).

وَأَمَّا اللَّفْظُ الثَّانِي^(٥): فَفِيهِ الْوَجُوهُ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْكِتَابِ، فَإِذَا أُرِيدَ مَا قَالَه قَتَادَةُ: «أَحْكَمْتُ مِنَ الْبَاطِلِ»، ثُمَّ فُصِّلْتُ كَمَا تُفَصَّلُ الْقَلَائِدُ بِالْفَرَائِدِ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِحْكَامِ، كَانَ مِنْ بَابِ التَّرَاخِي فِي الرُّتْبَةِ، لِأَنَّ التَّفْصِيلَ أَقْوَى مِنَ الْإِحْكَامِ. وَإِنْ أُرِيدَ بـ«الْإِحْكَامِ»: مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مِنَ الْوَجُوهِ، وَبـ«التَّفْصِيلِ»: تَفْصِيلُ السُّورِ وَالْآيَاتِ، أَوْ التَّفْرِيقُ فِي التَّنْزِيلِ، كَانَ مِنْ بَابِ الْإِحْبَارِ، كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو الْبَقَاءِ.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٦٧٦)، قاله في إعراب الآية ٤٦ من سورة يونس.

(٢) في (ح): «أَحْكَمْتُ وَفُصِّلْتُ آيَاتُهُ»، وَالمُتَّبَعُ مِنْ (ط) وَ(ف)، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي «الْكَشَافِ».

(٣) تَحَرَّفَ فِي (ف) إِلَى: «الغاية».

(٤) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٧: ٣١٢-٣١٣).

(٥) وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فُصِّلْتُ﴾.

ثم أقول - والعلم عند الله - : يُمكنُ أن يُقال: إنه من باب الإخبار، وإن المتكلم يُنبئه السامع على ما اشتمل عليه الكلام من المعاني الفاتحة الرائقة، ويقول: إني أنظرُك - أيها المتأمل - ملياً في التروِّي فيما أُورده عليك، واستنباط معانيه ودقائقه، واستخراج نكاته ومحاسنه، فحيثُ يقول: شَبَّه ما تَصَمَّنَه مِنَ المعاني المحكِّمة الرصينة، نحو: دلائل التوحيد، والنبوات، والمعاد، ووضع الأحكام، والإخبار عن القَصَصِ والمُعْجِيات، في أن لا اختلافَ فيها ولا اضطراب، بالبناء المحكم المرصَّف الذي لا نقْص فيه ولا خلل، مثاله من هذه السورة الكريمة: الكَلِمَةُ الفاذة الجامعة: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وشَبَّه ما اشتمل عليه مِنَ الألفاظ الحسنة الرشيقَة المُفرَّعة في القوالِبِ البديعية بتفصيل القلائد بالفرائد، مثاله فيها: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكِ وَنَسْمَاةً أَقْلِي﴾ [هود: ٤٤].

ثم علَّل كلاً مِنَ الحَلَّتَيْنِ بما يُناسِبُها مِنَ الوُصْفَيْنِ، فإنَّ الحكيم: مَنْ يُحْكِمُ الأشياءَ وَيُتَقِنُها، ولذلك أَحْكَمْتَ مَعاقِدُها، والخير: مَنْ يَكُونُ عالِماً بحقائقِ الأشياءِ، يُدْرِكُ ما لَطَفَ منها وما دَقَّ، فَيُحَسِّنُ نَيْقَتَها^(١)، ومن ثَمَّ ترتيب مَبانيها، فَيَنْطَبِقُ على هذا التَأويلِ قولُه: «هي مُحْكَمَةٌ أَحْسَنُ الإِحْكامِ، ثم مُفَصَّلَةٌ أَحْسَنُ التَفْصِيلِ، أَحْكَمَها حَكِيمٌ، وَفَصَّلَها خَيْرٌ».

وقال السَّجَّاءُ وَندِي: ضُمَّنْتَ الحِكْمَ والإِحْكامِ، ومُنِعْتَ الخَلَلَ والزَّلَلَ؛ لفظاً ومعنى، من لَدُنْ حَكِيمٍ في وَضْعِ مَحاسِنِ الأخلاقِ بِاتِّقانِ الآياتِ، خَيْرٍ في أمرِ مَنَاطِمِ الأعمالِ بِمَصالِحِ السِّيَاساتِ.

وقلت - والله أعلم - : فكما وَصَفَ المُنزَلَ بالإِحْكامِ والتَفْصِيلِ، وَنَعَتَ المُنزَلَ بالحَكِيمِ والخَيْرِ، وَصَفَ المُنزَلَ عليه بالنذيرِ والبشيرِ، وأَمَرَ أُمَّتَهُ بالتَّحْلِيَةِ بالعبادة، والتَّحْلِيَةِ بالاستِغْفارِ والإِنابة.

(١) تَحَرَّفَ في (ح) إلى: «تَيْقِنُها»، وقوله: «وما دَقَّ، فَيُحَسِّنُ نَيْقَتَها» سقط من (ف).

﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢-٤]

﴿الَّا تَعْبُدُوا﴾ مفعول له؛ على معنى: لئلا تعبدوا، أو تكون «أن» مفسرة؛ لأن في تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو: أمركم أن لا تعبدوا إلا الله، ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾، أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلاماً مُبتدأً منقطعاً عما قبله على لسان النبي ﷺ،

ثم في العُدُولِ مِنْ قَوْلِهِ: أَحْكَمَ آيَاتِهِ الْحَكِيمُ وَفَصَّلَهَا الْخَبِيرُ، إِلَى الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ: أَحْكَمَتِ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَ ^(١) الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، نَحْوُ: ﴿سُبْحٰنَ لَهٗ فِیْهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ * رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، ثُمَّ إِلَى الثَّلَاثَةِ الْكِنَايَةِ ^(٢) وَاخْتِصَاصِ ﴿مِن لَّدُنَّ﴾ الْمُنْبِيُّ عَنْ ^(٣) عَلَى الْحَضْرَةِ الصَّمَدَانِيَّةِ، وَالْجَنَابِ الْفَرْدَانِي: مِنَ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ مَا لَا يَصِلُ إِلَى كُنْهِهِ وَصَفُ الْوَاصِفِ.

قَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ قِيلَ: قَالَ: لَا تَعْبُدُوا): قِيلَ: لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ «أَنَّ» مَفْسَّرَةٌ، أَتَى تَارَةً بِالْقَوْلِ الصَّرِيحِ بَدْوِنِ «أَنَّ»، وَتَارَةً بِهَا فِي مَعْنَى الْقَوْلِ مَعَ «أَنَّ»، وَهُمَا سَوَاءٌ.

قَوْلُهُ: (مُبْتَدَأٌ مُنْقَطِعًا عَمَّا قَبْلَهُ): أَي: غَيْرَ مُتَّصِلٍ بِهَا قَبْلَهُ اتِّصَالًا لَفْظِيًّا كَمَا فِي الْوَجْهِ، بَلِ اتِّصَالًا مَعْنَوِيًّا، كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْكِمَالِ؛ امْتِنَانًا عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَاذَا يَجِبُ عَلَيَّ إِذْنٌ؟ فَقِيلَ: أَنْ تَشْتَغَلَ بِهَا أَمْرَتَ بِهِ مِنَ الْبَشَارَةِ وَالنَّذَارَةِ، وَتَقُولَ لِأَمْتِكَ: الزُّمُّوا التَّوْحِيدَ وَالاسْتِغْفَارَ.

(١) كَذَا فِي (ف)، وَفِي (ط) وَ(ح): «ثُمَّ فَصَّلَتْ».

(٢) فِي (ف): «ثُمَّ إِلَى الثَّلَاثَةِ، ثُمَّ الْكِنَايَةِ».

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «الْمُنْبِيُّ عَلَى»، وَالتَّبَيُّهُ مِنْ (ط).

إغراءً منه على اختصاص الله بالعبادة، ويدل عليه قوله: ﴿إِنِّي لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إنني لكم نذير، كقوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]. والضمير في ﴿وَنُهُ﴾ لله عز وجل، أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته، كقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البيّنة: ٢]، أو هي صلة لـ ﴿نَذِيرٌ﴾، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قلت: ما معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ﴾؟ قلت: معناه: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة.

قوله: (كقوله [تعالى]: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابِ﴾): يعني: إذا كان: ﴿أَلَّا تَتَّبِعُوا﴾ مُتَّعِطًا، ف«أن» لا بُدَّ أن تكون مصدرية، فهو بمعنى: ترك عبادة غير الله، والأصل: اتركوا عبادة غير الله تركاً، فحُذِفَ (١) الفعل، وقُدِّمَ المصدر، وأُنِيبَ مَنَابَ الفِعْلِ، وأُضِيفَ إِلَى المَعْمُولِ، نَحْوُ: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، لَأَنَّ أَصْلَهُ: فَاضْرِبُوا الرِّقَابَ ضَرْبًا، فَحُذِفَ الفِعْلُ، وَقُدِّمَ المَصْدَرُ، وَأُنِيبَ مَنَابَ الفِعْلِ، ثُمَّ أُضِيفَ إِلَى المَفْعُولِ، وَفِيهِ اخْتِصَارٌ مَعَ إعطاء معنى التأكيد. وقال القاضي: ﴿أَلَّا تَتَّبِعُوا﴾ أمرٌ بالتَّبَرُّيِّ عن عبادة الغير، كأنه قيل: ترك عبادة غير الله تركاً، بمعنى: الزموا أو اتركوها تركاً (٢).

قوله: (أو هي صلة لـ ﴿نَذِيرٌ﴾): عطف على قوله: «نذير وبشير من جهته»، وعلى الأول: حال، أي: كائنًا من جهته، قال أبو البقاء: «التقدير: نذير كائن منه، فلما قدّمه صار حالاً، ويجوز أن يتعلّق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، أي: نذير من أجل عذابه» (٣).

قوله: (معناه: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة): فعل هذا: ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الحال، كما قال أنفأ: «ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال».

(١) في (ف): «فأثبت»! وهو يقبلُ المعنى.

(٢) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢١٩).

(٣) «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٦٨٩).

أو: اسْتَغْفِرُوا، والاستغفارُ توبة، ثم أَخْلِصُوا التَّوْبَةَ واستقيموا عليها، كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠، والأحقاف: ١٣].

﴿يُمْنِعَكُمْ﴾: يُطَوِّلُ اللهُ نَفْعَكُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَنَافِعَ حَسَنَةٍ مَرْضِيَّةٍ، مِنْ عَيْشَةٍ وَاسِعَةٍ، وَنِعْمَةٍ مُتَّابِعَةٍ، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إِلَى أَنْ يَتَوَفَّاكُمْ، كقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾: وَيُعْطِي فِي الْآخِرَةِ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ فِي الْعَمَلِ وَزِيَادَةٌ فِيهِ جَزَاءً فَضْلِهِ، لَا يَبْخَسُ مِنْهُ، أَوْ: فَضْلَهُ فِي الثَّوَابِ،

قال صاحبُ «الفرائد»: يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ مِمَّا قَدَّمْتُمْ مِنَ الشَّرْكَ، وَالاسْتِغْفَارُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بَعْدَ التَّوْبَةِ، لِأَنَّ الاسْتِغْفَارَ بِالسَّلْسَلَةِ تَوْبَةُ الْكٰذِبِينَ، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أَي: دُومُوا عَلَى التَّوْبَةِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ وَعَدْتُمْ صَلِحًا تَمَّ أَهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وَالتَّرَاخِي فِي الرُّبْتَةِ. قلت: هذا معنى الوجهِ الثاني: «أو اسْتَغْفِرُوا، فَالاسْتِغْفَارُ تَوْبَةٌ، ثُمَّ أَخْلِصُوا التَّوْبَةَ وَاسْتَقِيمُوا عَلَيْهَا»، وَمَعْنَى الاسْتِغْفَارِ: الدَّوَامُ عَلَى التَّوْبَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الاسْتِغْفَارَ عَلَى التَّوْبَةِ أَعْلَى مِنَ التَّوْبَةِ نَفْسِهَا.

وقال القاضي: «﴿ثُمَّ تَوْبُوا﴾»: ثُمَّ تَوَصَّلُوا إِلَى مَطْلُوبِكُمْ بِالتَّوْبَةِ، فَإِنَّ الْمُرِضَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ لَا يَدُّ لَهُ مِنْ رُجُوعٍ، وَقِيلَ: اسْتَغْفِرُوا مِنَ الشَّرْكَ، ثُمَّ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿ثُمَّ﴾ لِتَفَاوُتِ مَا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ»^(١).

قوله: (أو فَضْلَهُ فِي الثَّوَابِ): عَطَفْتُ عَلَى قَوْلِهِ: «جَزَاءً فَضْلِهِ»، فَالْفَضْلُ الْأَوَّلُ بِمَعْنَى الزِّيَادَةِ، قَالَ السَّجَاوَنْدِيُّ: الْفَضْلُ: هُوَ الْعَمَلُ الزَّائِدُ عَلَى الْإِيمَانِ، فَيُقَدَّرُ مُضَافًا فِي الثَّانِي لِيَصِحَّ، وَهُوَ الْجَزَاءُ، لِأَنَّ الْعَمَلَ لَا يُؤْتَى فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ تَمَّ قَالَ: «جَزَاءً فَضْلِهِ»^(٢) عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي، وَهُوَ بِمَعْنَى الثَّوَابِ، مِنَ الْفَضِيلَةِ؛ وَاحِدَةَ الْفَضَائِلِ، فَلَا يُقَدَّرُ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ نَفْسُ

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٢٠).

(٢) من قوله: «فالفضل الأول» إلى هنا، سقط من (ف).

والدرجاتُ تَتَفَاضَلُ فِي الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ تَفَاضُلِ الطَّاعَاتِ، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: وَإِنْ تَوَلَّوْا، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَصِفَ بِالْكِبَرِ كَمَا وَصِفَ بِالْعِظَمِ وَالثَّقَلِ، وَبَيَّنَّ عَذَابَ الْيَوْمِ الْكَبِيرِ بِأَنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى مَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَشَدِّ مَا أَرَادَ مِنْ عَذَابِهِمْ، لَا يُعْجِزُهُ.

وَقُرِئَ: «وَإِنْ تَوَلَّوْا» مِنْ: وَتَى.

[﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْتُونَ يَا بَنِي آدَمَ مَا يَلْمُوكُمْ وَمَا يُعَلِّتُونَ إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ بَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٥]

﴿يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يَزُورُونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَنْحَرِفُونَ عَنْهُ، لِأَنَّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ...

الجزاء، فَكَانَهُ قِيلَ: يُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ ثَوَابَهُ، أَيْ: جَزَاءَ عَمَلِهِ، أَمَا قَوْلُهُ: «وَالدَّرَجَاتُ تَتَفَاضَلُ فِي الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ تَفَاضُلِ الطَّاعَاتِ»، فَتَفْسِيرُهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: فَإِذَا لَمْ يَنْقُصْ مِنَ الْجَزَاءِ شَيْءٌ تَكُونُ دَرَجَةٌ كُلُّ مُكَلَّفٍ بِمَقْدَارِ فَضْلِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَعَلَى الثَّانِي: فَإِذَا أُعْطِيَ كُلُّ أَحَدٍ جَزَاءَهُ يُعَلِّمُ تَفَاوُثَهُ بِتَفَاوُثِ تِلْكَ الطَّاعَاتِ، نَقَلَ مُجْمِعِي السُّنَنِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: «مَنْ كَثُرَتْ طَاعَاتُهُ فِي الدُّنْيَا زَادَتْ دَرَجَاتُهُ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ الدَّرَجَاتِ تَكُونُ بِالْأَعْمَالِ»^(١).

قَوْلُهُ: (وَبَيَّنَّ عَذَابَ الْيَوْمِ الْكَبِيرِ بِأَنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى مَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ): لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ جُمْلَةَ قَوْلِهِ: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بَيَانٌ لِنَفْسِ الْعَذَابِ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ بَيَانٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا الْعَذَابُ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ بَيَانُ شِدَّةِ الْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ الْيَوْمِ الْكَبِيرِ يَوْمَ تَرْجِعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا إِلَى الْقَادِرِ الْعَظِيمِ السُّلْطَانِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، فَأَعْظَمَ بَعْدَ عَذَابِ مُعَذِّبِهِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ.

قَوْلُهُ: (﴿يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يَزُورُونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَنْحَرِفُونَ عَنْهُ): يُرِيدُ: أَنَّ ثَنِي الصُّدُورِ كِنَايَةٌ

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ١٦٠).

اسْتَقْبَلَهُ بِصَدْرِهِ، وَمَنْ اِزْوَرَ عَنْهُ وَاِنْحَرَفَ ثَنِي عَنْهُ صَدْرَهُ، وَطَوَى عَنْهُ كَشَحَهُ، ﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾ يعني: وَيُرِيدُونَ لَيْسَتْخَفُوا مِنْ اللَّهِ، فَلَا يَطَّلِعُ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى اِزْوَارِهِمْ. وَنَظِيرُ اِضْمَارِ «يُرِيدُونَ» لِقَوْدِ الْمَعْنَى إِلَى اِضْمَارِهِ: اِضْمَارُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، مَعْنَاهُ: فَضْرَبَ فَاِنْفَلَقَ.

عن الإعراض والانحراف عن الحق، ثم علل بيان الكناية ولزوم اللفظ هذا المعنى بقوله: «من أقبل على الشيء استقبله بصدرة، ومن ازور عنه ثني عنه صدره».

قوله: (ويريدون ليستخفوا): شبهه بقوله: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] في مجرد إرادة التقدير ليستقيم المعنى، وروي عنه^(١) في الحاشية: «ثني الصدور بمعنى الإعراض إظهاراً للتناق، فلم يصح أن تتعلق به لأم التعليل، فوجب إضمار ما يصح تعلُّقها به من شيء يستوي معه المعنى، فلذلك قدر: وَيُرِيدُونَ لَيْسَتْخَفُوا مِنْ اللَّهِ، أي: يُظهِرُونَ التَّفَاقَ وَيُرِيدُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَخْفُوا، وَكَذَلِكَ ﴿حِينَ يَسْتَعْشُونَ يَا بَهُرُ﴾، مَعْنَاهُ: أَلَا حِينَ يُرِيدُونَ^(٢) إِظْهَارَ نِفَاقِهِمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا هُوَ أَدْلُّ عَلَى نِفَاقِهِمْ مِنْ ثَنِي الصُّدُورِ، وَهُوَ اسْتِعْشَاءُ الشِّيَابِ، يُرِيدُونَ اِلسْتِخْفَاءَ».

قلت: أراد أنه كان يصدّر منهم ثني الصدور واستعشاء الشياب، ويريدون^(٣) استخفاء ما كانوا يضمرونه من التناق، وهاتان الحالتان سببا لإظهار التناق، فلا يصح التعليل بقوله: ﴿لَيْسَتْخَفُوا﴾، فلا بُدَّ من تقدير «يريدون»، لتكون الآية نعيّاً عليهم بسوء صنيعهم وشدة وقاحتهم، أي: أنهم كانوا يفعلون في الحالتين ما به يظهر نفاقهم، وهم مع ذلك يريدون الاستخفاء^(٤).

(١) أي: عن الزمخشري.

(٢) من قوله: «أن يستخفوا وكذلك» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) من قوله: «قلت: أراد أنه» إلى هنا، سقط من (ف).

(٤) في (ف): «كانوا يفعلون في الحالتين الاستخفاء».

ومعنى ﴿الَّذِينَ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ﴾: ويريدون الاستخفاء حين يستعشون نيابهم أيضاً، كراهة لاستماع كلام الله تعالى، كقول نوح عليه السلام: ﴿جَعَلُوا أَصِيعُكُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا نِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يعني: أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مُطَّلِعٌ عَلَى ثَنِيهِمْ صُدُورَهُمْ، واستعشائهم نيابهم، ونفاقهم غير نافي عنه. رُوي أنها نزلت في الأخنس بن شريق، وكان يظهر لرسول الله ﷺ المحبة، وله ..

واللام في «ليستخفوا» صلة «يريدون»^(١)، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، يعضده قوله: «يريدون الاستخفاء» في الكرة الثانية^(٢).

وفي تكرير كلمة التنبية، وإقحامه بين الظرف وعامله: الدلالة على الترقى من حالة إلى أخرى أعجب منها؛ استجهاً لهم، ونظيره إقحام حرف الاستيفام بين المعطوف والمعطوف عليه، والشَّرْطِ والجزاء، كما مرّ مراراً.

قَالَ السَّجَاوَنْدِي: ﴿لَيْسَتْخَفُوا﴾: يَطْلُبُوا الْخَفَاءَ تَكْلُفًا.

قوله: (ونفاقهم غير نافي): تجنيس اشتقائي، ولم يرد بهذا النفاق: ما كان يصدّر من المنافقين؛ لعطف قوله: «وقيل: نزلت في المنافقين» عليه، بل ما كان يصدّر عن بعض المشركين مما يشبه النفاق.

وقال الإمام: «رُوي أنَّ طائفةً من المشركين^(٣) قالوا: إذا أغلقنا أبوابنا، وأرخينا سُورنا،

(١) أي: في قول الزمخشري: «يريدون ليستخفوا».

(٢) هذه الفقرة - من قوله: «واللام» إلى هنا - سقطت من (ف).

والمعنى: أنه وقع في كلام الزمخشري قوله أولاً: «يريدون ليستخفوا»، وثانياً: «يريدون الاستخفاء»، فعَدَى الفعل أولاً باللام، ثم عَدَاهُ بنفسه، فدَلَّ على أن اللام صلة «يريدون».

(٣) في (ف): «المؤمنين»، وهو خطأ فاحش.

مَنْطِقٌ حُلُو، وَحُسْنُ سِيَاقٍ لِلْحَدِيثِ، فَكَانَ يُعَجِّبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَجَالِسَتِهِ وَمُحَادَثَتِهِ، وَهُوَ يُضَمِّرُ خِلَافَ مَا يُظْهِرُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ.

وَقُرِي: «تَثْنُونِي صُدُورَهُمْ»، وَ«اثْنُونِي»: مِنَ الثَّنِي، كِ «احْلُولِي» مِنَ الْحَلَاوَةِ، وَهُوَ بِنَاءُ مُبَالَغَةٍ، قُرِي بِالْتَاءِ وَالْيَاءِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِثْنُونِي صُدُورَهُمْ».

وَقُرِي: «تَثْنُونَ»، وَأَصْلُهُ: تَثْنُونَ؛ تَفْعَوْلٌ، مِنَ الثَّنِّ، وَهُوَ مَا هَسَّ وَضَعُفَ مِنَ الْكَلِّ، يُرِيدُ مُطَاوَعَةَ صُدُورِهِمْ لِالثَّنِي، كَمَا يَتَشَنَّى الْهَشُّ مِنَ النَّبَاتِ، أَوْ أَرَادَ ضَعْفَ إِيمَانِهِمْ وَمَرَضَ قُلُوبِهِمْ.

وَاسْتَعْشَيْنَا ثِيَابَنَا، وَثَيْنَا صُدُورَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَيْفَ يُعَلِّمُ بِنَا؟! وَعَلَى هَذَا كَانَ (١) ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ كِنَايَةً عَنِ التَّفَاقِ، وَقَالَ: «رُوي أَن بَعْضَ الْكُفَّارِ كَانَ إِذَا مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَنَى صَدْرَهُ، وَوَلَّاهُ ظَهْرَهُ، وَاسْتَعْشَى ثِيَابَهُ» (٢)، وَمِنْ ثَمَّ اسْتَشْهَدَ الْمُصَنِّفُ بِمَا كَانَ يَفْعَلُهُ قَوْمٌ نُوْحٌ: ﴿جَعَلُوا أَصْدِعَهُمْ فِي مَا آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ (٣): فَمُشْكِلٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «تَثْنُونِي»): قَالَ ابْنُ جَنِّي: «قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ، وَهُوَ «يَفْعَوْلٌ» مِنْ أَبْنِيَةِ الْمُبَالَغَةِ لِتَكَرُّرِ الْعَيْنِ، كَقَوْلِكَ: أَعْشَبَ الْبَلَدَ، إِذَا كَثُرَ قُلْتُ: أَعْشَوْتُب. وَاسْتَحْلَى، وَإِذَا قَوِيَ قُلْتُ: احْلُولِي» (٤).

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «تَثْنُونَ»): قَالَ ابْنُ جَنِّي: «رُوي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ «تَفْعَوْلٌ»؛ مِنَ الثَّنِّ،

(١) فِي (ح) وَ(ف): «كَانُوا»، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ط)، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِسَاءِ فِي «مِفْتَاحِ الْغَيْبِ» لِلرَّازِي.

(٢) «مِفْتَاحِ الْغَيْبِ» لِلرَّازِي (١٧: ٣١٨).

(٣) أَي: وَالْحَالُ أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ.

(٤) «الْمَحْتَسِبِ» لِابْنِ جَنِّي (١: ٣١٨-٣١٩).

وَقُرِّئَ: «تَثْنَيْنٌ»؛ مِنْ: اثْنَانٍ، أفعالٌ منه، ثم هُمِيز، كما قيل: اِيْبَأَصْتُ وَاِدْهَأَمْتُ، وَقُرِّئَ: «تثنوي»؛ بوزن: تَرَعَوِي.

[«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابِ

مُبِينٍ ﴿٦﴾]

فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ بلفظِ الوجوب، وإنما هو تفضُّل؟.....

وهو ما هَسَّ وَصَعَفَ مِنَ الْكَلَاءِ، أَنْشَدَ أَبُو زَيْدٍ^(١):

يَا أَيُّهَا الْفَصِيلُ الْمَعْنَى إِنَّكَ رِيَّانٌ فَصَمْتُ عَنِّي
يَكْفِي اللَّقُوحَ أَكْلَةً مِنْ ثَنٍّ^(٢)

وأصلها: تَثْنُونِ، فَلَزِمَ الإِدْغَامُ لِتَكَرُّرِ الْعَيْنِ إِذْ كَانَ غَيْرَ مُلْحَقٍ، وَقَالُوا فِي «مُفْعَوْلٍ» مِنْ رَدَدْتُ: مُرْدَوِدٌ، وَأصلها: مُرْدَوِدٌ، فَأَسْكَنْتِ النَّوْنُ الْأُولَى، وَنُقِلَتْ كَسْرُهَا إِلَى الْوَاوِ، وَأُدْغِمَتْ فِي النَّوْنِ^(٣).

قوله: (وَقُرِّئَ: «تَثْنَيْنٌ»): قال ابنُ جِنِّي: «رُوِيَ عَنِ عُرْوَةَ الْأَعَشِيِّ^(٤)»، وَهِيَ «تَفْعَالٌ» مِنْ لَفْظِ الثَّنِّ وَمَعْنَاهُ، وَأصله: تَثْنَانٌ، فَحُرِّكَتِ الْأَلْفُ لِسُكُونِهَا وَسُكُونِ النَّوْنِ الْأُولَى،

(١) يعني: سعيد بن أوس، المتوفى سنة ٢١٥هـ.

(٢) انظر: «المعاني الكبير» لابن قتيبة (١: ٤٠٥) و(٣: ١٢٣٢) كما هنا، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (ثنن) ببعض اختلاف.

(٣) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣١٩ - ٣٢٠).

(٤) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو أيضاً في «المحتسب»، وعروة الأعشى لم أفق له على ترجمة، ولعلَّ صوابه «عروة والأعشى»، وعروة: هو عروة بنُ مُحَمَّدِ الْأَسَدِيِّ الْكُوفِيِّ، عَرَضَ الْقُرْآنَ عَلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبَّاسٍ - وَهُوَ شُعْبَةُ صَاحِبُ عَاصِمٍ -، وَهُوَ أَحَدُ الَّذِينَ عَرَضُوا عَلَيْهِ. أَمَّا الْأَعَشِيُّ: فَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَلِيفَةَ، أَبُو يَوْسُفَ الْأَعَشِيُّ التَّمِيمِيُّ الْكُوفِيُّ، أَخَذَ الْقِرَاءَةَ عَرَضاً عَنْ أَبِي بَكْرٍ شُعْبَةَ، وَهُوَ أَجَلُ أَصْحَابِهِ، تُوِّفِيَ فِي حُدُودِ الْمُتَيْنِ. انظر: «غاية النهاية» لابن الجزري (١: ٤٥٤).

قلت: هو تَفَضُّلٌ إلا أنه لَمَّا ضَمِنَ أن يَتَفَضَّلَ به عليهم، رَجَعَ التَفَضُّلُ واجباً، كَتُدْوِيرِ العِبَادِ. و«المُسْتَقَرَّر»: مكانه مِنَ الأَرْضِ وَمَسْكَنُهُ، و«المُسْتَوْدَعُ»: حيثُ كَانَ مَوْدَعاً قَبْلَ الاستِقْرَارِ؛ مِنْ صُلْبٍ أَوْ رَحِمٍ أَوْ بَيْضَةٍ، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الدَّوَابِّ وَرِزْقُهَا وَمُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا فِي اللُّوْحِ، يعني: ذِكْرُهَا مَكْتُوبٌ فِيهِ مُبِينٌ.

[﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ آبَتَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [٧]

فانْقَلَبَتْ هَمْزَةٌ، نَحْوُ: ابْيَاضٌ وَاِبْيَاضٌ، والمعنى: كما أَنَّ الثَّنَّ سَرِيعٌ إِلَى طَالِيهِ غَيْرُ مُعْتَاصٍ عَلَى آكِلِهِ، كَذَلِكَ صُدُورُهُمْ مُجِيبَةٌ لَهُمْ إِلَى أَنْ يَشُوهُوا، لَيْسَتْ خَفُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

قوله: (هو تَفَضُّلٌ إلا أنه لَمَّا ضَمِنَ أن يَتَفَضَّلَ [به] عليهم، رَجَعَ التَفَضُّلُ واجباً، كَتُدْوِيرِ العِبَادِ): قال الإمام: «وَجَبَّ عَلَى اللَّهِ الرِّزْقُ بِحَسَبِ الوَعْدِ وَالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ»^(٢)، فلا يَكُونُ كالتُدْوِيرِ، وقال القاضي: «﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾: غِذَاؤُهَا وَمَعَاشُهَا؛ لِتَكْفِيلِهِ إِيَّاهُ تَفَضُّلاً وَرَحْمَةً، وَإِنَّمَا أَتَى بِلَفْظِ الوَجُوبِ تَحْقِيقاً لَوُضُوعِهِ، وَحَمَلاً عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ»^(٣).

وقلت: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كالتسميم لمعنى وُجُوبِ تَكْفُلِ الرِّزْقِ، كَمَنْ أَقْرَبَ شَيْءٍ فِي ذِمَّتِهِ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَيْهِ صَكَأً.

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٣١٩-٣٢٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٧: ٣١٨).

(٣) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٢١).

وقال الإمام ابن المنير في «الانتصاف» (٢: ٢٥٩) بحاشية «الكشاف»: «كُلٌّ ما يُسَدِّدُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ رِزْقٍ لِبَهِيمَةٍ أَوْ مُكَلَّفٍ فِي الدُّنْيَا أَوْ ثَوَابٍ فِي الآخِرَةِ، فَذَلِكَ كُلُّهُ فَضْلٌ، وَلَا وَاجِبٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ وَرَدَ بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّيغَةِ فَمَحْمُولٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا وَعَدَهُمْ فَضْلَهُ، وَوَعَدَهُ خَبْرٌ، وَخَبْرُهُ صِدْقٌ، وَجَبَّ وَقَوْعُ المَوْعُودِ، أَي: يَسْتَحِيلُ فِي العَقْلِ أَنْ لَا يَقَعَ لِلزُّومِ الخَلْفِ فِي خَبَرِ الصَّادِقِ، فَعَبَّرَ عَنِ ذَلِكَ بِمَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ وَجُوبِ التَّكْلِيفِ، وَبَيْنَهُمَا هَذَا الفَرْقُ المَذْكُورُ».

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السماوات والأرض وارتفاعه فوقها إلا الماء، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض. وقيل: وكان الماء على متن الرياح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله مُمِسِكُ كُلِّ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ، وكُلَّمَا ازْدَادَتِ الْأَجْرَامُ كَانَتْ أَحْوَجَ إِلَيْهِ وَإِلَى إِسْكَاهِ.

﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَقَهُنَّ لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وَيُنْعِمَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِفُنُونِ النِّعَمِ، وَيُكَلِّفُهُمُ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابَ الْمَعَاصِي، فَمَنْ شَكَرَ وَأَطَاعَ أَثَابَهُ، وَمَنْ كَفَرَ وَعَصَى عَاقَبَهُ، وَلَمَّا أَشْبَهَ ذَلِكَ اخْتِبَارَ الْمُخْتَبِرِ قَالَ: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾، يُرِيدُ: لِيَفْعَلَ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ الْمُبْتَلَى لِأَحْوَالِكُمْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟

قوله: (أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السماوات والأرض): يُرِيدُ: أَنْ مَعْنَى الاسْتِعْلَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾ لَيْسَ اسْتِعْلَاءً تَمَكُّنًا وَاسْتِقْرَارًا، بَلْ اسْتِعْلَاءٌ الْفَوْقِيَّةُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ، وَكَذَا الْمَاءُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَرَفَعَ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الْأَرْضِ، رَوَى الْإِمَامُ عَنِ الْأَصَمِّ^(١) هَذَا الْوَجْهَ^(٢).

وقال القاضي: «﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ معناه: لم يكن حائل بينهما، لأنه كان موضوعاً على متن الماء، واستدلَّ به على إمكان الخلاء»^(٣).

قوله: (ولمَّا أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾): أَرَادَ أَنْ التَّرْكِيبَ مِنْ

(١) هو الإمام المحدث مُسْنِدُ عَضْرَةَ وَرُحْلَةَ وَقْتِهِ، أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ يُوْسُفَ الْأُمَوِيِّ مَوْلَاهُمْ السَّنَائِيُّ الْمَعْلِيُّ النِّيسَابُورِيُّ الْأَصَمِّ (٢٤٧ - ٣٤٦)، رَاوَى كِتَابَ «الْأَمِّ» لِلشَّافِعِيِّ عَنِ الرَّبِيعِ، وَجَمِيعُ مَا حَدَّثَ بِهِ إِنَّمَا رَوَاهُ مِنْ لَفْظِهِ، فَإِنَّ الصَّمَمَ لِحَقِّهِ وَهُوَ شَابَ لَهُ بَضْعٌ وَعَشْرُونَ سَنَةً. «سير أعلام النبلاء» (١٥: ٤٥٢-٤٦٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٧: ٣١٩).

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٢١).

فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قلت: لِمَا في الاختبارِ من معنى العلم، لأنه طريقٌ إليه، فهو ملائِسٌ له، كما تقول: انظر أيُّهم أحسنُ وجهاً، واسمع أيُّهم أحسنُ صوتاً، لأنَّ النَّظَرَ والاستماعَ من طريق العلم.

الاستعارة التَّبَعِيَّةُ الواقعةُ على طريقة التمثيل، شُبِّهَ حالُ المُكَلَّفِ المُمَكِّنِ المُخْتَارِ مَعَ تَعَلُّقِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَفْعَالِهِ، بِحَالِ المُخْتَبَرِ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ لِحَالِ المُشَبَّهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ مَوْضِعَ «لِيَعْلَمَ»، وَجُعِلَ قَرِينَةُ الاستِعَارَةِ عِلْمَ الْعَالَمِ الْخَيْرِ بِمَا ظَهَرَ وَمَا بَطَّنَ، وَسِجِيءٌ تَمَامُ تَقْرِيرِهِ فِي «الْمَلِكِ»^(١).

قوله: (لِمَا في الاختبارِ مِنْ معنى العلم): قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيْبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْمَلِكِ فِي تَظْيِيرِهِ^(٢): أَنَّهُ لَيْسَ بِتَعَلِيْقِ.

قلت: وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا التَّعَلِيْقُ أَنْ تُوقَعَ بَعْدَهُ مَا يَسُدُّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ جَمِيعاً، كَقَوْلِكَ: عَلِمْتُ أَيُّهُمَا عَمَرُوا، وَعَلِمْتُ أَزِيدٌ^(٣) مُنْطَلِقٌ»، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ مِنْ شَرْطِ التَّعَلِيْقِ أَنْ لَا يُذَكَّرَ شَيْءٌ مِنْ الْمَفْعُولَيْنِ قَبْلَ الْجُمْلَةِ، وَهَاهُنَا سَبَقَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ، فَلَا يَكُونُ تَعَلِيْقاً.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: الْمُرَادُ بِالتَّعَلِيْقِ هَاهُنَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ سَبَبٌ لِمَا عَلَّقَ عَلَيْهِ الاستِفْهَامَ^(٤)، وَهُوَ الْعِلْمُ، وَقَدْ اكْتَفَى بِالسَّبَبِ - وَهُوَ الْإِبْتِلَاءُ - عَنِ الْمُسَبَّبِ - وَهُوَ الْعِلْمُ -، وَعَكْسُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذىٌ مِنْ رَأْسِهِ - فَعِدْيَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، أَيْ: فَحَلَقَ فَعَلِيهِ فِدْيَةً، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «لأنه طريقٌ إليه، كما أنَّ النَّظَرَ وَالسَّمْعَ طَرِيقَانِ إِلَيْهِ»، فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: لِيَبْلُوَكُمْ فَيَعْلَمَ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. هَذَا تَقْدِيرُ الرَّجَاحِ فِي سُورَةِ الْمَلِكِ^(٥).

يُؤَيِّدُهُ أَنَّ الْمُصَنِّفَ شَبَّهَ مَا فِي الْفُرْقَانِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾

(١) (١٥: ٥٣٠) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢ مِنْهَا.

(٢) أَيْ: فِي تَظْيِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

(٣) فِي (ح): «أَنْ زَيْدًا»، وَالْمُبْتَدَأُ مِنْ (ط) وَ(ف)، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي «الْكَشَافِ».

(٤) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيَّةِ: «عَمَلُهُ بِالِاسْتِفْهَامِ»، وَأَظْهَرَ تَحْرِيقًا عَمَّا اثْبَتَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٥) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلرَّجَاحِ (٥: ١٩٧).

فإن قلت: كيف قيل: ﴿أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قلت: الذين هم أحسن عملاً هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو عرض الله من عباده، فخصّهم بالذكر، واطرح ذكر من وراءهم تشریفاً لهم، وتنبهاً على مكانهم منه،

أَتَصْبِرُونَ ﴿ [الفرقان: ٢٠] بهذه الآية، وكتب في الحواشي^(١): «أَنَّ تَعَلَّقَ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ بقوله: ﴿فِتْنَةً﴾ تَعَلَّقَ ﴿أَيْكُمْ﴾ بقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾، والمعنى: وجعلنا بعضكم لبعض فتنة لنعلم أيكم أحسن صبراً، كما ابتليناكم لنعلم أيكم أحسن عملاً»، ولا بُدَّ أن يُحمَل قوله قُبِيلَ هذا: «ليفعل بكم ما يفعل المبني لأحوالكم كيف تعملون» على هذا، ويُقدَّرُ «ليعلم كيف تعملون»^(٢)، فيكون قرينة لهذا المقدَّر.

وأما في سورة الملك: فهو محمولٌ على التَّضمين حيث قال: «تَضَمَّنَ معنى العلم، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً»، وبين التَّضمين والتقدير بون، ولا يُعَدُّ حمل الكلام الواحد على الوجهين المختلفين باعتبارين للفتن.

قوله: (إلى تحصيل ما هو عرض الله من عباده): مذهبه^(٣)، وعندنا: على التمثيل، وحاصل الجواب: أن قوله: ﴿أَيْكُمْ﴾ وإن كان عاماً لفظاً، لكن المراد منه المتقون؛ تشریفاً لهم. قال السجاوندي: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ إشارة إلى أنه خلق الخلق ليظهر إحسان المحسن، كذا في «الإيجاز»^(٤)، فعلى هذا لا بُدَّ أن يُحمَل «أفعل» على الزيادة المطلقة، وسيجيء تقريره في سورة الزمر، المعنى: ليبلوكم أيكم أحسن عمله.

(١) أي: في حواشي «الكشاف» نفسه، والمؤلف ينقل عن الزمخشري من حواشي الكتاب في مواضع.

(٢) قوله: «على هذا ويُقدَّرُ ليعلم كيف تعلمون» سقط من (ف).

(٣) يعني: قول المعتزلة بأن أفعال الله تعالى تُعلَّل بالأغراض والدواعي، أما أهل السنة: فيزُهون الله تعالى عن أن يكون شيء من أفعاله مُعللاً بعرض، لكيال إرادته سبحانه وتعالى، على أن له في أفعاله حكمة، جَلَّ جلاله، وتقدَّست أسماؤه وصفاته.

(٤) في (ح): «كذا في الإيجاز»، والمُثبت من (ط) و(ف). والمراد «إيجاز البيان» لأبي القاسم النيسابوري، وانظر

وليكونَ ذلكَ لُطْفًا لِلسَّامِعِينَ، وَتَرْغِيبًا فِي حِيَازَةِ فَضْلِهِمْ. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا، وَأَوْرَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ».

قُرِي: «وَلَيْتَنُ قُلْتَ أَنْكُمْ مَبْعُوثُونَ»؛ بَفَتْحِ الهمزة، وَوَجْهَهُ: أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ائْتِ السُّوقَ عَنَّاكَ تَشْتَرِي لَنَا لَحْمًا، وَأَنْتَ تَشْتَرِي؛ بِمَعْنَى: عَلَّكَ، أَي: وَلَيْتَنُ قُلْتَ ...

قال القاضي: «وإنما ذكر صيغة التفضيل، والاختبار شامل، ليُفَرِّقَ الْمُكَلِّفِينَ بِاعْتِبَارِ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، لِلتَّحْرِيزِ عَلَى أَحْسَنِ الْمَحَاسِنِ، وَالتَّخْضِيزِ عَلَى التَّرَقُّيِّ دَائِمًا فِي مَرَاتِبِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْعَمَلِ: مَا يُعْمَلُ الْقَلْبَ وَالْجَوَارِحَ، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا، وَأَوْرَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ»^(١)، وَالْمَعْنَى: أَيُّكُمْ أَكْمَلُ عِلْمًا وَعَمَلًا»^(٢).

قوله: (قُرِي: «وَلَيْتَنُ قُلْتَ أَنْكُمْ مَبْعُوثُونَ»؛ بَفَتْحِ الهمزة): قيل: هِيَ قِرَاءَةُ الْأَعْمَشِ^(٣)، وَلَمَّا أَنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يُؤْتَى بَعْدَ الْقَوْلِ: «إِنَّ» بِالْكَسْرِ، فَلَمَّا جَاءَ بِالْفَتْحِ، أَوَّلَهُ تَارَةً بِمَعْنَى: «لَعَلَّ»،

(١) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وعنه رواه الطبري في «تفسيره» (١٢: ١٠)، والحرث بن أبي أسامة في «مسنده». قال الحافظ الزيلعي: «رأيت في حاشية عليه بخط بعض الفضلاء: قال عبد الغني: قال الدارقطني: كتاب «العقل» وَصَّعَهُ أَرْبَعَةَ وَصَّعَهُ مَيْسَرَةٌ بِنُ عَبْدِ رَبِّهِ، ثُمَّ سَرَفَهُ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّرِ مِنْهُ، فَرَكَّبَهُ بِأَسَانِيدٍ غَيْرِ مَيْسَرَةٍ، وَسَرَفَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ أَبِي زَبَاءٍ، فَرَكَّبَهُ بِأَسَانِيدٍ أُخْرَى، ثُمَّ سَرَفَهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَيْسَى السَّجْزِيُّ، وَرَكَّبَهُ بِأَسَانِيدٍ أُخْرَى». ورواه ابن مردويه في «تفسيره» من وجه آخر، وفي إسناده سليمان بن عيسى المذكور، كما في «تخريج الأحاديث الواقعة في الكشاف» للزيلعي (٢: ١٤٥ - ١٤٦).

وانظر: «تنزيه الشريعة المرفوعة» لابن عراقي (١: ٢١٧)، حيث أوردته ضمن «أحاديث في العقل»، أخرجها داود بن المحبر في كتاب «العقل» ومن طريقه الحرث بن أبي أسامة في «مسنده»، وكلُّها موضوعة، كما قاله الحافظ ابن حجر في (المطالب العالية).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٢٢).

(٣) ونسبها الدمياطي في «إنحاف فضلاء البشر» ص ٢٥٥ إلى المطوعي، يعني: أبا العباس الحسن بن سعيد المتوفى سنة ٣٧١، كما في «سير أعلام النبلاء» (١٦: ٢٦٠).

هم: لَعَلَّكُمْ مَبْعُوثُونَ - بمعنى: تَوَقَّعُوا بَعْثَكُمْ وَظُنُّوهُ وَلَا تَبْتُوا الْقَوْلَ بِإِنْكَارِهِ - لقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بآتين القول ببطلانه. ويجوز أن تُضْمَنَ ﴿قُلْتَ﴾ معنى: ذَكَرْتَ.

ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: أَنَّ السَّحْرَ أَمْرٌ بَاطِلٌ، وَأَنَّ بَطْلَانَهُ كَبُطْلَانِ السَّحْرِ، تَشْبِيهًا لَهُ بِهِ، أَوْ أَشَارُوا بِهِ ﴿هَذَا﴾ إِلَى الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ النَّاطِقُ بِالْبَعْثِ، فَإِذَا جَعَلُوهُ سِحْرًا فَقَدْ انْدَرَجَ تَحْتَهُ إِنْكَارُ مَا فِيهِ مِنَ الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ.

كما نَقَلَهُ عَنْ سَيِّبِيهِ (١)، وَأُخْرَى أَنَّ «الْقَوْلَ» مُضْمَنٌ مَعْنَى: الذِّكْرُ.

قوله: (تَوَقَّعُوا بَعْثَكُمْ وَظُنُّوهُ): فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا مُخَالَفٌ لِمَعْنَى الْمَشْهُورَةِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ الْقَطْعُ وَالْبَتُّ بِالْبَعْثِ، وَعَلَيْهِ الْمَعْنَى؟ قُلْتَ: يُحْمَلُ عَلَى الْكَلَامِ الْمُنْصِفِ وَالِاسْتِدْرَاجِ، أَيْ: تَفَكَّرُوا فِيهِ وَلَا تَبْتُوا الْقَوْلَ بِبَطْلَانِهِ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَكَّرْتُمْ عَثَرْتُمْ عَلَى الْجِزْمِ بِوُقُوعِهِ، وَهُوَ أَدْعَى لِلْخِصْمِ (٢).

قوله: (ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾): يُرِيدُ: أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ غَيْرُ مُطَابِقٍ ظَاهِرًا لِقَوْلِ الرَّسُولِ: ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾، لَكِنْ يُرِيدُ بِهِ زُبْدَتَهُ وَخُلَاصَتَهُ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ كَبُطْلَانِ السَّحْرِ، فَيَكُونُ كِنَايَةً عَنِ الْبَاطِلِ.

قوله: (أو أشاروا بـ ﴿هَذَا﴾ إلى القرآن): فَالْجَوَابُ - عَلَى هَذَا - مُحْتَوٍ عَلَى الدَّلِيلِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا أَنْكَرُوا الْقُرْآنَ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَغَيْرِهِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ إِنْكَارُ هَذَا الْمَعْنَى بِالْوَجْهِ الْبُرْهَانِيِّ، وَهُوَ مِنَ الْكِنَايَةِ الْإِبْيَاطِيَّةِ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا: وَلِئِنْ تَلَوْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ إِثْبَاتُ الْبَعْثِ لَيَقُولُنَّ: مَا هَذَا الْمَتَلُوُّ إِلَّا بَاطِلٌ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لَأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ النَّاطِقُ بِالْبَعْثِ».

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَلَعَلَّ صَوَابَهُ: «كَمَا نُقِلَ عَنْ سَيِّبِيهِ»، وَعَلَى كُلِّ فَالْقَوْلُ بَانَ «أَنَّ» تَرَدُّ بِمَعْنَى «لَعَلَّ»: هُوَ قَوْلُ الْخَلِيلِ، وَرَجَّحَهُ الرَّجَّاجُ، وَرَدَّهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ. انظر تفصيل ذلك في «مغني اللبيب» (١: ٢٥١).

(٢) فِي (ح): «وَهُوَ أَدْعَى لِلْخِصْمِ»، وَالثَّبْتُ مِنْ (ط)، وَفِي (ف): «فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَكَّرْتُمْ عَرَفْتُمْ»، وَليْسَ فِيهَا مَا بَعْدَهُ.

وَقُرِي: «إِنَّ هَذَا إِلا سَاحِرٌ مَبِينٌ»، يُرِيدُونَ الرَسُولَ، وَالسَّاحِرُ كَاذِبٌ مُبْطِلٌ.
 ﴿وَلَيْنَ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ
 لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٨]

﴿الْعَذَابَ﴾: عَذَابُ الآخِرَةِ، وَقِيلَ: عَذَابُ يَوْمِ بَدْرٍ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَتَلَ جَبْرِيلُ
 الْمُسْتَهْزِئِينَ، ﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾: إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾: مَا يَمْنَعُهُ مِنَ النَّزُولِ؛
 اسْتَعْجَالاً لَهُ عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالاسْتَهْزَاءِ، وَ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ مَنْصُوبٌ بِخَبَرِ
 ﴿لَيْسَ﴾، وَيَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يَسْتَجِيزُ تَقْدِيمَ خَبَرِ «لَيْسَ» عَلَى «لَيْسَ»، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا جَازَ
 تَقْدِيمُ مَعْمُولٍ خَبَرِهَا عَلَيْهَا، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ تَقْدِيمِ خَبَرِهَا؛ إِذِ الْمَعْمُولُ
 تَابِعٌ لِلْعَامِلِ، فَلَا يَقَعُ إِلا حَيْثُ يَقَعُ الْعَامِلُ.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: وَأَحَاطَ بِهِمْ، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا
 بِهِ يَسْتَعْجِلُونَ، وَإِنَّمَا وَضَعَ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ مَوْضِعَ «يَسْتَعْجِلُونَ»، لِأَنَّ اسْتَعْجَالَهُمْ
 كَانَ عَلَى جِهَةِ الاسْتَهْزَاءِ، وَالْمَعْنَى: وَيَحِيقُ بِهِمْ، إِلا أَنَّهُ جَاءَ عَلَى عَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَخْبَارِهِ.
 [﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ * كَفُورًا *.....

قوله: (وَقُرِي: «إِنَّ هَذَا إِلا سَاحِرٌ»): حمزة والكسائي^(١).

قوله: (قَتَلَ جَبْرِيلُ الْمُسْتَهْزِئِينَ): وهم الذين جَاءَ فِي شَأْنِهِمْ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾
 [الحجر: ٩٥]، رَوَى الْمُصَنِّفُ^(٢) عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: وَهُمْ خَمْسَةٌ نَفَرُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَاتُوا
 كُلُّهُمْ قَبْلَ يَوْمِ بَدْرٍ، قَالَ جَبْرِيلُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَكْفِيَكُمْهُمْ» إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ^(٣).

(١) انظر: «التيسير» لأبي عمرو الداني ص ١٠١، و«حجة القراءات» ص ٢٣٩.

(٢) في تفسير الآية المذكورة من سورة الحجر (٩: ٦٦).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٩٨٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨: ٩).

وَلَيْنَ أَذْقَنُهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ *
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٩-١١﴾

﴿الْإِنْسَانَ﴾ لِلْجِنْسِ، ﴿رَحْمَةً﴾: نِعْمَةٌ مِنْ صِحَّةٍ وَأَمْنٍ وَجِدَّةٍ، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثُمَّ سَلَبْنَا تِلْكَ النِّعْمَةَ، ﴿إِنَّهُ﴾ شَدِيدُ الْيَأْسِ مِنْ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ مِثْلُ تِلْكَ النِّعْمَةِ الْمَسْلُوبَةِ، قَاطِعٌ رَجَاءَهُ مِنْ سَعَةِ فَضْلِ اللَّهِ، مِنْ غَيْرِ صَبْرٍ وَلَا تَسْلِيمٍ لِقَضَائِهِ وَلَا اسْتِرْجَاعِ، ﴿لَيْتَوْسُ كَفُورٌ﴾: عَظِيمُ الْكُفْرَانِ لِمَا سَلَفَ لَهُ مِنَ التَّقَلُّبِ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ، نَسَاءً لَهُ.
﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أَي: الْمَصَائِبُ الَّتِي سَاءَتْ تَنِي، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾: أَشْرَبُ بِطَيْرٍ، ﴿فَخُورٌ﴾ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَذَاقَهُ اللَّهُ مِنْ نِعْمَاتِهِ، قَدْ سَعَّلَهُ الْفَرَحُ وَالْفَخْرُ عَنِ الشُّكْرِ.

قوله: (وَأَمْنٍ وَجِدَّةٍ): وَأَنْشِد:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ
مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ (١)

الجوهري: «وَجَدَ فِي الْمَالِ وَجْدًا - بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَالْكَسْرِ - وَجِدَةٌ؛ أَي: اسْتَعْنَى.
وَأَوْجَدَهُ؛ أَي: أَغْنَاهُ (٢)».

قوله: (قَاطِعٌ رَجَاءَهُ مِنْ سَعَةِ فَضْلِ اللَّهِ، مِنْ غَيْرِ صَبْرٍ): وَذَلِكَ أَنَّ الصَّابِرَ: مَنْ يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَلَى التَّسْلِيمِ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى رَاجِيًا فَضْلَ اللَّهِ، وَالْأَيْسَ: قَاطِعٌ رَجَاءَهُ قَلْبٌ مُضْطَرِبٌ، لَا يَثْبُتُ عَلَى مَا نَالَهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ.

قوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ أَشْرَبُ بِطَيْرٍ، الرَّاعِبُ: «الْفَرَحُ: انْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِلَذَّةٍ عَاجِلَةٍ، وَأَكْثَرُ

(١) البيهقي لأبي العتاهية، من أرجوزته المسماة «ذات الحكيم والأمثال»، وقد أورد طائفة منها الأصفهاني في «الأغاني» (٤: ٤٠)، وقال: إنها «من بدائع أبي العتاهية، ويُقال: إن له فيها أربعة آلاف...، وهي طويلة جداً»، وروى الأصفهاني في «الأغاني» أيضاً (٤: ٢٢) عن إبراهيم بن أبي شيخ: قلت لأبي العتاهية: أي شعر قلته أحكم؟ فذكر هذا البيت.

(٢) في الأصول الخطية: «استغناه»، والمثبت من «الصحيح» (وجد).

﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ آمنوا، فَإِنَّ عَادَتَهُمْ إِنْ نَالَتْهُمْ رَحْمَةٌ أَنْ يَشْكُرُوا، وَإِنْ زَالَتْ عَنْهُمْ نِعْمَةٌ أَنْ يَصْبِرُوا.

ما يكون في اللذات البدنية الدنيوية، فهذا قال: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقال: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦]، ولم يُرخص الفرح إلا في قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرَّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤] (١).

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ آمنوا، فَإِنَّ عَادَتَهُمْ إِنْ نَالَتْهُمْ رَحْمَةٌ أَنْ يَشْكُرُوا، وَإِنْ زَالَتْ عَنْهُمْ نِعْمَةٌ أَنْ يَصْبِرُوا: تفسير لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال القاضي: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الصَّراء إيماناً بالله، واستسلاً ما لِقَضَائِهِ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكراً لآلائه سابقها ولا حِقْهَا (٢).

وقلت: قد دَلَّ عطفُ قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على ﴿صَبَرُوا﴾ على أن المراد بالصبر: الإيابة؛ لأنها ضميمته، ودَلَّ الصَّبْرُ على أن المراد بالأعمال الصالحات: الشُّكر؛ لأنه قريته، على ما روي: «الإيابة نصفان: نصف صبر، ونصف شكر» (٣)، ولأن الاستثناء من الكلام السابق يقتضيه، لأنَّ المصنّف حمل الاستثناء على الاتّصال، يعني: شأن الإنسان وموجب جبّلته: أنه إذا أصاب الصَّراء بعد السَّراء لم يصبر - وإليه الإشارة بقوله: «من غير

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٢٨.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيابة» (٩٧١٥)، وحمزة بن يوسف السهمي في «تاريخ جرجان» ص ٤١٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي إسناده يزيد الرقاشي، وهو شديد الضعف في الرواية على صلاحه وتعبه. وأخرج الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٤)، والحاكم في «المستدرک» (٢: ٤٤٧)، والبيهقي في «الشَّعب» (٤٨) و(٩٧١٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: «الصبر نصف الإيابة»، وقال البيهقي: «وقد روي هذا من وجه آخر غير قوي مرفوعاً».

وهذا المرفوع أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥: ٣٤)، والبيهقي في «الشَّعب» (٩٧١٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٥٨)، وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٤٨: ١): «ولا يثبت رفعه».

[فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾]

كانوا يقتصر حُجُوجَ عَلَيْهِ آيَاتٍ تَعْتَنَّا لَا اسْتِرْشَادًا، لأنهم لو كانوا مُسْتَرشِدِينَ لكانت آيَةٌ واحدةٌ مما جاء به كافيَةٌ في رِشَادِهِمْ، ومن اقْتِرَاحَاتِهِمْ: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾، وكانوا لا يَعْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ، وَيَتَهَاوَنُونَ بِهِ وَبِغَيْرِهِ مِمَّا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، ..

صَبْرٌ وَلَا تَسْلِيمٌ - ، وإذا انقَلَبَتِ هَذِهِ الْحَالَةُ لَمْ يَشْكُرْ - وهو المرادُ من قوله: «سَعَلَهُ الْفَرْحُ وَالْفَخْرُ عَنِ الشُّكْرِ» - ، ثم اسْتَبْنَيْ مِنَ الْعَامِّ: الْمُؤْمِنُونَ، وإنما وضع ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مَوْضِعَ (١) «المؤمنين» كِنَايَةً لِيُصَرِّحَ بِهَذَا الْمَعْنَى.

وأشار (٢) إليه في «لُقْمَانَ» في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]: كانه قيل: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ مُؤْمِنٍ.

قال الإمام: «إذا حُمِلَ «الإنسان» على الجنس يُحْمَلُ الاستِثْنَاءُ على الاتصال، على منوالِ قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٢ - ٣]، وإذا حُمِلَ على الكافر كان الاستِثْنَاءُ مَنْقُطِعاً، كانه قيل: مِنْ ذِيْدِيْنَ الْكَافِرِيْنَ وَعَادِيْتِهِمْ أَنْ لَا يَصْبِرُوا عَلَى الصَّوْرَةِ، وَلَا يَشْكُرُوا عَلَى السَّرِّاءِ، ولكن عادة المؤمنين الصبر والشكر (٣). والأول هو الوجه.

قوله: (كانوا يقتصر حُجُوجَ عَلَيْهِ)، الجوهرية: «اقتَرَحْتُ عَلَيْهِ سَيِّئًا: إِذَا سَأَلْتَهُ إِيَّاهُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ».

قوله: (ويتهاونون به وبما جاء به من البيِّنات): وفي نُسخة: «وبغير ما جاء به» (٤)، والأول أظهر.

(١) من قوله: «المؤمنون، وإنما وضع» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) أي: الزمخشري رحمه الله في تفسير الآية المذكورة من سورة لقمان (١٢: ٣١٦).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٧: ٣٢١ - ٣٢٢).

(٤) كذا في الأصول الخطية، ولذا استشكلها المؤلف رحمه الله تعالى، وفي النسخة التي بين أيدينا من «الكشاف»: «وبغيره مما جاء به»، ولا إشكال فيها.

فكان يضيِّقُ صدرُ رسولِ الله ﷺ أن يُلقِيَ إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرَّكَ اللهُ منه وهيجَهُ لأداءِ الرسالةِ وطرحِ المبالاةِ برَدِّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي: لعلَّكَ تتركُ أن تُلقِيَهم، وتُبلِّغَهُ إياهم؛ مخافةً رَدِّهم له وتهاوؤهم به، ﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ﴾ بأن تتلوهُ عليهم، ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ مخافةً أن يقولوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي: هَلَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ما اقترَحْنَا نحنُ مِنَ الكَنْزِ والملائكةِ، ولَسَمَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ما لا تُريدُهُ ولا نَقْتَرِحُهُ.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليسَ عليك إلا أن تُنذِرَهُم بما أُوحيَ إليك،

قوله: (فحرَّكَ اللهُ منه): كقوله: هَزَّ مِنْ عِطْفِهِ^(١)، وَحَرَكَ مِنْ نَشَاطِهِ. و«من» للتبعيض، يعني: أنه صلواتُ الله عليه كان مُؤدِّياً لرسالاتِ رَبِّه، لكن فِرَضَ أنه قد يتهاوَنُ ويتركُ بعضَ ما يُوحى إليه، فحرَّكَ بعضَهُ ليقومَ بكُلِّيَّتِهِ بأداءِ الرسالةِ، ويَطرحُ المبالاةَ برَدِّهم واستهزائهم، وتَمَمَهُ بقوله: «وهيجَهُ»، وذلك أن قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ وعيدٌ عظيمٌ وتهديدٌ شديدٌ، نحوه قوله تعالى: ﴿يَلْغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، أي: وإن تركتَ شيئاً من ذلك فقد ارتكبتَ أمراً عظيماً وخطباً خطيراً.

وفي معنى التوقُّع^(٢) الذي يُعطيه «لعلَّ» أيضاً تهديدٌ، يعني: إن تركَ بعضَ ما يُوحى إليه مما ليسَ من شأنه، ولا ينبغي ولا يستقيمُ أن يكون، ولا يتصوَّرُ ذلك إلا على سبيلِ الفِرَضِ لا على سبيلِ القطعِ، ومن ثمَّ ناسبَه بناءُ «ضائقُ» دونَ «ضيقُ» - كما قال - : «لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ ضَيْقٌ عَارِضٌ غَيْرٌ ثَابِتٌ».

(١) قال الزمخشريُّ في «أساسِ البلاغة»، مادة (هزز): «ومن المجاز: هو يهتَزُّ للمعروف، وهزَزْتُهُ وهزَزْتُ منه، وقد هَزَّ عِطْفِيهِ لكذا، وهَزَّ مَنَكِبِيهِ»، أي: بمعنى الاستبشارِ بالشيءِ والسُرورِ به.

(٢) قال العلامةُ الإمامُ ابنُ الحَاجِبِ رحمه اللهُ تعالى في «الأمالي النحوية» (١: ١٠٢): «الفاظُ التوقُّعِ إذا وَرَدَتْ من اللهُ تعالى فهي محمولَةٌ على التوقُّعِ من المُخاطَبِ، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [طه: ٤٤]، بمعنى: اذهبوا على توقُّعِكما ذلك، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ بمعنى: أن التوقُّعَ منك للتتركِ حاصلٌ لأجلِ هذه العِلَّةِ والتعنتِ المذكورِ، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾».

وَتُبَلِّغُهُمْ مَا أُمِرْتَ بِتَبْلِيغِهِ، وَلَا عَلَيْكَ رَدُّوْا أَوْ تَهَاوَنُوا أَوْ اقْتَرَحُوا، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظُ ما يقولون، وهو فاعلٌ بهم ما يجبُ أن يفعل، فتوكَّل عليه، وكلُّ أمرِكَ إليه، وعليكَ بتبليغ الوحي بقلبٍ فسيح، وصدْرٍ مُنْشَرِح، غيرَ مُلتصِفِ إلى استِكْبَارِهِمْ، وَلَا مُبَالٍ بِسَفْهِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ.

فإن قلت: لِمَ عدَل عن «صَيِّقٍ» إلى «ضائقٍ»؟ قلت: لِيَدُلَّ على أنه صَيِّقٌ عارضٌ غيرُ ثابت، لأنَّ رسولَ الله ﷺ كان أفسَحَ الناسِ صدراً. ومثله قولك: زيدٌ سيِّدٌ وجواد، تُريدُ السِّيَادَةَ وَالْجُودَ الثَابِتَيْنِ الْمُسْتَقَرَّيْنِ، فإذا أردتَ الحدوثَ قلت: سائدٌ وجائد، ونحوه: «كانوا قوماً عامين» في بعض القراءات [الأعراف: ٦٤]، وقول السَّمْهَرِيِّ الْعُكْبِيِّ:

بِمَنْزِلَةٍ أَمَا اللَّثِيمُ فَسَامِنٌ بها وكرامُ الناسِ بادٍ شُحُوبُهَا

[﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٣]

﴿أَمْ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾ لِمَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ، تَحَدَّاهُمْ أَوْلاً بِعَشْرِ سُورٍ، ثُمَّ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ،

قوله: (بِمَنْزِلَةٍ أَمَا اللَّثِيمُ) البيت: «سامن»^(١): أي: سمين، والمراد: حدوثُ السَّمَنِ، وَالشُّحُوبُ: تَغْيِيرُ اللَّوْنِ مِنْ غَمٍّ أَوْ سَقَمٍ، وَالشُّحُوبُ: الْهُزَالُ أَيْضاً.

قوله: (تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة): كذا عن القاضي^(٢). وقال الإمام: «التَّحَدِّيُّ بِعَشْرِ سُورٍ»^(٣) لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَابِقاً عَلَى التَّحَدِّيِّ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَتَى بِالْمَثَالِ

(١) ويروى: «أما اللثيم فسامت»، كما في «الأغاني» (١٠: ٢٤٥).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٢٤).

(٣) من قوله: «ثم بسورة واحدة» إلى هنا، سقط من (ف).

الذي ذكره المصنّف، وقال: «التَّحْدِي بالسُّورَةِ الْوَاحِدَةِ وَرَدَ فِي الْبَقْرَةِ وَيُونُسَ^(١)، والدليل الذي ذَكَرْنَاهُ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ هُوَذَا مُتَقَدِّمَةً فِي النُّزُولِ عَلَى يُونُسَ وَالْبَقْرَةَ»^(٢).

وقال محيي السُّنَّة: «أُنْكَرَ الْمُبْرَدُ هَذَا، وَقَالَ: بَلْ نَزَلَتْ سُورَةُ يُونُسَ أَوْلَى، وَقَالَ: مَعْنَى قَوْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿فَأَتَوْا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]: فِي الْخَبَرِ عَنِ الْعَيْبِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَعَجَزُوا، فَقَالَ لَهُمْ فِي هُودٍ: إِنْ عَجَزْتُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَأَتَوْا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مِنْ غَيْرِ خَبَرٍ وَلَا وَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ مَجْرَدُ الْبَلَاغَةِ»^(٣).

وقلتُ - والعلمُ عندَ الله - : والذي يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ أَنَّ التِّي فِي الْبَقْرَةِ وَيُونُسَ وَارِدَةٌ بَعْدَ إِقَامَةِ الْبُرْهَانِ عَلَى إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَإِبْطَالِ الشَّرْكِ، فَالْوَاجِبُ بَعْدَ ذَلِكَ إِقَامَةُ الْبُرْهَانِ عَلَى إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا تَثْبُتُ النُّبُوَّةُ إِلَّا بِإِظْهَارِ الْمُعْجِزَةِ، وَهِيَ التَّحْدِي بِسُورَةٍ فَدَّةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا حَدُّ الْمُحَقِّقُونَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ: هُوَ الْكَلَامُ الْمُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْإِعْجَازِ بِسُورَةٍ مِنْهُ. وَمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ وَارِدٌ فِي تَعْنِتِ الْكُفْرَةِ وَاقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ عِنَادًا وَاسْتِهْزَاءً، كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ: «وَكَانُوا لَا يَعْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ وَيَتَهَاوَنُونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَا اقْتَرَحْنَا نَحْنُ، وَلَمْ أُنزَلْ مَا لَا تُرِيدُهُ؟!»، بَلْ هُوَ لَيْسَ بِآيَةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ افْتِرَائِكَ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكَانَ يَضِيقُ لَذَلِكَ صَدْرَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لِمَا ذَكَرَ قَوْلَهُ: ﴿وَصَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ سَلَاةٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ:

(١) فِي الْآيَةِ ٢٣ مِنْ سُورَةِ الْبَقْرَةِ، وَالْآيَةِ ٣٨ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ.

(٢) «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ» (١٧: ٣٢٥).

(٣) «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغْوِيِّ (٤: ١٦٥).

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولمَّا أُضْرِبَ عن ذلك الاقتراح، وحكى نوعاً آخرَ من قبائحهم أعظمَ من ذلك، وهو طَعْنُهُم في القرآن، بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ﴾، أمرَ حَبِيه صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وسلامُهُ بأن يُجِيبَ عنه بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ على مُقْتَضَى سؤَالِهِم، وهو كَالقَوْلِ بِالْمُوجِبِ^(١)، يعني: هَبُوا أَنَّهُ كَمَا تَزْعُمُونَ مُفْتَرِيٌّ، فَأْتُوا أَنْتُمْ بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ، أَي: مَا أَقُولُ لَكُمْ فَأْتُوا بِمِثْلِهِ كُلِّهِ، لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ مِنْ جِهَةِ المعاني والألفاظِ والإخبارِ عن المُغَيَّبَاتِ والقَصَصِ والأحكامِ والأخلاقِ وغيرِ ذلك، بل نُبْدَأُ مِنْهُ جَامِعاً لِهَذِهِ المعاني، ولم يكن فيه تناقض.

واعلم أَنَّ المرادَ بِتَخْصِيصِ^(٢) العَدَدِ إِيثارُ طريقِ القَصْدِ، وما به تختلفُ المعاني، كما يُوجَدُ في الكلامِ المبسوطِ الذي له ذُيُوْلٌ وتمميات، وذلك لِدَفْعِ الافتراءِ ونفيِ التُّهْمَةِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِهِ^(٣)، يعني: لو كَانَ مُفْتَرِيٌّ مِنْ عِنْدِي لَوَجَدْتُمْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً، وَهَذَا لَا يَتِمُّ بِسُورَةٍ فَدَّةٍ، كسورةِ الكَوَافِرِ والإخْلاصِ وَأَشْبَاهِهِمَا، كما يَتِمُّ في التَّحْدِيهِ المُجَرَّدِ إِبْطَاتِ النُّبُوَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجُدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢].

قَالَ المُصَنِّفُ^(٤): «تَدَبَّرُ الْقُرْآنَ: تَأَمَّلْ معانيه وَتَبَصَّرْ ما فِيهِ، ﴿لَوْجُدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً﴾^(٥)، أَي: لَكَانَ الكَثِيرُ مِنْهُ مُتَنَاقِضاً، قَدْ تَفَاوَتَ نَظْمُهُ وَبَلَاغَتُهُ وَمَعَانِيهِ، فَكَانَ

(١) سيأتي التعريفُ به عند تفسير الآية ١١ من سورة إبراهيم عليه السلام ص ٥٦٤ تعليقا.

(٢) في (ح) و(ف): «والحاصل أن المراد»، والمثبت من (ط)، وتحرّفت لفظة «بتخصيص» في (ح) إلى: «بتحصيل».

(٣) أي: لا من عند غير النبي ﷺ، وفي (ف): «لا من عند غيره»، أي: لا من عند غير الله تعالى.

(٤) في تفسير الآية المذكورة من سورة النساء (٥: ٨٣).

(٥) من قوله: «قال المصنف» إلى هنا، سقط من (ف).

بعضه بالغاً حدَّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يُمكنُ مُعارضته^(١)، وبعضه إخباراً بغيَّبٍ قد وافق المُخبِرَ عنه، وبعضه مُحالِفاً، وبعضه دالّاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه بخلافه، فلما^(٢) تجاوبَ كُلُّه بلاغةً مُعجزةً فائتةً لقوى البُلغاء، وتناصَرَ صِحَّةَ معانٍ وصِدقَ إخبار، عُلِمَ أنه ليس إلا من عند قادرٍ يَقْدِرُ على ما لا يَقْدِرُ عليه غيره، عالمٍ بما لا يَعْلَمُه أحدٌ سِواه.

وقلت: ومن ثمَّ عَقَبَه بقوله: ﴿فَكَيْلٌ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وأما بيان ارتباطِ قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالفاءِ بها قبله: فإنه تعالى لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَدْبِيرِ الْمَلِكِ ابْتِلَاءُ النَّاسِ، بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولا ارتباطَ أَنَّ الابتلاءَ إنما يكونُ بالأعمالِ صالحِها وسَيِّئِها، ثمَّ لا بُدَّ مِنَ الجزاءِ، ولا يكونُ ذلكَ إلا بعدَ البعثِ، كما سبقَ غيرَ مرَّةٍ، قالَ حبيبُه صلواتُ الله عليه: إذا بَيَّنَّتِ الأُمْرَ على هذه القاعدة، وقُلَّتْ لهؤلاءِ المُعاندين: إنكم مَبْعُوثُونَ من بعدِ الموتِ للجزاءِ كَذَّبُوكَ أبلغَ تكذيبِ، وإذا أوعَدْتهم على التَّكْذِيبِ بِنُزُولِ العذابِ العاجِلِ اسْتَعْجَلُوهُ وقالوا: ما يَحْبِسُهُ؟ اسْتَهْزَأُوا وَسُخِّرِيه، وإن أتيتَ بآيةٍ بَيِّنَةٍ وَمُعْجِزَةٍ قَاهِرَةٍ على صِدْقِ دَعْوَاكَ تَارَةً اقْتَرَحُوا آيَاتٍ أُخْرَى تَمْرُدًا، وأخرى قالوا: افتراه؛ عِنَادًا.

ثم إنك - أيها المتأمل - إذا أمعنت النظر، وجدت هذه السورة الكريمة إلى خاتمتها مؤسَّسةً على تسليِّ الحبيب، ودفعِ نسبةِ الافتراءِ مِنَ التنزيلِ، ألا ترى حينَ شرَعِ في قصَّةِ نُوحٍ

(١) قوله: «وبعضه قاصراً عنه يُمكنُ مُعارضته» سقط من (ح).

(٢) في (ج): «فلا»، وفي (ف): «فلم»، والمُتَّبِثُ من (ط).

كما يقول المَخَايِرُ في الخَطِّ لِصَاحِبِهِ: اكَتُبْ عَشْرَةَ أُسْطُرٍ نَحْوَ مَا أَكْتُبُ، فإذا تَبَيَّنَ له العَجْزُ عن مِثْلِ خَطِّهِ قال: قد اِقْتَصَرْتُ مِنْكَ على سَطْرٍ واحدٍ، ﴿مِثْلِهِ﴾ بمعنى: أمثاله، ذهاباً إلى مُمَثِّلَةٍ كُلِّ واحدٍ منها له، ﴿مُفْتَرِيَّتٍ﴾ صفةٌ لـ«عَشْرِ سُورٍ».

لَمَّا قالوا: افْتَرَيْتَ الْقُرْآنَ واختَلَقْتَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِكَ،

عليه السَّلَام، وَقَبْلَ أَنْ يَسْبُرْ دَها، كَيْفَ أتَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ عاطِفاً على مِثْلِها بعدَ الكلام الطويل^(١)، ولهذا ذهب مُقاتِلٌ إلى أنها في مُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللهُ عليه، وإن تَوَسَّطَتْ بَيْنَ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلَام، ولَمَّا اسْتَوَفَى حَقَّها جاء بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهاً إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذا﴾ [هود: ٤٩] مَزِيداً لِلتَّسْلِي، وحينَ خَتَمَ السُّورَةَ الكريمةَ جِيءَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُنشِئُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هَذاهُ الْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠] إلى قولِهِ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا على مَكانَتِكُمْ﴾ [هود: ١٢١]، واللهُ يَقولُ الْحَقُّ وهو يَهْدِي السَّبِيلَ.

قوله: (كما يقول المَخَايِرُ في الخَطِّ): المَخَايِرُ: مَنْ يَقولُ لِصَاحِبِهِ: خَطِّي خَيْرٌ مِنْ خَطِّكَ، اكَتُبْ مِثْلَ خَطِّي لِنَظَرِ أَيِّ خَطِّينَا خَيْرٍ. الأساس: «خَيْرُهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَتَخَيَّرَ، وَخايِرُهُ في الخَطِّ، وَتخايروا في الخَطِّ وَغَيرِهِ إلى حَكم، وَخايِرْتُهُ فَخَيرْتُهُ، أَي: كَتَبْتُ خَيراً مِنْهُ».

قوله: (ذهاباً إلى مُمَثِّلَةٍ): مَفْعولٌ له، يعني: وَضَعَ اللهُ تَعالَى ﴿مِثْلِهِ﴾ مَوْضِعَ «أمثاله»، لِيَدُلَّ على اِعْتِبارِ أَفرادِ المَعْدودِ واحِداً واحِداً، وإليه الإِشارةُ بِقَوْلِهِ: «إلى مُمَثِّلَةٍ كُلِّ واحدٍ منها له»، أَي: لِلْقُرْآنِ.

(١) يُريدُ: أَنَّ قولَهُ تَعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ وَرَدَّ في هَذِهِ السُّورَةِ في مَوْضِعَيْنِ: أولُهما: هَذَا المَوْضِعُ، وهو الآية ١٣ من السُّورَةِ، وثانيهما: في أَثناءِ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلَام - وقد بدأت بالآية ٢٥ وانتهت بالآية ٤٨ من السُّورَةِ -، وهو الآية ٣٥ منها.

وليس من عند الله، قاوَدَهُمْ على دَعْوَاهُمْ، وأرْحَى معهم العِنان، وقال: هَبُوا أَنِي
اِخْتَلَقْتُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي، ولم يُوحِ إِلَيَّ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قُلْتُمْ، فأتوا أَنْتُمْ أيضاً بكلامٍ مثله
مُخْتَلَقٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، فَأَنْتُمْ عَرَبٌ فُصْحَاءُ مِثْلِي، لا تَعَجِزُونَ عَن مِثْلِ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ
مِنَ الْكَلَامِ. فَإِن قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ مَا يَأْتُونَ بِهِ مِثْلَهُ، وما يَأْتُونَ بِهِ مُفْتَرَى، وهذا غَيْرُ
مُفْتَرَى؟ قُلْتَ: معناه: مثله في حُسْنِ الْبَيَانِ وَالنَّظْمِ، وَإِن كَانَ مُفْتَرَى.

[فَإِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾]

فإن قلت: ما وَجَهُ جَمْعِ الْخِطَابِ بَعْدَ إِفْرَادِهِ، وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾ بعد
قوله: ﴿قُلْ﴾؟ قلت: معناه: فإن لم يَسْتَجِيبُوا لَكَ ولِلْمُؤْمِنِينَ، لأنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ
وَالْمُؤْمِنِينَ كانوا يَتَحَدَّثُونَهم، وقد قالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾
[القصص: ٥٠]، ويجوزُ أن يكونَ الجَمْعُ لَتَعْظِيمِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، كقوله:

فَإِن شِئْتُ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ

وَوَجْهُ آخَرَ: وهو أن يكونَ الْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالضَّمِيرُ في ﴿فَإِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾
لِـ ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [هود: ١٣]، يعني: فإن لم يَسْتَجِبْ لَكُمْ مَنْ تَدْعُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى
الْمُظَاهَرَةِ عَلَى الْمَعَارِضَةِ، لِيَعْلِمَهُم بِالْعَجْزِ عَنْهُ، وَأَنَّ طاقَتَهُمْ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تَبْلُغَهُ، ﴿فَاعْلَمُوا﴾
أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، أي: أُنزِلَ مُلْتَبَساً بِمَا لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ مِنْ نَظْمٍ مُعْجِزٍ لِلخَلْقِ، وإِخْبَارٍ
بِغُيُوبٍ لا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ، وَاَعْلَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وَحْدَهُ، وَأَنَّ تَوْحِيدَهُ
وَاجِبٌ، وَالإِشْرَاكُ بِهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: مُبَايِعُونَ بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ ...

قوله: (قاوَدَهُمْ على دَعْوَاهُمْ) هو مِنَ المَقْوَدِ، وهو الحَبْلُ يُشَدُّ فِي الزَّمامِ، أو اللَّجَامُ تُقَادُ

به الدَابَّةُ.

هذه الحجّة القاطعة. وهذا وَجْهٌ حَسَنٌ مُطَرِّدٌ.

وَمَنْ جَعَلَ الْخِطَابَ لِلْمُسْلِمِينَ فَمَعْنَاهُ: فَاثْبُتُوا عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ،
وازدادوا يقيناً وثباتاً قَدِمَ عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَعَلَى التَّوْحِيدِ.
ومعنى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فهل أنتم مُخْلِصُونَ.

قوله: (وهذا وَجْهٌ حَسَنٌ مُطَرِّدٌ): أي: الكلامُ معه مُلْتَمِسٌ آخِذٌ بَعْضُهُ عَلَى حُجْزَةٍ
بعض^(١)، والضمائرُ مُتَّحِدَةٌ لِمُخَاطَبِ وَاحِدٍ، بِخِلَافِهِ إِذَا جُعِلَ الْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَيْفَ
يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ لِلْمُسْلِمِينَ.

وقلت: وَمُطَرِّدٌ مَعْنَى؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَاعَلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ مُرْتَبٌ عَلَى السَّابِقِ بِالْفَاءِ،
وَارِدٌ فِي تَقْرِيرِ مَا سَبَقَ لَهُ الْكَلَامُ مِنْ نَفْيِ الْإِفْتِرَاءِ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا اخْتَلَقَهُ مِنْ عِنْدِ
نَفْسِهِ^(٢)، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «وَعَلِمُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ
تَوْحِيدَهُ وَاجِبٌ، وَالْإِشْرَاقَ بِهِ ظُلْمٌ»، وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ ثُبُوتِهِ، كَمَا فِي الْبَقْرَةِ^(٣).

ومعنى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فهل أنتم مُدْعِنُونَ وَمُسْلِمُونَ أَنَّ الَّذِي جَاءَ
بِهِ مُحَمَّدٌ لَيْسَ بِمُفْتَرِيٍّ، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَهُ مُلْتَمِسًا بِعِلْمِهِ، فَلَا اخْتِلَافَ
فِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فَإِنَّ
الْمُنْصِيفَ إِذَا تَجَلَّتْ لَهُ الْحُجَّةُ لَمْ يَتَوَقَّفْ إِذْعَانَهُ.

(١) الْحُجْزَةُ: مَوْضِعُ شَدِّ الْإِزَارِ، ثُمَّ قِيلَ لِلْإِزَارِ: «حُجْزَةٌ» لِلْمُجَاوِرَةِ، وَاحْتَجَزَ بِالْإِزَارِ: إِذَا شَدَّهُ عَلَى
وَسَطِهِ، ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِلتَّلْتِجَاءِ وَالْإِعْتِصَامِ وَالتَّمَسُّكِ بِالشَّيْءِ وَالتَّلَعُّقِ بِهِ. «لسان العرب» لابن منظور،
مادة (حجز).

(٢) قوله: «وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا اخْتَلَقَهُ»: هَكَذَا وَرَدَ فِي (ط) وَ(ف)، فَيَكُونُ مَعْطُوفًا عَطْفًا تَفْسِيرِيًّا عَلَى
قَوْلِهِ: «نَفْيِ الْإِفْتِرَاءِ»، أَي: سَبَقَ الْكَلَامُ لِنَفْيِ الْإِفْتِرَاءِ وَإِثْبَاتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا اخْتَلَقَهُ. وَفِي (ح):
«مِنْ نَفْيِ الْإِفْتِرَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اخْتَلَقَهُ»، وَوَجْهُهُ: أَنَّ جُمْلَةَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ» بَيَانٌ لِلْإِفْتِرَاءِ الْمُنْفِيِّ.

(٣) أَي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

[﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَهَا نُوْفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥-١٦]

﴿نُوفِ إِلَيْهِمْ﴾: نُوصِلُ إِلَيْهِمْ أَجُورَ أَعْمَالِهِمْ وَافِيَةً كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ بَخْسٍ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ مَا يُرْزَقُونَ فِيهَا مِنَ الصَّحَّةِ وَالرِّزْقِ، وَقِيلَ: هُمْ أَهْلُ الرِّيَاءِ، يُقَالُ لِلْقُرَاءِ مِنْهُمْ: أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ قَارِي، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَصَلِ الرَّحِمَ وَتَصَدَّقَ: فَعَلْتَ حَتَّى يُقَالَ، فَقِيلَ، وَلَمْ يَنْقَلِ فَقِيلَ: قَاتَلْتَ حَتَّى يُقَالَ: فَلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ.

وعن أنس بن مالك: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، إِنْ أَعْطُوا سَائِلًا، أَوْ وَصَلُوا رَجِيمًا، عَجَّلَ لَهُمْ جَزَاءَ ذَلِكَ بِتَوْسِعَةٍ فِي الرِّزْقِ، وَصِحَّةٍ فِي الْبَدَنِ.

وقيل: هُمُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَسْهَمَ لَهُمْ فِي الْغَنَائِمِ. وَقُرِي: «يُوفُّ» بِالْبَاءِ؛ عَلَى أَنْ الْفِعْلَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَ«تُوفُّ» إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ» بِالتَّاءِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: «تُوفِي» بِالتَّخْفِيفِ وَإِثْبَاتِ الْيَاءِ، لِأَنَّ الشَّرْطَ وَقَعَ مَاضِيًا، كَقَوْلِهِ:

يقول: لا غائبٌ مالي ولا حرمٌ

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وَحَبِطَ فِي الْآخِرَةِ مَا صَنَعُوهُ، أَوْ: صَنِعُوهُمْ،

قوله: (أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ قَارِي، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ) إِلَى آخِرِهِ: الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا مُقْتَبَسَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ الْمَخْرَجِ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، وَ«سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» وَالنَّسَائِيِّ (١).

(١) مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧). ولم يُخْرِجْهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» (٢٣٨٢)، كُلُّهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: لم يكن له ثواب، لأنهم لم يُريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وُفِّيَ إليهم ما أرادوا، ﴿وَبَطِّلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كانَ عَمَلُهُمْ فِي نَفْسِهِ بَاطِلًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ لَوَجْهِ صَاحِبِ، وَالْعَمَلُ الْبَاطِلُ لَا ثَوَابَ لَهُ.

وَقُرِّي: «وَبَطَّلَ» عَلَى الْفِعْلِ، وَعَنْ عَاصِمٍ: «وَبَاطِلًا» بِالنَّضْبِ، وَفِيهِ وَجْهَانُ: أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾ إِهَامِيَّةً، وَيَنْتَضِبُ بِ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وَمَعْنَاهُ: وَبَاطِلًا أَيَّ بَاطِلٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَأَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، عَلَى: وَبَطَّلَ بَطْلَانًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

[﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٧].

قوله: ﴿وَبَطِّلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كَانَ عَمَلُهُمْ فِي نَفْسِهِ بَاطِلًا: قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «بَاطِلٌ: خَبِيرٌ مُّقَدَّمٌ، وَ﴿مَا كَانُوا﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالْعَائِدُ مَحذُوفٌ، أَي: يَعْمَلُونَهُ»^(١).

قوله: (وعن عاصم: «وباطلاً»): وَهِيَ شَاذَةٌ، قَالَ ابْنُ جِنِّي: «قَرَأَهَا أَبِي وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَهُوَ مَعْمُولٌ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وَ﴿مَا﴾ زَائِدَةٌ لِلتَّوَكِيدِ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ جَوَازِ تَقْدِيمِ خَبِيرِ «كَانَ» عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَجُوزُ وَقَوْعُ الْمَعْمُولِ بِحَيْثُ يَجُوزُ وَقَوْعُ الْعَامِلِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: وَيَعْمَلُونَ بَاطِلًا كَانُوا، وَمِثْلُهُ: ﴿أَهْوَلَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبا: ٤٠]، ﴿إِيَّاكُمْ﴾ مَعْمُولٌ ﴿يَعْبُدُونَ﴾، وَقَدْ اسْتَدَلَّ أَبُو عَلِيٍّ^(٢) بِهِ عَلَى التَّقْدِيمِ^(٣).

وقال القاضي: «(وباطلاً) إذا كان مصدرًا كان مثل قوله:

(١) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ٦٩١).

(٢) يعني: الفارسي، المتوفى سنة ٣٧٧، رحمه الله تعالى.

(٣) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٢٠-٣٢١).

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ معناه: أَمَّنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ، أي: لا يَعْقُبُونَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ، وَلَا يُقَارِبُونَهُمْ، يُرِيدُ: أَنْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ تَفَاوُتًا بَعِيدًا، وَتَبَايُنًا بَيِّنًا، وَأَرَادَ بِهِمْ مَنْ آمَنَ مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ، ﴿ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي: عَلَىٰ بُرْهَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَبَيَانٍ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ حَقٌّ، وَهُوَ دَلِيلُ الْعَقْلِ.

ولا خارجاً من في زور كلام (١) (٢).

قوله: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ معناه: أَمَّنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ: يعني: قوله: «فَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ» عَطَفَ بِحَرْفِ التَّعْقِيبِ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾، وَدَخَلَتِ الْهَمْزَةُ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ لِمَزِيدِ الْإِنْكَارِ، وَأَنَّ هَذَا التَّعْقِيبَ مُنْكَرٌ، يعني: أَيُثْبِتُ فِي الْعُقُولِ، وَيَحْصُلُ فِي الْوُجُودِ، مِثْلُ هَذَا التَّعْقِيبِ؟ أَمْ كَيْفَ يُقَالُ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، إِلَىٰ آخِرِهِ؟! أي: لَا يَحْصُلُ وَلَا يُذَكَّرُ، كَمَا قَالَ: «لَا يَعْقُبُونَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ وَلَا يُقَارِبُونَهُمْ»، هَذَا أُبْلَغُ مِنْ لَوْ جِيءَ بِكَلِمَةِ التَّشْبِيهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨].

(١) قاله الفَرَزْدَقُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ حِينَ تَعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَعَاهَدَ اللَّهَ أَلَّا يَكْذِبَ وَلَا يَشْتُمَ مُسْلِمًا، كَمَا فِي «الْكَامِلِ» لِلْمُبَرِّدِ (١: ١٠٢)، وَقَبْلَهُ:

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي وَإِنْسِي لَبَّيْنِ رِتَاجٍ قَائِمًا وَمَقَامِ
عَلَىٰ حَلْفَةٍ لَا أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِمًا وَلَا خَارِجًا مِنْ فِئِي زَوْرُ كَلَامِ

وموضع الشاهد فيه في قوله: «ولا خارجاً»، أراد: «ولا خروجاً»، فأتى بالمصدر على وزن اسم الفاعل، وَنَصَبَهُ عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطَّلَقٌ أَوْ عَلَىٰ الْحَالِ. انظر: «الجملة في النحو» للخليل بن أحمد الفراهيدي ص ٩٦، و«الكتاب» لسيبويه (١: ٣٤٦)، و«المقتضب» للمبرِّد (٣: ٢٦٩) و(٤: ٣١٣)، و«المفصل» للزمخشري ص ٦٢ و ٢٢٠، و«مغني اللبيب» لابن هشام (١: ٤٠٥) رقم (٦٤٥).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٢٦).

﴿وَيَتْلُوهُ﴾: وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ الْبُرْهَانَ ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: شَاهِدٌ يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، ﴿مِّنْهُ﴾: مِنْ اللَّهِ، أَوْ شَاهِدٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ آيْئاً، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾: وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ، ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾ وَهُوَ التَّوْرَةُ، أَي: وَيَتْلُو ذَلِكَ الْبُرْهَانَ أَيْضاً مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى.....

قوله: ﴿﴿وَيَتْلُوهُ﴾﴾ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ الْبُرْهَانَ: يعني: ذَكَرَ الضَّمِيرَ فِي «يَتْلُوهُ»، وَهُوَ دَلِيلُ النَّقْلِ بِاعْتِبَارِ مَعْنَى الْبُرْهَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْتَقِ مِنْ رَبِّهِ﴾، فَسَاعَدَ الْعَقْلُ النَّقْلَ. قوله: (أَوْ شَاهِدٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ): يعني: الضَّمِيرُ فِي «مِّنْهُ﴾: إِمَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ بِشَهَادَةِ ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾، وَالشَّاهِدُ: الْقُرْآنُ، وَ«مِنْ» ابْتِدَاءً. أَوْ لِلْقُرْآنِ، وَ«مِنْ» بَيَانٌ، وَالشَّاهِدُ أَيْضاً الْقُرْآنُ^(١) عَلَى سَبِيلِ التَّجْرِيدِ^(٢)، جَرَّدَ مِنَ الْقُرْآنِ الدَّلَائِلَ الْقَاطِعَةَ وَالْبَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ عَلَى كَوْنِ دِينِ الْإِسْلَامِ حَقًّا، وَجَعَلَهَا شَاهِدَةً، وَهِيَ هِيَ^(٣).

رَوَى مُحَمَّدِي السُّنَّةِ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ^(٤): «هُوَ الْقُرْآنُ وَنَظْمُهُ وَإِعْجَازُهُ»^(٥).

أَمَّا قَوْلُهُ: «فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ آيْئاً»: فَفِيهِ إِرْشَادٌ إِلَى مَعْرِفَةِ اسْتِنْبَاطِ النَّظْمِ، وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّهُ تَعَالَى

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «وَمِنْ» ابْتِدَاءً إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) تَكَرَّرَ ذِكْرُ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَصْطَلَحِ «التَّجْرِيدِ» فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ مِنْ مَبَاحِثِ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ، وَانظُرْ فِي بَيَانِهِ مَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْآيَةِ ١٤ مِنْ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ (١٤: ٢٤٧) وَالتَّعْلِيقَ عَلَيْهِ.

(٣) وَوَهَمَ الْعَلَامَةُ الْأَلُوسِيُّ فِي «رُوحِ الْمَعَانِي» (١٢: ٢٧) الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقَوْلِ بِالتَّجْرِيدِ هُنَا، فَانظُرْهُ.

(٤) تَحَرَّفَ فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةَ إِلَى: «الْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ»، وَصَوَّبْتُهُ مِنْ «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ.

وَالْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ: هُوَ الْعَلَامَةُ الْمَفْسَّرُ الْإِمَامُ اللَّغَوِيُّ الْمُحَدِّثُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ عُمَيْرِ الْبَجَلِيِّ الْكُوفِيِّ، ثُمَّ النِّسَابُورِيُّ (١٨٠-٢٨٤هـ)، قَالَ فِيهِ الْحَاكِمُ: إِمَامٌ عَضَّرَهُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَرَوَى الْحَاكِمُ أَيْضاً عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُضَارِبٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ عَلِمَ الْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ بِالْمَعَانِي لِإِهَامِهَا مِنَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ تَجَاوَزَ حَدَّ التَّعْلِيمِ. «سِيرَ أَعْلَامِ النِّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (١٣: ٤١٤-٤١٦).

(٥) «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ (٤: ١٦٧).

وَقُرئ: «كِتَابَ مُوسَى» بالنَّصْب، ومعناه: كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وهو الدليلُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ شَاهِدٌ.....

لَهَا سَلَى^(١) رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا نُوحِيَ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ﴾ - مِنْ اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَاقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ، وَطَعْنِهِمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ مُفْتَرَى، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنْ كَانَ مُفْتَرَى فَهَاتُوا أَنْتُمْ عَشْرَ سُورٍ مُفْتَرِيَاتٍ مِثْلِهِ، وَحِينَ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، أَيْ: مُلْتَبِسًا بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ نَظْمٍ مُعْجَزٍ وَإِخْبَارٍ بَغُيُوبٍ، وَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ ذَلِكَ الطَّعْنَ لَمْ يَكُنْ مِنْ خِبْرَةٍ وَتَمْيِيزٍ، بَلْ مِنْ جَهْلِ وَحُبِّ الشَّهَوَاتِ وَالرُّكُوفِ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّهُمْ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا، بِخِلَافِ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ، وَهُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى - قَالَ^(٢): ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الْآيَةُ [هُود: ١٥]، وَعَقَّبَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ الْآيَةُ.

قوله: (ومعناه: كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وهو الدليلُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ): يعني: عَلَى قِرَاءَةِ النَّصْبِ يَكُونُ «كِتَابَ مُوسَى» مَعْطُوفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي «يَتْلُوهُ»، وَهُوَ ضَمِيرُ «الْقُرْآنِ»، وَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ «يَتْلُوهُ»: التَّلَاوَةُ لَا غَيْرَ، وَمِنْ «الْبَيِّنَةُ»: الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَيَبَيِّنُهُ: أَنَّهُ تَعَالَى عَقَبَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ قَوْلَهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، وَالْمُرَادُ مِنْهُمْ: الْمُتَعَتِّتُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَرِحُونَ الْآيَاتِ، وَلَا يَعْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ، وَيَتَهَاوَنُونَ بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَيْسَتَوِي مَنْ جَاءَهُ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِ وَلَمْ يَعْتَدَّ بِهَا لِأَنَّهُ مَالٌ^(٣) إِلَى الْأَرْضِ وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا وَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ: اعْتَدَّ بِالْقُرْآنِ وَبِالدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ، ثُمَّ اشْتَغَلَ بِتَلَاوَتِهِ، وَكَانَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ يَقْرَأُ التَّوْرَةَ.

(١) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «يَصِلِي»، وَالْمُنْبِتُ مِنْ (ط).

(٢) قَوْلُهُ: «قَالَ»: هُوَ جَوَابٌ لِمَا فِي قَوْلِهِ: «إِنَّهُ تَعَالَى لِمَا سَلَى...».

(٣) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «مَلِكٌ»، وَالْمُنْبِتُ مِنْ (ط) وَ(ف).

مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ، كقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ، كِتَابُ مُوسَى﴾ ویتلوه من قبل القرآن التوراة ﴿إِمَامًا﴾: كتاباً مؤتمماً به في الدين قُدوةً فيه، ﴿وَرَحْمَةً﴾: ونعمة عظيمة على المنزل إليهم.....

و«من» في ﴿وَمِنْهُ﴾ على هذا: تبعية، يدلُّ عليه قوله: «شاهدٌ ممن كان على بيته»، والمرادُ منه: عبدُ الله بنُ سلام، و«من» في ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾: هو وأصحابه ممن كانوا على معرفةٍ من صدقِ نبوةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، والدليلُ على أنَّ المرادُ بـ«الشاهد» عبدُ الله: عطفُ «كتابِ موسى» على الضمير المنصوب في «يتلوه»، لأنَّ التالِيَّ للكتابين^(١) حينئذٍ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وعلى الأول: الشاهد: هو القرآن، والقريئة المُقيدة: النظم، على ما سبق بيانه. ومن أراد تقييدهَ بغيرهما فعليه الدليلُ من الخارج؛ لِمَا لَيْسَ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

قوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]: استيْهَادٌ لِتَعَاوُدِ الْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ، فَإِنَّ شَهَادَةَ اللَّهِ هُنَاكَ^(٢): كَالْبَيِّنَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ فِي إِظْهَارِ الدَّلِيلِ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ مِنْ تَأْلِيفِهِ عَلَى النَّظْمِ الْمُعْجِزِ الْفَائِتِ لِقَوْلِي الْبَشَرِ، وَ«مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»: كَالشَّاهِدِ هَاهُنَا، لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، لِأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ بِصِحَّتِهِ.

قوله: ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتمماً به): قَالَ الرَّجَاجُ: «أَي: وَمِنْ قَبْلِ هَذَا كِتَابُ مُوسَى دَلِيلًا عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَصَبُ إِمَامًا عَلَى الْحَالِ؛ لِأَنَّ كِتَابَ مُوسَى عِلْمٌ مَعْرُوفٌ»^(٣).

(١) في (ط): «لأنَّ التالين للكتاب»، والمثبت من (ج) و(ف).

(٢) أي: في آية سورة الرعد.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٤٤).

﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: أَهْلَ مَكَّةَ وَمَنْ ضَامَهُمْ مِنَ الْمُتَحْزِبِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ﴿فَأَلْتَارُ مَوْعِدَهُ﴾، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، وَقُرِئَ: «مُرِيَةٌ» بضم الميم، وهما الشك، ﴿مِنَهُ﴾: مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنَ الْمَوْعِدِ.

[﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ ١٨-٢٢]

﴿يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾: يُجَبِّسُونَ فِي الْمَوْقِفِ، وَتُعْرَضُ أَعْمَالُهُمْ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ ﴿الْأَشْهَادُ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ بِأَنَّهُمُ الْكَذَّابُونَ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ اتَّخَذَ وَلَدًا وَشَرِيكًا، وَيُقَالُ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فَوَاحِزِيَاهُ وَوَافِضِيحَتَاهُ، وَالْأَشْهَادُ: جَمْعُ شَاهِدٍ أَوْ شَهِيدٍ، كَأَصْحَابِ أَوْ أَشْرَافِ.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يَصِفُونَهَا بِالْأَعْوِجَاجِ، وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ، أَوْ يَبْغُونَ أَهْلِهَا أَنْ يَعْوِجُوا بِالْإِزْتِدَادِ،

قوله: (فَوَاحِزِيَاهُ وَوَافِضِيحَتَاهُ) هذا التَّفْجَعُ مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، كَمَا يُسْتَفَادُ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مِنْ قَوْلِهِ قَبْلَ هَذَا: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١] الآية، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا أَخْسَرَهُمْ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يُقَالُ فِي حَقِّهِمْ عِنْدَمَا يُجَبِّسُونَ وَتُعْرَضُ أَعْمَالُهُمْ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْأَشْهَادُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، فَتَظْهَرُ عِنْدَ ذَلِكَ فَضِيحَتُهُمْ وَخِزْيُهُمْ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ مَنْ شَاهَدَ حَالَهُمْ قَالَ: وَإِخْزِيَاهُ وَوَافِضِيحَتَاهُ.

و﴿هُمُ﴾ الثانية لتأكيد كُفْرِهِم بِالْآخِرَةِ واختصاصِهِم بِهِ، ﴿أَوْلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما كانوا يُعْجِزُونَ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ لو أَرَادَ عِقَابَهُمْ، وما كانَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ فينصُرُهُم منه ويمنعُهُم من عِقَابِهِ، ولكنَّهُ أَرَادَ إِنْظَارَهُمْ وتأخِيرَ عِقَابِهِمْ إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأَشْهَاد، ﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾، وقرئ: ﴿يُضَعِّفُ﴾.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أَرَادَ أَنَّهُمْ لِفَرْطِ تَصَامُّهُمْ عن استماع الحقِّ وكرهتِهِمْ له، كَأَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ.

وَلَعَلَّ بَعْضَ الْمُجْبِرَةِ يَتَوَثَّبُ إِذَا عَثَرَ عَلَيْهِ، فَيُوعِوُغُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْعَدْلِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ يَقُولُونَ فِي كُلِّ لِسَانٍ: هَذَا كَلَامٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْمَعَهُ، وَهَذَا مِمَّا يَمَجِّهُ سَمْعِي.

قال القاضي: «فيه تهويلٌ عظيمٌ مما يحقُّ بهم حينئذٍ لظلمهم بالكذب على الله»^(١).

قوله: (لتأكيد كُفْرِهِم بِالْآخِرَةِ واختصاصِهِم بِهِ): أما التأكيد: فمن تكرير ﴿هُمُ﴾، وأما التخصيص: فمن تقديم ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ على عامِلِهِ^(٢)، ومعناه: أن غيرهم، وإن كانوا كافرين بالآخرة أيضاً، لكن دون هؤلاء، وهؤلاء هم المخصوصون بالكُفْرِ الذي لا غاية بعده، ولا أمد ينتهي إليه، حيث جمَعُوا بين الكُفْرِ والصدِّ عن الإيِّمان وإضلالِ الناس.

قوله: (وقرئ: ﴿يُضَعِّفُ﴾): ابن كثير وابن عامر، والباقون: ﴿يُضَعِّفُ﴾^(٣).

قوله: (ولعلَّ بعضُ المُجْبِرَةِ يَتَوَثَّبُ إِذَا عَثَرَ عَلَيْهِ): قال في «الانتيصاف»: «أهل السنة وإن نفوا تأثير استطاعة العبد في الإيجاد، فلا ينفون تأثيرها، وما ينفونها جملة إلا المُجْبِرَةِ، والحق مع الزمخشري في هذا الأمر إلا في قوله: «فيوعوغ»، وهب أن المُجْبِرَةَ غلطوا في الاستدلال بها،

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٢٨).

(٢) وهو اسمُ الفاعل: ﴿كُفِرُونَ﴾.

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ٨١.

ويحتمل أن يُريدَ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أنهم جعلوا آهتَهُم أولياءَ من دونِ الله، وولايتها ليست بشيء، فما كَانَ لَهُمْ في الحقيقة من أولياء، ثم يَبَيِّنُ نفيَ كونه أولياءَ بقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾، فكيف يَصْلُحُونَ للولاية؟ وقوله: ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اعتراضٌ بوعيد.

كيف يَسْتَجِيزُ أن يُطَلَّقَ هذا في كلام الله المجيد، وما يَبْغِي التَّسَامُحُ فيه، فإنَّ آدابَ القرآنِ أَضيقُ من ذلك^(١).

قال الإمام: «واحتجَّ أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يَخْلُقُ الكُفْرَ في المُكَلَّفِ، قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: إنه تعالى يَمْنَعُ الكافرَ مِنَ الإِيْمَانِ في الدُّنْيَا، يَشْهَدُ له قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ - روى نحوه مُحمي السُّنَّةِ^(٢) -، قال الجُبَّائِي: هذا السَّمْعُ: إما أن يكونَ عِبارةً عن الحاسة، أو عن معنى يَخْلُقُهُ اللهُ تعالى في صِياخِ الأذُنِ، فكلاهما غيرُ مقدورٍ^(٣) للعبد، وظاهرُ الآية لا يَقْدَحُ في قولنا، وقال: المرادُ بقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾: استيقظوا له ونفوزهم عنه، كما تقول: هذا الكلامُ لا أستطيعُ أن أسمعَه، وهذا عما يَمَجُّهُ سَمْعِي».

وأجاب الإمام عن قوله: «كلاهما غيرُ مقدورٍ للعبد»: «أنَّ وُرُودَ الآيةِ في مَعْرِضِ الوعيد، فَوَجَبَ اخْتِصاصُ هذا المعنى بهم، والمعنى الذي ذهبَ إليه عام، حتى في حَقِّ الأنبياءِ والملائكةِ».

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٦٣) بحاشية «الكشاف». ولفظه: «وما الزمخشريُّ إلا يتسامح كثيراً فيما يجبُ من الآدابِ للكتاب العزيز، وإنما يليقُ التسامحُ إذا كان يُفسَّرُ شِعْرَ امرئ القيس أو الحارث بنِ جَلْزَةَ، وأما أدبُ القرآنِ فيصيقُ عن أسهلِّ من ذلك»، انتهى، وقد أوردته بلفظه لأهميته.

(٢) في «معالم التنزيل» (٤: ١٦٩).

(٣) في (ج): «غير مخلوق»، والمثبت من (ط) و(ف)، وهو الموافق لهما في «تفسير الرازي».

وأما قوله: «اسْتِثْقَاهُمْ لَهُ وَنُفِرُ لَهُمْ عَنْهُ» فجوابه: «أَنَّ حُصُولَ هَذَا الِاسْتِثْقَالِ هَلْ يَمْنَعُ مِنَ الْفَهْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنَّ مَنَعَ فَهُوَ الْمَقْصُودُ، وَإِنْ لَمْ يَمْنَعْ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا أَجْنَبِيًّا عَنِ الْمَعَانِي الْمُعْتَبَرَةِ فِي الْفَهْمِ، فَلَا تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الْقَلْبِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِسَبَبِهِ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ جَعْلُهُ ذَمًّا»^(١).

وقلت: أما قَضِيَّةُ النَّظْمِ: فهو أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لا يخلو: إما أن يكونَ مِنْ تَمَمَةِ كَلَامِ الْأَشْهَادِ عَلَى سَبِيلِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَسَاءَ عِدَاؤُهُمْ وَكُفْرُهُمْ الْمُضَاعَفَ وَضِلَالَهُمْ وَإِضْلَالَهُمُ النَّاسِ، قَالُوا: لِيُضَاعَفَ لَهُمُ الْعَذَابُ يَا رَبِّ. أَوْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى تَقْرِيرًا لِقَوْلِ الْأَشْهَادِ عَلَى الْأَبْلَغِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: الْأَمْرُ كَمَا قُلْتُمْ، وَأَنْتُمْ مُسْتَوْجِبُونَ لِذَلِكَ الْعَذَابِ الْمُضَاعَفِ. فَمَوْقِعُ ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ: الِاسْتِثْنَاءُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْلِيلِ، فَإِنَّ السَّمَاعَ لَسَاءَ سَمِعَ هَذِهِ التَّشْدِيدَاتِ وَالْمُبَالَغَاتِ عَظَمَ عِنْدَهُ أَمْرُهُمْ، فَقَالَ تَفْجَعًا عَلَيْهِمْ: مِنْ أَيْنَ دَخَلْتَ عَلَى هَؤُلَاءِ هَذِهِ الشَّقَاوَةَ؟ فَأُجِيبَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُمْ أَشْقِيَاءَ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا الْحَقُّ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ؛ لِئَلَّا يَسْتَطِيعُوا سَمَاعَ الْحَقِّ، وَجَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمُ الْغِشَاوَةَ؛ لِئَلَّا يُبْصِرُوا الدَّلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ.

فإِذَا كَانَ ظَاهِرُ النَّظْمِ هَذَا، وَقَدْ اعْتَصَدَ بِتَفْسِيرِ حَبْرِ الْأُمَّةِ، فَلَا يُقَالُ فِيهِ مَا قَالَ! اللَّهُمَّ عَفِّرَا.

فَلَوْ أُجِيبَ هَذَا السَّائِلُ بِمَا بَنَى عَلَيْهِ الْمُصَنِّفُ كَلَامَهُ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ تَصَامَمُوا عَنْ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ وَكِرْهُوهُ، لَمْ يَنْطَبِقْ؛ لِأَنَّ تَلْخِيصَ الْكَلَامِ حِينَئِذٍ: مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الْمُعَايِدِينَ الَّذِينَ بَلَغَ عِنَادُهُمْ أَقْصَى الْغَايَةِ اسْتَوْجَبُوا مُضَاعَفَةَ الْعَذَابِ، فَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ عَانَدُوا وَتَصَامَمُوا وَكَانُوا عَنْ مُقْتَضَى الْبَلَاغَةِ بِمَعْرَلٍ.

ثُمَّ مَوْقِعُ ﴿أَوْلِيَاكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: الِاعْتِرَاضُ وَتَأْكِيدُ مَا اسْتَحَقُّوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَوْلِيَاكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ كُلِّ

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٧: ٣٣٣-٣٣٤).

﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: اشْتَرَوْا عِبَادَةَ الْآلِهَةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، فَكَانَ خُسْرَانُهُمْ فِي تِجَارَتِهِمْ مَا لَا خُسْرَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾: وَبَطَلَ عَنْهُمْ، وَضَاعَ مَا اشْتَرَوْهُ، وَهُوَ ﴿مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ مِنَ الْآلِهَةِ وَشَفَاعَتِهَا.
 ﴿لَا جَرَمَ﴾ فُسِّرَ فِي مَكَانٍ آخَرَ،

خير كانوا مُسْتَاهِلِينَ أَنْ يُعَذَّبُوا عَاجِلًا، مَعَ أَنَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا كَانُوا يُعْجِزُونَ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا كَانَ لَهُمْ أَيْضًا نَاصِرٌ يَنْصُرُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْهُ، وَحَيْثُ أُخْرُوا وَلَمْ يُعَاجِلُوا اسْتَحَقُّوا أَنْ يُضَاعَفَ لَهُمُ الْعَذَابُ.

قوله: (فَكَانَ خُسْرَانُهُمْ فِي تِجَارَتِهِمْ مَا لَا خُسْرَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ): دَلَّتِ الْفَاءُ وَتَفْسِيرُ «مَا لَا خُسْرَانَ» بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَهُوَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ قَوْلِهِ: «اشْتَرَوْا عِبَادَةَ الْآلِهَةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ»، لِأَنَّ الْخُسْرَانَ مِنْ رَوَادِفِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُشْتَرَى بِرَأْسِ الْمَالِ، وَكَانَ رَأْسُ مَا لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَا خُلِقُوا إِلَّا لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَحَيْثُ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ فَقَدْ ضَيَعُوا مَا لِأَجَلِهِ خُلِقَتْ أَنْفُسُهُمْ، فَصَحَّ قَوْلُهُ: إِنَّهُمْ ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

قوله: ﴿مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ مِنَ الْآلِهَةِ وَشَفَاعَتِهَا): عَطَفَ «وَشَفَاعَتِهَا» عَلَى «الْآلِهَةِ» عَلَى مِنْوَالٍ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرَّمَهُ، لِأَنَّ الْمُفْتَرَى الشَّفَاعَةَ لَا الْآلِهَةَ نَفْسُهَا.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ (١) آخَرَ: يَعْنِي: لَفْظَةُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ يَجِيءُ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ «حَمِ الْمُؤْمِنِينَ» (٢) مُسْتَقْصَى، وَذَكَرَ فِيهِ وَجُوهًا ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: أَنَّ ﴿لَا﴾ نَفْيٌ لِمَا ظَنُّوا، وَ﴿جَرَمَ﴾ فِعْلٌ بِمَعْنَى «حَقَّ»، وَ«أَنَّ» مَعَ مَا فِي حَيْزِهِ: فَاعِلُهُ، الْمَعْنَى: لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ الظَّنُّ، حَقَّ (٣) أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ. هَذَا مَذْهَبُ سَيِّبَوَيْهِ.

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «فِي مَكَانٍ».

(٢) يَعْنِي: سُورَةُ غَافِرٍ، فِي الْآيَةِ ٤٣ مِنْهَا (١٣: ٥١٧).

(٣) تَحَرَّفَ فِي (ف) إِلَى: «حَتَّى».

﴿هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لا ترى أحداً أبينَ خُسراناً منهم.

[﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٢٣]

﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: واطمأنوا إليه، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع؛ من الخبت، وهي الأرض المطمئنة، ومنه قولهم للشيء الدنيء: الخبيت، قال:
يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْقِ وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ
وقيل: التاء فيه بدلٌ مِنَ التاء.....

وثانيها: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى: كَسَبَ، و«أَنَّ» مع ما في حيزه: مفعوله، والفاعل: ما دَلَّ عليه الكلام، أي: كَسَبَ ذَلِكَ خُسْرَانَهُمْ.

فالمعنى: ما حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا ظَهُورُ خُسَارِهِمْ.

وثالثها: ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى: لا بُدَّ، المعنى: لا بُدَّ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ.

وفي «الكواشي»: محلُّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ رَفَعٌ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، و﴿لَا جَرَمَ﴾ كانت في الأصل بَمَنْزِلَةِ: لا محالة ولا بُدَّ، فحوَّلت إلى معنى القَسَمِ، فصارت بمعنى: حَقًّا، فلذلك يُجَابُ عنها باللام، تقول: لا جَرَمَ لَأَتِيَنَّكَ^(١).

قوله: ﴿هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لا ترى أحداً أبينَ خُسراناً منهم): أي: هُمُ الْكَامِلُونَ فِي الْخُسْرَانِ، كَأَنَّ خُسْرَانَ غَيْرِهِمْ فِي جَنْبِ خُسْرَانِهِمْ لَيْسَ بِخُسْرَانٍ، وَذَلِكَ مِنْ تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِ«أَنَّ»، وتعريف الخبر بلام الجنس، وتوسط ضمير الفصل.

قوله: (وقيل: التاء فيه بدلٌ مِنَ التاء): أي: في المُسْتَشْهَدِ، لا في الآية.

(١) تحوَّف في (ف) إلى: «لَا جَرَمَ لَأَشْكُ».

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٢٤]

شَبَّهَ فَرِيقَ الْكَافِرِينَ بِـ«الْأَعْمَى وَالْأَصْمَى»، وفَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ بِـ«الْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ»، وهو مِنَ اللَّفِّ وَالطَّبَاقِ، وفيه مَعْنَيَانِ: أَنْ يُشَبَّهَ الْفَرِيقَ تَشْبِيهَيْنِ اثْنَيْنِ، كَمَا شَبَّهَ امْرُؤُ الْقَيْسِ قُلُوبَ الطَّيْرِ بِالْحَشْفِ وَالْعُنَابِ، وَأَنْ يُشَبَّهَ بِالَّذِي جَمَعَ بَيْنَ الْعَمَى وَالصَّمَمِ، أَوِ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ الْبَصْرِ وَالسَّمْعِ، عَلَى أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ فِي ﴿وَالْأَصْمَى﴾ وَفِي ﴿وَالسَّمِيعِ﴾ لِعَطْفِ الصِّفَةِ عَلَى الصِّفَةِ، كَقَوْلِهِ:

الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ

قَوْلُهُ: (وَهُوَ مِنَ اللَّفِّ وَالطَّبَاقِ): أَمَا اللَّفُّ: فَهُوَ ذِكْرُ الْفَرِيقَيْنِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَرِيقِ الْكَافِرِ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، وَبِالْمُؤْمِنِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ٢٣].

وَالنَّشْرُ: هُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾، وَإِنَّمَا قَدَّمَ «الْأَعْمَى وَالْأَصْمَى» عَلَى «السَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ»؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا وَارِدَةٌ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ، وَكَانَ ذِكْرُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا كَالِاسْتِطْرَادِ لِذِكْرِ الْكَافِرِينَ، وَلِهَذَا أَوْجَبَ التَّأخِيرَ. وَأَمَا الطَّبَاقُ: فَإِنَّهُ قَوْلِي «الْبَصِيرِ» بِـ«الْأَعْمَى»، وَ«السَّمِيعِ» بِـ«الْأَصْمَى».

قَوْلُهُ: (وفيهِ مَعْنَيَانِ): أَي: وَجْهَانِ أَوْ طَرِيقَانِ فِي اعْتِبَارِ التَّشْبِيهِ. الْإِنْتِصَافُ: «فِي تَنْظِيرِ الْآيَةِ بَيِّنَاتٍ امْرِي الْقَيْسِ نَظَرًا؛ لِأَنَّهُ شَبَّهَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الرُّطْبِ وَالْيَابِسِ تَشْبِيهًا وَاحِدًا، وَالْآيَةُ عَلَى التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ؛ شَبَّهَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ تَشْبِيهَيْنِ، وَالْبَيْتُ أَشْبَهُ بِالْوَجْهِ الثَّانِي، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا شَبَّهَ تَشْبِيهًا وَاحِدًا فِي أَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ»^(١).

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٦٤-٢٦٥) بحاشية «الكشاف».

وقلت: يحتمل قول المصنّف: «أن يُشَبَّهَ الفَرِيقَ تَشْبِيهَيْنِ اثْنَيْنِ» أن يُرادَ منه: أن يُشَبَّهَ كُلُّ فَرِيقٍ تَشْبِيهاً واحِداً، فيكون تَشْبِيهَيْنِ اثْنَيْنِ، أو أن يُشَبَّهَ كُلُّ فَرِيقٍ تَشْبِيهَيْنِ اثْنَيْنِ، وهذا الثاني هو المراد، لاستشهادِهِ بَيِّنَاتٍ امرئِ القَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرِهَا العُنَابُ وَالْحَشْفُ البَالِي^(١)

لأنه من تشبيه المفرد بالمفرد، نصّ عليه صاحب «المفتاح»^(٢)، وعليه ظاهر كلام المصنّف في أول البقرة^(٣)، سَبَّهَ بعضاً من قلوب الطير - وهو الرطب منها - بالعناب، وبعضاً منها - وهو اليايس - بالحشف البالي، وكذلك سَبَّهَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الفَرِيقَيْنِ تَشْبِيهَيْنِ؛ بأن سَبَّهَ فَرِيقَ الكُفَّارِ مثلاً؛ بعضاً منهم بالأعمى، وبعضاً بالأصم.

والحاصل: أن التَّنْظِيرَ بالبَيْتِ لاسْتِقْلَالِ كُلِّ مِنَ المُشَبَّهِ والمُشَبِّهِ به المُفْرَدِ على حِيَالِهِ، وليس كذلك في الوَجْهِ الثاني.

ويحتمل قوله: «أن يُشَبَّهَ بالذي جَمَعَ بَيْنَ العَمَى والصَّمَمِ»: أن يكون المراد أن يُشَبَّهَ الفَرِيقَيْنِ معاً بالذي جَمَعَ بَيْنَ العَمَى والصَّمَمِ، وبالذي جَمَعَ بَيْنَ البَصَرِ والسَّمْعِ، لأن الضمير في «أن يُشَبَّهَ» راجع إلى الفريق، وأن يُشَبَّهَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَرِيقَيْنِ بالذي جَمَعَ بَيْنَ الوَصْفَيْنِ، وما يَدُلُّ على أن الثاني هو المراد: مجيء «أو» التنويعية، وإفراد الموصول في كلام المصنّف هاهنا كإفراجه في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، وإن كان المُشَبَّهُ جماعة.

(١) «ديوان امرئ القيس» ص ١٤٥.

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٣٣٨.

(٣) في تفسير الآية ١٩ منها.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني: الفريقين، ﴿مَثَلًا﴾: تشبيهاً.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسْرِ﴾ ٢٥-٢٦]

أي: أرسلنا نوحاً بـ(أني لكم نذير)، ومعناه: أرسلناه مُلتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بالكسر،

فالراو في (١) قوله: «الأصم» وقوله: «السميع» على التشبيه الأول لعطف الذات على الذات، وعلى الثاني لعطف الصفة على الصفة، كما قال.

والتشبيه الثاني يَحْتَمِلُ أن يكون مُرَكَّبًا وَهَمِيًّا؛ بَأَن يُمَثَّلَ حَالُ فَرِيقِ الْكُفَّارِ فِي تَعَامِيهِمْ عَنِ الْآيَاتِ الْمُنصُوبَةِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ، وَتَصَامَمِهِمْ عَنِ الْآيَاتِ الْمَتْلُوءَةِ عَلَيْهِمْ، بِحَالٍ مِّنْ اجْتِمَاعِ فِيهِ الصِّفَتَيْنِ الْعَمَىٰ وَالصَّمَمَ، فَهَمَّ أَوَّلًا فِي خَبْطِ وَضَلَالٍ، لِأَنَّ الْأَعْمَىٰ إِذَا سَمِعَ شَيْئًا رَبَّاهَا يَهْتَدِي إِلَى الطَّرِيقِ إِذَا نَعَقَ لَهُ، وَالْأَصَمُّ رَبَّاهَا يَتَّبِعُ بِالْإِشَارَةِ، وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَلَا حِيلَةَ فِيهِ. وَأَن يَكُونَ مُرَكَّبًا عَقْلِيًّا؛ بَأَن تُؤَخَّذَ الزُّبْدَةُ وَالخِلَاصَةُ مِنَ الْمَجْمُوعِ، وَالوَجْهَ: تَمَكُّنُ الضَّلَالِ وَعَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّشْبِيهِينِ: هُوَ أَنَّ الْأَوَّلَ تَتَفَاوَتُ فِيهِ حَالٌ بَعْضٍ مِنَ الْفَرِيقِ، فَإِنَّ الْأَصَمَّ أَهْوَنُ حَالًا مِنَ الْأَعْمَىٰ، وَعَلَى الثَّانِي: لَا تَتَفَاوَتُ الْبَتَّةَ.

قوله: (أي: أرسلنا نوحاً بـ«أني لكم»): قَدَّرَ الْبَاءَ لِأَنَّ ابْنَ كَثِيرٍ وَأَبَا عَمْرٍو (٢) قَرَأَ بِالْفَتْحِ، وَالْبَاقُونَ: بِالْكَسْرِ، جَعَلَ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ، وَإِنَّمَا قَالَ: «وَالْمَعْنَىٰ عَلَى الْكُسْرِ»، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فِي الْأَصْلِ مَقُولٌ، وَالْكَسْرُ لِأَنَّهُ لَازِمٌ بَعْدَ الْقَوْلِ، فَاتَّصَلَ بِهِ الْجَارُ، فَغَيَّرَ اللَّفْظَ دُونَ الْمَعْنَىٰ، وَهَذَا قَالَ: «مُلْتَبِسًا بِهَذَا الْكَلَامِ»، كَمَا فِي قَوْلِكَ: كَانَ

(١) تحرّف في الأصول الخطيّة إلى: «قالوا وفي»، وأصلحته بحسب السياق.

(٢) والكسائي أيضًا، كما في «التيسير» للداني ص ١٢٤، و«حجة القراءات» ص ٣٣٧.

فلما اتَّصَلَ به الجارُّ فُتِحَ، كما فُتِحَ في «كأن»، والمعنى على الكسْرِ، وهو قولك: إنَّ زيدا كالأسد، وقُرئَ بالكسْرِ على إرادة القول.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ بَدَلٌ مِنْ (أني لكم نذير)، أي: أرسلناه بأن لا تَعْبُدُوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾، أو تكون ﴿أَنْ﴾ مُفسِّرةً مُتعلِّقةً بـ ﴿أرسلنا﴾ أو بـ ﴿نذير﴾.

وَصِفُ «اليوم» بـ ﴿الأيامِ﴾ مِنَ الإسنادِ المجازيِّ؛ لوقوع الألم فيه، فإن قلت: فإذا وُصِفَ به العذاب؟ قلت: مجازيٌّ مثله، لأنَّ الأليم في الحقيقة هو العذاب، ونظيرُهما قولك: نهارك صائم، وجدَّ جدُّه.

[﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنِكَ إِلَّا تَبَعًا﴾ إِلَّا

زيداً أسد، والأصل: إنَّ زيدا كالأسد، فنقلَ الكاف، وفتحَ الهمزة، والمعنى المعنى^(١)، قال أبو البقاء: «(قال أني) بالفتح: على تقدير: «بأني»، وهو في موضع نصب، أي: أرسلناه بالإنذار، أي: مُنذراً»^(٢).

قوله: (إذا وُصِفَ به العذاب؟): يعني: فهذا حُكْمُ «الأليم» إذا وُصِفَ به اليوم، فإذا وُصِفَ به العذاب، فما حُكْمُه؟

قوله: (ونظيرُهما [قولك]: نهارك صائم، وجدَّ جدُّه): إشارة إلى الفرق بين المجازين في الإسناد، نُزِلَ الظرفُ في الأولِ منزلةَ الشَّخصِ نفسه، لكثرةِ مُباشَرَتِهِ الصَّومَ فيه، كأنه واقعٌ فيه، وفي الثاني: جُعِلَ وُصْفُ الشَّخصِ كالشَّخصِ، وأسندٌ إليه ما كان مُسنداً إليه، لاستبداده به.

(١) سقطت لفظة «المعنى» الثانية من (ف)، والمثبت من (ح) و(ط)، وهو الصواب، يُريد: أن المعنى نذري يُفيدُه اللفظُ الأولُ هو المعنى نفسه الذي يُفيدُه اللفظُ الثاني.

(٢) «تبيين في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٦٩٤).

الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾

[٢٧]

﴿الملاء﴾: الأشراف؛ من قولهم: فلانٌ مليءٌ بكذا، إذا كان مُطيقاً له، وقد مَلَّؤوا بالأمر، لأنهم مَلَّؤوا بكِفاياتِ الأمور، واضطلَّعوا بها وبتدبيرها، أو لأنهم يَتَمَالَّؤُون؛ أي: يَتَظَاهَرُونَ وَيَتَسَانَدُونَ، أو لأنهم يَمَلَّؤُونَ القلوبَ هَيْبَةً، والمَجَالِسَ أُسْبَهَةً، أو لأنهم مِلَاءٌ بالأحلام والآراء الصائبة.

قوله: (واضطَّلَّعُوا بها)، الجوهري: «يُقَالُ: فُلَانٌ مُضْطَلِّعٌ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَي: قَوِيٌّ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُفْتَعِلٌ مِنَ الضَّلَاعَةِ، وَالضَّلَاعَةُ: الْقُوَّةُ وَشِدَّةُ الْأَضْلَاعِ».

قوله: (أو لأنهم يَمَلَّؤُونَ القلوبَ هَيْبَةً): هو من: مَلَأْتُ الإِنَاءَ - بِالْفَتْحِ - أَمَلَّؤُهُ مَلَأً، فَهُوَ مُتَعَدٌّ، وَفِي «مُقَدِّمَةِ الْأَدَبِ»^(١): مَلِئَ الإِنَاءُ - بِالْكَسْرِ - فَهُوَ مَلَأْنٌ، لِأَمْرِ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ: «أَوْ لِأَنَّهُمْ مِلَاءٌ بِالْأَحْلَامِ وَالْآرَاءِ الصَّائِبَةِ»، قِيلَ: قَوْلُهُ: «أَوْ لِأَنَّهُمْ» عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «مِنْ قَوْلِهِمْ: فُلَانٌ مَلِيءٌ بِكَذَا»، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ: «أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَمَالَّؤُوا»^(٢)؛ أَي: تَعَاوَنُوا، لِأَنَّهُمْ يَتَمَالَّؤُونُ، وَكَذَا «أَوْ لِأَنَّهُمْ» ثَالِثًا.

وقلت: وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى التَّعْلِيلِ السَّابِقِ، وَذَلِكَ: «مَلَأً» حَقِيقَةً هُوَ: مَلَأْتُ

(١) كِتَابُ فِي اللُّغَةِ لِلْعَلَامَةِ الزُّخْمَشَرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، رَتَّبَهُ عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ: الْأُولَى: فِي الْأَسْمَاءِ، الثَّانِي: فِي الْأَفْعَالِ، الثَّلَاثُ: فِي الْحُرُوفِ، الرَّابِعُ: فِي تَصْرِيفِ الْأَسْمَاءِ، الْخَامِسُ: فِي تَصْرِيفِ الْأَفْعَالِ، كَمَا فِي «كَشْفِ الظَّنُونِ» (٢: ١٧٩٨).

وَقَدْ أَشَارَ الْأَسَاتِذُ الزُّرْكَالِيُّ فِي تَرْجُمَةِ الزُّخْمَشَرِيِّ مِنْ «الْأَعْلَامِ» (٧: ١٧٨) إِلَى هَذَا الْكِتَابِ بِالرَّمْزِ (خ)، يَعْنِي: وَجُودَهُ مَخْطُوطًا، إِلَّا أَنَّهُ فِي تَرْجُمَةِ الْمُسْتَشْرِقِ الْأَلْمَانِيِّ فِتْسَشْتَايْنِ (١٢٥٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٠ - ١٩٠٥ م) قَالَ (٨: ٢٦٤): «نَشَرَ بِالْعَرَبِيَّةِ «مُقَدِّمَةَ الْأَدَبِ» وَ«مَعْجَمَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ» كِلَاهِمَا لِلزُّخْمَشَرِيِّ».

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «قَالُوا»، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ط).

﴿مَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ تعريضٌ بأنهم أحقُّ منه بالنُّبوة، وأنَّ الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البَشَرِ لجعلها فيهم، فقالوا: هَبْ أنك واحدٌ من المَلَأ، ومُوازٍ لهم في المنزلة،

الإناء، والأشراف إنما سُموا بـ«المَلَأ» لأنهم أعضاء المَلِكِ وأعوانه؛ يُدبِّرونُ أمورَ مملكته، قال في «الأساس»: «مَلَأْتُ الإِنَاء، وهو مَلَأَن، وأوعيةٌ مِلاء، ومن المجاز: نَظَرْتُ إليه فَمَلَأْتُ منه عَيْنِي، ومالآه: عاونته، وأصلها المُعاونةُ في المَلء، ثم عَمَّت، ومنه: هو مَلِيءٌ بكذا: مُضْطَلِعٌ به».

فإذن التقدير: المَلَأ: الأشراف، مأخوذٌ من قولهم: فلانٌ مَلِيءٌ بكذا، أو مِن: مالآه: عاونته^(١)، أو مِن: مَلَأْتُ الإِنَاء، أو مِن: مَلَأُوا بِكِفاياتِ الأمور، أو لأنهم يَتِمَّالُونَ، أو لأنهم يملؤون القلوب هيبة، أو لأنهم مِلاءٌ بالأحلام، فهو مِن اللَّفِّ التقديري، والوجهُ الأولُ أمتنُّ الوجوه؛ لِجَعْلِهِمْ في استِقلالِهِمْ في الأُمور^(٢)، وتمرُّنِهِمْ فيها كالأوعية لها، وإليه الإشارةُ بقوله: «لأنهم مَلَأُوا بِكِفاياتِ الأمور»، ثم الوجهُ الأخير، لأنَّ المعنى: أنهم لِحُسْنِ الآراءِ والتدابيرِ الصائبةِ مَلَأُوا بالأُمور، قال أبو الطيب:

الرأيُّ قبلَ شجاعةِ الشُّجعانِ هُوَ أوَّلُ وهيَ المَحَلُّ الثاني^(٣)

قوله: ﴿﴿مَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾﴾ تعريضٌ بأنهم أحقُّ منه بالنُّبوة: يعني: أننا في البَشَرِيَّةِ سواء، ولنا المَزِيَّةُ بِكَوْنِنَا شُرَفَاءَ عُظَمَاءَ، لأنَّ القائلينَ المَلَأَ الذينَ يملؤون القلوبَ هَيْبَةً والمَجَالِسَ أُبَّهَةً، نحوه قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

قوله: (فقالوا: هَبْ أنك واحدٌ من المَلَأ، ومُوازٍ لهم في المنزلة): تنبيهٌ على مكان

(١) من قوله: «وأصلها المُعاونة» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) من قوله: «أو لأنهم يَتِمَّالُونَ» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) «ديوان النبي» (٤: ١٧٤) بشرح العكبري.

فما جعلك أحقّ منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾؟
أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً، والأراذل: جمع الأزدل،
كقوله: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، «أحاسنكم أخلاقاً».

التعريض والتفكير في استحقاقهم لها دونها؛ لتتزهيم عن مراتبهم، قال الحريري: «يقولون:
هَبْ أَيْ فَعَلْتَ، وَهَبَ أَنَّهُ فَعَلَ، وَالصَّوَابُ: إِحْلَاقُ الضَّمِيرِ^(١) الْمُتَّصِلُ بِهِ، فَيُقَالُ: هَبْنِي
فَعَلْتَ، وَهَبُهُ فَعَلَ، قَالَ أَبُو ذَهَبٍ الْجُمَحِيُّ:

هَبُونِي امْرَأً مِنْكُمْ أَضَلَّ بَعِيرُهُ لَهْ ذِمَّةٌ إِنَّ الدَّمَامَ كَثِيرٌ

ومعنى «هَبْنِي»: أَي: عُدْنِي وَاحْسُبْنِي، فَكَانَ فِيهِ مَعْنَى الْأَمْرِ مِنْ: وَهَبَ^(٢).

قوله: (كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَلَكًا، لَا بَشَرًا): يَعْنِي: دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلٍ﴾ عَلَى أَنْ مُطْلَقَ الْأَفْضَلِيَّةِ مُطْلُوبٌ فِي الرِّسَالَةِ، وَنَحْنُ وَأَنْتُمْ مُسْتَوُونَ فِي الْبَشَرِيَّةِ، لَا
فَضْلَ لِأَحَدٍ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى الْآخَرَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونُوا مِنْ جِنْسٍ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْبَشَرِ،
لِتَخْتَصُّوا بِهَا دُونَنَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا الْمَلَكِيَّةُ، فَفِيهِ اعْتِرَازٌ خَفِيٌّ^(٣)، وَالْمَقَامُ يَدْفَعُهُ.

قوله: (وَالْأَرَاذِلُ: جَمْعُ الْأَرْدَلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾): أَرَادَ أَنَّهُ جَمَعَ
اسْمَ التَّفْضِيلِ مُضَافًا، كَمَا فِي الْآيَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ
مَنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ^(٤) عَنْ جَابِرٍ.

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «ضَمِيرٌ»، وَالْمُبْتَدَأُ مِنْ «دُرَّةِ الْغَوَاصِّ» لِلْحَرِيرِيِّ.

(٢) «دُرَّةُ الْغَوَاصِّ فِي أَوْهَامِ الْخَوَاصِّ» لِلْحَرِيرِيِّ ص ١٣١.

(٣) أَي: فِي تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ، وَهُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزَلَةِ، وَيُقَابَلُهُ قَوْلُ الْأَشَاعِرَةِ: إِنَّ الْبَشَرَ أَفْضَلُ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ، يَعْنُونَ: الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ، سِوَاءٍ فِي ذَلِكَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ غَيْرِهِمْ، وَقَصَلَّ الْمَثْرَبِيُّ فَقَالُوا: إِنَّ
خَوَاصَّ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنْ خَوَاصِّ الْمَلَائِكَةِ، وَعَوَامُّ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنْ عَوَامِّ الْمَلَائِكَةِ، أَمَا خَوَاصُّ الْمَلَائِكَةِ
فَأَفْضَلُ مِنْ عَوَامِّ الْبَشَرِ.

(٤) فِي «جَامِعِهِ» بِرَقْمِ (٢٠١٨).

وَقُرِّي: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أول الرأي، أو: ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت خُدوث أول رأيهم، أو: وقت خُدوث ظاهر رأيهم، فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه.

أرادوا: أن أتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استردذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنهم كانوا جهالاً، ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك، وينون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زل عنهم أن التقدّم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله، وإنما يُبعده، ولا يرفعه، بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها!

على أن الأنبياء عليهم السلام بُعثوا مرغيبين في طلب الآخرة ورُفص الدنيا، مُزهدين فيها، مُصغرين لشأنها وشأن من أخذ إليها، فما أبعدهم من الأتصاف بها يُبعد من الله، والتشرف بها هو ضعة عند الله.....

قوله: (قُرِّي: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالهمز وغير الهمز): بالهمز: أبو عمرو وحده^(١)، قال أبو علي: «من لم يهمز أراد: فيما بدا من الرأي وظهر، ومن همز أراد: أول الرأي ومبدأه، والمعنى على الأول: ما أتبعك إلا الأراذل فيما ظهر لهم من الرأي، أي: لم يعقبوه بنظر فيه، وعلى الثاني: أتبعوك في أول الرأي من غير أن يتبعوا الرأي بفكر وروية، والكلمتان مُتقاربتان معنى»^(٢).

وقال أبو البقاء: ﴿بَادِيَ﴾: ظرف، وجاء على «فاعل» كما جاء على «فعل»، نحو: قريب وبعيد، والعاقل: ﴿مَا نَرْنَكَ﴾، أي: نراك فيما يظهر لنا من الرأي، أو في أول أمرنا،

(١) انظر: «التيسير» لأبي عمرو الداني ص ١٢٤، و«حجة القراءات» ص ٣٣٨.

(٢) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣١٧).

﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: مِنْ زِيَادَةِ شَرْفِ عَلَيْنَا تَوْهَلَكُمْ لِلنَّبْوَةِ، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِيك﴾ فِيمَا تَدْعُونَهُ.

[﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنِي مِنْ رَبِّي وَءَالِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مُكْمُوها وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ * وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُ قَوَارِبِهِمْ وَلَكِنِّي أَرْكُزُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُ أَفَلَا نَذْكُرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٢٨-٣١]

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنِي﴾: عَلَى بُرْهَانٍ ﴿مِنْ رَبِّي﴾ وَشَاهِدٍ مِنْهُ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ دَعْوَايَ، ﴿وَءَالِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾: بِلِإِتْيَاءِ الْبَيْتَةِ، عَلَى أَنَّ الْبَيْتَةَ فِي نَفْسِهَا هِيَ الرَّحْمَةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِ«الْبَيْتَةِ»: الْمُعْجِزَةَ، وَبِ«الرَّحْمَةِ»: النَّبْوَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَوْلُهُ: (فَعَمِيَّتْ) ظَاهِرٌ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، فَمَا وَجْهُهُ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي، وَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ: فَعَمِيَّتَا؟ قُلْتُ: الْوَجْهُ أَنْ يُقَدَّرَ «فَعَمِيَّتْ بَعْدَ الْبَيْتَةِ»، وَأَنْ يَكُونَ.....

أَوْ الْعَامِلُ: ﴿أَتَّبَعَكَ﴾، أَي: أَتَّبَعُوكَ فِي أَوَّلِ الرَّأْيِ فِيمَا ظَهَرَ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْحَثُوا^(١)، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ: «أَرَادُوا أَنْ أَتَّبِعَهُمْ لِكَ إِنْهَا هُوَ شَيْءٌ عَنْ هُمْ بَدِيهَةٌ»، وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ لِأَبِي الْبَقَاءِ بَعِيدٌ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (عَلَى أَنَّ الْبَيْتَةَ فِي نَفْسِهَا هِيَ الرَّحْمَةُ): فَعَلِيَ هَذَا الْعَطْفُ مِنْ بَابِ: أَعَجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرَّمَهُ، لِأَنَّ كَوْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِلِإِتْيَاءِ اللَّهِ لَهُ مَا يَشْهَدُ بِصِحَّةِ دَعْوَاهُ مِنَ الْمُعْجِزَةِ، وَهُوَ الرَّحْمَةُ بَعِيْنُهُ، فَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْبَيْتَةِ هَذَا فَسَّرَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَءَالِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، وَلِذَلِكَ أَفْرَدَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ﴾.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٦٩٥).

حذفه للاقتصار على ذكره مرّة، ومعنى «عَمِيَّتْ»: خَفِيَّتْ.

وَقُرِي: ﴿فَعَمِيَّتْ﴾؛ بمعنى: أَخْفِيَّتْ، وفي قراءة أبي: «فَعَمَّاهَا عَلَيْكُمْ». فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته: أن الحجّة كما جُعِلَتْ بَصِيرَةً وَمُبْصِرَةً جُعِلَتْ عَمِيَاءَ، لأنّ الأعمى لا يَهْتَدِي ولا يَهْدِي غَيْرَهُ، فمعنى: فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ الْبَيِّنَةُ فلم تَهْدِكُمْ، كما لو عَمِيَ على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هادٍ. فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟ قلت: المعنى: أنهم صَمَّمُوا على الإعراض عنها، فخلّاهم الله وتصميمهم، فجُعِلَتْ لتلك التَّخْلِيَةِ تَعْمِيَةٌ منه، والدليل عليه قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ يعني: أَنْكَرَهُمْ عَلَى قَبُولِهَا.....

قوله: (وقرى: ﴿فَعَمِيَّتْ﴾): حَفْصٌ وَحَمَزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ بِالتَّشْدِيدِ وَصَمَّ الْعَيْنُ (١).

قوله: (فما حقيقته؟): أي: فما تحقيقُ نسبة العمى إلى البيّنة؟ وأجاب: أن النسبة واردة على طريق الاستعارة، يَدُلُّ عليه قوله: «فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ الْبَيِّنَةُ فلم تَهْدِكُمْ، كما لو عَمِيَ على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هادٍ»، وقد وَرَدَ عكسه في قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْنَا نَعْبُدُ إِلَّا فَاتَةً مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي: آيةٌ مُبْصِرَةٌ، أي: كما جاءت هذه النسبة، كذلك ما نحنُ بصدده.

قوله: (فما معنى قراءة أبي؟): «فَعَمَّاهَا عَلَيْكُمْ» (٢)؛ حيثُ أُسْنِدَ إلى الله تعالى، وهو قبيحٌ على مذهبه.

قوله: (والدليل عليه): أي: على أن المراد التَّخْلِيَةُ وَعَدَمُ الْإِكْرَاهِ، وَالْإِنْكَارُ في قوله (٣): ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مَكْمُوهًا﴾ بمعنى: أَنْكَرَهُمْ عَلَى قَبُولِهَا.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٤، و«حجّة القراءات» ص ٣٣٨.

(٢) انظر: «الدرر المصون» (٦: ٣١٣)، وعزاها ابن زنجلة في «حجّة القراءات» ص ٣٣٨ إلى عبد الله بن مسعود، وعزاها مكي في «مشكل إعراب القرآن» (١: ٣٦١) إلى الأعمش، كما عزاها إلى أبي أيضا.

(٣) من قوله: «فَعَمَّاهَا» إلى هنا، سقط من (ح).

وَتَقْسِرُكُمْ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ بِهَا، وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَهَا وَلَا تَخْتَارُونَهَا، وَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ؟!

وقد جيء بضميرِي المفعولين مُتَّصِلِينَ جميعاً، ويجوزُ أن يكونَ الثاني مُنْفَصِلاً، كقولك: أَنْزَلْتُكُمْ إِيَّاهَا، ونحوه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، ويجوز: فسَيَكْفِيكَ إِيَّاهُمْ، وحُكِيَ عن أبي عَمْرٍو إسْكَانُ الميم، ووَجْهُهُ: أنَّ الحِركَةَ لم تكن إلا خُلْسَةً خفيفة، فظنَّها الراوي سُكُوناً، والإسْكَانُ الصَّرِيحُ لحنٌ عندَ الخليلِ وَسَيَوِيهِ وَحُدَاقِ البَصْرِيِّينَ؛ لأنَّ الحِركَةَ الإِعْرَابِيَّةَ لَا يَسُوغُ طَرْحُهَا إلا في ضرورةِ الشُّعرِ.

والضميرُ في قوله: ﴿لَا أَشْتَلُكُمْ﴾ راجعٌ إلى قوله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ *
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿﴾.

وأما تقريره على مذهب أهل السنة^(١): قَالَ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا هَا عَلَيْكُمْ فَلَا بُدَّ لَكُمْ مِنَ الْكِرَاهِيَةِ، فَكَيْفَ أَلْزَمُكُمْ عَلَيْهِ إِذْنٌ، وَقَرِيبٌ مِنْهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُ نُوْحٍ أَيْضاً: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

قوله: (وحُكِيَ عن أبي عَمْرٍو): أي: على طريقِ شاذٍّ، والخُلْسَةُ - بالضم - : اسمٌ من: حَلَسْتُ الشَّيْءَ إِذَا سَلَبْتَهُ.

قوله: (لَا يَسُوغُ [طَرْحُهَا] إلا في ضَرُورَةِ الشُّعْرِ): نحو قوله:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْبِبٍ^(٢)

(١) ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ الْهَدَايَةَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ فِيهِتَدِي، وَيَخْلُقُ الضَّلَالَاتِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ فَيَضِلُّ، فِفِعْلُ الْعَبْدِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ لَا لِلْعَبْدِ، خِلَافاً لِلْمَعْتَزَلَةِ، وَلَكِنْ لِلْعَبْدِ كَسْبٌ فِي فِعْلِهِ، خِلَافاً لِلْجَبْرِيَّةِ، وَتَفْصِيلُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلِينَ يُطَلَّبُ مِنْ كِتَابِ الْعُقَايِدِ.

(٢) صَدْرُ بَيْتٍ لَامِرِيِّ الْقَيْسِ، كَمَا فِي «دِيَوَانِهِ» ص ١٤٩، وَتَمَامُهُ:

إِنَّمَا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ

وَالْوَاعِلُ: هُوَ الدَّاخِلُ فِي الشَّيْءِ، وَالْمُرَادُ هُنَا: وَلَا آثَمَ.

وَقُرِي: «وما أنا بطاردٍ الذين آمنوا» بالتثوين على الأصل.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ مَلَافُؤٌ رَّيْبِهِمْ﴾؟ قلت: معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت - كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم - أو على خلاف ذلك مما تقرّفونهم به؛ من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكير، وما عليّ أن أشقّ عن قلوبهم، وأتعرّف سرّ ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]،

استحّبه: احتمله^(١)، ومنه قيل: أحقّب فلان الإثم.

قوله: (أو على خلاف ذلك): عطف على قوله: «على ما في قلوبهم من إيمان صحيح»، يعني: أنكم تزعمون أنهم ليسوا على صحّة من الإيمان واليقين فأطردهم، وليس ذلك إليّ، فأنا أنظر إلى ظاهر الحال، إن حسابهم إلا على ربّي، فهو كما علّل الله سبحانه وتعالى نهي الطرد في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وإليه الإشارة بقوله: «ونحوه»: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

قوله: (أن أشقّ عن قلوبهم): ضمّن «شقّ» معنى «كشّف»، وعدّاه تعديته، أي: ما عليّ أن أكشّف عما في قلوبهم شقاً، يدلّ عليه الحديث: «هَلَّا شَقَّقْتَ قلبه»^(٢).

= والبيت من شواهد سيبويه في «الكتاب» (٤: ٢٠٤)، وابن جني في «الخصائص» (١: ٧٤) و(١: ٣٨٨) و(٢: ٣١٧ و٣٤٠) و(٣: ٩٦)، وغيرهما.

(١) في (ح): «احمله»، والثبّت من (ط)، وهو الموافق لِمَا في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (حقب). والجملة من قوله: «استحّبه» إلى قوله: «الإثم» سقطت من (ف).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ولفظه: «أفلا شَقَّقْتَ عن قلبه».

أو: هم مُصَدِّقُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ، مُوقِنُونَ بِهِ، عالمُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوهُ لَا مَحَالَةَ.

﴿تَجْهَلُونَ﴾: تَسْتَأْفَهُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَتَدْعُوهُمْ أَرَادِلَ، مِنْ قَوْلِهِ:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا

أو تجهلون بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ، أو تجهلون أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ.

﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾: مَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ انتِقَامِهِ ﴿إِنْ طَرَدْتُمُوهُمْ﴾، وَكَانُوا يَسْأَلُونَهُ أَنْ

يَطْرُدَهُمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِ؛ أَنْفَةً مِنْ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَى سِوَاءٍ.

﴿أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أَي: لَا أَقُولُ: عِنْدِي خَزَائِنُ

اللَّهِ، وَلَا أَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ. وَمَعْنَاهُ: لَا أَقُولُ لَكُمْ: عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ،

قوله: (أو: هم مُصَدِّقُونَ): جوابٌ آخِرٌ، يَعْنِي: تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَا آمَنُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ،

فَأَطْرُدُهُمْ، أَي: مَا أَطْرُدُهُمْ لِأَنَّهُمْ فَازُوا بِأَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِيْقَانِ، وَحَازُوا قَطْرِي الْإِيْقَانِ، حَيْثُ

أَيَقْنُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

قوله: (أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا): تَمَامُهُ:

فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا^(١)

أَي: لَا يَسْفَهَنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا، فَسَفَهَ عَلَيْهِمْ فَوْقَ سَفَهِهِمْ، أَي: تُجَازِيهِمْ بِسَفَهِهِمْ جَزَاءً

وَإِفْيَاءً، سَمِيَ جَزَاءُ الْجَهْلِ جَهْلًا لِلْمُشَاكَلَةِ.

قوله: (ومعناه: لَا أَقُولُ لَكُمْ: عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) إِلَى آخِرِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِعْلَامٌ بِأَنَّهَا

تَضَمَّنَتْ أَجْوِبَةً عَنْ سُئِبِهِ أَوْ رَدَّهَا الْقَوْمُ فِي الطَّعْنِ فِي نُبُوَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ،

وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الْآيَةَ [هُود: ٢٧].

(١) البيت لعمر بن كلثوم من مُعَلِّقَتِهِ، كَمَا فِي «دِيْوَانِهِ» ص ٧٨.

وسِيَّاتِي بِتَمَامِهِ عِنْدَ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٦٣ مِنْ سُورَةِ الْفِرْقَانِ (١١: ٢٨٣).

فَادَّعِي فَضْلاً عَلَيْكُمْ فِي الْغِنَى، حَتَّى تَجْحَدُوا فَضْلِي بِقَوْلِكُمْ: ﴿وَمَا زَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، وَلَا أَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ، حَتَّى تَنْسِبُونِي إِلَى الْكُذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ، أَوْ حَتَّى أُطْلَعَ عَلَى مَا فِي نُفُوسِ أَتْبَاعِي وَضَمَائِرِ قُلُوبِهِمْ، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حَتَّى تَقُولُوا لِي: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا،

أَوْهَا: قَالُوا: ﴿مَا زَرْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، أَرَادُوا: أَنْكَ لَسْتَ مَلَكًا حَتَّى تَكُونَ رَسُولًا، وَلَيْنُ سَلَّمْ عَدَمُ اسْتِحَالَةِ الرِّسَالَةِ لِلْبَشَرِ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ أَحَقَّ بِهَا مِنَّا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَزَمُوا عَلَى أَنَّ الرِّسَالَةَ مَقْصُورَةٌ عَلَى الْمَلَكِيَّةِ، وَحِينَ ادَّعَاهَا اسْتَبَعَدُوهَا وَأَنْكَرُوهَا، وَلِذَلِكَ أَجَابُوهُ بِمَا يُجَابُ بِهِ الْمُنْكَرُ مِنْ إِيْتَاءِ ﴿مَا﴾ وَ﴿إِلَّا﴾، وَأَجَابَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، يَعْنِي: مَعَ أَنِّي أَدَّعِي النُّبُوَّةَ لَا أَدَّعِي الْمَلَكِيَّةَ، لِأَنَّ الْبَشَرِيَّةَ غَيْرُ قَادِحَةٍ فِي النُّبُوَّةِ، لِأَنَّ مِنْ حَقِّ الرِّسُولِ أَنْ يُبَاشِرَ أُمَّتَهُ بِالْدَلِيلِ وَالْحُجَّةِ، ثُمَّ بِالْهُدَايَةِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، لَا بِالصُّورَةِ وَالخِلْقَةِ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ أَحَقَّ بِالنُّبُوَّةِ كَاتِنًا مَنْ كَانَ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حَتَّى تَقُولُوا لِي: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا.

وِثَانِيهَا: قَالُوا: ﴿وَمَا زَرْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ [هود: ٢٧]، يَعْنِي: لَوْ كُنْتُ نَبِيًّا لَأَتَّبَعَكَ الْأَكْيَاسُ^(١) مِنَ النَّاسِ وَالْأَشْرَافُ مِنْهُمْ، وَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾، يَعْنِي: لَيْسَ الشَّرْفُ وَالرَّفْعَةُ بِالْحَسَبِ وَالْمَالِ، بَلِ الشَّرْفُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِإِيْتَاءِ اللَّهِ الْعَبْدَ خَيْرَ الدَّارَيْنِ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْلَاصِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢، والكهف: ٢٨]، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهَوَانِهِمْ عَلَيْهِ».

وِثَالْتُمْهَا: قَالُوا: ﴿وَمَا زَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧]، أَي: مَالٍ وَجَاهٍ، يَعْنِي: لَوْ كُنْتُ صَادِقًا لَكُنْتُ شَرِيفًا حَسْبِيًّا، وَكَأَنَّ الْأَشْرَفَ عِنْدَهُمْ مَنْ لَهُ جَاهٌ وَمَالٌ، وَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا

(١) كَذَا فِي (ط) وَ(ح)، وَفِي (ف): «الأكابر»، وَلِكُلِّ مِنْهَا وَجْهٌ.

أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴿٢٧﴾، يعني: ما أُثْبِتُ دَعْوَايَ بِكَوْنِي ذَا مَالٍ وَحَسَبٍ لِتَتَّبِعُونِي، بَلْ مَا جِئْتُ إِلَّا لِرَفْضِ الدُّنْيَا جَاهِهَا وَمَالِهَا، لِأَنَّهَا سَبَبَا الطُّغْيَانِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لَا أَدْعِي فَضْلًا عَلَيْكُمْ فِي الْغِنَى حَتَّى تَجْحَدُوا فَضْلِي».

ورابعها: قالوا: ﴿بَلْ نَطَّنَكُمْ كَذِيبِينَ﴾ [يونس: ٢٧]، يعني: اتَّبَاعُ هَوْلَاءِ الْأَرَادِلِ الَّذِينَ مِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ جُهَلَاءُ يُسْرِعُونَ فِي مُتَابَعَتِكَ بِدِيهَا مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ، وَقَبُولِكَ إِيَّاهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى حَالِهِمْ وَتَعْرِفَ سِرَّهُمْ: أَمَارَاتٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى كَوْنِكُمْ كَاذِبِينَ. وَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، يعني: مَا عَلَيَّ أَنْ أَعْلَمَ الْغَيْبَ حَتَّى أُطَّلِعَ عَلَى مَا فِي ضَمَائِرِ اتِّبَاعِي، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا يُجْرُونَ الْأَحْكَامَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا، وَاللَّهُ مُتَوَلَّى السَّرَائِرِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «حَتَّى أُطَّلِعَ عَلَى مَا فِي نُفُوسِ اتِّبَاعِي وَضَمَائِرِهِمْ».

فإن قلت: إن كانت هذه الآية جواباً عن الشبهة التي تضمنت تلك الآية، فما تلك الآيات الثلاث التي تواسطت بينهما؟ قلت: - والله أعلم - : هي مقدمة وتمهيد للجواب، فإن قوله: ﴿يَقُولُونَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِئْتُمْ بِهِ مِنْ عِندِهِ﴾ إثباتٌ لِنُبُوَّتِهِ، يعني: ما قلت لكم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ * أَنْ لَا تُعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿٢٥-٢٦﴾ [هود: ٢٥-٢٦] إلا عن مقدمة بيّنة على إثبات نبوتي وصحة دعواي، لكن خفيت عنكم وعميت حتى أوردتم تلك الشبهة الواهية، ومع ذلك ليس نظري فيما ادّعيته إلا إلى الهداية، وأني لا أطمع أجراً، حتى ألزم الأغنياء منكم، وأطرد الفقراء، وأنتم تجهلون هذا المعنى حيث تقولون: اطرد الفقراء! وأن الله ما بعثني إلا في الترغيب في طلب الآخرة ورفض الدنيا، فمن ينصرتني إن كنت أخالف ما جئت به، ثم سرع في الجواب على سبيل التفصيل، كما سبق.

ولما أطنب نبي الله في الجواب بتمهيد المقدمة، وأفحمهم بذلك التفصيل، وألقمهم الحجر^(١)، قالوا: ﴿يَنْشُؤُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ [هود: ٣٢].

(١) تحرف في (ح) إلى: «البحر».

ولا أحكمُ على من استرذلتُم من المؤمنين - لفقرهم - أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهواهم عليه - كما تقولون - مساعدة لكم، ونزولاً على هواكم.

﴿إِنِّي إِذْ أَلَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من: زرى عليه: إذا عابه، وأزرى به: قصّر به، يقال: ازدرته عينه، واقتحمته عينه.

﴿قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنَابِمْآ تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾

[٣٢]

﴿جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب، ﴿فَأُنَابِمْآ تَعْدُنَا﴾ من العذاب المعجل.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَا بُنَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرٰمِ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٣٣-٣٥]

قوله: (استرذلتُم من المؤمنين): تفسير لقوله: ﴿تَزِدْرِي أَعْيُنَكُمْ﴾، قال القاضي: «إسنادُ الازدراء إلى الأعين للمبالغة والتنبية على أنهم استرذلوهم بادي الرأي من غير روية وبما عاينوا من رثائته حاله وقلته مناهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم»^(١).

وقلت: هذا التفسير ما أحسنه^(٢) طباقاً لقولهم: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُلِّ بَادِي الرّٰئِي﴾.

قوله: (جاد فلان فأكثر): كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ [النحل: ٩٨].

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣١-٢٣٢).

(٢) في الأصول الخطية: «ما أحسن طباقاً»، وأصلحته بحسب السياق.

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ، إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه، ﴿إِنْ شَاءَ﴾ يعني: إن اقتضت حكمته أن يُعجّله لكم، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: «فأكثرت جدلنا».

فإن قلت: ما وجه تراؤف هذين الشرطين؟ قلت: قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾: جزاؤه ما دلّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾، وهذا الدالّ في حكم ما دلّ عليه، فوصل بشرط، كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنتني.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾؟ قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلّاه وشأنه ولم يلجئه، سُمّي ذلك إغواءً وإضلالاً،

قوله: (وقرأ ابن عباس: «فأكثرت جدلنا»): قال ابن جني: «الجدل: اسمٌ بمعنى الجِدال والمجادلة، والجدال: هو الاقتواء على خصمك بالحجة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، أي: مُغالبة بالقول وتقويًا»^(١).

قوله: (وهذا الدالّ في حكم ما دلّ عليه): يعني: قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ جزاؤه محذوف، وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ دالّ عليه، فيقدّر له مثله، ثم هذا الدالّ على حكم المدلول - أي: الجزاء - على التوسع، لأنّ الجزاء لا يتقدّم على الشرط.

قوله: (فوصل): أي قُيّد^(٢) ما هو في حكم الجزاء وسادّ مسدّه بشرط^(٣)، وهو قوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾، كما قُيّد جزاء قولك: «إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنتني» - وهو «أحسنت» الثاني - بالشرط الثاني، وهو «إن أمكنتني»، فصار التقدير: إن كان الله يُريد

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٢١). وانظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣: ٣٤٥).

(٢) تحرّف في (ح) إلى: «فيه».

(٣) قوله: «بشرط» متعلق بقوله: «قُيّد»، أي: قُيّد بشرط.

كما أنه إذا عَرَفَ منه أنه يتوبُ وَيَرْعَوِي فَلَطَّفَ به، سُمِّيَ إرشاداً وهداية.
وقيل: ﴿أَنْ يُعْوِيَكُمْ﴾: أن يهلككم؛ من: عَوِيَ الْفَصِيلُ عَوَى: إذا بَشِمَ فَهَلَكَ، ..

أَنْ يُعْوِيَكُمْ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ.

قال الإمام: «هذا الشَّرْطُ الْمُؤَخَّرُ فِي اللفظِ مُقَدَّمٌ فِي الوجود، فإذا قَالَ الرَّجُلُ لامرأته: أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ دَخَلْتِ الدَّارَ، كَانَ المَفْهُومُ أَنَّ ذَلِكَ الطَّلَاقَ مِنْ لَوَازِمِ الدُّخُولِ، فإذا قَالَ بَعْدَهُ: إِنْ أَكَلْتِ الخَبْزَ، كَانَ المَعْنَى: أَنَّ تَعَلُّقَ الجِزَاءِ بِذَلِكَ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ مَشْرُوطٌ بِحُصُولِ الشَّرْطِ الثَّانِي، وَالشَّرْطُ مُقَدَّمٌ عَلَى المَشْرُوطِ فِي الوجود، فعلى هذا إِنْ حَصَلَ الشَّرْطُ الثَّانِي تَعَلَّقَ الجِزَاءُ بِذَلِكَ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ^(١)، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلِ الثَّانِي لَمْ يَتَعَلَّقِ الجِزَاءُ بِذَلِكَ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ»^(٢).

وقال في «الانتصاف»: «ونظيره قول القائل: أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ شَرِبْتِ إِنْ أَكَلْتِ، وهي مسألة اعتراض الشَّرْطِ عَلَى الشَّرْطِ، والمنقول عن الشافعية أنها إِنْ شَرِبْتِ ثَمَّ أَكَلْتِ لَمْ يَحْنَتْ، وَإِنْ أَكَلْتِ ثَمَّ شَرِبْتِ حَنْتِ»^(٣)، وهذا الفَرْقُ مَبْنَاهُ عَلَى جَعْلِ الجِزَاءِ لِلشَّرْطِ الْأَخِيرِ لَا الَّذِي يَلِيهِ، ثَمَّ جَعْلِهِمَا مَعاً جِزَاءً لِلشَّرْطِ الْأَوَّلِ، وَعَلَيْهِ إعرابُ الزمخشري هذه الآية»^(٤).

وقال القاضي: «هذا جوابٌ لِمَا أَوْهَمُوا مِنْ أَنَّ جِدَالَه كَلَامٌ بِلا طائل، وفيه دليلٌ عَلَى أَنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ يَصِحُّ تَعْلِيْقُهَا بِالإِغْوَاءِ، وَأَنَّ خِلَافَ مُرَادِهِ مُحَالٌ»^(٥).

قوله: (إِذَا بَشِمَ)، الجوهري: «البَشِمَ: التُّخْمَةَ، وَبَشِمَ الْفَصِيلُ مِنْ كَثْرَةِ شُرْبِ اللَّبَنِ».

(١) من قوله: «مشروط بحصول الشرط الثاني» إلى هنا، سقط من (ح)، وأثبت من (ط)، أما (ف) فالتسقط فيها من هنا إلى قوله: «الأول» آخِرَ هذه الفقرة.

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٧: ٣٤٢).

(٣) أي: وقع الطلاق، وانظر: «روضة الطالين» للنووي (٨: ١٧٧)، و«مغني المحتاج» للخطيب الشربيني (٣: ٣١٩).

(٤) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٦٧) بحاشية «الكشاف».

(٥) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٢).

ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم معها نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي؟

﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ و«أجرامي»؛ بلفظ المصدر والجمع، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] و«أسرارهم»، ونحو جُرم وأجرام: قُفل وأقفال، وَيَنْصُرُ الجمع أن فَسَّرَهُ الأولون بـ«آثامي»، والمعنى: إن صحَّ وثبت أني افتريته، فعلي عقوبة إجرامي، أي: افترائي، وكان حقي حينئذ أن تُعرضوا عني وتألّبوا عليّ، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ يعني: ولم يثبت ذلك، وأنا بريء منه، ومعنى ﴿وَمَا تُجْرِمُونَ﴾: من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجه لإعراضكم ومعاداةكم.

[﴿وَأَرْحِكْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا يَنْتَهِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ * وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَفُونَ﴾ [٣٦-٣٧]

قوله: ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ و«أجرامي»: بكسر الهمزة على المصدر ويفتحها على الجمع، والفتح شاذ، والأسلوب من باب الاستدراج والكلام المنصف، وهو في شأن الرسول ﷺ، قال الإمام: «وأكثر المفسرين على أنه من كلام نوح عليه السلام، وقال مقاتل: هذه الآية وَقَعَتْ فِي قِصَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَثْنَاءِ قِصَّةِ نُوحٍ»، وقال الإمام: «وهو بعيد جداً»^(١).

وقلت: سبق في بيان النظم عند قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلَهُ مُفْتَرِيَةً﴾ [هود: ١٣] أنه في شأن رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿وَتَأَلَّبُوا عَلَيَّ﴾، الجوهري: «وَأَلَّبْتُ الجيش: جمعته، وتألبوا: اجتمعوا».

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٧: ٣٤٣).

﴿لَنْ يُؤْمِنَ﴾ إقنأط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلقُ به للتوَقُّع، ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾: إِلَّا مَنْ قَدْ وُجِدَ مِنْهُ مَا كَانَ يُتَوَقَّعُ مِنْ إِيَانِهِ، وَ﴿قَدْ﴾ لِلتَّوَقُّعِ، وَقَدْ أَصَابَتْ مَحَزَّهَا، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: فَلَا تَحْزَنْ حُزْنَ بَائِسٍ مُسْتَكِينٍ، قَالَ:
 مَا يَقْسِمُ اللَّهُ فاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَسِسٍ مِنْهُ واقْعُدْ كَرِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ

قوله: (و﴿قَدْ﴾ لِلتَّوَقُّعِ، وَقَدْ أَصَابَتْ مَحَزَّهَا^(١)): حَيْثُ طَابَقَتْ ﴿لَنْ﴾، لِأَنَّهَا كَالْمُتَضَادِّينِ.
 قوله: (فَلَا تَحْزَنْ حُزْنَ بَائِسٍ): بَيْسَ الرَّجُلِ بِيَأْسٍ بُوْسًا وَبَأْسًا: اشْتَدَّتْ حَاجَتُهُ.
 «مُسْتَكِينٍ»: مِنَ الْإِسْتِكَانَةِ، وَهِيَ الْخُضُوعُ.

قوله: (مَا يَقْسِمُ اللَّهُ) الْبَيْتِ: لِأَحْيَحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ^(٢)، «مَا» - فِي «مَا يَقْسِمُ» - : شَرْطِيَّةٌ، وَ«اقْبَلْ» مَجْزُومٌ عَلَى الْجِزَاءِ، وَهُوَ حِكَايَةٌ عَنْ نَفْسِهِ، وَكَذَلِكَ «واقْعُدْ»، يَقُولُ: أَنَا رَاضٍ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لِي غَيْرَ حَزِينٍ عَلَى مَا فَاتَ مِنِّي، واقْعُدْ نَاعِمَ الْبَالِ طَيِّبَ الْقَلْبِ^(٣)، وَنَحْوَهُ فِي الْأَلْفَاظِ التَّبَوِّيَّةِ: «واعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَحْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»^(٤)، وَقَالَ الْقَائِلُ:

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُتَعَبٌ مَحْزُونٌ^(٥)

- (١) الْمَحَزُّ: مَوْضِعُ الْحَزِّ مِنَ الْعُنُقِ، كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ (حَزَزَ)، وَمِنَ الْمَجَازِ: تَكَلَّمَ أَوْ أَشَارَ فَأَصَابَ الْمَحَزَّ، كَمَا فِي «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ» لِلزَّمخَشَرِيِّ، مَادَّةُ (حَزَزَ).
 (٢) كَذَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى! وَعِزَّاهُ الزَّمخَشَرِيُّ فِي «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ»، وَالْجَوْهَرِيُّ فِي «الصُّحُوحِ»، وَابْنُ مَنْظُورٍ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» - الْثَلَاثَةَ فِي مَادَّةِ (بَأَسَ) - لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ، وَهُوَ فِي «دِيْوَانِهِ» ص ٣١٤.
 (٣) مِنْ قَوْلِهِ: «(مَا) فِي «مَا يَقْسِمُ» شَرْطِيَّةٌ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ط).
 (٤) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٩٩)، وَابْنُ مَاجَهَ (٧٧) مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٧٠٠) مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 (٥) الْبَيْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي عَيْنَةَ، كَمَا فِي «الْكَامِلِ» لِلْمُبَرِّدِ (٦: ٢).

والمعنى: فلا تحزن بها فَعَلُوهُ مِنْ تَكْذِيبِكَ وَإِذَائِكَ وَمُعَادَاتِكَ، فقد حانَ وقتُ الانتِقامِ لك منهم.

﴿بَاعَيْنَا﴾ في مَوْضِعِ الْحَالِ، بِمَعْنَى: اصْنَعَهَا مَحْفُوظًا، وَحَقِيقَتُهُ: مُلْتَبَسًا بِأَعْيُنِنَا، كَأَنَّ اللَّهَ مَعَهُ أَعْيُنًا تَكْلُؤُهُ أَنْ يَزِيغَ فِي صَنْعَتِهِ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَنْ لَا يَجُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمَلِهِ أَحَدٌ مِنْ أَعْدَائِهِ، ﴿وَوَحَيْنَا﴾: وَأَنَا نُوحِي إِلَيْكَ وَنُلْهِمُكَ كَيْفَ تَصْنَعُ،

قوله: (فقد حانَ وقتُ الانتِقامِ): يعني: قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ إِذَا نُنَّ بِمَعْنَى الْمُتَارِكَةِ، أَي: أَنْكَ - يَا نُوحُ - قَدْ أَنْذَرْتَ وَأَبْلَغْتَ وَأَدَيْتَ مَا عَلَيْكَ، فَلَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ شَيْءٌ، ﴿فَلَا تَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ، فقد حانَ وقتُ الانتِقامِ.

قوله: (كَأَنَّ اللَّهَ مَعَهُ أَعْيُنًا تَكْلُؤُهُ): أَي: رُقْبَاءَ تَحْفَظُهُ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّجْرِيدِ، دَلَّ عَلَيْهِ «الْبَاءُ» فِي «بَاعَيْنَا»، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ أَنْوَاعِ التَّجْرِيدِ، لِأَنَّهُمْ يَتَزَعُونَ مِنْ نَفْسِ الشَّيْءِ آخَرَ مِثْلَهُ فِي صِفَتِهِ؛ مُبَالَغَةً لِكِمَالِهَا فِيهِ^(١)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: أَنْشَدَ أَبُو عَلِيٍّ:

أَفَاءَتْ بَنُو مَرَوَانَ ظُلْمًا دِمَاءَنَا وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ يَعْدِلُوا حَكَمٌ عَدْلُ^(٢)

وَأَنْشَدَ الْمُصَنِّفُ^(٣):

وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضُّعْفَاءِ كَافٍ

هَاهُنَا جَرَدٌ مِنْ ذَاتِهِ الْمُهَيِّمِينَ^(٤) جَمَاعَةَ الرُّقْبَاءِ، وَهُوَ الرَّقِيبُ نَفْسُهُ.

(١) أَي: لِكِمَالِ الصِّفَةِ فِيهِ، وَانظُرْ بَيَانَ ذَلِكَ فِيمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٤ مِنْ الْجَاثِيَةِ (١٤: ٢٤٧) وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ جَنِّي فِي «الْخِصَائِصِ» (٢: ٤٧٥)، وَفِي «الْمَحْتَسَبِ» (١: ٤٢ و ١٠٦)، وَعَلَّقَ عَلَيْهِ مُبَيِّنًا وَجْهَ

التَّجْرِيدِ فِيهِ، وَنَقَلْتُ تَعْلِيْقَهُ فِيمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ ١٤ مِنْ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ، فَانظُرْ فِيهِ فَوَائِدَ.

(٣) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١١٧ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

(٤) قَوْلُهُ: «الْمُهَيِّمِينَ»: صِفَةٌ لـ«ذَاتِهِ»، وَأَتَى بِهِ عَلَى التَّذْكِيرِ، وَ«ذَاتٌ» تُذَكَّرُ وَتُؤنَّثُ فِي اللُّغَةِ، فَعَلِيَ الْقَوْلُ

بِتَذْكِيرِهَا لَا إِشْكَالَ، أَمَا عَلَى الْقَوْلِ بِتَأْنِيثِهَا فَتَذْكِيرُ «الْمُهَيِّمِينَ» لِأَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْصَافَهُ لَا تَلْحَقُهَا =

عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر، ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: إنهم محكوم عليهم بالإعراق، وقد وجب ذلك، وقضي به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفْسَدُوا سُلُوكَكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ١٧٦].

[﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ ٣٨-٣٩]

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ومن عمله السفينة،.....

قوله: (جوجو الطائر)، الجوهري: «جوجو الطائر والسفينة: صدرهما، والجمع:

الجاجي».

قوله: (وقد وجب ذلك، وقضي به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه): هذه التوكيدات يوجبها إخباره تعالى إياه عليه السلام بقوله: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾؛ إقناطاً من إيمانهم، ثم نبيه بقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ المشتغل على علة الإهلاك، لوضع المظهر موضع المضمّر^(١)، مع أنه عليه السلام لم يتوقع منه الاستسفاف فيهم

= تاء التأنيت، قال العلامة الزمخشري فيها تقدم في تفسير الآية ٧٨ من سورة الأنعام: «فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله: ﴿هَذَا رَجِي﴾، والإشارة للشمس؟ قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونها عبارة عن شيء واحد....، وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيت، ألا تراهم قالوا في صفة الله: «عَلَامٌ»، ولم يقولوا: «عَلَامَةٌ»، وإن كان «العلامة» أبلغ؛ احترازاً من علامة التأنيت».

(١) يعني: كان الظاهر أن يقال: لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا تبيس ولا تخاطبني فيهم، فعدك عن الضمير إلى الاسم المظهر، فقال: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وكان يعملها في برية بهماء في أبعَدِ موضعٍ مِنَ الماء، وفي وقتِ عَزِّ السَّاءِ فِيهِ عِزَّةٌ شديدة، فكانوا يتصاحكون ويقولون له: يا نوح، صِرتَ نجاراً بعدما كنتَ نبياً. ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ يعني: في المُستقبل، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ مِنَّا الساعة، أي: نَسْخَرُ مِنْكُمْ سُخْرِيَةً مِثْلَ سُخْرِيَتِكُمْ إِذَا وَقَعَ عَلَيْكُمْ الْغَرَقُ فِي الدُّنْيَا وَالْحَرَقُ فِي الْآخِرَةِ.

وقيل: إِنْ تَسْتَجْهِلُونَا فِيمَا نَصْنَعُ فَإِنَّا نَسْتَجْهِلُكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّعَرُّضِ لِسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالِاسْتِجْهَالِ مِنَّا، أَوْ: إِنْ تَسْتَجْهِلُونَا فَإِنَّا نَسْتَجْهِلُكُمْ فِي اسْتِجْهَالِكُمْ، لِأَنَّكُمْ لَا تَسْتَجْهِلُونَ إِلَّا عَنِ جَهْلِ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَبِنَاءٍ عَلَى ظَاهِرِ الْحَالِ، كَمَا هُوَ عَادَةُ الْجَهْلَةِ فِي الْبُعْدِ عَنِ الْحَقَائِقِ.

وروي: أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ اتَّخَذَ السَّفِينَةَ فِي سِتِّينَ، وَكَانَ طُولُهَا ثَلَاثَ مِئَةِ ذِرَاعٍ، وَعَرْضُهَا خَمْسُونَ ذِرَاعًا، وَطُولُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا، وَكَانَتْ مِنْ خَشَبِ السَّاجِ، وَجَعَلَ لَهَا ثَلَاثَةَ بُطُونٍ، فَحَمَلَ فِي الْبَطْنِ الْأَسْفَلِ: الْوَحُوشَ وَالسَّبَاعَ وَالْهَوَامَّ، وَفِي ...

بعد ما سَبَقَ مِنْهُ مِنَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، لَكِنْ جِيءَ بِهِ لِمَا عَسَى أَنْ تَدْخُلَهُ أَرْيَحِيَّةُ الرَّجِمِ، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ إِيقَاعُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ جَوَابًا لِسَائِلِ، وَتَأْكِيدُهُ بِ«إِنَّ».

قوله: (فِي بَرِّيَّةٍ بِهِمَاءٍ): الْبَهَاءُ: الْفَلَاةُ الَّتِي لَا يُهْتَدَى لِطَرَفِهَا، وَلَا مَاءَ فِيهَا، وَلَا عَلَمَ بِهَا.

قوله: (إِنْ تَسْتَجْهِلُونَا فِيمَا نَصْنَعُ، فَإِنَّا نَسْتَجْهِلُكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ): سَمَى سُخْرِيَتَهُمْ اسْتِجْهَالًا، لِأَنَّ السُّخْرِيَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ مِنْ بَابِ السَّفْهِ وَالْجَهْلِ، لِأَنَّهَا التَّعَرُّضُ لِسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، نَحْوُهُ جَوَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿الَّذِينَ خَذُوا هُرُوقًا﴾، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ.

البَطْنِ الأَوْسَطِ: الدَّوَابَّ والأَنْعَامَ، وَرَكِبَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي البَطْنِ الأَعْلَى مع ما يحتاجُ إليه مِنَ الزَّادِ، وَحَمَلَ مَعَهُ جَسَدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَهُ مُعْتَرِضاً بَيْنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ.

وعن الحسن: كَانَ طُولُهَا أَلْفًا وَمِئَتِي ذِرَاعَ، وَعَرَضُهَا سِتِّ مِثَّةٍ.

وقيل: إِنَّ الحَوَارِيَّينَ قَالُوا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ بَعَثْتَ لَنَا رَجُلًا شَهِدَ السَّفِينَةَ يُحَدِّثُنَا عَنْهَا، فَانطَلَقَ بِهِمْ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى كَثِيبٍ مِنْ تُرَابٍ، فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا كَعْبُ بْنُ حَامٍ، قَالَ: فَضْرَبَ الكَثِيبَ بِعِصَاهُ، فَقَالَ: قُمْ يَا ذَنْ الله، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنِ رَأْسِهِ، وَقَدْ شَابَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَهَكَذَا هَلَكْتَ؟ قَالَ: لَا، مُتُّ وَأَنَا شَابٌ، وَلَكِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا السَّاعَةُ، فَمِنْ ثَمَّ سَبَيْتُ، قَالَ: حَدِّثْنَا عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ، قَالَ: كَانَ طُولُهَا أَلْفَ ذِرَاعٍ وَمِئَتِي ذِرَاعَ، وَعَرَضُهَا سِتِّ مِثَّةٍ ذِرَاعَ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ: طَبَقَةُ لِلدَّوَابِّ وَالوَحُوشِ، وَطَبَقَةُ لِلإِنْسِ، وَطَبَقَةُ لِلطَّيْرِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: عُدْ يَا ذَنْ الله كَمَا كُنْتَ، فَعَادَ تُرَابًا.

﴿مَنْ يَأْنِيهِ﴾ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ بِ﴿تَعْلَمُونَ﴾، أَي: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ الَّذِي يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَيَعْنِي بِهِ إِيَاهُمْ، وَيُرِيدُ بِ«العَذَابِ»: عَذَابَ الدُّنْيَا، وَهُوَ العَرَقُ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ حُلُولَ الدِّينِ وَالحَقِّ اللّازِمِ الَّذِي لَا انْفِكَالَ لَهُ عَنْهُ، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وَهُوَ عَذَابُ الآخِرَةِ.

[﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ * ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَفَرَسَهَا﴾ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٠-٤١﴾]

قوله: (حُلُولَ الدِّينِ): نَصَبٌ عَلَى المَصْدَرِ، وَفِيهِ أَنَّ فِي الكَلَامِ اسْتِعَارَةَ إِمَّا تَبَعِيَّةً أَوْ مَكْنِيَّةً، شَبَّهَ حُكْمَ اللهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾ فِي قَضَائِهِ بِالدِّينِ وَلُزُومِهِ.

﴿ حَتَّى ﴾ هي التي يُبتدأ بعدها الكلام، دَخَلَتْ عَلَى الْجُمْلَةِ مِنَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ. فَإِنْ قُلْتَ: وَقَعَتْ غَايَةً لِمَاذَا؟ قُلْتُ: لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨]، أي: وكان يَصْنَعُهَا إِلَى أَنْ جَاءَ وَقْتُ الْمَوْعَدِ. فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا انْتَصَلَتْ ﴿حَتَّى﴾ بـ«يَصْنَعُ»، فما تصنعُ بما بينهما مِنَ الْكَلَامِ؟ قُلْتُ: هُوَ حَالٌ مِنْ «يَصْنَعُ»، كَأَنَّهُ قَالَ: يَصْنَعُهَا وَالْحَالُ أَنَّهُ كَلِمًا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا جَوَابُ «كُلَّمَا»؟ قُلْتُ: أَنْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَجْعَلَ ﴿سَخِرُوا﴾ [هود: ٣٨] جَوَابًا، وَ﴿قَالَ﴾ اسْتِثْنَاءً، عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالَ سَائِلٍ، أَوْ تَجْعَلَ ﴿سَخِرُوا﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿مَرَّ﴾، أَوْ صِفَةً لـ«مَلَأٌ»، وَ﴿قَالَ﴾ جَوَابًا.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿اِثْنَيْنِ﴾، وَكَذَلِكَ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ يَعْنِي: وَاحِلَ أَهْلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَاسْتِثْنَى مِنْ أَهْلِهِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،

قوله: (أو تجعل ﴿سَخِرُوا﴾ بدلًا من ﴿مَرَّ﴾): بَدَلُ الْاِسْتِثْنَاءِ، يَعْنِي: أَنَّ مُرُورَهُمْ كَانَ مُلْتَبَسًا بِالسُّخْرِيَّةِ، بِدَلِيلِ تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِـ«كُلَّمَا».

قوله: (﴿وَأَهْلَكَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿اِثْنَيْنِ﴾): هَذَا إِذَا قُرِئَ: «كُلُّ زَوْجَيْنِ» بِالْإِضَافَةِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا حَفْصًا^(١)، فَإِنَّهُ قَرَأَهُ بِتَنْوِينِ «كُلُّ» هَاهُنَا فِي الْمُؤْمِنِينَ^(٢)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «مَنْ قَرَأَ «كُلُّ» بِالْإِضَافَةِ: فَمَفْعُولٌ ﴿أَحْمَلُ﴾: ﴿اِثْنَيْنِ﴾، أَي: أَحْمَلُ فِيهَا اِثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ، وَ«مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ»: حَالٌ، لِأَنَّهُ صِفَةٌ نَكِرَةٌ قُدِّمَ عَلَيْهَا، وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّنْوِينِ: فَمَفْعُولٌ ﴿أَحْمَلُ﴾: ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وَ﴿اِثْنَيْنِ﴾: تَوْكِيدٌ لَهُ، وَ«مِنْ كُلِّ» عَلَى هَذَا: يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِـ«أَحْمَلُ»، وَأَنْ يَكُونَ حَالًا، وَالتَّقْدِيرُ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ صِنْفٍ^(٣).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٤، و«حجّة القراءات» ص ٣٣٩.

(٢) أي: في الآية ٢٧ منها، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَكَارَ الْوَعْدُ فَأَسْلَفْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾.

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٦٩٧-٦٩٨).

وما سَبَقَ عليه القولُ بذلكَ إلا للعلمِ بأنه يختارُ الكُفْرَ، لا لِتَقْدِيرِهِ عليه وإرادتهِ به، تعالى اللهُ عن ذلك. قَالَ الصَّحَّاحُ: أراد ابنه وامرأته.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «كانوا ثمانية: نوح، وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم»، وعن مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ: كانوا عَشْرَةَ: خمسةُ رجالٍ وخمسُ نِسوةٍ. وقيل: كانوا اثْنَيْنِ وسبعين رجلاً وامرأة، وأولادَ نوح: سام وحام وياث، ونساؤهم، فالجميعُ ثمانيةٌ وسبعون، نصفُهم رجال، ونصفُهم نساء.

ويجوزُ أن يكونَ كلاماً واحداً وكلامين:

فالكلامُ الواحدُ: أن يَتَّصَلَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ بـ ﴿أَرْكَبُوا﴾ حالاً مِنَ الواو، بمعنى: اركبوا فيها مُسَمَّينَ اللهُ، أو قائلين: «بسم الله»، وقتَ إجرائها ووقتَ إرسائها، إما لأنَّ «المجرى» و«المُرْسَى» للوقت، وإما لأنهما مصدرانِ كالإجراء والإرساء، حُذِفَ منهما..

وقالَ الرَّجَّاحُ: الرَّوْجُ في كلامهم: واحد، والاثنانِ يُقالُ لهما: رَوْجان، تقول: عندي رَوْجانٍ مِنَ الطَّيْرِ، تُريدُ: ذَكَرْتُ وَأُنْثَى فقط.

قوله: (وما سَبَقَ عليه القولُ بذلكَ إلا للعلمِ بأنه يختارُ الكُفْرَ، لا لِتَقْدِيرِهِ عليه وإرادتهِ): هذا المعنى قد تَكَرَّرَ في كلامِهِ بناءً على قاعِدَتِهِ^(١)، وقد ناقَضَ صَريحاً حيثُ أُثْبِتَ القَضَاءُ والقَدَرُ قَبْلَ هذا في قوله: «قد وَجَبَ ذلك، وَقُضِيَ به، وَجَفَّ القَلَمُ»^(٢)، وقد نفاهُ هاهنا، ويأبى اللهُ إلا إظهارَ الحقِّ، واللهُ أعلم.

قوله: (خمسَةُ رجالٍ وخمسُ نِسوةٍ): مرفوعٌ؛ بَدَلٌ مِنَ الواوِ في «كانوا».

(١) أي: مذهبه الاعتزالي في أن الله عزَّ وجلَّ لا يُريدُ الكُفْرَ والشَّرَّ والقبیح، وإنما يُريدُه العبدُ نفسه، ويقعُ بإرادة العبد لا بإرادة الله.

(٢) انظر ما تقدَّم في تفسير الآية ٣٦ من هذه السُّورة في «الكشاف» ص ٦٩.

الوقتُ المُضَافُ، كقولهم: خُفُوقَ النَجْمِ، ومَقْدَمَ الحَاجِ، ويجوزُ أن يُرادَ مكانا الإجراءَ والإرساءَ، وانتصابُهما في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مِن معنَى الفِعْلِ، أو بها فيه مِن إرادةِ القولِ.
والكلامان: أن يكونَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ بِحَرْبِهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ جُمْلَةً مِن مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ مُقْتَضِبَةٍ، أي: بِسْمِ اللَّهِ إِجْرَاؤُهَا وَإِرْسَاؤُهَا، يُروى: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ تَجْرِيَ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»....

قوله: (ومَقْدَمَ الحَاجِ): هو أيضاً يَحْتَمِلُ الأَمْرَيْنِ؛ المَصْدَرَ واسمَ الزمانِ، والمَصْدَرُ هو المُرَادُ فِي الاستِشْهادِ.

قوله: (وانتصابُهما): أي: ﴿بِحَرْبِهَا وَمُرْسِنَهَا﴾، سواءً كانا في معنَى الوقتِ أو المكانِ بها ذُكِرَ، ولا يجوزُ أن يَنْتَصِبَا بِ﴿أَرْكَبُوا﴾ فِي وقتِ الإجراءِ والإرساءِ أو في مكانِهما، وإنما المعنى: اركبوا الآنَ مُتَبَرِّكِينَ بِاسْمِ اللَّهِ فِي الوَقْتَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا يَنْفَكُ الرَّاكِبُونَ فِيهِمَا مِنَ الإجراءِ والإرساءِ.
قوله: (مُقْتَضِبَةٍ): أي: مُرْتَجَلَةٌ مُقْتَطَعَةٌ غَيْرُ مُتَّصِلَةٍ بِهَا قَبْلَهَا، الأساس: «ومن المجاز: اقْتَضَبَ الكلامُ: ارتَجَلَهُ، وكان يُحَدِّثُنَا فُلانٌ فُجاءَ زَيْدٌ فاقتَضَبَ حَدِيثَهُ، أي: انتزَعَهُ واقتَطَعَهُ». والاقْتِضابُ عُرْفًا: الخُروجُ مِن كلامٍ إلى آخَرَ لا عِلاقَةَ بَيْنَهما، ويُقابِلُهُ التَّخْلُصُ، وهو الخُروجُ إلى آخَرَ بِرابِطَةٍ مُناسِبَةٍ، ولا مُناسِبَةَ بَيْنَ الأَمْرِ بِالرُّكُوبِ وَبَيْنَ الإخبارِ^(١) بأنَّ تَجْرِي السَّفِينَةِ بِذِكْرِ اسمِ اللَّهِ وَمُرْسائِها؛ لِلإنْشائِيَةِ والخَبْرِيَةِ^(٢)، فَوَجَبَ القَطْعُ، قالَ الشاعرُ:

وقال رائدُهُم: أُرْسُوا نَزائِلُها فَكُلُّ حَنْفِ امرِي يَجْرِي لِلقَدارِ^(٣)

(١) في (ح): «بالركوب بالإخبار»، وفي (ف): «بالركوب بين الإخبار»، والمثبت من (ط).

(٢) أي: الأمر بالركوب: جملة إنشائية، والإخبار بأن تجرها ومرساها بذكر الله: جملة خبرية، فلا تناسب بين الجملتين.

(٣) وهو من شواهد سيبويه في «الكتاب» (٣: ٩٦)، والسكاكي في «مفتاح العلوم» ص ٢٦٩، ونسبه سيبويه للأخطل، ولم أقف عليه في «ديوانه».

فَجَرَّتْ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ تَرُسُوَ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» فَرَسَتْ. وَيَجُوزُ أَنْ يُقَحَّمَ «الاسم»، كقوله:

..... ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

وَيُرَادُ: بِاللَّهِ إِجْرَاؤُهَا وَإِرْسَاؤُهَا، أَي: بِقُدْرَتِهِ وَأَمْرِهِ.

قوله: (أَنْ يُقَحَّمَ الاسم)، الانتِصاف: «فَرَّ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَنَّ الْاسْمَ هُوَ الْمُسَمَّى، وَلَوْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ لَمَا جَعَلَهُ مُقَحَّمًا»^(١)، وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ فِيهِ بِالتَّفْصِيلِ فِي أَوَّلِ الْبَقْرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَنْتِئْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٣].

قوله: (ثم اسم السلام عليكما): تمامه:

فَقُومًا وَقُولًا بِالذِّي قَدْ عَرَفْتُمَا وَلَا تَحْمُسْنَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقْنَا الشَّعْرَ
إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ

قَالَه لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ^(٢)؛ يُوصِي ابْتِيهِ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بِالنَّدْبَةِ عَلَيْهِ قَوْلًا^(٣).

قوله: (ويُرَادُ: بِاللَّهِ إِجْرَاؤُهَا وَإِرْسَاؤُهَا): أَي: بِقُدْرَتِهِ، أَي: يَجُوزُ الْإِقْحَامُ عَلَى إِرَادَةِ تَقْدِيرِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَمَفْهُومُهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْإِقْحَامُ^(٤) عَلَى تَقْدِيرِ: «مُسَمَّيْنِ» أَوْ «قَائِلِينَ»، إِذْ لَا مَعْنَى لِقَوْلِنَا: قَائِلِينَ بِاللَّهِ، هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ الْمَصْدَرِ^(٥)، وَأَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ الزَّمَانِ أَوْ الْمَكَانِ فَيَكُونُ مِنْ بَابِ قَوْلِهِمْ: نَهَارُهُ صَائِمٌ، وَطَرِيقُ سَائِرٍ. هَذَا التَّقْدِيرُ يَجُوزُ تَنْزُلُهُ عَلَى كَلَامٍ وَاحِدٍ وَعَلَى كَلَامَيْنِ أَيْضًا.

(١) «الانتِصاف» لابن المنبِّير (٢: ٢٧٠) بحاشية «الكشاف».

(٢) «ديوان لبيد» ص ٧٩.

(٣) هذه الفقرة أُخْرِتْ فِي (ح) وَ(ف) بِإِثْرِ الَّتِي بَعْدَهَا، وَوَرَدَتْ فِي (ط) هُنَا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لـ«الكشاف».

(٤) مِنْ قَوْلِهِ: «عَلَى تَقْدِيرِ قُدْرَةِ اللَّهِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح)، وَاسْتَدْرَكْتُهُ مِنْ (ط) وَ(ف)، إِلَّا أَنَّ فِي (ف): «عَلَى الْإِرَادَةِ تَقْدِيرِ قُدْرَةِ اللَّهِ» وَلَفْظَةُ «الْإِرَادَةُ» اسْتَدْرَكْتَ فِي (ط) عَلَى الْحَاشِيَةِ، وَلَمْ يَظْهَرِ مِنْهَا إِلَّا «دَةً»، فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «إِرَادَةً»، وَهُوَ الْأَنْسَبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٥) أَي: عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ «الْمَجْرِيُّ» وَ«الْمُرْسِيُّ» - فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجْرِبْنَهَا وَأَمْرُسْنَهَا﴾ - مَصْدَرَيْنِ.

وَقُرِي: (جَرَّاهَا وَمَرَّسَاهَا) بَفَتْحِ الْمِيمِ؛ مِنْ: جَرِيٌّ وَرَسِيٌّ، إِمَّا مَصْدَرَيْنِ أَوْ وَقْتَيْنِ أَوْ مَكَائِنِ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ: «مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا» بِلَفْظِ اسْمِ الْفَاعِلِ، مَجْرُورِي الْمَحَلِّ؛ صِفَتَيْنِ لِلَّهِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِكَ: جُمْلَةٌ مُقْتَضِبَةٌ؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَهُمُ بِالرُّكُوبِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ جَرَّاهَا وَمُرَّسَاهَا بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ، أَوْ بِأَمْرِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مُقْتَضِبَةً بِأَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، كَقَوْلِهِ:

وَجَاؤُونَا بِهِمْ سَكَّرَ عَلَيْنَا

قَوْلُهُ: (جَرَّاهَا وَمَرَّسَاهَا): بَفَتْحِ الْمِيمِ: حَمَزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ^(١)، وَالْباقُونَ: بِضَمِّهَا، وَقِرَاءَةٌ مُجَاهِدٌ: شَادَّةٌ.

قَوْلُهُ: (بَفَتْحِ الْمِيمِ؛ مِنْ: جَرِيٌّ وَرَسِيٌّ): قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «مُجْرِيٌّ وَمُرْسِيٌّ: بِضَمِّ الْمِيمِ؛ مَصْدَرٌ أَجْرِيَّتَ مُجْرِيٍّ، وَبَفَتْحِهَا؛ مَصْدَرٌ جَرِيَّتَ وَرَسِيَّتَ»^(٢).

قَوْلُهُ: (وَجَاؤُونَا بِهِمْ سَكَّرَ عَلَيْنَا): تَمَامُهُ:

فَأَجَلِي الْيَوْمُ وَالسَّكْرَانُ صَاحِ^(٣)

«بِهِمْ سَكَّرَ»: أَي: سَكَّرِينَ، يَعْنِي: سُكَارَى، بِمَعْنَى: غَضَابٌ عَلَيْنَا، «سَكَّرَ»: مُبْتَدَأٌ، وَ«بِهِمْ»: خَبَرٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ - بَلَا وَوَاوٍ^(٤) - مِنْ ضَمِيرِ «جَاؤُونَا»، وَ«عَلَيْنَا» يَتَعَلَّقُ بِ«سَكَّرَ»، وَ«أَجَلِي»: بِمَعْنَى: جَلِيٌّ، أَي: انْكَشَفَ.

(١) وكذا حفص، وهذا في اللفظة الأولى «جَرَّاهَا» فقط، وأمال ثلاثهم الألف بعد الراء. انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٣٣، و«التيسير» للداني ص ١٢٤، و«حجة القراءات» ص ٣٤٠.

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٦٩٨).

(٣) سيأتي البيت بتمامه عند الزمخشري في تفسير الآية ٦٧ من سورة النحل (٩: ١٥١).

وقوله: «سَكَّرَ»: يُرْوَى: بِضَمَّتَيْنِ «سَكَّرَ»؛ أَرَادَ «سَكَّرَ» فَاتَّبَعَ الضَّمَّ الضَّمَّ، وَبِفَتْحَتَيْنِ «سَكَّرَ»؛ أَي: غَيِظٌ وَغَضَبٌ. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (سكَّر).

(٤) أَي: بَلَا وَوَاوٍ الْحَالِ، يَعْنِي: أَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يُقَالَ: «وَجَاؤُونَا بِهِمْ سَكَّرَ».

فلا تكونُ كلاماً برأسه، ولكنْ فَضْلَةٌ مِنْ فَضَلَاتِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، وَاِنْتِصَابُ هَذِهِ الْحَالِ عَنْ ضَمِيرِ «الْفُلْكِ»، كَأَنَّهُ قِيلَ: ارْكَبُوا فِيهَا مَجْرَاءً وَمُرْسَاةً بِاسْمِ اللَّهِ، بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَلِيدِينَ﴾ [الرَّمَر: ٧٣].

قوله: (وَأَنْتِصَابُ هَذِهِ الْحَالِ عَنْ ضَمِيرِ الْفُلْكِ): قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ، إِذِ الْحَالُ إِنَّمَا تَكُونُ مُقَدَّرَةً لَوْ كَانَتْ مُفْرَدَةً، بِمَعْنَى: مَجْرَاءً، أَمَا إِذَا كَانَتْ جُمْلَةً فَلَا، لِأَنَّ الْجُمْلَةَ مَعْنَاهَا: ارْكَبُوا وَبِاسْمِ اللَّهِ إِجْرَاءُهَا، وَهَذَا وَقَعَ حَالُ الرُّكُوبِ.

وَقُلْتُ: الْمُنْصَفُ جَعَلَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقًا بِ«مَجْرَاءَ» عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، وَهَذَا قَالَ: «مَجْرَاءَ بِاسْمِ اللَّهِ»، وَهِيَ مُفْرَدَةٌ، فَالْجُمْلَةُ مُؤَوَّلَةٌ بِهَا لِفَقْدَانِ الْوَاوِ، كَقَوْلِهِ: كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيٍّ، فَيَكُونُ قِيْدًا لـ ﴿أَرْكَبُوا﴾، وَلَا يُشْكُ أَنْ إِجْرَاءَهَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الرُّكُوبِ، فَتَكُونُ مُقَدَّرَةً، كَمَا تَقُولُ: ارْكَبِ الْفَرَسَ سَائِرًا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَأَمَا مَعَ الْوَاوِ فَلَا تَفْتَقِرُ إِلَى التَّقْدِيرِ، كَمَا تَقُولُ: ارْكَبِ الْفَرَسَ وَبِإِذْنِ اللَّهِ سَيْرُهُ.

عَلَى أَنْ أَبَا الْبَقَاءِ أَجَازَ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ حَالًا مُقَدَّرَةً، قَالَ: ﴿بَجَرِبْنَهَا﴾ مُبْتَدَأً، وَ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ خَبْرُهُ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، وَصَاحِبُهَا الْوَاوُ فِي ﴿أَرْكَبُوا﴾، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مِنْ الْمَاءِ، أَي: ارْكَبُوا فِيهَا وَجَرِيئًا بِاسْمِ اللَّهِ، وَهِيَ مُقَدَّرَةٌ أَيْضًا^(١)، وَتَبِعَهُ صَاحِبُ «الْكَوَاشِي» وَالْقَاضِي^(٢).

وَلِلشَّيْخِ مَكِّيٍّ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَلَامٌ مَبْسُوطٌ، قَالَ: ﴿بَجَرِبْنَهَا وَمُرْسَنَهَا﴾: فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْأَبْتِدَاءِ، وَالْخَبَرِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي ﴿فِيهَا﴾، وَالْعَائِدُ ضَمِيرُ ﴿بَجَرِبْنَهَا﴾، لِأَنَّهُ لِلْسَّفِينَةِ، وَالْعَامِلُ فِي الْحَالِ: الْفِعْلُ^(٣)، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مِنْ

(١) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٦٩٨).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٤).

(٣) كذا في الأصول الخطية، وفي العبارة اختصاراً شديداً إن لم يكن سقطاً، وأصلها - كما في «مشكل إعراب القرآن» لمكي -: «والعامل في الحال: ما في ﴿فِيهَا﴾ من معنى الفعل».

﴿إِن رَّبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لولا مَغْفِرَتُهُ لِدُنُوبِكُمْ، وَرَحْمَتُهُ لِيَاكُم، لَمَّا نَجَّأَكُم.

[﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ * قَالَ سَوَاءٌ إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [٤٢-٤٣]

الضَّمِيرِ فِي ﴿أَرْكَبُوا﴾، لِأَنَّهُ لَا عَائِدَ فِيهَا يَرْجِعُ إِلَى ذِي الْحَالِ، لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ عَائِدٌ إِلَى الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ ﴿بِحَرْبِنَهَا﴾.

وَيَجُوزُ أَنْ يَرْتَفَعَ ﴿بِحَرْبِنَهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ بِ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿أَرْكَبُوا﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَّصِبَا عَلَى الظَّرْفِ مِنْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، أَي: أَرْكَبُوا فِيهَا مُتَبَرِّكِينَ بِاسْمِ اللَّهِ فِي وَقْتِ إِجْرَائِهَا وَإِرْسَائِهَا، نَحْو: آتِيكَ مَقْدَمَ الْحَاجِّ.

وَلَا يَعْمَلُ فِيهِمَا ﴿أَرْكَبُوا﴾، لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ: أَرْكَبُوا فِيهَا فِي وَقْتِ الْجَزْيِ وَالرُّسُوءِ، وَلَا يَحْسُنُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ بِحَرْبِنَهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ حَالاً مِنَ الْهَاءِ فِي ﴿فِيهَا﴾، لِأَنَّهُ لَا عَائِدَ يَرْجِعُ إِلَى ذِي الْحَالِ، وَلَا يُكْتَفَى بِالضَّمِيرِ فِي ﴿بِحَرْبِنَهَا﴾، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جُمْلَةِ الْحَالِ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَرْفٌ مُلغَى^(١)، إِذْ يَصِيرُ التَّقْدِيرُ: أَرْكَبُوا فِيهَا مُتَبَرِّكَةً بِاسْمِ اللَّهِ فِي وَقْتِ الْجَزْيِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ التَّبَرُّكَ إِنَّمَا هُوَ لِرُكَّابِهَا لَا لَهَا.

وَلَوْ جَعَلَتْ ﴿بِحَرْبِنَهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ فِي مَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ، لَكَانَتْ حَالاً مُقَدَّرَةً، وَالْعَامِلُ مَا فِي ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، أَي: بِاسْمِ اللَّهِ جَارِيَةً وَرَاسِيَةً، هَذَا تَلْخِيصُ كَلَامِهِ. ثُمَّ قَالَ: «اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ أَمْهَاتِ مَسَائِلِ النَّحْوِ وَغُرَرِهَا»^(٢).

قوله: (لولا مَغْفِرَتُهُ لِدُنُوبِكُمْ، وَرَحْمَتُهُ لِيَاكُم، لَمَّا نَجَّأَكُم): يُرِيدُ: أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِن رَّبِّي

(١) تَقَدَّمَ بَيَانُ الْمُرَادِ بِ«الظَّرْفِ الْمُلغَى» تَعْلِيْقاً عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٥٨ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ.

(٢) «مُشْكِلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِمَكِّي بْنِ أَبِي طَالِبٍ (١: ٣٦١-٣٦٤).

فإن قلت: بِمِ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾؟ قلتُ: بِمَحذُوفٍ دَلٌّ عَلَيْهِ ﴿أَرْكَبُوا﴾ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَارْكَبُوا فِيهَا يَقُولُونَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، أَي: تَجْرِي وَهُمْ فِيهَا، ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ يُرِيدُ: مَوْجَ الطُّوفَانِ، شَبَّهَ كُلَّ مَوْجَةٍ مِنْهُ بِالْجِبَلِ فِي تَرَاكُمِهَا وَارْتِفَاعِهَا.

لِغُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ بَيِّنَةٌ لِلْمُوجِبِ، وَلَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ عِلَّةً ﴿أَرْكَبُوا﴾ لِغَدَمِ الْمُنَاسِبَةِ، فَيُقَدَّرُ مَا يَصِحُّ بِهِ الْكَلَامُ بِأَن يُقَالَ: امْتَثِلُوا هَذَا الْحُكْمَ لِيُنَجِّيَكُم مِّنَ الْهَلَاكِ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، أَوْ يُقَالَ: ارْكَبُوا فِيهَا ذَاكِرِينَ اللَّهَ وَلَا تَخَافُوا الْعَرْقَ بِمَا عَسَى أَنْ فَرَطَ مِنْكُمْ تَقْصِيرًا، لِأَنَّ اللَّهَ غُفُورٌ رَحِيمٌ.

وَفِيهِ أَنَّ نَجَاتَهُمْ لَمْ تَكُنْ لَا سِتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، بَلْ بِمَحْضِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ، كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غُفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]؛ قَالَ (١): «فِيَانِهِ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّهُمْ اسْتَوْجَبُوا لِمُكَابَرَتِهِمْ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ صَبًّا، وَلَكِنْ صَرَفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ أَنَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ».

قَوْلُهُ: (أَي: تَجْرِي وَهُمْ فِيهَا): يُرِيدُ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِهِمْ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ ﴿تَجْرِي﴾، نَحْوُهُ:

تَدُوسُ بِنَا الْجَاهِمِ وَالتَّرِيْبَا (٢)

(١) أَي: الزُّخْمَشْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ.

(٢) انْظُرْ: «شَرْحُ دِيْوَانِ الْمُتَنَبِّيِّ» لِلوَاحِدِيِّ (١: ٤٢٣)، وَأَوَّلُهُ:

فَمَرَّتْ غَيْرَ نَافِرَةٍ عَلَيْهِمْ

قَالَ الْوَاحِدِيُّ: «أَي: وَطِئَتْ رُؤُوسَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، وَنَحْنُ عَلَيْهَا، وَلَمْ تَنْفِرْ عَلَيْهِمْ».

وَتَقَدَّمَ صَدْرُ الْبَيْتِ عِنْدَ الزُّخْمَشْرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٥٠ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

فإن قلت: المَوْج: ما يَرْتَفِعُ فوقَ الماءِ عندَ اضطرابه وِزْخيره، وكانَ الماءُ قد التقى وطبقَ ما بينَ السماءِ والأرضِ، وكانتِ الفُلكُ تجري في جَوْفِ الماءِ، كما تَسْبِحُ السَّمَكَةُ، فما معنى جَرِيها في المَوْجِ؟ قلتُ: كانَ ذلكَ قبلَ التطبيقِ، وقبلَ أن يَغْمَرَ الطُّوفانُ الجبالَ، ألا ترى إلى قولِ ابنه: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، قيل: كانَ اسمُ ابنه: كنعان، وقيل: يام.

وقرأ عليُّ رضيَ اللهُ عنه: «ابنها»، والضميرُ لامرأته، وقرأ مُحَمَّدُ بنُ عليٍّ وعُروَةُ بنُ الزُّبَيْرِ: «ابنة» بفتحِ الهاءِ؛ يُريدان: ابناً، فاكتفياً بالفتحة عن الألفِ، وبه يُنصَرُ مذهبُ الحسنِ، قال قتادة: سألتُه فقال: والله ما كانَ ابنه، فقلت: إنَّ اللهَ حكى عنه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، وأنتَ تقول: لم يكنَ ابنه، وأهلُ الكتابِ لا يَختلفونَ في أنه كانَ ابنه؟ فقال: وَمَنْ يَأْخُذُ دِينَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ!

قوله: (المَوْج: ما يَرْتَفِعُ فوقَ الماءِ): وَجْهُ السُّؤالِ: أنَ الرِّوَايَةَ أنه تلاقى ماءُ الأرضِ والسماءِ، وكانتِ السَّفِينَةُ تجري في جَوْفِ الماءِ، ومعنى «المَوْج»: ما يَرْتَفِعُ فوقَ الماءِ من هَيْئَةِ كالجبالِ، فبينهما تنافٍ. وأجاب: أنَ الجريانَ في المَوْجِ في زمانٍ، وفي جَوْفِ الماءِ في زمانٍ، وقال القاضي: «الرِّوَايَةُ لَيْسَتْ بِثَابِتَةٍ»^(١).

قوله: (وِزْخيره)، الجوهري: «زَخَرَ الوادي: إذا امتدَّ جِدًّا وارتفعَ، يُقال: بَحَرُ زَاخِرٌ». قوله: (وكانَ الماءُ قد التقى): مُقتَبَسٌ من قولهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ [القمر: ١٢]، وقال^(٢): «يعني: مياةَ السماءِ والأرضِ»^(٣).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٥).

(٢) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة القمر (١٥: ١٢٦).

(٣) هذه الفقرة - من قوله: «قوله: وكان السماء» إلى هنا - قُدِّمَتْ في (ح) و(ف) قبلَ فقرة: «قوله: أي: تجري وهم فيها»، ووردت في (ط) في هذا الموضع، وهو المناسبُ لترتيب الكلام في «الكشاف».

وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾، ولم يقل: مِنِّي. وَلِنَسَبِيَّتِهِ إِلَى أُمِّهِ وَجْهَانٍ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ رَيْبِيًّا لَهُ، كَعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يَكُونَ لَغَيْرِ رِشْدَةٍ، وَهَذِهِ غَضَاضَةٌ عَصِمَتْ مِنْهَا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقَرَأَ السُّدِّيُّ: «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَاهُ»؛ عَلَى النَّذْبَةِ وَالتَّرْتِي، أَي: قَالَ: يَا ابْنَاهُ.

وَالْمَعْرَلُ: «مَفْعِلٌ، مِنْ: عَزَلَهُ عَنْهُ: إِذَا نَحَّاهُ وَأَبْعَدَهُ، يَعْنِي: وَكَانَ فِي مَكَانٍ عَزَلَ فِيهِ نَفْسَهُ عَنْ أَبِيهِ وَعَنْ مَرْكَبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ: كَانَ فِي مَعْرَلٍ عَنْ دِينِ أَبِيهِ.

﴿يَبْنِي﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ الْيَاءِ اقْتِصَارًا عَلَيْهِ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَبِالْفَتْحِ اقْتِصَارًا عَلَيْهِ مِنَ الْأَلْفِ الْمُبْدَلَةِ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، فِي قَوْلِكَ: «يَا بُنْيَا»، أَوْ سَقَطَتِ الْيَاءُ وَالْأَلْفُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، لِأَنَّ الرَّاءَ بَعْدَهُمَا سَاكِنَةٌ.

قَوْلُهُ: (وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنِّي): أَي: قَتَادَةُ، قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيْبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ، إِذْ لَوْ صَحَّ لَمَّا نَفَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، أَي: مِنْ جُمْلَةِ أَهْلِي، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ صُلْبِهِ، أُجِيبَ بِـ«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» لِقَطْعِ الْوِلَايَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَمَنْ تَمَّ عَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

قَوْلُهُ: (كَعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ): وَفِي «الاسْتِيعَابِ»: «هُوَ عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ الْقُرَشِيِّ الْمَخْزُومِيِّ، رَيْبِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أُمُّهُ أُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَوُلِدَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَتُوِّفِيَ فِي الْمَدِينَةِ سَنَةَ ثَلَاثِ وَثَمَانِينَ، وَعُمَرَ: بِضَمِّ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الْمِيمِ»^(١).

قَوْلُهُ: (لَغَيْرِ رِشْدَةٍ)، الْجَوْهَرِيُّ: «هُوَ لِرِشْدَةٍ، بِخِلَافِ قَوْلِكَ: لِرِزْنِيَّةٍ».

قَوْلُهُ: (قُرِئَ بِكَسْرِ الْيَاءِ اقْتِصَارًا): قَرَأَ عَاصِمٌ: ﴿يَبْنِي﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ، وَالْبَاقُونَ بِكَسْرِهَا^(٢).

(١) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢: ٤٧٤-٤٧٥ بحاشية «الإصابة» لابن حجر).

(٢) انظر: «التيسير» ص ١٢٤، و«حجة القراءات» ص ٣٤٠.

﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾: إلا الراجِم، وهو اللهُ تعالى، أو: لا عاصِمَ اليومَ مِنَ الطُّوفَانِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللهُ، يعني: إلا مكانَ مَنْ رَجِمَ اللهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وكانَ لهم غفوراَ رحيمًا، في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وذلكَ أنه لَمَّا جَعَلَ الجبلَ عاصِمًا مِنَ الماءِ،

قالَ الزَّجَّاجُ: «الكَسْرُ أجود، ووجهه: أنَّ الأصلَ: يا بُنَيَّ، والياءُ تُحذفُ في النداءِ، ويبقى الكَسْرُ ليدلَّ عليها، أو تُحذفُ الياءُ لسكونِ الراءِ من ﴿أَرْكَبُ﴾، وتُقرَّرُ في الكتابِ على ما هي عليه في اللفظ. ووجهُ الفتح: أنَّ الأصلَ: يا بُنَيَّ، فُتبدلُ الألفُ مِن ياءِ الإضافةِ، ثم تُحذفُ الألفُ لسكونِها وسكونِ الراءِ، وتُقرَّرُ في الكتابةِ على حذِّها في اللفظ، أو أن تُحذفَ الألفُ في النداءِ كما تُحذفُ ياءُ الإضافةِ، لأنَّ ياءَ الإضافةِ زيادةٌ في الاسمِ، كما أن التَّنوينَ زيادةٌ فيه، فيُحذفُ أيضًا»^(١).

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ إلا الراجِم) إلى آخره، الانتِصافُ: «الاحتمالاتُ المُمكنَةُ أربعة: لا عاصِمَ إلا راجِم، ولا مَعْصومَ إلا مَرْحوم، ولا عاصِمَ إلا مَرْحوم، ولا مَعْصومَ إلا راجِم، والأولانِ استثناءٌ مِنَ الجِنسِ، والآخِرانِ مِن غيرِ الجِنسِ، وزادَ الزمخشرِيُّ خامسًا: ولا عاصِمَ إلا مَرْحوم؛ على أنه مِنَ الجِنسِ، على تأويلِ حذْفِ المكانِ^(٢)، والكلُّ جائزٌ»^(٣).

قلت: هذا إنما يَتِمُّ إذا جُمِلَ قولُه: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ إلا الراجِم» على: لا عاصِمَ إلا الراجِم، ولا مَعْصومَ إلا الراجِم.

قوله: (إلا مكانَ مَنْ رَجِمَ اللهُ): أي: مكانَ المُؤْمِنِينَ، لأنه تعالى رَجَمَهُم حينَ رَكِبُوا في السَّفينةِ، بدليلِ إيقاعِ قولِه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليلًا للأمر، وهو ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا﴾، والوصفُ

(١) كلامُ الزَّجَّاجِ هذا أثبتَه هكذا من (ط) و(ح)، ووقع فيه في (ف) حَلَلٌ بالتقديمِ والتأخيرِ والزيادةِ والنقصِ، والمُتَّبَتُّ هو المُوافِقُ لِمَا في «معاني القرآن وإعرابه» للزَّجَّاجِ (٣: ٥٤).

(٢) ولفظُ ابنِ المُبَرِّزِ في «الانتِصافِ»: «بتأويلِ حذفِ المُضَافِ، تقديرُه: لا مكانَ عاصِمٍ إلا مكانَ مَرْحومٍ»، وقال: «المُرَادُ بالمنفِيِّ التعريضُ بعدمِ عِصمةِ الجبلِ، وبالمُتَّبَتِّ التعريضُ بعِصمةِ السَّفينةِ».

(٣) «الانتِصافِ» (٢: ٢٧٠-٢٧١) بحاشية «الكشاف».

قَالَ لَهُ: لَا يَعْصِمُكَ الْيَوْمَ مُعْتَصِمٌ قَطُّ مِنْ جَبَلٍ وَنَحْوِهِ سِوَى مُعْتَصِمٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ مَكَانٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَنَجَاهُ، يَعْنِي: السَّفِينَةَ. وَقِيلَ: ﴿لَا عَاصِمَ﴾: بِمَعْنَى: لَا ذَا عِصْمَةٍ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَلَأُوْا دَافِقِ﴾ [الطارق: ٦]، و﴿عِشَّةَ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. وَقِيلَ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَكِنْ مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ فَهُوَ الْمَعْصُومُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]. وَقُرِئَ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

مُنَاسِبٌ لِلْحُكْمِ، وَإِنَّمَا أَتَى فِي هَذَا الْوَجْهِ بِقَوْلِهِ: «وَكَانَ لَهُمْ غَفُورًا رَحِيمًا» مَعَ أَنَّ الرَّحْمَةَ شَائِعَةٌ فِي الْوُجُوهِ؛ لِأَنَّ الْإِضَافَةَ لِلتَّعْرِيفِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَعْهُودٍ سَابِقٍ، وَهُوَ السَّفِينَةُ.

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: ﴿لَا عَاصِمَ﴾: بِمَعْنَى: لَا ذَا عِصْمَةٍ): وَقَالَ الرَّجَّاجُ: «يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿عَاصِمَ﴾ فِي مَعْنَى: مَعْصُومٍ، أَيْ: لَا ذَا عِصْمَةٍ^(١)، كَمَا قَالُوا: ﴿عِشَّةَ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]: أَيْ: مَرْضِيَّةً، وَ﴿مَنْ﴾ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، أَيْ: لَا مَعْصُومَ إِلَّا الْمَرْحُومَ»^(٢).

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «﴿عَاصِمَ﴾ بِمَعْنَى: ذِي عِصْمَةٍ عَلَى النَّسَبِ، مِثْلُ: حَائِضٍ وَطَالِقٍ، وَالْإِسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، وَخَبْرٌ ﴿لَا﴾: ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾، وَ﴿الْيَوْمَ﴾ مَعْمُولُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿الْيَوْمَ﴾ مَعْمُولٌ ﴿عَاصِمَ﴾، إِذْ لَوْ كَانَ لُنُؤْنٌ، وَلَا يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ خَبْرًا؛ لِأَنَّ ﴿الْيَوْمَ﴾ ظَرْفٌ، فَلَا يَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى الْجَنَّةِ»^(٣).

قَوْلُهُ: (﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَكِنْ مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ فَهُوَ الْمَعْصُومُ): قَالَ الرَّجَّاجُ: «فَعَلَى هَذَا مَوْضِعُ ﴿مَنْ﴾ نَصْبٌ، الْمَعْنَى: لَكِنْ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ فَإِنَّهُ مَعْصُومٌ»^(٤)، فَالْمَعْصُومُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْعَاصِمِ، لِأَنَّ اسْمَ الْمَفْعُولِ غَيْرِ، وَاسْمَ الْفَاعِلِ غَيْرِ، كَمَا أَنَّ الظَّنَّ غَيْرُ الْعَالِمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

(١) من قوله: «وقال الرججاج» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للرججاج (٣: ٥٤-٥٥).

(٣) «البيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٧٠٠).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للرججاج (٣: ٥٤).

[﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى

الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوَمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٤٤]

نداء الأرض والسماء بما يُنادى به الحيوان المميّز، على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾ و﴿وَنَسَمَاءَ﴾، ثم أمرهما بما يُؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ابْلَيْ مَاءَكَ﴾ و﴿أَقْلِي﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام مُنقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير مُمتنعة عليه، كأنها عقلاء مُميّزون، قد عرفوا عظمتَه وجلالته.....

قوله: (نداء الأرض): هو مُبتدأ، والخبر: «من الدلالة على الاقتدار العظيم»، و«أن السماوات والأرض» إلى آخره: تفسيرٌ للاقتدار العظيم، وأدخل العاطف كما هو دأبه وعادته.

قوله: (مُنقادة لتكوينه فيها ما يشاء) إلى آخره: مُستفادٌ من تعقيب النداء بلفظ ﴿ابْلَيْ﴾، فإن من عادة مَنْ يأمر المطيع - الذي إذا أمر لم يتوقف إذعائه - أن يُقدّم النداء على الأمر، ليتمكّن الأمر الواردُ عقبيه في نفس المأمور، فيكون امثالُه للأمر أسرع مما لم يُذكر معه النداء، سيّما «يا»، فإنها تدلُّ على أن الخطاب المتلوّ بعده معنيٌّ به جدّاً، فالأمر بعد النداء هنا ترشيحٌ للاستيعارة؛ سببه السماوات والأرض بالمأمور الذي لا يتأتى منه العصيان لكمال هنية الأمر، وأدخلهما في جنس ذلك المأمور، ثم خيّل أنها مأموران بعينيهما، فقول: ﴿يَا أَرْضُ﴾ و﴿وَنَسَمَاءَ﴾، وجعلت القرينة الخطاب للجهد، ثم سمي التشبيه رأساً، وبني على الفرع الذي هو المشبه ما يُبنى على الأصل المشبه به، قائلاً: ﴿ابْلَيْ﴾ و﴿أَقْلِي﴾.

قال الزجاج رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿يَنْحَسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]:

«الفائدة في مُناداتها كالفائدة في مُناداة مَنْ يعقل، لأن النداء بابُ تنبيه، فإذا قلت: يا زيد، فإن لم تكن دعوته لتُخاطبه بكلام غير النداء لم يكن له معنى، وإنما تُناديه لتنبهه بالنداء، ثم تقول

وِثْوَابِهِ وَعِقَابِهِ وَقُدْرَتَهُ عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ، وَتَبَيَّنُوا تَحَتَّمِ طَاعَتِهِ عَلَيْهِمْ وَانْقِيَادِهِمْ لَهُ، وَهُمْ يَهَابُونَهُ وَيَفْزَعُونَ مِنَ التَّوَقُّفِ دُونَ الْإِمْتِثَالِ لَهُ، وَالنُّزُولِ عَلَى مَشِيئَتِهِ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ غَيْرِ رَيْثٍ، فَكَمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ كَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ مَفْعُولًا، لَا حَبْسَ وَلَا إِبطَاءَ.

وَالْبَلْعُ: عِبَارَةٌ عَنِ النَّشْفِ، وَالْإِقْلَاعُ: الْإِمْسَاكُ، يُقَالُ: أَقْلَعُ الْمَطْرَ،

له: فعلتَ كذا، وافعلَ كذا، ألا ترى أنك إذا قلتَ لمن هو مُقْبَلٌ عليك: يا زيد ما أحسنَ ما صنعَ ما صنعَ، كانَ أو كَدَّ مما إذا قلتَ: ما أحسنَ ما صنعَ»^(١).

قوله: (وَالنُّزُولِ عَلَى مَشِيئَتِهِ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ غَيْرِ رَيْثٍ): أي: بُطْءَ، هذا مبنيٌّ على أن الأمر: هل يُفِيدُ الْفَوْرَ أم لا؟ فَإِنَّ عِنْدَ بَعْضِ الْحَنَفِيَّةِ يُفِيدُهُ^(٢)، قَالَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ»: «الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ حَقُّهُمَا الْفَوْرُ»^(٣)، سَيِّمًا الْمَقَامَ مَقَامَ الْعِظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ وَأَنْ لَا قَوْلَ نَمَّةٍ، بَلْ هُوَ التَّمْثِيلُ، قَالَ الْمُصَنِّفُ فِي «كُنْ فَيَكُونُ» [البقرة: ١١٧]: «لَا قَوْلَ نَمَّةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَمْثِيلٌ أَنْ مَا قَضَاهُ وَأَرَادَ كَوْنَهُ، فَإِنَّمَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْوُجُودِ مِنْ غَيْرِ امْتِنَاعٍ وَلَا تَوَقُّفٍ».

قوله: (فَكَمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ): قَالَ فِي «اللُّبَابِ»: وَتُسْتَعْمَلُ الْكَافُ لِلْقِرَانِ فِي الْوُقُوعِ، نَحْوُ: كَمَا حَضَرَ زَيْدٌ قَامَ عَمْرُو، أَي: اقْتَرَنَ الْقِيَامُ وَالْحَضُورُ فِي الْوُقُوعِ، فَهِيَ مُتَشَابِهَانِ فِي الْمُقَارَنَةِ فِي الْوُقُوعِ.

قوله: (وَالْبَلْعُ: عِبَارَةٌ عَنِ النَّشْفِ): اسْتِعَارَ لِعُغُورِ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ: الْبَلْعُ الَّذِي هُوَ إِعْمَالُ الْجَارِحَةِ^(٤) فِي الْمَطْعُومِ، وَإِدْخَالَهُ فِي الْحَلْقِ.

قوله: (وَالْإِقْلَاعُ: الْإِمْسَاكُ): خُولِفَ بَيْنَ تَفْسِيرِ الْقَرِيئَتَيْنِ؛ لِيُؤْذَنَ أَنَّ «الْبَلْعَ» جَارٍ مَجْرَى

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٢٨٤).

(٢) وهو قول الكرخي منهم، والمُعْتَمَدُ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُفِيدُهُ، كَمَا فِي «أصول السرخسي» (١: ٢٦).

(٣) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٣٢٠.

(٤) (ف) إلى: «الحادثة»، وهو تحريف، وفي (ط): «الجاذبة»، والمثبت من (ح).

وَأَقْلَعَتِ السَّحْمَى، ﴿وَعَيْضَ الْمَاءِ﴾ مِنْ: غَاضَهُ: إِذَا نَقَصَهُ، ﴿وَقَصِيَ الْأَمْرُ﴾: وَأَنْجَزَ مَا وَعَدَ اللَّهُ نُوحًا مِنْ هَلَاكِ قَوْمِهِ، ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾: وَاسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ، ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾.....

الترشيح، لأنه صفةٌ مُلائمةٌ للمُستعارِ منه، وأنَّ الإقلاعَ يجري مجرى التجريد، لأنه صفةٌ مُلائمةٌ للمُستعارِ له^(١)، ولهذا قال: «أَقْلَعَ الْمَطْرَ»، وإنما اختيرَ الترشيحُ الذي هو أبلغُ في جانب الأرض، والتجريدُ في السماء، لأنَّ إذهابَ الماءِ لِمَا كَانَ مطلوباً أولاً، وليسَ للسَّمَاءِ فيه سِوَى أَنْ تَمْسِكَ مَا كَانَتْ تُدِرُّ، فقيل: ﴿أَقْلَعِي﴾، وإنما الأَرْضُ هِيَ الَّتِي تَقْدِرُ عَلَى الإِذْهَابِ الْمَطْلُوبِ بِأَنْ تَمْسِكَ مَا كَانَ يَنْبُعُ مِنْهَا، وتُنشَفُ مَا فِيهَا، فقيل: ﴿أَبْلَعِي﴾ على المجاز.

قوله: ﴿وَعَيْضَ الْمَاءِ﴾ مِنْ: غَاضَهُ: إِذَا نَقَصَهُ: ظاهرُ هذا التفسيرِ مُشعرٌ بأنَّ قوله: ﴿وَعَيْضَ الْمَاءِ﴾ إخبارٌ عن حُصُولِ المأمورِ به مِنْ قوله: ﴿وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي﴾ و﴿يَتَأْرُضُ أَبْلَعِي﴾، فالتقدير: قِيلَ ذَلِكَ لَهَا، فامْتَثَلَا لِمَا أَمَرَا، وَنَقَصَ الْمَاءَ. وكلامُ صاحبِ «المفتاح»^(٢) بِخِلَافِهِ، حَيْثُ قَدَّرَ: قِيلَ: يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي فَأَقْلَعْتَ، وَيَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ فَبَلَعْتَ، وَغِيضَ طُوفَانُ السَّمَاءِ. خَصَّ «غِيضَ الْمَاءِ» بِطُوفَانِ السَّمَاءِ؛ لِمَا عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ: «فَبَلَعْتَ» نُضُوبُ مَاءٍ مُخْتَصِّ بِالْأَرْضِ، وَلِمَا لَمْ يُعْلَمَ نُضُوبُ مَاءٍ مُخْتَصِّ بِالسَّمَاءِ، تَبَيَّنَ ذَلِكَ بِهِ، فمعنى: «غِيضَ الْمَاءِ» على هذا: مَا قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ: «غَاضَ الْمَاءَ يَغِيضُ غِيضًا: قَلَّ وَنَضَبَ»، أَي: غَارَ وَسَفَلَ.

ولعلَّ هذا الوجةُ أملاً فائدةً وأدقُّ معزى، وبه تَظْهَرُ فائدةُ تخصيصِ ذِكْرِ «الماءِ»، وإضافتهِ إلى ضميرِ «الأرضِ».

أما الأولى: فكما قال صاحبُ «المفتاح»: «إنما لم يَقُلْ: ﴿أَبْلَعِي﴾ بدُونِ المفعول؛ لاستِزْامِ تَرْكِهِ مَا لَيْسَ بِمُرَادٍ مِنْ تَعْمِيمِ الْإِبْتِلَاعِ لِلْجِبَالِ وَالتَّلَالِ وَالبِحَارِ وَساكناتِ الْمَاءِ بِأَسْرِهِنَّ، نَظْرًا إِلَى مَقَامِ وُرُودِ الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ مَقَامُ عَظْمَةٍ وَكِبْرِيَاءٍ».

(١) أَعَادَ فِي (ح) هُنَا قَوْلَهُ: «وَأَنَّ الإِقْلَاعَ يَجْرِي مَجْرَى التَّجْرِيدِ».

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسَّكَّاكِيِّ ص ٤١٩.

وهو جَبَلٌ بِالْمَوْصِلِ، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ يُقَالُ: بَعُدَ بُعْدًا وَبَعْدًا، إِذَا أَرَادُوا الْبُعْدَ الْبَعِيدَ مِنْ حَيْثُ الْهَلَاكُ وَالْمَوْتُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ اخْتَصَّ بِدُعَاءِ الشُّوْءِ.

والثانية: كما أشار إليه بقوله^(١): «قال: ﴿مَاءٌ كِ﴾ بإضافة «الماء» إلى «الأرض» على سبيل المجاز؛ تشبيهاً لانتصال الماء بالأرض بانتصال الملك بالملك، واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح»، ثمّ كلامه.

فإذن الإضافة أخرجت سائر المياه، وخصّصت الماء بالماء الذي بسببه صارت الأرض مهيأة للخطاب كالمطبخ المنقاد الوارد عليه أمر الأمير المطاع، وهو المعهود في قوله: ﴿وَفَارَ الْكُتُورُ﴾، وبهذا الاعتبار يحصل التوغل في تناسي^(٢) التشبيه، والبناء على الأصل ترشيحاً، ولو أُجريت الإضافة على غير هذا يكون كالتجريد للاستيعارة، وأنت تعلم أن الترشيح أبلغ، ومقام التمثيل والتصوير له أدعى وأهنا، ولو حُجِّل على العموم لاستلزم ذلك ما ليس بمراد من تعميم ابتلاع المياه بأسرها لورود الأمر الذي هو مقام العظمة والكبرياء^(٣).

وعلى هذا يتنظّم «غيض» في سلك «قيل» و«قضي»، ولا يكون تابعاً للأمرين، وإليه أشار بقوله: «أصل الكلام: قيل: ﴿يَتَأْرَضُ أَبْلَعِي مَاءً كِ﴾ فَبَلَعَتْ مَاءَهَا، ﴿وَيَسْمَأُ أَقْلَعِي﴾ عن إرسال الماء، فأقلعت عن إرساله، ﴿وَعِضُ الْمَاءِ﴾ النازل من السماء، ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة، وهو قوله: ﴿وَقَضَى الْأَمْرُ﴾^(٤).

قوله: (من حيث الهلاك): متعلق بـ«أرادوا»، أي: إنما يقولون: بَعِدَ^(٥) بُعْدًا، إِذَا أَرَادُوا

(١) أي: السكّافي، وانظر: «مفتاح العلوم» ص ٤١٨.

(٢) تحرّف في (ف) إلى: «مباني».

(٣) قوله: «ولو حُجِّل على العموم» إلى هنا، أثبتته من (ط). وفي (ح): «ولو حُجِّل الأمر الذي هو مقام العظمة والكبرياء»، و(ف): «لو حُجِّل الأمر الذي هو المقام»، وفيها خلل ظاهر.

(٤) «مفتاح العلوم» ص ٤١٩.

(٥) قال ابن منظور في «لسان العرب»: «البُعد: خلاف القُرب، بُعد الرجلُ وبعُدَ بُعْدًا وَبَعْدًا فهو بعيد»، ثم قال: «وَبَعِدَ بَعْدًا وَبَعُدَ هَلَكًا، فهو باعِدٌ، والبُعد: الهلاك»، وفيه أن «بُعدًا» و«بَعِدَ» يُستعملان جميعاً =

ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول؛ للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكوّن قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يُشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقرّ عليه، إلا بتسويته وإقراره.

البعد من جهة الهلاك والموت، لا من جهة المسافة.

قوله: (فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك)، الانتصاف: «وقد تشبّبت الشعراء بأذيال هذه المعاني، وهو أن يُترك الموصوف اكتفاءً بصفاتِه لشهرته، قال أبو الطيّب يمدح عضد الدولة:

فلا تحمّدهما واحداً هما إذا لم يُسمِ حامدُهُ عناكاً^(١)

أي: امدح نفسك، فإنك المنفرد بالمدائح، إذا ذكرت ولم تُسمِّ لم يسبق إلى فهم أحد غيرك^(٢)، تمّ كلامه. وقبله:

وكم طرب المسامع ليس يذري
وذاك الشُّعْرُ عَرْضُكَ كان مسكاً
أيعجب من ثنائي أم علاكا
وذاك الشُّعْرُ فهري والمداكاً^(٣)

= البُعد الحسّي (خلاف القُرب)، وفي البُعد المعنوي (الهلاك)، وهذا أصل الوَضْع، إلا أنه غلب استعمال «بُعد» في بُعد المسافة، و«بُعد» في الهلاك، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ نَجْدٌ﴾ [هود: ٩٥]، وسيأتي فيها عند الزمخشري رحمه الله نقله قراءة السلمي: «بُعدت» - بضم العين -، وقوله تعقياً عليها: «المعنى في البنائين واحد، وهو نقيض القُرب، إلا أنهم أرادوا التفصّل بين البُعد من جهة الهلاك وبين غيره، فعبّروا البناء، وقراءة السلمي جاءت على الأصل اعتباراً للمعنى البُعد من غير تخصيص». (١) كذا في الأصول الخطية، من: عنى، بمعنى: قصّد وأراد، وفي «الانتصاف»: «سواك»، ووجهه ظاهر. (٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٧١) بحاشية «الكشاف». (٣) «ديوان المتنبي» (٢: ١١٢٠) بشرح الواحدي.

وَلَمَّا ذَكَرْنَا مِنَ الْمَعَانِي وَالنُّكْتِ اسْتَفْصَحَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ هَذِهِ الْآيَةَ، وَرَقَّصُوا لَهَا رُؤُوسَهُمْ، لَا لِتَجَانُسِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَبْلَى﴾ و﴿أَقْلَى﴾، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَا يُخْلِي الْكَلَامَ مِنْ حُسْنٍ، فَهُوَ كغَيْرِ الْمُتَلَفَّتِ إِلَيْهِ بِإِزَاءِ تِلْكَ الْمَحَاسِنِ الَّتِي هِيَ اللَّبُّ، وَمَا عَدَاهَا قُشُورٌ.....

الضميرُ في «فلا تَحْمَدُهما» عائِدٌ إلى «الفهْرِ والمداكا»، وهما حَجْرَانِ لِلْعَطَّارِ يَسْحَقُ بِهِمَا الطَّيْبَ، المَدَاكُ: التَّحْتَانِي، والفَهْرُ: الفُوقَانِي، والهَمَامُ: عَضُدُ الدَّوْلَةِ، والحَامِدُ: المُتَنَبِّي، وهذا المعنى قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ:

وَإِنْ جَرَتْ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمُدْحَةٍ لِيُغَيِّرَكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي تُعْنَى (١)

قوله: (ورَقَّصُوا لها رُؤُوسَهُمْ): أي: تَعَجَّبُوا لها، فَهِيَ كِنَايَةٌ، قال القاضي: «هذه الآيةُ في غايةِ الفصاحةِ؛ لِفَخَامَةِ لَفْظِهَا، وَحُسْنِ نَظْمِهَا، وَالدَّلَالَةِ عَلَى كُنْهِ الْحَالِ، مَعَ الْإِيْجَازِ الْخَالِيِّ عَنِ الْإِخْلَالِ» (٢).

قوله: (لا لِتَجَانُسِ الْكَلِمَتَيْنِ): أي: ﴿أَقْلَى﴾ و﴿أَبْلَى﴾، وفيه إدماجٌ في نِهَايَةِ مَنْ الْحُسْنِ، أَرَادَ أَنْ يُبَالِغَ فِي وَصْفِ الْكَلَامِ الَّذِي مَضَى، أَدْمَجَ فِيهِ مَعْنَى التَّجَانُّسِ، ثُمَّ نَفَاهُ، يَعْنِي: رُوعِي فِيهِمَا صَنْعَةُ الْجِنَاسِ اللَّاحِقِ (٣)، عَلَى نَحْوِ: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لَمْزَةً﴾ [الهمزة: ١]، مَعَ

(١) البَيْتُ لِأَبِي نُؤَاسٍ، كَمَا فِي «دِيوانه» ص ٥، و«الإعجاز والإيجاز» للشعالبي ص ١٦٤، قاله في مَدْحِ الْأَمِينِ، وَقَبْلَهُ:

إِذَا نَحْنُ أَثْنِينَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا تُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُثْنِي

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٧).

(٣) الجِنَاسُ: هُوَ تَشَابُهُ الْكَلِمَتَيْنِ فِي اللَّفْظِ، وَالْمُعْتَبَرُ مِنْهُ فِي بَابِ الْاسْتِحْسَانِ عِدَّةُ أَنْوَاعٍ: التَّامُّ: وَهُوَ مَا لَا يَتَفَاوُتُ فِي اللَّفْظِ، مِثْلُ: رَحْبَةٌ رَحْبَةٌ. وَالنَّاقِصُ: وَهُوَ اخْتَلَفَ فِي الْهَيْئَةِ دُونَ الصُّورَةِ، مِثْلُ: الْبَدْعَةُ شَرَكُ الشُّرْكِ. وَالْمُدْبِيلُ: وَهُوَ مَا اخْتَلَفَ بِزِيَادَةِ حَرْفٍ، مِثْلُ: جَدِّي جَهْدِي. وَالْمُضَارِعُ: وَهُوَ مَا اخْتَلَفَ بِحَرْفٍ أَوْ حَرْفَيْنِ مَعَ تَقَارُبِ الْمَخْرَجِ، مِثْلُ: دَامِسٌ وَطَامِسٌ، وَاللَّاحِقُ: وَهُوَ مَا اخْتَلَفَ بِحَرْفٍ أَوْ حَرْفَيْنِ دُونَ تَقَارُبِ الْمَخْرَجِ، مِثْلُ: كَاتِبٌ كَاذِبٌ. انظر: «مفتاح العلوم» للسَّكَّاكِيِّ ص ٤٢٩.

وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومئة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء. وروي: أنها مرّت بالبيت، فطافت به سبعا، وقد اعتقه الله من الغرق. وروي: أن نوحاً صام يوم الهبوط، وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَنْتَحِبُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٤٥-٤٦]

ندأؤه ربّه: دُعاؤه له - وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾ مع ما بعده - من اقتضاء وعده في تنجيه أهله. فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: ﴿رَبِّ﴾، فكيف عطف «قال رب» على «نادى» بالفاء؟ قلت: أريد بالنداء: إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجا - كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ﴾ [مریم: ٣-٤] - بغير فاء.

﴿إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾ أي: بعض أهلي، لأنه كان ابنه من صلبيه، أو كان ريبياً له، فهو بعض أهله، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كل وعده تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجيني أهلي، فما بال ولدي؟

أنها غير^(١) ملتمت إليها، فعلم فضل ذلك مع حسن هذه الصنعة، فهي مرادة من وجه وغير مرادة من آخر.

قوله: (من اقتضاء وعده في تنجيه أهله): أي: دُعاؤه ربّه كان طلباً لِقضاء ما وعده ربّه من نجاه أهله، ف«من» بيان لـ«دُعاؤه». في «المغرب»: «تقاضيته ديني وديني، واستقصيته: طلبت قضاءه، واقتصيت منه حقي: أخذته».

(١) لفظه «غير» سقطت من (ف).

﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: أعلم الحكام وأعدّهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورُبَّ عَرِيْقٍ فِي الْجَهْلِ وَالسَّجُورِ مِنْ مُتَّقِلِدِي الْحُكُومَةِ فِي زَمَانِكَ قَدْ لُقِّبَ أَقْضَى الْقُضَاةِ، ومعناه: أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر. ويجوز أن يكون من الحكمة، على أن يُبنى من الحكمة: «حاكم» بمعنى النسبة، كما قيل: «دارع» من الدرع، وحائض وطارق على مذهب الخليل.....

قوله: (ورُبَّ عَرِيْقٍ فِي الْجَهْلِ): أعرق الرجل؛ أي: صار عريقاً، وهو الذي عرق^(١) في الكرم.

قوله: (قد لُقِّبَ أَقْضَى الْقُضَاةِ)، الانتصاف: «رأي الزمخشري: أن «أقضى القضاة» أرفع من «قاضي القضاة»، والذي يلاحظونه الآن عكسه، وذلك أن القضاة يُشاركون أقضاهم في الوصف، وإن فضل عليهم، وأما «قاضي القضاة» هو الذي يقضي بين القضاة، لا يُشاركه أحدٌ في وصفه^(٢).

«الإنصاف»^(٣): وليس كذلك، لأنه فسّر ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ بـ«أقضى القضاة»، فكما لا يتصور ذلك المعنى هناك لا يتصور هاهنا.

قوله: (على أن يُبنى من الحكمة: حاكم؛ بمعنى النسبة) إلى قوله: (على مذهب الخليل): يقال:

- (١) كذا في الأصول الخطية، والذي رأيتُه في «معاجم» اللغة في هذا التعبير: «وأعرق»، والله أعلم.
- (٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٧٢) بحاشية «الكشاف»، وتيمّة كلامه: «وإذا جاز أن يُطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أقضى قضاة الصحابة في زمانه، كما أطلقه عليه النبي ﷺ حيث قال: «أفضاكم علي»، فدخّل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج - إن شاء الله - أن يُطلق على عدل قضاة الزمان أو الإقليم وأعلمهم: قاضي القضاة وأقضى القضاة، أي: قضاة زمانه وبلده».
- والحديث الذي استشهد به: أخرجه ابن ماجه (١٥٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
- (٣) للعلامة علم الدين العراقي، تقدّم التعريف به عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠).

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ تعليلٌ لانتفاء كونه من أهله، وفيه إيذانٌ بأن قرابة الدين غامرةٌ لقرابة النسب، وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب، وإن كان حبشيًا، وكنت قُرشيًا، لصيقك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك، وإن كان أمس أقاربك رحمًا، فهو أبعدُ بعيد منك. وجعلت ذاته عملاً غير صالح؛ مبالغة في ذمّه، كقولها:

فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ

وقيل: الضمير لنداء نوح عليه السلام، أي: إن نداءك هذا عملٌ غير صالح، وليس بذلك.....

رجلٌ كاسٍ؛ أي: ذو كِسوة، وطاعم: أي: أكل^(١)، قال الخليل: ومنه: ﴿عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي: ذات رضا، لأن العيشة لا تكون راضية، بمعنى: فاعلة، ومن هذا القبيل: طالقٌ وحائض، بمعنى: ذات طلاقٍ وذات حَيْض، أي: أن ذلك ثابتٌ وحاصلٌ لها من غير تعرُّضٍ لحدوثها في زمان، حتى لو أرادوا الإجراء على الفعل لآتوا بالتاء، فقالوا: حائضة الآن، وطالقةٌ غدًا، هذا مذهب الخليل. وحمله سيبويه على أنه صفةٌ «شيء» أو «إنسان»، لأن المرأة شيءٌ وإنسان.

قال القاضي: «فعلٌ هذا: معنى ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْمَكِينِ﴾: أنت أكثرُ حكمةٍ من ذوي الحكم»^(٢).

قوله: (وليس بذلك): لأن قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

(١) أي: ذو أكل.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٧).

فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمَلٌ فاسدٌ؟ قلت: لِمَا نَفَاهُ عن أهله، نفى عنه صِفَتَهُمْ بكلمة النفي التي يُسْتَبْقَى معها لفظُ المنفيِّ، وأذَنَ بذلك أنه إنما أُنْجِيَ مَنْ أُنْجِيَ مِنْ أَهْلِهِ لِصَلَاحِهِمْ، لا لأنهم أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ، وَأَنْ هَذَا لِمَا انْتَفَى عَنْهُ الصَّلَاحُ لَمْ تَنْفَعُهُ أُبُوتُكَ، كقولهِ: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحریم: ١٠].

وقرئ: «عَمَلٌ غَيْرَ صَالِحٍ»، أي: عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ، وقرئ: ﴿فَلَا تَسْتَأْنِبُ﴾ بكسْرِ النونِ بِغَيْرِ ياءٍ الإِضَافَةِ،

قوله: (بكلمة النفي التي يُسْتَبْقَى معها لفظُ المنفيِّ): يعني: أن «غير» هاهنا تنفي ما بعدها، وتَسْتَبْقَى فيها قبلها من جنس ما نَفَاهُ، وهو الصَّلَاحُ، كَالِاسْتِثْنَاءِ المُفْرَغِ، فإنه يَدُلُّ على أن المُسْتَنْبَى منه أي جنس هو، فعلى هذا قوله: «إنما أُنْجِيَ مَنْ أُنْجِيَ مِنْ أَهْلِهِ» معناه: إنما أُنْجِيَ مِنْ أَهْلِكَ لِصَلَاحِهِمْ، لا أنهم من أَهْلِكَ، يعني: نفى أن ابنه من أَهْلِهِ، ثم نفى عنه صِفَتَهُمْ؛ لِيَدُلَّ على أن ذلك النفي لأجل انتفاء هذه الصفة فيه، فلو لم تكن هذه الصُورَةُ مُعْتَبَرَةً في اعتبار معنى الأهلية، لم يَصِحَّ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾.

قال في «الانتصاف»: «ومنه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وإن كان الإنذار على العموم، لكن لما كانت الأهلية مظنة التكالِ حُصِّصَ، ولهذا أَنْذَرَ هُمُ النَّبِيُّ ﷺ وقال: (لا أملك لكم من الله شيئاً) (١)» (٢).

قوله: (وقرئ: «عَمَلٌ غَيْرَ صَالِحٍ»): بكسْرِ الميمِ وَنُصِبِ «غير»: الكِسَائِيُّ، والباقون: بفتح الميم مع التنوين ورفَع «غير».

قوله: ﴿فَلَا تَسْتَأْنِبُ﴾ بكسْرِ النونِ): الجماعةُ غيرَ نافعِ وابنِ عامِرٍ، فإنها قَرَأَتْ: «فلا

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٢) و(٢٧٥٣) و(٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤) و(٢٠٦) من حديث أبي هريرة،

و(٢٠٥) من حديث عائشة، رضي الله عنهما.

(٢) «الانتصاف» لابن المُنِير (٢: ٢٧٣) بحاشية «الكشاف».

وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني: فلا تَلْتَمِسْ مِنِّي مُلْتَمَسًا أَوْ التِمَاسًا لَا تَعْلَمُ
أَصَوَابٌ هُوَ أَمْ غَيْرُ صَوَابٍ، حَتَّى تَقْفَ عَلَى كُنْهِهِ.....

تَسَأَلَنَّ^(١) بفتح اللام وكسر النون وتشديدها، على أن صلته: تَسَأَلْتَنِي، فحذفت نون
الوقاية لاجتماع التونات، وكسرت المُشَدِّدَةَ للياء، ثم حذفت اكتفاءً بالكسرة، وعن نافع:
إثباتها في الوصل.

قوله^(٢): (مُلْتَمَسًا أَوْ التِمَاسًا): يُرِيدُ: أَنْ «مَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾:
موصوفة، والصفة: الجملة^(٣)، ثم «مَا»^(٤) إما اسمٌ مفعول، فهو المرادُ مِنَ «مُلْتَمَسًا»، أو
مفعولٌ مُطلق، وإليه أشار بقوله: «التِمَاسًا»، لأنَّ السُّؤالَ الذي بمعنى الاستجداء التِمَاس.
قوله: (حَتَّى تَقْفَ عَلَى كُنْهِهِ)، الأساس: «سَلُّهُ عَنِ كُنْهِ الْأَمْرِ، أَي: حَقِيقَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ،
وَإِكْتِنَاهُ الْأَمْرَ: بَلَغَ كُنْهَهُ»، وفيه: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِلْمِ: الْمُتَيَقِّنَ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «الْمُرَادُ بِالْعِلْمِ هَاهُنَا:
الْعِلْمُ الْمُتَيَقِّنُ الَّذِي يُعْلَمُ بِهِ الشَّيْءُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَيْسَ الْعِلْمُ الَّذِي يُعْلَمُ بِهِ الشَّيْءُ عَلَى ظَاهِرِهِ،
كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ عَلَّمْتُمُوهُنَّ مِثْلَ بَلَاسٍ﴾ [المتحنة: ١٠] وَنَحْوِهِ»^(٥).

وقال: «الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ فِي ﴿بِهِ عِلْمٌ﴾: إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعِلْمُ الْمَذْكُورُ، وَإِنْ لَمْ
يَتَسَلَّطْ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ:

رَبِّيئُهُ حَتَّى إِذَا تَمَعَّدَا كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أُجْلَدَا

«بِالْعَصَا»: مُتَعَلِّقٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ «أَنْ أُجْلَدَا». تَمَعَّدَدَ الصَّبِيُّ: غَلَّظَ وَصَلَبَ وَذَهَبَ عَنْهُ
رُطُوبَةُ الصَّبَا.

(١) وقرأ ابن كثير: «فَلَا تَسَأَلَنَّ». انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٥، و«حجة القراءات» ص ٣٤٣.

(٢) هذه الفقرة تأخرت بعد التي تليها في الأصول الخطية، وقدّمها هنا مراعاة لترتيب «الكشاف».

(٣) أي: قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

(٤) قوله: «ثم ما» سقط من (ف)، وفي (ح): «ما ثم» والمثبت من (ط).

(٥) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٤٤).

وَذَكَرُ الْمَسْأَلَةَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ النَّدَاءَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَغْرَقَ حِينَ خَافَ عَلَيْهِ.

فإن قلت: لِمَ سُمِّيَ نِدَاؤُهُ سُؤَالَ، وَلَا سُؤَالَ فِيهِ؟ قلت: قد تَضَمَّنَ دُعَاؤُهُ مَعْنَى السُّؤَالِ، وَإِنْ لَمْ يُصْرَحْ بِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْعِدَ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ فِي وَقْتِ مُشَارَفَةِ وَكَلِدِهِ الْغَرَقَ فَقَدْ اسْتَنْجَزَ. وَجَعَلَ سُؤَالَ مَا لَا يُعْرَفُ كُنْهَهُ جَهْلًا وَغِبَاوَةً، وَوَعَّظَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ وَإِلَى مِثَالِهِ مِنْ أَفْعَالِ الْجَاهِلِينَ.....

وإما أن يَتَعَلَّقَ بِالْمُسْتَقَرِّ فِي قَوْلِكَ: ﴿لَكَ﴾^(١)، كما تقول: أليس لك فيه رضا^(٢).
وحاصل هذا الوجه: أَنَّ ﴿عِلْمُ﴾ اسمٌ ﴿لَيْسَ﴾، و﴿لَكَ﴾ خبرٌ، و﴿بِهِ﴾ يتعلَّقُ بالخبر،
وكذلك قوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

قوله: (وَذَكَرُ الْمَسْأَلَةَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ النَّدَاءَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَغْرَقَ حِينَ خَافَ عَلَيْهِ): لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ كَالشَّفَاعَةِ فِي حَقِّهِ، وَطَلَبِ نَجَاتِهِ، وَاسْتِنجَازِ وَعْدِهِ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ غَرِقَ، بَلْ كَانَ عَلَى مُشَارَفَةِ الْهَلَاكِ.

فإن قلت: هذه المسألة مذكورة بعد قوله: ﴿فَكَاتَمَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴿ الآية، فكيف يُصَوَّرُ أَنَّهُ لَمْ يَغْرَقَ بَعْدَ، وَأَنَّهُ عَلَى مُشَارَفَةِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَهَذَا السُّؤَالُ الْقَوِيُّ قَالَ الْقَاضِي: «فَقَالَ: إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَمَا لَهُ لَمْ يَنْجُ؟»^(٣).

قلت: مَرَدُّ قِصَّةِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْلَى عَلَى التَّرْتِيبِ الْأَنِيقِ إِلَى أَنْ خَتَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، ثُمَّ ذَكَرَ نِدَاءَهُ رَبَّهُ فِي شَفَاعَتِهِ فِي ابْنِهِ الْوَاقِعِ فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْقِصَّةِ عِنْدَ مُشَارَفَةِ الْهَلَاكِ، لِتَكُونَ الْقِصَّةُ كَالْمُسْتَقَلَّةِ، عَلَى وَزَانِ قِصَّةِ الْبَقْرَةِ^(٤) فِي تَقْدِيمِ

(١) وهو ما يُقَدَّرُ بـ «كائن» أو «حاصل» أو نحو ذلك. وانظر ما تقدَّم تعليقا - عند تفسير الآية ٥٨ من سورة يونس - في معنى «الظرف اللغو» و«الظرف المستقر».

(٢) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٤٤-٣٤٤).

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٧).

(٤) انظر ما تقدَّم في تفسير الآيات (٦٧-٧٣) من سورة البقرة.

فإن قلت: قد وعدَهُ أن يُنجِيَ أهله، وما كانَ عنده أن ابنه ليسَ منهم ديناً، فلما أشفى على العرقِ تشابهَ عليه الأمر، لأنَّ العِدَّةَ قد سَبَقَتْ له، وقد عَرَفَ اللهُ حكيماً لا يجوزُ عليه القبيحُ وخُلِفُ الميعاد، فطلَّبَ إماطةَ الشُّبهَةِ، وطلَّبَ إماطةَ الشُّبهَةِ واجب، فلمَ رُجِرَ وسُمِّيَ سؤَالُهُ جهلاً؟ قلت: إنَّ اللهَ عَزَّ وَعَلَا قَدَّمَ له الوعدَ بإنجاءِ أهله مَعَ استثناءِ مَنْ سَبَقَ عليه القولُ منهم، فكانَ عليه أن يَعْتَقِدَ أَنَّ في جُمْلَةِ أهله مَنْ هو مُستَوْجِبٌ للعذاب، لِكَوْنِهِ غيرَ صالح، وأنَّ كُلَّهُم ليسوا بناجين، وأن لا تُخَالِجَهُ شُبُهَةٌ حينَ شَارَفَ وَلَدُهُ العَرَقَ في أنه مِنَ المُسْتَسْتَنِينَ، لا مِنَ المُسْتَسْتَنِى مِنْهُمْ، فَعُوْتِبَ على أنِ اشْتَبَهَ عليه ما يَجِبُ أن لا يَشْتَبَهَ.

ما هو مُؤَخَّرٌ في الوجود، وهاهنا عَكَسَ اعْتِنَاءٌ بِشأنِ هذا النَّدَاءِ وجوابه، وذلك لِمَا اشْتَمَلَ على أمرٍ من أمورِ الدين، وهو أن قرابةَ الدينِ غامرةٌ لِقَرَابَةِ النَّسَبِ، قال أبو فراس:

كانت مَوَدَّةُ سَلْمَانَ له نَسَبٌ ولم يَكُنْ بينَ نُوحٍ وابْنِهِ رَحِمٌ^(١)

وأما قول القاضي: «وما له لم يَنْجُ؟» فَيَرُدُّهُ قولُ نُوحٍ عليه السَّلَامُ أولاً: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، فإنه قَطَعَ بِكُفْرِهِ ودُخُولِهِ في زُمرةِ المُغْرَقِينَ على الطَّرِيقِ البُرْهَانِي، وجوابُ اللهُ عنه آخراً: ﴿فَلَا تَنْتَلِزِنَا لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، كما سَبَقَ.

قوله: (فَلِمَ رُجِرَ): أي: بقوله: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قوله: (وَأَنْ لَا تُخَالِجَهُ شُبُهَةٌ)، الجوهرِي: «خَالَجَ في صَدْرِي منه شيءٌ: إِذَا شَكَّكَتَ».

قوله: (فَعُوْتِبَ على أنِ اشْتَبَهَ عليه ما يَجِبُ أن لا يَشْتَبَهَ)، الاتِّصَافُ: «في كَلَامِهِ ما يَدُلُّ على اعْتِقَادِهِ أَنَّ نُوحاً صَدَرَ مِنْهُ ما أَوْجَبَ نِسْبَةَ الْجَهْلِ إليه، ومُعَاتَبَتَهُ على ذلك، وليسَ كذلك، فإنه تعالى وَعَدَهُ نَجَاةَ أَهْلِهِ إِلا مَنْ سَبَقَ عليه القَوْل، ولم يكن كاشِفاً لِحَالِ ابْنِهِ، ولا مُطَّلِعاً عليه،

(١) «ديوان أبي فراس» ص ٣٠٣، لكن فيه: «كانت مودة سلمان له نسباً».

وما كان يَعْتَقِدُ كُفْرَ ابْنِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْأَهْلِ، وَيَدْخُلَ فِي الْمُسْتَنْبِ، فلهذا سأل، وهذا بإقامة عُدْرِهِ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَتْبًا، فَإِنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُكَلِّفُهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمَ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ.

وأما قوله: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: أي: في الْمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ أَنْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ بَاطِنَ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُ إِنْ سَأَلَ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، أَوْ يُهَيِّبِ النَّبِيَّ عَنِ أَمْرِ لَا يَقْتَضِي صُدُورَهُ عَنْهُ، وَلِذَلِكَ أَمَسَكَ النَّبِيَّ وَاسْتَعَاذَ مِنْهُ^(١).

وقلت: قولُ الْمُصَنِّفِ: «وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَأَنْ لَا يُخَالِجَهُ شَكٌّ»^(٢) حِينَ شَارَفَ وَلَدَهُ الْعَرَقَ فِي أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَنْبِينَ - أَي: مِنَ الَّذِينَ سَبَقَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ -، لَا مِنَ الْمُسْتَنْبِ مِنْهُمْ، أَي: مِنْ جُمْلَةِ الْأَهْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ حَقًّا، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنُوْا أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِينَ﴾ - أَي: مِنْ زُمْرَتِهِمْ وَالْمَعْدُودِينَ فِيهِمْ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ لَوْ قَالَ: «وَلَا تَكُنْ كَافِرًا» -، وَأَجَابَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾، وَجَبَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَنْبِينَ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنَ الْأَمَارَاتِ، بَلْ مِنَ الدَّلَالَاتِ الَّتِي لَا يَبْقَى مَعَهُ شَكٌّ، فَكَيْفَ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ﴾، أَي: مِنَ الْمُسْتَنْبِ مِنْهُمْ الْبَتَّةَ؟! حَيْثُ صَدَّرَ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ﴾ مُسْتَعِظْفًا، وَأَرَدَفَهُ بِ«إِنَّ» الْمُؤَكِّدَةَ، وَضَمَّ مَعَهُ ﴿وَإِنَّ وَعَدَكَ الْحَقُّ﴾، وَذَيَّلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحٰكِمِينَ﴾.

قال القاضي: «استثناءً مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْ أَهْلِهِ قَدْ دَلَّ عَلَى الْحَالِ، وَأَغْنَاهُ عَنِ السُّؤَالِ، لَكِنْ شَغَلَهُ حُبُّ الْوَالِدِ عَنْهُ، حَتَّى اشْتَبَهَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ»^(٣).

(١) «الانصاف» لابن المنبِّر (٢: ٢٧٣ - ٢٧٤) بحاشية «الكشاف».

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «شبهة»، والأمر قريب.

(٣) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٣٨).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [٤٧]

﴿أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك، واتعاضاً بموعظتك، ﴿وإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ ما قرط مني من ذلك، ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بالتوبة علي، ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أعمالاً.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتُّهُنَّ ثُمَّ يَمْسُهُنَّ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٤٨]

وَقُرِّي: «يا نُوحُ اهْبِطْ» بِضَمِّ الباء، ﴿وَسَلِّمِ مِنَّا﴾ مُسَلِّمًا مَحْفُوظًا مِنْ جِهَتِنَا، أَوْ مُسَلِّمًا عَلَيْكَ مُكْرَمًا، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ وَمُبَارَكًا عَلَيْكَ، وَالْبَرَكَاتُ: الْخَيْرَاتُ النَّامِيَّةُ، وَقُرِّي: «وَبَرَكَاتٍ» عَلَى التَّوْحِيدِ، ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مِنْ» لِلْبِيَانِ، فَيُرَادُ الْأُمَّمُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا جَمَاعَاتٍ، أَوْ قِيلَ لَهُمْ: أُمَّمٌ؛ لِأَنَّ الْأُمَّمَ تَشَعَّبُ مِنْهُمْ،

قوله: (والبركات: الخيرات النامية): قال الراغب: «البرك: صدُرُ البعير، وبركُ البعير: ألقى بركه، واعتبر منه اللزوم، وسمي محبس الماء: بركة، والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، ولما كان الخير الإلهي يصدُرُ على وجه لا يحس ولا يحصي^(١) قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة»^(٢).

(١) كذا في (ط) و(ح)، وفي (ف): «على وجه لا يُحَدُّ ولا يُحْصَى»، وفي «المفردات» للراغب، مادة (برك): «ولما كان الخير الإلهي يصدُرُ من حيث لا يُحْس، وعلى وجه لا يُحْصَى ولا يُحْصَر».

(٢) «مفردات القرآن» ص ١١٩.

وَأَنْ تَكُونَ لَابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، أَي: عَلَى أُمَّمٍ نَاشِئَةٍ مِّنْ مَّعَكَ، وَهِيَ الْأُمَّمُ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، وَهُوَ الْوَجْهَ.

وقوله: ﴿وَأُمَّمٌ﴾ رفعٌ بالابتداء، و﴿سَمَّيْتَهُمْ﴾ صِفةٌ، والخبرُ محذوفٌ، تقديرُهُ: وَمِنَّ مَعَكَ أُمَّمٌ سَمَّيْتَهُمْ، وَإِنَّمَا حُذِفَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمِنَّ مَعَكَ﴾ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ السَّلَامَ مِنَّا وَالْبَرَكَاتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّمٍ مُّؤْمِنِينَ يَنْشُؤُونَ مِّنْ مَّعَكَ، وَمِنَّ مَعَكَ أُمَّمٌ مُّتَّعُونَ بِالدُّنْيَا، مُنْقَلِبُونَ إِلَى النَّارِ، وَكَانَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَا الْأَنْبِيَاءِ، وَالخَلْقُ بَعْدَ الطُّوفَانِ مِنْهُ وَمِنَّ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ.

قوله: (وَأَنْ تَكُونَ لَابْتِدَاءِ الْغَايَةِ): يُرِيدُ: أَنَّ «مِن» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَّ مَعَكَ﴾: إِذَا جُعِلَتْ بَيَانِيَّةً فَاَلْمُرَادُ بِ«الْأُمَّمِ»: هُمُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، وَصَحَّ تَسْمِيَتُهُمْ بِالْأُمَّمِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا جَمَاعَةً، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهَا أُمَّةٌ، أَوْ إِنَّمَا سُمُّوا أُمَّمًا بِاعْتِبَارِ مَصِيرِ حَالِهِمْ وَمَالِ أَمْرِهِمْ، وَإِذَا جُعِلَتْ ابْتِدَائِيَّةً فَاَلْمُرَادُ بِ«الْأُمَّمِ»: الَّذِينَ يَنْشُؤُونَ مِنْهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، وَهَذَا أَوْجَهُ؛ لِسَمَا يَلْزَمُ مِنَ الْأُولَى تَسْمِيَةُ الْجَمَاعَةِ الْقَلِيلَةِ بِالْأُمَّمِ، وَمِنَ الثَّانِيِ اعْتِبَارُ الْمَجَازِ بغيرِ الْمُبَالَغَةِ.

وأيضاً لا يحسنُ التقابلُ بينَ قَوْلِهِ: ﴿وَأُمَّمٌ سَمَّيْتَهُمْ﴾ وبينَ قَوْلِهِ: ﴿أُمَّمٍ وَمِنَّ مَعَكَ﴾ فِي الْأُولَى، كَمَا يَحْسُنُ فِي الْوَجْهِ الْأَخِيرِ؛ فَإِنَّ النَّاشِئَةَ مِنَ الَّذِينَ فِي صُحْبَتِهِ فِي السَّفِينَةِ فَرَقَتَانِ: فِرْقَةٌ مُّؤْمِنُونَ دَاخِلُونَ تَحْتَ سَلَامِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ، وَفِرْقَةٌ أُخْرَى مُتَّعُونَ بِالدُّنْيَا مُنْقَلِبُونَ إِلَى النَّارِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ السَّلَامَ مِنَّا وَالْبَرَكَاتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّمٍ مُّؤْمِنِينَ يَنْشُؤُونَ مِّنْ مَّعَكَ، وَمِنَّ مَعَكَ أُمَّمٌ^(١) مُتَّعُونَ بِالدُّنْيَا، مُنْقَلِبُونَ إِلَى النَّارِ»، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «وَهُوَ الْوَجْهَ».

وَفِي قَطْعِ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ بِالْإِبْتِدَاءِ عَنِ سَنَنِ الْجُمْلَةِ الْأُولَى: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ التَّسْمِيَةَ الْجِسْمَانِيَّةَ وَالِاسْتِغَالَ بِهِ يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ عَنِ حُكْمِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَنَّ التَّبَتُّلَ إِلَى اللَّهِ يُدْخِلُهُ فِي

(١) فِي (ط): «وَمِنْ تَبَعِكَ أُمَّمٌ»، وَتَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «وَمِنْ نَفَعِكَ مُتَّعُونَ»، وَالتَّبَتُّ كَمَا فِي «الْكَشَافِ».

وعن كعب بن محمد القرظي: دَخَلَ فِي ذَلِكَ السَّلَامِ: كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفِيهَا بَعْدَهُ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْعَذَابِ: كُلُّ كَافِرٍ. وَعَنْ ابْنِ زَيْدٍ: هَبَطُوا وَاللَّهُ عَنْهُمْ رَاضٍ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُمْ نَسْلاً، مِنْهُمْ مَنْ رُحِمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عُدِّبَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأُمَّمِ الْمُتَمِّعَةُ: قَوْمٌ هُوِدٌ وَصَالِحٌ وَلُوطٌ وَشُعَيْبٌ.

[تِلْكَ مِنَ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ
إِنَّ الْعَنْقَبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٩﴾]

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام، ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك، ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها، أو: من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي، أو: من قبل هذا الوقت،

زُمرَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيَنْظُرُ هَذَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وَأَنَّ قَرَابَةَ الدِّينِ غَامِرَةٌ لِقَرَابَةِ النَّسَبِ^(١).

قوله: (والجمل بعدها أخبار): قال القاضي: «﴿نُوحِيهَا﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، وَالضَّمِيرُ لَهَا، أَيْ: مُوحَاةٌ إِلَيْكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ «الْأَنْبَاءِ»، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ الْخَبَرِ، وَ﴿مِنْ﴾: إِمَّا مُتَعَلِّقٌ بِهِ، أَوْ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي «﴿نُوحِيهَا﴾»، وَقَوْلُهُ: «﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾» خَبَرٌ ثَالِثٌ، أَيْ: مَجْهُولَةٌ عِنْدَكَ وَعِنْدَ قَوْمِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ [الهاء في] ﴿﴿٢﴾﴾ «﴿نُوحِيهَا﴾»، أَوْ الْكَافِ فِي «﴿إِلَيْكَ﴾»، أَيْ: غَيْرَ عَالِمٍ أَنْتَ وَقَوْمُكَ بِهَا»^(٣).

(١) في (ف): «عامرة كقراءة النسب»، ولا يستقيم به المعنى.

(٢) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصول الخطية، واستدركته من «أنوار التنزيل» للبيضاوي.

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٩).

﴿فَأَصِيرَ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صَبَرَ نوح، وتَوَقَّع في العاقبة لك ولن كَذَّبَكَ نَحْوًا مَا قُبِضَ لنوح ولقومه، ﴿إِنَّ الْعَنِقَةَ﴾ في الفَوْزِ والنَّصْرِ والعَلْبَةِ، ﴿لِلْمُنْفِقِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا قَوْمَكَ﴾: معناه: إن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم، ولا سمعوه، ولا عرفوه، فكيف برجلٍ منهم؟! كما تقول: لم يعرف هذا عبدُ الله ولا أهلُ بلده.

[﴿وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّا أَنْتُمْ لَا مُفْتَرُونَ﴾ * يَنْفَوْرُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَنْفَوْرُ أَسْتَغْفِرُ وَأَرْبَابَكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ٥٠-٥٢]

قوله: (ما قُبِضَ لنوح)، الجوهري: «قَبِضَ اللهُ فلاناً لفلان؛ أي: جاءه به وأتاهه - أي: قَدَّرَه - له»، والذي قَدَّرَ لنوح: هو النجاة، ولقومه: الهلاك.

قوله: (لم يعرف هذا عبدُ الله ولا أهلُ بلده): إشارة إلى أن الأسلوب من باب التَّرْقِي من الأدنى إلى الأعلى - كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] - لقوله: «إِنَّ قَوْمَكَ على كثرتهم إذا لم يعرفوه، فكيف برجلٍ منهم»، فَوَضَعَ «برجلٍ منهم» مَوْضِعَ «أنت» اعتباراً للِقَلَّة، لتحصيل التَّرْقِي.

ويجوز أن يكون من باب التكميل، لأن تلك الأنبياء مقصودة لِتُسَلِّيَ رسولَ الله ﷺ من إيذاء قومِهِ له، يَدُلُّ عليه تَرْتُّبُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَصِيرَ إِنَّ الْعَنِقَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ عليها، ثم ضَمَّ إليه ما يَتَّبَعُهُ به القومُ على التَّهْدِيدِ، كأنه قيل: إنما قَصَصْنَا عليك وعلى قومك قصة نوح ليكون تَسْلِيًا لك واعتباراً لقومك.

﴿أَخَاهُمْ﴾ وإحدأ منهم، وانتصابه للعطف على ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود: ٢٥]، و﴿هُودًا﴾ عطف بيان، و﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع؛ صفة على محل الجار والمجرور، وقري: «غیره» بالجر؛ صفة على اللفظ، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ تفترون على الله الكذب، بانتخاذكم الأوثان له شركاء.

ما من رسولٍ إلا واجه قومه بهذا القول، لأن شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يُمحصها ولا يُمحصها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للثمة من ذلك.

قيل: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ آمنوا به، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيـان، و«المدرار»: الكثير الدُّرور، كالغزار. وإنما قصد استئـانهم إلى الإيـان، وترغيبهم فيه، بكثرة المطر وزيادة القوة، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حراضاً عليها أشد الحرض،

وفي قول المصنف: ﴿فَأَصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبت نحو ما قبض لنوح ولقومه: إشعار به، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: تعريض بالمشركين، وتنبية على الدمار. قوله: (لا يُمحصها): محصت الذهب بالنار: إذا خلصته مما يشوبه.

قوله: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ آمنوا به، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره): قال القاضي: «اطلبوا مغفرة الله [بالإيـان]، ثم توسلوا إليها بالتوبة، وأيضاً التبري عن الغير إنما يكون بعد الإيـان منهم بالله، والرغبة فيها عنده»^(١).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٣٩)، ومنه استدركت ما بين حاصرتين.

وقال صاحب «الفرائد»: الاستغفار: طلبُ الغفران، ويستلزمُ اعتقادَ أن ما مضى ذنب، وهو يستلزمُ الإيـان، لأن ما مضى منهم كُفْر، والاستغفارُ هاهنا هو التوبةُ عن الكُفْر، فعلى هذا: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ معناه: دُومُوا على التوبة؛ بدلالة «ثُمَّ»، ولأنَّ الفِعْلَ (١) يُذَكِّرُ وَيُرَادُ به الثبات، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وقلت: الذي يَقْتَضِيهِ النَّظْمُ حَمَلُ ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ على الاستغفارِ عن الذُّنوبِ بعدَ الإيـان، وحَمَلُ ﴿تَوْبُوا﴾ على الدَّوامِ، كما يُؤمِّرُ المُسْلِمُونَ بذلك، لأنَّ قولَ هُوْدٍ لِقَوْمِهِ: ﴿يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ مُتَضَمِّنٌ لِلأَمْرِ بِالإيـانِ واختصاصِ الله بالعبادة، كما سَبَقَ في الأعرافِ في قِصَّةِ نُوحٍ: أن قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، أي (٢): بيانٌ لِيَتَضَمَّنِهِ معنَى اختصاصِ العبادةِ بالله، لأنه عليه السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

وفائدةُ هذا الأمرِ الإيـانُ بأنَّ العبادةَ المُقرونةَ (٣) بالإشراكِ لَيْسَتْ عبادةً في الحقيقة، فحُصْوُهُ بِالعبادةِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ، ثم بَيَّنَّ بقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذا المعنى، ثم لَمَّا أَتَبَعَهُ: ﴿يَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾، وَجَبَ حَمَلُهُ على معنَى زائدٍ عليه، وهو ما قَالَه في مُفْتَحِ السُّورَةِ: «اسْتَغْفِرُوا، وَالاستغفارُ التَّوْبَةُ، ثم أَخْلِصُوا التَّوْبَةَ واستقيموا عليها» (٤).

وفيه أيضاً: أنَّ الاستغفارَ سَبَبٌ لِإِنزَالِ البركاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَكُلِّ خَيْرٍ، فَيَدْخُلُ في هذا

(١) تحوَّرف في (ح) إلى: «العقل».

(٢) لفظة «أي» ثبتت في الأصول الخطية، واستدركت في (ط) بين السطرين، والجملة مستقيمة دونها، والله أعلم.

(٣) في (ط) و(ح): «المقارنة»، والمثبت من (ف).

(٤) في الأصول الخطية: «عليه»، والمثبت مما تقدَّم في «الكشاف» ص ١٢ في تفسير الآية ٢ من هذه السُّورَةِ.

فكانوا أحوَجَ شيءٍ إلى الماء، وكانوا مُدْلِينَ بِمَا أُوتُوا مِنْ شِدَّةِ الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ وَالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ، مُسْتَحْرِزِينَ بِهَا مِنَ الْعَدُوِّ، مَهْيَبِينَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ. وَقِيلَ: أَرَادَ الْقُوَّةَ فِي الْمَالِ، وَقِيلَ: الْقُوَّةَ عَلَى النِّكَاحِ، وَقِيلَ: حُبِسَ عَنْهُمْ الْقَطْرُ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَعُقِمَتِ أَرْحَامُ نِسَائِهِمْ.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أَنَّهُ وَقَدَّ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا خَرَجَ تَبَعَهُ بَعْضُ حُجَّابِهِ، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ ذُو مَالٍ، وَلَا يُؤَلِّدُنِي، فَعَلَّمَنِي شَيْئاً لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنِي وَكَلْداً، فَقَالَ: عَلَيْكَ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ يُكْثِرُ الْإِسْتِغْفَارَ، حَتَّى رُبَّمَا اسْتَغْفَرَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعَ مِئَةِ مَرَّةٍ، فَوُلِدَ لَهُ عَشْرَةُ بَنِينَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: هَلَّا سَأَلْتَهُ مِنْ قَوْلِكَ ذَلِكَ، فَوَقَدَّ وَفِدَةٌ أُخْرَى، فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ هُوْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾، وَقَوْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنِينَ﴾ [نوح: ١٢].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ وَلَا تُعْرِضُوا عَنِّي وَعَمَّا آدَعُوكُم إِلَيْهِ وَأَرْعَبُكُمْ فِيهِ، ﴿مُجْرِمِينَ﴾

الأمير المسلمون أيضاً، كما رواه المصنف عن الحسن بن علي رضي الله عنهما في حديث معاوية رضي الله عنه، ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء.

فإن قلت: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّكَرُّرُ لِتَعْلِيْقِ زِيَادَةِ خَلَا عَنْهَا الْكَلَامُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾؟ قلت: هذا سائغ، لكن هذا المعنى أليقُ بفصاحة القرآن، وأكثرُ فائدة.

قوله: (وكانوا مُدْلِينَ بِمَا أُوتُوا مِنْ شِدَّةِ الْقُوَّةِ)، الجوهري: «وهو يُدِلُّ بفلان، أي: يَثْبُقُ بِهِ»، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «(يَزِدُّكُمْ) مُتَّصِمٌ لِمَعْنَى: يُضْفِكُمْ، وَهَذَا عُدِّي بِ«إِلَى»، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لـ«قُوَّةٍ»، أَي: قُوَّةٌ مُضَافَةٌ إِلَى قُوَّتِكُمْ»^(١)، وَقِيلَ: أَرَادَ الْقُوَّةَ فِي الْمَالِ، قَالَ السَّجَاوَنْدِي: أَي: قُوَّةَ الْإِيمَانِ إِلَى قُوَّةِ الْأَبْدَانِ.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٧٠٣).

مُصِرِّينَ عَلَىٰ إِجْرَامِكُمْ وَأَثَامِكُمْ.

[قَالُوا يَا هَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾]

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ كَذِبٌ مِنْهُمْ وَجُحُودٌ، كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس: ٢٠، الرعد: ٧ و٢٧]، مَعَ قَوْتِ آيَاتِهِ الْحَصْرِ، ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «تَارِكِي آلِهَاتِنَا»، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا نَتْرُكُ آلِهَاتِنَا صَادِرِينَ عَنْ قَوْلِكَ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا يَصِحُّ مِنْ أَمْثَالِنَا أَنْ يُصَدِّقُوا مِثْلَكَ.....

وقلت: يُمَكِّنُ أَنْ تُفَسَّرَ «القُوَّةُ» بِهَا فِي سُورَةِ نُوحٍ لِقَوْلِهِ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ رَئِيسًا لِكُلِّ جَنَّةٍ وَيَجْعَلُ لِكُلِّ أُنثَىٰ﴾، [نوح: ١٠-١٢].

قوله: (وما نترك آلِهَاتِنَا صَادِرِينَ عَنْ قَوْلِكَ): قَدَّرَ «عَنْ قَوْلِكَ» حَالًا مِنْ فَاعِلٍ ﴿تَارِكِي﴾، قَالَ السَّجَاوَنْدِيُّ: «عَنْ» يُسْتَعْمَلُ فِي مَعْنَى الْبَاءِ حَقِيقَةً، لَا قَائِمًا مَقَامَهُ، قَالَ عَنْ يَقِينٍ وَبِيقِينٍ، وَسَأَلَ بِهِ وَعَنَهُ. وَقَلْتُ: الْأَحْسَنُ أَنْ يُضْمَنَ «التَّرْكَ» مَعْنَى: الصُّدُورِ، فَ«عَنْ» مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]، وَقَوْلِهِ:

يُنْهَوْنَ عَنْ أَكْلِ وَعَنْ شُرْبٍ^(١)

قوله: (وما يَصِحُّ مِنْ أَمْثَالِنَا أَنْ يُصَدِّقُوا مِثْلَكَ): عَلَىٰ أَسْلُوبِ قَوْلِكَ: مِثْلَكَ يَجُودُ، وَمِثْلَكَ لَا يَبْخُلُ، بِمَعْنَى: مَا يَصِحُّ مِنَّا أَنْ نُصَدِّقَكَ، وَفِيهِ الْمُبَالَغَةُ، وَأَشَارَ هَذَا إِلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تَذْيِيلٌ لِلْكَلَامِ السَّابِقِ وَتَأْكِيدٌ لِمُضْمُونِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١ و٩٢] عَلَىٰ وَجْهِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: ﴿مَا

(١) تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢٩ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٧: ٢٢٠)، وَانظُرْ مَا عَلَّقْتُهُ عَلَيْهِ هُنَاكَ.

فيما يدَعُوهم إليه، إقنطاً له مِنَ الإجابة.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ إِلَهَاتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكَيْدٌ فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا يُنظَرُونَ﴾ [٥٤ - ٥٥]

﴿أَعْرَضَكَ﴾ مفعول ﴿نَقُولُ﴾، و﴿إِلَّا﴾ لغو،

حِثَّنَا بَيْنَنَا ﴿فِهِمْ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلنَّبُوَّةِ وَأَنْ تُصَدَّقَ دَعْوَاهُ﴾^(١)؛ لَأَنَّ النَّبُوَّةَ إِنَّمَا تُثَبِّتُ بِالْمُعْجِزَةِ، وَلَا مُعْجِزَةَ، وَلَمَّا قَالُوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا﴾ مُؤَكِّدًا لِلنَّفْيِ بِالْبَاءِ، وَلِلْفَاعِلِ بِيَلَاءِ حَرْفِ النَّفْيِ الضَّمِيرِ، عَلِمَ أَنَّهُمْ ثَابِتُونَ^(٢) عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ غَيْرُ زَائِلِينَ عَنْهُ، فَجَاؤُوا بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تَوْكِيدًا لِمُضْمُونِ دَيْنِكَ الْكَلَامَيْنِ، لِيُقَيِّدَ مَا قَالَهُ مِنْ الْكِنَايَةِ. وَتَلْخِيصُهُ: مَا يَصِحُّ مِنْهَا - وَصِفْتُنَا أَنَا ثَابِتُونَ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ - أَنْ نُصَدِّقَكَ، وَصِفْتُكَ أَنْكَ حُلُوٌّ عَنْ حُجَّةٍ وَبَيِّنَةٍ. فَعَمَّهَمَا لِيَحْسِنَ التَّنْذِيلَ.

قوله: (إقنطاً [له] مِنَ الإجابة): مفعول له، أي: قالوا هذا القول إقنطاً له.

قوله: (﴿أَعْرَضَكَ﴾) أي: أصابك، مِنْ: عَرَاهُ يَعْرُوهُ: إِذَا أَصَابَهُ. الرَّاعِبُ: «العرا - مقصور»^(٣) - : الناحية، وعَرَاهُ وَاَعْتَرَاهُ: قَصَدَ عَرَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ إِلَهَاتِنَا بِسُوءٍ﴾، وَالْعُرْوَةُ: مَا يَتَّعَلَّقُ بِهِ مِنْ عَرَاهُ، أَي: نَاحِيَتِهِ^(٤).

قوله: (﴿إِلَّا﴾ لَغَوٌ): أي: لا عَمَلٌ لَهَا فِي اللفظ، لَكِنْ لَهَا عَمَلٌ فِي المعنى، أَمَا أَنَّهُ لَا عَمَلٌ

(١) أي: لا يَصْلُحُ لِلنَّبُوَّةِ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ تُصَدَّقَ دَعْوَاهُ.

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ف) - هُنَا وَفِيهَا سِيَائِي بَعْدَ قَلِيلٍ - إِلَى: «ثَابِتُونَ».

(٣) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «تَصْوِيرٌ»، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ط)، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لَهَا فِي «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» لِلرَّاعِبِ، مَادَّةُ (عَرَا).

(٤) «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

والمعنى: ما نقول إلا قولنا: اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي: حَبَلَكَ وَمَسَّكَ بِجُنُونٍ لِسَبِّكَ إياها وصدك عنها وعداوتك لها؛ مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المبرسمين.

لها في اللفظ: فلأنه يؤتى بها لمعاونة الفعل في غير المفرغ، ذكره في «الإقليد»^(١)، ولا حاجة هاهنا إلى المعاونة والواسطة، لأنَّ الفعل فُرِعَ للمعمول، وأما أنَّ لها عملاً في المعنى: فلأنَّ المراد: ما نقول قولاً إلا هذا القول، وهو اعتراك بعض آلهتنا، وقال ابن الحاجب: «العامل في الاستثناء ما قبله بواسطة «إلا» إذا كان فضلة»^(٢).

قوله: (ما نقول إلا قولنا: اعتراك)^(٣): يريد: أنَّ «اعتراك» مَقُولُ القول، أقيم مقام المصدر، وسبق الاختلاف فيه؛ أنَّ المقول هل هو مفعول به أو مفعول مطلق؟

قوله: (حَبَلَك)، الجوهري: «الحَبْلُ - بالتحريك - : الحِنُّ، يُقال: به حَبِلَ، أي: شيءٌ من أهل الأرض، وقد حَبَلَهُ وَحَبَلَهُ واختَبَلَهُ: إذا أفسد عقله أو عضوه».

قوله: (المبرسمين)، الجوهري: «البرسام: علةٌ معروفة، وقد برسم الرجل فهو مبرسم»، وفي «الأسباب والعلامات»^(٤): البرسام: ورَمٌ يحدث في الحجابِ المُعَرِّضِ بين الكبدِ والمعدة،

(١) للعلامة شرف الدين أحمد بن عمود بن عمر الجندي، المتوفى نحو سنة ٧٠٠ هـ، رحمه الله تعالى، وهو في شرح «المفصل» للزمخشري. انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢: ١٧٧٦)، و«الأعلام» للزركلي (١: ٢٥٤).

(٢) «الإيضاح في شرح المفصل» لابن الحاجب (١: ٣٦٢).

(٣) من قوله: «بعض آلهتنا، وقال ابن الحاجب» إلى هنا، سقط من (ف).

(٤) ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١: ٧٧)، فقال: «(الأسباب والعلامات) للشيخ الإمام نجيب الدين محمد بن علي بن عمر السمرقندي، جمع فيه جميع العلل والأمراض الجزئية على سبيل الاستقصاء، حتى لا يتبدد منها علة، مع أسبابها وعلاماتها، وأردف كل نوع بعلاج مجمل، نفعاً من كتب الطب».

وليس بعَجَبٍ من أولئك أن يُسْمُوا التوبةَ والاستِغْفارَ خَبَلًا وُجُونًا، وهم عادٌ
أعلامُ الكُفْرِ وأوتادُ الشُّركِ، وإنما العَجَبُ من قومٍ من المتظاهرينَ بالإسلام، سَمِعناهم
يُسْمُونَ التائبَ من ذنوبه مجنونًا، والمُنِيبَ إلى رَبِّه مُخْبَلًا، ولم نَجِدْهم معه على عَشْرِ مِمَّا
كانوا عليه في أيام جاهليَّته مِنَ المَوادَّةِ، وما ذاك إلا لِعِرْقٍ مِنَ الإلحادِ أبى إلا أن يَنْبِضَ،
وَضَبَّ مِنَ الزَّنْدَقَةِ أرادَ أن يُطَلِّعَ رأسه.

فيزولُ العَقْلُ لِاتِّصَالِ هذا الحِجابِ بِحُجُبِ الدِّماغِ.

قوله: (وهم عادٌ أعلامُ الكُفْرِ): ذَكَرَ «عاد» مُقَحَّمٌ لمزيدٍ تقريرٍ كُفْرِهِم، وأنهم مشهورونَ
فيه، حيثُ صارَ اسمُهُم في العُتُوِّ كالوَصْفِ، كما يُقال: هو حاتمُ الجودِ.

قوله: (المتظاهرينَ بالإسلام): التظاهرُ: تفاعلٌ؛ مِنَ الظُّهُورِ.

قوله: (وَضَبَّ مِنَ الزَّنْدَقَةِ) أي: غِلٌّ، الأساس: «ومن المجاز: في قلبه ضَبٌّ؛ أي: غِلٌّ
داخِلٌ، كالضَّبِّ المَمَعينِ في جُجْرِهِ، قال سابق^(١):

ولا تَكُ ذا وَجْهينِ يُندي بِشاشَةٍ وفي صَدْرِهِ^(٢) ضَبٌّ مِنَ الغِلِّ كامينٌ

قوله: (أن يَنْبِضَ) و(أن يُطَلِّعَ): كالترشيحين، وإنما قلتُ: «كالترشيحين»؛ لأنَّ «مِنَ
الإلحادِ» و«مِنَ الزَّنْدَقَةِ» أخرجَا «العِرْقَ» و«الضَّبَّ» أن يكونا مُستعارينَ، كقوله تعالى: ﴿حَقًّا
يَتَّبِعِينَ لِكُرْهِ الخَيْطِ الأَبْيَضِ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

(١) البربري، كما في «أساس البلاغة» للزمخشري، مادة (ضبيب). وهو أبو سعيد سابق بن عبد الله البربري،
شاعرٌ من الزُّهاد، له كلامٌ في الحكمةِ والرفائقِ، وهو من موالِي بني أمية، والبربري لقبٌ له، ولم يكن
من البربر، سكنَ الرِّقَّةَ، وكان يَفِدُّ على عُمَرَ بن عبد العزيز، فيسْتَشِيدهُ عُمَرُ، فيشُدُّه من مَواعِظِهِ.
«الأعلام» للزركلي (٣: ٦٩).

(٢) كذا في (ط) و(ج)، وهو ما في «أساس البلاغة»، و«العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، كلاهما في
مادة (ضبيب)، وفي (ف): «وفي قلبه»، وهو ما في «تاج العروس» للزبيدي، مادة (ضبيب).

وقد دَلَّتْ أَجْوِبَتُهُمُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا جُفَاءَ غِلَظِ الْأَكْبَادِ، لَا يُبَالُونَ بِالْبَهْتِ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى النُّصْحِ، وَلَا تَلِينُ شَكِيمَتُهُمْ لِلرُّشْدِ، وَهَذَا الْأَخِيرُ دَالٌّ عَلَى جَهْلِ مُفْرِطٍ وَبَلِّغٍ مُتَنَاهٍ، حَيْثُ اعْتَقَدُوا فِي حِجَارَةٍ أَنَّهَا تَنْتَصِرُ وَتَنْتَقِمُ، وَلَعَلَّهُمْ حِينَ أَجَاذُوا الْعِقَابَ كَانُوا يُجِيزُونَ الثَّوَابَ.

مِنَ اعْظَمِ الْآيَاتِ أَنْ يُوَاجَهَ بِهَذَا الْكَلَامِ رَجُلٌ وَاحِدٌ أُمَّةً عِطَاشًا إِلَى إِرَاقَةِ دَمِهِ، يَرْمُونَهُ عَنِ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَذَلِكَ لِثِقَتِهِ بِرَبِّهِ، وَأَنَّهُ يَعِصِمُهُ مِنْهُمْ، فَلَا تَنْسَبُ فِيهِ مَخَالِبُهُمْ، وَنَحْوُ ذَلِكَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، أَكَّدَ بَرَاءَتَهُ مِنْ آلِهَتِهِمْ وَشُرِكِهِمْ، وَوَقَّعَهَا بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النَّاسِ مِنْ تَوْثِيقِهِمُ الْأُمُورَ بِشَهَادَةِ اللَّهِ وَشَهَادَةِ الْعِبَادِ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَيَّ أَنِّي لَا أَفْعَلُ كَذَا، وَيَقُولُ لِقَوْمِهِ: كُونُوا شُهَدَاءَ عَلَيَّ أَنِّي لَا أَفْعَلُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ؟ قُلْتَ: لِأَنَّ إِشْهَادَ اللَّهِ عَلَى الْبَرَاءَةِ مِنَ الشُّرْكِ إِشْهَادٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ فِي مَعْنَى تَثْبِيتِ التَّوْحِيدِ وَشَدِّ مَعَاقِدِهِ،

قوله: (وقد دَلَّتْ أَجْوِبَتُهُمُ الْمُتَقَدِّمَةُ): وَهِيَ ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، وَدَلَالَتُهَا عَلَى غِلَظِ^(١) قُلُوبِهِمْ مِنْ حَيْثُ تَلَّكَ التَّوَكِيدَاتِ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا، وَهَذَا الْأَخِيرُ - وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا مَا أَعْرَبْنَاكَ بَعْضَ الْهَيْئَاتِ سِوَى﴾ - دَالٌّ عَلَى جَهْلِ مُفْرِطٍ.

قوله: (مِنَ اعْظَمِ الْآيَاتِ أَنْ يُوَاجَهَ بِهَذَا): «أَنْ يُوَاجَهَ»: مُبْتَدَأٌ، وَ«مِنَ اعْظَمِ»: الْخَبْرُ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «هَذَا»: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ أَنِّي بَرِيءٌ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَابَلَهُمْ فِي التَّوَكِيدِ، وَزَادَ عَلَيْهِمْ.

قوله: (إِشْهَادٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ فِي مَعْنَى تَثْبِيتِ التَّوْحِيدِ) إِلَى آخِرِهِ، الْإِنْتِصَافُ: «تَلْخِصُصُ

(١) فِي (ح): «عَظْمٌ».

وأما إشهدهم فما هو إلا تهاونٌ بدينهم، ودلالةٌ على قلةِ المبالاةِ بهم فحَسَب، فعَدَل به عن لفظِ الأولِ لاختلافِ ما بينهما، وجرىءٌ به على لفظِ الأمرِ بالشهادة، كما يقولُ الرجلُ لمن ييسرُ الثرى بينه وبينه: اشهد عليّ أني لا أحبُّك؛ تَهَكُّمًا به، واستِهانةً بحاله.

كلامُ الزمخشريّ أنّ صيغةَ الخبرِ تَقْتَضِي الإخبارَ بوقوعِ المُخْبِرِ به، وإشهادَهُ لله حقيقةً، وإشهادَهُ إياهمُ لَمَّا لم يكن حقيقةً كَانَ من مجازِ ورودِ الأمرِ بمعنى التهديد، ويحتملُ أن يكونَ إشهدُهُ لهم حقيقةً لإقامةِ الحجّةِ، وعَدَل عن الخبرِ إلى الأمرِ لتمييزِ خطابهم عن خطابِ الله تعالى^(١).

وقلت: الأولُ هو الوجهُ، لأنه قد تَقَرَّرَ في البيانِ أن إجراءَ الكلامِ على مُقْتَضَى الظاهرِ لا يَتَضَمَّنُ مِنَ التَّكْتِيبِ واللَّطِيفَةِ ما يَتَضَمَّنُهُ الإجراءُ على خِلافِ المُقْتَضَى، فإنَّ قوله: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ كلامٌ جارٍ على الإخبارِ عن براءتهِ من شركهم، فيُفِيدُ ما قال: «إشهادٌ صحيحٌ ثابتٌ في معنى تبييت التوحيد، وأما قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فغيرُ جارٍ^(٢) على مُقْتَضَاهُ، لأنَّ أحداً لا يقولُ لِعَدُوِّهِ المُنَاوِي^(٣): اشهد أني بريءٌ عنك، إلا أنه يُنْبَهُ بأنه لا يُبالي به، ولا يخافُ غوائله، وإليه الإشارةُ بقوله: «فما هو إلا تهاونٌ بهم».

قوله: (يسرُ الثرى)، الأساس: «والتقى الثريان: مثلٌ في سُرعةِ تَوَادُّ الرَّجُلَيْنِ، وأصله: أن يَسْقُطَ العَيْثُ الجود، فيلتقي نداءً وندى الأرضِ العتيقُ تحتها. ولا تُوسرُ الثرى بيني وبينك؛ أي: لا تُفَاطِعُنِي، قال جرير:

ولا تُوسرُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الثَّرَى
فإنَّ الذي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُثْرِي^(٤)»

الجوهري: «ما بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُثْرٌ، أي: أنه لم يَنْقَطِعْ، وهو مثلٌ، كأنه قال: لم ييسرِ الثرى

(١) «الانتصاف» لابن المنبِّر (٢: ٢٧٦) بحاشية «الكشاف».

(٢) من قوله: «على الإخبار عن براءته» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) كذا في (ط) و(ف)، وفي (ح): «المساوي».

(٤) «ديوان جرير» ص ٢٧٧.

﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ﴾ مِنْ إِشْرَاكِكُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ، أَوْ مِمَّا تُشْرِكُونَهُ مِنْ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ، أَي: أَنْتُمْ تَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ لَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا هُوَ شُرَكَاءَ، وَلَمْ يُنَزَلْ بِذَلِكَ سُلْطَانًا..

بيني وبينك، وفي الحديث: (بُلُّوا^(١) أرحامكم ولو بالسَّلام)^(٢)؛ استعارَ «البَّلَّ» لمعنى الوَصْل، واليَيْس: بمعنى القَطْع.

قوله: (أَوْ مِمَّا تُشْرِكُونَهُ مِنْ آلِهَةٍ): فعلى هذا: «ما» موصولة، ولهذا جاء بالضمير المحذوف^(٣)، و«مِنْ آلِهَةٍ» بيانُ «ما»، و«مِنْ دُونِهِ» صِفَةٌ «آلِهَةٍ»، أَوْ حَالٌ مِنْ فاعِلِ «تُشْرِكُونَ»، أَي: تُشْرِكُونَ مُجَاوِزِينَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الْحُكْمِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا حَكَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فَقَدْ جَاوَزُوا حُكْمَهُ.

وعلى الأول: «ما» مَصْدَرِيَّةٌ، و«دُون» بمعنى: غير، صِفَةٌ أَيْضاً، كَمَا قَدَّرَهُ: «مِنْ إِشْرَاكِكُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ»، أَي: غيره.

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «بكوا»، وكذا تحرّف فيهما «البل» - الآتي يُعَيّد هذا - إلى «البك»، والمُنْبِتُ من (ط)، وهو المُوَافِقُ لَهَا فِي «الصَّحاح» للجوهري، مادة (ثرى).

(٢) أخرجه وكيعُ بنُ الجراح في «الزهد» (٤٠٢)، وهنادُ بنُ السَّرِيِّ في «الزهد» (١٠١١)، والقُضَاعِيُّ في «مسند الشهاب» (٦٥٣) و(٦٥٤)، والبيهقي في «شعب الإيَّان» (٧٩٧٢) من حديث مُجَمِّعِ بْنِ يَحْيَى بْنِ يَزِيدِ بْنِ جَارِيَةَ، عَنِ سُؤَيْدِ بْنِ عَامِرٍ، وَفِي صُحُوبِ سُؤَيْدٍ خِلَافٌ. وَاخْتَلَفَ فِي إِسْنَادِهِ أَيْضاً، فَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَب» (٧٩٧٣) مِنْ طَرِيقِ مُجَمِّعٍ، عَنِ عَمِّهِ، عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البزار - كما في «مجمع الزوائد» للهيثمي (٨: ١٥٢) -، والخطيب في «المتفق والمفترق» (٣: ٣٢٢) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَفِي إِسْنَادِهِ الْبَرَاءُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدِ الْغَنَوِيِّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، كَمَا قَالَ الْحَافِظُ الْهَيْثَمِيُّ.

وأخرج الطبراني من حديث أبي الطفيل: «صَلُّوا أرحامكم بالسَّلام»، وَفِي إِسْنَادِهِ رَاوٍ لَمْ يُسَمَّ، كَمَا قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِد» (٨: ١٥٢).

ولمَّا خَرَّجَهُ الْحَافِظُ السَّخَاوِيُّ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ، قَالَ فِي «المقاصد الحسنة» ص ٢٣٩: «وَبَعْضُهَا يُقَوِّي بَعْضاً».

(٣) وهو الهاءُ ضميرُ المفعولِ فِي «تُشْرِكُونَهُ».

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أَنْتُمْ وَأَهْلُكُمْ أَعْجَلْ مَا تَفْعَلُونَ، مِنْ غَيْرِ إِنْظَارٍ، فَإِنِّي لَا أَبَالِي بِكُمْ وَبِكَيْدِكُمْ، وَلَا أَخَافُ مَعَزَّتَكُمْ وَإِنْ تَعَاوَنْتُمْ عَلَيَّ، وَأَنْتُمْ الْأَقْوِيَاءُ الشَّدَادُ، فَكَيْفَ تَضُرُّنِي أَهْلُكُمْ، وَمَا هِيَ إِلَّا جَمَادٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَكَيْفَ تَنْتَقِمُ مِنِّي إِذَا نَلْتُ مِنْهَا وَصَدَدْتُ عَنْ عِبَادَتِهَا، بَأَنْ تَخْبِلَنِي وَتَذْهَبَ بِعَقْلِي.

[﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَنَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ ٥٦-٥٧]

ولمَّا ذَكَرَ تَوَكُّلَهُ عَلَى اللَّهِ، وَثِقَتَهُ بِحِفْظِهِ وَكَلَاءَتِهِ مِنْ كَيْدِهِمْ، وَصَفَهُ بِمَا يُوجِبُ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ مِنْ اشْتِهَالِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ؛ مِنْ كَوْنِ كُلِّ دَابَّةٍ فِي قَبْضَتِهِ وَمَلَكَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ،.....

قوله: (أَعْجَلْ مَا تَفْعَلُونَ): «أَعْجَلْ»: مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَكِيدُونِي﴾، أَي: فَكِيدُونِي زَمَانًا أَعْجَلْ أَوْقَاتِ مَا تَفْعَلُونَ، كَقَوْلِهِ: أَخْطَبُ مَا يَكُونُ الْأَمِيرَ.

قوله: (كَيْفَ تَضُرُّنِي أَهْلُكُمْ): هَذَا يُؤْذِنُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ جَوَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَاكَ بَعْضَ الْهَيْبَتِنَا﴾ عَلَى الْمُبَالَغَةِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ مُقَدِّمَةٌ وَتَمْهِيدٌ لِلْجَوَابِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَمَوْهَا آهَةً، وَأَثْبَتُوا لَهَا الضَّرَرَ، نَفَى هُوَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ كَوْنَهُمْ آهَةً رَأْسًا، ثُمَّ نَفَى الضَّرَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ عَلَى أْبْلَغِ وَجْهِ، كَمَا قَالَ: لَا أَخَافُ فِسَادَكُمْ وَمَضَّرَتَكُمْ، فَكَيْفَ بِالْجِهَادِ الَّذِي هُوَ أَوْهَنُ مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ.

قوله: (نَلْتُ مِنْهَا): أَي: عَيْبَتُهَا وَاشْتَمَيْتُ غَيْظِي مِنْهَا.

قوله: (وَصَفَهُ بِمَا يُوجِبُ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ): أَي: فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَيَدُلُّ أَنَّهُ (١) عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّنَا

(١) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «يُرِيدُ أَنْ»، وَالْمُتَّبِعُ مِنْ (ف).

والأخذ بنواصيها تمثيلٌ لذلك، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يُريد: أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يَفُوتُهُ ظالم، ولا يَضِيعُ عنده مُعْتَصِمٌ به.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا. فَإِنْ قُلْتَ: الإِبْلَاحُ كَانَ قَبْلَ التَّوَلَّى، فَكَيْفَ وَقَعَ جَزَاءٌ لِلشَّرْطِ؟ قُلْتَ: مَعْنَاهُ: فَإِنْ تَوَلَّوْا لَمْ أُعَاتَبْ عَلَى تَفْرِيطٍ فِي الإِبْلَاحِ، وَكُنْتُمْ مَحْجُوجِينَ بِأَنَّ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ قَدْ بَلَغَكُمْ فَأَيُّتُمْ إِلَّا تَكْذِيبَ الرِّسَالَةِ وَعَدَاوَةَ الرِّسُولِ، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، يُرِيدُ: وَيُهْلِكُكُمْ اللَّهُ،

حُكْمَ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ وَالِاتِّجَاءِ إِلَيْهِ مِنْ كَيْدِهِمْ عَلَى الوَصْفِ المُنَاسِبِ، أَثْبَتَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ مَنِ دَابَّتْ إِلَّا هُوَ أَحَدٌ بِأَصْبَحِيهَا﴾ صِفَةَ المَالِكِيَةِ والقَهَارِيَةِ، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَصَفَ العَدْلَ، فَلِكَوْنِهِ مَالِكاً لَا يَفُوتُهُ أَحَدٌ، وَلِكَوْنِهِ قَاهِراً لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلِكَوْنِهِ عَادِلاً لَا يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَوْضِعِهِ، فَمَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ فَمَنْ حَقَّ المُلْتَجِيُّ أَنْ لَا يَلْتَجِيَ إِلَّا إِلَيْهِ^(١).

قَوْلُهُ: (الإِبْلَاحُ كَانَ قَبْلَ التَّوَلَّى): يَعْنِي: مِنْ حَقِّ الجَزَاءِ أَنْ يَكُونَ مُسَبِّباً عَنِ الشَّرْطِ، وَالسَّبَبُ مُقَدِّمٌ عَلَى المُسَبَّبِ، فَمَا بِهِ مُؤَخَّرٌ؟ والجواب: أَنَّ الجَزَاءَ مُسَبِّبٌ عَلَى الإِخْبَارِ والإِعْلَامِ وَالتَّوْبِيخِ، يَعْنِي: تَوَلَّيْتُمْ عَمَّا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الحَقِّ سَبَبٌ لِأَنْ أُخْبِرَكُمْ أَنِّي مَا قَصَّرْتُ فِي التَّبْلِيغِ، وَأَنْكُمْ تَجَاوَزْتُمْ حَدَّ الإِنصَافِ، وَأَيُّتُمْ قَبُولَ الحَقِّ، وَكُنْتُمْ مَحْجُوجِينَ، لِأَنَّ العَرَضَ فِي إِرْسَالِ الرِّسْلِ الإِبْلَاحِ، فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ، فَلَزِمَتْكُمْ الحِجَّةُ، قَالَ القَاضِي: ﴿فَقَدْ أَتَلَفْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فَقَدْ أُدْبِتْ مَا عَلَيَّ مِنَ الإِبْلَاحِ وَالزَّامِ الحِجَّةَ^(٢).

قَوْلُهُ: (﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ): أَي: لَيْسَ بِدَاخِلٍ فِي حَيْزِ الجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ جَزَاءً عَنْهُ، كَمَا فِي الوَجْهِ الثَّانِي، بَلْ يَكُونُ جُمْلَةً مُسْتَقِلَّةً بِرَأْسِهَا، مَعْطُوفَةً عَلَى الجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ،

(١) هذه الفقرة سقطت من (ط).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٤١).

ويحيءُ بقوم آخرينَ يخلفونكم في دياركم وأموالكم، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ ﴿بِتَوَلَّيْكُمْ،
﴿شَيْئًا﴾ مِنْ ضَرَرٍ قَطًّا، لَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَضَارُّ وَالْمَنَافِعُ، وَإِنَّمَا تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ.

وفي قراءة عبد الله: «وَيَسْتَخْلِفُ» بالجزم، وكذلك: «وَلَا تَضُرُّوهُ»؛ عطفًا على محلِّ
﴿فَقَدْ أَبْلَغْتَكُمْ﴾ والمعنى: إن تَوَلَّوْا يَعْدِرُنِي وَيَسْتَخْلِفُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوْا إِلَّا
أَنْفُسَكُمْ.

﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيبٌ عليه مهيمين، فما تحفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن
مُواخَذَتِكُمْ، أو: مَنْ كَانَ رَقِيبًا عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، حَافِظًا لَهَا، وَكَانَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى
حِفْظِهِ مِنَ الْمَضَارِّ، لَمْ يَضُرَّ مِثْلَهُ وَمِثْلُكُمْ.

[﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

[٥٨]

مُؤَدَّنَةً بِأَنَّ الْحِجَّةَ قَدْ لَزِمَتْهُمْ بِإِبْلَاحِ الرَّسُولِ مَا عَلَيْهِ مِنَ التَّبْلِيغِ وَتَوَلَّيْهِمْ عَنْهُ، وَأَنَّ اللَّهَ يُهْلِكُهُمْ
وَيَسْتَخْلِفُ فِي دِيَارِهِمْ قَوْمًا غَيْرَهُمْ^(١)، فعلى هذا: الجملة الشرطية^(٢) برأسها إخبارٌ بالزام
الحجَّةِ عليهم، والجملة الثالثة^(٣) ابتداءً إخبارٌ باستخلافٍ غيرهم بعد إهلاكهم.

قوله: (أو: مَنْ كَانَ رَقِيبًا عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا): على هذا الوجه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
حَفِيظٌ﴾ كالتعليل لقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، وعلى الأول: تعليلٌ لقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ
أَبْلَغْتُمْ﴾ ولقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

(١) قال العلامة الألويسي رحمه الله تعالى في «روح المعاني» (١٢: ٨٤) عن تفسير المؤلف رحمه الله تعالى
الاستئناف هنا بهذا: إنه «خلاف الظاهر من العبارة».

(٢) من قوله: «جزاء عنه كما في الوجه الثاني» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) يعني: جملة: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، وعدّها نالئةً على اعتبار أن الجملة الشرطية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ
أَبْلَغْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ مجملتان؛ فعل الشرط وجوابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف. فإن قلت: ما معنى تكرير التَّنَجِيَةِ؟ قلت: ذكر أولاً أنه حينَ أَهْلَكَ عَدُوَّهُمْ نَجَّاهُمْ، ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ على معنى: وكانت تلك التَّنَجِيَةُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، وذلك أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ عَلَيْهِمُ السَّمُومَ، فكانت تَدْخُلُ فِي أَنْوْفِهِمْ، وتُخْرَجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ، فَتَقَطُّعُهُمْ عُضُوًّا عُضُوًّا. وقيل: أراد بالثانية: التَّنَجِيَةُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، ولا عَذَابٍ أَغْلَظُ مِنْهُ وَأَشَدُّ.

وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: يُرِيدُ: بِسَبَبِ الْإِيْمَانِ الَّذِي أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِالتَّوْفِيقِ لَهُ.

[﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٥٩-٦٠﴾]

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارةٌ إِلَى قُبُورِهِمْ وَأَثَارِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: سِيحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا إِلَيْهَا وَاعْتَبِرُوا، ثم استأنفَ وَصَفَ أَحْوَالَهُمْ،

قوله: (أراد بالثانية التَّنَجِيَةَ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ): الحاصل: أَنَّ التَّكْرِيرَ لِتَعْلِيْقِ أَمْرِ زَائِدٍ عَلَى الْأَوَّلِ؛ إِمَّا بِحَسَبِ الْإِبْهَامِ وَالتَّفْسِيرِ، عَلَى نَحْوِ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرَّمَهُ، وَإِمَّا بِحَسَبِ التَّغَايُرِ فِي الذَّاتِ^(١).

قوله: (﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارةٌ إِلَى قُبُورِهِمْ): قال القاضي: «أَنَّتَّ السَّمَّ الْإِشَارَةَ بِاعْتِبَارِ الْقَبِيلَةِ، أَوْ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى قُبُورِهِمْ وَأَثَارِهِمْ»^(٢). وقلت: كَأَنَّهُ آذَنَ بِتَصْوِيرِ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ فِي الدُّهْنِ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَيْهَا وَجَعَلَهَا خَبْرًا لِلْمُبْتَدَأِ لِمَزِيدِ الْإِبْهَامِ، فَيَحْسُنُ التَّفْسِيرُ بِقَوْلِهِ: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كُلَّ الْحُسْنِ لِمَزِيدِ الْإِبْهَامِ وَالتَّفْصِيلِ، وَيَنْصُرُ الثَّانِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَارِدَةٌ بَعْدَ هَلَاكِ الْقَوْمِ.

(١) انظر: «روح المعاني» للألوسي (١٢: ٨٦)، فقد تعقب المؤلف رحمها الله تعالى في هذا الموضع.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٤١).

فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، لأنهم إذا عصوا رُسُلَهُمْ فقد عصوا جميع رُسُلِ الله؛ ﴿لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قيل: لم يُرْسَلْ إليهم إلا هودٌ عليه السلام وحده، ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يُريد: رُؤساءَهُمْ وكُبراءَهُمْ ودُعَاتِهِمْ إلى تكذيب الرُّسُلِ، ومعنى اتباع أمرِهِمْ: طاعتَهُمْ.

ولمَّا كانوا تابعين لهم دون الرُّسُلِ جُعِلَتِ اللَّعْنَةُ تابعةً لهم في الدارين تُكَبِّهُم على وجوههم في عذاب الله، و﴿آلَا﴾ وتكرارها مع النداء على كُفْرِهِمْ والنداء عليهم: تهويلٌ لأمرِهِمْ وتفطیحٌ له، وبعثٌ على الاعتبارِ بهم، والحذرِ من مثلِ حالِهِمْ.

فإن قلت: ﴿بُعْدًا﴾ دعاءٌ بالهلاك، فما معنى الدعاءِ به عليهم بعدَ هلاكِهِمْ؟ قلت: معناه: الدلالةُ على أنهم كانوا مُستأهليين له، ألا ترى إلى قوله:

إِخْوَتِي لَا تَبْعُدُوا أَبَدًا وِبِلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعْدُوا

قوله: (لأنهم إذا عصوا رُسُلَهُمْ): فيه حذف، أي: إنما قيل: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، وما هو إلا رُسول، لأنهم إذا عصوا رُسُلَهُمْ فقد عصوا جميع رُسُلِ الله، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

قوله: (ولمَّا كانوا تابعين لهم دون الرُّسُلِ جُعِلَتِ اللَّعْنَةُ تابعةً لهم): يعني: لمَّا تبعَ عادٌ أمرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَعَصَوْا رُسُلَ اللهِ، وكَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، جُعِلَتِ اللَّعْنَةُ تابعةً لهم في الدارين. وفيه: أنهم لو عكسوا جُعِلَتِ الرَّحْمَةُ تابعةً لهم في الدارين، يَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

قوله: (و﴿آلَا﴾ وتكرارها): عطْفٌ على لَفْظَةِ ﴿آلَا﴾ على منوالِ التفسير.

قوله: (إخوتي لا تبعدوا أبداً) البيت^(١): أي: كانوا في حالِ حياتِهِمْ مُستأهليين لأن يُقالَ

(١) البيتُ لِقاطمة بنتِ الأحجم الخزاعية، كما في «الحماسة» ص ١٦٣.

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لـ «عادٍ»، فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان، والبيان حاصل بدونه؟ قلت: الفائدة فيه أن يُوسموا بهذه الدعوة وسماء، وتُجعل فيهم أمراً مُحققاً لا شُبْهَةً فيه بوجهٍ مِنَ الوجوه، ولأنَّ عاداً عادان: الأولى: القديمة التي هي قومُ هُود. والقِصَّةُ فيهم، والأخرى: إرم.

لهم: لا تَبَعِدُوا أبدأ، كأنه يَعْتَرِضُ في المِضْرَاعِ الثاني على نَفْسِهِ بقوله: «وبلى^(١) والله قد بَعِدُوا»، على أنك لِمَ قلت: لا تَبَعِدُوا؟ هذه ألفاظٌ يَسْتَعْمَلُونَهَا عندَ المِصَائِبِ، وليسَ فيها طَلَبٌ ولا سُؤال، وإنما هي تَنبِيهُ على شِدَّةِ الأمر، وتَفَاقُمِ الجَزَعِ، وتناهي التَفْجَعِ.

قوله: (الفائدة فيه أن يُوسموا بهذه الدعوة وسماء، وتُجعل فيهم أمراً مُحققاً): وذلك أنَّ قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، بعدَ قوله: ﴿وَالِي عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، للدلالة على القَطْعِ في أنهم إنما اسْتَحَقُّوا لَعْنَةَ الدَّارَيْنِ لَمَّا جَحَدُوا بآياتِ الله، وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَتَجَبَّرُوا، على مِثْوَالِ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، بعدَ قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

ولمَّا أَرَادَ أن يُسَجِّلَ عليهم بالطَّرْدِ والهلاك، ويجعله كالوَسْمِ بهم، أَوْقَعَ هذا الدُّعَاءَ خَاتِمَةً لِقِصَّتِهِمْ، مُصَدِّراً بحَرْفِ التَّنْبِيهِ المُتَلَقِّيَةِ لِلْقَسَمِ، وأَوْقَعَ ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ بيانا وصِفَةً لِذِكْرِهِمْ، قال الإمام: «المبالغة في التنصيص تدلُّ على مزيد التأكيد»^(٢).

وأما الوجهُ الثاني - وهو قوله: «ولأنَّ عاداً عادان» - فضعيف، لأنه لا لَبْسَ في أنَّ عاداً هذه ليست إلاماً قوم هُود، لتصريح اسمه وتكريره في القِصَّةِ، قيل: عادُ الأولى: هي عادُ إرمَ ابنِ سامِ بنِ نُوح، وعادُ الآخرة: قومُ لَقِيمِ بنِ هِلَالِ بنِ هُذَيْمِ، هكذا في «العرائس»^(٣).

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «ويلحن»، والمثبت من (ط).

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٣٦٧).

(٣) لعله يُريد: «عرائس المجالس» لأبي إسحاق الثعلبي، أحمد بن يحيى بن إبراهيم النيسابوري المُفسِّر، المتوفى سنة ٤٢٧، وهو كتابٌ مؤلَّفٌ في قِصَصِ الأنبياء.

[وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَإِنَّ رَبِّي لَقَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا لَبِصْلِحٍ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْحُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَنِی مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَیَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرَ مَكْدُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَآءُ اللَّهِ لِيُنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِيُنشِئَكُمْ مِنْهَا إِلَّا هُوَ، وَلَمْ يَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا غَيْرُهُ، وَإِنشَاؤُهُمْ مِنْهَا: خَلَقَ آدَمَ مِنَ التَّرَابِ، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وَأَمَرَكَم بِالْعِمَارَةِ، وَالْعِمَارَةُ مُتَنَوِّعَةٌ إِلَىٰ وَاجِبٍ وَنَدْبٍ وَمُبَاحٍ وَمَكْرُوهٍ، وَكَانَ مُلُوكُ فَارِسَ قَدْ أَكْثَرُوا مِنْ حَفْرِ الْأَنْهَارِ وَغَرَسِ الْأَشْجَارِ،

قوله: (لم يُنشئكم منها إلا هو): الحصرُ مُستفادٌ من تقديم الفاعل المَعْنَوِيّ^(١)، لأنه مثل: أَنَا كَفَيْتُ هَمَّكَ، وَأَنَا قَضَيْتُ حَاجَتَكَ.

قوله: (والعِمَارَةُ مُتَنَوِّعَةٌ إِلَىٰ وَاجِبٍ وَنَدْبٍ وَمُبَاحٍ وَمَكْرُوهٍ): فالواجب: مِثْلُ سَدِّ الشُّعُورِ، وَالْقَنَاظِرِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْأَنْهَارِ الْمُهْلِكَةِ، وَالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ فِي مِصْرَ^(٢)، وَالْمَنْدُوبِ: كَالْمَسْجِدِ وَالْقَنَاظِرِ وَالْمَدَارِسِ وَالرُّبُطِ، وَالْمُبَاحِ: كَالْبُيُوتِ الَّتِي يُسْكَنُ فِيهَا وَيُكْنَىٰ بِهَا، وَالْحَرَامِ: كَابْنِيَةِ الظَّلْمَةِ وَغَيْرِهِم لِلْمُبَاهَاةِ، وَاسْأَلِ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ وَالتَّوْبَةَ.

(١) أي: المبتدأ «هو»، فهو مُبتدأٌ من حيث الإعراب، وفاعلٌ من حيث المعنى.

(٢) أي: في بليدٍ من البلدان، ومدينة من المدن، ولا يُريدُ البلدَ المعروف بعينه.

وَعُمِّرُوا الْأَعْمَارَ الطُّوَالَ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنْ عَسْفِ الرَّعَايَا، فَسَأَلَ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ
 زَمَانِهِمْ رَبَّهُ عَنْ سَبَبِ تَعْمِيرِهِمْ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّهُمْ عَمَّرُوا بِلَادِي، فَعَاشَ فِيهَا عَبَادِي.
 وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ: أَنَّهُ أَخَذَ فِي إِحْيَاءِ الْأَرْضِ فِي آخِرِ أَمْرِهِ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ:
 مَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ:

لَيْسَ الْفَتَى بَفَتَى لَا يَسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا تَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارُ

وقيل: اسْتَعْمَرَ كَم: مِنَ الْعُمْرِ، نَحْوُ: اسْتَبَقَاكَ: مِنَ الْبَقَاءِ، وَقَدْ جُعِلَ مِنَ الْعُمْرِ،
 وَفِيهِ وَجْهَانُ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ «اسْتَعْمَرَ» فِي مَعْنَى: أَعْمَرَ، كَقَوْلِكَ: «اسْتَهْلَكَهُ» فِي
 مَعْنَى: أَهْلَكَهُ، وَمَعْنَاهُ: أَعْمَرَ كُمْ فِيهَا دِيَارَكُمْ، ثُمَّ هُوَ وَارِثُهَا مِنْكُمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ
 أَعْمَارِكُمْ، وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى: جَعَلَ كُمْ مُعْمِرِينَ دِيَارَكُمْ فِيهَا، لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا
 وَرَّثَ دَارَهُ مَنْ بَعْدَهُ، فَكَأَنَّمَا أَعْمَرَهُ إِيَّاهَا، لِأَنَّهُ يَسْكُنُهَا عُمُرَهُ، ثُمَّ يَتْرُكُهَا لِغَيْرِهِ.

﴿قَرِيبٌ﴾ دَانِي الرَّحْمَةِ سَهْلُ الْمَطْلَبِ، ﴿مُجِيبٌ﴾ لِمَنْ دَعَاهُ وَسَأَلَهُ.

قوله: (وقد جعل من العُمري)، الجوهري: «أعمرته داراً أو أرضاً أو إيلاً: إذا أعطيته
 إياها»^(١)، وقلت: هي لك عُمري أو عُمرك، فإذا مِتَّ رَجَعْتَ إِلَيَّ، وَالاسْمُ: الْعُمْرِيُّ».

قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ دَانِي الرَّحْمَةِ سَهْلُ الْمَطْلَبِ: نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

اللَّهُ أَنْجَحَ مَا طَلَبْتَ بِهِ^(٢)

وفي تعليل الاستغفار والتَّوْبَةِ بما يُعْلَلُ بِهِ الدُّعَاءُ مِنْ كَوْنِهِ قَرِيباً مُجِيباً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
 سَأَلْتَهُ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦]: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ

(١) في الأصول الخطية: «إياه»، والمثبت من «الصحاح» للجوهري، مادة (عمر).

(٢) البيت لامرئ القيس، كما في «ديوانه» ص ١٥٢، وتاممه:

والبرُّ خيرُ حَقِيبَةِ الرَّحْلِ

﴿فِينَا﴾ فيما بيننا، ﴿مَرْجُؤًا﴾ كانت تَلُوحُ فِيكَ مَحَايِلُ الخَيْرِ، وَأَمَارَاتُ الرُّشْدِ، فَكُنَّا نَرْجُوكَ لِنَتَفَعَّ بِكَ، وَتَكُونَ مُشَاوِرًا فِي الْأُمُورِ، وَمُسْتَرْشِدًا فِي التَّدَابِيرِ، فَلَمَّا نَطَقْتَ بِهَذَا الْقَوْلِ انْقَطَعَ رَجَاؤُنَا عَنْكَ، وَعَلِمْنَا أَنَّ لَا خَيْرَ فِيكَ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَاضِلًا خَيْرًا نُقَدِّمُكَ عَلَى جَمِيعِنَا، وَقِيلَ: كُنَّا نَرْجُو أَنْ تَدْخُلَ فِي دِينِنَا، وَتُؤَافِقَنَا عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ حِكَايَةَ حَالِ مَاضِيَةٍ، ﴿مُرِيبٍ﴾ مِنْ: أَرَابَهُ: إِذَا أَوْقَعَهُ فِي الرِّيبَةِ، وَهِيَ قَلَقُ النَّفْسِ وَانْتِفَاءُ الطَّمَأْنِينَةِ بِالْيَقِينِ، أَوْ مِنْ: أَرَابَ الرَّجُلُ: إِذَا كَانَ ذَا رِيبَةٍ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ.

قِيلَ: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ بِحَرْفِ الشَّكِّ، وَكَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ عَلَى بَيِّنَةٍ، لِأَنَّ خِطَابَهُ لِلْمُجَاهِدِينَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قَدَّرُوا أَنِي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَأَنِّي نَبِيٌّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَانظُرُوا إِنْ تَابَعْتُمْ وَعَصَيْتُمْ رَبِّي فِي أَمْرِهِ، فَمَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟

مُجَرَّدِ الْاسْتِغْفَارِ أَيْضًا سُؤَالَ وَدُعَاءٍ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠-١٢] الآية، كَمَا سَبَقَ فِي قِصَّةِ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَوْلُهُ: (نَرْجُوكَ لِنَتَفَعَّ بِكَ، وَتَكُونَ مُشَاوِرًا فِي الْأُمُورِ، وَمُسْتَرْشِدًا فِي التَّدَابِيرِ): وَذَلِكَ لِإِطْلَاقِ الرَّجَاءِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَرْجُؤًا﴾^(١).

قَوْلُهُ: (مِنْ: أَرَابَ الرَّجُلُ: إِذَا كَانَ ذَا رِيبَةٍ): أَي: لَفِي شَكٍّ ذِي^(٢) رِيبَةٍ، نَحْوُ قَوْلِهِمْ: جَدُّ جِدُّهُ.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّ خِطَابَهُ لِلْمُجَاهِدِينَ): يَعْنِي: إِنَّمَا قَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ بِحَرْفِ

(١) فِي (ج) وَ(ف): «وَذَلِكَ لِإِطْلَاقِ أَي قَوْلِهِمْ: ﴿مَرْجُؤًا﴾ الرَّجَاءُ، وَفِي (ط): «وَذَلِكَ لِإِطْلَاقِ الرَّجَاءِ أَي قَوْلِهِمْ: ﴿مَرْجُؤًا﴾»، وَكِلَاهُمَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ، وَأَصْلِحْتُهُ بِمَا تَرَاهُ.

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «ذَا»، وَلَا يَسْتَقِيمُ نَحْوًا.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إذن حيثئذ، ﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ يعني: تُخَسِرُونَ أَعْمَالِي وَتُبْطَلُونَهَا، أو: فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملونني عليه غير أن أخصركم، أي: أنسبكم إلى الخسران، وأقول لكم: إنكم خاسرون.

﴿ءآيَةٌ﴾ نصبٌ على الحال، قد عمِلَ فيها ما دَلَّ عليه اسمُ الإشارةِ مِنْ معنىِ الفعلِ. فإن قلت: فِيمَ يَتَعَلَّقُ ﴿لَكُمْ﴾؟ قلت: بـ ﴿ءآيَةٌ﴾ حالاً منها مُتَقَدِّمَةً، لأنها لو تَأَخَّرَتْ لكانت صِفَةً لها، فلما تَقَدَّمَتْ انْتَصَبَتْ على الحال،

الشك، مع أنه على يقين، لأنه من الكلام المنصّف، يستدرجهم ويقول: قدروا على زعمي أي على حق، ثم أي عصيت ربي، فلا بد أن الله تعالى ينتقم مني، فتفكروا هل تقدرون أن تمنعوا عذاب الله مني، بل ما تزيدونني غير تحسير.

قوله: (إذن حيثئذ): أكد «إذن» بـ «حيثئذ» ليختص بالظرفية.

قوله: (فلما تقدّمت انتصبت على الحال): قيل: هذا قول لم يقل به أحد، لِمَا يَلزَمُ منه أن يكون الحالُ ذا الحال، والأولى: ﴿لَكُمْ﴾ حال عمِلَ فيها معنى الإشارة^(١)، و﴿ءآيَةٌ﴾ حالٌ مِنَ الضميرِ المُستَترِ فيه، فيكونانِ حالينِ مُتداخِلينِ.

وقلت: وقد قال به أبو البقاء^(٢) والكواشي، وقال الواحدي: ﴿ءآيَةٌ﴾ جازت أن تكونَ حالاً بمعنى: دالة^(٣)، فلا امتناع حيثئذ [من] وقوعها ذا حالٍ باعتبار الضمير^(٤)، وقال الزجاج: «إِنَّ نَصْبَ ﴿ءآيَةٌ﴾ على الحال، المعنى: إذا قال: هذه ناقة الله لكم آية أو آية لكم، فكانه قال: انتهوا لها في هذه الحال»^(٥).

(١) أي: «هذه»، في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ﴾.

(٢) انظر: «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (١: ٥٨٠).

(٣) في (ح): «حالاً دالة معنى»، والمثبت من (ط) و(ف)، وهو الموافق لِمَا في «الوسيط» للواحدي.

(٤) «الوسيط» للواحدي (٢: ٣٨٣).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٥٩ - ٦٠).

﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجلٌ لا يستأخرُ عن مسَّكُمْ لها بسوءٍ إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام، ثم يقعُ عليكم.

﴿تَمَتَّعُوا﴾ استمتعوا بالعيش، ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ في بلدكم، وتسمى البلاد: الديار؛ لأنه يُدارُ فيه، أي: يتصرَّف، يُقال: «ديارُ بكرٍ» لبلادهم، وتقولُ العربُ الذين حوالي مكة: نحنُ من عربِ الدار؛ يُريدون: من عربِ البلد. وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عَقَرُوها يومَ الأربعاء، وهلكوا يومَ السبت، ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ غيرَ مكذوب فيه،

وقلت: المقصودُ من هذا التركيب اتِّصافُ المشارِ إليه بالحال، وتنبيةُ المخاطبِ عليه، كما أنك إذا قلتَ لمن يعرفُ زيداً: هذا زيدٌ قائماً، تُفيدُه التنبيةُ على قيامه فقط، وسيجيءُ تحقيقه في قوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي سَيِّحًا﴾ [هود: ٧٢]، فعلى هذا: فيه التنبيةُ للقومِ على اتِّصافِ الناقَةِ بكونها آية، ثم بيانُ أن تلك الآيةَ بمن تختص، وقد قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى في الأعراف^(١): ﴿لَكُمْ﴾ بيانٌ لمن هي له آيةٌ موجبةٌ عليه الإيمان.

قوله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ استمتعوا بالعيش، الراغب: «المتوع: الامتدادُ والارتفاع، يُقال: متعَ النهار، ومتعَ النبات: ارتفع، والمتاع: انتفاعٌ مُتدُّ الوقت، يُقال: متَّعه الله بكذا، وأمتعته، وتَمَتَّعَ به. وكلُّ موضعٍ ذَكَرَ فيه «تَمَتَّعُوا» في الدنيا فعلى طريق التهديد، وذلك لِمَا فيه من معنى التوسع، قال تعالى: ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَسْفَرٌ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] تنبيهاً على أن لكلِّ إنسانٍ مِنَ الدُّنيا تَمَتُّعٌ مُدَّةٌ معلومة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] تنبيهاً على أن ذلك في جنبِ الآخرةِ غيرُ مُعتدِّ به، ويُقالُ لِمَا يُنتفعُ به في البيت: متاع، قال تعالى: ﴿أَبْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ [الرعد: ١٧]، وكلُّ ما يُنتفعُ به على وجهٍ فهو متاع، والمتعة: ما تُعطى المطلقَةَ لِتَسْتَفِيعَ بها مُدَّةَ عِدَّتِها، ومُتَعَّةُ النكاح: أن تُشارِطَ المرأةُ بِمالٍ معلومٍ إلى أجلٍ معلومٍ، فإذا انقضتْ فارقها من غيرِ طلاقٍ^(٢).

(١) في تفسير الآية ٧٣ منها (٦: ٤٤٤).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧٥٧-٧٥٨.

فَأُتْسِعَ فِي الظَّرْفِ بِحَذْفِ الحَرْفِ، وإِجْرَائِهِ تَجْرِيُ المَفْعُولِ بِهِ، كقولك: يَوْمٌ مَشْهُودٌ، مِنْ قَوْلِهِ:

ويومٌ شهيدناه

أو على المجاز، كأنه قيل: للوَعْدِ نَفِي بِكَ، فإذا وَفَى بِهِ فَقَدْ صَدَقَ ولم يَكْذِبْ، أو: وَعَدُّ غَيْرُ كَذِبٍ، على أَنَّ «المَكْذُوبَ» مَصْدَرٌ، كالمجلود والمعقول، وكالمصدوقة: بمعنى الصَّدَقِ.

قوله: (ويومٌ شهيدناه): تمامه:

.....سُلَيْمًا وَعَامرًا قَلِيلٌ سِوَى الطَّعْنِ الدَّرَاكِ نَوَافِلُهُ (١)

ويُروى: «الطَّعْنُ النَّهَالُ» (٢).

و«النَّهَالُ»: جَمْعُ نَاهِلٍ، مِثْلُ: طِلَابٍ وَطَالِبٍ، وَالنَّاهِلُ: الرِّيَّانُ وَالْعِطْشَانُ، وَهُوَ صِفَةٌ «الطَّعْنِ»، يُرِيدُ: يَرُوي الرِّمَاحَ العِطْشَانِ؛ يَصِفُ مَعْرَكَةً، «شَهِدَ»: يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، وَهِيَ هُنَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ (٣)، «قَلِيلٌ»: صِفَةٌ «يَوْمٍ»، وَ«نَوَافِلُهُ» فاعِلٌ «قَلِيلٌ»، وَالنَّافِلَةُ: العَطِيَّةُ إِذَا كَانَتْ تَطَوُّعًا، وَأَسْقَطَ لَفْظَةَ «فِي» مِنَ اللَّفْظِ (٤)، وَسَيَجِيءُ تَمَامُهُ بَعِيدَ هَذَا.

(١) هكذا أوردته الميداني في «مجمع الأمثال» (١: ١٢).

(٢) وهكذا أوردته سيبويه في «الكتاب» (١: ١٧٨)، والمبرد في «الكامل» (١: ٣٢)، وفي «المقتضب» (٣: ١٠٥) و(٤: ٣٣١)، والزنجشيري في «المفصل» ص ٥٥، وابن منظور في «لسان العرب»، مادة (جزى).

وموضع الشاهد منه قوله: «شَهِدْنَا»، والمراد: شَهِدْنَا فِيهِ.

(٣) كَذَا فِي (ط) وَ(ح)، وَفِي (ف): «شَهِدَ: يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ هَاهُنَا»، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

(٤) نَقَلَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ»، مَادَّةَ (جَزَى)، عَنِ الزَّجَّاجِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨، ١٢٣]: «مَعْنَاهُ: لَا تَجْزِي فِيهِ، وَقِيلَ: لَا تَجْزِيهِ، وَحَذْفُ «فِي» هَاهُنَا سَانِعٌ، لِأَنَّ «فِي» مَعَ الظَّرْفِ مَحذُوفَةٌ، وَقَدْ تَقُولُ: أَتَيْتَكَ الْيَوْمَ، وَأَتَيْتَكَ فِي الْيَوْمِ، فَإِذَا أَضْمَرْتَ قُلْتَ: أَتَيْتَكَ فِيهِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: أَتَيْتَكَ»، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَرَادَ: شَهِدْنَا فِيهِ».

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ قُرِئَ مَفْتُوحَ الميم، لأنه مضافٌ إلى «إِذٍ»، وهو غيرُ مُتَمَكِّنٍ،

كقوله:

على حينَ عاتبْتُ المَشِيبَ على الصِّبا

فإن قلت: علامَ عَطِفَ؟ قلت: على ﴿بَجَّيْنَا﴾، لأنَّ تَقْدِيرَهُ: وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، كما قال: ﴿وَبَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]،

قوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ قُرِئَ مَفْتُوحَ الميم: نافعٌ والكِسائِيُّ، والباقون:

بكَسْرِها^(١).

قوله: (على حينَ عاتبْتُ المَشِيبَ على الصِّبا): تمامه:

وقلت أَلَمَّا تَصْحُ والشَّيْبُ وازع^(٢)

الهمزةُ في «أَلَمَّا»: للاستيفام، و«لَمَّا»: مِنَ الجوازِم، و«تَصْحُ»: مِنْ: صَحَا يَصْحُو: إِذَا أَفَاقَ مِنْ سُكْرِهِ، «وازع»: كافٌ مانعٌ؛ مِنَ الوَزْع: الكَفِّ، يقول: إِنَّهُ لَمَّا عَرَفَ الدِّيَارَ الَّتِي كَانَ حَلَّ بِهَا مَنْ يَهْوَاهُ بَكَى، وَعَاوَدَهُ وَجَدَهُ، فَعَاتَبَ نَفْسَهُ عَلَى صَبَابَتِهَا وَعَدَمًا^(٣)، وَقَالَ: «أَلَمَّا تَصْحُ»، أَي: أَنْ لَكَ أَنْ تَصْحُو وَيَزُولَ عَنْكَ مَا كُنْتَ تَجِدُهُ مِنَ الغَرَامِ فِي صَبَاكَ، فَإِنَّ الشَّيْبَ كَافٌّ عَنِ أمْثَالِ هَذَا.

قوله: (على) ﴿بَجَّيْنَا﴾: لَمْ يُرَدُّ أَنْ نَفَسَ الجارُّ والمَجْرورِ عَطْفُ عَلَى نَفْسِ الفِعْلِ، فَلَا يُقَدَّرُ لَهُ مُتَعَلِّقٌ، وَيُعْطَفُ، بَلْ يُقَدَّرُ وَتُعْطَفُ الجُمْلَةُ عَلَى الجُمْلَةِ، لِيَكُونَ عَلَى وِزَانِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، وتلخيصه: وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ خِزْيِ يَوْمِ القِيَامَةِ^(٤).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٥، و«حجة القراءات» ص ٣٤٤.

(٢) البيتُ للنابغة الذبياني، كما في «ديوانه» ص ٥٣.

(٣) تحرّف في (ح) إلى: «صيانتها وعددها».

(٤) هذه الفقراتُ الثلاث - من قوله: «قوله»: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ قُرِئَ مَفْتُوحَ الميم إلى هنا - سقطت من (ط).

على: وكانت التنجيه من خزي يومئذ، أي: من ذلّه ومهانته وفضيحه، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يُريد بـ ﴿يَوْمِذٍ﴾: يوم القيامة، كما فسّر «العذاب الغليظ» بعذاب الآخرة.

وقرئ: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا﴾ و﴿ثَمُودَ﴾ كلاهما بالصرّف وامتناعه؛ فالصرّف: للذهاب إلى الحيّ أو الأب الأكبر، ومنعه: للتعريف والتأنيث، بمعنى: القبيلة.

[﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ * فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ لُوطٍ * وَأَمْرًا نُهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَتُولى بِي أَلِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [٦٩-٧٣]

﴿رُسُلْنَا﴾ يُريد: الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملاك معه،

قوله: (من خزي يومئذ، أي: من ذلّه ومهانته)، الراغب: «خزي الرجل: لَحِقَهُ انكسار؛ إما من نفسه أو من غيره، فالأول: هو الحياء المُفْرِط، ومصدره: الخِزاية، والثاني: هو صَرْبٌ من الاستخفاف، ومصدره: الخِزِي، وعلى ما قلنا في «خزي» قولهم: ذلّ وهان، فإن ذلك متى كان من الإنسان نفسه يُقال له: السهون والذلّ، ويكون محموداً، ومتى كان من غيره يُقال له: الهوان والذلّ، ويكون مذموماً»^(١).

قوله: (وقرئ: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا﴾): حمزة وحفص، والباقون: بالتونين. والكسائي: «أَلَا بُعْدًا لثَمُودٍ» بالتونين، والباقون: بفتح الدال من غير تونين^(٢).

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٨١.

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٥.

وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر، ﴿بِالْبَشَرَى﴾ هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر: الولد، ﴿سَلَمًا﴾ سَلَّمْنَا عَلَيْكَ سَلَامًا، ﴿سَلِّمْتُ﴾ أَمْرُكُمْ سَلَامًا،

قوله: (والظاهر: الولد): اعلم أن البشارة هي الإخبار بما يظهر سرور المخبر به، والظاهر: هو اللفظ المحتمل الراجع أحد محتملاته بقرينة، وها هنا: ﴿بِالْبَشَرَى﴾ حال من ﴿رُسَلْنَا﴾، أي: لقد جاءت رُسُلْنَا مُلْتَبِسِينَ بِالْبَشَرَى، وهي مُطْلَقَةٌ صَالِحَةٌ لِكُلِّ مَا يَحْصُلُ بِهِ سُرُورُ الْمُخْبَرِ، فَعُقِبَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾، وبقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْبَشْرَى هَلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ، ذَهَبَ إِلَى أَنَّ هَلَاكَ الظَّلْمَةِ مِنْ أَجْلِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ الْمُؤْمِنَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَطَّعَ ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وإليه الإشارة بقوله: «فَضَحِكْتَ سُرُورًا بِهَلَاكِ أَهْلِ الْخَبَائِثِ».

ولا شك أن الأول أظهر دلالة من الثاني؛ لتصريح ذكر البشارة فيه.

ثم قوله: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾: التعريف فيه للعهد الخارجي، فإذا جعل المعهود ما يفهم من قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ كان من قبيل التعريف في «الذكر» في قولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦] الراجع إلى معنى قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، فإنه دال على أن المطلوب كان ذكراً، وإذا جعل المعهود معنى قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ كان من قبيل قولك: انطلق الرجل، والمنطلق ذو جد.

ولا ارتباب أن الثاني أظهر، ولذلك قال محيي السنة: ﴿«وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾ بإسحاق ويعقوب»^(١)، وأشار إليه المصنف بقوله: «لَمَّا اطمأن قلبه بعد الخوف، وملىء سروراً بدّل الغم، فرغ للمجادلة»، ولناصر الثاني أن يقول: إن هذه البشري في مقابلة قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾، فكما أن امرأته عليه السلام ضحكت وتعجبت من تلك البشارة، و﴿قَالَتْ يَوْتَلَقُ آدًا وَأَنَا

(١) «معالم التنزيل» للبعوي (٤: ١٩٠).

وَقُرِئَ: «فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلِمٌ»؛ بمعنى: السلام، وقيل: سَلِمٌ وسَلَمٌ، كَحَرَمٍ وحَرَامٍ، وَأُنشِدَ:

عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴿١﴾، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْجِدَالِ، كَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بُشِّرَ بِهَلَاكِ الْقَوْمِ اهْتَمَّ بِشَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَادَلَ الرُّسُلَ فِيهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله: (وَقُرِئَ: «فَقَالُوا سَلَامًا»): حمزة والكسائي: بكسر السين وإسكان اللام، والباقون: بفتح السين واللام وألف بعدها^(١)، قال الزجاج: «وأما «سَلِمٌ»: فعلى معنى: أمري سَلِمٌ»^(٢)، أي: لست ممن يُريدُ غيرَ السَّلَامَةِ والصُّلْحِ.

الراغب: «السَّلَامُ والسَّلَامَةُ: التَّعَرِّيُّ مِنَ الْآفَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن آتَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، أي: مُتَعَرِّضٌ مِنَ الدَّخْلِ»^(٣)، فهذا في الباطن، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُسَلِّمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، فهذا في الظاهر، وَالسَّلَامَةُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ فِيهَا بَقَاءٌ بِلَا فَنَاءٍ، وَغِنَىٌ بِلَا فَقْرٍ، وَعِزٌّ بِلَا ذُلٍّ، وَصِحَّةٌ بِلَا سَقَمٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلِمٌ﴾ [الذاريات: ٢٥]، وَإِنَّمَا رَفَعَ الثَّانِي؛ لِأَنَّهُ فِي بَابِ الدُّعَاءِ أْبْلَغُ، فَكَأَنَّهُ تَحَرَّى فِي بَابِ الْأَدَبِ الْمَأْمُورَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٦].

وَمَنْ قَالَ: «سَلِمٌ»^(٤)، فَلِأَنَّ السَّلَامَ لَمَّا كَانَ يَقْتَضِي السَّلْمَ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، فَلَمَّا رَأَاهُمْ مُسَلِّمِينَ تَصَوَّرَ مِنْ تَسْلِيمِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا لَهُ سَلْمًا، فَقَالَ فِي جَوَابِهِمْ: «سَلِمٌ»، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ جِهَتِي لَكُمْ كَمَا حَصَلَ مِنْ جِهَتِكُمْ لِي»^(٥).

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٣٧، و«حجة القراءات» ص ٣٤٥.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ٥٤).

(٣) كذا في (ط) و(ح)، وهو الموافق لِمَا فِي «مفردات القرآن» للراغب، وفي (ف): «الدَّخَلُ»، وكلاهما بمعنى الفساد، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (دغل).

(٤) أي: ومن قرأ: «سَلِمٌ»، وهذا الأخير هو لفظُ الراغب في «مفرداته»، مادة (سلم).

(٥) «مفردات القرآن» ص ٤٢١-٤٢٢.

مَرَزْنَا فَقُلْنَا: إِيهِ سَلِّمْ فَسَلِّمَتْ كما اكَتَلَّ بِالْبَرْقِ الْعَمَامُ اللِّوَائِحُ

﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾ فما لَيْتَ في المَجِيءِ به، بل عَجَلَ فِيهِ، أو: فَمَا لَيْتَ مَجِيئُهُ، و«العِجْلُ»: وَلَدُ الْبَقْرَةِ، وَيُسَمَّى: الْحَسِيلُ وَالْحَبْشُ بِلُغَةِ أَهْلِ السَّرَاةِ، وَكَانَ مَالُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْبَقْرَ،

قال أبو علي: «أما انتصابُ ﴿سَلِّمًا﴾: فإنه لم يَحِكْ شيئاً تكلّموا به، فيُحَكِّي كما تُحَكِّي الجملة، وهو معنى ما تكلّمْتَ به الرُّسُلُ، كما أَنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَقُلْتَ: حَقًّا، أَعَمَلْتَ الْقَوْلَ فِي الْمَصْدَرِ، لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ مَعْنَى مَا قَالَ، وَلَمْ تَحِكْ نَفْسَ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ جُمْلَةٌ تُحَكِّي، وَكَذَلِكَ نَصَبُ ﴿سَلِّمًا﴾، لَمَّا كَانَ مَعْنَى مَا قِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ نَفْسَ الْمَقُولِ بَعَيْنَهُ، وَأما ﴿سَلِّمٌ﴾ فهو مرفوع، لأنه من جُمْلَةِ الْجُمْلَةِ الْمَحْكِيَّةِ، وَالتَّقْدِيرُ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَحَدَفَ الْخَبْرُ»^(١).

والمُصَنَّفُ حَكَّى كَلَامَهُمْ، وَقَدَّرَ النَّاصِبَ، لِيَكُونَ الْعُدُولُ مِنْهُ إِلَى الرَّفْعِ أَبْلَغَ، تَأْسِيًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَحَيِّرُوا بِالْحَسَنِ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٦]، كما أشار إليه الراغب.

قوله: (مَرَزْنَا فَقُلْنَا: إِيهِ) البيت^(٢): «إِيهِ»: اسمُ فِعْلٍ، وَمَعْنَاهُ: زِدْ، وَنظِيرُهَا: أَفَّ. النِّهَايَةُ: «هِيَ كَلِمَةٌ يُرَادُ بِهَا الْاسْتِزَادَةُ، وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْكَسْرِ، فَإِذَا وَصَلَتْ^(٣) تَوَنَّتْ فَقُلْتَ: إِيهِ حَدَّثْنَا».

اكَتَلَّ الْبَرْقُ: لَمَعَ، سَحَابٌ مُكْتَلٌّ: مُلَمَّعٌ، يَقُولُ: سَلَّمْنَا فَرَدَّتِ السَّلَامُ بِالْبَشَاشَةِ وَالطَّلَاقَةِ مِثْلَ الْبَرْقِ اللَّامِعِ.

(١) «الحجّة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٦٠ و ٣٦١).

(٢) البيت لذي الرُّمَّة، كما في «ديوانه» (ص ٧٤٦ - الملحق)، لكن فيه: «مَرَزْنَا فَقُلْنَا»، وما أورده الزمخشري أصح، فقد ذكره ابن منظور في «لسان العرب»، مادة (كلل)، بلفظ: «عَرَضْنَا فَقُلْنَا»، وهو مما يُرْجَحُ «مَرَزْنَا».

(٣) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «فصلت»، والمُتَّبَعُ من «النَّهَايَةُ» لابن الأثير، مادة (إيه).

﴿حَنِيزٍ﴾ مَشْوِيٍّ بِالرَّضْفِ فِي أَخْدُودٍ، وَقِيلَ: ﴿حَنِيزٍ﴾ يَقَطُرُ دَسْمَهُ، مِنْ: حَنَدْتُ الْفَرَسَ: إِذَا أَلْقَيْتَ عَلَيْهَا الْجَلَّ حَتَّى تَقَطُرَ عَرَقًا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿بِعَجَلِ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

يقال: نَكِرَهُ وَأَنْكَرَهُ وَاسْتَنْكَرَهُ، وَمَنْكُورٌ: قَلِيلٌ فِي كَلَامِهِمْ، وَكَذَلِكَ: أَنَا أَنْكَرُكَ، وَلَكِنْ: مُنْكَرٌ وَمُسْتَنْكَرٌ، وَأَنْكَرُكَ، قَالَ الْأَعَشِيُّ:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ
مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا

قِيلَ: كَانَ يَنْزِلُ فِي طَرْفِ مِنَ الْأَرْضِ، فَخَافَ أَنْ يُرِيدُوا بِهِ مَكْرُوهًا، وَقِيلَ: كَانَتْ عَادَتُهُمْ أَنَّهُ إِذَا مَسَّ مَنْ يَطْرُقُهُمْ طَعَامُهُمْ أَمْنُوهُ، وَإِلَّا خَافُوهُ، وَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ أَحْسَسَ بِأَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، وَنَكِرَهُمْ لِأَنَّهُ تَخَوَّفَ أَنْ يَكُونَ نَزْوُهُمْ لِأَمْرِ أَنْكَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ لَتَعْذِيبِ قَوْمِهِ،

قوله: (بِالرَّضْفِ): الرِّضْفُ: الْحِجَارَةُ الْمُخْصَاةُ.

قوله: (وَأَنْكَرْتَنِي) الْبَيْتُ (١): يُقَالُ: أَنْكَرْتَ الرَّجُلَ: إِذَا كُنْتَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ فِي شَكٍّ، وَنَكِرْتَهُ: إِذَا لَمْ تَعْرِفْهُ. يَقُولُ: إِنَّ الْمَحْبُوبَةَ شَكَّتْ فِي مَعْرِفَتِي، وَمَا نَكِرْتُ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَ، فَإِنَّهُمَا مَبْغُوضَانِ عِنْدَهَا.

وَقَالَ الْمُصَنِّفُ فِي «الذاريات» فِي قَوْلِهِ: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]: «أَي: أَنْتُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَعَرَّفُونِي مَنْ أَنْتُمْ»، أَوْ أَرَادَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ مَعَارِفِهِ، كَمَا إِذَا أَبْصَرَ الْعَرَبُ قَوْمًا مِنْ السَّخَزَّرِ (٢)، وَرَأَى لَهُمْ حَالًا وَشَكْلًا خِلَافَ حَالِ النَّاسِ وَشَكْلِهِمْ.

(١) «ديوان الأعشى» ص ١٠٥.

(٢) السَّخَزَّرُ: جِيلٌ خُزَّرُ الْعَيُونِ، أَي: فِي عَيُونِهِمْ خَزَرٌ، وَهُوَ كَسَّرُ الْعَيْنِ بَصَرَهَا خِلْقَةً، وَقِيلَ: هُوَ ضَيْقُ الْعَيْنِ وَصِغَرُهَا، وَقِيلَ: هُوَ حَوْلٌ لِإِحْدَى الْعَيْنَيْنِ. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (خزر).

ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾، وإنما يُقال هذا لمن عَرَفَهُمْ ولم يَعْرِفْ فِيهِمْ أَرْسَلُوا.

﴿وَأَوْجَسَ﴾ فأضمر، وإنما قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ لأنهم رأوا أثرَ الخوفِ والتَّعْيِيرِ في وَجْهِهِ، أو: عَرَفُوهُ بتعريفِ الله، أو: عَلِمُوا أَنَّ عِلْمَهُ بِأَنَّهُمْ ملائكةٌ مُوجِبٌ للخوفِ، لأنهم كانوا لا يَنْزِلُونَ إلا بعذاب.

قوله: (ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾): أي: الدليل على أَنَّ الظاهرَ أنه عليه السَّلَامُ أَحَسَّ أَنَّهُمْ ملائكةٌ، وإنما أَنْكَرَهُمْ لأنه تَخَوَّفَ أن يكونَ نَزْوُهُمْ لِأَمْرٍ أَنْكَرَهُ اللهُ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلَامُ، لا لأنهم ما مَسَّوْا طعامَهُ: تعليلُ النهي^(١) - أي: ﴿لَا تَخَفْ﴾ - بقولهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾، وإلا كَانَ مُقْتَضَى الظاهرِ أن يقولوا: إِنَّا رُسُلُ اللهِ، وهذا على خِلافِ ما ذَكَرَهُ في سُورَةِ الْحِجْرِ، قال^(٢): «وَكَانَ خَوْفُهُ لَامْتِنَاعِهِمْ^(٣) مِنَ الْأَكْلِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا بغيرِ إِذْنٍ وَبغيرِ وَقْتٍ».

روى مُحْيِي السُّنَّةِ عن قَتَادَةَ: أَنَّ ذَلِكَ الخوفَ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ كانوا إِذَا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ، ولم يَأْكُلْ مِنْ طَعَامِهِمْ، ظَنُّوا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِشَرٍّ^(٤)، ولم يَذْكَرْ غَيْرَ هَذَا الوَجْهِ فِي هَذَا المَقَامِ.

وقال القاضي: ﴿فَلَمَّأَرَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي: أَنْكَرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ^(٥).

وقلت: الحقُّ - واللهُ تعالى أعلمُ - أَنَّ الخوفَ إِنَّمَا صَدَرَ عن مجموعِ كونِهِمْ مُنْكَرِينَ،

(١) قوله: «تعليل النهي» هو الخبر، والمبتدأ: «الدليل»، المُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ في أولِ الفِقرة.

(٢) في تفسير الآية ٥٢ من سورة الحجر (٩: ٤٢).

(٣) في الأصول الخطية: «عن امتناعهم»، والمُتَبَيَّنُّ من «الكشاف».

(٤) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ١٨٨).

(٥) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٤٥).

وكونهم ممتنعين عن الطعام، كما يُعلم من الآيات الواردة في هذه القصة، ولأنه لو عَرَفَهُمْ أَنَّهُمْ ملائكة لم يُحْضِرْ بَيْنَ أَيْدِيهِمُ الطَّعَامَ، ولم يُحَرِّضْهُمْ عَلَى الأَكْلِ، وإنما عَدَلُوا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾، ليكون الكلام جامعاً للمعاني، بحيث يُفْهَمُ المقصودُ منه أيضاً.

واعلم أن إيراد قصة واحدة في مقامات متعددة بعبارات مختلفة وأنحاء شتى، بحيث لا تُغَيَّرُ ولا تُنَاقَضُ البتة: من فصيح الكلام وبلغه، وهو باب من الإيجاز المُختَصُّ بالإعجاز، ويحتاج في التوفيق إلى قانون يرجع إليه، وهو أن يُعمد إلى الإقتصاص المُتفرِّقة، ويُجعل لها أصل؛ بأن يُؤخَذَ مِنَ المَباني ما هو أجمع للمعاني، فما نَقَصَ فيه من تلك المعاني شيء يُلْحَقُ به.

مثاله فيما نحنُ بصدده: أنه تعالى قَصَّ هذه القصة في هذه السورة على نَمَطٍ، وفي الحجرِ على نَمَطٍ، وفي الذارياتِ على نَمَطٍ، قال في الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبرَاهِيمَ﴾ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ * قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ * قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٨]، وفي الذاريات: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ * فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ * فَفَرَّجْنَا لَهُ يَتِيمَهُ قَالَ أَلَا نَأْكُلُوهَا إِذْ نَحْنَحَسَّ مِنْهُمْ خَيْفَةً قَالُوا لَا نَخَفُ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَاخْطُبْكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ * قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ﴾ [الذاريات: ٢٥ - ٣٢]، فذكر في هود: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾، ثم ذكر البشارة بعده، ولم يذكره في الموضعين، فينبغي أن يُقدَّرَ فيهما قبل البشارة هذا المعنى، ويُقدَّرَ في سورة هود بعد الفراغ من البشارة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ * قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ﴾، لأنه لم يذكره فيه، وذكره في الموضعين، وزيد في هود حديث المُجادلة عن قوم لوط، ولم يذكر في الموضعين، فيقدَّرُ فيهما، واختُصِرَ في الحجر - بعد قولهم: «سلاماً» - جوابهم: «قالوا: سلام»، فيقدَّرُ ذلك مع ما يتيم به المعنى، حتى يتصل بقوله: ﴿لَا نَوْجَلُ﴾.

﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستير تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤوسهم تخدمهم، وفي مُصَحَّفِ عبد الله: «وامراته قائمة وهو قاعد»، ﴿فَضَحِكْتَ﴾ بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث، أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم، وقد أظلمهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك، فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لئلا أتى الأمر.....

وأما معنى السؤال في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، بعد تقدير ما سبق من قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾، فهو: فما شأنكم وما تطلبون بقولكم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾، وفي تَصْرِيحِ ذِكْرِ «الْمُرْسَلِينَ» الدلالة على ذلك، لأنَّ التعريف فيه كما في قولك: المنطلق ذو جد، بعد قولك: انطلق زيد إلى موضع كذا، فأجيب عليه السلام بما عليم منه أن الإرسال لأجل الإهلاك؛ من قولهم: ﴿إِنَّ قَوْمَ تُجْرَمِينَ﴾، فالواجب على المفسر الماهر أن يراعي في تفسيره في كلِّ مقام ما يسلم منه من الخطأ.

وأما التوفيق بين مفردات الألفاظ فمن أجل المقاصد، ولا يعلم كنهه بحسب اقتضاء كلِّ مقام إلا الله سبحانه وتعالى، والحمد لله على ما ألهمنا شمة منه.

قوله: (فَضَحِكْتَ سُوراً)، الراغب: «الضحك: انبساط الوجه وتكشُّر الأسنان من سرور النفس، ولظهور الأسنان عنده تُسمى مُقَدِّمَاتُ الأسنان: الضواحك، وُستعمل في السرور المُجَرَّد، نحو: ﴿مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩]، وفي السخرية، نحو: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]، وفي التعجب المُجَرَّد قال: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتَ﴾ [هود: ٧١]، وضحكها كان للتعجب، ويدلُّك عليه قولها: ﴿أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (١).

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٠١-٥٠٢.

على ما تَوَهَّمَت، وقيل: ﴿فَضَحَكْتَ﴾: فحاضت، وقرأ محمد بن زيد الأعرابي: «فَضَحَكْتَ» بفتح الحاء.

(إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ) رَفَعُ بِالْإِبْتِدَاءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ مَوْجُودٌ أَوْ مَوْجُودٌ، أَي: مِنْ بَعْدِهِ،

قوله: ﴿فَضَحَكْتَ﴾ فحاضت): قَالَ مُحْيِي السُّنَّةِ: «هُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ. وَتَعَرَّبَ تَقُولُ: ضَحَكْتَ الْأَرْنَبُ، أَي: حَاضَتْ»^(١). الْإِنْتِصَافُ: «يُبْعِدُهُ»: ﴿أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾. وَوَجَدَ كَأَنَّ الْحَيْضَ قَبْلَ الْبِشَارَةِ لَمْ يَكُنْ عَجَبًا وَلَا دَعْوَةً مِنْ تَحِيضٍ، وَهُوَ مِعْيَارُ الْحَمْلِ»^(٢).
وَقَلْتُ: طَرِيَانُ الْحَيْضِ فِي غَيْرِ إِبَانِهِ^(٣) أَيْضًا دَاخِلٌ فِي حُكْمِ التَّعَجُّبِ، لِأَنَّ الْأَسْتِجَابَةَ فِي قَوْلِهَا: ﴿أَلِدُ﴾ وَارْدٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْوِلَادَةِ بَعْدَ الْحَيْضِ، وَالتَّعَجُّبُ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ حَرِيْقَةٌ لِلْعَادَةِ الْمُسْتَمْرَةِ.

الراغب: «مَنْ قَالَ: ﴿فَضَحَكْتَ﴾: حَاضَتْ، لَيْسَ تَفْسِيرًا لَهُ، كَمَا تَصَوَّرَهُ بَعْضُهُمْ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ تَنْصِيصًا لِحَالِهَا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ أَمَارَةً لِمَا بُشِّرَتْ بِهِ، فَحَاضَتْ فِي التَّوَقُّفِ لِتَعَلَّمَ أَنَّ حَمْلَهَا لَيْسَ بِمُنْكَرٍ؛ إِذْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ مَا دَامَتْ تَحِيضُ فَإِنَّمَا تَحْمِلُ»^(٤).

قوله: («يعقوب» رفع بالابتداء): قرأ ابن عامر وحمزة وحفص: «يَعْقُوبُ» بِالتَّنْصِبِ. وَالباقون: بِالرَّفْعِ^(٥)، قَالَ الرَّجَاجُ: «مَنْ نَصَبَ يَحْمِلُ عَلَى مَوْضِعِ «فَبَشَّرْتَهَا» عَلَى الْمَعْنَى. أَي:

(١) «معالم التنزيل» للبخاري ٤: ١٨٨.

(٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٨١) بحاشية «الكشاف». ولفظه في المطبوع منه: «والحيض في العادة مهيارٌ على إمكان الحمل». وكان لفظه «مهيار» مُحَرَّفَةً عَنْ «مِعْيَارٍ»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٣) إِبَانٌ كُلُّ شَيْءٍ - بِالْكَسْرِ وَالتَّشْدِيدِ -: وَقْتُهُ وَحِينُهُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ، «لسان العرب» لابن منظور، مادة (أبن).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٥٠٢.

(٥) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٥، و«حجّة القراءات» ص ٣٤٧.

وقيل: الوراء: وَلَدُ الْوَالِدِ، وعن الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَهَذَا ابْنُكَ؟ فقال: نعم، مِنَ الْوَرَاءِ،
وكانَ وَلَدَ وَوَالِدِهِ،

وَهَبْنَا لَهَا إِسْحاقَ، وَوَهَبْنَا لَهَا يَعْقُوبَ. وَمَنْ رَفَعَ فَعَلَى صَرِيحَيْنِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ،
المعنى: ويعقوبُ يَحْدُثُ لَهَا مِنْ وَرَاءِ إِسْحاقَ. وثانيهما: هو مرفوعٌ بعاملٍ «مِنْ وَرَاءِ»، أي: ثَبَّتْ لَهَا مِنْ وَرَاءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ^(١) فَخَطَأً؛ لِأَنَّ الْجَارَّ لَا يُفْصَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَجْرُورِ، وَلَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَاوِ الْعَاطِفَةِ، لَا يَجُوزُ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ فِي الدَّارِ
وَالْبَيْتِ^(٢) عَمِرُوا^(٣).

قال أبو علي: «مَنْ فَتَحَ «يَعْقُوبَ» أَنَّهُ مَجْرُورٌ، أَي: بَسَّرْنَا بِهَا بِإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ، كَانَ
أَقْوَى مِنَ الرَّفْعِ؛ لِأَنَّهَا بَسَّرَتْ بِنِهَا، وَفِي إِعْمَالِهَا ضَعْفٌ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ، نَصَّ
سَيَبَوِيهِ عَلَى قُبْحِ^(٤) نَحْوِ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ أَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ، وَأَمْسٍ عَمِرُوا^(٥)، وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ: لَوْ
قُلْتُ: «مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الْيَوْمَ، وَأَمْسٍ عَمِرُوا» لَمْ يَحْسُنْ»^(٦).

قوله: (وقيل: الوراء: وَلَدُ الْوَالِدِ): القاضى: «وَلَعَلَّهُ سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ بَعْدَ الْوَالِدِ، وَعَلَى هَذَا
تَكُونُ إِضَافَتُهُ إِلَى «إِسْحاقَ» لَيْسَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ يَعْقُوبَ وَرَاءَهُ، بَلْ مِنْ [حَيْثُ] إِنَّهُ وَرَاءَ إِبْرَاهِيمَ،
وَمِنْ جِهَتِهِ، وَفِيهِ نَظَرٌ»^(٧). وَقَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا الْوَجْهُ عِنْدِي شَدِيدُ التَّعَسُّفِ، وَاللَّفْظُ كَأَنَّهُ يَنْبُو
عَنْهُ»^(٨).

(١) أي: مَنْ زَعَمَ أَنَّ «يَعْقُوبَ» - عَلَى الْقِرَاءَةِ بِفَتْحِ الْبَاءِ - مَجْرُورٌ وَلَيْسَ بِمَنْصُوبٍ، فَقَدْ أَخْطَأَ.
(٢) فِي (ج): «وَالنَّقْبِ»، وَفِي (ف): «وَالنَّفْتِ»، وَكِلَاهُمَا تَحْرِيفٌ، وَالمُتَّبَعُ مِنْ (ط) وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ»
لِلزَّجَّاجِ.

(٣) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَّاجِ (٣: ٦٢ - ٦٣).

(٤) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «فَتْحِ»، وَالتَّصْوِيبُ مِنْ «الْحِجَّةِ» لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارَسِيِّ.

(٥) مِنْ قَوْلِهِ: «نَصَّ سَيَبَوِيهِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف).

(٦) «الْحِجَّةُ لِلْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ» لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارَسِيِّ (٤: ٣٦٤ - ٣٦٥)، وَأَبُو الْحَسَنِ: هُوَ الْأَخْفَشُ.

(٧) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَيْضَاوِيِّ (٣: ٢٤٦).

(٨) «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ» لِلرَّازِيِّ (١٨: ٣٧٥).

وَقُرِئَ: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بِالنَّصْبِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَوَهَبْنَا لَهَا إِسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ:

لِيسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ

الْأَلْفُ فِي ﴿يَوَيْلَتِي﴾ مُبَدَّلَةٌ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَكَذَلِكَ فِي «يَا لَهْفَا» وَ«يَا عَجَبَا»، وَقَرَأَ الْحَسَنُ: «يَا وَيْلَتِي» بِالْيَاءِ عَلَى الْأَصْلِ، وَ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ نَصَبٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِشَارَةِ، وَقُرِئَ: «شَيْخٌ»؛ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَي: هَذَا بَعْلِي هُوَ شَيْخٌ، ...

قوله: (لِيسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً): أوله:

مَشَائِمَ لِيسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بَيْنَ غُرَابِهَا (١)

مَضَى سَرْحُهُ، وَوَجْهُ تَشْبِيهِ الْآيَةِ بِالْبَيْتِ: أَنْ يُقَدَّرَ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ «يَعْقُوبَ»، أَي: وَوَهَبْنَا يَعْقُوبَ، كَمَا أَنَّ الشَّاعِرَ قَدَّرَ أَنَّهُ قَالَ: «لِيسُوا بِمُصْلِحِينَ»، فَقَالَ: «وَلَا نَاعِبٍ»، فَقَدَّرَ فِي الْبَيْتِ الْمَعْدُومِ مَوْجُودًا، وَفِي الْآيَةِ عَكْسُهُ.

قَوْلُهُ: («يَا وَيْلَتِي» بِالْيَاءِ عَلَى الْأَصْلِ): قَالَ الرَّجَّاجُ: «فِي الْمَصْحَفِ: «يَا وَيْلَتِي» بِالْيَاءِ، وَالْقِرَاءَةُ بِالْأَلْفِ: إِنْ شِئْتَ عَلَى التَّفْخِيمِ، وَإِنْ شِئْتَ عَلَى الْإِمَالَةِ، وَالْأَصْلُ: «يَا وَيْلَتِي»، فَأَبْدَلَ مِنَ الْيَاءِ وَالْكَسْرَةَ: الْأَلْفَ، لِأَنَّ الْأَلْفَ وَالْفَتْحَ أَخْفُ مِنَ الْيَاءِ» (٢).

قَوْلُهُ: (وَ﴿شَيْخًا﴾ نَصَبٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِشَارَةِ): قَالَ الرَّجَّاجُ: «وَالْحَالُ هَاهُنَا مِنْ

(١) الْبَيْتُ لِأَبِي الْأَخْوَصِ الْبِزْبُوعِيِّ الرَّيَّاحِيِّ، كَمَا فِي «الْكِتَابِ» لِسَيِّبِيهِ (١: ١٦٥ و ٣٠٦)، وَانظُرْ:

«الْخِصَائِصُ» لِأَبْنِ جِنِّي (٢: ٣٥٤)، وَرُؤْيُ اللَّفْرَزْدَقِ، كَمَا فِي «كِتَابِ سَيِّبِيهِ» أَيْضًا (٣: ٢٩).

وَتَقَدَّمَ عِنْدَ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٨٦ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٤: ١٧٣)، وَسَيَأْتِي أَيْضًا فِي تَفْسِيرِ

الْآيَةِ ٧١ مِنْ سُورَةِ غَافِرٍ (١٣: ٥٤٥).

(٢) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلرَّجَّاجِ (٣: ٦٣).

(٣) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِيهِ اخْتِصَارٌ لَا يَخْفَى.

أو ﴿بَعْلِي﴾: بَدَلٌ مِنَ الْمُبْتَدَأِ، و«شَيْخ»: خَبِرَ، أو يَكُونَانِ مَعاً خَبَرَيْنِ، قِيلَ: بُشِّرَتْ وِلْهَا ثَمَانٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً، وَلِإِبْرَاهِيمَ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أَنْ يُوَلَّدَ وَلَدٌ مِنْ هَرَمَيْنِ، وَهُوَ اسْتِعَادٌ مِنْ حَيْثُ الْعَادَةُ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ.

وَإِنَّمَا أَنْكَرَتْ عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةُ تَعَجُّبًا فَ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي بَيْتِ الْآيَاتِ وَمَهِيْطِ الْمُعْجَزَاتِ وَالْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، فَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَتَوَقَّرَ، وَلَا يَزِدْهِيهَا مَا يَزِدْهِي النِّسَاءُ النَّاشِئَاتِ فِي غَيْرِ بَيُوتِ النُّبُوَّةِ، وَأَنْ تُسَبِّحَ اللَّهَ وَتُمَجِّدَهُ مَكَانَ التَّعَجُّبِ، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَتِ الْمَلَائِكَةُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ، عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾،

لَطِيفِ النَّحْوِ وَغَامِضِهِ، وَذَلِكَ أَنْكَ إِذَا قُلْتَ: هَذَا زَيْدٌ قَائِمًا، فَإِنْ قَصَدْتَ أَنْ تُخْبِرَ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ زَيْدًا أَنَّهُ زَيْدٌ، لَمْ يَجُزْ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ زَيْدًا مَا دَامَ قَائِمًا، فَإِذَا زَالَ عَنِ الْقِيَامِ فَلَيْسَ بِزَيْدٍ، وَإِنَّمَا تَقُولُ: هَذَا زَيْدٌ قَائِمًا لِمَنْ يَعْرِفُ زَيْدًا، فَيَعْمَلُ فِي الْحَالِ التَّنْبِيهِ، أَي: انْتَبِهْ لِزَيْدٍ فِي حَالِ قِيَامِهِ، أَوْ: أَشِيرْ إِلَى زَيْدٍ فِي حَالِ قِيَامِهِ، لِأَنَّ «هَذَا» إِشَارَةٌ إِلَى مَا حَضَرَ^(١).

وَقُلْتُ: إِنَّمَا جُعِلَ الْعَلَمُ مُشَارًا إِلَيْهِ؛ لِيُؤْذَنَ بِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ يُفِيدُ الْمُخَاطَبَ اتِّصَافَ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِهَذَا الْمَعْنَى، كَقَوْلِهَا: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، أَي: انْتَبِهُوا أَنْ الْمَانِعَ مِنَ التَّوَالِدِ هَذَا الَّذِي حَصَلَ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ، لَا أَنَّهُ بَعْلِي، وَإِذَا لَمْ يُعْلَمْ كَوْنُهُ بَعْلًا لَهَا فَالْفَائِدَةُ الْعَقْلِيَّةُ مَعَ كَوْنِهَا مَوْصُوفَةً بِالشَّيْخُوخَةِ، فَيَنْتَفِي كَوْنُهُ بَعْلًا لَهَا عِنْدَ انْتِفَاءِ الشَّيْخُوخَةِ.

قَوْلُهُ: (أَنْ تَتَوَقَّرَ): بِالْقَافِ، وَيُرْوَى بِالْفَاءِ، يُقَالُ: تَوَقَّرَ عَلَيْهِ: رَعَى حُرْمَتَهُ، وَتَوَقَّرَ: مِنَ الْوَقَارِ وَالرِّزَانَةِ.

قَوْلُهُ: (وَلَا يَزِدْهِيهَا)، الْجَوْهَرِيُّ: «ازْدَهَاهَا: اسْتَخَفَّهَ وَتَهَاوَنَ بِهِ».

قَوْلُهُ: (وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ﴾): أَي: إِلَى هَذَا

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٦٣ - ٦٤).

أرادوا أن هذه وأمثالها مما يُكرِّمكم به ربُّ العِزَّة، وَيَخُصُّكُمْ بِالْإِنْعَامِ بِه يَا أَهْلَ بَيْتِ النَّبُوَّة، فليست بمكانٍ عَجَبٍ.

و«أمر الله»: قُدْرَتُهُ وَحِكْمَتُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ عُلِّلَ بِهِ إِنْكَارُ التَّعْجُبِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِيَّاكَ وَالتَّعْجُبِ، فَإِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الرَّحْمَةِ وَالْبِرْكَاتِ مُتَكَاثِرَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَقِيلَ: الرَّحْمَةُ: النَّبُوَّة، وَالْبِرْكَاتِ: الْأَسْبَاطُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنْهُمْ، وَكُلُّهُمْ مِنْ وَدِدِ إِبْرَاهِيمَ.

المذكور، وهو: عليك أن تتوقَّري^(١) ولا يزدهينك ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تُسبِّحي^(٢) الله وتُمجِّديه مكانَ التعجب، وذلك أنهم جاؤوا بهذه الجملة مُقْتَطَعَةً عما قبلها من غير عاطف، لتكونَ الجملةُ الأولى - وهي قوله: ﴿أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ - كَالْمَوْرِدِ لِلسُّؤَالِ، وَتَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ جَوَابًا عَنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا أَنْكَرُوا عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٣) اسْتَبَعَادَهَا بِقَوْلِهَا: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ءَأَلِدَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، تَصَوَّرُوا أَنَّهَا أَضْمَرَتْ فِي نَفْسِهَا: لِمَ كَانَ أَمْرُنَا خِلَافَ أَمْرِ النَّاسِ؟ أَجَابُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، يَعْنِي: بِأَنَّ اللَّهَ خَصَّكُمْ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ وَالْإِنْعَامِ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ عُلِّلَ بِهِ إِنْكَارُ التَّعْجُبِ»، وَدَلَّ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ النَّدَاءُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(٤)، فَإِنَّهُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِمْ: أَنَا أَفْعَلُ كَذَا أَيُّهَا الْعِصَابَةُ. اللَّهُ دَرُّهُ، مَا أَدَقَّ إِدْرَاكَهُ.

(١) في الأصول الخطية: «تتوقرين»، بإثبات النون! ثم عطف عليه: «وأن تُسبِّحي الله وتُمجِّديه» بإسقاط النون.

(٢) تحرّف في (ح) إلى: «تستحي».

(٣) من قوله: «كالمورد للسؤال» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) من قوله: «يعني: بأن الله خصكم» إلى هنا، سقط من (ح).

﴿حَمِيدٌ﴾ فاعلٌ ما يَسْتَوْجِبُ به الحمدَ من عِبَادِهِ، ﴿مَجِيدٌ﴾ كريمٌ كثيرُ الإحسانِ

إليهم.

و﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نَصَبٌ على النداء، أو على الاختصاص؛ لأنَّ ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ مَدْحٌ

لهم، إذ المراد: أهلُ بَيْتِ خليلِ الرحمن.

[﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلْنَا فِي قَوْلِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

أَوْهٌ مُنِيبٌ﴾ ٧٤-٧٥]

﴿الرَّوْعُ﴾ ما أَوْجَسَ مِنَ الْخِيفَةِ حِينَ نَكِرَ أَضْيَاقَهُ، والمعنى: أنه لَمَّا اطْمَأَنَّ قلبه

بعد الخوف، ومُلِيَ سُرُوراً بِسَبَبِ الْبُشْرَى بَدَلَ الْغَمِّ، فَرَعَ لِلْمُجَادَلَةِ.

فإن قلت: أين جوابُ «لَمَّا»؟ قلت: هو محذوفٌ كما حُذِفَ في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا

بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾ [يوسف: ١٥]، وقوله: ﴿يُجْدِلْنَا﴾ كلامٌ مُسْتَأْنَفٌ دالٌّ على الجواب،

وتقديره: اجترأ على خطابنا، أو: فَطِنَ لِمُجَادَلَتِنَا، أو: قال: كَيْتَ وَكَيْتَ،

قوله: ﴿﴿حَمِيدٌ﴾ فاعلٌ ما يَسْتَوْجِبُ به الحمدَ يعني: «فَعِيلٌ» بمعنى: فاعل، وهذه الخاتمةُ

كالتذييل والتعليل لِمَا سَبَقَ، فإنَّ قولهم: ﴿أَتَعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ مُتَّصِمٌ لِمَا أَوْجَبَ عليها

مِنَ الْوَقَارِ وَالْبِرَّزَانَةِ^(١) وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّمَجِيدِ لا لِلتَّعَجُّبِ - كما ذَكَرَ -، يعني: أنه تعالى ﴿حَمِيدٌ﴾

يَفْعَلُ ما يَسْتَوْجِبُ به الحمدَ من عِبَادِهِ، سَيِّئاً فِي حَقِّهَا، ﴿مَجِيدٌ﴾ كثيرُ الإحسانِ إلى العباد،

خُصُوصاً فِي أَنْ جَعَلَ بَيْتَهَا مَهَبَطَ الْبَرَكَاتِ.

قوله: ﴿﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾﴾: فَعَلُوا بِهِ ما فَعَلُوا مِنَ الْأَذَى.

قوله: ﴿﴿يُجْدِلْنَا﴾﴾ كلامٌ مُسْتَأْنَفٌ دالٌّ على الجواب): أي: ليس بجواب، لأنه مُضَارِعٌ،

و«لَمَّا» للماضي، قال الزَّجَّاجُ: ﴿﴿يُجْدِلْنَا﴾﴾ حِكَايَةٌ قَدْ مَضَتْ، لأنَّ «لَمَّا» وَضِعَتْ لِمَا قَدْ وَقَعَ

(١) تحرّف في (ح) إلى: «الرواية»، وفي (ف) إلى: «الروية»، والمثبت من (ط).

ثم ابتدأ فقال: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، وقيل في ﴿يُجَادِلُنَا﴾: هو جوابُ «لَمَّا»، وإنما جيءَ به مُضَارِعاً لِحِكَايَةِ الْحَالِ، وقيل: إِنَّ «لَمَّا» تَرُدُّ الْمُضَارِعَ إِلَى مَعْنَى الْمَاضِي، كما تَرُدُّ «إِنْ» الْمَاضِي إِلَى مَعْنَى الْإِسْتِقْبَالِ، وقيل: معناه: أَخَذَ يُجَادِلُنَا، وَأَقْبَلَ يُجَادِلُنَا، والمعنى: يُجَادِلُ رُسُلَنَا.

وَجَادَلْتُهُ إِيَاهُمْ: أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، فقال: أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُهْلِكُونَهَا؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا حتى بَلَغَ الْعَشْرَةَ، قالوا: لا، قال: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مُسْلِمٌ أَتُهْلِكُونَهَا؟ قالوا: لا، فعندَ ذَلِكَ قال: ﴿إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ في مَعْنَاهُمْ، وعن ابن عباس: قالوا له: إِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسَةٌ يُصَلُّونَ رُفِعَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ،

بوقوع غيره، تقول: لَمَّا جَاءَ زَيْدٌ جَاءَ عَمْرُو، ويجوز: لَمَّا جَاءَ زَيْدٌ يَتَكَلَّمُ عَمْرُو؛ لِوَجْهِينَ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ «إِنْ»^(١) لَمَّا كَانَتْ شَرْطًا لِلْمَاضِي وَقَعَ الْمُسْتَقْبَلُ فِي مَعْنَى الْمَاضِي. وثانيهما - وهو الذي أختاره - وهو أن يكونَ حِكَايَةً حَالٍ قَدْ مَضَتْ، المعنى: فلما ذَهَبَ عن إبراهيمِ الرَّوْعُ، وجاءتُهُ الْبُشْرَى، أَخَذَ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، ولم يَذْكُرْ فِي الْكَلَامِ «أَخَذَ وَأَقْبَلَ»، لأنَّ الْكَلَامَ^(٢) إِذَا أُرِيدَ بِهِ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ قُدِّرَ فِيهِ «أَخَذَ وَأَقْبَلَ»، لأنَّكَ إِذَا قُلْتَ: قَامَ زَيْدٌ، دَلَّ عَلَى فِعْلٍ مَاضٍ، وَإِذَا قُلْتَ: أَخَذَ زَيْدٌ يَقُومُ، دَلَّ عَلَى حَالَةٍ مُتَمَدَّةٍ، مِنْ أَجْلِهَا ذَكَرَ: أَخَذَ وَأَقْبَلَ^(٣).

قوله: ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ في مَعْنَاهُمْ: أي: في شَأْنِهِمْ وَأَمْرِهِمْ.

(١) لفظة «إِنْ» لم ترد في الأصول الخطية، واستدركتها من «معاني القرآن» للزجاج.

(٢) من قوله: «فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشري أخذ يجادلنا» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٦٤-٦٥).

وعن قتادة: ما قومٌ لا يكونُ فيهم عشرةٌ فيهم خير، وقيل: كان فيها أربعة آلاف من إنسان.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عَجُولٍ عَلَى كُلِّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، ﴿أَوْهٌ﴾ كَثِيرُ التَّأْوِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، ﴿مُنِيبٌ﴾ تَائِبٌ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ بِهَا يُحِبُّ وَيَرْضَى. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ دَالَّةٌ عَلَى رِقَّةِ الْقَلْبِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ عَمَّا حَمَلَهُ عَلَى الْمَجَادَلَةِ فِيهِمْ؛ رَجَاءً أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَيُمَهَّلُوا، لَعَلَّهُمْ يُحْدِثُونَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، كَمَا حَمَلَهُ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ لِأَبِيهِ.

[﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِهَمٌ عَدَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ ٧٦].

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ، أَي: قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الْجِدَالِ، وَإِنْ كَانَتْ الرَّحْمَةُ دَيْدَنَكَ، فَلَا فَائِدَةَ فِيهِ، ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وَهُوَ قَضَاؤُهُ وَحُكْمُهُ الَّذِي لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ صَوَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَالْعَذَابُ نَازِلٌ بِالْقَوْمِ لَا مَحَالَةَ، لَا مَرَدَّ لَهُ بِجِدَالٍ وَلَا دُعَاءٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ.

[﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ٧٧].

قوله: (ما قومٌ لا يكونُ فيهم عشرةٌ فيهم خير): «ما»: يجوزُ أن تكونَ نافية، أي: لا تُسَمَّى جماعةٌ بـ«قوم»، ويُقالُ لهم: هم قوم، أي: يُعتدُّ بهم، ليسَ في ذلكَ القومِ عشرةٌ أنفُسٍ خَيْرِينَ، فـ«قوم»: اسمٌ «ما»، و«لا يكون» خَبَرُهُ، و«عشرة»: اسمٌ «يكون»، و«فيهم خير»: جملةٌ صِفَةٌ لـ«عشرة». وأن تكونَ استِفهامية، أي: أيُّ جماعةٍ تُسَمَّى قومًا، المعنى: لا تُسَمَّى جماعةٌ قومًا لا يكونُ فيهم عشرةٌ فيهم خير، وقيل: معناه: ما قومٌ خالونَ عن عشرةٍ فيهم خير، وفيه نَظَرٌ.

قوله: (كثيرُ التأوهِ): تأوَهُ تَأَوَّهًا: إِذَا قَالَ: أَوْه، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَوَجَّعٌ (١).

(١) في (ف): «تضجع».

كانت مساءة لوط وضيئ ذرعه لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعيتهم، روي أن الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها كسرت قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته، فأخبرت بهم قومها.

يقال: يوم عَصِيبٌ وَعَصَوْصَبٌ؛ إذا كان شديداً، من قولك: عَصَبَهُ: إذا شدّه.

[﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُرُونَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [٧٨-٧٩]

﴿يُهْرَعُونَ﴾ يُسْرِعُونَ كأنها يُدْفَعُونَ دَفْعاً، ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثر ونسها، فصرّوا بها، ومرّوا عليها، وقلّ عندهم استقباحتها، فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء، وقيل: معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك.

قوله: (وَضِيئُ ذَرَعِهِ)، الأساس: «ضاق بهم ذرعاً، أي: لم يُطِقْهم، وما لك عليّ ذراع، أي: طاقة»، وذلك أن «اليد» كما تُجْعَلُ مجازاً عن القوة، ف«الذراع» التي من طرف المرفق إلى طرف الوسطى كذلك.

قوله: (مَشَى مَعَهُمْ مُنْطَلِقًا بِهِمْ): «مُنْطَلِقًا بِهِمْ» حالٌ مُؤَكِّدَةٌ، على نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَابْتِئْتُمُ مَدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠، الأعراف: ٧٤، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣، العنكبوت: ٣٦].

قوله: (وقيل: معناه: وقد عرف لوط عادتهم): عطف على قوله: «ومن قبل ذلك كانوا

﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أَرَادَ أَنْ يَقِيَ أَضْيَافَهُ بِنَاتِهِ، وَذَلِكَ غَايَةُ الْكَرَمِ، وَأَرَادَ: هَؤُلَاءِ بَنَاتِي فَتَزَوَّجُوهُنَّ، وَكَانَ تَزْوِيجُ الْمُسْلِمَاتِ مِنَ الْكُفَّارِ جَائِزًا، كَمَا زَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَتَيْهِ مِنْ عُبَيْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ وَأَبِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ قَبْلَ الْوَحْيِ، وَهُمَا كَافِرَانِ. وَقِيلَ: كَانَ لَهُمَا سَيِّدَانِ مُطَاعَانِ، فَأَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَهُمَا ابْنَتَيْهِ.

يَعْمَلُونَ الْفَوَاحِشَ»، ذَكَرَ الْوَاحِدِيُّ الْأَوَّلَ (١)، وَقَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: «مَنْ قَبِلَ مُتَّصِلٌ بِ﴿يُهْرَعُونَ﴾، أَي: إِنَّمَا يُسْرِعُونَ لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا وَمَرَّتُوا عَلَيْهَا، أَوْ مُتَّصِلٌ بِ«ضَاقَ»، أَي: إِنَّمَا ضَاقَ دَرْعًا لِأَنَّهُ عَرَفَ عَادَتَهُمْ قَبْلَهُ.

وَقُلْتُ: أَمَا اتَّصَالُهُ بِ﴿يُهْرَعُونَ﴾: فَإِنْ يَكُونُ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِيهِ، وَ﴿يُهْرَعُونَ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «جَاءَ» (٢)، وَاتَّصَالُهُ بِ﴿سَيِّءٌ﴾ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ عَطْفٌ عَلَى «جَاءَ»، وَهُوَ حَالٌ مِنَ الْمَرْفُوعِ فِي ﴿سَيِّءٌ﴾، وَيَعْضُدُهُ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «كَانَتْ مَسَاءَةٌ لُوطٍ وَضَيْقُ صَدْرِهِ» (٣) لِأَنَّهُ حَسِبَ أَنَّهُمْ إِنْسٌ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ نُجْبَتُ قَوْمِهِ»، وَلَوْ لَمْ يَعْرِفْ عَادَتَهُمْ فِي عَمَلِ الْفَاحِشَةِ لَمْ تَلْحَقْهُ الْمَسَاءَةُ وَضَيْقُ الصَّدْرِ عِنْدَ مَجِيءِ الْقَبِيلَيْنِ، وَلَا قَالَ: ﴿يَنْقُورِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

قَوْلُهُ: (وَأَبِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ): قِيلَ: الصَّوَابُ: أَبِي الْعَاصِ بْنِ أَبِي الرَّبِيعِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ ابْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَفِي «جَامِعِ الْأَصُولِ»: «هُوَ أَبُو الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَاسْمُهَا زَيْنَبُ، أَكْبَرُ بَنَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أُسِرَ زَوْجُهَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَفَادَى نَفْسَهُ، أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الْعَهْدَ أَنْ يُنْفِذَهَا إِلَيْهِ إِذَا عَادَ إِلَى مَكَّةَ، فَفَعَلَ، فَهَاجَرَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو الْعَاصِ وَهَاجَرَ رَدَّهَا إِلَى نِكَاحِهِ بَعْقِدٍ جَدِيدٍ، وَمَاتَتْ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ» (٤).

(١) انظر: «الوسيط» للواحدى (٢: ٥٨٣).

(٢) في (ح): «من ضمير جاء»، والمثبت من (ف)، وكذا في (ط) إلا أنه سقطت منها لفظة «جاء».

(٣) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «وضيق دَرْعِهِ».

(٤) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ١٠٧).

وقرأ ابنُ مروان: «هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ» بالنَّضْبِ، وَضَعَفَهُ سَيِّبَوَيْه، وقال: احتبىٰ ابنُ مروانَ في لَحْنِهِ، وعن أبي عَمْرٍو بنِ العلاء: مَنْ قرأ «هُنَّ أَطْهَرَ» بالنَّضْبِ، فقد تَرَبَّعَ في لَحْنِهِ، وذلك أَنَّ انتِصابَهُ علىٰ أَنْ يُجْعَلَ حالاً قد عَمِلَ فيها ما في ﴿هُؤُلَاءِ﴾ مِنْ معنى الفِعْلِ، كقوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، أو يُنْصَبُ ﴿هُؤُلَاءِ﴾ بفعل مُضْمَرٍ، كأنه قيل: خُذُوا هؤُلاءِ، و﴿بَنَاتِي﴾: بَدَلٌ، وَيَعْمَلُ هذا المُضْمَرُ في الحالِ، و﴿هُنَّ﴾ فَضْلٌ، وهذا لا يجوز؛ لأنَّ الفِضْلَ مُحْتَصًصٌ بالوقوع بينَ جُزْأَيِ الجُمْلَةِ، ولا يَقَعُ بينَ الحالِ وذِي الحالِ، وقد خُرِّجَ له وَجْهٌ لا يَكُونُ ﴿هُنَّ﴾ فيه فَضْلاً،

وأما عُنْبَةُ بنُ أبي لَهَبٍ: فَتَزَوَّجَ بَرُوقَةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ، ولم يكن دَخَلَ بها، فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، قال أبو لهبٍ: فارقِ ابنةَ مُحَمَّدٍ، ففارقها، فَتَزَوَّجَهَا عَثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضيَ اللهُ عنه بِمَكَّةَ، وماتت بالمدينةِ في عَزْوَةِ بَدْرٍ.

قوله: (وقرأ ابنُ مروان): قال ابنُ جِنِّي: «وقراها سعيدُ بنُ جبيرٍ والحسنُ ومُحمَّدُ بنُ مروان^(١) وعيسى الثقفِيّ: «هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ» بالنَّضْبِ»^(٢).

قوله: (احتبىٰ ابنُ مروان): أي: تَرَبَّعَ وتمكَّنَ، فهو استِعارةٌ مَكْنِيَّةٌ، حيثُ جَعَلَ اللَّحْنَ كمكانِ الوَطْءِ، وجَعَلَ تمكِينَهُ فيه كالاِحتِباءِ والتَّربُّعِ في ذلك المكانِ.
الجوهري: «احتبىٰ الرجل: إذا جَمَعَ ظَهْرَهُ وساقِيَهُ بِعِمامَتِهِ».

قوله: (قد خُرِّجَ له وَجْهٌ): والوَجْهُ أَخْرَجَهُ ابنُ جِنِّي قال: «وأنا أرى أَنَّ لهذهِ القِراءةِ وَجْهًا صحيحًا»^(٣)، وذكر معنى ما ذكره المصنَّف^(٤).

(١) محمدُ بنُ مروان: أحدُ قُرَآءِ المدينة، وليس بالمشهور. له ترجمة في «غاية النهاية» لابن الجزري (٢: ٢٢٩).

(٢) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣٢٥).

(٣) المصدر السابق (١: ٣٢٦).

(٤) هذه الفقرة - من قوله: (قد خُرِّجَ له وَجْهٌ) - إلى هنا - قُدِّمَتْ في (ح) و(ف) قبلَ فقرة «قوله: (احتبىٰ ابنُ مروان)»، ووردت في (ط) في هذا المَوْضِعِ وهو المُناسِبُ لترتيب الكلام في «الكشاف».

وذلك أن يكون ﴿هَتُولَاءَ﴾ مُبْتَدَأً، و﴿بَنَاتِي هُنَّ﴾ جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ، كَقَوْلِكَ: هذا أخي هو، ويكون «أَطَهَرَ» حالاً.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِإِثَارِهِمْ عَلَيْهِمْ، (وَلَا تُخْزُونِي) وَلَا تُهِنُونِي وَلَا تَفْضَحُونِي؛ مِنَ الْخِزْيِ، أَوْ: وَلَا تُخْجِلُونِي؛ مِنَ الْخِزْيَةِ، وَهِيَ الْحَيَاءُ، ﴿فِي ضَيْفِي﴾ فِي حَقِّ ضَيْفِي، فَإِنَّهُ إِذَا خُزِيَ ضَيْفُ الرَّجُلِ أَوْ جَارُهُ فَقَدْ خُزِيَ الرَّجُلُ، وَذَلِكَ مِنْ عَرَاقَةِ الْكَرَمِ وَأَصَالَةِ الْمُرُوءَةِ، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ رَجُلٌ وَاحِدٌ يَهْتَدِي إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ، وَفِعْلُ الْجَمِيلِ، وَالْكَفُّ عَنِ السُّوءِ. وَقُرِي: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ بِطَرَحِ الْبَاءِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَرَضُ الْبِنَاتِ عَلَيْهِمْ مُبَالِغَةً فِي تَوَاضُعِهِ لِهَمِّ، وَإِظْهَاراً لِشِدَّةِ امْتِعَاضِهِ مِمَّا أوردوا عليه؛ طَمَعاً فِي أَنْ يَسْتَحْيُوا مِنْهُ، وَيَرْفُقُوا لَهُ، إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ، فَيَتَرَكُوا لَهُ ضَيْفُوهُ، مَعَ ظُهُورِ الْأَمْرِ وَاسْتِقْرَارِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ وَعِنْدَهُمْ أَنْ لَا مُنَاكَحَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ مُسْتَشْهِدِينَ بِعِلْمِهِ، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لِأَنَّكَ لَا تَرَى مُنَاكَحَتَنَا، وَمَا هُوَ إِلَّا عَرَضٌ سَابِرِي.....

قوله: ﴿﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ بِطَرَحِ الْبَاءِ): كُلُّهُمْ إِلَّا أَبَا عَمْرٍو(١).

قوله: (إِمْتِعَاضِهِ)، الْجَوْهَرِي: «مَعِضْتُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ أَمْعَضُ مَعْضاً، وَامْتِعَضْتُ مِنْهُ: إِذَا غَضِبْتَ وَشَقَّ عَلَيْكَ».

قوله: (وما هو إلا عَرَضٌ سَابِرِي)، الْجَوْهَرِي: «السَابِرِي: ضَرْبٌ مِنَ الثِّيَابِ رَقِيقٌ، فِي الْمَثَلِ: «عَرَضٌ سَابِرِي»، يَقُولُهُ مَنْ يُعَرِّضُ عَلَيْهِ الشَّيْءَ عَرَضاً لَا يُبَالِغُ فِيهِ، لِأَنَّ السَابِرِيَّ مِنْ أَجْوَدِ الثِّيَابِ، يُرْغَبُ فِيهِ بِأَدْنَى عَرَضٍ».

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٧، وفيه أنه يُسْتَبْتَأُ فِي الْوَضَلِ، أَمَا فِي الْوَقْفِ فَإِنَّهُ يَقِفُ بغير بَاءٍ، كَمَا فِي

النهاية: «في حديث حبيب بن أبي ثابت قال: «رأيتُ على ابنِ عباسٍ ثوباً سابرياً استَشِفْتُ ما وراءه»، وكُلُّ رَقِيقٍ عندهم سابري، والأصلُ فيه الدُّرُوعُ السابريّة؛ منسوبةٌ إلى سابور».

وفي بعض الحواشي: «شُبَّهَ العَرَضُ الذي ليسَ من أصلِ النَّفْسِ^(١) بعَرَضِ الثُّوبِ السابريّ»، فهذا لا يخلو؛ إما أن يكونَ من كلامِ المُصنِّفِ تيمُّنًا لقوله: «ويجوزُ أن يكونَ عَرَضُ البناتِ عليهم مُبالغةً في تواضعِهِ للملائكة، وإظهاراً لِشِدَّةِ غَضَبِهِ مِنَ القومِ»، ورُبَّمَا يصدُرُ عن الإنسانِ في أمثالِ هذه المقاماتِ ما لا يُؤاخِذُ عليه مِنَ المقالاتِ، أو أن يكونَ من كلامِ القومِ: «لأنك لا ترى مُناكَحتنا، وما عَرَضُكَ هذا إلا عَرَضُ سابريّ»، أي: ليسَ من عَزَمِ النفسِ بل قولٌ مِنَ الفَمِّ من غيرِ مُواطأةِ القلبِ، أو أنك غيرُ مُبالغٍ في العَرَضِ، كما أن الثيابَ السابريّة^(٢) لا تفتَقِرُ إلى المُبالغةِ في العَرَضِ، فإنها في بدءِ الحالِ مرغوبٌ فيها.

قال صاحبُ «الفرائد»: قوله: «لأنك لا ترى مُناكَحتنا»: بعيدٌ مِنَ الصوابِ لِوَجْهينِ:

أحدهما: أن منكوحتَه كانت كافرة، فكيف يُقال: ما لنا في بناتِكَ من حَقِّ لأنك لا ترى مُناكَحتنا، وأنهم عَلِمُوا أن لا مُناكَحةَ بيننا وبينهم؟! وأما قولهم: ﴿ما لنا في بناتِكَ من حَقِّ﴾ فمعناه: لسنَ بزوجاتِ لنا، وقيل: ما لنا فيهنَّ حاجة.

وثانيهما: أن قوله: ﴿هُنَّ لَنَا بَنَاتٌ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ - على ما ذَكَرَ - تحريصٌ على الزنى.

لأنه لَمَّا لم تجزِ المُناكَحةُ كانَ إتيائهنَّ زنى، فظهرَ أن الوجّهَ هو الأول.

والجوابُ^(٣) عن الأول: هو^(٤) أن قولهم: «لا ترى مُناكَحتنا» عامٌّ يرادُ به الخاصُّ، وهو

المُناكَحةُ في البناتِ، لأنَّ الكلامَ فيه على أنه يجوزُ للمُسلمِ أن يَنكِحَ الذمّيّة، ولا يجوزُ أن يَنكِحَ

(١) تحرّف في (ح) إلى: «الثوب»، والمُتَبَيَّنُّ من (ط) و(ف).

(٢) في الأصول الخطية: «السابري».

(٣) من قوله: «لسن بزوجات لنا» إلى هنا، سقط من (ط).

(٤) في الأصول الخطية: «وهو»، وحذفتُ منه الواو.

وقيل: لَمَّا اتَّخَذُوا إِيَّانَ الذُّكْرَانِ مَذْهَباً وَدِيناً لِتَوَاطُئِهِمْ عَلَيْهِ، كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ نِكَاحَ الْإِنَاثِ مِنَ الْبَاطِلِ، فَلِذَلِكَ قَالُوا: مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ قَطِّ، لِأَنَّ نِكَاحَ الْإِنَاثِ أَمْرٌ خَارِجٌ مِنْ مَذْهَبِنَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولُوهُ عَلَى وَجْهِ الْخَلَاعَةِ، وَالغَرَضُ نَفْيُ الشَّهْوَةِ.

[قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾].

بِنَاتِهِ مِنَ الذَّمِّ^(١). وعن الثاني: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ غَرَضٌ سَابِرِيٌّ، لِأَنَّ غَرَضَهُ الدَّفْعُ عَنِ الْأَضْيَافِ، لَا التَّخْرِيطُ عَلَى الْبَنَاتِ، وَأَمْثَالُ هَذَا الْغَرَضِ شَائِعٌ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا أَيْقَنُوا أَنَّ لَارِغَبَةَ الْبَتَّةِ.

قوله: (عَلَى وَجْهِ الْخَلَاعَةِ)، الْأَسَاسُ: «كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا غَلَبَهُ ابْنُهُ يُنَادِي فِي الْمَوَاسِمِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا ابْنِي فَلَانٌ، قَدْ خَلَعْتُهُ، فَإِنْ جَرَّ لَمْ أَضْمَنْ، وَإِنْ جَرَّ عَلَيْهِ لَمْ أَطْلُبْ، أَي: تَبَرَّأْتُ مِنْهُ، ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ شَاطِرٍ^(٢): خَلِيعٌ، وَقَدْ خَلَعَ خَلَاعَةً، وَهِيَ خَلِيعَةٌ، وَمِنَ الْمَجَازِ: خَلَعَ فَلَانٌ رَسَنَهُ وَعِذَارَهُ^(٣)، فَعَدَا عَلَى النَّاسِ بِشَرٍّ».

قوله: (وَالغَرَضُ نَفْيُ الشَّهْوَةِ): يَعْنِي الْغَرَضُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ﴾: أَنَّ حَقَّنَا أَنْ نَقْضِيَ شَهْوَتَنَا مِنْ ضَيْفِكَ، وَلَمْ تَكُنْ بَنَاتِكَ مَكَانَ شَهْوَتِنَا، فَلَيْسَ لَنَا فِيهِنَّ حَقٌّ، فَالْخَلَاعَةُ: هِيَ جَعْلُ ذَلِكَ الْفِعْلِ الشَّنِيعِ كَالْحَقِّ الثَّابِتِ اللَّازِمِ الَّذِي لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهُ.

(١) وَلَا يَنْفِي أَنَّ امْرَأَةً لَوْ طُ كَانَتْ مُشْرِكَةً، وَلَمْ تَكُنْ ذِمِّيَّةً، بِالْمَعْنَى الشَّرْعِيَّةِ لِلذَّمَّةِ، فَعَلَى هَذَا: الْمُرَادُ مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى نَفْيُ الْمُلَازِمَةِ بَيْنَ النِّكَاحِ وَالْإِنْكَاحِ، فَكَمَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَنْكِحَ ذِمِّيَّةً وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُنْكِحَ ذِمِّيًّا ابْنَتَهُ الْمُسْلِمَةَ، كَذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَنْكِحَ لَوْ طُ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ مُخَالِفَةً لَهُ فِي الدِّينِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْكِحَ قَوْمَهُ بَنَاتِهِ الْمُسْلِمَاتِ، فَصَحَّ قَوْلُهُ: «لَا تَرَى مُنَاكَحَتَنَا»، وَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ إِشْكَالُ كَوْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَزَوِّجاً لَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ.

(٢) الشَّاطِرُ: مَنْ أَعْيَا أَهْلَهُ خُبَيْثاً. «الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ» لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي، مَادَّةُ (شَطْر).

(٣) الرَّسَنُ: الْحَبْلُ، وَالْعِذَارُ: عِذَارُ الدَّابَّةِ؛ وَهُوَ السَّبِيْرُ الَّذِي عَلَى خَدَّهَا مِنَ اللَّجَامِ. «المصباح المنير» لِلْفَيْوَمِي،

مَادَّةُ (رَسَن) وَ(عِذْر).

﴿لَتَعْلَمَنَّ مَا نُزِّلُ﴾ عَنَّا: إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا سَأَلُوا سُبْحَانَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ إِذْ يَدْعُونَكَ تَسْتَغِيثُ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا انجِرْنا مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ الَّتِي نَدْعُوكَ بِهَا﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: لو أن لي بكم قُوَّةً لَفَعَلْتُ بِكُمْ وَصَنَعْتُ، يُقال: ما لي به قُوَّةٌ، وما لي به طاقة، ونحو: ﴿لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ [النمل: ٢٧]، و«ما لي به يدان»؛ لأنه في معنى: لا أضطلعُ به، ولا أستقلُّ به. والمعنى: لو قُوِيْتُ عليكم بنفسي، أو أُوِيْتُ إِيَّاي قُوِيْتُ إِلَيْهِ، وأتمنَّعُ به، فيَحْمِينِي منكم. فَشَبَّهَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ بِالرُّكْنِ مِنَ الْجَبَلِ فِي شِدَّتِهِ وَمَنْعَتِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ - وَقَدْ وَجَدَتْ عَلَيْهِ - : إِنْ رُكِنْتَ لَشَدِيدٍ،

قوله: (يُقال: ما لي به قُوَّةٌ): قال أبو البقاء: «﴿بِكُمْ﴾ حَالٌ مِنْ ﴿قُوَّةً﴾، وليس معمولاً لها، لأنها مصدر»^(١)، فالتقدير: لو ثبت واستقرَّ لِنَفْسِي قُوَّةٌ بِكُمْ، ولهذا قال: «لو قُوِيْتُ عَلَيْكُمْ بنفسي».

قوله: (أو أُوِيْتُ): جَعَلَ ﴿أَوْءَاوَى﴾ معطوفاً على المُقَدَّرِ بَعْدَ «لو»، قال أبو البقاء: «هو في مَوْضِعِ رَفْعٍ؛ خَبِرَ «أَنَّ» على المعنى، أي: «أو أني»، وَيَضَعُفُ أَنْ يَكُونَ مَعطوفاً على ﴿قُوَّةً﴾؛ إذ لو كان لكان منصوباً بإضمار «أَنَّ»، وقد قُرِئَ به، أي: أو أن أوي»^(٢).

قوله: (فشَبَّهَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ بِالرُّكْنِ)، الراغب: «رُكْنُ الشَّيْءِ: جَانِبُهُ الَّذِي يُسَكِّنُ إِلَيْهِ، وَيُسْتَعَارُ لِلْقُوَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْءَاوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وَنَاقَةٌ مُرَكَّنَةٌ الضَّرْعُ»^(٣)، وَأَرْكَانُ الْعِبَادَةِ: جَوَانِبُهَا الَّتِي عَلَيْهَا مَبْنَاهَا، وَبِتَرْكِهَا يُطْلَأُهَا»^(٤).

قوله: (وقد وَجَدَتْ عَلَيْهِ): جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ، الجوهري: «وَجَدَ عَلَيْهِ فِي الْغَضَبِ مَوْجِدَةً

(١) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٧١٠).

(٢) المصدر السابق (٢: ٧١٠).

(٣) أي: عظيمة الضرع. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (ركن).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٣٦٥.

وقال النبي ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطًا، كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ».
 وَقُرِي: «أَوْ أَوِي» بِالنَّصْبِ؛ بِإِضْمَارِ «أَنْ»، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيًا،
 كَقَوْلِهَا:

لَلْبُسِّ عِبَاءَةٌ وَتَقَرَّرَ عَيْنِي

وَقُرِي: «إِلَى رُكْنٍ» بِضَمَّتَيْنِ.

وَوَجَدَانَا أَيْضًا، إِنَّمَا غَضِبُوا عَلَيْهِ لِأَنَّ كَلَامَهُ يَدُلُّ عَلَى إِقْنَانِ كُلِّ سِيٍّ وَيَأْسٍ شَدِيدٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ
 لَهُ نَاصِرٌ يَنْصُرُهُ، أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ. وَمَنْ تَمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطًا،
 كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. قَالَ
 الشَّارِحُ: كَأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ اسْتَعْرَبَ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ، وَعَدَّهُ بِإِدْرَاءٍ مِنْهُ؛ إِذْ لَا رُكْنَ أَشَدُّ مِنْ
 الرُّكْنِ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ^(٢).

قَوْلُهُ: «أَوْ أَوِي» بِالنَّصْبِ: قَالَ ابْنُ جَنِّي: «رَوَاهُ الْخُلَوَانِيُّ عَنْ قَالُونَ عَنْ شَيْبَةَ^(٣)، وَرَوَى
 أَيْضًا عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مِثْلَهُ، وَأَنْكَرَهُ ابْنُ مُجَاهِدٍ^(٤)، وَقَالَ: لَا يَجُوزُ تَحْرِيكُ الْيَاءِ هُنَا، وَعِنْدِي هَذَا

(١) البخاري (٣٣٧٢) و(٣٣٧٥) و(٣٣٨٧) و(٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١)، والترمذي (٣١١٦). وأخرجه
 أيضاً ابن ماجه (٤٠٢٦).

(٢) في (ف): «لَا رُكْنَ أَشَدُّ يَأْوِي إِلَيْهِ».

(٣) الخلواني: هو أبو الحسن أحمد بن يزيد الصفار، الإمام الكبير المتقن الضابط، خصوصاً في قالون،
 توفي سنة ٢٥٠ أو بعدها.

وشيبه: هو ابن نصح بن سرجس بن يعقوب، مولى أم سلمة، مُقَرَّرٌ الْمَدِينَةَ وَقَاضِيهَا، إِمَامٌ تَابِعِيٌّ ثِقَّةٌ،
 توفي سنة ١٣٠.

انظر: «غاية النهاية» لابن الجزري (١: ١٣٦ - ١٣٧ و ٥٤٢ - ٥٤٣ و ٢٩٨) على الترتيب.

(٤) من قوله: «قال ابن جني» إلى هنا، سقط من (ف).

وابن مجاهد: هو الإمام المُقَرَّرُ الْمُحَدَّثُ النَّحْوِيُّ، شَيْخُ الْمُقَرَّرَيْنِ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُوسَى بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ =

[﴿قَالُوا يَلْبُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمِزْكَ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا لَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا أَسَابُهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾]

[٨١]

وروي: أنه أغلق بابه حين جاؤوا، وجعل يرادهم ما حكى الله عنه ويجادهم، ...

سائق، وهو أن يعطف «أوي» على «قوة»، فإذا صرت إلى اعتقاد المصدر، فقد وجب إضمار «أن»، ونصب الفعل بها، ومثله قول ميسون^(١) بنت بحدل الكلابية:
للبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف^(٢)

فكانها قالت: لبس عباءة وأن تقر عيني أحب إلي من كذا وكذا^(٣)، ثم كلام ابن جني.

«الشفوف»: جمع شف، وهو ما رق من الثوب، يقول: لبس الثوب الخشن من الحلال بلا رعونة، وبعده ما تقر به عيني: أحب إلي من ثياب ناعمة تجلب إلي سخنة في عيني^(٤) في المال.

قوله: (ما حكى الله عنه): مفعول «يرادهم»، والذي حكى الله تعالى عنه: هو قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿رَشِيدٌ﴾، وردهم: قولهم: ﴿مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ﴾،

= مجاهد البغدادي (٢٤٥ - ٣٢٤)، مُصَنَّفُ كتاب «السبعة» في القراءات، فاق سائر نظائره مع اتساع علمه، وبراعة فهمه، وصدق لهجه، وظهور نسجه، حتى انتهى إليه علم هذا الشأن، وتصدّر مدة «سير أعلام النبلاء» (١٥: ٢٧٢ - ٢٧٤).

(١) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «منسوب»، والمثبت من (ط)، وهي ميسون بنت بحدل الكلابية، أم يزيد ابن معاوية، شاعرة من أهل البدو، وثقلت عليها الغربة عن قومها لما تزوجت بمعاوية في الشام، فقالت هذا البيت في جملة أبيات، فطلّقها وأعادها إلى أهلها. «الأعلام» للزركلي (٧: ٣٣٩).

(٢) انظر الأبيات بتامها في «خزانة الأدب» للبغدادي (٨: ٥٠٣ - ٥٠٤).

(٣) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٢٦).

(٤) يُقال: أسخن الله عينه، أي: أبكاه، وقد سخنت عينه سخنة وسخوناً، ويُقال أيضاً: سخنت. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (سخن).

فَتَسَوَّرُوا الجِدَارَ، فَلَمَّا رَأَتْ المَلَائِكَةُ مَا لَقِيَ لوطٌ مِنَ الكَرْبِ، قالوا: يا لوطُ إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، ﴿إِنَّا رُسِلْنَا إِلَيْكَ﴾ فافتَحَ البابَ، ودَعْنَا وإياهم، ففتَحَ البابَ، فدَخَلُوا، فاستأذَنَ جبريلُ عليه السَّلَامُ رَبَّهُ في عقوبتهم، فأذِنَ له، فقام في الصُّورَةِ التي يكونُ فيها، فنَشَرَ جناحَه، وله جناحان، وعليه وشاحٌ من دُرٍّ منظوم، وهو بَرَأقُ الشَّيْبَانِيَا، فَضْرَبَ بِجَنَاحِهِ وَجُوهَهُمْ، فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ، فأعماههم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾، فصاروا لا يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ، فخرَجُوا وهم يقولون: النَّجَاءُ النَّجَاءُ، فَإِنَّ في بَيْتِ لوطٍ قوماً سَحَرَةً.

﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ جُمْلَةٌ مُوضَّحَةٌ لِلتِّي قَبْلَهَا، لأنهم إذا كانوا رُسِلَ اللهُ لم يَصِلُوا إليه، ولم يَقْدِرُوا على ضَرَرِهِ.

قُرَيْءٌ ﴿فَأَسْرٍ﴾: بِالْقَطْعِ وَالْوَضَلِ، و﴿أَلَا أَمْرًا نَكَ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ،

ورَدَّهُ أيضاً: ﴿لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

قوله: (النَّجَاءُ النَّجَاءُ): أي: انجُوا بأنفُسِكُمْ، وهو مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ، أي: انجُوا النَّجَاءَ، وتكرارُه للتوكيد، وهو مقصورٌ وممدودٌ.

قوله: (جُمْلَةٌ مُوضَّحَةٌ لِلتِّي قَبْلَهَا): وهو قوله: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسِلْنَا إِلَيْكَ﴾، وإنما يَسْتَقِيمُ بياناً، لأنَّ هذا القولَ في جوابِ مُتَمَّنَاهُ: ﴿لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فكأنهم أجابوه بقولهم: ﴿إِنَّا رُسِلْنَا إِلَيْكَ﴾: أنك أويتَ إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ، لأنَّ معنى ﴿إِنَّا رُسِلْنَا إِلَيْكَ﴾^(١)، وتفسيره بـ ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ - و«لن» لتوكيد النفي - هو: أنك أويتَ إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ.

قوله: (قُرَيْءٌ ﴿فَأَسْرٍ﴾ بِالْقَطْعِ): الحَرَمِيَّانُ^(٢): «فَأَسْرٍ» و«أَنْ أُسْرٍ»، بوَضَلِ الألفِ حيثُ

(١) من قوله: «أنك أويتَ إلى رُكْنٍ» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) يعني: ابنُ كثيرِ المُكْتَبِيِّ، ونافعاً المَدَنِيَّ، رحمهما اللهُ تعالى.

ورُوي: أنه قال لهم: متى موعِدُ هلاكِهِم؟ قالوا: الصُّبْح، فقال: أريدُ أُسرِعَ مِنْ ذلك، فقالوا: ﴿الْيَسَّ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وُقِرئ: «الصُّبْحُ» بضمَّتَيْن.

فإن قلت: ما وَجَهُ قِرَاءَةِ مَنْ قرأ: ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ بالنَّصْبِ؟

قلت: استثنائها مِنْ قوله: ﴿فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ﴾، والدليلُ عليه قِرَاءَةُ عبدِ الله: «فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ بِقَطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَمْرَاتِكَ»، ويجوزُ أَنْ يَنْصَبَ عَنْ «لَا يَلْتَفِتُ»، على أصلِ الاستِثْناءِ، وإن كَانَ الفَصِيحُ هو البَدَل، أعني: قِرَاءَةُ مَنْ قرأ بالرفع، فأبدلها عن ﴿أَحَدٌ﴾.

وَقَعَ، والباقون: بَقَطْعِهَا^(١)، قال أبو البقاء: «وهما لغتان، يُقال: أسرى وسرى»^(٢).

وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: «إلا امرأتك» بالرفع، والباقون: بالنَّصْبِ^(٣)، قال الزَّجَّاجُ: «مَنْ قرأ بالنَّصْبِ: فعلى معنى: ﴿فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ... إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾، وَمَنْ قرأ بالرفع: حمَّله على معنى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا﴾»^(٤). والمصنَّفُ تَبِعَ الزَّجَّاجَ.

وقال ابنُ الحاجب: «هذا التفصيلُ باطلٌ، يعني: جَعَلَ القِرَاءَةَ بالرفعِ محمولةً على البَدَلِ مِنْ قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾، وقِرَاءَةُ النَّصْبِ محمولةً على الاستِثْناءِ مِنَ المَوْجِبِ^(٥) مِنْ قوله: ﴿فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ﴾، فَإِنَّ القِرَاءَتَيْنِ ثابتانِ قَطْعاً، فَيَمْتَنِعُ حَمْلُهُمَا على وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا باطلٌ قَطْعاً، والقَضِيَّةُ واحدةٌ، فهو إما أَنْ يَكُونَ سَرَى بها أو ما سَرَى بها^(٦)؛ فَإِنَّ كَانَ قد

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٣٨، و«حجّة القراءات» ص ٣٤٧.

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٧١٠).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٣٨، و«حجّة القراءات» ص ٣٤٧.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزَّجَّاجِ (٣: ٦٩ - ٧٠).

(٥) أي: اللفظ المُنْتَبِت الذي لم يدخل عليه نهي.

(٦) قوله: «أو ما سَرَى بها» سقط من (ف).

وفي إخراجها مع أهلها روايتان:

رُوي: أنه أخرَجها معهم، وأمر أن لا يَلْتَفِتَ منهم أحدٌ إلا هي، فلما سَمِعَتْ هَدَّةَ العذاب التَفَتَتْ، وقالت: يا قَوْماه، فأدرَكها حَجْرٌ فَفَتَّلَهَا.

ورُوي: أنه أمرَ بأن يُخَلِّفَهَا مع قَوْمِها، فإنَّ هواها إليهم، فلم يَسِرْ بها. واختِلافُ القراءَتين لاختِلافِ الروائيتين.

[﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ....﴾]

سَرَى بها فليس مُسْتَنَى إلا من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، وإن كان ما سَرَى بها فهو مُسْتَنَى من قوله: ﴿فَأَنزِلْ بِأَهْلِكَ﴾، فقد ثبت أن أحد التاويلين باطل قطعاً، فلا يُصار إليه في أحد القراءتين الثابتين قطعاً.

والأولى من هذا أن يكون ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ في الرَّفْع والنَّصْب مثل قوله: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

ولا بُدَّ أن يكون أقلُّ القراء على الوجه الأقوى، وأكثرهم على الوجه الذي دونه^(١)، بل قد التزم بعض الناس أنه يجوز أن يُجمع القراء على قراءة غير الأقوى^(٢).

(١) يُريد: أن يكون قوله: ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ مُسْتَنَى من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، فهو استثناء من منفي، فيجوز فيه النَّصْب على الاستثناء، والرفع على البَدَلِ مِنَ الْمُسْتَنَى منه - وهو هنا ﴿أَحَدٌ﴾ - وأقوى الوجهين: الرفع على البَدَلِ، والقراءة بالرفع في «امرأتك» هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، بينما قرأ سائر القراء السبعة بالنَّصْب - كما تقدَّم في كلام المؤلف رحمه الله تعالى - وهو مُرادُ الإمام ابن الحاجب رحمه الله تعالى من أن أقلَّ القراء على الوجه الأقوى، وأكثرهم على الوجه الأدنى.

(٢) «الإيضاح في شرح المُفَصَّل» لابن الحاجب (١: ٣٦٦ - ٣٦٧).

مَنْضُورٌ * مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٢-٨٣﴾

﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ جعلَ جبريلُ جناحه في أسفلها، ثم رفعها إلى السماء، حتى سَمِعَ أهلُ السماء نُبَاحَ الكِلَابِ وصِيَاحَ الدَّبِيكَةِ، ثم قلبها عليهم، وأتبعوا الحجارة من فوقهم.

﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾ قيل: هي كلمة مُعَرَّبَةٌ من: سَنَكٍ كِلٍ، بدليل قوله: ﴿حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، وقيل: هي من: أسجَلَه: إذا أرسله؛ لأنها تُرْسَلُ على الظالمين، ويدلُّ عليه قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الذاريات: ٣٣]،

وأجاب عنه بعضُ فضلاء المغرب، وقال: قولك: «وإن كان ما سرى بها فهو مُسْتَنَى من قوله: ﴿فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ﴾»، غايته هذا الكلام أن لوطاً ما أسرى بها، فلم لا يجوز أنها سرّت بنفسها؟ روى الواحدي عن قتادة: «ذُكِرَ لنا أنها كانت مع لوطٍ^(١) حينَ خَرَجَ مِنَ الْقَرْيَةِ، فلما سَمِعَتْ هَدَّةَ العذابِ إلى آخره^(٢).

قال المالكي في «الشواهد»: «امرأتك»: مُبتدأ، والجملة بعده خبره، و«إلا» بمعنى «لكن»، ولا يصح أن تجعل «امرأتك» بدلاً من «أحد»، لأنها لم تسر معه، فيتضمنها ضميرُ المخاطبين، ودلَّ على أنها لم تسر معه قراءةُ النصب، فإنها أخرجتها من أهلِهِ الذين أمر أن يسري بهم، وإذا لم تكن في الذين سرى بهم لم يصح أن تبدل من فاعلِ ﴿يَلْنَفَتْ﴾، لأنه بعض ما دلَّ عليه الضميرُ المجزؤ بـ«من»، وتكلفَ بعضُ النحويين الإجابة عن هذا بأن قال: لم يسر بها، ولكن شَعَرَت بالعذاب فتبعتهن ثم التفتت فهلكت. وعلى تقدير صحة هذا فلا يُوجبُ ذلك دخولها في المخاطبين بقوله: ﴿وَلَا يَلْنَفُوتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾^(٣).

(١) في (ح): «مع نوح»، وهو خطأ، والمثبت من (ط) و(ف).

(٢) «الوسيط» للواحدي (٢: ٥٨٤).

(٣) «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» لابن مالك ص ٤٢.

وقيل: مما كتَبَ اللهُ أن يُعَذَّبَ به مِنَ السَّجَلِ وَسَجَلِ لِفْلَانِ، ﴿مَنْضُورٌ﴾ نُضِدَ فِي السَّمَاءِ نُضْدًا مُعَدًّا لِلْعَذَابِ، وقيل: يُرْسَلُ بَعْضُهُ فِي آثِرِ بَعْضٍ مُتَّبَاعًا.

وقلت: فإذا التقدير: فأسِرَ بأهلكِ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ فَإِنَا مُنْجُوكُمْ، لكن امرأتك ليست بمنجّية، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فإن كونه «أبا رجالهم» مُخَالِفٌ لكونه خاتم النبيين (١).

وقلت: هذا عُذْرٌ وَاضِحٌ، به اندَفَعَ سُؤَالَ ابْنِ الْحَاجِبِ، لكن بقيَ على قولِ المُصَنِّفِ: «وَإِخْتِلَافُ الْقِرَاءَتَيْنِ لِإِخْتِلَافِ الرَّوَايَتَيْنِ» إشكالٌ قَوِيٌّ، وهو أنه جَعَلَ الْقِرَاءَةَ تَابِعَةً لِلرَّوَايَةِ، فيلزمُ الشُّكُّ فِي كَلَامِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ولو قال: «وَإِخْتِلَافُ الرَّوَايَتَيْنِ لِإِخْتِلَافِ الْقِرَاءَتَيْنِ» هُنَا السَّخَطُ، ثم وافقَ هَذَا قَوْلَ الْقَاضِي: «وَلَا يَجُوزُ حَمْلُ الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَى الرَّوَايَتَيْنِ؛ لِأَنَّ الْقَوَاطِعَ لَا يَصِحُّ حَمْلُهَا عَلَى الْمَعَانِي الْمُتَنَاقِضَةِ، وَالْأَوَّلَى الْحَمْلُ عَلَى مَا اخْتَارَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ (٢)، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرُهَا بِالِاتِّفَاتِ، بَلْ عَدَمُ نَهْيِهَا عَنْهُ اسْتِصْلَاحًا، وَلِذَلِكَ عَلَّهَ عَلَى طَرِيقَةِ الْاسْتِثْنَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا مَا أَصَابَهُمْ﴾، وَلَا يَحْسُنُ جَعْلُ الْاسْتِثْنَاءِ مُنْقَطِعًا عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ» (٣).

وأما الروايتان كما ذكرهما: فمستطورٌ في «معالم التنزيل» (٤).

قوله: (مما كتَبَ اللهُ أن يُعَذَّبَ مِنَ السَّجَلِ): قَالَ الرَّجَاجُ: «هَذَا الْقَوْلُ أُثْبِتُ الْأَقْوَالِ

(١) من قوله: «قال المالكي» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

(٢) توفي الإمام ابن الحاجب سنة ٦٤٦، وتوفي القاضي البيضاوي سنة ٦٨٥، رحهما الله تعالى، فيستبعد نقل الثاني عن الأول، لا سيما مع اختلاف الدار، حيث عاش الأول في مصر ودمشق، بينما كان الثاني في بلاد فارس، والواقع أن العبارة المذكورة من تصرف المؤلف، ولفظ البيضاوي: «والأولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله: ﴿وَلَا يَلْفُتْ﴾، مثله في قوله: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ الْقِرَاءِ عَلَى غَيْرِ الْأَفْصَحِ».

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٤٩-٢٥٠).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» للبعوي (٤: ١٩٢-١٩٣).

﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ مُعَلِّمَةٌ للعذاب، وعن الحسن: كانت مُعَلِّمَةٌ بياضٍ ومُحْمَرَةٌ، وقيل: عليها سِيَمًا يُعَلِّمُ بها أنها ليست من حِجَارَةِ الأَرْضِ، وقيل: مَكْتُوبٌ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ اسْمٌ مَنْ يُرْمَى بِهِ، ﴿وَمَا هِيَ﴾ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ ﴿بِئَعِيدٍ﴾، وفيه وَعِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وعن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ سَأَلَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: يَعْنِي: ظَالِمِي أُمَّتِكَ، مَا مِنْ ظَالِمٍ مِنْهُمْ إِلَّا وَهُوَ بَعْرُضٍ حَجَرٍ يَسْقُطُ عَلَيْهِ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ».....

وَأَحْسَنُهَا، لِأَنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ دَلِيلًا عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٧-٩]، وَسِجِّيلٌ: فِي مَعْنَى: سِجِّينٌ^(١).

قوله: (وقيل: عليها سِيَمًا): مَقْصُورٌ مِنَ الرَّاوِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله: (وفيه وَعِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ): يَعْنِي: سَبَقَ الْكَلَامُ لَوَعِيدِ قَوْمِ لُوطَ، وَأُدْمِجَ فِيهِ^(٢) وَعِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ، فَإِنَّ التَّعْرِيفَ فِي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لِلجِنْسِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «وَمَا هِيَ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ بِبَعِيدٍ»، فَعَمَّ جَمِيعَ الظَّالِمِينَ، وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ مَسْوقًا فِي حَقِّ قَوْمِ لُوطَ، دَخَلُوا فِيهِ دُخُولًا أَوْلِيَاءَ، وَتَضَمَّنَ وَعِيدَ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى التَّبَعِيَّةِ.

قوله: (بَعْرُضٍ حَجَرٍ يَسْقُطُ عَلَيْهِ): هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: فُلَانٌ عُرْضَةٌ لِلْأَمْرِ، أَي: مُعْرَضٌ لَهُ، قَالَ:

فَلَا تَجْعَلُونِي عُرْضَةً لِلرَّوَائِمِ

ذَكَرَهُ فِي الْبَقْرَةِ^(٣).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٧١).

(٢) انظر معنى «الإدماج» فيما تقدم تعليقا عند تفسير الآية ١١٥ من سورة التوبة (٧: ٣٨١).

(٣) في تفسير الآية ٢٢٤ منها.

وقيل: الضمير للقرى، أي: هي قريبة من ظالمي مكة يَمُرُّونَ بها في مسائرهم ﴿بَعِيدٌ﴾ بشيء بعيد. ويجوز أن يُراد: وما هي بمكانٍ بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء، وهي مكانٌ بعيد، إلا أنها إذا هَوَّتْ منها فهي أسرعُ شيءٍ لحوقاً بالرمي، فكأنها بمكانٍ قريب منه.

[﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلٌ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ وَيَقْوُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٤-٨٦﴾]

﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلٌ﴾ يُريد: بثروة واسعة تُغنيكم عن التّطفيف، أو: أراكم بنعمة من الله حقّها أن تُقابلَ بغير ما تفعّلون، أو: أراكم بخير فلا تُزِيلُوهُ عنكم بما أنتم عليه، ...

قوله: (وقيل: الضمير للقرى): وكذلك في ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾، قال أبو البقاء: «و«بعيد» نعتٌ لمكانٍ محذوف، أو خبر^(١) «هي»، ولم يؤنثه لأنّ العقوبة والعقاب بمعنى»^(٢).

قوله: (أو أراكم بخير فلا تُزِيلُوهُ): قَسِيمٌ لِقَوْلِهِ: «أو أراكم بنعمة من الله»، وهو قَسِيمٌ لِقَوْلِهِ: «﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلٌ﴾ يُريد: بثروة»، لأنّ «الخير» في الوجه الأول: مُفسَّرٌ بالثروة والمال، وفي الوجه الثاني: بالنّعمة المطلقة، ثم النّعمة: إما أن تُوجِبَ الأمر بالشُّكر، وهو المراد من قوله: «حقّها أن تُقابلَ بغير ما تفعّلون»، أو النهي عن الكُفْران، وهو المراد من قوله: «فلا تُزِيلُوهُ عنكم».

(١) في (ح) و(ف): «وخبر»، والمثبت من (ط)، وهو الموافق لِمَا في «التبيان» لأبي البقاء العكبري.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٧١١).

كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

﴿يَوْمَ تُحِيطُ﴾ مُهْلِك؛ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ [الكهف: ٤٢]، وَأَصْلُهُ مِنْ إِحَاطَةِ الْعَدُوِّ.

فإن قلت: وَصَفُ الْعَذَابِ بِالْإِحَاطَةِ أْبْلَغُ أَمْ وَصَفُ الْيَوْمِ بِهَا؟

قَوْلُهُ: (كَقَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ): يَعْنِي: وَزَانُ هَذِهِ الْآيَةِ وَزَانُ تِلْكَ الْآيَةِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩] كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٢٩] كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾. قَوْلُهُ: (وَأَصْلُهُ مِنْ إِحَاطَةِ الْعَدُوِّ): أَي: الْإِغَارَةُ فِي الصُّبْحِ بَعْتَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ٣].

الرَّائِبُ: «الْإِحَاطَةُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: فِي الْأَجْسَامِ، نَحْوُ: أَحَطْتُ بِمَكَانٍ كَذَا، وَالثَّانِي: فِي الْمَعَانِي؛ إِمَّا فِي الْعِلْمِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فَالْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ عِلْمًا: هُوَ أَنْ يَعْلَمَ وُجُودَهُ وَجِنْسَهُ وَقَدْرَهُ وَكَيْفِيَّتَهُ، وَغَرَضُهُ الْمَقْصُودَ بِهِ وَبِإِيجَادِهِ، وَمَا يَكُونُ بِهِ وَمَنْهُ، وَذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ صَاحِبُ مُوسَى عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]؛ تَنْبِيهًا أَنَّ الصَّبْرَ التَّامَّ إِنَّمَا يَقَعُ بَعْدَ إِحَاطَةِ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ، وَذَلِكَ صَعْبٌ إِلَّا بِفَيْضِ إلهِي، وَإِمَّا فِي الْقُدْرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْأَرْضُ عَظِيمًا إِذْ أَنزَلْنَا الْبُرْجَانَ فِي سَمَاءِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ [سورة الحديد: ١٧]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾^(١).

قَوْلُهُ: (وَصَفُ الْعَذَابِ بِالْإِحَاطَةِ أْبْلَغُ أَمْ وَصَفُ الْيَوْمِ بِهَا): قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «﴿تُحِيطُ﴾ نَعَتْ «لِلْيَوْمِ» فِي اللَّفْظِ، وَ«لِلْعَذَابِ» فِي الْمَعْنَى، وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ التَّقْدِيرَ: عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٦٥-٢٦٦.

قلت: بل وَصَفُ اليومِ بها، لأنَّ اليومَ زمانٌ يَشْتَمِلُ على الحوادثِ، فإذا أحاطَ بعذابه فقد اجتمعَ للمُعَذَّبِ ما اشتمَلَ عليه منه، كما إذا أحاطَ بنعيمه.

عذابه، وهو بعيد؛ لأنَّ «مُحِيطاً» قد جرى على غيرِ مَنْ هو له، فيجِبُ إبرازُ فاعِلِهِ»^(١).

قوله: (فإذا أحاطَ بعذابه فقد اجتمعَ للمُعَذَّبِ^(٢) ما اشتمَلَ عليه منه): الضميرُ المُستترُ في «أحاطَ» والمجرورُ في «بعذابه»، والمُستَكِنُ في «ما اشتمَلَ»: كُلُّها عائِدٌ إلى «اليومِ»، وفي «عليه» إلى «ما»، و«من» بيانُ «ما»، والضميرُ المجرورُ عائِدٌ إلى «العذابِ»، وتحقيقُه: إما إضافةُ المظروفِ إلى الظرفِ، نحو: ضَرَبَ اليومِ، فحيثُذ يكونُ اليومُ مُشتمِلاً على العذابِ. ثم إذا وُصِفَ اليومُ بالإحاطةِ لجميعِ الحوادثِ، ومنها المُعَذَّبِ، فيُحيطُه، فصَحَّ قوله: «فقد اجتمعَ للمُعَذَّبِ ما اشتمَلَ عليه»، أي: ما اشتمَلَ عليه اليومُ مِنَ العذابِ، وهذا في الكِنَايةِ قَريبٌ من قوله:

إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدى
فِي قُبَّةِ ضَرَبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ^(٣)

فإنَّ كونَ هذه الصِّفَاتِ فِي قُبَّةِ نَحْوِ كونِ العذابِ فِي اليومِ، وكونِ اليومِ مُحِيطاً للمُعَذَّبِ نَحْوِ كونِ القُبَّةِ مَضْرُوبَةً عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ^(٤).

فأما إذا وُصِفَ العذابُ بالإحاطةِ لا يكونُ هذا المعنى، غايته أن يكونَ استِعارةً مُفيدَةً أَنَّ المُعَذَّبِينَ لَا يَفُوتُونَهُ، كما لَا يَفُوتُ فائِثُ الشَّيْءِ المُحِيطِ.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٧١١).

(٢) في (ح) و(ف): «اشتمل على المعذب»، والمُتَبِّثُ من (ط)، وهو المُوافقُ لِمَا في «الكشاف».

(٣) البيتُ لزياد الأعجم، كما في «الأغاني» (١٢: ٢٨ و٤٠)، وهو من شواهد «مفتاح العلوم» للسَّكَّاكِي

ص ٤٠٧.

(٤) أي: في قول زياد الأعجم:

إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدى
فِي قُبَّةِ ضَرَبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله: ﴿أَوْفُوا﴾؟ قلت: نُهُوا أولاً عن عَيْنِ القَبِيحِ الذي كانوا عليه من نَقْصِ المِكيَالِ والمِيزانِ، لأنَّ في التصريح بالقبيح نعيّاً على المنهيّ وتعييراً له، ثم وَرَدَ الأمرُ بالإيفاء الذي هو حَسَنٌ في العُقُولِ مُصَرَّحاً بَلَفْظِهِ؛ لزيادة ترغيبٍ فيه وَبَعَثَ عليه،

وصاحبُ «الفرائد» حينَ اعتَبَرَ ظاهرَ اللفظِ، وَتَرَكَ إمعانَ المعنى، قال: وَمَنْ وَصَفَ العذابَ بالإهلاكِ، وهو مُضَافٌ إلى اليومِ، لا يَلْزَمُ أن يكونوا هَالِكِينَ في ذلك اليومِ، لأنه لا يُمكنُ أن تكونَ إضافةُ العذابِ إلى اليومِ بسببِ أنَّ ظُهورَهُ في ذلكَ اليومِ، وإن وُصِفَ اليومُ بالإهلاكِ، فيقتضي هلاكَهُم في ذلكَ اليومِ، لأنَّ ظاهرَ المعنى: اليومُ مُهْلِكٌ، فهو من قبيل: نهارُهُ صائمٌ، فحاصلُ المعنى: أن ما في اليومِ مُهْلِكٌ.

قوله: (النهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله: ﴿أَوْفُوا﴾؟)، الانتصاف: «لمن قال: إنَّ الأمرَ بالشيءِ ليسَ نهياً عن ضِدِّهِ أن يَسْتَدِلَّ بهذه الآية، وإلا لكانت تكراراً، وفي كلام الزمخشريّ وَهَمٌّ، فإنه ظَنَّ أنَّ النهيَ قَبْلَ أمرٍ بالوفاء، وهي عَفْلَةٌ منه، وتعليلُهُ بالحُسْنِ والقُبْحِ من قَوَاعِدِهِ»^(١).

وقلت: وَهَمٌّ صاحبُ «الانتصاف»، لأنَّ جَوَابَهُ: «نُهُوا أولاً عن عَيْنِ القَبِيحِ الذي كانوا عليه» لأجلِ التَّصْرِيحِ بالقبيحِ، ليكونَ تعبيراً^(٢)، ثم وَرَدَ الأمرُ ثانياً لزيادة ترغيبٍ فيه، يَدُلُّ على أنه ليسَ من باب قولهِ: النهيُ عن الشيءِ أمرٌ بضِدِّهِ، وإنما هو من باب التأكيدِ والتذييلِ للمبالغة، ففي الأولِ تَصْويرُ قُبْحِ القَبِيحِ، وفي الثاني إظهارُ حُسْنِ الحسَنِ.

قال الإمام: «ليسَ للقاتل أن يقول: النهيُ ضِدُّ الأمرِ، فكانَ التكريرُ لازماً، لأننا نقول: إنه تعالى جَمَعَ بَيْنَ الأمرِ بالشيءِ وبينَ النهيِ عن ضِدِّهِ للمبالغة، كما تقول: صَلِّ قَرَابَتَكَ ولا

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٨٥) بحاشية «الكشاف».

(٢) لفظة «تعييراً» غير واضحة في (ط)، فقد رُتِبَتْ هَكَذَا، وتحرّفت في (ح) و(ف) إلى: «بصيراً».

وَجِيءَ بِهِ مُقَيَّدًا ﴿بِالْقِسْطِ﴾ - أي: ليكن الإيفاء على وَجْهِ الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ - أَمْرًا بِمَا هُوَ الْوَاجِبُ،

تَقَطَّعَهُمْ، فَيَدُلُّ هَذَا الْجَمْعُ عَلَى غَايَةِ التَّأْكِيدِ»^(١)، فَسُؤَالَ الْمُصَنِّفِ لِرَدِّ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ.
وقال القاضي: «صَرَّحَ بِالْأَمْرِ بِالْإِيْفَاءِ بَعْدَ النِّهْيِ عَنِ ضِدِّهِ مُبَالَعَةً وَتَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّهُ لَا يَكْفِيهِمُ الْكَفُّ عَنِ تَعَمُّدِ التَّطْفِيفِ، بَلْ يَلْزَمُهُمُ السَّعْيُ فِي الْإِيْفَاءِ، وَلَوْ بِزِيَادَةٍ لَا يَتَأْتَى دُونَهَا، ثُمَّ قَيَّدَهُ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ الزِّيَادَةَ مَنْدُوبٌ غَيْرُ مَأْمُورٍ بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَحْظُورًا»^(٢).

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: اخْتِيَارُ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَالغَزَالِيِّ: أَنَّ الْأَمْرَ بِالشَّيْءِ لَيْسَ نَهْيًا عَنِ ضِدِّهِ، وَلَا يَقْتَضِيهِ عَقْلًا. وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ^(٣): إِنَّهُ نَهْيٌ عَنِ ضِدِّهِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْإِمَامُ فِي «الْمَعَالِمِ»^(٤)، وَالْقَاضِي فِي «الْمَنْهَاجِ»^(٥)، وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ: وَالنِّهْيُ كَذَلِكَ، يَعْنِي: النَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ، وَكَذَا يَقْتَضِيهِ عَقْلًا، لِأَنَّ النَّهْيَ طَلَبُ فِعْلِ الضَّدِّ، فَيَكُونُ أَمْرًا بِالضَّدِّ، وَتَمَامُ تَقْرِيرِهِ مَذْكَورٌ فِي مَوْضِعِهِ.

قوله: (أمرًا بما هو الواجب): مفعولٌ له لِقَوْلِهِ: «وَجِيءَ بِهِ مُقَيَّدًا ﴿بِالْقِسْطِ﴾»، وَقَوْلُهُ: «أَي: لِيَكُنِ الْإِيْفَاءُ عَلَى وَجْهِ الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ»: مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْعَامِلِ وَالْمَعْمُولِ تَفْسِيرًا وَبَيَانًا، وَ«عَلَى وَجْهِ الْعَدْلِ»: خَبَرٌ «لِيَكُنِ».

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٣٨٥).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٥٢).

(٣) الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي الشافعي (٣٩٣-٤٧٦)، صاحب «المهذب» و«التنبيه» وغيرها من المصنّفات.

(٤) يعني: الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى - فإنه الذي يعنيه المؤلف رحمه الله تعالى إذا أطلق لفظة «الإمام» - ، وقد اختار هذا القول في كتابه «المحصول في أصول الفقه» (٢: ٣٣٤)، أما «المعالم»: فالمعروف بهذا الاسم من كتب الإمام الرازي: «معالم أصول الدين»، وهو من كتب العقيدة والكلام، وليست هذه المسألة من مباحثه، والله تعالى أعلم.

(٥) انظر: «الإبهاج في شرح المنهاج» للشبكي (١: ١٢٠).

لأن ما جاوزَ العَدْلَ فَضُلٌّ وأمرٌ مندوبٌ إليه.

وفيه توقيفٌ على أن المُوَفِّيَ عليه أن ينويَ بالوفاءِ القِسْطَ، لأن الإيفاءَ وَجْهٌ حُسْنُهُ أنه قِسْطٌ وَعَدْلٌ، فهذه ثلاثُ فوائد.

البَحْسُ: الهَضْمُ والنَّقْصُ، ويُقال للمَكْسِ: البَحْسُ، قال زهير:

قوله: (لأن ما جاوزَ العَدْلَ فَضُلٌّ): تعليلٌ لقوله: «جاء به مُقْبِداً ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أمرٌ بالواجب»، يعني: تقييدهُ بـ﴿الْقِسْطِ﴾ لبيان أمر الوجوب، وأنه لا يجوزُ أن يُنْقَصَ، لأنه لا يَصِحُّ التَّجَاوُزُ عنه، لأن ما جاوزَ العَدْلَ فَضُلٌّ.

قوله: (وفيه توقيف): أي: في القَيْدِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ إيدانٌ بأن القِسْطَ مطلوبٌ مُطْلَقاً، وإنما حَسَنَ الإيفاءَ لأنه قِسْطٌ وَعَدْلٌ، لا أنه إيفاء، وقد يكونُ محظوراً كما في الرِّبَا، فالواجبُ على مَنْ يُوفِي أن ينويَ القِسْطَ.

قوله: (فهذه ثلاثُ فوائد): فَذَلِكَ^(١) للجواب عن السُّؤالِ بقوله: «فما فائدةُ قوله: ﴿أَوْفُوا﴾؟» أي: في الإتيانِ بقوله: ﴿أَوْفُوا﴾، وَعَدَمِ الاقتصارِ على النهي عن النقصان: ثلاثُ فوائد: الأولى: زيادةُ الترغيب، والثانية: بيانُ الواجب، وأنَّ الزيادةَ فَضْلٌ، والثالثة: الإشعارُ بأنَّ العَدْلَ مطلوبٌ لذاته، وهذه الفائدةُ مُدْجِجَةٌ^(٢) في الكلام، ولهذا قال: «وفيه توقيفٌ» إلى آخره.

قوله: (البَحْسُ: الهَضْمُ والنَّقْصُ): يعني: هو لفظٌ مُشْتَرِكٌ بينَ هَذَيْنِ المَعْنَيْنِ، وربما اسْتَعْمَلُوهُ في المَكْسِ أيضاً، وقوله: «وكانوا يأخذون» إلى آخره: بيانُ اسْتِعْمَالِهِ في هذه المعاني، قال القاضي: «﴿وَلَا تَبْحَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميمٌ بعدَ تخصيص، فإنه أعمُّ من أن يكونَ مقداراً أو غيره، وكذا ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، فإنَّ العُتُوَّ يَعْمُ تنقيصَ الحقوقِ وغيره من أنواعِ الفساد»^(٣).

(١) انظر معنى «الفضل» فيما تقدّم تعليقا عند تفسير الآية ١١١ من سورة التوبة (٧: ٣٧٤).

(٢) انظر معنى «الإدماج» فيما تقدّم تعليقا عند تفسير الآية ١١٥ من سورة التوبة (٧: ٣٨١).

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٥٢).

وفي كُلِّ ما باعَ امرؤٌ بَحْسُ دِرْهَمٍ

وَرُوي: مَكْسُ دِرْهَمٍ. وكانوا يأخذون من كُلِّ شيءٍ يُباعُ شيئاً، كما تَفَعَّلُ السَّامِيسِرَةُ، أو كانوا يَمَكِّسُونَ الناسَ، أو كانوا يَنْقُصُونَ من أثمانِ ما يَشْتَرُونَ مِنَ الأشياءِ، فَهَوا عن ذلك.

قوله: (وفي كُلِّ ما باعَ امرؤٌ بَحْسُ دِرْهَمٍ): أوله:

وفي كُلِّ أسواقِ العِراقِ إتاوةٌ^(١)

«الإتاوة»: الخراج، والجمع: الأتاوى، يُريدُ به أخذُ الخراجِ والعُشورِ وما هو للقومِ في الأسواقِ من رُسومِ الظلم.

قوله: (السَّامِيسِرَةُ): «المُغْرِبُ»: «السَّمْسارُ- بَكْسِرِ الأول-: المتوسِّطُ بينَ البائعِ والمُشتري، فارسيَّةٌ مُعَرَّبٌ، والجمع: السَّامِيسِرَةُ، وفي الحديث: «كُنَّا نُدْعَى السَّامِيسِرَةَ، فَسَمَّانا النَّبِيَّ ﷺ التُّجَّارِ»^(٢)، ومصدره: السَّمْسِرَةُ»، وقال الأزهريُّ^(٣) في تفسير قوله: «لا يَبِيعُ حاضِرٌ لباد»^(٤): أنه لا يكونُ سِمَساراً».

قوله: (يَمَكِّسُونَ الناسَ): أي: يأخذونَ العُشْرَ، الجوهري: «مَكَّسَ في البَيْعِ يَمَكِّسُ

(١) البيهقي لجابر بن حنبلٍ التَّغْلِبِيُّ، كما في «المُفَصَّلِيَّاتِ» ص ٢١١، و«أساس البلاغة» للزمخشري، مادة (أبي) و(بخس)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (مكس) و(أبي).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٢٦)، والترمذي (١٢٠٨)، والنسائي (٣٧٩٧) و(٣٧٩٨) و(٣٨٠٠) و(٤٤٦٣)، وابن ماجه (٢١٤٥) من حديث قيس بن أبي عَزْزَةَ رضي اللهُ عنه.

(٣) تحرَّفَ في (ح) إلى: «الجوهري»، والمُتَّبَت من (ط) و(ف)، وهو المُوافِقُ لِبِئاً في «المُغْرِبِ» لأبي الفتح ابن المطرِّز (١: ٤١٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٤٠) و(٢١٥٠) و(٢١٦٠) و(٢١٦٢) و(٢٧٢٣)، ومسلم (١٤١٣) و(١٥١٥) من حديث أبي هريرة. والبخاري (٢١٥٨) و(٢٢٧٤)، ومسلم (١٥٢١) من حديث عبد الله بن عباس. والبخاري (٢١٦١)، ومسلم (١٥٢٣) من حديث أنس بن مالك. والبخاري (٢١٥٩) من حديث عبد الله بن عمر. ومسلم (١٥٢٢) من حديث جابر بن عبد الله. رضي اللهُ عنهم.

والعُثِيُّ فِي الْأَرْضِ: نَحْوُ السَّرْقَةِ وَالغَارَةِ وَقَطَعَ السَّبِيلَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ التَّطْفِيفُ
وَالْبَخْسُ عُثِيًّا مِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ مَا بَقِيَ لَكُمْ مِنَ الْحَلَالِ بَعْدَ التَّنْزِهِ عَمَّا هُوَ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِشَرَطِ أَنْ تُؤْمِنُوا، وَإِنَّمَا خُوِطِبُوا بِتَرْكِ التَّطْفِيفِ وَالْبَخْسِ وَالْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ - وَهُمْ كَفَرَةٌ - بِشَرَطِ الْإِيمَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْكَفَرَةِ، لِأَنَّهُمْ يَسْلَمُونَ مَعَهَا مِنْ تَبِعَةِ الْبَخْسِ وَالتَّطْفِيفِ،
فَلِمَ شَرِطَ الْإِيمَانَ؟

- بِالْكَسْرِ - مَكْسًا، وَمَا كَسَ مُمَاكَسَةً وَمَكَاسًا، وَالْمَكْسُ أَيْضًا: الْجَبَايَةُ، وَالْمَاكِسُ: الْعَسَّارُ.

قوله: (والعُثِيُّ فِي الْأَرْضِ: نَحْوُ السَّرْقَةِ وَالغَارَةِ)، الراغب: «العُثِيُّ والعَيْثُ: يَتَقَارِبَانِ،
نَحْوُ: جَذَبَ وَجَبَدَ، إِلَّا أَنَّ الْعَيْثَ أَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْفَسَادِ الَّذِي يُدْرِكُ حِسًّا، وَالْعُثِيُّ فِيهَا
يُدْرِكُ حُكْمًا، يُقَالُ: عَثِيَ يَعْثِي عُثِيًّا، وَمِنْهُ: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:
٦٠] (١)».

قوله: (بَشَرَطُ أَنْ تُؤْمِنُوا، وَإِنَّمَا نُهُوا عَنِ التَّطْفِيفِ (٢) وَالْبَخْسِ ... - وَهُمْ كَفَرَةٌ - بِشَرَطِ
الْإِيمَانِ)، الْإِنْتِصَافُ: «الْمُعْتَزَلَةُ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يُحَاطَبُونَ بِالْفُرُوعِ، أَمْرًا وَلَا نَهْيًا، وَهَذِهِ
الآيَةُ تَدُلُّ عَلَى خِطَابِهِمْ بِمَا يُشَرِّطُ فِيهِ الْإِيمَانَ، وَقَدْ أَقْرَأَهَا الزُّخَشْرِيُّ عَلَى ذَلِكَ» (٣).

قوله: (فَإِنْ قُلْتَ: بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْكَفَرَةِ): فِيهِ رَمْزٌ خَفِيٌّ إِلَى مَذْهَبِهِ، يَعْنِي: أَنَّ
الْمُسْتَحْسَنَاتِ الْمَعْقُولَةَ لَا يَتَوَقَّفُ حُسْنُهَا عَلَى انْضِمَامِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْإِحْتِرَازَ عَنْ رَدَائِلِ
الْأَخْلَاقِ حَسَنٌ فِي نَفْسِهِ. وَخُلَاصَةُ الْجَوَابِ: أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَحْسَنَةً عَقْلًا، لَكِنْ لَا تَقَعُ

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٤٦.

(٢) كذا في الأصول الخطبية، وفي «الكشاف»: «وإنما خوطبوا بترك التطفيف».

(٣) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٨٥-٢٨٦) بحاشية «الكشاف».

قلت: لِيُظْهِرَ فَائِدَتَهَا مَعَ الْإِيمَانِ؛ مِنْ حُصُولِ الثَّوَابِ مَعَ النَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ، وَخَفَاءِ فَائِدَتِهَا مَعَ فَقْدِهِ؛ لِانْغِمَاسِ صَاحِبِهَا فِي غَمْرَاتِ الْكُفْرِ. وَفِي ذَلِكَ اسْتِعْظَامٌ لِلْإِيمَانِ، وَتَنْبِيهُ عَلَى جَلَالَةِ شَأْنِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ لِي فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَنْصَحُ بِهِ إِيَّاكُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: مَا يَبْقَى لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الطَّاعَاتِ خَيْرٌ لَكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَلِغِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦].

مَوْقِعَهَا، وَلَا تُجْدِي صَاحِبَهَا مَا لَمْ يَنْضَمَّ مَعَهَا الْإِيمَانُ، فَجُعِلَ شَرْطُ الْإِيمَانِ كَالسَّمَةِ لَهَا شَرْفًا. وَقَالَ الْقَاضِي: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِشَرْطِ أَنْ تُؤْمِنُوا، فَإِنَّ خَيْرِيَّتَهَا بِاسْتِبَاعِ الثَّوَابِ مَعَ النَّجَاةِ، وَذَلِكَ مُشْرُوطٌ بِالْإِيمَانِ^(١)، فَعَلِيَ هَذَا: الْإِيمَانُ مُتَبَوِّعٌ، وَعَلَى قَوْلِ الْمُصَنِّفِ: تَابِعٌ.

قَوْلُهُ: (لِيُظْهِرَ فَائِدَتَهَا مَعَ الْإِيمَانِ): يَعْنِي: إِنْ حَصَلَتْ لَهُمْ فَائِدَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مِنَ السَّلَامَةِ مِنَ الرَّذِيلَةِ، وَمِنْ نَقْصِ الْأَمْوَالِ، لَكِنْ تَفَوُّتُ الْفَائِدَةُ الْعُظْمَى، وَهُوَ حُصُولُ الثَّوَابِ مَعَ النَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: مَا يَبْقَى لَكُمْ): مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «مَا يَبْقَى لَكُمْ مِنَ الْحَلَالِ بَعْدَ التَّنْزُّهِ».

قَوْلُهُ: (كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَلِغِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ﴾)، الرَّاعِبُ: «الْبَقَاءُ: ثَبَاتُ الشَّيْءِ عَلَى الْحَالَةِ الْأُولَى، وَيُضَادُّهُ: الْفَنَاءُ، وَالْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ: مَا يَبْقَى ثَوَابُهُ لِلْمُكَلَّفِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَهِيَ كُلُّ عِبَادَةٍ يُقْصَدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، وَعَلَى هَذَا «يَبْقِيَتْ أَللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ».

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٥٢).

(٢) هذه الفقرة - من «قوله: لِيُظْهِرَ فَائِدَتَهَا...» إِلَى هُنَا، أُخْرِجَتْ فِي (ح) وَ(ف) بَعْدَ فِقْرَةِ «قَوْلُهُ: كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَلِغِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ﴾»، وَوَرَدَتْ فِي (ط) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي «الْكَشَافِ».

وإضافة «البقية» إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يُضاف إليه، وأما الحرام فلا يُضاف إلى الله، ولا يُسمى رزقاً، وإذا أُريدَ بها الطاعة، فكما تقول: طاعة الله.

قوله: (وأما الحرام فلا يُضاف إلى الله تعالى، ولا يُسمى رزقاً)، الانتصاف: «لا رازق إلا الله، وكُلُّ ما يُقيم به الخلقُ بنيتهم فهو رِزقٌ حقيقة، وهو من الله، وأما الإضافة إلى الله للتخصيص فأمرٌ خارجٌ عن ذلك»^(١).

وقال الإمام: «ما أبقى الله تعالى لكم من الحلالِ بعدَ إيفاءِ الكَيْلِ والوَزْنِ خيراً من البَخْسِ والتطفيفِ، أما عندَ الله فظاهر، وأما عندَ الناسِ فإنهم إذا عَرَفُوهُ^(٢) بالصدِّقِ والأمانةِ والبُعْدِ عن الخيانةِ، اعتمدوا عليه، ورَجَعُوا في كُلِّ المُعامَلاتِ إليه، فيَنفَتِحُ عليه بابُ الرِّزقِ، وبالعكسِ إذا عَرَفُوهُ بالخيانةِ»^(٣).

قلت: فعلى هذا تكونُ الإضافةُ إضافةً تشرِيفٍ لا تخصِيفٍ، كما تقول: بيتُ الله، وناقهُ الله، تحريصاً لهم على تَرْكِ البَخْسِ وإيفاءِ الكَيْلِ، ولو حَمَلَ هذه «البقية» على الطاعةِ والثوابِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [الكهف: ٤٦]، كانَ أظهرَ، لأنَّ الدُّنيا بأسرها تَفْنَى وتَقَرِّضُ، وثوابُ الله تعالى باقٍ، ويُوَافِقُ هذا التأويلَ قولُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: كنتم تؤمنون باليوم الآخر.

قوله: (وإذا أُريدَ بها الطاعة): عطفٌ على قوله: «وإضافةُ البقية إلى الله»، والمعطوفُ والمعطوفُ عليه مُتفرِّعانِ على تفسِيرِ ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾، فقوله: «وإضافةُ البقية» من حيثُ إنها رِزقُهُ مُتفرِّعٌ على قوله: «﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ ما يَبْقَى لكم من الحلال»، وقوله: «وإذا أُريدَ بها الطاعة، فكما تقول: طاعةُ الله» مُتفرِّعٌ على قوله: «أن يُراد: ما يَبْقَى لكم عندَ الله من الطاعات».

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٨٦) بحاشية «الكشاف».

(٢) من قوله: «تعالى لكم من الحلال» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٣٨٦).

وَقُرِي: «تَقِيَّةُ اللَّهِ» بالثناء، وهي تَقْوَاهُ ومُرَاقِبَتُهُ التي تَصْرِفُ عن المعاصي والقبائح.
 ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ﴾ وما بُعِثْتُ لأَحْفَظَ عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَأَجَازِيَكُمْ عَلَيْهَا،
 وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَلِّغًا وَمُنْبَهًا عَلَى الْخَيْرِ وَنَاصِحًا، وَقَدْ أَعْدَرْتُ حِينَ أَنْذَرْتُ.

[﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي
 أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [٨٧]

كَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ قَوْمُهُ إِذَا رَأَوْهُ يُصَلِّي تَغَامَزُوا
 وَتَضَاحَكُوا، فَصَدُّوا بِقَوْلِهِمْ: (أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ) السُّخْرِيَّةُ وَالهُزُّ، وَالصَّلَاةُ وَإِنْ
 جَازَ أَنْ تَكُونَ أَمْرَةً عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ، كَمَا كَانَتْ نَاهِيَةً فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَبْتَغِ الصَّكْلَةَ تَنْهَى
 عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]،

قوله: (تَقْوَاهُ ومُرَاقِبَتُهُ)، الأساس: «ومن المجاز: رَقَبَهُ ورَاقَبَهُ: حَازَرَهُ، لِأَنَّ الْخَائِفَ يَرُقُبُ
 الْعِقَابَ، وَمِنْهُ: فَلَانٌ لَا يُرَاقِبُ اللَّهَ فِي أُمُورِهِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى عِقَابِهِ».

قوله: (والصلاة وإن جاز أن تكون أمرَةً على طريق المجاز): لَكِنَّهُمْ طَنَزُوا^(١) فِي جَعْلِهَا
 أَمْرَةً، يَعْنِي: يَجُوزُ إِسْنَادُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ إِلَى الصَّلَاةِ: إِمَّا عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ مُبَالَغَةً، لِأَنَّهَا
 سَبَبٌ إِلَى تَرْكِ الْمُنْهَيَاتِ، كَأَنَّهَا هِيَ الْمُحْصَلَةُ، أَوْ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ؛ كَأَنَّهَا الشَّخْصُ وَالنَّاهِي،
 هَذَا إِذَا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ مَدْحٍ، وَلَوْ أُرِيدَ الذَّمُّ كَانَ إِثْبَاتُهُ فِيهَا عَلَى ضِدِّ تِلْكَ الْمُبَالَغَةِ، وَإِلَيْهِ
 الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ مِثْلَهُ لَا يَدْعُوكَ إِلَيْهِ دَاعِي عَقْلٍ»، وَجَمَعَ الصَّلَاةَ وَأَضَافَهَا إِلَيْهِ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ
 بِفِعْلِ الْمَضَارِعِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى الْعُمُومِ بِحَسَبِ الْأَزْمَانِ، وَهَذَا قَالَ: «الَّتِي تُدَاوِمُ عَلَيْهَا فِي لَيْلِكَ
 وَنَهَارِكَ»، قَالَ الْقَاضِي: «فَكَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ فَلِذَلِكَ جَمَعُوا وَخَصُّوا بِالذِّكْرِ»^(٢).

(١) طَنَزَ يَطْنِزُ طَنَزًا: كَلَّمَهُ بِاسْتِهْزَاءٍ، فَهُوَ طَنَازٌ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: أَظَنَّهُ مُوَلَّدًا أَوْ مُعْرَبًا، وَالطَّنَزُ: السُّخْرِيَّةُ.
 «لسان العرب» لابن منظور، مادة (طنز).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٥٣)، وَلَفْظُهُ: «وَخَصُّوا الصَّلَاةَ بِالذِّكْرِ».

وَأَن يُقَالَ: إِنَّ الصَّلَاةَ تَأْمُرُ بِالْجَمِيلِ وَالْمَعْرُوفِ، كَمَا يُقَالُ: تَدْعُو إِلَيْهِ وَتَبَعْتُ عَلَيْهِ، إِلا أَنَّهُمْ سَاقُوا الْكَلَامَ مَسَاقَ الطَّنْزِ، وَجَعَلُوا الصَّلَاةَ أَمْرَةً عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ بِصَلَاتِهِ. وَأَرَادُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي تَأْمُرُ بِهِ مِنْ تَرْكِ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ بَاطِلٌ لآ وَجْهَ لِصِحَّتِهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَدْعُوكَ إِلَيْهِ دَاعِي عَقْلٍ، وَلَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَمْرٌ فِطْنَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ إِلا أَن يَأْمُرَكَ بِهِ أَمْرٌ هَدْيَانٍ، وَوَسْوَسةُ شَيْطَانٍ، وَهُوَ صَلَّى أُمَّتَكَ الَّتِي تُدَاوِمُ عَلَيْهَا فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْجَنُونِ، وَمَا يَتَوَلَّعُ بِهِ الْمُجَانِنُ وَالْمُوسُوسُونَ مِنْ بَعْضِ الأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ.

ومعنى «تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ»: «تَأْمُرُكَ» بتكليف «أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» فحذف المضاف الذي هو التكليف، لأنَّ الإنسان لا يؤمَّرُ بفعل غيره.

وقرئ: «صَلُّوْكُمْ» بالتوحيد، وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: «أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا تَشَاءُ»، بناءً الخِطَابِ فِيهِمَا، وَهُوَ مَا كَانَ يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنْ تَرْكِ التَّطْفِيفِ وَالْبَحْسِ، وَالِاقْتِنَاعِ بِالْحَلَالِ القَلِيلِ مِنَ الحَرَامِ الكَثِيرِ. وَقِيلَ: كَانَ يَنْهَاهُمْ

قوله: (يَتَوَلَّعُ بِهِ): هُوَ يَتَفَعَّلُ؛ مِنَ الوَلْوَعِ، الجَوْهَرِيُّ: «الْوَلْوَعُ: الاسْمُ مِنَ وَلَعَتْ بِهِ تَوَلَّعَ وَلَعَا وَوَلْوَعَا، الْمَصْدَرُ وَالاسْمُ جَمِيعاً بِالْفَتْحِ، وَهُوَ مُوَلَّعٌ بِهِ - بِفَتْحِ اللّامِ - أَي: مُغْرَى بِهِ».

قوله: (لأنَّ الإنسان لا يؤمَّرُ بفعل غيره): تعليلٌ لتقدير المضاف، أَي: لا بُدَّ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ، لِأَنَّ التَّرْكَ^(١) فِعْلُ الكُفَّارِ، وَالْمَأْمُورُ بِقَوْلِهِ: (أَصَلُّوا تَكُ تَأْمُرُكَ): شُعَيْبٌ، أَي: أَصَلُّوا تَكُ تَأْمُرُكَ بِتَكْلِيفِكَ إِيَّانَا أَنْ نَتْرَكَ.

قوله: (بناءً الخِطَابِ فِيهِمَا): أَي: فِي «تَفْعَلَ» وَفِي «تَشَاءُ»، الْاِتِّصَافُ: «عَلَى هَذَا: «أَنْ تَفْعَلَ» مَعْطُوفٌ عَلَى «أَنْ تَتْرَكَ»، وَعَلَى الْمَشْهُورَةِ يَمْتَنِعُ؛ لِفَسَادِ الْمَعْنَى، بَلْ هُوَ عَطْفٌ عَلَى «مَا يَعْبُدُ»، فَكَانَهُ قِيلَ: أَصَلُّوا تَكُ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَتْرَكَ فِعْلَنَا فِي أَمْوَالِنَا

(١) تحرّف في (ط) إلى: «الشرك».

عن حَذْفِ الدِراهِمِ والدنانيرِ وتَقْطِيبِهَا، وأرادوا بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(١) نِسْبَتَهُ إِلَى غَايَةِ السَّفَةِ وَالغَيِّ، فَعَكَّسُوا، لِيَتَهَكَّمُوا بِهِ، كَمَا يَتَهَكَّمُ بِالشَّحِيحِ الَّذِي لَا يَبْضُ حَجْرُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: لَوْ أَبْصَرَكَ حَاتِمٌ لَسَجَدَ لَكَ. وقيل: معناه: إِنَّكَ لِلْمُتَوَاصِفِ بِالْحِلْمِ وَالرُّشْدِ فِي قَوْمِكَ، يَعْنُونَ: أَنَّ مَا تَأْمُرُ بِهِ لَا يُطَابِقُ حَالَكَ وَمَا شَهَرْتَ بِهِ.

ما نشاء، وهذه نُكْتَةٌ^(١).

قوله: (وتَقْطِيبِهَا): عطفٌ على «حَذْفِ الدِراهِمِ والدنانيرِ»، الأساس: «حَذْفَ ذَنْبٍ قَرِيسِهِ: إِذَا قَطَعَ طَرْفَهُ، وَزِقُّ مَحْذُوفٍ: مَقْطُوعُ الْقَوَائِمِ».

قوله: (نِسْبَتَهُ إِلَى غَايَةِ السَّفَةِ وَالغَيِّ): يُرِيدُ: أَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ اسْتِعَارَةَ تَبَعِيَّةً، لِأَنَّ الصِّفَةَ الْمُشَبَّهَةَ لَا تَقَعُ فِيهَا اسْتِعَارَةٌ، لِأَنَّ الْمُسْتَعَارَ فِي الْحَقِيقَةِ مَوْصُوفٌ، وَالصِّفَاتُ وَالْأَفْعَالُ وَالْحُرُوفُ بِمَعزِلٍ عَنِ أَنْ يَقَعْنَ مَوْصُوفَاتٍ، فَتَقَعُ اسْتِعَارَةٌ فِي مَوَادِرِ الْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، وَفِي مُتَعَلِّقِي مَعَانِي الْحُرُوفِ، ثُمَّ تَسْرِي مِنْهَا إِلَى الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالْحُرُوفِ، فَأَشَارَ بِقَوْلِهِ: «السَّفَةُ وَالغَيِّ» إِلَى الْمَصْدَرَيْنِ، يَعْنِي^(٢): اسْتِعَارَ الْحِلْمِ وَالرُّشْدَ لِلسَّفَةِ وَالغِيَايَةِ^(٣) عَلَى التَّهَكُّمِ، ثُمَّ سَرَتْ مِنْهُمَا إِلَى الْحَلِيمِ الرَّشِيدِ.

قوله: (لَا يَبْضُ حَجْرُهُ): قَالَ فِي «الْأَسَاسِ»: «بَضَّ الْحَجْرُ بِقَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ بَضِيضًا، وَمِنَ الْمَجَازِ: مَا يَبْضُ حَجْرُهُ: إِذَا لَمْ يَنْدُ لَهُ بَخِيرٌ، وَمَا بَضَّ لَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ».

الجوهري: «بَضَّ الْمَاءُ يَبْضُ بَضِيضًا وَبَضًّا، أَي: سَالَ».

قوله: (إِنَّكَ لِلْمُتَوَاصِفِ بِالْحِلْمِ وَالرُّشْدِ فِي قَوْمِكَ): فَعَلِي هَذَا لَا يَكُونُ تَهَكُّمًا، وَهُوَ أَوْلَى، لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِثْلَ قَوْلِ قَوْمٍ صَالِحٍ قَبْلَ هَذَا: ﴿يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُؤًا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهِنَا أَنْ

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٣: ٢٨٧) بحاشية «الكشاف».

(٢) من قوله: «الأفعال والصفات» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) تحرف في (ف) إلى: «الفوائد».

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [٨٨]

﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي: من لُدُنِهِ، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو ما رَزَقَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ،
وقيل: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً طيباً من غير بَخْسٍ وَلَا تَطْفِيفٍ.

تَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴿هود: ٦٢﴾، ومعناه على ما ذكره: «كُنَّا نَرْجُوكَ لِتَنْتَفِعَ بِكَ، وَنَسْتَرْشِدُكَ فِي
التدابير، فلما نَطَقْتَ بهذا القولِ انقطعَ رجَاؤُنَا»، والدليلُ عليه مُوَافَقَةُ الجَوَابِينَ؛ قَالَ هُنَا:
﴿يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَازَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣] الآية، وهَاهُنَا:
﴿يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] الآية، وهو من
باب إِرْحَاءِ الْعِنَانِ وَالْكَلامِ الْمُنْصِفِ، يعني: صَدَقْتُمْ فِيمَا قُلْتُمْ أَنِي لَمْ أَزَلْ مُرْشِداً لَكُمْ حَلِيماً فِيمَا
بَيْنَكُمْ، لَكِنْ مَا جِئْتُ بِهِ لَيْسَ غَيْرَ الْإِرْشَادِ وَالنَّصِيحَةِ لَكُمْ، انظُرُوا بَعَيْنِ الْإِنْصَافِ - وَأَنْتُمْ
الْبِئَاءِ - إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَكُنْتُمْ نَبِيًّا عَلَى الْحَقِيقَةِ، أَصْحَحُ لِي - وَأَنَا
مُرْشِدُكُمْ وَنَاصِحُ لَكُمْ - أَنْ لَا أَمُرْكُمْ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَعَاصِي، وَالْأَنْبِيَاءِ لَا
يُعْتَوْنَ إِلَّا لِلذَّكَ.

ثم أَكَّدَ مَعْنَى الْإِرْشَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا
الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، وَأَدْرَجَ مَعْنَى الْحِلْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ﴾^(١)، وَأُنِي يَسْتَقِيمُ هَذَا الْمَعْنَى مَعَ التَّهَكُّمِ.

وَأَمَّا مَعْنَى التَّعْلِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعُدُّونَ صَلَاتَهُ
- كَمَا قَالَ - مِنْ بَابِ الْجَنُونِ وَمَا يَتَوَلَّعُ بِهِ الْمَجَانِينُ وَالْمُوسُوسُونَ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: الَّذِي آتَيْتَ بِهِ مِنْ

(١) من قوله: «ثم أكد معنى الإرشاد» إلى قوله: «وإليه أُنِيبُ»، سقط من (ح).

فإن قلت: أين جواب ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وما له لم يُثبت كما أُثبت في قصة نوح ولوط؟ قلت: جوابه: محذوف، وإنما لم يُثبت لأنَّ إثباته في القِصَّتَيْنِ دَلٌّ على مكانه، ومعنى الكلام يُنادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنتُ على حُجَّةٍ واضحةٍ ويقينٍ من ربي، وكنتُ نبياً على الحقيقة، أيصحُّ لي أن لا أمركم بتزك عبادَةِ الأوثان، والكفِّ عن المعاصي، والأنبياء لا يُبعثون إلا لذلك، يُقال: خالفني فلانٌ إلى كذا: إذا قصده وأنت مؤلٌّ عنه، وخالفني عنه: إذا ولى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجلُ صادراً عن الماء، فتسأله عن صاحبه، فيقول: خالفني إلى الماء، يُريد: أنه قد ذهب إليه وإرداً، وأنا ذاهبٌ عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْتُمْ عَنْهُ﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها، لاستبدها دونكم.

المداومة على الصلاة من أفعال المجانين والموسوسين لا يطابق حالك وما شهزت به، لأنك كنت متواصفاً^(١) بالحلم والرشد في قومك، والله أعلم.

قوله: (كما أُثبت في قصة نوح ولوط عليهما السلام): والصحيح: قصة نوح وصالح؛ أما في قصة نوح: فهو قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ غَدَاةٍ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مَكُوهَا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهَا كِرْهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، الجواب: ﴿أَنْزَلْنَا مَكُوهَا﴾، أي: أنكرهم على قبولها وأنتم لا تختارونها، وأما في قصة صالح: فهو ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ غَدَاةٍ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مَكُوهَا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهَا كِرْهُونَ﴾ [هود: ٦٣]، الجواب: ﴿فَعَمَّ يَنْصُرُنِي﴾، أي: أخبروني إن تركت البيئة وتابعتكم، فمَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وليس في قصة لوط شيء من هذا.

ولما كانت الآياتان قريبتَي العهد؛ لكونهما في هذه السورة، صلحتنا أن تكونا قريبتين للحذف، والمقدَّر هاهنا هو قوله: «أيصحُّ لي أن لا أمركم»، وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوفات.

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «متواصفاً»، والمثبت من (ط).

﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ ما أريدُ إلا أن أُصْلِحَكُم بِمَوْعِظَتِي وَنَصِيحَتِي، وأمرِي بالمعروف، ونهبي عن المنكر، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ظَرَفٌ، أي: مُدَّةٌ اسْتَطَاعَتِي لِلإِصْلَاحِ، وما دُمْتُ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ، لا آلو فيه جُهْدًا، أو: بَدَلٌ مِنَ ﴿الْإِصْلَاحِ﴾، أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوزُ أن يكونَ على تقدير حذفِ المُضَافِ على قولك: إلا الإِصْلَاحِ إِصْلَاحٌ ما اسْتَطَعْتُ، أو مفعولٌ له، كقوله:

قوله: (أو مفعولٌ له): أي: مفعولٌ به للإِصْلَاحِ، ففيه إيهام، فالحاصل: أن ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾: إما ظَرَفٌ زمان؛ أي: مُدَّةٌ استطاعتي، أو بَدَلٌ من الإِصْلَاحِ؛ أي: المقدار الذي استطعته منه، أو على حَذْفِ المُضَافِ؛ أي: إلا الإِصْلَاحِ إِصْلَاحٌ ما اسْتَطَعْتُ^(١)، أو مفعولاً به، فعلى هذا قوله: «ويجوزُ أن يكونَ» عطفٌ من حيثُ المعنى على قوله: «المقدار»، وكلاهما مبنيان على البَدَلِيَّةِ؛ إما بَدَلُ البعضِ مِنَ الكُلِّ، وإما بَدَلُ الاشتمالِ.

الانتصاف: «الظاهرُ أنها ظَرَفٌ في قوله تعالى: ﴿فَأَنقُذْ اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، كذا هاهنا، وجعله مَعْمُولًا لِلْمَصْدَرِ المُعْرَفِ باللام بعيدٌ عن فَصَاحَةِ القُرْآنِ، وقالوا: لم يُوجَدْ منه في التنزيلِ إلا عَمَلُهُ في المجرورِ في قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ [النساء: ١٤٨]»^(٢).

قال القاضي: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إشارةٌ إلى ما أتاه اللهُ مِنَ العِلْمِ وَالثَّبُوتِ، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارةٌ إلى ما أتاه اللهُ مِنَ المَالِ الحلالِ، وجوابُ الشَّرْطِ محذوفٌ، أي: فهل يَسَعُ لي مَعَ هذا الإِنعامِ الجَامِعِ للسَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ وَالْجِسْمَانِيَّةِ أَنْ أُخَوِّنَ فِي وَحْيِهِ، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي: مِنْ عِنْدِهِ وَبِعَاقِبَتِهِ بلا كَدٍّ مِنِّي.

وقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَنكُمُ عَنْهُ﴾ أي: ما أريدُ أن آتِيَ ما أَنهَأَكُمُ عَنْهُ لَأَسْتَبِدَّ بِهِ، فلو كانَ صواباً^(٣) لَأَثَرْتُهُ، ولم أُعْرِضْ عَنْهُ، فَضْلاً أَنْ أَنهَأَكُمُ عَنْهُ، وقوله:

(١) من قوله: «إما ظرف زمان» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف)، وأثبتته من (ط).

(٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٨٨) بحاشية «الكشاف».

(٣) كذا في (ط) و(ح)، وفي (ف): «صلاً»، والمعنى واحد.

ضعيفُ التَّكَايَةِ أَعْدَاءُهُ

أي: ما أريدُ إلا أن أصلح ما استطعتُ إصلاحه من فاسدكم.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وما كوني مُوفِّقاً لإصابة الحقِّ فيما آتي وأذر، ووقوعه مُوافقاً لرضا الله، إلا بمَعُونَتِهِ وتأييده، والمعنى: أنه استوفَّق ربَّه في إمضاء الأمر على سننِهِ،

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ أي: ما أريدُ إلا أن أصلحكم بأمرِي بالمعروفِ ونهيي عن المنكرِ ما دُمْتُ أستطيعُ الإصلاح.

ولهذه الأجوبة على هذا السَّئِقِ شأن، وهو التنبية على أن العاقل^(١) يجب أن يراعي في كلِّ ما يأتيه ويذرُّه أحدَ حقوقِ ثلاثة: أهمُّها وأعلاها: حقُّ الله، وثانيها: حقُّ النفس، وثالثها: حقُّ الناس، وكلُّ ذلك يقتضي أن أمرُكم بما أمرتكم به، وأنهاكم عما نهيتكم عنه^(٢)، هذا كلامٌ حسن.

قوله: (ضعيفُ التَّكَايَةِ أَعْدَاءُهُ): تمامه:

يخَالُ الْفِرَارَ يُرَاحِي الْأَجَلَ^(٣)

التَّكَايَةُ فِي الْأَعْدَاءِ: الْأَثْرُ فِيهِمْ بِالْجِرَاحَةِ وَالْهَزِيمَةِ، نَصَبَ «الْأَعْدَاءِ» بِالتَّكَايَةِ، وَهُوَ مَصْدَرٌ مُعْرَفٌ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّهُ يَبْعُدُ حِينَئِذٍ عَنِ مُشَابَهَةِ الْفِعْلِ، يَقُولُ: لَا يُنْكِي الْعَدُوَّ خَوْفًا عَلَى^(٤) نَفْسِهِ، وَيَفِرُّ مِنَ الْمُحَارَبَةِ، وَيَظُنُّ أَنَّ الْفِرَارَ يُؤَخِّرُ أَجْلَهُ.

قوله: (استوفَّق ربَّه): أي: طلبَ التوفيقَ منه تعالى.

(١) في (ح): «التنبية على العاقل يجب أن يراعي»، وفي (ف): «تنبيه العاقل أن يراعي»، وفيها خلل ظاهر، والمثبت من (ط)، وهو المُوافق لِمَا في «أنوار التنزيل» لليضاوي.

(٢) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٥٣-٢٥٥).

(٣) البيت - غير منسوب - في «الكتاب» لسيبويه (١: ١٩٢)، و«المفصل» للزخسري ص ٢٢٤، و«شرح الألفية» لابن عقيل (٢: ٩٥).

(٤) في الأصول الخطية: «من».

وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه. وفي ضمنه تهديد للكفار، وحسن لأطماعهم فيه.
 ﴿وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمُكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [٨٩-٩٠]

«جرم»: مثل: كسب؛ في تعديه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين، تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه، قال:

جَرَمَتْ فِزَارَةٌ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا

قوله: (وفي ضمنه تهديد للكفار): يعني: أدمج^(١) في قوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ معنى التهديد، فإن ظاهره مسوق بأنه استوفى ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار، وفي ضمنه إشارة إلى تهديد الكفار، وهذا المعنى إنما يستقيم ظاهراً إذا حمل قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ على أنك المتواصف بالحلم والرشد، يعني: كنت فينا مرجواً قبل هذا، فانتَه عما أنت عليه الآن، وصدق رجاءنا فيك، فأجابهم بما كان فيه حسن لأطماعهم، وموجب لوخشتهم وعداوتهم، وذبله بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يعني: اقطعوا الطمع عني، فإني لا أرجع عن النصيحة وما يوجب الإصلاح، فافعلوا ما قدرتم أن تفعلوه، فإن لي من استوفقه وأتوكل عليه، فهو كافكم عني ومهلككم بسبب إيذائكم إياي، كما قال نوح: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١].

قوله: (جرمت فيزارة بعدها أن يغضبوا): أوله:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عَيْيَةَ طَعْنَةً^(٢)

(١) انظر معنى «الإدماج» فيما تقدم تعليقا عند تفسير الآية ١١٥ من سورة التوبة (٧: ٣٨١).
 (٢) البيهق لأبي أسماء ابن الصريية أو لعطية بن عفيف، كما في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المنذر (١: ٣٥٨). وهو من شواهد «الكتاب» لسيبويه (٣: ١٣٨)، و«المقتضب» للمبرد (٢: ٣٥٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ أي: لا يَكْسِبَنَّكُمْ شِقَاقِي إصَابَةَ الْعَذَابِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ بضمِّ الياءِ، مِنْ: أَجْرَمْتُهُ ذَنْبًا: إِذَا جَعَلْتَهُ جَارِمًا لَهُ، أَي: كَاسِبًا، وَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ: «جَرَمَ» الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، كَمَا نُقِلَ: أَكْسَبَهُ الْمَالُ، مِنْ: كَسَبَ الْمَالُ، وَكَمَا لَا فَرْقَ بَيْنَ «كَسَبْتُهُ مَالًا» وَ«أَكْسَبْتُهُ إِيَّاهُ»، فَكَذَلِكَ لَا فَرْقَ بَيْنَ «جَرَمْتُهُ ذَنْبًا» وَ«أَجْرَمْتُهُ إِيَّاهُ»، وَالْقِرَاءَتَانِ مُسْتَوِيَتَانِ فِي الْمَعْنَى لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا أَنَّ الْمَشْهُورَةَ أَفْصَحُ لَفْظًا، كَمَا أَنَّ «كَسَبْتُهُ مَالًا» أَفْصَحُ مِنْ «أَكْسَبْتُهُ»، وَالْمُرَادُ بِالْفَصَاحَةِ: أَنَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْفَصَّاحِ مِنَ الْعَرَبِ الْمَوْثُوقِ بِعَرِيَّتِهِمْ أَدْوَرُ، وَهَمَّ لَهَا أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا.

وقرأ أبو حَيوةٍ، وَرُوِيَ عَنِ نَافِعٍ: «مِثْلَ مَا أَصَابَ»، بِالْفَتْحِ لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، كَقَوْلِهِ:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرُ أَنْ نَطَقْتَ

والمعنى ظاهر.

قوله: (أَي: لَا يَكْسِبَنَّكُمْ شِقَاقِي إصَابَةَ الْعَذَابِ): قَالَ الزَّجَّاجُ: «لَا يَكْسِبَنَّكُمْ عَدَاوَتَكُمْ إِيَّاي أَنْ يُصِيبَكُمْ عَذَابُ الْأَجَلَةِ»^(١).

قوله: (لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ): لِأَنَّ «مِثْلَ» وَ«غَيْرَ» مَعَ «مَا» وَ«أَنْ» - مُحْفَفَةٌ وَمُشَدَّدَةٌ - يَجُوزُ بِنَاوَأُهَا عَلَى الْفَتْحِ وَإِعْرَابُهَا.

قوله: (لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرُ أَنْ نَطَقْتَ): تَمَامُهُ:

حَامَةٌ فِي عُصُونِ ذَاتِ أَوْقَالٍ^(٢)

(١) «معاني القرآن وإعراجه» للزجاج (٣: ٧٤).

(٢) البيهقي من شواهد «الكتاب» لسيبويه (٢: ٣٢٩)، و«المفصل» للزنجشيري ص ١٢٥، و«مغني اللبيب» لابن هشام (١: ١٥٩) و(٢: ٥١٧) رقم (٢٦١)، وانظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، مادة (غير)، «لسان العرب» لابن منظور، مادة (نطق).

﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُؤُ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم أهلَكُوا في عَهْدٍ قَرِيبٍ مِنْ عَهْدِكُمْ، فهم أَقْرَبُ الْهَالِكِينَ مِنْكُمْ، أو: لَا يَبْعُدُونَ مِنْكُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْمَسَاوِي وَمَا يُسْتَحَقُّ بِهِ الْهَلَاكُ.

فإن قلت: ما لـ «بعيد» لم يرد على ما يقتضيه «قوم» من تحمله على لفظه أو معناه؟ قلت: إما أن يراد: وما إهلاكهم بعيد، أو ما هم بشيء بعيد، أو بزمان أو مكان بعيد. ويجوز أن يسوّى في «قريب» و«بعيد»، و«قليل» و«كثير»، بين المذكر والمؤنث؛ لورودها على زنة المصادر التي هي الصَّهْلُ والنَّهْيُ ونحوهما.

﴿رَجِيمٌ وَدُوْدٌ﴾ عَظِيمُ الرَّحْمَةِ لِلتَّائِبِينَ، فَاعِلٌ بِهِمْ مَا يَفْعَلُ الْبَلِغُ الْمَوْدَّةَ بِمَنْ يَوَدُّهُ، مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْإِجْمَالِ.

الضميرُ في «منها»: للراحلة، أي: لَا يَمْنَعُهَا مِنَ الشَّرْبِ إِلَّا أَنهَا سَمِعَتْ صَوْتَ حَمَامَةٍ، فَفَرَّتْ، يُرِيدُ أَنَّهَا حَدِيدَةُ الْحِصْنِ فِيهَا فَزَعٌ وَذُعْرٌ لِحِدَّةِ نَفْسِهَا، وَذَلِكَ مَحْمُودٌ فِيهَا، «الأوقال»: جمعٌ وقل، وهي كالحجارة، أي: غُصُونٌ نَابِتَةٌ بِأَرْضِ ذَاتِ أَحْجَارٍ، وَقِيلَ: الْوَقْلُ: شَجَرٌ الْمُقْلُ.

قوله: (ما لـ «بعيد» لم يرد على ما يقتضيه «قوم» من تحمله على لفظه أو معناه): لأن لفظ «قوم» يقتضي «ببعيدة»^(١)، لأن «القوم» مؤنث، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوْحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ومعناه يقتضي «ببعداء»^(٢)، لأنه اسمٌ جمع، فعَلِمَ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي «القوم» أَنْ يُؤنث، وَإِذَا حُمِلَ عَلَى التَّذْكِيرِ يُؤوَّلُ، وَبِخِلَافِهِ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ، وَهُوَ أَنَّ «القوم» يُذَكَّرُ وَيؤنث، لِأَنَّ أَسْمَاءَ الْجَمْعِ الَّتِي لَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا إِذَا كَانَتْ لِلأَدْمِيَّةِ تُذَكَّرُ وَتؤنث، مِثْلَ: رَهْطٍ وَنَفَرٍ وَقَوْمٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦].

قوله: (البليغ المودة): الوُدُّ: حَبَّةُ الشَّيْءِ وَتَمَنِّي كَوْنِهِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ مِنَ الْمَعْنَيْنِ، عَلَى

(١) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «تبعيده»، والمثبت من (ط).

(٢) تحرف في (ح) إلى: «تبعداً»، والمثبت من (ط) و(ف).

[﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ * قَالَ يَقَوْمِ أَرَهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيحًا * كَأَن لَّمْ يَغْنُرْنَا فِيهَا إِلَّا الْبُعْدَاءُ الْمَدِينُ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودٌ﴾ [٩١-٩٥]

﴿مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفقهم، ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ لأنهم كانوا لا يُلقون إليه أذهانهم؛ رغبة عنه وكرهية له، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أو: كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه، وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول، أو: جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه، وهو خطيب الأنبياء؟! وقيل: كان الشغ.

أن التمني يتضمن معنى الود، لأن التمني هو تَسَهِّي (١) حصول ما تودّه، فمن المودة التي تقتضي المحبة المجردة قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّؤُوفُ﴾ [البروج: ١٤]، ومن المودة التي تقتضي مجرد التمني قوله تعالى: ﴿زَيْمًا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

قوله: (و كيف لا ينفعهم كلامه، وهو خطيب الأنبياء): استفهام على سبيل الإنكار.

(١) تحرف في (ح) إلى: «يشتهي»، وفي (ف) إلى: «تسهي»، والمثبت من (ط)، وكذا هو في «مفردات القرآن» للراغب، والمؤلف رحمه الله تعالى يكثر من النقل عنه تصریحاً، وعادته في ذلك أن يُورد اسمه في أول الفقرة، فيقول: «الراغب...»، ولم ترد في الأصول الخطية، والله أعلم.

﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قُوَّةَ لكَ ولا عِزًّا فِيمَا بَيْنَنَا، فلا تَقْدِرُ عَلَى الامْتِنَاعِ مِنَّا إِنْ أَرَدْنَا بِكَ مَكْرُوهًا، وَعَنِ الْحَسَنِ: ﴿ضَعِيفًا﴾ مَهِينًا، وَقِيلَ: ﴿ضَعِيفًا﴾ أَعْمَى، وَحَمِيرٌ تُسَمَّى الْمَكْفُوفُ: ضَعِيفًا، كَمَا يُسَمَّى: ضَرِيرًا، وَلَيْسَ بِسَدِيدٍ؛ لِأَنَّ ﴿فِينَا﴾ يَأْبَاهُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: إِنَّا لَنُرَاكَ فِينَا أَعْمَى، لَمْ يَكُنْ كَلَامًا، لِأَنَّ الْأَعْمَى أَعْمَى فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ، وَلِذَلِكَ قَلَّلُوا قَوْمَهُ حَيْثُ جَعَلُوهُمْ «رَهْطًا»، وَالرَّهْطُ: مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ، وَقِيلَ: إِلَى السَّبْعَةِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: وَلَوْلَاهُمْ؛ احْتِرَامًا لَهُمْ وَاعْتِدَادًا بِهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ، لَا خَوْفًا مِنْ شُوكَتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ، ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لَقَتَلْنَاكَ شَرًّا قِتْلَةً، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أَي: لَا تَعِزُّ عَلَيْنَا وَلَا تَكْرُمُ، حَتَّى نُكْرِمَكَ مِنَ الْقَتْلِ، وَتَرْفَعَكَ عَنِ الرَّجْمِ، وَإِنَّمَا يَعِزُّ عَلَيْنَا رَهْطُكَ، لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِنَا، لَمْ يَخْتَارُوا عَلَيْنَا، وَلَمْ يَتَّبِعُوا دُونَنَا.

وقد دَلَّ إيلاءُ ضميره حرفَ النفي على أنَّ الكلامَ واقعٌ في الفاعل، لا في الفعل،

قوله: (ولذلك قَلَّلُوا): أي: لِأَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾: لا قُوَّةَ لَكَ ولا عِزًّا فِيمَا بَيْنَنَا^(١)، فلا تَقْدِرُ عَلَى الامْتِنَاعِ مِنَّا إِنْ أَرَدْنَا بِكَ مَكْرُوهًا، قَلَّلُوا قَوْمَهُ حَيْثُ جَعَلُوهُمْ رَهْطًا.

قوله: (وقد دَلَّ إيلاءُ ضميره حرفَ النفي على أنَّ الكلامَ [واقعٌ] في الفاعل، لا في الفعل): يعني: فِي كَوْنِ التَّرَدُّدِ فِي الْفَاعِلِ، لا فِي الْفِعْلِ، وَكَذَا عَنِ صَاحِبِ «الْمِفْتَاحِ»^(٢)، وَذَلِكَ بِأَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ وَجُودُ فِعْلٍ وَعَالِمٍ بِهِ، لَكِنَّهُ مُحْطَى فِي فَاعِلِهِ، أَوْ فِي تَفْصِيلِ فَاعِلِهِ، وَأَنْتَ تَقْصِدُ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَى الصَّوَابِ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الْكَلَامِ: «مَا عَزَّزْتَ أَنْتَ»، فَقَدَّمَ «أَنْتَ» لِلَاخْتِصَاصِ.

(١) وهو تفسيرُ الزمخشري لقوله: ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾، وقال فيه ابنُ المنبِّرِ في «الانتصاف» (٢: ٢٨٩) - بحاشية «الكشاف»: «وهذا من محاسنِ نكتهِ الدالة على أنه كان مَلِيًّا بِالْحَذَاقَةِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ»، رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى.

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢٣٢.

كأنه قيل: وما أنت علينا بعزير، بل رهطك هم الأعزّة علينا. ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾،

وإنما التزمنا التقديم لأن «ما» لنفي الحال، وللحال اختصاص بالزمان، والقياس أن يكون مدخولها فعلاً أو شبهه، وحيث وجد الاسم لا سيما الضمير دل على أن التقديم للاهتمام والاختصاص، قال صاحب «الإيضاح»^(١): «في البيان: «في كلاهما نظر، لأننا لا نسلم أن إيلاء الضمير حرف النفي إذا لم يكن الخبر فعلياً يُفيد الحصر»^(٢)، يُقال له على ما بيننا: إن قياس «ما» أن يكون مدخولها فعلاً أو شبهه^(٣)، فحين وجد بعده الاسم دل على التقديم المفيد للتخصيص، سواء كان الخبر فعلاً أو شبهه، ولأن الدوق شاهد صدق بالفرق بين قولنا: «ما عززت علينا»، وبين: «ما أنت علينا بعزير».

على أن القائل^(٤) صرح في كتابه: أن الشيخ عبد القاهر ذكر في كلامه ما يفهم منه: أن ما يلي حرف النفي يُفيد التخصيص قطعاً، مضمراً كان أو مظهرأ، مُعرفأ أو مُنكرأ، من غير شرط، فكيف يُخالفه ويستترط كونه فعلياً؟!

قوله: (ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾): وقال صاحب «الإيضاح» أيضاً: «هذا الاستدلال ليس بشيء، لجواز أن يفهم عزتهم من قوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾، ونفي العزّة عنه من قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيرٍ﴾»^(٥).

فيقال: استدلالنا بإفادة التخصيص على مطابقة الجواب لا عكسه، يعني: ما نقول إنه يُفيد الاختصاص لمطابقة الجواب، بل نقول: الجواب إنما طابقه لأنه يُفيد الاختصاص،

(١) يعني: العلامة أبا المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (٦٦٦-٧٣٩)، وهو من أقران المؤلف، رحمة الله تعالى عليها.

(٢) «الإيضاح في علوم البلاغة» للخطيب القزويني (٧٠: ٢).

(٣) من قوله: «وحيث وجد الاسم» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٤) يعني: الخطيب القزويني.

(٥) «الإيضاح في علوم البلاغة» للخطيب القزويني (٦٦: ٢).

ولو قيل: «وما عَزَزْتَ علينا»، لم يَصِحَّ هذا الجواب.

فإن قلت: فالكلام واقع فيه وفي رَهْطِهِ، وأنهم الأَعِزَّةُ عليهم دونه، فكيف صحَّ قوله: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؟ قلت: تهاوئهم به - وهو نبيُّ الله - تهاونُ بالله، فحين عَزَّ عليهم رَهْطُهُ دونه، كان رَهْطُهُ أَعَزَّ عليهم مِنَ اللَّهِ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفادته الاختصاص بسبب التقديم والإيلاء.

بل الاعتراض^(١) ليس بشيء، لأنَّ قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ تقريرٌ لقوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَنَا﴾ على الطرد والعكس^(٢)؛ عناداً منهم، فلا بُدَّ من اعتبار دلالة المنطوق والمفهوم في كُلِّ مِنَ اللَّفْظَيْنِ، واستقلاله فيهما.

قوله: (ولو قيل: «وما عَزَزْتَ علينا»، لم يَصِحَّ الجواب): لأنَّ الكلام حينئذٍ في عِزَّتِهِ فقط، فالجواب المطابق: لِمَ لم أكن عزيزاً بما شَرَّفَنِي اللهُ برسالته، أهديكُم إلى سبيل الرِّشَادِ، وأُخَلِّصُكُمْ مِنْ وَرْطَةِ الضَّلَالَاتِ، فإذا لا مدخل للقوم فيه، ولا وَجْهٌ لقوله: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، بخلاف التقديم.

قوله: (فالکلام واقع فيه وفي رَهْطِهِ): الفاء فيه دلٌّ على تفرُّع السؤال على الأول، وفي «فكيف» على الإنكار، يعني: أن القوم نفوا العِزَّةَ عنه رأساً، وأثبتوها لِرَهْطِهِ، فلم يذكر «الله» عَزَّ وَجَلَّ، وأتى بـ«أفعل» الذي يقتضي الشُّرْكَةَ في العِزَّةِ المنفية؟ وأجاب بما يُنبئ عن أن له نسبةً إلى الله بكونه نبيّه ومبعوثاً من عنده، وله أيضاً قرابةٌ وَرَحْمٌ بالقوم، فتهاوئهم لأجل أنه نبيُّ الله، ومُرَاعَاتُهُ لأجل القوم: يقتضي أن يكون الرَّهْطُ أَعَزَّ مِنَ اللَّهِ، تقريرٌ آخر.

وكان من حَقِّ الظاهر أن يُجيب عليه السَّلام عنهم: «أَرْهَطِيْ عَزِيزٌ دُونِي»، لكن أراد: إنكم

(١) من هنا إلى آخر الفقرة سقط من (ح).

(٢) انظر معنى «الطرد والعكس» فيما تقدّم تعليقاً عند تفسير الآية ٢٥ من سورة الأنفال (٧: ٧٠).

﴿وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كَتَمِ ظَهْرِي﴾ وَنَسِيْتُمُوهُ وَجَعَلْتُمُوهُ كَالشَّيْءِ الْمنبوذِ وَرَاءَ الظَّهْرِ لَا يُعْبَأُ بِهِ، وَ«الظَّهْرِي»: مَنْسُوبٌ إِلَى الظَّهْرِ، وَالكَسْرُ مِنْ تَغْيِيرَاتِ النَّسَبِ، وَنظِيرُهُ قَوْمُهُ فِي النَّسْبَةِ إِلَى «أَمْسٍ»: «إِمْسِي». ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ مَحْطٌ﴾ قَدْ أَحَاطَ بِأَعْمَالِكُمْ عَلِيمًا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا.

﴿عَلَى مَكَانِكُمْ﴾ لَا تَخْلُو الْمَكَانَةَ مِنْ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الْمَكَانِ، يُقَالُ: مَكَانٌ وَمَكَانَةٌ، وَمَقَامٌ وَمَقَامَةٌ، أَوْ تَكُونَ مَصْدَرًا مِنْ: مَكَّنَ مَكَانَةً فَهُوَ مَكِينٌ، وَالْمَعْنَى: اَعْمَلُوا قَارِئِينَ عَلَى جِهَتِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ الشَّرْكِ وَالشَّنَانِ لِي،

رَاعَيْتُمْ نِسْبَةَ قَرَابَتِي إِلَى الرَّهْطِ، وَصَيَّعْتُمْ نِسْبَتِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنَّبُوءَةِ، فَكَأَنَّكُمْ رَزَعْتُمْ أَنَّ الْقَوْمَ أَعَزُّ مِنْ اللَّهِ، فَكَمَا أَنَّ الْقَوْمَ بِالْغَوَا فِي الْمُكَافَحَةِ، حَيْثُ كَرَّرُوا نَفْيَ الْعِزَّةِ عَنْهُ، وَإثْبَاتَهَا لَهُمْ، بِالْغِ نَبِيِّ اللَّهِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَأَظْهَرَ مَدْحَ نَفْسِهِ وَمَكَانَتِهِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، أَي: يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ، وَلَسَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْزِلَةِ وَمَكَانَةِ جَعَلَ أَذَاهُ أَذَاهُ.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «قَدْ أَحَاطَ بِأَعْمَالِكُمْ عَلِيمًا»، أَي: يُجَازِيكُمْ لِأَجْلِ اسْتِهَانَةِ نَبِيِّهِ الْمُسْتَلْزِمِ لِاسْتِهَانَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كَتَمِ ظَهْرِي﴾ اعْتِرَاضٌ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، قَالَ الْمُصَنِّفُ (١): «لَوْ جَعَلْتَهَا مَعْطُوفَةً عَلَى مَا قَبْلَهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعْنَى»، وَفَائِدَتُهُ (٢): تَأْكِيدُ التَّهَانُوتِ بِاللَّهِ، وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ عَادَتْهُمْ أَنْ لَا يَعْبُرُوا بِاللَّهِ، وَيَجْعَلُوهُ كَالشَّيْءِ الْمنبوذِ، وَهَذَا مِنْ ذَاكَ الْقَبِيلِ.

قوله: (اعملوا قارئين على جهتكم): هذا على أن تكون «المكانة» من المكان، فيجوز أن يكون تمثيلاً وأن يكون كناية، كقولهم: فلان يستحرك من مكانه، أي: مما نشأ فيه من سجيته

(١) في تفسير الآية المذكورة من سورة النساء (٥: ١٧٠).

(٢) أي: وفائدة هذا الاعتراض، يعني قوله: ﴿وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كَتَمِ ظَهْرِي﴾.

أو: اعملوا مُتَمَكِّنِينَ مِنْ عداوتِي مُطِيقِينَ لها، ﴿إِنِّي عَجِلٌ﴾ على حسب ما يُؤْتِنِي اللهُ مِنَ النُّصْرَةِ والتأييدِ وِإِمْكِنِي، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ يجوزُ أَنْ تَكُونَ «مَنْ» اسْتِفْهَامِيَّةً مُعْلَقَةً لِفِعْلِ الْعِلْمِ عَنْ عَمَلِهِ فِيهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ أَيْنَا يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَأَيْنَا هُوَ كاذِبٌ، وَأَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً قَدْ عَمِلَ فِيهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ الشَّقِيَّ الَّذِي يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَالَّذِي هُوَ كاذِبٌ.

فإن قلت: أيُّ فَرْقٍ بَيْنَ إِدْخَالِ الْفَاءِ وَنَزْعِهَا فِي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: إِدْخَالُ الْفَاءِ وَصَلُّ ظَاهِرٌ بِحَرْفِ مَوْضُوعٍ لِلْوَصْلِ، وَنَزْعُهَا وَصَلُّ خَفِيٌّ تَقْدِيرِيٌّ بِالِاسْتِثْنَاءِ الَّذِي هُوَ جَوَابٌ لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: فَمَاذَا يَكُونُ إِنْ عَمِلْنَا نَحْنُ عَلَى مَكَاتِبِنَا، وَعَمِلْتَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ. فَوَصَلُ تَارَةً بِالْفَاءِ، وَتَارَةً بِالِاسْتِثْنَاءِ؛ لِتَلَفُّظِنِ فِي الْبَلَاغَةِ، كَمَا هُوَ عَادَةٌ بَلْغَاءِ الْعَرَبِ، وَأَقْوَى الْوَصْلَيْنِ وَأَبْلَغُهُمَا الْاسْتِثْنَاءُ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ تَتَكَاتَرُ حَاسِنُهُ.

وهجِّيراه^(١)، قَالَ فِي آخِرِ الْأَنْعَامِ^(٢): «اعْمَلُوا عَلَى جِهَتِكُمْ وَحَالِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا، يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَمَرَ أَنْ يَبْتَعَ عَلَى حَالِهِ: عَلَى مَكَاتِبِكَ يَا فُلَانًا».

قوله: (الاستِثْنَاءُ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ، تَتَكَاتَرُ حَاسِنُهُ): قَالَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ»: «الِاسْتِثْنَاءُ لَا يُصَارُ إِلَيْهِ إِلَّا لِجِهَاتٍ لَطِيفَةٍ؛ إِمَّا لِتَنْبِيهِ السَّامِعِ عَلَى مَوْقِعِهِ، أَوْ لِإِغْنَائِهِ أَنْ يَسْأَلَ، أَوْ لِثَلَا يُسَمِعَ مِنْهُ شَيْءٌ، أَوْ لِثَلَا يَقَطَعَ كَلَامَكَ بِكَلَامِهِ، أَوْ لِلْقَصْدِ إِلَى تَكْثِيرِ الْمَعْنَى بِتَقْلِيلِ اللَّفْظِ، وَهُوَ تَقْدِيرُ السُّؤَالِ وَتَرْكُ الْعَاطِفِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ»^(٣).

(١) أي: دأبه وشأنه وعادته، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (هجر).

(٢) في تفسير الآية ١٣٥ منها (٦: ٢٥٣).

(٣) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢٥٣.

﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: مُتَنظِّرٌ، والرقيب: بمعنى: الراقب؛ من: رَقَبَهُ، كالصَّريب والصَّريم: بمعنى: الضارب والصارم، أو بمعنى: المُراقِب، كالعَشِير والنَّدِيم، أو بمعنى: المُرتَقِب، كالفقير والرَّفيع: بمعنى: المُفْتَقِر والمُرتَفِع.

فإن قلت: قد ذكرَ عَمَلَهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ، وَعَمَلَهُ عَلَى مَكَانَتِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ ذِكْرَ عَاقِبَةِ الْعَامِلِينَ مِنْهُ وَمِنْهُمْ، فَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَقُولَ: مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ صَادِقٌ، حَتَّى يَنْصَرِفَ «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» إِلَى الْجَاهِلِينَ، وَ«مَنْ هُوَ صَادِقٌ» إِلَى النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ؟ قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونونه كاذباً قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾، يعني: في زعمكم ودعواكم، تجهيلاً لهم.

قوله: (وما أقول لكم): عطفٌ تفسيريٌّ على قوله: «العاقبة»، وما قال^(١) هو قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

قوله: (قد ذكرَ عَمَلَهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ، وَعَمَلَهُ عَلَى مَكَانَتِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ ذِكْرَ عَاقِبَةِ الْعَامِلِينَ مِنْهُ وَمِنْهُمْ): يعني: قوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ﴾ اشتمل على عمل الصادق والكاذب؛ منه ومنهم، فلم يذكر في قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ الآية، إلا الكاذب منهم، والآية بيانٌ لذكر عاقبة العاملين من الفريقين، فما وجه ذلك؟

وأجاب: أن المراد من قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾: الصادق، لكن جرى «الكاذب» على مرون^(٢) ألسنتهم تجهيلاً لهم. قال القاضي: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ عطفٌ على ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾،

(١) أي: والذي قاله عليه السلام.

(٢) في (ف): «مرون»، والمثبت من (ط) و(ح)، ولعله من قولهم: «مرن على الشيء يمرن مرونًا ومرانًا:

تعوده واستمر عليه»، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (مرن).

لا لأنه قَسِيمٌ له، بل لأنهم لَمَّا أوعِدُوهُ وكَذَّبُوهُ قال: سوف تَعْلَمُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِ والكاذبِ مِنِّي ومنكم»^(١).

الانْتِصَافُ: «الظَاهِرُ أَنَّ الْكَلَامَيْنِ جَمِيعاً لِلْكَفَّارِ، فَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فِيهِ ذِكْرُ جَزَائِهِمْ، ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ ذِكْرُ جُرْمِهِمُ الَّذِي هُوَ الْكَذِبُ، وَهُوَ مِنْ عَطْفِ الصَّفَةِ، وَالْمُوصُوفُ وَاحِدٌ، كَقَوْلِكَ: وَسَتَعْلَمُ مَنْ يُهَانُ وَمَنْ يُعَاقَبُ، فَيَكُونُ ذِكْرُ كَذِبِهِمْ تَعْرِيفاً بِصِدْقِهِ، وَهُوَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَوْقَعُ مِنَ التَّصْرِيحِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ عَاقِبَةَ شُعَيْبٍ اسْتِغْنَاءً عَنْهَا بِذِكْرِ عَاقِبَتِهِمْ، وَفِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ [هود: ٣٩]، وَلَمْ يَذْكُرِ الْقِسْمَ الْآخَرَ، وَفِي الْأَنْعَامِ: ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَابُهُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، فَذَكَرَ عَاقِبَةَ الْخَيْرِ وَحَدَّهَا، لِأَنَّ «العاقبة» إِذَا أُطْلِقَتْ فَهِيَ لِلْخَيْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعِقَابُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، والقصاص: ٨٣]^(٢)، وَلِأَنَّ اللَّامَ فِي ﴿لَهُ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَيْهِ، بَلْ لَهُ.

وَقُلْتُ: لَيْسَ وَزَانُ هَذِهِ الْآيَةِ وَزَانُ قَوْلِهِ: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٣٩]، لِأَنَّ السَّابِقَ - وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ﴾ - ، وَاللَّاحِقَ - ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ - مُشْتَمِلَانِ عَلَىٰ ذِكْرِ الْمَحِقِّ وَالْمُبْطِلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: اعْمَلُوا عَلَىٰ عِدَاوَتِي، إِنِّي عَامِلٌ فِي عِدَاوَتِكُمْ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ عَمَلِي وَعَاقِبَةَ عَمَلِكُمْ، وَانْتَظِرُوا أَنْتُمْ الْعَاقِبَةَ، إِنِّي مُنْتَظِرٌ مَعَكُمْ. وَمَنْ تَمَّ كَرَّرَ لَفْظَةَ «مَنْ»، وَلَوْ أُرِيدَ مَا قَالَاهُ لَقِيلَ: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ كَذَبَ وَجُوزِي بِهِ، بِخِلَافِهِ هُنَاكَ^(٣)، فَإِنَّهُ عَطَفَ الصَّلَةَ عَلَى الصَّلَةِ.

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٥٨).

(٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٩٠) بحاشية «الكشاف».

(٣) أي: في الآية ٣٩ من سورة هود.

فإن قلت: ما بال ساقتي قصبة عادٍ وقصبة مدينَ جاءتا بالواو، والساقتانِ الوُسْطَيَانِ بالفاء؟ قلت: قد وَقَعَتِ الوُسْطَيَانِ بعدَ ذِكْرِ الوَعْدِ، وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ﴿ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فجِيءَ بالفاءِ الذي هو للتسبيح، كما تقول: وَعَدْتُهُ فلما جاء الميعادُ كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ، وأما الأخرَيَانِ فلم تَقَعَا بتلك المثابة، وإنما وَقَعَتَا مُبْتَدَأَتَيْنِ، فكانَ حَقُّهُمَا أَنْ تُعْطَفَا بحرفِ الجمعِ على ما قبلَهُمَا، كما تُعْطَفُ قِصَّةٌ على قِصَّةٍ.

«الجائم»: اللّازمُ لمكانِهِ لا يَريمُ كاللايد، يعني: أن جبريلَ صاحَ بهم صَيْحَةً، فَزَهَقَ رُوحُ كُلِّ واحدٍ منهم، بحيثُ هو قَعَصًا.

﴿كَأَن لَّمْ يَرْتَعِنُوا﴾ كأن لم يُقِيمُوا في ديارهم أحياءً مُتَصَرِّفِينَ مُتَرَدِّدِينَ. «البُعدُ»: بمعنى: البعد، وهو الهلاك، كالرُّشد؛ بمعنى: الرُّشد، ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعَدَتْ﴾؟ وقرأ السُّلَمِيُّ: «بَعَدَتْ» بضمِّ العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيضُ القُربِ، إلا أنهم أرادوا التَّفَصِيلَةَ بَيْنَ البُعدِ مِنْ جِهَةِ الهلاكِ وَبَيْنَ غيرِهِ، فَغَيَّرُوا البناءَ،

قوله: (ساقتي قصبة عادٍ وقصبة مدينَ): أما سِياقَةُ قِصَّةِ عادٍ فهو: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، وأما سِياقَةُ قِصَّةِ مَدِينِ فهو: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]، والوسيطان: الأُولَى: قِصَّةُ نُموذ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ [هود: ٦٦]، والأخرى: قِصَّةُ لُوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا ساقِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

قوله: (لا يريمُ كاللايد)، الجوهرى: «رامه يريمه ريمًا، أي: بِرَحِهِ»، و«لَبَدَ الشَّيْءُ بالأرضِ يَلْبُدُ لُبُودًا: لَصِقَ بها».

قوله: (قَعَصًا): بالقافِ المفتوحةِ وَسُكونِ العَيْنِ المُهملةِ والصادِ المُهملةِ، الأساس: «قَعَصَهُ وَأَقَعَصَهُ: قَتَلَهُ مَكَانَهُ، وماتَ فُلانٌ قَعَصًا»، وهو حالٌ مِنْ فاعِلٍ «رَهَقَ».

كما فَرَّقُوا بَيْنَ ضِمَانِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَقَالُوا: وَعَدَّ وَأَوْعَدَ، وقراءة السَّلْمِيِّ جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البُعْدِ من غير تخصيص، كما يُقال: ذهب فلان ومضى، في معنى: الموت. وقيل: معناه: بُعِدْ أَلْهَمَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودٌ مِنْهَا.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ، لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾ ٩٦-٩٩]

﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فيه وَجْهَان: أن يُراد: أن هذه الآيات فيها سُلْطَانٌ مُّبِينٌ لموسى على صِدْقِ بُرُوتِهِ، وأن يُراد بـ«السُّلْطَانِ الْمُبِينِ»: العصا، لأنها أهدى لها. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ تجهيلٌ لِمُتَّبِعِيهِ حَيْثُ شَايَعُوهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وهو ضَلَالٌ مُّبِينٌ لَا يَخْفَى عَلَىٰ مَنْ فِيهِ أَدْنَىٰ مُسْكَةٍ مِنَ الْعَقْلِ، وذلك أنه ادَّعَى الْإِلَهِيَّةَ،

قوله: (سُلْطَانٌ مُّبِينٌ لموسى)، الراغب: «السَّلَاةُ: التَّمَكُّنُ مِنَ الْقَهْرِ، يُقَالُ: سَلَطْتُهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ السُّلْطَانُ، وَسُمِّيَ الْحِجَّةُ سُلْطَانًا؛ لِمَا لِلْحَقِّ مِنَ الْمَهْجُومِ عَلَى الْقَلْبِ، لَكِنَّ أَكْثَرَ تَسَلُّطِهِ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٩]: يَحْتَمِلُ السُّلْطَانَيْنِ، وَسَلَاةُ اللِّسَانِ: الْقُوَّةُ عَلَى الْمَقَالِ، وَذَلِكَ فِي الذَّمِّ أَكْثَرَ اسْتِعْمَالًا، يُقَالُ: امْرَأَةٌ سَلِيْطَةٌ»^(١).

قوله: (وأن يُراد بـ«السُّلْطَانِ الْمُبِينِ»: العصا): من عَطَفِ الْخَاصَّ عَلَى الْعَامِّ لِلشَّرْفِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ: مِنْ بَابِ الْعَطْفِ التَّجْرِيدِيِّ، نَحْوُ: مَرَّرْتُ بِالرَّجْلِ الْكَرِيمِ وَالنَّسْمَةَ الْمُبَارَكَةَ، كَأَنَّهُ جَرَّدَ مِنَ الْآيَاتِ الْحِجَّةَ، وَجَعَلَهَا غَيْرَهَا، وَعَطَفَهَا عَلَيْهَا، وَهِيَ هِيَ، وَمَنْ تَمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا سُلْطَانٌ مُّبِينٌ»، كقوله تعالى: ﴿هَلُمُّمْ فِيهَا دَارَ الْخُلْدِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٨].

قوله: (﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ تجهيلٌ لِمُتَّبِعِيهِ): لِأَنَّ حَقَّ الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: أَمْرُ فِرْعَوْنَ عَنِّي وَضَلَالٌ، فَاتَى ﴿بِرَشِيدٍ﴾، وَنَفَاهُ تَجْهِيلاً لِلْقَوْمِ، وَتَصْوِيرًا لِتِلْكَ الْحَالَةِ الَّتِي وَقَعَ

وهو بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، وجَاهِرٌ بِالْعَسْفِ وَالظُّلْمِ وَالشَّرِّ الَّذِي لَا يَأْتِي إِلَّا مِنْ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، ومِثْلُهُ بِمَعَزِلٍ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ ذَاتًا وَأَفْعَالًا، فَاتَّبَعُوهُ وَسَلَّمُوا لَهُ دَعْوَاهُ، وَتَتَابَعُوا عَلَى طَاعَتِهِ. و«الأمْرُ الرَّشِيدُ»: الَّذِي فِيهِ رُشْدٌ، أَي: وَمَا فِي أَمْرِهِ رُشْدٌ، إِنَّمَا هُوَ عَيٌّْ صَرِيحٌ وَضَلَالٌ ظَاهِرٌ مَكشُوفٌ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْعُقَلَاءُ مَنْ يُرْشِدُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ، لَا مَنْ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ.

وفيه أنهم عاينوا الآياتِ والسُّلْطَانَ الْمُبِينَ فِي أَمْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلِمُوا أَنَّ مَعَهُ الرُّشْدَ وَالْحَقَّ، ثُمَّ عَدَلُوا عَنْ اتِّبَاعِهِ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ لَيْسَ فِي أَمْرِهِ رُشْدٌ قَطُّ.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أَي: كَمَا كَانَ قُدْوَةً لَهُمْ فِي الضَّلَالِ، كَذَلِكَ يَتَقَدَّمُهُمْ إِلَى النَّارِ، وَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ.

الغِيَّ فِيهَا، يَعْنِي: مَا نَظَرْتُمْ أَهْيَا الْحَقْمَى إِلَى ذَاتِهِ، وَأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، وَإِلَى صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَنَّهُ ظَالِمٌ غَاشِمٌ، فَكَيْفَ اتَّخَذْتُمُوهُ إِلَهًا، أَمَا لَكُمْ مُسْكَةٌ (١)؟!

قوله: (ذَاتًا وَأَفْعَالًا)، أَي: مِثْلُهُ بِمَعَزِلِ الْإِلَهِيَّةِ ذَاتًا حَيْثُ هُوَ بَشَرٌ، وَأَفْعَالًا حَيْثُ جَاهِرٌ بِالْعَسْفِ، لَكِنْ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا مِنْ شَيْطَانٍ مَارِدٍ»، رَمَزَ إِلَى مَا قَالَ فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]: «وَنظِيرُهُ أَنْ يَقُولَ الْعَدْلِيُّ لِلْمُجْبِرِ: إِنْ كَانَ اللَّهُ خَالِقًا لِلْكَفْرِ فِي الْقُلُوبِ وَمُعَذِّبًا عَلَيْهِ عَذَابًا سَرْمَدًا، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقُولُ: هُوَ شَيْطَانٌ وَلَيْسَ بِإِلَهٍ (٢)».

قوله: (تتابعوا)، الفائق: «التتابع: التهاوت والتسارع إليه؛ من: تاع؛ إذا عجل» (٣).

قوله: (وفيه أنهم عاينوا الآيات)، أَي: وَفِي جَعْلٍ ﴿وَمَا أَمْرٌ فَرَعَوْتُكَ بِرَشِيدٍ﴾ قِيدًا

(١) أَي: عَقْلٌ.

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «وَلَيْسَ مَا قَالَهُ»، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ط)، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي «الْكَشَافِ».

(٣) هَذِهِ الْفَقْرَةُ قُدِّمَتْ فِي (ح) وَ(ف) قَبْلَ فِقْرَةِ «قَوْلِهِ: (ذَاتًا وَأَفْعَالًا)»، وَوَرَدَتْ فِي (ط) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي «الْكَشَافِ».

ويجوزُ أن يُريدَ بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: وما أمره بصالح حميد العاقبة، ويكونَ قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ تفسيراً لذلك وإيضاحاً، أي: كيف يرشُدُ أمرٌ من هذه عاقبته، و«الرُّشدُ» مُستعملٌ في كُلِّ ما يُحمَدُ ويُرتضى، كما استعملَ «الغِيَّ» في كُلِّ ما يُذمُّ ويُتسَخَطُ، ويُقال: قَدَمَهُ؛ بمعنى: تَقَدَّمَ، ومنه: قَادِمَةُ الرَّحْلِ، كما يُقال: قَدَمَهُ؛ بمعنى: تَقَدَّمَ، ومنه: مُقَدَّمَةُ الجِيشِ، وأَقْدَمَ؛ بمعنى: تَقَدَّمَ، ومنه: مُقَدَّمُ العَيْنِ.

فإن قلت: هَلَا قِيلَ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ فَيُورِدُهُمْ؟ وَلِمَ جِيءَ بِلَفْظِ المَاضِي؟ قلت: لِأَنَّ المَاضِي يَدُلُّ عَلَى أَمْرِ مَوْجُودٍ مَقْطُوعٍ بِهِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: يَقْدُمُهُمْ فَيُورِدُهُم النَارَ لَا مَحَالَةَ، ...

لِـ «اتَّبِعُوا»، وَالْمُرَادُ الْغِيَّ، وَتَرْتَبِ (١) ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ بِالْفَاءِ عَلَى ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: الْإِشَارَةُ إِلَى تَعَكُّسِ رَأْيِهِمْ، وَهُوَ أَنَّ إِرسَالَ مُوسَىٰ بِالآيَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ مُوجِبٌ لِلهُدَى وَالرُّشْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْفَلَاحِ فِي الْعُقْبَى، فَاتَّروا عَلَيْهِ مُتَابِعَةً مِّنْ أَوْقَعَهُمْ فِي الْغِيِّ وَالضَّلَالِ فِي الدُّنْيَا وَأُورِدَهُم النَّارَ فِي الْعُقْبَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْقَلْبَ أَلْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [الفصص: ٨].

قوله: (ويجوزُ أن يُريدَ بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: وما أمره بصالح حميد العاقبة): عطفٌ على قوله: «الأمْرُ الرشيد: الذي فيه رُشد»، و«الرشد» على الأول: حقيقة، لأنه في مُقَابِلِ «الغِيَّ»، ولهذا قال: «إنها هو غِيٌّ صَريح»، وعلى الثاني: مجازٌ عن العاقبة الحميدة، ومن ثَمَّ قال: «الرُّشد: مُستعملٌ في كُلِّ ما يُحمَدُ ويُرتضى». ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: حَالٌ من فاعِلِ ﴿فَاتَّبِعُوا﴾، أو مِنَ المَفْعُولِ، وهو المُخْتَارُ عِنْدَهُ لِقَوْلِهِ: «على أمره، وهو ضلالٌ مُبين».

وقوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ على الأول: استئناف، كأنه قيل: ما مألٌ حالهم في مُتَابِعَةِ هَذَا الضَّالِّ المَغْوِيِّ؟ قيل: يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُورِدُهُم النَّارَ. وعلى الثاني: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ بيانٌ لقوله:

(١) في (ف): «ورتب»، والمُتَّبِتُ من (ط) و(ح)، وهو الصواب، والتقدير: وفي ترتب ... إلخ.

﴿الْوَرْدُ﴾ المورود، و﴿الْمَوْزُودُ﴾ الذي وَرَدُوهُ، شُبِّهَ بِالْفَارِطِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْوَارِدَةَ إِلَى الْمَاءِ، وَشُبِّهَ أَتْبَاعُهُ بِالْوَارِدَةِ، ثُمَّ قِيلَ: بِشَسِّ الْوَرْدِ الَّذِي يَرِدُونَهُ النَّارَ؛ لِأَنَّ الْوَرْدَ إِنَّمَا يُرَادُ لِتَسْكِينِ الْعَطَشِ وَتَبْرِيدِ الْأَكْبَادِ، وَالنَّارُ ضِدُّهُ.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، ﴿لَعْنَةً﴾ أَي: يُلَعَّنُونَ فِي الدُّنْيَا، وَيُلَعَّنُونَ فِي الْآخِرَةِ، ﴿بِشَسِّ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ رَفْدُهُمْ، أَي: بِشَسِّ الْعَوْنِ الْمُعَانَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّعْنَةَ فِي الدُّنْيَا رَفْدٌ لِلْعَذَابِ وَمَدَدٌ لَهُ،

﴿وَمَا أَمْرٌ فَرَعَوْتَ بِرَشِيدٍ﴾، لِأَنَّ مَعْنَاهُ حَيْثُذ: كَانَ أَمْرٌ فَرَعَوْنَ مَذْمُومًا مَسْخُوطًا عَلَيْهِ سَيِّئَ الْخَاتِمَةِ، فَجَاءَ قَوْلُهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ مُوَضَّحًا لَهُ، وَبَيَانًا لِسُوءِ الْعَاقِبَةِ.

قَوْلُهُ: (أَي: بِشَسِّ الْعَوْنِ الْمُعَانَ): سُمِّيَتِ اللَّعْنَةُ عَوْنًا، لِأَنَّهَا إِذَا تَبِعْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا تَبِعْتَهُمْ فِي الْآخِرَى، لِتُبْعِدَهُمْ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَتُعِينَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ، وَتُمَدِّدَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَعَمَاهِهِمْ، فَسُمِّيَ رَفْدًا - أَي: عَوْنًا - لِهَذَا الْمَعْنَى عَلَى التَّهْكِيمَةِ، كَقَوْلِهِ:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ صَرَبٌ وَجِيعٌ^(١)

وقولهم: «عتابه السيف».

وَأَمَّا كَوْنُهَا «مُعَانًا» لِأَنَّهَا أُرْفِدَتْ فِي الْآخِرَةِ بِلَعْنَةِ أُخْرَى، لِيَكُونَ هَادِيَيْنِ إِلَى طَرِيقِ الْجَحِيمِ، ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يُسَنَّدَ الْمَرْفُودُ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّ اللَّعْنَةَ فِي الدُّنْيَا تَبِعْتَهُمْ، وَكَذَا فِي الْآخِرَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: ٦٠]، وَلَكِنْ أُسْنِدَ إِلَى الرَّفْدِ - الَّذِي هُوَ اللَّعْنَةُ - عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، نَحْوُ: جَدَّ جِدُّهُ، وَجُنُونُكَ مَجْنُونٌ.

(١) انظر ما تقدّم تعليقا عند تفسير الآية ٣٥ من سورة الأنفال (٧: ٩٥).

وقد رُفِدَتْ بِاللَعْنَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: بِسَسِّ الْعَطَاءِ الْمُعْطَى.

[ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقَضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهِمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٠-١٠١﴾]

﴿ ذَلِكَ ﴾ مُبْتَدَأٌ، ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقَضَهُ عَلَيْكَ ﴾ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَي: ذَلِكَ النَّبَأُ بَعْضُ أَنْبَاءِ الْقُرَى الْمُهْلِكَةِ مَقْصُوصٌ عَلَيْكَ، ﴿ مِنْهَا ﴾ الضَّمِيرُ لِلْقُرَى، أَي: بَعْضُهَا بَاقٍ وَبَعْضُهَا عَافِيَ الْأَثْرَ، كَالزَّرْعِ الْقَائِمِ عَلَى سَاقِهِ وَالَّذِي حُصِدَ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحْمِلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ؟ قُلْتَ: هِيَ مُسْتَأْنَفَةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا.

قوله: (بَسَسَ الْعَطَاءُ الْمُعْطَى)، الجوهري: «الرَّفْدُ: الْعَطَاءُ وَالصَّلَاةُ، وَبِالْفَتْحِ: الْمَصْدَرُ، يُقَالُ: رَفَدْتُهُ أَرْفُدُهُ رَفْدًا: إِذَا أَعْطَيْتَهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَعْتَمْتَهُ، وَالْإِرْفَادُ: الْإِعْطَاءُ وَالْإِعَانَةُ فِيهِ»، وَاعْتِبَارُ الْاسْتِعَارَةِ التَّهْكُمِيَّةِ وَالْإِسْنَادِ كَمَا سَبَقَ.

قوله: (هِيَ مُسْتَأْنَفَةٌ): فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَصَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنْبَاءَ الرُّسُلِ وَأَمْمِهِمْ، وَوَخَامَةَ عَاقِبَةِ الْمُكْذِبِينَ^(١)، اتَّجَهَ لِسَائِلِ أَنْ يَقُولَ: هَذِهِ الْقُرَى الْمَقْصُوصَةُ، مَا حَالُهَا؟ أَبَاقِيَّةٌ آثَارُهَا أَمْ لَا؟ فَأُجِيبُ: بِأَنَّ بَعْضَهَا بَاقِي الْأَثْرِ، وَبَعْضُهَا قَائِمٌ.

قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «﴿ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْهَاءِ فِي ﴿ نَقَضَهُ ﴾، وَ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالْخَبَرُ مَحذُوفٌ، أَي: وَمِنْهَا حَصِيدٌ، بِمَعْنَى: مَحْصُودٌ^(٢)، قَالَ الْقَاضِي: «الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَالْحَالُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ إِذْ لَا وَاوَ، وَلَا ضَمِيرٌ»^(٣).

قُلْتَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ﴿ الْقُرَى ﴾.

(١) كَذَا فِي (ط) وَ(ح)، وَفِي (ف): «وَخَامَةُ الْمُكْذِبِينَ، وَوَخَامَةُ عَاقِبَتِهِمْ»، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

(٢) «التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِأَبِي الْبَقَاءِ الْعَكْبَرِيِّ (٢: ٧١٣).

(٣) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَيْضَاوِيِّ (٣: ٢٦٠).

﴿ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ ﴾ بإهلاكنا إياهم، ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بارتكاب ما به
 أهلكوا، ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ ﴾ فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله، ﴿ يَدْعُونَ ﴾
 يعبدون، وهي حكاية حال ماضية، و﴿ لَمَّا ﴾ منصوب بـ «ما أغنت»، ﴿ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾
 عذابه ونقمته، ﴿ تَتَيْبَّبُ ﴾ تحسیر، يُقال: تَبَّ: إذا حَسِرَ، وَتَسَبَّهَ غَيْرُهُ: إذا أوقعه في
 الخسران.

[﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ١٠٢]

حُلُّ الكافِ الرِّفْعِ، تَقْدِيرُهُ: وَمِثْلُ ذَلِكَ الْأَخْذِ ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾، وَالنَّصْبُ فِيمَنْ قَرَأَ:
 «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ»، بِلَفْظِ الْفِعْلِ، وَقُرِئَ: «إِذْ أَخَذَ الْقُرَىٰ»، ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ حَالٌ مِنْ
 ﴿ الْقُرَىٰ ﴾، ﴿ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وَجِيعٌ صَعْبٌ عَلَى الْمَأْخُودِ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ وَخَامَةِ عَاقِبَةِ
 الظُّلْمِ لِكُلِّ أَهْلِ قَرْيَةٍ ظَالِمَةٍ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا، بَلْ لِكُلِّ مَنْ ظَلَمَ غَيْرَهُ أَوْ نَفْسَهُ
 بِذَنْبٍ يَقْتَرِفُهُ، فَعَلَى كُلِّ مَنْ أَذْنَبَ أَنْ يَحْذَرَ أَخْذَ رَبِّهِ الْأَلِيمِ الشَّدِيدِ، فَيُبَادِرَ التَّوْبَةَ، وَلَا
 يَغْتَرَّ بِالْإِمْهَالِ.

[﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ ﴾ ١٠٣]

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قصَّ اللهُ من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم،

قوله: (وهذا تحذير): أي: في جعل ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ حالاً من ﴿ الْقُرَىٰ ﴾، أي: تحذير من
 وَخَامَةِ عَاقِبَةِ الظُّلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّ كَافَ التَّشْبِيهِ وَاسْمَ الْإِشَارَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّ التَّشْبِيهَ تَمْثِيلِيٌّ، وَالْمُشَبَّهَ
 بِهِ تِلْكَ الْقُرَى السَّابِقَةَ الظَّالِمَ أَهْلِهَا، فَيَكُونُ التَّقْيِيدُ بِهَذِهِ الْحَالِ لِمَزِيدِ التَّوَكِيدِ، وَالْإِشْعَارِ بِمَا
 ذَكَرَهُ مِنَ التَّحْذِيرِ، وَفَائِدَتُهَا الْإِشْعَارُ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا لِظُلْمِهِمْ، وَإِنْدَارُ كُلِّ ظَالِمٍ ظَلَمَ نَفْسَهُ أَوْ
 غَيْرَهُ مِنْ وَخَامَةِ الْعَاقِبَةِ.

﴿لَايَةٌ لِّمَن خَافَ﴾ لَعِبْرَةٌ لَهُ، لَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِالْمُجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْمُودَجٌّ مَّا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا رَأَى عِظْمَهُ وَشِدَّتَهُ اعْتَبَرَ بِهِ عِظْمَ الْعَذَابِ الْمَوْعُودِ، فَيَكُونُ لَهُ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ وَلُطْفًا فِي زِيَادَةِ التَّقْوَى وَالْحَشْيَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَنَحْوُهُ: ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦].

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، لأنَّ ﴿عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ دَلٌّ عَلَيْهِ، وَ﴿النَّاسُ﴾ رَفَعٌ بِاسْمِ الْمَفْعُولِ الَّذِي هُوَ ﴿بِجَمْعٍ﴾، كَمَا يُرْفَعُ بِفِعْلِهِ إِذَا قُلْتَ: يُجْمَعُ لَهُ النَّاسُ.

فإن قلت: لأيِّ فائدة أُوتِرَ اسْمُ الْمَفْعُولِ عَلَى فِعْلِهِ؟ قلت: لِمَا فِي اسْمِ الْمَفْعُولِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى ثَبَاتِ مَعْنَى الْجَمْعِ لِلْيَوْمِ، وَأَنَّهُ يَوْمٌ لَا بُدَّ مِنْ أَن يَكُونَ مِعَادًا مَضْرُوبًا لِّجَمْعِ النَّاسِ لَهُ، وَأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِذَلِكَ صِفَةً لَازِمَةً، وَهُوَ أُثْبِتُ أَيْضًا لِإِسْنَادِ «الْجَمْعِ» إِلَى «النَّاسِ»،

قوله: ﴿لَايَةٌ لِّمَن خَافَ﴾ لَعِبْرَةٌ لَهُ: قَالَ الْقَاضِي: ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَّةً﴾ لِمَن يَنْزَجِرُ بِهَا عَنْ مُوجِبَاتِهَا^(١)، لِعَلِمِهِ بِأَنَّهَا مِنْ إِلَهٍ مُّخْتَارٍ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، فَإِنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْآخِرَةَ وَأَحَالَ فَنَاءَ هَذَا الْعَالَمِ: لَمْ يَقُلْ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ^(٢)، وَجَعَلَ تِلْكَ الْوَقَائِعَ لِأَسْبَابِ فَلَكِيَّةٍ اتَّفَقَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، لَا لِذُنُوبِ الْمُهْلِكِينَ بِهَا^(٣).

قوله: (وهو أثبت أيضاً لإسناد «الجمع» إلى «الناس»): أي: في وصف «اليوم» باسم المفعول، وإسناده إلى «الناس»: الدلالة على أن اليوم موصوفٌ بذلك الوصف ووصفاً لازماً، وأنَّ النَّاسَ لَا يَنْفَكُونَ عَنِ الْجَمْعِ^(٤)، لِأَنَّ كِلَا الْأَسْلُوبَيْنِ مُجْرَى عَلَى غَيْرِ الظَّاهِرِ لِلْمُبَالَغَةِ،

(١) في الأصول الخطية: «وعن موجباتها»، ولفظ البيضاوي: ﴿لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يَنْزَجِرُ بِهِ عَنْ مُوجِبَاتِهَا.

(٢) يعني: الفلاسفة، قالوا بقدّم العالم وبقائه، وجعلوا الإله فاعلاً بالعلّة لا بالاختيار، أي: كونه لها يترتب عليه وجود مخلوق له كترتب حركة الخاتم بحركة اليد التي هو فيها، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٦١).

(٤) في (ح): «عن الأسلوبين»، وهو خطأ، والمثبت من (ط) و(ف).

وأهم لا يَنْفَكُونَ منه، ونظيره قول المتهدد: «إِنَّكَ لَمَنْهَوْبٌ مَأْلُكُ، مَحْرُوبٌ قَوْمُكَ»، فيه من تَمَكَّنَ الوَصْفِ وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فَوَازَنَ بَيْنَهُ وبينَ قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، تَعَثَّرَ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْتُمْ لَكُمْ. ومعنى «يُجْمَعُونَ لَهُ»: يُجْمَعُونَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

﴿يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ مشهودٌ فيه، فَاتَّسَعَ فِي الظَّرْفِ بِإِجْرَائِهِ مَجْرَى المَفْعُولِ بِهِ، كقوله:

وَيَوْمَ شَهِدْنَا سُلَيْمًا وَعَامرًا

وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: «ذَلِكَ يَوْمٌ يُجْمَعُ لَهُ النَّاسُ»؛ فَإِنَّ الفِعْلَ مُتَرَقَّبٌ، وَالنَّاسُ غَيْرُ مَجْمُوعِينَ الْآنَ، وَلِهَذَا وَازَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وَاللَّامُ فِي ﴿لَهُ﴾ كَاللَّامِ فِي ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾؛ بِمَعْنَى: لِأَجْلِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «يُجْمَعُونَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ»، لِأَنَّ «اليومَ» لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِنَفْسِهِ، بَلْ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

قوله: (محروب)، الجوهرى: «وقد حُرِبَ مَالُهُ؛ أَي: سُلِبَ، وَهُوَ مَحْرُوبٌ وَحَرِيبٌ».

قوله: (فاتسع في الظرف): أَي: فِي حَذْفِ الْجَارِ، يَعْنِي: كَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُؤْتَى بِهَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ، لَكِنْ حُذِفَ وَجُعِلَ كالمَفْعُولِ بِهِ، نَحْوُ: زَيْدٌ مَضْرُوبٌ.

الانْتِصَافُ: «حَذْفُ مَفْعُولِ «المَشْهُودِ» تَفْخِيماً، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمُ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]»^(١). الْإِنْصَافُ: «وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اسْمَ المَفْعُولِ مِنَ الفِعْلِ الْمُتَعَدِّيِّ بِحَرْفِ الْجَزْرِ: يَجُوزُ أَنْ يُجْرَدَ عَنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] عَلَى قَوْلٍ، وَقَدْ أُخِذَ عَلَى بَعْضِ الْمُصَنِّفِينَ قَوْلُهُ: المَنْطُوقُ وَالمَفْهُومُ، قَالُوا: يَجِبُ أَنْ يُقَالَ: المَنْطُوقُ بِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ المَشْهُودُ مِنْ هَذَا البَابِ».

قوله: (ويوم شهدناه سليمان وعامراً): تَمَامُهُ:

(١) «الانْتِصَافُ» لابن المُنَيَّرِ (٢: ٢٩٢) بِحَاشِيَةِ «الكِشَافِ».

أي: يَشْهَدُ فِيهِ الْخَلَائِقُ الْمَوْقِفَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ أَحَدٌ، وَالْمُرَادُ بِ«الْمَشْهُودِ»: الَّذِي كَثُرَ شَاهِدُوهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لِفُلَانٍ مَجْلِسٌ مَشْهُودٌ، وَطَعَامٌ مَحْضُورٌ، قَالَ:

فِي مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٌ

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْيَوْمَ مَشْهُوداً فِي نَفْسِهِ، دُونَ أَنْ تَجْعَلَهُ مَشْهُوداً فِيهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟

قَلِيلٌ سِوَى الطَّعْنِ الدَّرَاكِ نَوَافِلُهُ (١)

الجهوري: «شَهِدَ شْهُوداً، أَي: حَضَرَ، فَهُوَ شَاهِدٌ، وَقَوْمٌ شُهِودٌ، أَي: حُضُورٌ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ، وَالْمَشْهَدُ: مَحْضَرُ النَّاسِ»، وَ«نَوَافِلُهُ»: فَاعِلٌ «قَلِيلٌ»، وَهُوَ صِفَةٌ «يَوْمٌ»، يَقُولُ: وَيَوْمٌ حَضَرْنَا فِيهِ سُلَيْمًا وَعَامِرًا قَلِيلٌ عَطَايَاهُ سِوَى الطَّعْنِ الدَّرَاكِ، عَلَى التَّهْكُمِيَّةِ.

قوله: (فِي مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٌ): أوله:

وَمَشْهَدٍ قَدْ كَفَيْتُ الْغَائِبِينَ بِهِ (٢)

«نَوَاصِي النَّاسِ»: أَشْرَافُهُمْ وَالْمُقَدَّمُونَ مِنْهُمْ، كَمَا وَصَفُوا بِالذَّوَائِبِ، يُقَالُ: فُلَانٌ ذُوَابَةٌ قَوْمِهِ وَنَاصِيَةٌ عَشِيرَتِهِ، يَقُولُ: رَبُّ مَشْهَدٍ عَظِيمِ الشَّانِ تَكَلَّمْتُ فِيهِ وَنُبْتُ عَنِ الْغَائِبِينَ عَنْهُ، وَالْيَوْمُ يَوْمٌ مَشْهُودٌ، فِيهِ رُؤَسَاءُ النَّاسِ وَأَمَائِلُهُمْ، يَعْنِي: كَشَفْتُ الْعُمَّةَ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ.

قوله: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْيَوْمَ مَشْهُوداً فِي نَفْسِهِ): أي: مَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ تَجْعَلَ الْيَوْمَ مَشْهُوداً

(١) تَقَدَّمَ ص ١٢٣ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٦٥ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

(٢) الْبَيْتُ لِأَمِّ قَيْسِ الضَّبِّيَّةِ، كَمَا فِي «الْحِمَاسَةِ» ص ١٩١، بِلَفْظِ: «فِي مَجْمَعٍ»، وَكَذَا هُوَ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (نَصَا).

وَذَكَرَهُ بِلَفْظِ: «فِي مَحْفَلٍ»: الزَّخْمَشَرِيُّ فِي «الْفَائِقِ» (نَصِي)، وَ«أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ» (نَصْر)، إِلَّا أَنَّهُ لَفْظُهُ فِي «الْأَسَاسِ»: «وَمَوْقِفٍ»، بَدَلًا: «وَمَشْهَدٍ».

وَسِيَاتِي الشُّطْرُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَيْضًا عِنْدَ الزَّخْمَشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٤ مِنْ سُورَةِ الشُّعْرَاءِ.

قلت: الغَرَضُ وَصْفُ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالْهَوْلِ وَالْعِظَمِ، وَتَمَيُّزُهُ مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ، فَإِنْ جَعَلْتَهُ مَشْهُودًا فِي نَفْسِهِ فَسَائِرُ الْأَيَّامِ كَذَلِكَ مَشْهُودَاتٌ كُلُّهَا، وَلَكِنْ يُجْعَلُ مَشْهُودًا فِيهِ حَتَّى يَحْصَلَ التَّمْيِيزُ، كَمَا تَمَيَّزَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ عَنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ بِكَوْنِهِ مَشْهُودًا فِيهِ دُونَهَا، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ مَشْهُودًا فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّ سَائِرَ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ مِثْلُهُ يَشْهَدُهَا كُلُّ مَنْ يَشْهَدُهَا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ ﴿الشَّهْرَ﴾: مُتَّصِبٌ ظَرْفًا لَا مَفْعُولًا بِهِ، وَكَذَلِكَ الضَّمِيرُ فِي ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾، وَالْمَعْنَى: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ فِي الشَّهْرِ فَلْيَصُمْ فِيهِ،

فيه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: فيه، ثم تجعله على الاتساع مشهوداً، فلا تجعله ابتداءً مشهوداً في نفسه^(١)، لأنَّ الغَرَضَ تهويلُ ذلك اليوم، وتمييزه بكونه مشهوداً فيه؟

قوله: (الغَرَضُ وَصْفُ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالْهَوْلِ وَالْعِظَمِ وَتَمْيِيزُهُ [من] بَيْنِ الْأَيَّامِ)^(٢): قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ؛ إِذْ يُقَالُ: سَائِرُ الْأَيَّامِ مَشْهُودٌ فِيهَا، كَمَا أَنَّهَا مَشْهُودَاتٌ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ فِي «الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ فِيهِ» إِيهَامًا فِي «المَشْهُودِ»، أَيْ: يُشْهَدُ فِيهِ حَالًا، وَفِي «الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ» لَا إِيهَامَ، إِذْ يُعْلَمُ أَنَّ الْمَشْهُودَ الْيَوْمَ، وَأَمَّا تَمْيِيزُهُ عَنْ غَيْرِهِ بِالتَّهْوِيلِ فَلِذَلِكَ الْإِيهَامُ مَعَ الْقَرِينَةِ وَالْبَيَانِ.

قلت: ما أدري ما غَرَضُهُ مِنْ قَوْلِهِ: «سَائِرُ الْأَيَّامِ مَشْهُودٌ فِيهَا»، لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ فِي غَايَةِ مِنَ الظُّهُورِ، لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: «يَوْمٌ مَشْهُودٌ فِيهِ» إِلَّا لِيَوْمٍ تُشْهَدُ فِيهِ الْخَلَائِقُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ لِأَمْرِ لَهُ شَأْنٌ، أَوْ لِحَاطَبٍ يَهْتُمُّهُمْ، نَحْوِ أَيَّامِ الْأَعْيَادِ، وَأَيَّامِ عَرَفَةَ، وَأَيَّامِ الْحَرْبِ، وَأَيَّامِ قُدُومِ السُّلْطَانِ، وَيُقَالُ: يَوْمٌ مَشْهُودٌ، أَيْ: مُدْرَكٌ، كَمَا تَقُولُ: أَدْرَكْتُ يَوْمَ فُلَانٍ، وَشَهْرَ فُلَانٍ، كَمَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(١) من قوله: «أي: ما دعاك» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) من بداية الفقرة إلى هنا، سقط من (ح) و(ف)، وأثبتته من (ط).

يعني: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُقِيمًا حَاضِرًا بَوَاطِنِهِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلْيَصُمْ فِيهِ، وَلَوْ نَصَبْتَهُ مَفْعُولًا فَالْمُسَافِرُ وَالْمُقِيمُ كِلَاهُمَا يَشْهَدَانِ الشَّهْرَ، لَا يَشْهَدُهُ الْمُقِيمُ، وَيَغِيبُ عَنْهُ الْمُسَافِرُ.

[﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴾ ١٠٤]

«الأجل»: يُطْلَقُ عَلَى مُدَّةِ التَّأْجِيلِ كُلِّهَا وَعَلَى مُنْتَهَاهَا، فيقولون: انتهى الأجل، وَبَلَغَ الأَجَلَ آخِرَهُ، ويقولون: حَلَّ الأَجَلَ، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، يُراد: آخِرُ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ، و«العَدَدُ»: إِنَّمَا هُوَ لِلْمُدَّةِ، لَا لِغَايَتِهَا وَمُنْتَهَاهَا، فمعنى قوله: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴾ إِلَّا لِانْتِهَاءِ مُدَّةٍ مُّعَدُودَةٍ بِحَذْفِ المُضَافِ. وَقُرِي: «وما يُؤَخِّرُهُ» بالياء.

[﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِآيَاتِنَا، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ١٠٥]

قُرِي: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ بغير ياء، ونحوه قولهم: لَا أَدْرِي، حكاة الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل. فإن قلت: فاعل «يأتي» ما هو؟ قلت: الله عَزَّ وَجَلَّ،

قوله: (ويقولون: حَلَّ الأَجَلَ) إِلَى آخِرِهِ: عَطْفٌ عَلَى «فيقولون: انتهى الأجل»، وهما نَسْرٌ لِقَوْلِهِ: «عَلَى مُدَّةِ التَّأْجِيلِ كُلِّهَا وَعَلَى مُنْتَهَاهَا» مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ، وَقَوْلُهُ: «وَالْعَدَدُ: إِنَّمَا هُوَ لِلْمُدَّةِ، لَا لِغَايَتِهَا»: تَعْلِيلٌ، لِأَنَّ الْمُرَادَ فِي الْآيَةِ مُدَّةَ التَّأْجِيلِ لَا مُنْتَهَاهَا.

قوله: (قُرِي: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ بغير ياء): أَثْبَتَ الْبَاءَ فِي الْحَالَيْنِ: ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَثْبَتَهَا لِمُجْمَعِ الْوَصْلِ: نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ، وَالْبَاقُونَ: يَحْذِفُونَهَا فِي الْحَالَيْنِ^(١). قَالَ الرَّجَّاجُ: «الَّذِي يَخْتَارُهُ النَّحْوِيُّونَ: إِثْبَاتُ الْبَاءِ، وَالَّذِي أَخْتَارَهُ فِي الْمَصْحَفِ^(٢) وَعَلِيهِ الْقِرَاءَاتُ: بِكَسْرِ التَّاءِ،

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٧، و«حجة القراءات» ص ٣٤٨.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «معاني القرآن» للزجاج: «والذي في المصحف» دون لفظة «أختاره».

كقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وتعضده قراءة من قرأ: «وما يؤخره» بالياء، وقوله: ﴿بِأَذْنِهِ﴾. ويجوز أن يكون الفاعل ضمير «اليوم»، كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ [يوسف: ١٠٧].

فإن قلت: بم انتصب الظرف؟ قلت: إما أن يتصبب بـ ﴿لَا تَكَلِّمُ﴾، وإما بإضمار «اذكر»، وإما بالانتهاء المحذوف في قوله: ﴿إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ﴾، أي: ينتهي الأجل يوم يأتي. فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير «اليوم»، فقد جعلت «اليوم» وقتاً لإتيان اليوم، وحددت الشيء بنفسه؟ قلت: المراد إتيان هوله وشدايده.

وهذيل تستعمله^(١) كذا، وقد حكى سيبويه: أن العرب تقول: لا أذر، وتجتري بالكسرة لكثرة الاستعمال، والذي اختاره إنما اختاره لم تابعة المصحف^(٢).

وقال أبو علي: ﴿لَا تَكَلِّمُ﴾ يحتمل أن تكون حالاً من الضمير في «يأتي»، وأن تكون صفة لـ «يوم»، وعلى الوجهين لا بد من تقدير ضمير، أي: لا تكلم نفس فيه، فإن كان حالاً فحذف الياء من «يأت» ، لأنه كلام مستقل، فيشبهه لذلك الفواصل، وإن جعلته صفة جاز أيضاً، لأن الصفة قد يستغنى عنها بالوصف، كما أن الحال قد يستغنى عنها بالفعل، إلا أن من الصفات ما لا يحسن أن يحذف فيه، ولذلك يشبهه بغير الكلام التام^(٣).

قوله: (وتعضده قراءة من قرأ: «وما يؤخره»^(٤) بالياء): يعني: فاعل «ما يؤخره» حيثئذ: الله، وهذه الجملة تابعة لتلك الجملة صورة ومعنى، لأن التقدير: وما يؤخر الله اليوم المجموع

(١) في (ح): «وهذيل معه تستعمله»، وفي (ف): «وهذيل تبعه تستعمله»، والمثبت من (ط).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٧٧).

(٣) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٧٥ - ٣٧٦).

(٤) وهي قراءة الأعمش، كما في «الدر المصون» للسمين الحلبي (٦: ٣٨٧).

﴿لَا تَكَلِّمُوا﴾ لا تتكلم، وهو نظيرُ قوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾

[النبأ: ٣٨].

فإن قلت: كيف يُوقَفُ بينَ هذا وبينَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلَّ نَفْسٍ مُّجَدِّلَةٌ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المسرات: ٣٥ - ٣٦]؟ قلت: ذلك يومٌ طويلٌ له مَوَاقِفُ وَمَوَاطِنُ، ففي بعضها يُجَادِلُونَ عن أنفسهم، وفي بعضها يُكْفُونَ عن الكلام، فلا يُؤْذَنُ لهم، وفي بعضها يُؤْذَنُ لهم فيتكلمون، وفي بعضها يُخْتَمُ على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم.

إلا لانتهاؤِ مُدَّةٍ معدودة^(١)، تنتهي المُدَّةُ إلى يوم يأتي الله.

ولو جعلت الضمير «اليوم» لاختل النظم، ولأن الضمير في ﴿يَأْتِيهِ﴾ يقتضي ما يرجع إليه، ولو قلت: يأتي هوّل اليوم، لم يكن بذاك. فإذا جعلت الفاعل ضمير «اليوم»، فقد جعلت «اليوم» وقتاً لإتيان «اليوم»، قال أبو علي: «لا يجوز أن يكون فاعل^(٢) «يأتي» ضمير اليوم الذي يأتي، لِمَا يَلْزَمُ منه أن يُضَافَ «اليوم» إلى فعل نفسه، ألا ترى أنك لا تقول: جئتك يوم يسرك^(٣)، لأن معناه: يوم سُورِهِ إياك^(٤)، وإنما تُضَيَّفُ المَصْدَرُ إلى الفاعل، كما إذا قلت: جئتك يوم يخرج زيد، أي: في يوم خروج زيد.

قال أبو البقاء: «وأما فاعل «يأتي» فضمير يرجع على «يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ»، ولا يرجع إلى «يوم» المضاف إلى «يأتي»، لأن المضاف إليه كجزء المضاف، فيؤدّي إلى إضافة الشيء إلى نفسه^(٥).

(١) في (ح): «مقدورة»، والمثبت من (ط) و(ف)، وأثرته لأنه الأقرب إلى لفظ الآية الكريمة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

(٢) قوله: «لا يجوز أن يكون فاعل» سقط من (ح) و(ف).

(٣) في (ط) و(ح): «يوم سرورك»، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لِمَا في «الحجة».

(٤) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٧٣ - ٣٧٤).

(٥) «التيبان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧١٤).

﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضميرُ لأهل المَوْقِف، ولم يُذكَروا، لأنَّ ذلكَ معلوم، ولأنَّ قوله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ يَدُلُّ عليه، وقد مرَّ ذِكْرُ الناسِ في قوله: ﴿بِجَمْعِهِمْ لَهُ النَّاسُ﴾، و«الشَّقِيَّ»: الذي وَجِبَتْ له النارُ لِإِسَاءَتِهِ، و«السَّعِيدَ»: الذي وَجِبَتْ له الجَنَّةُ لِإِحْسَانِهِ.

[﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَمْ يَرْفَعُوا رُفْعًا وَشَقَّوْا خَلْدًا فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ١٠٦-١٠٧]

قراءةُ العامَّةِ بفتح الشَّين، وعن الحسن: «شَقُوا» بالضَّمِّ، كما قرئ: ﴿سُعِدُوا﴾..

قوله: (ولأنَّ قوله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ يَدُلُّ عليه): وفي هذا إشارةٌ إلى أن الآيةَ مِنْ بابِ الجمعِ مَعَ التفرِيقِ والتقسيمِ^(١)، فالجمعُ قوله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ لأنها مُتعدِّدةٌ معنًى، لأنَّ التَّكْرَةَ في سياقِ النفي تَعْم، والتفرِيقُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، والتقسيمُ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا... وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾.

قوله: (و«السَّعِيدَ»: الذي وَجِبَتْ له الجَنَّةُ)، الراغب: «السَّعْدُ والسَّعَادَةُ: مُعَاوَنَةُ الْأُمُورِ الإلهيةُ لِلإِنْسَانِ عَلَى نَيْلِ الْخَيْرِ^(٢)، وَيُضَادُّهُ: الشَّقَاوَةُ، يُقَالُ: سَعِدَ وَأَسْعَدَهُ اللهُ تَعَالَى، وَرَجُلٌ سَعِيدٌ، وَقَوْمٌ سُعْدَاءٌ، وَأَعْظَمُ السَّعَادَاتِ: الجَنَّةُ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ﴾، وَالْمُسَاعَدَةُ: المُعَاوَنَةُ فِيمَا يُظَنُّ بِهِ سَعَادَةٌ، وَالسَّاعِدُ: العَضْوُ؛ تَصَوُّرًا لِلمُسَاعَدَةِ^(٣)».

قوله: (كما قرئ: ﴿سُعِدُوا﴾): حفصٌ وحمزةٌ والكِسَائِيُّ^(٤)، قال السَّجَاوُنْدِيُّ: قرئ:

(١) انظر معنى «الجمع» و«التقسيم» و«التفریق» في «التبيان في البيان» للمؤلف الطيبي ص ٣٣١ - ٣٤٠، فقد ذكر صورة «الجمع» وحده، وصورة «التقسيم» وحده، وصورة «التفریق» وحده، ثم ذكر صورة «الجمع مع التفریق»، وصورة «الجمع مع التقسيم»، وصورة «الجمع مع التفریق والتقسيم»، ومثَّل عليها.

(٢) من قوله: «الراغب» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٤١٠-٤١١.

(٤) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٦، و«حجة القراءات» ص ٣٤٩.

و«الزفير»: إخراج النفس، و«الشهيق»: رذءه، قال الشَّخ:

بَعِيدٌ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ
زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيْقٌ مُحْشَرَجٌ

﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

أحدهما: أن تُراد: سماواتُ الآخرةِ وأرضها، وهي دائمةٌ مخلوقةٌ للأبد، والدليلُ على أن لها سماواتٍ وأرضاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، ولأنه لا بُدَّ لأهل الآخرةِ مما يُقَلِّهَم وَيُظَلِّهَم؛ إما سماءٍ يَخْلُقُهَا اللهُ، أو يُظَلِّهَم العرش، وكُلُّ ما أَظْلَكَ فهو سماء.

﴿سُعِدُوا﴾ مجهولاً، مع أنه لازم، أي: رزقوا السعادة، نحو: جُن؛ إذا فَعَلَ به ما يصيرُ به مجنوناً، ولو كان المراد: صيِّروا سعداء، لقال: أسعدوا، والتعددي لغة بني تميم، أو على حذف الزيادة من: أسعد، كمجبوب ومجنون. قال أبو البقاء: «نحوه: رجل مسعود»^(١).

قوله: (والزفير): الراغب: «الزفير: تزييد النفس حتى تنتفخ الصلوع منه، وازدفر فلان: إذا تحمَّله بمشقة، فتردد فيه نفسه، ومنه: زفر. والشهيق: طول الزفير، وهو رذء النفس، والزفير: مد النفس، وأصله من: جبل شاهق، أي: مُتناهي الطول»^(٢).

قوله: (بعيد مدى التطريب) البيت^(٣): يَصِفُ حِمَارَ وَحْشٍ، التَّطْرِيبُ فِي الصَّوْتِ: مَدُّهُ وَتَحْسِينُهُ، وَحَشْرَجَ المَرِيضَ: تَنَفَّسَ عِنْدَ الاِحْتِضَارِ.

قوله: (ولأنه لا بُدَّ لأهل الآخرةِ مما يُقَلِّهَم وَيُظَلِّهَم): قال القاضي: «وفيه نظر، لأنه تشبيهة

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ٧١٥).

(٢) هذه الفقرة - من «قوله: (والزفير)» إلى هنا - قُدِّمَتْ فِي (ح) و(ف) قَبْلَ فِقْرَةِ «قوله: (كما قرئ: سَعِدُوا)»، وَوَرَدَتْ فِي (ط) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي «الكَشَافِ».

(٣) «ديوان الشَّخ» ص ١٤.

والثاني: أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام بُيبر، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد.

فإن قلت: فما معنى الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ﴾، وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟ قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن أهل النار لا يُخلدُونَ في عذاب النار وحده، بل يُعذبُونَ بالزَّمْهَرِيرِ وبأنواع من العذاب، سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها، وهو سَخَطُ اللَّهِ عليهم وْحَسُوهُ لهم وإهانتهم إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا منهم، وهو رضوان الله، كما قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء.

بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب، فلا يجدي له التشبيه^(١). وأجيب عنه: بأنه ليس هذا من التشبيه بما لا يعرف، بل هو من تشبيه ما لا يعرف بما يعرف^(٢)، فإنه شبه تلك الدار بهذه الدار، وأثبت لها ما لهذه من المظلة والمقلة، والجامع كونها جسمين، وإثبات الدوام للمُشَبَّه به مبني على العرف والعادة، كما قال: ما لاح كوكب، ما دام تعار.

قوله: «ما دام تعار»، النهاية: «جبل معروف، يُصْرَفُ ولا يُصْرَفُ»، وفي الحديث ذُكْرُ بُيبر، وهو الجبل المعروف عند مكة.

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٦٣).

(٢) في (ح): «ليس هذا من التشبيه بما لا يُعرف بما يعرف»، وفي (ف): «ليس هذا من التشبيه بما لا يعرف، بل هو تشبيه لما لا يعرف بما يعرف»، وفيها جميعاً خلل، وما في (ف) أقرب إلى الصواب، أما (ط) فقط سقط فيها قوله: «بما لا يعرف أكثر الخلق.. بل هو من».

والدليل عليه قوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾، ومعنى قوله في مُقَابَلَتِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: أنه يَفْعَلُ بأهل النار ما يُرِيدُ مِنَ العذاب، كما يُعْطِي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأملُه، فإنَّ القرآنَ يُفسِّرُ بعضُه بعضاً.

ولا يَخْدَعَنَّكَ عنه قولُ المُجْبِرَةِ: إنَّ المرادَ بالاستِثْناءِ خُرُوجُ أهل الكبائرِ مِنَ النارِ بالشفاعة، فإنَّ الاستِثْناءَ الثاني يُنادي على تكذيبِهِم ويُسجِّلُ بافْتِرائِهِم، وما ظنُّكَ بقوم نَبَذُوا كتابَ الله لَمَّا رَوَى لهم بعضُ النَّوَابِتِ عن عبدِ الله بنِ عَمْرٍو بنِ العاصِ: «لِأَيَّتِنَّ عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ تَصِفُوقُ فِيهِ أَبَوابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبِثُونَ فِيهَا أَحْقَاباً»، وقد بَلَّغْنِي أَنَّ مِنَ الضُّلَّالِ مَنْ اغْتَرَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، ...

قوله: (والدليل عليه): أي: على أن الاستثناء في الخلود من عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة، لا الانقطاع من العقاب والثواب مطلقاً، لأنَّ قوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ يدلُّ على أن لا انقطاعاً للثواب، فكذلك ينبغي أن يُرادَ من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، لأنه مُقَابَلُهُ، وهو مَذْهَبُهُ^(١)، وسيجيءُ بطلانُهُ.

قوله: (النَّوَابِتِ)، الجوهرية: «النَّوَابِتُ مِنَ الْأَحْدَاثِ: الْأَغْصَانُ»، وقيل: النَّابِتَةُ: قَوْمٌ مِنَ الْحَشَوِيَّةِ لَا رَأْيَ لَهُمْ.

قوله: (الاستثناء الثاني يُنادي على تكذيبِهِم): قلت: كلا، بل كُلُّ مِنَ الاستِثْناءِينِ في عَوِيلٍ وَضَجِيجٍ بِتَأْوِيلِكَ؛ أَمَّا الْأَوَّلُ: فَلِأَنَّ اسْمَ النَّارِ غُلِبَتْ لِدَارِ الْعِقَابِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَنَّا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ *﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٢]، ولو لم يكن اسمُ النارِ مُشْتَمِلاً على أنواعِ العذابِ، كَالنَّارِ وَالْمُهْلِ وَالضَّرِيعِ وَالسَّلَاسِلِ وَالزَّمْهَرِيرِ، لَكَانَ طَلَبُ الْوَقَايَةِ عَنْهَا مُطْلَقاً لَا يُغْنِي عَنِ الْمَذْكُورَاتِ، وَلِأَنَّ مِنَ إِطْلَاقِ اسْمِ النَّارِ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ لَا

(١) أي: عقيدته الاعتزالية في خلود أصحاب الكبائر في النار.

وهذا ونحوه - والعياذُ بالله - مِنَ الْخِذْلَانِ الْمُبِينِ، زادنا الله هدايةً إلى الحقِّ، ومعرفةً بكتابه، وتنبهاً على أن نَعْقِلَ عنه، وَلَيْتُنْ صَحَّحَ هذا عن ابن العاص، فمعناه: أنهم يُخْرِجُونَ مِنَ حَرِّ النَّارِ إِلَى بَرْدِ الزَّمْهَرِيرِ، فذلك خُلُوُّ جَهَنَّمَ وَصَفْقُ أَبْوَابِهَا، وأقول: ما كَانَ لِابْنِ عَمْرٍو فِي سَيْفِيهِ، وَمُقَاتَلَتِهِ بِهِمَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَا يَشْغَلُهُ عن تسيير هذا الحديث.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ * فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِمَّا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [١٠٨-١٠٩]

﴿غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ غيرَ مقطوع، ولكنه مُتَمَدُّ إلى غير نهاية، كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٨، الانشقاق: ٢٥].

يَتَبَادَرُ إِلَّا دَارُ الْعِقَابِ، كما أن من اسم الجنة لا يفهم إلا دارُ الثواب، قال المصنّف في أول تفسير سورة البقرة^(١): «الجنة: اسمٌ لدارِ الثوابِ كُلِّهَا، وهي مُشْتَمِلَةٌ على جِنَانٍ كَثِيرَةٍ»، وهي على تنجِجِ الأَسَاءِ الغالبةِ اللاحِقةِ بالأعلام.

وأما الثاني: فلأنَّ الذَّوْقَ السَّلِيمَ والطَّبْعَ المُسْتَقِيمَ يَأْبَى أن يُقال: إنَّ الذينَ سَعِدُوا ففِي الجنةِ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا أن يُنْقَلُوا إلى رِضْوَانِ اللَّهِ، وِرِضْوَانُ اللَّهِ أيضاً كائِنُ فِي الجنةِ، عن البخاريِّ ومُسلمٍ والترمذيِّ^(٢) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأهلِ الجنةِ: يا أهلَ الجنةِ، فيقولون: لَكَيْتَ وَسَعْدَيْكَ، والخيرُ بِيَدِكَ، فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: ما لنا لا نَرْضَى يا رَبَّنَا، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فيقول: أَلَا

(١) في تفسير الآية ٢٥ منها (٢: ٣٥٥).

(٢) البخاري (٦٥٤٩) و(٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩)، والترمذي (٢٥٥٥).

أَعْطَيْكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فيقولون: أَيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؟ فيقول: أَجَلٌ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا.

هذا، ثم قوله: «الاستِثْنَاءُ الثَّانِي يُنَادِي عَلَى تَكْذِيبِهِمْ» - يعني: كما لا يُوجِبُ خُرُوجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْجَنَّةِ، كَذَلِكَ الْأَوَّلُ - : يَرُدُّهُ تَدْوِيلُ كُلِّ مِنَ الْآيَتَيْنِ بِمَا يُخَالِفُ الْأُخْرَى، فَإِنَّ اخْتِلَافَهَا يَدُلُّ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَكَمَيْنِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ رَدٌّ لِمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الْمُعْتَرِضُ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ بِالْحَسَنِ وَالْقُبْحِ، وَأَنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ وَاجِبَانِ، رَدًّا بَلِيغًا، حَيْثُ جِيءَ بِهِ مُصَدَّرًا بِ«إِنَّ»، عَلَى وَجْهِ تَقْوِي الْحَكْمِ، وَبِنَاءِ «فَعَالٍ» لِلْمُبَالَغَةِ.

وَيَعُضِدُ هَذَا التَّفْسِيرَ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءٍ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءٍ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مَلَأُهَا».

ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الِاسْتِثْنَاءَ لَيْسَ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّهُ اسْمٌ مُصَدَّرٌ يُؤَكِّدُ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ، فَلَوْ جُعِلَ الِاسْتِثْنَاءُ مِنَ الْخُلُودِ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ لَخَرَجَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مُؤَكِّدًا، فَوَجِبَ أَنْ يُجْعَلَ الِاسْتِثْنَاءُ^(٢) مِنْ أَسْلُوبِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَدْوُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَةَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، يَعْنِي: أَنَّ انْقِضَاءَ مُدَّةِ بَقَائِهِمْ فِيهَا مُحَالٌ، فَيَخْلُدُونَ فِيهَا أَبَدًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَقَدْ عَلِمَ اتِّفَاقًا أَنَّ مَشِئَةَ اللَّهِ عَلَى الْخُلُودِ فِيهَا، فِإِذَنْ لَا انْقِطَاعَ لَخُلُودِهِمْ.

ثُمَّ إِنِّي وَقَفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَا يُوَافِقُ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ نَصِّ الرَّجَاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معناه: هُوَ لَا يَشَاءُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْهَا، كَمَا تَقُولُ: أَنَا أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا إِلَّا أَنْ أَشَاءَ

(١) البخاري (٤٨٥٠) و(٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، والترمذي (٢٥٦١).

(٢) من قوله: «ليس على طريقة الأول» إلى هنا، سقط من (ط).

غير ذلك، ثم تُقِيمُ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ، وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَالْفَائِدَةُ فِيهِ: أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ لَقَدِيرٌ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَعْلَمْنَا أَنَّهُمْ خَالِدُونَ أَبَدًا. هَذَا مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ اللَّغَةِ»^(١).
وَصَرَّحَ الْمُصَنِّفُ فِي الْكَهْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا نُقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤]: «أَنَّ الْأَسْتِثْنََاءَ بِمَعْنَى التَّأْيِيدِ».

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «قَوْلُ الْمُجْبِرَةِ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْتِثْنََاءِ خُرُوجُ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ»: فَلَيْسَ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَرْفَعُونَ حَدِيثَ الْخُرُوجِ إِلَى الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٢) عَنْ جَابِرٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ بِالشَّفَاعَةِ كَأَنَّهُمْ الشُّعَارِيرُ»، الشُّعَارِيرُ - بِالثَّنَاءِ الْمُثَلَّثَةِ وَالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ^(٣) - : صِغَارُ الْقِتَاءِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٤) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحَصِينِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ».
وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ بَلَغَتْ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ كَثْرَةً وَصِحَّةً.

لَكِنِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَنَسَبَهُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، فَهَمْ بَرِيئُونَ عَنْهُ، فَقَدْ صَرَّحَ بِوَضْعِهِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِ «الْمَوْضُوعَاتِ»^(٥).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٧٩ - ٨٠).

(٢) البخاري (٦٥٥٨)، ومسلم (١٩١).

(٣) في الأصول الخطية: «والغين المعجمة»، وكُتِبَتْ «الشُّعَارِيرُ» فِي الْمَوْضِعِينَ السَّابِقِينَ بِنَقَطِ الْغَيْنِ «الشُّعَارِيرُ»، وَهُوَ خَطَأٌ، وَالتَّصْوِيبُ مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ، وَانظُرْ: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير، مادة (شعر)، و«فتح الباري» للمحافظ ابن حجر (١١: ٤٢٩).

(٤) البخاري (٦٥٦٦)، وأبو داود (٤٧٤٠)، والتِّرْمِذِيُّ (٢٦٠٠). وَأَخْرَجَهُ أَيْضاً ابْنُ مَاجَه (٤٣١٥).

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ (٧٤٥٠) وَ(٦٥٥٩).

(٥) «الموضوعات» لابن الجوزي (٣: ٢٦٨).

ورواه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على جهنم يوم ما فيها من بني آدم أحد، تصفُّقُ أبوابها، كأنها أبوابُ الموحِّدين»^(١).

وأما تفسيرُ الاستثناءِ بالنقلِ من النارِ إلى الزَّمَّهْرِيرِ: فما جاء فيه نقلٌ يُعْتَمَدُ عليه.
وأما قوله: «أما كان لابنِ عمرو في سَيْفِيهِ ما يَشْغَلُهُ عن تَسْيِيرِ هذا الحديثِ»: ففيه - والعياذُ بالله - الطَّعْنُ فيمَن هو من أكابرِ الصَّحابة، ومن العُلَماءِ المشاهيرِ منهم، ومن العابدينَ فيهم؛ من وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أنه عمَدَ إلى وَضْعِ الحديثِ على رسولِ الله ﷺ، ومع ذلك اجتهَدَ في تَسْيِيرِهِ^(٢).
وثانيهما: أنه قاتَلَ علياً رضي اللهُ عنها بسَيْفِيهِ؛ لِسانِهِ وحُسامِهِ.
هذا - والله - خسارةٌ عظيمةٌ لا يُقَدِّمُ عليه مُتدَيِّنٌ.

قال ابنُ عبدِ البرِّ في «الاستيعاب»: «إنه كانَ فاضِلاً حافِظاً عالِماً، وكان يَسْرُدُ الصَّوْمَ، ولا ينامُ الليلَ، وحديثُ مُراجَعَتِهِ معَ النبيِّ ﷺ في الصَّيامِ^(٣) وختمَ القرآنَ^(٤) مشهوراً، وقال: «إنه اعتدَرَ من شُهوَدِهِ صِفِّينَ، وأقسَمَ أنه لم يَزِمَ فيها بُرْمُحَ ولا سَهْمَ، وإننا شهِدَها لِعَزْمَةِ أبيه عليه، وأن رسولَ الله ﷺ كانَ قالَ له: «أطعَ أباك»^(٥)، وكان يقول: «ما لي ولصِفِّينَ، ما لي ولقتالِ المُسْلِمِينَ، والله لَوَدِدْتُ أني مِتُّ قبلَ هذا بعَشْرِ سِنِينَ، وقال: أما والله ما صَرَبْتُ فيها بسَيْفٍ، ولا طَعَنْتُ فيها بُرْمُحَ، ولا رَمَيْتُ بسَهْمٍ»^(٦).

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩: ١٢٢).

(٢) تحرّف في (ف) إلى: «تفسيره».

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٦) و(١٩٧٧) و(٣٤١٨)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو نفسه رضي اللهُ عنه.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٧٨) و(٥٠٥٢ - ٥٠٥٤)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو أيضاً.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥٣٨) و(٦٩٢٩).

(٦) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤: ٢٦٦) و(٧: ٤٩٥).

قَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي «الْأَمَالِي»: «الاسْتِثْنَاءُ الْأَوَّلُ مُتَّصِلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ الْمُرَادَ بِ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: جَمِيعُ الزَّمَانِ بَعْدَ الْبَعْثِ، فَاسْتِثْنِيَ زَمَنُ إِقَامَتِهِمْ فِي السَّمْحَسْرِ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا فِي النَّارِ حَيْثُذ. رَوَى الْوَاحِدِيُّ هَذَا الْوَجْهَ عَنِ الرَّجَّاجِ^(١)، قَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا بَعِيدٌ، لِأَنَّ الْاسْتِثْنَاءَ وَقَعَ عَنِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْخُلُودَ فِيهَا كَيْفِيَّةٌ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْحَصُولِ فِيهَا، فَقَبْلَ الْحَصُولِ فِي النَّارِ امْتَنَعَ حَصُولُ الْخُلُودِ فِيهَا، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْخُلُودُ، لَمْ يَحْصُلِ الْمُسْتِثْنَى مِنْهُ^(٢)، وَإِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْمُسْتِثْنَى مِنْهُ امْتَنَعَ حَصُولُ الْاسْتِثْنَاءِ^(٣).

وثانيهما^(٤): «أَنْ يَكُونَ ﴿الَّذِينَ شَقُّوا﴾ عِبَارَةً عَنِ الْكُفَّارِ وَعُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ اسْتِثْنَاءً إِمَّا الْمُدَّةَ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ إِخْرَاجِ الْعُصَاةِ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا فِيهَا حَيْثُذ، وَإِمَّا لِمَنْ يَخْرُجُ؛ اسْتِعْمَالاً لِـ«مَا» بِمَعْنَى: «مَنْ»، وَيَكُونُ اسْتِثْنَاءً مِنْ ﴿الَّذِينَ شَقُّوا﴾، لَا مِنْ «مَا دَامَتِ»^(٥).

قَالَ الْإِمَامُ: «هَذَا الْاسْتِثْنَاءُ يُفِيدُ إِخْرَاجَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ مِنَ النَّارِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَنَفَى النَّارَ﴾ يُفِيدُ أَنَّ جُمْلَةَ الْأَشْقِيَاءِ مُحْكَمٌ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْحُكْمِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، فَوَجَبَ أَنْ لَا يَبْقَى ذَلِكَ الْحُكْمُ عَلَى ذَلِكَ الْمَجْمُوعِ، وَيَكْفِي فِي زَوَالِ حُكْمِ الْخُلُودِ عَنِ الْمَجْمُوعِ زَوَالُهُ عَنْ بَعْضِهِمْ، فَوَجَبَ أَنْ لَا يَبْقَى حُكْمُ الْخُلُودِ لِبَعْضِ الْأَشْقِيَاءِ، وَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ

(١) «الوسيط» للواحدى (٢: ٥٩١)، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٨٠).

(٢) من قوله: «كيفية من كيفية الحصول فيها» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٤٠٣).

(٤) عاد الكلام لابن الحاجب، والمؤلف أحمم فيه ما نقله الواحدى عن الزجاج، وما قاله الإمام الرازى، عليهم جميعاً رحمة الله تعالى.

(٥) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١١٤-١١٥).

الخلود واجب للكفار وَجِبَ أَنْ يُقَالَ: الَّذِينَ زَالَ حُكْمُ الْخُلُودِ عَنْهُمْ هُمُ الْفُسَّاقُ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ^(١).

وَتَبِعَهُ الْقَاضِي حَيْثُ قَالَ: ﴿إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ - وَهُمْ فُسَّاقُ الْمُؤَحِّدِينَ - يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَذَلِكَ كَافٍ فِي صِحَّةِ الْاسْتِثْنَاءِ، لِأَنَّ زَوَالَ الْحُكْمِ عَنِ الْكُلِّ يَكْفِيهِ زَوَالُهُ عَنِ الْبَعْضِ، وَهُمْ الْمُرَادُ بِالْاسْتِثْنَاءِ الثَّانِي، فَإِنَّهُمْ مُفَارِقُونَ عَنِ الْجَنَّةِ أَيَّامَ عَذَابِهِمْ؛ فَإِنَّ التَّأْيِيدَ مِنْ مَبْدَأٍ مُعَيَّنٍ يَنْقُضُ بِاعْتِبَارِ الْإِبْتِدَاءِ، كَمَا يَنْقُضُ بِاعْتِبَارِ الْإِنْتِهَاءِ، وَهَذَا وَإِنْ شَقُوا بَعْضِيَانِهِمْ، فَقَدْ سَعِدُوا بِإِيْمَانِهِمْ. لَا يُقَالُ: فَعَلَى هَذَا لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تَقْسِيماً صَحِيحاً؛ لِأَنَّ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ تَكُونَ صِفَةً كُلِّ قِسْمٍ مُتَّفِقَةً عَنِ قِسْمِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ حَيْثُ التَّقْسِيمُ لِانْفِصَالِ حَقِيقَتِيٍّ أَوْ مَانِعٍ مِنَ الْجَمْعِ، وَهَاهُنَا الْمُرَادُ أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ لَا يَخْرَجُونَ عَنِ الْقِسْمَيْنِ، وَأَنَّ حَالَهُمْ لَا يَخْلُو عَنِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ اجْتِمَاعَ الْأَمْرَيْنِ فِي شَخْصٍ بِاعْتِبَارَيْنِ^(٢).

وَقَالَ الرَّجَّاجُ وَالسَّجَّاءُ وَنَدِي: «مَا» بِمَعْنَى: «مَنْ»، لِأَنَّ الْمُرَادَ الْعَدَدُ لَا الشَّخْصَ^(٣) - كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] - ، و«إِلَّا» بِمَعْنَى «سِوَى»، كَقَوْلِكَ: عَلَيَّ أَلْفَانِ إِلَّا أَلْفَ الَّذِي كَانَ، يَعْنِي: سِوَى، أَي: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ سِوَى مَا سَاءَ رَبُّكَ مِنَ الزِّيَادَةِ الَّتِي لَا آخِرَ لَهَا عَلَى مُدَّةِ بَقَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٤).
وَقُلْتُ: الْحَقُّ الَّذِي لَا يَحِيدُ عَنْهُ: أَنْ تُحْمَلَ «مَا» عَلَى مَعْنَى: «مَنْ»؛ لِإِرَادَةِ الْوَصْفِيَّةِ، وَهِيَ

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٤٠٣).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٦٣).

(٣) يعني: أَنْ «مَا» تُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ الْعَاقِلِ، وَ«مَنْ» فِي الْعَاقِلِ، وَالَّذِي سَوَّغَ اسْتِعْمَالَ «مَا» هُنَا بِمَعْنَى «مَنْ»: كَوْنُ الْمُرَادِ الْعَدَدَ لَا الشَّخْصَ، فَأَشْبَهَ غَيْرَ الْعَاقِلِ.

(٤) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٧٩).

لَمَّا قَصَّ قَصَصَ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ، وَذَكَرَ مَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنْ نِقْمِهِ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ، قَالَ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَتُولَاءَ﴾ ❀ أي: فلا تشكَّ بعدما أنزلَ عليك من هذه القصص في سوءِ عاقبةِ عبادتهم وتعرضهم بها لِمَا أصابَ أمثالهم قبلهم؛ تسليّةً لرسولِ الله ﷺ، وعدّةً بالانتقام منهم، ووعيداً لهم، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ ❀ يريد: أن حالهم في الشركِ مثل حالِ آبائهم من غير تفاوتٍ بينَ الحالين، وقد بلغك ما نزلَ بآبائهم، فسيتزلنَّ بهم مثله، وهو استئنافٌ معناه تعليلُ النهي عن المِرية.

و«ما» - في ﴿مِمَّا﴾ و﴿كَمَا﴾ - يجوزُ أن تكونَ مصدريةً وموصولةً،

المرحومية، ليؤذنَ أن إخراجهم لمحضِ مشيئتهِ وسبقِ رحمتهِ، لا لاستحقاقِ منهم، فينطبقُ عليه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. وتحقيقه: أن قوله: ﴿خَلْدِيكَ فِيهَا﴾ ❀ حالٌ مُقدّرةٌ من ضمير الاستقرارِ في الظرف، أي: ﴿فِي النَّارِ﴾، وأنت تعلمُ أن الحالَ قيدٌ للحكم، فإذا انتفى الحكمُ من البعضِ بالاستثناءِ ينتفي مُقيداً، المعنى: إن الذين شقوا مُستقرّونَ في النارِ مُقدّرينَ الخلودَ إلا المرحومَ الذي شاء الله أن لا يستقرَّ مُخلداً. فيقيدُ إما أن لا يستقرَّ فيها مُطلقاً أو يستقرَّ غيرَ مُخلد، وأحوالُ العصاةِ على هذا النهج، كما علّمَ من التّصوُّصِ الصحيحةِ.

وقال المصنّف: «زادنا الله هدايةً إلى الحقِّ ومعرفةً بكتابه»، ونقول: زادنا الله اطلاعاً على كُشفِ أَسْتارِ التّنزِيلِ لِنُدَبِّ عن مذهبِ أهلِ الحقِّ، ووقوفاً على الجمعِ بينَ الكتابِ والسنةِ، ونعوذُ باللهِ مِنَ الزَّيغِ عَنِ سَنَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسُنَنِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ.

قوله: ﴿وَتَعَرَّضُوهُمْ بِهَا لِمَا أَصَابَ﴾: اللامُ: صلةُ التّعرضِ. الجوهري: «عَرَّضْتُ فُلَانًا لِكَذَا، فَتَعَرَّضَ هُوَ لَهُ»، والباءُ في «بها»: للسببِ، أي: تعرّضهم لِمَا أصابَ أمثالهم بسببِ العبادة.

قوله: (وهو استئنافٌ معناه تعليلُ النهي): يعني: لِمَا نهاهُ بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ﴾ ❀، أي: لا تشكَّ في سوءِ عاقبةِ عبادتهم، قدّرَ السائلُ أن يقولَ: لِمَ ما أشكُّ في سوءِ عاقبتهم؟ فأجاب: لأنَّ حالهم في الشركِ مثل حالِ آبائهم، فيهلكهم الله كما أهلكَ آباءهم.

أي: من عبادتهم وعبادتهم، أو: مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها.

﴿وَأِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ أي: حظهم من العذاب، كما وفينا آباءهم أنصباءهم.

فإن قلت: كيف نُصِبَ ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حالاً عن النَّصِيبِ المَوْفَى؟ قلت: يجوزُ أن يُوفَى وهو ناقص، ويُوفَى وهو كامل، ألا تراك تقول: وفيتُه شَطْرَ حَقِّه، وتُلثَ حَقِّه، وحَقُّه كاملاً وناقصاً.

[﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ

بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ (١١٠)]

﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ آمن به قوم، وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾

يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التسلية أيضاً.

[﴿وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١١)]

قوله: (أي: من عبادتهم وعبادتهم): فيه نشر، يعني: على تقدير أن تكون «ما» في الصورتين

مصدرية: معناه هذا، وعلى تقدير أن تكون موصولة: معناه: مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها.

قوله: (يجوز أن يُوفَى وهو ناقص، ويُوفَى وهو كامل)، الانتصاف: «هذا وهم، لأنَّ

التَّوْفِيَةَ تقتضي عَدَمَ نُقْصَانِ المَوْفَى، كُلاً كَانَ أَوْ بَعْضاً، فوفاء النَّصْفِ يلزمُ منه عَدَمُ نُقْصَانِ

النَّصْفِ، فما وَجَهُ جَعْلِهِ حالاً؟! والأصحُّ أن تُسْتَعْمَلَ «التَّوْفِيَةُ» بمعنى: الإعطاء، كما استعمل

«التَّوْفِي» بمعنى: الأخذ، ومن قال: أعطيتُ فلاناً حَقَّهُ، كانَ جَدِيراً أن يُؤكِّدَهُ بقوله: غير

منقوص»^(١).

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٢٩٥) بحاشية «الكشاف».

﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ التنوينُ عَوْضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، يعني: وَإِنْ كُلَّهُمْ، وَإِنْ جَمِيعَ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِ، ﴿لِيُؤْفِقِيَنَّهُمْ﴾ جوابُ قَسَمٍ مَحذُوفٍ، وَاللَّامُ فِي ﴿لَمَّا﴾ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، و«ما» مزيدة. والمعنى: وَإِنْ جَمِيعَهُمْ وَاللَّهِ لِيُؤْفِقِيَنَّهُمْ، ﴿رَبِّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ مِنْ حَسَنِ وَقَبِيحٍ، وَإِبْرَانٍ وَجُحُودٍ.

وقلت: والحقُّ أَنَّ سَبِيلَ قَوْلِهِ: ﴿عَبَّرَ مَنُوصٌ﴾ سَبِيلُ الْحَالِ الْمُؤَكِّدَةِ، وَهِيَ أَنْ تُقَرَّرَ مَضمونَ الْجُمْلَةِ لِدَفْعِ تَوْهُمِ التَّجَوُّزِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ وَايَأْتِيَتْكُمْ مُدِيرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].
قوله: ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ التنوينُ عَوْضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ: أَبُو عَمْرٍو وَالْكَسَائِيُّ قَرَأَ بِتَشْدِيدِ «إِنْ» وَتَخْفِيفِ ﴿لَمَّا﴾ (١).

قوله: (وَاللَّامُ فِي ﴿لَمَّا﴾ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، و«ما» مزيدة): قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: «وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الْمُوَطَّئَةَ لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى شَرْطٍ، فَالْوَجْهُ أَنَّ اللَّامَ الْأُولَى: هِيَ الدَّاخِلَةُ عَلَى خَبَرِ «إِنْ»، وَالثَّانِيَةِ: جَوَابُ قَسَمٍ، و«ما»: مَزِيدَةٌ، لِئَلَّا تَتَلَقَّى لِامَانٍ، تَقْدِيرُهُ: إِنْ كُلَّهُمْ لَوَاللَّهِ لِيُؤْفِقِيَنَّهُمْ»، تَمَّ كَلَامُهُ.

وهو قولُ أَبِي عَلِيٍّ فِي «الْحِجَّةِ» (٢)، ذَكَرَ أَنَّ اللَّامَ فِي «إِنْ زِيداً لَمَّا لِيَنْطَلِقَنَّ» - عَلَى قَوْلِ سَبِيوَيْهِ - : هِيَ اللَّامُ الَّتِي تَقْتَضِيهِ «إِنْ»، وَاللَّامُ الْأُخْرَى: هِيَ اللَّامُ الَّتِي تَتَلَقَّى الْقَسَمَ، وَدَخَلَتْ «ما» لِتَفْصَلَ بَيْنَ اللَّامِيْنِ مَعَ اتِّفَاقِ اللَّفْظِيْنِ.

وقلت: نَظَرُهُ نَشَأٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: «اللَّامُ الْمُوَطَّئَةُ لِلْقَسَمِ: هِيَ الَّتِي فِي قَوْلِكَ: وَاللَّهِ لِيُنْ أكرمَتِي لِأَكْرَمَتِكَ»، كَمَا فِي «المُفْصَلِ» (٣)، وَتَفْسِيرُ ابْنِ الْحَاجِبِ لَهُ: «اللَّامُ الْمُوَطَّئَةُ لِلْقَسَمِ: هِيَ اللَّامُ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الشَّرْطِ بَعْدَ تَقَدُّمِ الْقَسَمِ لَفْظاً أَوْ تَقْدِيرًا، لِتُؤَدِّنَ أَنَّ الْجَوَابَ لَهُ لَا لِلشَّرْطِ،

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٣٩، و«التيسير» للداني ص ١٢٦، و«حجة القراءات» ص ٣٥٠.

(٢) انظر: «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٨٤-٣٨٥).

(٣) «المفصل» للزنجشيري ص ٣٢٧.

وَقُرِي: «وإن كُلاً» بالتخفيف؛ على إعمالِ المُخَفَّفَةِ عَمَلِ الثَّقِيلَةِ،

فهذا معنى تَوَطَّيْتِهَا، وليست جوابَ الْقَسَمِ، وإنما الجوابُ ما يأتي بعدَ الشَّرْطِ^(١).
ويمكنُ أن يُقال: معنى التَّوَطَّيَةِ فيها: هو أنها تَوَطَّأَتْ مكانَ الْقَسَمِ، من قولهم: تَوَطَّأَتْهُ
بِقَدَمِي، وهذا مَوَطَّيٌّ قَدَمِي، أي: دَلَّتْ على أَنَّ اللامَ التي تليها مما يَصْلُحُ أن تكونَ جواباً لِقَسَمِ
مُحذوف، فهذا لا يُوجِبُ الاختِصاصَ بأن يكونَ مدخولها شَرْطاً البتَّة، وبه تُعَلَّمُ عِلَّةُ التَّسْمِيَةِ؛
إذ رعايةُ التَّنَاسُبِ بينَ الاسمِ والمُسمَى منظورٌ فيه.

فعلى هذا: الجملةُ الْقَسَمِيَّةُ بتمامها وقعت خَبَرًا لـ «إن»، واستغْنِيَ بمعنى التأكيد فيها
عن ذكرِ اللامِ، ويعضدُ ما ذَكَرناهُ تقديره: «وإنَّ جميعهم والله لَيُؤْفِقِينَهُم»؛ حيث أوقع الْقَسَمَ
خَبَرًا لـ «إن»، وأسقطَ اللامَ الأولى لإقامة المدلولِ مقامَ الدالِّ.

قال صاحبُ «التخميم»^(٢): «أجمع الكوفيون وكثيرٌ من البصريين على أن اللامَ
الأولى: خَلَفَتْ مِنَ الْقَسَمِ، والثانية: لامُ جوابِ الْقَسَمِ»^(٣). وذكرَ صاحبُ «الإقليد»^(٤): أنَّ
اللامَ في قوله: ﴿وإنَّ كُلاً لَمَّا يُؤْفِقِينَهُمْ﴾: مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، والتقدير: والله لَمَّا، و«ما»: مَزِيدَةٌ، وفي
﴿لَيُؤْفِقِينَهُمْ﴾: جوابُ الْقَسَمِ^(٥)، أي: وإنَّ كُلاً والله لَيُؤْفِقِينَهُمْ، وقال: التوطئةُ كثرةُ الوَطْءِ،
وهي الرِّياضَةُ، كقولك: وَطَّيْتُ الفَرَسَ وَوَطَّيْتُ المَرْكَبَ، تقول: هذه اللامُ وَطَّأَتْ جوابَ
الْقَسَمِ، أي: سَهَّلَتْ نُفَهُمُ الجوابَ على المُقَسَمِ له.

قوله: «(وإنَّ كُلاً) بالتخفيف»: قال ابنُ الحاجب: «هي قراءةُ ابنِ كثيرٍ ونافعٍ^(٦)، و«إن»:

(١) «الإيضاح في شرح المُفَصَّل» لابنِ الحاجب (٢: ٢٧٠).

(٢) تقدَّم التعريفُ به تعليقا عند تفسير الآية ٣٢ من سورة الأنفال (٧: ٩٠).

(٣) «التخميم» (٤: ١٦٨).

(٤) يعني: العلامةُ شرفُ الدِّينِ الجندِي، رحمه الله تعالى. تقدَّم التعريفُ به تعليقا عند تفسير الآية ٥٤
من هذه السُّورة.

(٥) من قوله: «وذكرَ صاحبُ الإقليد» إلى هنا، سقطَ من (ف).

(٦) وهي قراءةُ أبي بكرٍ عن عاصمٍ أيضًا، كما في «التيسير» للداني ص ١٢٦.

اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل. وقرأ أبي: «وإنَّ كُلَّ لَيُوفِيَنَّهُمْ»؛ على أن «إنَّ» نافية، و«لَمَّا» بمعنى: إلا، وقرأة عبد الله مفسّرة لها:

«وإنَّ كُلَّ لَيُوفِيَنَّهُمْ»، وقرأ الزُّهْرِيُّ وسُليمانُ بنُ أرقم: «وإنَّ كُلَّ لَمَّا لَيُوفِيَنَّهُمْ» بالتنوين، كقوله: ﴿أَكَلَا لَمَّا﴾ [الفجر: ١٩]،

مُحْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، و﴿كَلَّا﴾: منصوبٌ بها؛ على إحدى اللَّغَتَيْنِ فِي الإِعْمَالِ وَالإِلْغَاءِ، وَهِيَ لُغَةٌ فَصِيحَةٌ، وَاللَّامُ: هِيَ الْفَارِقَةُ، وَ«مَا»: زَائِدَةٌ أَوْ بِمَعْنَى: الَّذِي، وَ﴿لَيُوفِيَنَّهُمْ﴾ جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ خَبَرٍ «إِنَّ»، وَاللَّامُ فِيهَا: لَامُ الْقَسَمِ، وَحَسَنَ زِيَادَةٌ «مَا» لِمَا قُصِدَ عَلَى جَعْلٍ ﴿لَيُوفِيَنَّهُمْ﴾ جَوَابَ قَسَمٍ، فَلَمْ يَحْسُنْ اجْتِمَاعُ اللَّامَيْنِ؛ اللَّامُ الْفَارِقَةُ وَاللَّامُ جَوَابُ الْقَسَمِ، فَلَوْلَا «مَا» لَقِيلَ: لَلْيُوفِيَنَّهُمْ، فَرِيدَتٌ لِيُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، أَوْ صِلَةٌ لِمَا «مَا» إِنْ جَعَلْنَاهَا مَوْصُولَةً، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِنَّ هَؤُلَاءِ لِلَّذِينَ - وَاللَّهِ - لَيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ^(١).

وقال ابنُ مالك: «إهمالُ «إنَّ» المكسورة بالتخفيفِ أكثرُ من إعمالها، وإذا أُعْمِلَتْ وَهِيَ مُحْفَفَةٌ، فَالْتَكْلُمُ بِالْخِيَارِ فِي الإِتْيَانِ بِاللَّامِ وَتَرْكِهَا، كَمَا كَانَ قَبْلَ التَّخْفِيفِ، وَمِنْ إِعْمَالِهَا مُحْفَفَةٌ: ﴿وإنَّ كُلَّ لَمَّا لَيُوفِيَنَّهُمْ﴾»^(٢).

قوله: «(وإنَّ كُلَّ لَمَّا لَيُوفِيَنَّهُمْ)»: قَالَ ابْنُ جِنِّي: «معناه: مَا كُلُّ إِلا وَاللهُ لَيُوفِيَنَّهُمْ، كَقَوْلِكَ: مَا زِيدٌ إِلا لِأَضْرِبَنَّهُ^(٣)، أَي: مَا زِيدٌ إِلا مُسْتَحَقٌّ لِأَن يُقَالَ فِيهِ هَذَا»^(٤).

قوله: «(وإنَّ كُلَّ لَمَّا لَيُوفِيَنَّهُمْ) بالتنوين»: قَالَ ابْنُ جِنِّي: «لَمَّا - بالتنوين - : مَصْدَرٌ، كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكَلًا لَمَّا﴾ [الفجر: ١٩]، أَي: أَكَلًا جَامِعًا

(١) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ٦٦-٦٧).

(٢) انظر «شرح الكافية الشافية» (١: ٥٠٣-٥٠٥).

(٣) في (ح) و(ف): «إلا ضربته»، وهو خطأ، والمُثَبِّتُ (ط)، وهو المُوافِقُ لِمَا فِي «المحتسب» لابن جِنِّي.

(٤) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣٢٨).

والمعنى: وَإِنَّ كُلاًّ مَلْمُومِينَ، بمعنى: مجموعين، كانه قيل: وَإِنَّ كُلاًّ جَمِيعاً، كقوله:
﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣].

[﴿ فَاسْتَقَمَ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَرُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ١١٢]

﴿ فَاسْتَقَمَ كَمَا أَمَرْتَ ﴾ فاستقيم استقامةً مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق، غير عادلٍ عنها، ﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ معطوفٌ على المُسْتَقِيمِ في «استقيم»، وإنما جاز العطفُ عليه - ولم يُؤكّد بمُنْفَصِلٍ - لقيام الفاصِلِ مقامه، والمعنى: فاستقيم أنت وليسَ استقيم من تابَ عن الكُفْرِ وَأَمَّنَ مَعَكَ، ﴿ وَلَا تَطْفَرُوا ﴾ ولا تخرجوا عن حُدُودِ اللَّهِ، ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالمٌ فهو مُجَازِيكُمْ به، فاتقوه.

لأجزاء المأكول، وكذلك تقديرُ هذا بمعنى: وَإِنَّ كُلاًّ لَيُؤْفِقِينَهم رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ لَمَّا، أي: تَوْفِيَةً جامعةً لأعمالهم جميعاً، ومُحْصَلَةً لأعمالهم تحصيلاً، فهو كقولك: قياماً لأقومن، وقعوداً لأفعدن^(١).

والمُصَنَّفُ ذهب إلى التوكيد، لقوله: «وَإِنَّ كُلاًّ جَمِيعاً»^(٢).

وقال أبو البقاء: «وانتصابه على الحالِ مِنْ ضميرِ المفعولِ في ﴿لَيُؤْفِقِينَهم﴾ ضعيف»^(٣).

قوله: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالمٌ فهو مُجَازِيكُمْ به فاتقوه: أشار بقوله: «فاتقوه» إلى أن قوله: ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تعليلٌ للأمرِ والنهي وتهديد، قال القاضي: «في الآية دليلٌ على وجوبِ اتباعِ النُّصُوصِ، مِنْ غيرِ تَصَرُّفٍ وانحرافٍ بنحوِ قياسٍ واستحسان»^(٤).

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٢٨).

(٢) في الأصول الخطية: «وَإِنَّ كُلاًّ بِمَعْنَى جَمِيعاً»، وأثبت ما في «الكشاف»، وهو الأَنَسْبُ للسياق.

(٣) «التيبان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧١٦).

(٤) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٦٦).

والكلامُ في القياس والاستحسان فيما فيه نص، كما هو ظاهرٌ من سياق الكلام، أما القياسُ والاستحسانُ فيما لا نصُّ فيه فلبَّ الفقه ولبابه.

وعن ابن عباس: «ما نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ آيَةٌ كَانَتْ أَسَدًّا وَلَا أَشَقَّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ»، ولهذا قال: «شَيْبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَأَخَوَاتُهُمَا»، وَرُوي: أَنْ أَصْحَابَهُ قَالُوا لَهُ: لَقَدْ أَسْرَعَ فِيكَ الشَّيْبُ؟ فَقَالَ: «شَيْبَتْنِي هُودٌ». وَعَنْ بَعْضِهِمْ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ، فَقُلْتُ لَهُ: رُويَ عَنْكَ أَنْكَ قُلْتَ: «شَيْبَتْنِي هُودٌ»، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: مَا الَّذِي شَيْبَكَ مِنْهَا؟ أَقْصَصُ الْأَنْبِيَاءَ وَهَلَاكُ الْأُمَّمِ؟ قَالَ:

وقلت: يُمكنُ أَنْ يُجْعَلَ ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَمِيمًا وَمُبَالَغَةً، الْمَعْنَى: فَاسْتَقِيمُوا حَقَّ الْإِسْتِقَامَةِ، فَإِنَّهُ بِصِيرٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سِرُّكُمْ وَعَلَانِيَتُكُمْ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ وَالْإِخْلَاصِ.

قوله: (قال: «شَيْبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ»): رَوَيْنَا عَنْ التِّرْمِذِيِّ^(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ شَبِتَ، قَالَ: «شَيْبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»، قِيلَ: صَحَّ «هُودٌ» هُنَا غَيْرَ مُنْصَرَفٍ، كـ «ماه» و«جُور» فِي اسْمَيْ بِلَدَتَيْنِ لِلْأَسْبَابِ الثَّلَاثَةِ^(٢)، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ السُّورَةَ، لَا النَّبِيَّ^(٣).

(١) فِي «جَامِعِهِ» بِرَقْم (٣٢٩٧).

(٢) «ماه» و«جُور»: اسْمَا بِلَدَتَيْنِ بِأَرْضِ فَارِسٍ، كَمَا نَقَلَهُ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ فِي «مَعْجَمِ الْبِلْدَانِ» (٥: ٤٩) عَنْ الزُّمَخْشَرِيِّ، ثُمَّ قَالَ يَاقُوتُ: «وَلِلنَّحْوِيِّينَ هَاهُنَا كَلَامٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَسْمَ إِذَا كَانَ فِيهِ عِلْتَانِ تَمْنَعَانِ الصَّرْفَ، وَكَانَ وَسَطُهُ سَاكِنًا خَفِيفًا قَاوِمَتِ الْخِفَّةُ إِحْدَى الْعِلْتَيْنِ، فَيَصْرِفُونَهُ، وَذَلِكَ نَحْوُ: هِنْدٌ وَنُوحٌ، لِأَنَّ فِي «هِنْدٍ» التَّائِيثَ وَالْعَلْمِيَّةَ، وَفِي «نُوحٍ» الْعُجْمَةَ وَالْعَلْمِيَّةَ، فَإِذَا صَارُوا إِلَى «ماه» و«جُور» وَسَمَّوْا بِهِ بِلْدَةً مَنَعُوهُ الصَّرْفَ، وَإِنْ كَانَ أَوْسَطُهُ سَاكِنًا، لِأَنَّ فِيهِ ثَلَاثَ عِلَلٍ، وَهِيَ التَّائِيثُ وَالتَّعْرِيفُ وَالْعُجْمَةُ، فَقَاوِمَتِ خِفَّتُهُ بِسُكُونِ وَسَطِهِ إِحْدَى الْعِلَلِ الثَّلَاثِ، فَبَقِيَ فِيهِ عِلْتَانِ مَنَعَتَاهُ مِنَ الصَّرْفِ». وَانظُرْ: «الْمُفْصَّلُ» لِلْعَلَمَةِ الزُّمَخْشَرِيِّ ص ١٨.

(٣) هَذِهِ الْفِقْرَةُ - مِنْ «قَوْلِهِ: (شَيْبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ)» إِلَى هُنَا - قُدِّمَتْ فِي (ح) وَ(ف) قَبْلَ فِقْرَةِ «قَوْلِهِ: إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بِصِيرٍ»، وَوَرَدَتْ فِي (ط) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي «الْكَشَافِ».

لا، ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾. وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾، قال: افتقر إلى الله بصحة العزم.

قوله: (لا، ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾): دَلَّ هذا القول على أنها كلمة جامعة، قال الإمام: «هي جامعة لكل ما يتعلّق بالعقائد والأعمال، ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مُشكّلٌ جدّاً، وأنا أضرب لك مثلاً يُقربُ صعوبة هذا المعنى؛ الخط الذي يفصل بين الظلّ والضوء جزءٌ واحدٌ لا يقبلُ القسمة في العَرَض، فإذا قُربَ ظرفُ الظلّ من طرفِ الضوء اشتبه في الحسّ، ولم يقوَ الحسُّ على إدراك ذلك الخط، فالاستقامة بجميع أبواب العبودية كذلك، فأولها: معرفة الله، وتحصيل هذه المعرفة على وجهٍ يبقى العقل^(١) مضموناً في طرفِ الإثبات عن التشبيه، وفي طرفِ النفي عن التعطيل، في غاية الصعوبة، واعتبر سائر مقامات المعرفة وسائر الأخلاق على هذا، فالقوة الغضبية والشهوانية حصل لكل واحدٍ منها طرفاً إفراطٍ وتفريط، وهما مذمومان، والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل إلى أحد الجانبين، والوقوف عليه صعب، ثم العمل به أصعب»^(٢).

وقس على هذا الشجاعة والسخاوة والعفة، إلى هذا ينظر قول المصنّف: «فاستقم استقامةً مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق، غير عادٍ عنها»، وهذا لا يكون إلا بالافتقار إلى الله تعالى، ونفي السحول والقوة عن النفس بالكلية، فينطبق عليه قول الصادق: «افتقر إلى الله تعالى بصحة العزم».

روى السلمي عن بعضهم: مَنْ يُطبق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة، إلا مَنْ أيدَ بالمشاهدات القويّة، والأنوار البيّنة، والآثار الصادقة، ثم عصم بالثبوت، ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتَكَ

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «مفاتيح الغيب» للرازي: «العبد».

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٤٠٦).

[وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ

لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٣﴾]

قُرِي: ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا ﴾ بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء وفتح الكاف، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب «عَلِمَ يَعْلَمُ». ونحوه قراءة من قرأ: «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبلة: «وَلَا تَرْكُنُوا»، على البناء للمفعول، من: أركننه: إذا أماله.

لَقَدْ كِدَّتْ تَرْكُنُ لِإِيْتِهِ ﴿ [الإسراء: ٧٤]، قال أبو عليّ الجوزجاني: كُن طالب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإنَّ نفسك مُتحرِّكة في طلب الكرامة، وربك يطلُّب منك الاستقامة.

قوله: ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا ﴾ بفتح الكاف وضمها: قال ابن جنِّي: «قرأ طلحة وقتادة والأشهب، ورؤيت عن أبي عمرو: «وَلَا تَرْكُنُوا» بضم الكاف، وفيها لغتان: رَكِنَ يَرْكُنُ؛ كَعَلِمَ يَعْلَمُ، وَرَكِنَ يَرْكُنُ؛ كَقَتَلَ يَقْتُلُ، هذا عند أبي بكر^(١) مِنَ اللُّغَاتِ المُتداخِلَةِ»^(٢).

قوله: «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» بكسر التاء: قال ابن جنِّي: «قراءة يحمي والأعمش وطلحة بخلاف، ورواه إسحاق الأزرق^(٣) عن حمزة، هذه لغة تميم؛ أن تكسر أول مضارع ما ثاني ماضيه مكسور، نحو: عَلِمْتَ وَرَكِبْتَ^(٤)، وَتَقِلُّ الكَسْرَةُ في الياء، نحو: يَعْلَمُ، وَيَرْكَبُ؛ اسْتِشْقَالاً لِلْكَسْرَةِ في الياء، وكذلك ما في أول ماضيه همزة وضم، نحو: يَنْطَلِقُ، وَتَسْوَدُ،

(١) يعني: ابن مجاهد، تقدّم التعريف به تعليقا عند تفسير الآية ٨٠ من هذه السورة.

(٢) «المحتسب» لابن جنِّي (١: ٣٢٩).

(٣) هو أبو محمد إسحاق بن يوسف بن يعقوب الأزرق الواسطي، ويقال: الأنباري، ثقة كبير القدر، قرأ على حمزة، وروى القراءة عن أبي عمرو، وحروف عاصم عن أبي بكر ابن عيَّاش. توفي سنة ١٩٥، وقيل: ١٩٤. «غاية النهاية» لابن الجزري (١: ١٤٤).

(٤) لفظ ابن جنِّي: «نحو: عَلِمْتَ يَعْلَمُ، وَأَنَا إِعْلَمُ، وَهِيَ تَعْلَمُ، وَنَحْنُ نَرْكَبُ»، وعبارة المؤلف شديدة الاختصار.

(٥) من قوله: «نحو: علمت» إلى هنا، سقط من (ح).

والنهي مُتناوِلٌ للانحِطاطِ في هَواهُم، والانقِطاعِ إليهِم، ومُصاحِبَتِهِم ومُجالَسَتِهِم، وزِيارَتِهِم ومُداهَنَتِهِم، والرِّضا بأعمالِهِم، والتَّشْبِهُ بِهِم، والتَّزْيِي بِزِيَّتِهِم، ومَدُّ العَيْنِ إلى زَهْرَتِهِم، وذِكْرِهِم بِما فِيهِ تَعْظِيمٌ لَهُم. وتأمَّلْ قولَهُ: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾ فَإِنَّ الرُّكُونَ هُوَ المِئَلُ اليسير، وقولَهُ: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي: إلى الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُم الظُّلْمُ، ولم يَقُلْ: إلى الظالمين. وحُكِيَ أَنَّ المَوْفِقَ صَلَّى خَلْفَ الإمام، فقرأ بِهذه الآية، فغُشِيَ عَلَيْهِ، فلما أَفاق قِيلَ لَهُ، فقال: هذا فِيمَنْ رَكَنَ إلى مَنْ ظَلَمَ، فكيفَ بالظالم؟!

وتبييض، فكذلك (فَتَمَسَّكُمْ)»^(١).

قوله: (وحُكِيَ أَنَّ المَوْفِقَ): والظاهرُ أَنَّهُ أرادَ أبا أحمدَ طَلْحَةَ المَوْفِقَ بنَ المَتَوَكَّلِ، قالَ ابنُ الأثيرِ في «الكامل»: «عَقَدَ لَهُ أخُوهُ المُعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ عَلَى الكُوفَةِ والحَرَمَيْنِ واليَمَنِ وبغدادَ وواسطَ»^(٢) والبصرةَ والأهوازِ وفارسِ وكِزْمانَ، وولاهُ قِتالَ الزَّنْجِ^(٣) بالبصرة، وصاحبَهُم رَجُلٌ رَعَمَ أَنَّهُ عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ عيسى بنِ زَيْدِ بنِ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، فأبَادَهُم اللهُ عَلَى يَدِهِ، وكانَ عادِلاً حَسَنَ التَّدْبِيرِ حَسَنَ السَّيْرِ، يَجْلِسُ لِلْمَظالِمِ، وَعِنْدَهُ القُضَاةُ وَغَيْرُهُم، وكانَ عالِماً بالأدبِ والنَّسَبِ والفِقْهِ وسياسةِ المُلْكِ وَغَيْرِ ذلكَ، تُوفِّيَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَمِئَتِينَ»^(٤).

وقال ابنُ حَمْدونَ صاحبُ «التذكرة»^(٥): وكانَ العَهْدُ فِي المَوْفِقِ بَعْدَ المُعْتَمِدِ أخِيهِ، ثم فِي المَفْوضِ إِلَى اللَّهِ جَعْفَرِ بنِ المُعْتَمِدِ، فماتَ المَوْفِقُ قَبْلَ المُعْتَمِدِ، ثم بُويعَ المُعْتَصِدُ بنُ المَوْفِقِ بالعَهْدِ، وَخُلِعَ المَفْوضُ، وقالَ: كانَ المَوْفِقُ مُسْتَوِلياً عَلَى الأمرِ كُلِّهِ فِي خِلافةِ أخِيهِ المُعْتَمِدِ، حتَّى قالَ - وقد طَلَبَ ما راعى بِهِ مُعْنِياً، فمُنِعَ مِنْهُ -:

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٣٠).

(٢) في الأصول الخطية: «والواسط»، وفي «الكامل»: «والسواد وواسط».

(٣) في (ج): «وولاه قبائل الزنج»، وهو تحريف، والمثبت من (ط) و(ف)، وهو الموافق لسا في «الكامل».

(٤) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، حوادث سنة ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٧٨.

(٥) «التذكرة» (١: ٤٥٢).

وعن الحسن رحمه الله: **جَعَلَ اللهُ الدِّينَ بَيْنَ لَاءَيْنِ: ﴿وَلَا تَطْفَرُوا﴾، ﴿وَلَا تَرَكَوْا﴾.**
وَلَمَّا خَالَطَ الزُّهْرِيُّ السَّلَاطِينَ كَتَبَ إِلَيْهِ أَخُوهُ فِي الدِّينِ: «عافانا الله وإياك - أبا بكر -
 مِنَ الْفِتَنِ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ بِحَالٍ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَكَ أَنْ يَدْعُوَ لَكَ اللهُ وَيَرْحَمَكَ، أَصْبَحَتْ
 شَيْخًا كَبِيرًا، وَقَدْ أَثْقَلْتَنِي نِعْمُ اللهُ بِمَا فَهَمَّكَ اللهُ مِنْ كِتَابِهِ،

أَلَيْسَ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ مِثْلِي يَرَى مَا قَلَّ مُتَتَبِعًا عَلَيْهِ
 وَيُؤْخَذُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا جَمِيعًا وَمَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فِي يَدَيْهِ

قوله: (جَعَلَ اللهُ الدِّينَ بَيْنَ لَاءَيْنِ: ﴿وَلَا تَطْفَرُوا﴾، ﴿وَلَا تَرَكَوْا﴾): لَعَلَّ الْمُرَادَ: أَنَّ اللهُ
 تَعَالَى جَعَلَ الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتُ﴾ - الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى الصِّرَاطِ
 الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ - بَيْنَ النَّهْيَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: الْإِفْرَاطُ، وَهُوَ الطُّغْيَانُ وَالتَّجَاوُزُ عَنِ الْحُدُودِ،
 وَالْآخَرُ: التَّفْرِيطُ، وَهُوَ الْمَيْلُ الْقَلِيلُ إِلَى الظُّلْمَةِ.

قال القاضي: «حِطَابُ الرَّسُولِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا لِلتَّشْبِيهِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ
 الَّتِي هِيَ الْعَدْلُ، فَإِنَّ الزُّوَالَ عَنْهَا بِالْمَيْلِ إِلَى أَحَدِ طَرَفِي إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ ظَلَمٌ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ
 غَيْرِهِ، بَلْ ظَلَمٌ فِي نَفْسِهِ»^(١).

قوله: (وَلَمَّا خَالَطَ الزُّهْرِيُّ السَّلَاطِينَ): قَالَ صَاحِبُ «الْجَامِعِ»: «هُوَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ
 ابْنُ مُسْلِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ، أَحَدُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ التَّابِعِينَ
 بِالْمَدِينَةِ، الْمَشَارُ إِلَى فِي فُنُونِ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ
 بِالسُّنَنِ مِنْهُ. وَقِيلَ لِمَكْحُولٍ: مَنْ أَعْلَمُ مَنْ رَأَيْتَ؟ قَالَ: ابْنُ شِهَابٍ، قِيلَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ
 شِهَابٍ. مَاتَ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَمِئَةً»^(٢).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٦٧).

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٨٩١).

وَعَلَّمَكَ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَى الْعُلَمَاءِ، قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ:
﴿لَتَبَيَّنُنَّهَ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت: أنك آنتت وخشة الظالم،
وسهلت سبيل الغي؛ بدئوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطباً
تدور عليك رحي باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون
فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء، ويقنادون بك قلوب الجهلاء، فما
أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب....

قوله^(١): (وليس كذلك أخذ الله الميثاق): اسم «ليس» محذوف، والكاف: اسم منصوب
المحل؛ خبر «ليس»، و«أخذ الله الميثاق»: جملة مستأنفة على تقدير السؤال، والأظهر أن
تجعل «ليس» بمعنى: لا، كما في قول الشاعر:

إنما يجزي الفتى ليس الجمل^(٢)

وفي شرح الدار الحديثي^(٣): روى أبو عمرو ابن العلاء: «ليس الطيب إلا المسك» بالنصب

(١) من هنا إلى بداية فقرة «قوله: (وزلفاً من الليل)» الآية بعد ثلاث صفحات، سقط من (ط).

(٢) عجز بيت للبيد بن ربيعة، كما في «ديوانه» ص ١٤١، وأوله:

فإذا جوزيت قرضاً فاجزه

(٣) كذا في الأصول الخطية، وسيأتي قول المؤلف - ص ٦٠٢ في تفسير الآية ٣١ من سورة إبراهيم عليه
السلام: «قال الدار الحديثي»، ولم أتبين المراد به.

وفي «كشف الظنون» (٢: ١١١٧) في ذكر شروح «طوالع الأنوار» للقاضي البيضاوي: «وشرحه
الحديثي، وهو الشيخ الإمام ركن الدين أبو الحسن علي، المعروف بابن شيخ العربية الموصلية». قلت:
صوابه: ابن شيخ العربية، وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن القاسم الموصلية الشافعية
(٦٨١ - ٧٥٥)، ترجم له الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» (٣: ٤٣-٤٥)، لكن لقبه فيه «زين
الدين»، وهو المعروف عنه في كتب التراجم، ويظهر من ترجمته اشتغاله بالعربية وتأليفه فيها. =

ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ [مريم: ٥٩]، فإنك تُعامل من لا يجهل، ويحفظُ عليك من لا يعقل، فداوِ دينك فقد دَخَلَهُ سُقْمٌ، وهَمَّيْ زادَكَ فقد حَصَرَ السَّقْرَ البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام».

وقال سُفيان: في جَهَنَّمَ وادٍ لا يسكنه إلا القراءُ الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزورُ عاملاً. وعن مُحَمَّد بن مَسَلَمَةَ: الذُّبابُ على العَدْرَةِ أحسنُ من قاري على باب هؤلاء.....

على المشهور، وبالرَّفْعِ على جَعَلِ «ليس» حَرْفاً غيرَ عاملٍ، كما عند بني تميم، ذكره سيبويه^(١)، وروينا في «صحيح البخاري»^(٢) عن رافع بن خديج، عن رسول الله ﷺ: «ما أنهرَ الدَّمَّ وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكلُّ، ليس السنُّ والظُّفْرُ»، كأنه قيل: لا كذلك أخذَ اللهُ الميثاقَ، أي: ما أخذَ اللهُ الميثاقَ أخذاً يُشبهُ فِعْلَكَ.

قوله: (وقال سُفيان: في جَهَنَّمَ وادٍ) الحديث: من رواية الترمذي وابن ماجه^(٣) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا مِنْ جُبِّ الحزنِ، قالوا: يا رسول الله، وما جُبُّ الحزنِ؟

= وهو من أقرانِ المُولَفِ رحمه الله تعالى، فلعله هو المرادُ هنا، ويُظنُّ ما المرادُ بـ«الدار»؟ والله أعلم.

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١: ١٤٧).

(٢) برقم (٢٤٨٨) و(٢٥٠٧) و(٣٠٧٥) و(٥٤٩٨) و(٥٥٠٩)، وأخرجه أيضاً مسلم في «صحيحه» (١٩٦٨).

قال الحافظُ ابنُ حجر في «فتح الباري» (٩: ٦٢٨): «قوله: «ليس السنُّ والظُّفْرُ»: بالنُّصبِ على

الاستثناءِ بـ«ليس»، ويجوزُ الرفعُ، أي: ليس السنُّ والظُّفْرُ مُباحاً أو مُجزئاً».

(٣) الترمذي (٢٣٨٣)، وابن ماجه (٢٥٦).

وقال السُّنْدِيُّ في «حاشيته» على «سنن ابن ماجه»: «العُجْبُ - بَصَمٌ الجليم وتشديد الباء -: البئرُ التي

لم تُطَوَّ، والحزن - بفتحِ تين أو بضمِّ فسكون -: ضدُّ الفرح، قال الطَّبِيُّ: هو عَلمٌ، والإضافةُ كما في

«دار السلام»، أي: دارٌ فيها السَّلامُ من الآفات».

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لظالمٍ بالبِقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعصِيَ اللَّهَ فِي أرضِهِ»، ولقد سئِلَ سُفيانٌ عن ظالمٍ أشرفَ على اهِلاكِ في بَرِيَّةٍ، هل يُسقى شُرْبَةَ ماءٍ؟ فقال: لا، فقلَّ له: يموت؟ فقال: دَعَهُ يموت.

﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ حالٌ من قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمْ﴾، أي: فتَمَسَّكُمْ النارُ وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دُونِ اللَّهِ من أنصارٍ يَقْدرونَ على مَنَعِكُمْ من عذابه، لا يَقْدِرُ على مَنَعِكُمْ منه غيره، ﴿ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ ثم لا يَنْصُرُكم هو، لأنه وَجِبَ في حِكْمَتِهِ تعذيبُكم وتَرْكُ الإبقاءِ عليكم.

فإن قلت: فما معنى 'ثم'؟ قلت: معناها: الاستبعاد، لأنَّ النَّصْرَةَ من اللَّهِ مُستَبَعِدَةٌ مَعَ استيجابهم العذابَ واقْتِضَاءِ حِكْمَتِهِ له.

[﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى

لِلذَّكِرِينَ﴾ ١١٤]

قال: وإد في جَهَنَّمَ، تَعَوَّدُ منه جَهَنَّمَ كُلُّ يومٍ أربعَ مِئَةِ مرَّةٍ، قيل: يا رسولَ اللَّهِ، مَنْ يَدْخُلُهَا؟ قال: أُعِدَّ لِلقُرَّاءِ المُرائينَ بأعمالهم. وزاد ابنُ ماجه: «وإنَّ من أبغضِ القُرَّاءِ إلى اللَّهِ تعالى الذين يُزُورُونَ الأُمراءَ»، قال المُحارِبِيُّ^(١): يعني: الجَوْرَةَ.

قوله: (فما معنى 'ثم')؟ أتى في السُّؤالِ بالفاءِ للإنكار، يعني: فهُم من قولك: «ثم لا يَنْصُرُكم هو، لأنه وَجِبَ في حِكْمَتِهِ تعذيبُكم»: أنَّ «ثمَّ» هاهنا واقعةٌ موقِعَ الفاءِ السَّبَبِيَّةِ، لأنَّ المعنى: ولا تَرَكْنَا إلى الذين ظَلَمُوا، لأنكم إن رَكِبْتُمْ إلى الظَّلْمَةِ، فإنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُكم بالنارِ بأن يُسَلِّطَها عليكم، فَتَمَسَّكُمْ، والحالُ أن لا ناصِرَ سِوَاهُ لِيُخَلِّصَكم منها، وهو لا يَنْصُرُكم، لأنه وَجِبَ في حِكْمَتِهِ تعذيبُكم، فإذا لا تُنصِرُونَ البتَّةَ، فلمَ جاء بـ«ثمَّ» دونَ الفاءِ؟

(١) هو عبدُ الرحمن بنُ مُحَمَّدٍ، المُتوفى سنة ١٩٥، أحدُ رواة هذا الحديث.

﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ غُدُوَّةٌ وَعَشِيَّةٌ، ﴿وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وساعاتٍ مِنَ اللَّيْلِ، وهي ساعاته القريبةُ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ، مِنْ: أَرْزَلَفَهُ: إِذَا قَرَّبَهُ وَازْدَلَّفَ إِلَيْهِ، وَصَلَاةُ الْغُدُوَّةِ: الْفَجْرُ، وَصَلَاةُ الْعَشِيَّةِ: الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ الزَّوَالِ عَشِيَّةٌ، وَصَلَاةُ الزُّلْفِ: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ. وَاتِّصَابُ ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ عَلَى الظَّرْفِ، لِأَنَّهَا مُضَافَانِ إِلَى الْوَقْتِ، كَقَوْلِكَ: أَقَمْتُ عِنْدَهُ جَمِيعَ النَّهَارِ، وَأَتَيْتُهُ نِصْفَ النَّهَارِ، وَأَوَّلَهُ، وَآخِرَهُ، تَنْصِبُ هَذَا كُلَّهُ عَلَى إِعْطَاءِ الْمُضَافِ حُكْمَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠].

وَقُرِي: «وَزُلْفَا» بِضَمَّتَيْنِ، «وَزُلْفَا» بِسُكُونِ اللَّامِ، «وَزُلْفَى» بِوَزْنِ: قُرْبَى، فَالزُّلْفُ: جَمْعُ زُلْفَةٍ، كَطَّلَمَ فِي ظُلْمَةٍ، وَالزُّلْفُ بِالسُّكُونِ: نَحْوُ: بُسْرَةٌ وَبُسْرٌ، وَالزُّلْفُ - بِضَمَّتَيْنِ -: نَحْوُ: بُسْرٌ فِي بُسْرٍ، وَالزُّلْفَى: بِمَعْنَى: الزُّلْفَةِ، كَمَا أَنَّ الْقُرْبَى بِمَعْنَى: الْقُرْبَةِ، وَهُوَ مَا يَقْرُبُ مِنَ آخِرِ النَّهَارِ مِنَ اللَّيْلِ.

وقيل: ﴿وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ﴾: وَقُرْبَاً مِنَ اللَّيْلِ، وَحَقُّهَا عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ أَنْ تُعْطَفَ عَلَى ﴿الصَّلَاةِ﴾، أَي: أَقَمَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ،

وأجاب: لِيُقَيَّدَ مَعْنَى الْإِسْتِعَادِ مَعَ اسْتِجَابِ الْعَذَابِ الَّذِي يُعْطِيهِ الْفَاءُ، قَالَ الْقَاضِي: ﴿ثُمَّ﴾ نَزَلَتْ مَنَزِلَةُ الْفَاءِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَهَا بَيِّنٌ أَنَّهُ مُعَذِّبُهُمْ، وَأَنَّ غَيْرَهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِمْ، أُنْتَجَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ أَصْلًا^(١).

قوله: ﴿وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ﴾: وَقُرْبَاً مِنَ اللَّيْلِ، الْجَوْهَرِيُّ^(٢): «الزُّلْفَى: الْقُرْبَةُ وَالْمَنَزِلَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبا: ٣٧]، وَهِيَ اسْمُ الْمَصْدَرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا إِزْدِلَافًا، وَازْدَلَفُوا: تَقَدَّمُوا، وَالزُّلْفَةُ: الطَّائِفَةُ مِنَ اللَّيْلِ، وَالْجَمْعُ: زُلْفٌ».

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٦٧). وهنا ينتهي السقط من (ط) الذي تقدّمت الإشارة إليه.

(٢) في الأصول الخطية: «الراغب»، وليس الكلام المذكور له، وإنما هو للجوهري في «الصّحاح»، مادة (زلف).

وَأَقِمْ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ، عَلَى مَعْنَى: وَأَقِمْ صَلَاةً تَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ.
 ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرَادَ تَكْفِيرُ الصَّغَائِرِ
 بِالطَّاعَاتِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرَ»،
 وَالثَّانِي: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ بِأَنْ يَكُنَّ لُطْفًا فِي تَرْكِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الصَّلَاةِ
 تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزيرة الأنصاري، كان يبيع التمر، فأتته امرأة،
 فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته، فصمها إلى
 نفسه وقبّلها، فقالت له: أتق الله، فتركها وندم،

وَحَقُّهَا عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ أَنْ تُعْطَفَ عَلَى ﴿الصَّلَاةِ﴾، لِأَنَّ مَعْنَى «قُرْبًا مِنَ اللَّيْلِ»: يُتَقَرَّبُ
 إِلَى اللَّهِ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، بِأَنْ تُصَلَّى صَلَاةُ التَّهَجُّدِ، فَتُعْطَفُ عَلَى ﴿الصَّلَاةِ﴾، وَهِيَ الصَّلَاةُ فِي
 طَرْفِ النَّهَارِ، لِتَجْتَمَعَ صَلَاةُ النَّهَارِ وَصَلَاةُ اللَّيْلِ.

قَوْلُهُ: (وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الصَّلَاةِ»): وَالرَّوَايَةُ: أَنَّ عُثْمَانَ دَعَا بِطَهُورٍ، فَقَالَ:
 سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا
 وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يَأْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ
 كُلَّهُ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(١) مَعَ اخْتِلَافٍ.

قَوْلُهُ: (بِأَنْ يَكُنَّ لُطْفًا فِي تَرْكِهَا): لِأَنَّ الصَّلَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ أَنْ تَكُونَ زَاجِرَةً عَنِ ارْتِكَابِ
 الْمُنْكَرَاتِ وَالْفَوَاحِشِ، وَإِلَّا فَتَكُونُ قَاضِيَةً عَلَى صَاحِبِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ
 بِالْمَعْرُوفِ، وَلَمْ تَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَمْ يَزِدْهُ بِصَلَاتِهِ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا».

قَوْلُهُ: (أَبِي الْيَسْرِ عَمْرُو بْنُ غَزِيرَةَ الْأَنْصَارِيِّ): الصَّحِيحُ فِي «جَامِعِ الْأَصُولِ»: «هُوَ أَبُو الْيَسْرِ

(١) مسلم (٢٢٨)، وهذا لفظه، وأصله عند البخاري (١٥٩) و(١٦٤) و(١٩٣٤) و(٦٤٣٣).

فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره بما فعل، فقال ﷺ: أنتظرُ أمرَ ربي، فلما صلى صلاة العَصْر نزلت، فقال: نعم، اذهب فإنها كفارة لِمَا عَمِلت.

وروي: أنه أتى أبا بكر، فأخبره، فقال: استرُ على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر رضي الله عنه، فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ، فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة.

وروي: أن رسول الله ﷺ قال له: تَوْضُأً وَضُوءاً حَسَنًا، وَصَلَّ رَكَعَتَيْنِ، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿فَأَسْتَقِم﴾ فما بعده، ﴿ذَكَرَى لِلذَّكْرِ﴾ عِظَةٌ لِلْمُتَّعِظِينَ.

[﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)]

ثم كَرَّرَ إلى التذكير بالصَّبْر.....

- بفتح السين - كعبُ بنُ عمرو الأنصاري^(١)، وفي «الاستيعاب»: «كعبُ بنُ عمرو بنِ عبَّاد، ويُقال: كعبُ بنُ عمرو بنِ مالك»^(٢). الحديث: أخرجه الترمذي^(٣) عنه مع اختلافٍ وزياداتٍ على ما رواه المصنّف، والحديثُ ينصُّرُ القولُ الأول.

قوله: (ثم كَرَّرَ إلى التذكير بالصَّبْر): يعني: رَجَعَ إلى تذكير ما بُدئَ به ضمناً، وهو قوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾، لأنَّ المذكورَ أولاً - وهو قوله: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتِ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ إلى قوله:

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ١٠١٩).

(٢) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٣: ٢٩٠ - ٢٩١) على هامش «الإصابة» لابن حجر.

(٣) في «جامعه» برقم (٣١١٥) من حديث أبي اليسر رضي الله عنه.

وأصلُ القِصَّةِ عند البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بإيهاهم صاحبُ القِصَّةِ.

بعدهما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكُرُورُ لِفَضْلِ خُصُوصِيَّةِ وَمَزِيَّةِ وَتَنْبِيهِ عَلَى مَكَانِ الصَّبْرِ وَمَحَلِّهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَعَلَيْكَ بِمَا هُوَ أَهَمُّ مِمَّا ذُكِّرَتْ بِهِ وَأَحَقُّ بِالتَّوْصِيَةِ، وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى امْتِثَالِ مَا أُمِرْتَ بِهِ، وَالانْتِهَاءُ عَمَّا نُهِيتَ عَنْهُ، فَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ جاء بما هو مُشْتَمِلٌ عَلَى الاستِقَامَةِ وإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ، وَالانْتِهَاءِ عَنِ الطُّغْيَانِ، وَالرُّكُودِ إِلَى الظَّالِمِينَ، وَالصَّبْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الحَسَنَاتِ.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [١١٦]

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ - كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى المعاني التي لَا تَتِمُّ وَلَا تَكْمُلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، فَصَرَّحَ بِهِ بَعْدَمَا ذُكِرَ ضِمْنًا؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الصَّبْرَ مِلَاكُ الكُلِّ، وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ.

قوله: (بعدهما جاء بما هو خاتمة للتذكير): أي: جاء بقوله: ﴿ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ تذييلًا لمجموع قوله: ﴿فَأَسْتَقِيمُ﴾ إلى قوله: ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فذلِكَ^(١) له، عَلَى مَنَوَالِ قوله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أُذُلًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، ثُمَّ عُلِّلَ كُلًّا مِنَ التَّذْيِيلِ وَالْمُذْيَلِ بِقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تَرْغِيبًا وَتَحْرِيسًا، وَجَاءَ بِمَا هُوَ أَعْمُ العَامِّ، لِأَنَّ الْمُحْسِنَ مَنْ لَمْ يُخَلِّ بِمَا يَدْخُلُ تَحْتَ مُسَمًّى الإِحْسَانِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا.

قَالَ القَاضِي: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ عُدُولٌ مِنَ الْمُضْمَرِّ؛ لِيَكُونَ كَالْبُرْهَانِ عَلَى المَقْصُودِ، وَدَلِيلًا عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ وَالصَّبْرَ إِحْسَانًا وَإِيهَابًا بِأَنَّهُ لَا يُعْتَدُّ بِهِنَّ دُونَ الإِحْلَاصِ^(٢)، وَلَمَحَّ بِهِ إِلَى قوله ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٣).

(١) انظر معنى «الفلذكة» فيما تقدّم تعليقاً عند تفسير الآية ١١١ من سورة التوبة (٧: ٣٧٤).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٦٨).

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر، و(٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ فهَلَا كَانَ، وقد حَكَوْا عن الخليل: كُئِلُ «لولا» في القرآن فمعناها: «هَلَا»، إلا التي في الصَّافَات. وما صَحَّتْ هذه الحكاية؛ ففي غير الصَّافَات: ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَكَّرُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ﴾ [القلم: ٤٩]، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥]، ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَلِّغُنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤].

﴿أُولُوا بِقِيَّةٍ﴾ أُولُو فَضْلٍ وَخَيْرٍ، وَسُمِّيَ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ وَالْجُودَةُ بَقِيَّةً؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَسْتَبْقِي مِمَّا يُخْرِجُهُ أَجُودَهُ وَأَفْضَلَهُ، فَصَارَ مَثَلًا فِي الْجُودَةِ وَالْفَضْلِ، وَيُقَالُ: فَلَانٌ مِنْ بَقِيَّةِ الْقَوْمِ، أَي: مِنْ خِيَارِهِمْ، وَبِهِ فُسِّرَ بَيْتُ «الحماسة»:

إِنْ تُذْنِبُوا نَمَّ يَأْتِنِي بِقِيَّتِكُمْ

قوله: (إلا التي في الصَّافَات): وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصَّافَات: ٥٧].

قوله: (فصارَ مَثَلًا فِي الْجُودَةِ وَالْفَضْلِ): أي: اشتهرَ معنى الكِنَايَةِ، وَسَارَ مَسِيرَ الْأَمْثَالِ، وَيُقَالُ: لِلشَّيْخِ بَقِيَّةً، أَي: شَيْءٌ مِنْ قُوَّةِ الشَّبَابِ.

قوله: (إِنْ تُذْنِبُوا نَمَّ يَأْتِنِي بِقِيَّتِكُمْ): تمامه:

فَمَا عَلَيَّ بِذَنْبٍ عِنْدَكُمْ فَوْتُ^(١)

يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِ«الْبَقِيَّةِ»: خِيَارُهُمْ وَأَمْثَلُهُمْ، أَي: إِنْ تُذْنِبُوا نَمَّ يَأْتِنِي خِيَارُكُمْ يُقِيمُونَ مَعْذِرَةَ أَنْفُسِهِمْ، وَأَنْهُمْ لَمْ يُسَاعِدُوكُمْ، فَمَا عَلَيَّ بِجَزَاءِ ذَنْبِ فَوْتُ، وَمَا يَلْحَقُكُمْ مِنْ لَائِمَةٍ وَعَيْبٍ، وَأَنْ يُرَادَ: بِقِيَّتِكُمْ الَّذِينَ لَمْ يُذْنِبُوا، أَي: يَأْتُونِي مُعْتَذِرِينَ بِأَنْهُمْ فَارْقُوكُمْ لِعَظِيمِ جِنَايَتِكُمْ، فَلَا تَفُوتُنِي مُؤَاخَذَتِكُمْ.

(١) البيتُ لِرُوَيْشِدِ بْنِ كَثِيرِ الطَّائِي، كَمَا فِي «الحماسة» ص ٢٩.

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا. ويجوز أن تكون «البقية» بمعنى: البقوى، كالتقية بمعنى: التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانته لها من سخط الله وعقابه.

وقرئ: «أولو بقية»، بوزن: لُقية، من: بقاء يقيه: إذا راقبه وانتظره، ومنه: «بقينا رسول الله ﷺ»، والبقية: المرة من مصدره. والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم.

قوله: (وقرئ: «أولو بقية»): قال أبو البقاء: «الجمهور على تشديد الياء، وهو الأصل، وقرئ بتخفيفها، وهو مصدر بقي بقی بقیة، كلقية لُقية، فيجوز أن يكون على بابه، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى: فعيل، وهو بمعنى فاعل»^(١).

قوله: («بقينا رسول الله ﷺ»): روينا عن أبي داود^(٢) عن معاذ بن جبل قال: «بقينا رسول الله ﷺ، وقد تأخر لصلاة العتمة، حتى ظن الظان أنه ليس بخارج، فإنا كذلك إذ خرج رسول الله ﷺ، فقالوا له كما قالوا، فقال: أعتموا بهذه الصلاة»^(٣)، فإنكم قد فصلتم بها على سائر الأمم، لم تصلها أمة قبلكم».

«بقينا»: بفتح الباء والقاف، أي: انتظرنا، والاسم منه: البقوى، قلبت الياء واواً، وكذلك كل «فعل» اسماً، كالتقوى والشروى، وإذا كانت صفة لم تقلب، نحو: امرأة صديا وخزيا. قوله: (كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم): بيان لتفسير «أولو مراقبة» بقوله: «وخشية»، فإن المراقب للشيء ينتظر وقوع ما يترقبه، كما أن الخاشي يشفق عما ينتظر وقوعه من المكروه.

(١) «التيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧١٨).

(٢) في «سننه» برقم (٤٢١).

(٣) تحرف في (ف) إلى: «اعتنموا هذه الصلاة».

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناءً مُتَقَطِعٌ، معناه: ولكن قليلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنَ الْقُرُونِ نَهَوْا عَنْ
الفساد، وسائرهم تاركون للنهي. و«من» - في ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا﴾ - حَقُّهَا أَنْ تَكُونَ لِلْبَيَانِ لَا
للتبويض، لِأَنَّ النِّجَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلنَّاهِيْنَ وَحَدَهُمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ السُّوِّ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فإن قلت: هل لوقوع هذا الاستثناء مُتَقَطِعاً وَجْهٌ يُحْمَلُ عَلَيْهِ؟ قلت: إن جَعَلْتَهُ
مُتَقَطِعاً عَلَى مَا عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْكَلَامِ، كَانَ الْمَعْنَى فَاْسِدًا، لِأَنَّهُ يَكُونُ تَخْصِيصًا لِأُولَى الْبَقِيَّةِ
عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ، إِلَّا لِلْقَلِيلِ مِنَ النَّاجِيْنَ مِنْهُمْ، كَمَا تَقُولُ: هَلَّا قَرَأَ قَوْمُكَ الْقُرْآنَ إِلَّا
الصُّلَحَاءَ مِنْهُمْ، تُرِيدُ: اسْتِثْنَاءَ الصُّلَحَاءِ مِنَ الْمُحَضِّضِينَ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَإِنْ قُلْتَ:
فِي تَخْصِيصِهِمْ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ مَعْنَى نَفْيِهِ عَنْهُمْ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ أَوْ لَوْ
بَقِيَّةٌ إِلَّا قَلِيلًا، كَانَ اسْتِثْنَاءً مُتَقَطِعًا، وَمَعْنَى صَحِيحًا، وَكَانَ انْتِصَابُهُ عَلَى أَصْلِ اسْتِثْنَاءِ،
وَإِنْ كَانَ الْأَفْصَحُ أَنْ يُرْفَعَ عَلَى الْبَدَلِ.

قوله: (و«من» - في ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا﴾ - حَقُّهَا أَنْ تَكُونَ لِلْبَيَانِ لَا لِلتَّبْيِضِ): وَذَلِكَ أَنَّ
الْبَيَانَ وَالْمَبْيَنَ شَيْءٌ وَاحِدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَجْتَكِنُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]،
فَالْقَلِيلُ إِذَنْ هُمُ النَّاجُونَ، وَهَذَا عَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ: «لِأَنَّ النِّجَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلنَّاهِيْنَ وَحَدَهُمْ»، أَيْ: دُونَ
غَيْرِهِمْ، وَأَمَّا إِذَا حُمِلَ «مِنَ» عَلَى التَّبْيِضِ كَانَ ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿قَلِيلًا﴾، فَيَلْزَمُ أَنْ
يَكُونَ النَّاهُونَ بَعْضَ النَّاجِيْنَ، وَهُوَ فَاسِدٌ.

قوله: (على ما عليه ظاهر الكلام): وَاعْلَمْ أَنَّ حُرُوفَ التَّخْضِيصِ تُفِيدُ مَعَ الْمَاضِي مَعْنَى
التَّنْذِيمِ، وَمَعَ الْمَضَارِعِ تَتَخَلَّصُ لِلتَّخْضِيصِ، فَإِذَا حُمِلَ عَلَى ظَاهِرِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، كَمَا يُقَالُ: لَيْتَهُمْ
كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْهَوْا، فَسَدَ الْمَعْنَى، وَأَمَّا إِذَا جُعِلَ كَلِمَةُ التَّخْضِيصِ
لِلْإِنْكَارِ لَسَوَّلَدَ مَعْنَى النَّفْيِ، كَمَا يُقَالُ: مَا كَانَ أَوْ لَوْ بَقِيَّةٌ إِلَّا قَلِيلًا، صَحَّ الْمَعْنَى وَاسْتَقَامَ، لَكِنْ
الْمُخْتَارُ الرَّفْعُ فِي «قَلِيلٍ»، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «وَإِنْ كَانَ الْأَفْصَحُ أَنْ يُرْفَعَ عَلَى الْبَدَلِ».

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ أراد بـ«الذين ظلموا»: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركنٌ عظيمٌ من أركان الدين، وهو الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف، من حبِّ الرئاسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك، ونبذوه وراء ظهورهم.

وقرأ أبو عمرو - في رواية الجعفي - : «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم أتبِعُوا جزاء إترافهم، وهذا معنى قويٌّ لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، وهلك السائر.

قوله: (وقرأ أبو عمرو): وهي شاذة^(١).

قوله: (معنى قويٌّ لتقدم الإنجاء): أي: النظم يستدعي هذا، لأنَّ بعد تقدُّم الإنجاء للناهيين المناسب أن يُبينَ هلاك الذين لم ينهوا، كأنه قيل: وأنجينا القليل واتبع الذين ظلموا جزاءهم، أي: هلكوا، فيكون وصول الجزاء إلى الكثير في مُقابلة إنجاء القليل، ولم يفتقر إلى تقدير معطوف عليه^(٢)، لقوله: ﴿وَاتَّبَعَ﴾، لأنَّ الواو حثيذ للحال، وإليه الإشارة بقوله: «الواو للحال»، كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

وعلى الأول: «وَاتَّبَعُوا» عطفٌ على «نَهَوْا» مُقدِّراً، كما سيجيء في جواب السؤال.

فإن قلت: قدَّر المعطوف عليه أولاً غير ما ذكر في الجواب، حيث قال: «لم يهتموا بما هو ركنٌ عظيمٌ في الدين، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع» إلى آخره، لأنه عطفه على «عقدوا» أو «لم يهتموا»؟

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٩٨، و«المحتسب» لابن جني (١: ٣٣١).

(٢) في (ح) و(ف): «في مقابلة إنجاء الناهين، لقوله: اتبع»، والمثبت من (ط).

فإن قلت: علامَ عَطِفَ قوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؟ قلت: إن كانَ معناه: وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، كَانَ معطوفاً على مُضْمَرٍ، لِأَنَّ المعنى: إِلا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ نَهَوًا عَنِ الفسَادِ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا شَهَوَاتِهِمْ. فَهُوَ عَطِفٌ عَلَى: نَهَوًا، وَإِنْ كَانَ معناه: وَاتَّبَعُوا جَزَاءَ الإِتْرَافِ، فَالوَائِوُ لِلحَالِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَنْجَيْنَا القَلِيلَ، وَقَدْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا جَزَاءَهُمْ.

فإن قلت: فقوله: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؟ قلت: على: ﴿أَتَرِفُوا﴾، أَي: اتَّبَعُوا الإِتْرَافَ وَكَوْنَهُمْ مُجْرِمِينَ،

وقلت: على هذا التقدير لا بُدَّ مِنْ إِضْمَارِ «نَهَوًا» وَهذِهِ المذكَورَاتِ أَيْضاً، لِأَنَّ قَوْلَهُ: «وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ» مُسْتَدْعٍ لِذَلِكَ، أَي: أَنَّهُمْ تَرَكَوا مُتَابَعَةَ أَضْدَادِهَا، وَهِيَ دَلِيلُ الهُدَى وَالإِهْتِمَامِ بِالوَجِبِ مِنَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، خَاصَّةً فِي هَذَا المَقَامِ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ فِي مُتَابَعَةِ الهَوَى، فَإِذَنْ يُضْمَرُ بَعْدَ الإِسْتِثْنَاءِ «نَهَوًا» لِيُعْطَفَ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ الفسَادِ، لَكِنِ القَلِيلُ مِنْهُمْ نَهَوًا فَجَزَاءً، وَالباقُونَ مَا اهْتَمُّوا بِهِ، وَعَقَدُوا هِمَمَهُمْ بِالشَّهَوَاتِ، وَاتَّبَعُوا التَّزَوُّفَ فَهَلَكُوا، فَوَضَعَ مَوْضِعَ «الباقين»: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لِيُؤْذَنَ بِأَنَّ سَبَبَ تَرْكِ النَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ انْهَابُهُمْ فِي الشَّهَوَاتِ^(١) وَاشْتِغَالُهُمْ بِحُبِّ الجَاهِ وَالرِّئَاسَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ ظَلَمٌ عَظِيمٌ يَسْتَأْهِلُ صَاحِبُهُ النِّكَالَ الشَّدِيدَ، وَفِيهِ أَنَّ «حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(٢).

قوله: (فقوله: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾): أَي: فعلى أي شيء يُعْطَفُ قَوْلُهُ: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

قوله: (أَي: اتَّبَعُوا الإِتْرَافَ وَكَوْنَهُمْ مُجْرِمِينَ): قَالَ صَاحِبُ «التَّعْرِيبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ

(١) من قوله: «واتبعوا التزوف» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٢) انظر ما تقدم تعليقا عند تفسير الآية ٧٠ من سورة التوبة (٧: ٣٠١).

لأن تابع الشّهوات مغمورٌ بالآثام، أو أريد بـ«الإجرام»: إغفالهم للشُّكر. أو: على «اتَّبَعُوا»، أي: اتَّبَعُوا شَهَوَاتِهِمْ وكانوا مُجْرِمِينَ بذلك. ويجوزُ أن يكونَ اعْتِرَاضاً وَحُكْماً عليهم بأنهم قومٌ مُجْرِمُونَ.

[﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ١١٧]

﴿كَانَ﴾ بمعنى: صَحَّ واستقام، واللامُ لتأكيد النفي، و﴿يُظْلِمُ﴾ حالٌ مِنَ الفاعل، والمعنى: واستحالَ في الحكمة أن يُهْلِكَ اللهُ القُرَى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قومٌ ﴿مُصْلِحُونَ﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم،

«ما» - في ﴿مَا أَتْرَفُوا﴾ - موصولةٌ لا مصدرية؛ لِعَوْدِ الضميرِ من ﴿فِيهِ﴾ إليه، فكيف يُقدَّرُ «كانوا» مصدرًا، إلا أن يُقال: رَجَعَ الضميرُ من ﴿فِيهِ﴾ إلى الظلم، بدلالة ﴿ظَلَمُوا﴾.

قوله: (لأن تابع الشّهوات مغمورٌ بالآثام): تعليل، لأنَّ العطفَ تفسيري، وأنَّ معنى الإترافِ هو كونهم مُجْرِمِينَ، وهذا الجوابُ مبنيٌّ على أنَّ ﴿وَأَتَّبَعَ﴾ حال، وهو إنما يحسُنُ إذا قدَّرَ مُضَافًا، فكانه قيل: واتبَعُوا جزاءَ آثامهم، وعلى هذا: «إذا أريد بـ«الإجرام»: إغفالهم للشُّكر»، أي: اتَّبَعُوا جزاءَ الإترافِ وجزاءَ كُفْرانِ النعمة.

قوله: (أو على: «اتبَعُوا»): هذا على أن يكونَ «اتبَعُوا» معطوفاً على المقدَّر، وهذا العطفُ من باب قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥] على رأي صاحب «المفتاح»^(١): عَطْفٌ، لحصولِ مضمونِ الجمليتين، وتعويلُ ترتبِ الأولِ على الثاني إلى الذَّهن، ولذلك قال: «وكانوا مُجْرِمِينَ بذلك». أو تكونُ الواوُ استثنائية، أي: اتَّبَعُوا شَهَوَاتِهِمْ وكانوا قومًا عادتهم الإجرام، فاتَّبَعُوا الشّهواتِ لذلك، ولو جُعِلَ حالاً من فاعلِ «اتبَعُوا»، أي: اتَّبَعُوا شَهَوَاتِهِمْ، والحالُ أنهم كانوا مُجْرِمِينَ؛ لكانَ حَسَنًا، والاعتراضُ أحسن.

(١) انظر: «مفتاح العلوم» للسَّكَّاكِي ص ٢٧٨.

وإذنانا بأن إهلاك المصلحين من الظلم. وقيل: الظلم: الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر.

[﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٨-١١٩﴾]

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: لا اضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة، أي: ملة واحدة، وهي ملة الإسلام، كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلّفوا، فلذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ إِلَّا ناساً هداهم الله ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه.

قوله: (يتعاطون الحق فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم فساداً): قال القاضي: «ذلك لفرط رحمة ومسامحة في حقوقه، ومن ذلك قدم الفقهاء عند تراحم الحقوق حقوق العباد، وقيل: المملك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم»^(١).

قوله: (فلذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾): أي: فلاجل أن الكلام يتضمن نفي الاضطرار، وأنه تعالى لم يضطرهم إلى الاتفاق، بل جعلهم متمكنين من الاختيار، قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يشير إلى أن المراد بالمشيئة في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ مشيئة القسر والإجاء. والسنيي يحمل هذه الآية على معنى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَا تَيْنَاكُلُ﴾ نفس هدها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿[السجدة: ١٣]، ويقول: لو تعلق

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٦٩).

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: «ذلك»: إشارة إلى ما دلَّ عليه الكلامُ الأولُ وتَصَمَّنَه، يعني: ولذلك من التَّمَكُّن والاختيار الذي كانَ عنه الاختلافُ خَلَقَهُمْ، لِيُثِيبَ مُخْتَارَ الْحَقِّ بِحُسْنِ اخْتِيَارِهِ، وَيُعَاقِبَ مُخْتَارَ الْبَاطِلِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، لِعِلْمِهِ بِكثرة مَنْ يَخْتَارُ الْبَاطِلَ.

[﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَاجِلُونَ * وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ ١٢٠-١٢٢]

مشيئة الله تعالى باتفاق الناس على دين الحق ما اختلفوا حقاً ولا باطلاً، وحين تعلقت مشيئته بهداية البعض وضلالة البعض؛ بأن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير، اختلفوا، يدلُّ عليه قوله في هذه الآية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وتؤيِّده الأحاديث الواردة في القدر.

روى محيي السنة: «عن الحسن وعطاء: وللإختلاف خَلَقَهُمْ. وقال مالك: خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ فريق في الجنة وفريق في السعير. وقال أبو عبيدة: هذا القولُ اختاره»^(١).

وقال القاضي: «في الآية دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيذان من كل أحد، وأن ما أراده يجب وقوعه»^(٢).

قوله: (﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ هي قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾): يُريد: أن المراد بـ«الكلمة»: الإخبار، كما قال تعالى في الأنعام: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: ما أخبر به، وأمر ونهى، ووعد وأوعد، فر من إثبات العلم الأزلي، وجف القلم بما هو كائن، الذي

(١) «معالم التنزيل» للبخاري (٤: ٢٠٦ و ٢٠٧).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٦٩).

﴿وَكَلَّا﴾ التثوينُ فيه عَوْضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَكُلُّ نَسْبٍ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، و﴿مِنَ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بَيَانٌ لـ «كُلِّ»، و﴿مَا نُنَبِّئُ بِهِءَ فُؤَادَكَ﴾ بَدَلٌ مِنْ «كُلًّا». وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَكُلُّ اقْتِصَاصٍ نَقُصُّ عَلَيْكَ، عَلَى مَعْنَى: وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْاِقْتِصَاصِ نَقُصُّ عَلَيْكَ؛ يَعْنِي: عَلَى الْأَسَالِبِ الْمُخْتَلِفَةِ، و﴿مَا نُنَبِّئُ بِهِءَ﴾ مَفْعُولٌ ﴿نَقُصُّ﴾، وَمَعْنَى تَثْبِيْتِ فُؤَادِهِ: زِيَادَةُ يَقِينِهِ وَمَا فِيهِ طُمَأْنِينَةٌ قَلْبِهِ، لِأَنَّ تَكَثُرَ الْأَدْلَةِ أَثْبَتَ لِلْقَلْبِ وَأَرْسَخُ لِلْعِلْمِ.

يَسْتَبْعِبُ الْكَائِنَاتِ إِلَى تَحْقِيقِهِ، وَجَعَلَ الْعِلْمَ تَابِعاً لِلْمَعْلُومِ، حَيْثُ قَالَ: «لِعِلْمِهِ بِكَثْرَةِ مَنْ يَخْتَارُ الْبَاطِلَ».

قوله: (و﴿مَا نُنَبِّئُ بِهِءَ فُؤَادَكَ﴾ بَدَلٌ مِنْ «كُلًّا»): أَي: نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ كُلِّ نَسْبٍ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ، ثُمَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ^(١)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «(كُلًّا): مَنْصُوبٌ بـ ﴿نَقُصُّ﴾، و﴿مِنَ أَنْبَاءِ﴾ صِفَةٌ لـ (كُلًّا)، و﴿مَا نُنَبِّئُ بِهِءَ﴾ بَدَلٌ مِنْ (كُلًّا)»^(٢).

قوله: (و﴿كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْاِقْتِصَاصِ نَقُصُّ﴾): فعلى هذا: ﴿مِنَ أَنْبَاءِ﴾ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ ﴿مَا نُنَبِّئُ﴾، و﴿كُلًّا﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَي: نَقُصُّ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ كَائِناً مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْاِقْتِصَاصِ، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَا نُنَبِّئُ﴾ مَفْعُولٌ ﴿نَقُصُّ﴾، و﴿كُلًّا﴾ حَالٌ مِنْ ﴿مَا﴾، أَوْ مِنَ الْهَاءِ عِنْدَ مَنْ أَجَازَ تَقْدِيمَ الْحَالِ مِنَ الْمَجْرُورِ»^(٣). وَعَلَيْهِ قَالَ الْقَاضِي: «يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «كُلًّا» مَصْدَرًا»^(٤).

(١) من قوله: «ثم نقص عليك» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٧١٩).

(٣) المصدر السابق (٢: ٧١٩).

(٤) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٧٠).

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو: في هذه الأنبياء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة وغيرهم: ﴿اعْمَلُوا﴾ على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾.

﴿وَأَنْظِرُوا﴾ بنا الدوائر، ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

[﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١٢٣]

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيها، فلا تخفى عليه أعمالكم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فلا بُدَّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك وكافلُك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

قوله: ﴿﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة) إلى آخره: إشارة إلى أن هذه الآية فذلُكُة^(١) لتفاصيل السورة، كما أسلفناه في قوله: ﴿﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾﴾ [هود: ١٣]، وأن السورة إلى خاتمتها تسلية لقلب الحبيب صلوات الله عليه.

قوله: (فلا بُدَّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك): يُريد: أن هذه الكلمة جامعة، فيدخل فيها تسلية الرسول ﷺ، وتهديد الكفار، والانتقام منهم، دُخولاً أولياً.

الراغب: «الأمر: الشأن، وجمعه: أمور، ومصدر «أمرته»: إذا كلفته شيئاً، وهو لفظ عامٌّ للأقوال والأفعال كلها، وعلى ذلك: إليه يرجع الأمر كُلُّهُ، ﴿﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾﴾

(١) انظر معنى «الذلُكُة» فيما تقدّم تعليقا عند تفسير الآية ١١١ من سورة التوبة (٧: ٣٧٤).

- وقرئ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء -: أي أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ بَنُوْحَ، وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ، وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَلُوطٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ السَّعْدَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ».

[آل عمران: ١٥٤]، ويُقال للإبداع: أمر، نحو: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] إشارة إلى إبداعه، وعبر عنه بأقصر لفظ وأبلغ ما يتقدم فيه فيما بيننا، ومنه قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠]، والأمر: التقدّم بالشيء، سواء كان بقولهم: افعل، أو: لتفعل، أو: بلفظ الخبر؛ نحو: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرْجَعْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] عامٌّ في أقواله وأفعاله، وقيل: أمر القوم؛ إذا كثروا، لأن القوم إذا كثروا صاروا ذا أمير، من حيث إنه لا بدّ من سائس يسوسهم^(١).

قوله: (وقرئ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء) الفوقانية: نافع وابن عامر^(٢) وحفص، والله أعلم.



(١) «مفردات القرآن» ص ٨٨-٨٩.

(٢) في (ط): «نافع وأبو عمرو وحفص»، والمثبت من (ح) و(ف)، وهو الصواب. انظر: «حجّة القراءات» ص ٣٥٣، و«الدرّ المصون» للسمين الحلبي (٦: ٤٢٨).

سورة يوسف عليه السلام
مكية، وهي مئة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْعَاقِلِينَ﴾ ١-٣]

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة، و﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ السورة؛ أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم،

سورة يوسف عليه السلام
مكية، وهي مئة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة)، إشارة إلى أن ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، والمشار إليه ما في ذهن المخاطب، قال ابن الحاجب: «المشار إليه لا يشترط أن يكون موجوداً

أو: التي تُبَيِّنُ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا أَنهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ الْبَشَرِ، أَوِ الْوَاضِحَةُ الَّتِي لَا تَشْتَبِهُ عَلَى الْعَرَبِ مَعَانِيهَا لِتَزْوِلَهَا بِلِسَانِهِمْ، أَوْ: قَدْ أُبَيِّنَ فِيهَا مَا سَأَلَتْ عَنْهُ الْيَهُودُ مِنْ قِصَّةِ يَوْسُفَ؛ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ قَالُوا لِكُبْرَاءِ الْمَشْرِكِينَ: سَلُّوا مُحَمَّدًا لِمَ انْتَقَلَ آلُ يَعْقُوبَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ؟ وَعَنْ قِصَّةِ يَوْسُفَ؟

حَاضِرًا، بَلْ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا ذِهْنًا»، فَقَوْلُهُ: «أَيُّ: تِلْكَ الْآيَاتُ الَّتِي أُنزِلَتْ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ» إِمَارَةٌ إِلَى الْمُتَصَوِّرِ، وَقَوْلُهُ: «آيَاتُ السُّورَةِ الظَّاهِرِ أَمْرُهَا» هُوَ الْمَذْكُورُ فِي التَّنْزِيلِ الْوَاقِعُ خَبْرًا لِاسْمِ الْإِمَارَةِ الَّذِي الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِهِ مَا فِي الذَّهْنِ، قَالَ الْمُصَنِّفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]: «تَصَوَّرَ فِرَاقٌ بَيْنَهُمَا عِنْدَ حُلُولِ الْمِعَادِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ، وَجَعَلَهُ مُبْتَدَأً، وَأَخْبَرَ عَنْهُ».

قَوْلُهُ: (أَوْ: قَدْ أُبَيِّنَ فِيهَا مَا سَأَلَتْ عَنْهُ الْيَهُودُ)، الْجَوْهَرِيُّ: «بَانَ الشَّيْءُ بَيَانًا: اتَّضَحَ، فَهُوَ بَيِّنٌ، وَكَذَلِكَ أَبَانَ الشَّيْءُ فَهُوَ مُبَيِّنٌ، وَأَبْتُهُ أَنَا، أَيُّ: أَوْضَحْتُهُ، يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى»^(١).

فـ ﴿الْمُبَيِّنِ﴾ هَاهُنَا: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّازِمِ وَمِنِ الْمُتَعَدِّيِّ، وَإِذَا حُمِلَ عَلَى الْأَوَّلِ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ؛ لِأَنَّ ظُهُورَهَا: إِمَّا بِحَسَبِ الْأَلْفَاظِ مِنْ كَوْنِهَا مُعْجِزًا ظَاهِرًا إِعْجَازًا، لَا يَخْفَى عَلَى أَرْيَابِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ الْبَشَرَ لَا تُطِيقُ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «الظَّاهِرِ أَمْرُهَا فِي إِعْجَازِ الْعَرَبِ»، أَوْ بِحَسَبِ الْمَعَانِي، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وَإِلَيْهِ الْإِمَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لَا تَشْتَبِهُ عَلَى الْعَرَبِ مَعَانِيهَا لِتَزْوِلَهَا بِلِسَانِهِمْ».

وَإِذَا حُمِلَ عَلَى الثَّانِي يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَيْضًا: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مِنَ الظُّهُورِ وَالْبَيَانِ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَيِّنِ وَالْمُفَسِّرِ، حَيْثُ تَحْمَلُ التَّدَبُّرَ عَلَى التَّقْدِيرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وَهُوَ الَّذِي عَنَاهُ بِقَوْلِهِ: «الَّتِي

(١) عَلَى حَاشِيَةِ النُّسخَةِ الْمُوصِلِيَةِ هُنَا فَائِدَةٌ، وَنَصَّهَا: «أَفَادَ الْجَوْهَرِيُّ فِي «الصَّحَاحِ» أَنَّ «أَبَانَ» وَ«اسْتَبَانَ» وَ«تَبَيَّنَ» هَذِهِ الثَّلَاثَةُ تَتَعَدَّى وَلَا تَتَعَدَّى. صَحَّ».

﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾،

تُبَيِّنُ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا أنها من عند الله، لا من عند البشر. وثانيتها: مُبَيِّنٌ من جهة أن الله تعالى أبانَ فيها وأوضحَ مطلوبَ اليهود، وإليه الإشارة بقوله: «أُبَيِّنَ فِيهَا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ الْيَهُودُ»، فعلى هذا هو من الإسنادِ المجازي، وإنما حَمَلَهُ عَلَى الاختِلَافِ وَتَرْكِ الاتِّسَاقِ - وإن لم يَجْمَعِ بَيْنَ الْمُتَعَدِّيِّينَ وَاللَّازِمِينَ - أَنَّ الْوَجْهَيْنِ الْأَوَّلِينَ مَحْمُولَانِ عَلَى معنى الكمال، بحيث لا يُوجَدُ فِي غيرِهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَلَا كَذَلِكَ الْوَجْهَانِ الْآخِرَانِ^(١).

قوله: (في حال كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾)، قال أبو البقاء: «فيه وجهان: أحدهما: أنه تَوَطُّئَةٌ لِلْحَالِ الَّتِي هِيَ ﴿عَرَبِيًّا﴾، والثاني: أنه حال، وهو مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ، أَي: مَجْمُوعًا وَمُجْتَمِعًا»^(٢).

وقلت: معنى التوطئة أنها تُبَيِّنُ أَنَّ مَا بَعْدَهَا حَالٌ وَمَقْصُودٌ بِالذِّكْرِ، لَا أَنَّهَا فِي نَفْسِهَا حَالٌ، لِأَنَّهَا لَا تَدُلُّ حِينَئِذٍ عَلَى الْهَيْئَةِ، قَالَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِسَانَ عَرَبِيًّا﴾: «هو منصوبٌ عَلَى الْحَالِ. الْمَعْنَى: مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَرَبِيًّا، وَذَكَرَ ﴿لِسَانَ﴾ تَوْكِيدًا، كَمَا تَقُولُ: جَاءَ نِي زَيْدٌ رَجُلًا صَالِحًا، تُرِيدُ: جَاءَ نِي زَيْدٌ صَالِحًا، وَتَذَكُّرُ «رَجُلًا» تَوْكِيدًا»^(٣).

(١) عَلَى حَاشِيَةِ النُّسْخَةِ الْمُوصَلِيَّةِ هُنَا فَائِدَةٌ، وَنُصِّهَا: «أَي: فَقَدْ حَصَلَ الاتِّسَاقُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ، فَكَانَ رَاعِيُ الاتِّسَاقِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَلَمْ يُرَاعِهِ مِنْ جِهَتِي التَّعَدِيَّةِ وَاللُّزُومِ، كَمَا فَعَلَ الْقَاضِي الْبِيضَاوِيُّ، فَافْهَمِ، لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعِمَادِيِّ».

قلت: وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعِمَادِيُّ: هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ الْحَنْفِيِّ (٩٧٨ - ١٠٥١)، مَفْتِي دِمَشْقَ وَمِنْ أَجْلَاءِ شَيْخِهَا، لَهُ مُصَنَّفَاتٌ، لَهُ اشْتِغَالٌ بِالتَّفْسِيرِ، وَصَنَّفَ فِيهِ «تَحْرِيرَ التَّأْوِيلِ - خ»، كَمَا فِي «الْأَعْلَامِ» لِلزَّرْكَلِيِّ (٣: ٣٣٢)، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَا أَرَادَهُ الْمُحِبِّيُّ فِي «خِلَاصَةِ الْأَثَرِ» (٢: ٣٨٠) حَيْثُ قَالَ: «الْفَتْ حَاشِيَةٌ عَلَى بَعْضِ تَفْسِيرِ «الْكَشَافِ» بَقِيَتْ فِي مُسَوِّدَاتِهِ». وَانظُرِ لِلْإِسْتِزَادَةِ فِي تَرْجُمَتِهِ «خِلَاصَةَ الْأَثَرِ».

(٢) «التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِأَبِي الْبَقَاءِ الْعُكْبَرِيِّ (٢: ٧٢٠).

(٣) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَّاجِ (٤: ٤٤١).

وُسُمِّيَ بَعْضُ الْقُرْآنِ قُرْآنًا، لِأَنَّ الْقُرْآنَ اسْمٌ جَنَسٍ يَقَعُ عَلَى كُلِّهِ وَبَعْضِهِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إِرَادَةٌ أَنْ تَفْهَمُوهُ وَتُحِيطُوا بِمَعَانِيهِ وَلَا يَلْتَبَسَ عَلَيْكُمْ؛ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤].

«الْقَصَصُ» عَلَى وَجْهَيْنِ: يَكُونُ مُصَدَّرًا بِمَعْنَى الْاِقْتِصَاصِ، تَقُولُ: قَصَّ الْحَدِيثَ يَقْصُهُ قَصْصًا، كَقَوْلِكَ: شَلَّهْ يَشْلُهُ شَلًّا: إِذَا طَرَدَهُ. وَيَكُونُ «فَعْلًا» بِمَعْنَى «مَفْعُولًا»؛ كَالنَّفْضِ وَالْحَسْبِ، وَنَحْوُهُ: النَّبَأُ وَالْخَبْرُ؛ فِي مَعْنَى الْمُنْبَأِ بِهِ وَالْمُخْبَرِ بِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَسْمِيَةِ الْمَفْعُولِ بِالْمُصَدِّرِ، كَالخَلْقِ وَالصَّيْدِ. وَإِنْ أُرِيدَ الْمُصَدِّرُ فَمَعْنَاهُ: نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ أَي: بِإِيحَانِنَا إِلَيْكَ هَذِهِ السُّورَةَ، عَلَى أَنْ يَكُونَ ﴿أَحْسَنَ﴾ مَنْصُوبًا نَصْبَ الْمُصَدِّرِ، لِإِضَافَتِهِ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ الْمَقْصُوصُ مَحْذُوفًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ مُغْنٍ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: (سُمِّيَ بَعْضُ الْقُرْآنِ قُرْآنًا)، أَي: ﴿قُرْءَانًا﴾ - فِي ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا﴾ - الْمُرَادُ بِهِ السُّورَةُ، لِقَوْلِهِ: «أَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ»، وَسَبَقَ أَنْ الْمُرَادَ مِنْهُ السُّورَةُ.

قَوْلُهُ: (إِرَادَةٌ أَنْ تَفْهَمُوهُ وَتُحِيطُوا بِمَعَانِيهِ)، قَالَ الْقَاضِي: «أَنْ تَفْهَمُوهُ هُوَ تَسْتَعْمَلُوا فِيهِ عُقُولَكُمْ، فَتَعْلَمُوا أَنَّ اِقْتِصَاصَهُ كَذَلِكَ مَنَّمَنْ لَمْ يَعْلَمْ الْقَصَصَ مُعْجِزٌ لَا يُتَّصَرُّ إِلَّا بِالْإِيحَاءِ»^(١).

وَفِي التَّفْسِيرَيْنِ خِلَافٌ؛ يَظْهَرُ الْفَرْقُ مِنْ تَفْسِيرِ «مُبِينٌ» كَمَا سَبَقَ، لِأَنَّ تَفْسِيرَ الْقَاضِي^(٢) مُوَافِقٌ لِلْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَتَفْسِيرَهُ لِلْوَجْهِ الثَّلَاثِ.

قَوْلُهُ: (وَيَكُونُ الْمَقْصُوصُ مَحْذُوفًا)، أَي: مَفْعُولٌ ﴿نَقْصٌ﴾ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، التَّقْدِيرُ: نَقْصُ الْمَوْحَى أَحْسَنَ الْقَصَصِ.

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٧١).

(٢) من قوله: «أن تفهموه وتستعملوا» إلى هنا، سقط من (ط).

ويجوزُ أن يتصبَّب ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بـ ﴿نَقُصُّ﴾ كأنه قيل: نحن نقصُّ عليك أحسنَ الاقتصاصِ هذا القرآنَ بإيجائنا إليك. والمرادُ بـ «أحسنَ الاقتصاصِ»: أنه اقتصَّ على أبداعِ طريقةٍ وأعجبِ أسلوب، ألا ترى أن هذا الحديثُ مُقتَصَّ في كتب الأولين، وفي كتب التواريخ؟ ولا ترى اقتصاصه في كتابٍ منها مُقارِباً لاقتصاصه في القرآن؟

وإن أُريدَ بـ ﴿الْقَصَصِ﴾: المقصووصُ؛ فمعناه: نحن نُقصُّ عليك أحسنَ ما يُقصُّ من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لِمَا يتضمَّن من العِبَرِ والنُّكْتِ والحِكَمِ والعجائبِ التي ليست في غيرها،.....

قوله: (ويجوزُ أن يتصبَّب ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بـ ﴿نَقُصُّ﴾)، والفرقُ بينَ هذا والأول: هو أن على الأولِ مفعولٌ ﴿نَقُصُّ﴾ محذوف، ومفعولٌ ﴿أَرْحَيْتَنَا﴾: ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾، وعلى هذا بالعكس، والمعنى على هذا: نحنُ نقصُّ عليك هذا القرآنَ - أي: قصَّةَ يوسفَ - بواسطةِ الإيجاءِ أحسنَ الاقتصاصِ، وعلى الأول: نحنُ نقصُّ عليك قصَّةَ يوسفَ بواسطةِ إيجاءِ هذا القرآنِ المعجزِ الباهرِ تبيأته القاهرِ سُلطانه أحسنَ الاقتصاصِ، وهذا أبلغ، ويكونُ المصدَرُ مُؤكِّداً^(١).

قوله: (وإن أُريدَ بـ ﴿الْقَصَصِ﴾)، معطوفٌ على قوله: «فإن أُريدَ المصدَرُ فمعناه».

قوله: (وإنما كان أحسنه لِمَا يتضمَّن من العِبَرِ والنُّكْتِ)، قال محيي السنَّة: «والقوائد^(٢) التي تصلحُ للدِّينِ والدُّنيا من سيرِ الملوكِ والمماليكِ والعلماءِ، ومكرِ النساءِ، وقصصِ الرؤيا، والصبرِ على أذى الأعداءِ، والتجاوُزِ عنهم بعدَ الاقتدارِ، وغيرِ ذلك»^(٣).

(١) على حاشية النسخة الموصلية هنا فائدة، ونصّها: «قيل: ويكونُ هذا من باب التنازع، فالأولُ اختيارُ البصريين، هو إعمالُ الثاني، والوجهُ الثاني: اختيارُ الكوفيين».

(٢) لفظُ البغوي: «لِمَا فيها من العِبَرِ والحِكَمِ والنُّكْتِ والقوائد»، ولذا ضبطتها بالكسر.

(٣) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ٢١٢).

والظاهر أنه أحسن ما يُقتَصُّ في بابِه، كما يُقال في الرَّجل: هو أعلمُ النَّاسِ وأفضَلُهُم، يُراد: في فنِّه.

فإن قلتَ: مِمَّ اشتِقاقُ «القَصَصِ»؟ قلتُ: من: قَصَّ أثره: إذا تَتَبَعَه؛ لأنَّ الذي يُقَصُّ الحديثَ يَتَّبِعُ ما حَفِظَ منه شيئاً فشيئاً، كما يُقال: تلا القرآنَ: إذا قرأه، لأنه يَتَلُو، أي: يَتَّبِعُ ما حَفِظَ منه آيةً بعد آية.

﴿وَإِنْ كُنْتَ﴾: «إِنْ» مخففةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاللَّامُ: هي التي تُمَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَافِيَةِ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿قَبْلِهِ﴾ راجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾، وَالْمَعْنَى: وَإِنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ إِجْحَانِنَا إِلَيْكَ مِنَ الْغَافِلِينَ عَنْهُ، أَي: مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ، مَا كَانَ لَكَ فِيهِ عِلْمٌ قَطُّ، وَلَا طَرَقَ سَمْعَكَ طَرَفٌ مِنْهُ.

[﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَجْدِينَ﴾ ﴿٤﴾]

قوله: (والظاهر أنه أحسن ما يُقتَصُّ في بابِه)، المعنى: أن قصَّةَ يوسفَ في الاقتصاصِ أحسنُ من سائرِ الأَقاصيصِ فيه، فلا يلزمُ أن تكونَ قصَّتهُ أحسنَ من قصَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وكونُهُ أحسنَ اقتِصاصاً لأنها اقتُصِّتْ على أبدعِ طريقةٍ وأعجَبِ أسلوبٍ.

قوله: (مِمَّ اشتِقاقُ «القَصَصِ»؟)، أي: من أيِّ معنى اشتقَّ «القَصَصِ»، وما المنقولُ منه؟ وإلا فقد بَيَّنَّ اشتِقاقَه فيما سَبَقَ حيثُ قال: «قَصَّ الحديثَ يَقُصُّه قَصَصاً».

قوله: (من الجاهلين به)، هذه كِبُوءَةٌ مِنْهُ تُؤهِمُ أَنَّ الْغَافِلَ عَنِ الشَّيْءِ هُوَ الْجَاهِلُ بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْجَاهِلِ وَمُحَاطَبُ بِهِ أَبَدًا، قَالَ الْقَاضِي: «لَوْنُ الْعَافِلِينَ» ﴿عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ؛ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِكَ، وَلَمْ تَقْرَعْ سَمْعَكَ قَطُّ، وَهُوَ تَعْلِيلٌ لِكُونِهِ مُوَحِيًّا﴾^(١).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٧٢).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴿بَدَلٌ مِنْ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وهو من بَدَلِ الاشتغال؛ لأنَّ الوقتَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْقَصَصِ، وهو الْمَقْصُوصُ، فإذا قُصَّ وَقْتُهُ فَقَدْ قُصَّ. أو: بإضمار «اذكُر».

ويوسف: اسمٌ عِبْرَانِيٌّ، وقيل: عربيٌّ، وليس بِصَحِيحٍ؛ لأنه لو كان عربيًّا لَانْصَرَفَ لِخُلُوهٍ عَنْ سَبَبِ آخَرَ سِوَى التَّعْرِيفِ.

فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ: «يُوسُفُ» بكسر السين، أو «يُوسُفُ» بفتحها؟ هل يجوزُ عَلَى قراءته أن يُقال: هو عربيٌّ، لأنه عَلَى وَزْنِ الْمُضَارِعِ الْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ مِنْ: آسَفَ، وإنما مُنِعَ الصَّرْفَ لِلتَّعْرِيفِ وَوَزْنَ الْفِعْلِ؟ قلتُ: لا؛ لأنَّ الْقِرَاءَةَ الْمَشْهُورَةَ قَامَتِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ أَعْجَمِيَّةٌ،

وقلت: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ بَدِيعًا، وفيه نَوْعٌ غَرَابَةٌ إِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ، قِيلَ لِلْمُخَاطَبِ: كُنْتَ مِنْ هَذَا غَافِلًا^(١)، يعني: كان يجبُ عَلَيْكَ أَنْ تُفَتِّشَ عَنْهُ وَتَتَوَخَّى فِي تَحْصِيلِهِ. الرَّاغِبُ: «الْعَفْلَةُ: سَهْوٌ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ قِلَّةِ التَّحْفُظِ وَالتَّيَقُّظِ، وَأَرْضٌ غُفْلٌ: لَا مَنَارَ بِهَا، وَإِغْفَالُ الْكِتَابِ: تَرْكُهُ غَيْرَ مُعْجَمٍ^(٢)، قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: جَعَلْنَاهُ غَافِلًا عَنِ الْحَقَائِقِ، أَوْ تَرَكْنَاهُ غَيْرَ مَكْتُوبٍ فِيهِ الْإِيمَانُ، كما قال: ﴿أَوَّلِيكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]»^(٣).

قوله: (وهو المقصوص)، وإنما خَصَّه، وقد ذكر أيضاً أنه يكونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَى الْاِقْتِصَاصِ، لأنَّ زَمَانَ الْاِقْتِصَاصِ زَمَانُ مَا قُصَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَوْحِيَ إِلَيْهِ، وَزَمَانُ قَوْلِ يَوْسُفَ مُنْقَرِضٌ غَيْرُ مُشْتَمِلٍ عَلَى أَحْسَنِ الْاِقْتِصَاصِ، فَلَا يَصْلُحُ الْبَدَلُ، فَهُوَ عَلَى هَذَا مَعْمُولٌ «اذكُر».

(١) في (ف): «قيل للمُخاطَب: كيت وكيت»، والمُتَّبَعُ مِنْ (ح).

(٢) أي: من غير نَقْطِ حُرُوفِهِ.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٦٠٩-٦١٠.

فلا تكون عريّة تارة، وأعجميّة أخرى، ونحو يوسف: يؤنس، رُويت فيه هذه اللغات الثلاث، ولا يُقال: هو عربيّ، لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من: أنس وأونس.

وعن النبيّ ﷺ: «إذا قيل: من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

﴿يَتَأْتِ قُرَى بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ﴾

قوله: (الكريم ابن الكريم)، الحديث: رواه البخاريّ ومسلمٌ والترمذيّ عن أبي هريرة^(١).

قوله: ﴿يَتَأْتِ قُرَى بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ﴾، ابنُ عامر: بفتح التاء، والباقون: بكسرِها^(٢)، والضمّ: شاذ^(٣).

(١) بل رواه الترمذيّ في «جامعه» (٣١١٦) - دون البخاريّ ومسلم -، وتيمّته عنده: «ولو لبثت في السّجن ما لبثت، ثم جاءني الرسول، أحببت»، وهذه الزيادة أخرجهما البخاري (٣٣٧٢) و(٣٣٨٧) و(٤٦٩٤) و(٦٩٩٢)، ومسلم (١٥١).

وأخرج قوله: «الكريم ابن الكريم...»: البخاري (٣٣٨٢) و(٣٣٩٠) و(٤٦٨٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال الحافظُ الزيلعيّ رحمه الله تعالى قال في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢: ١٥٩): «غلط الطيّبيّ فقال: «رواه البخاريّ ومسلمٌ عن أبي هريرة»، والذي رواه البخاريّ ومسلمٌ عن أبي هريرة قال: سئل النبيّ ﷺ: «أيّ الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسفُ نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله»، ذكره البخاريّ في بدء الخلق [برقم (٣٣٥٣) و(٣٣٧٤) و(٣٣٨٣) و(٤٦٨٩)]، ومسلمٌ في الفضائل [برقم (٢٣٧٨)]، وليس هذا حديث الكتاب، ولا قريباً منه».

(٢) ويقف ابن كثير وابن عامر بالهاء: «يا أبة»، كما في «التيسير» ص ١٢٧.

(٣) انظر في توجيه هذه القراءة: «إعراب القرآن» للنحاس (٢: ١٩٠)، و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري

(٢: ٧٢١)، وفي تضعيفها: «معاني القرآن وإعرابه»، للزجاج (٣: ٩٠)، وسيُفصل فيها الزمخشري.

فإن قلت: ما هذه التاء؟ قلت: تاءُ تَأْنِيثٍ وَقَعْتَ عَوْضاً من ياءِ الإضافة، والدليل على أنَّها تاءُ تَأْنِيثٍ قَلْبُهَا هاءٌ في الوَقْفِ.

فإن قلت: كيف جاز إلحاقُ تاءِ التَأْنِيثِ بالمذكَر؟ قلتُ: كما جاز نَحْوُ قولِكَ: همامَةٌ ذَكَرَ، وشاةٌ ذَكَرَ، وَرَجُلٌ رَبْعَةٌ، وَغُلامٌ يَفْعَةٌ.

فإن قلت: فليَمِّ ساعِ تعويضُ تاءِ التَأْنِيثِ من ياءِ الإضافة؟ قلت: لأنَّ التَأْنِيثَ والإضافةَ يَتَناسَبانِ في أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما زيادةٌ مضمومةٌ إلى الاسمِ في آخِرِهِ.

قوله: (تاءُ التَأْنِيثِ وَقَعْتَ عَوْضاً من ياءِ الإضافة)، قال الرَّجَّاجُ: ﴿يَتَأْنِثُ بِكُسْرِ التاءِ على الإضافةِ إلى نفسه، وحذفِ ياءِ الإضافةِ شائعٌ في النداءِ، وأما إدخالُ تاءِ التَأْنِيثِ فيخْتَصُّ بالأبِ والأُمِّ، والمذكَرُ^(١) يُوصَفُ بما فيه تاءُ التَأْنِيثِ، نَحْوُ: غُلامٌ يَفْعَةٌ، وَرَجُلٌ رَبْعَةٌ، والتاءُ إنما كُسِرَتْ وَلَزِمَتْ في الأبِ عَوْضاً من ياءِ الإضافة، والوقفُ عليه: يا أبةَ، وَزَعَمَ الفَرَّاءُ^(٢) أنك إذا كُسِرَتْ وَقَفْتَ بالتاءِ لا غير، وإذا فَتَحَتْ وَقَفْتَ بالهاءِ والتاءِ، ولا فَرْقَ بين الكُسْرِ والفَتْحِ، وأما الرفعُ فضعيفٌ، لأنَّ الهاءَ بَدَلٌ من ياءِ الإضافة^(٣).

قوله: (قَلْبُهَا هاءٌ)، أي: لو كانت أصليةً لبقيت ياءً خالصةً في الوقفِ، ولم تُقَلِّ: يا أبةَ، كما في الثَّبَتِ، وهو الحِجَّةُ، وقرأ: «يا أبةَ» - بالهاءِ في الوقفِ - ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو^(٤) ويعقوب.

قوله: (رَبْعَةٌ)، الجوهري: «أي: مَرَبوعُ الخلقِ، لا طویلٌ ولا قَصيرٌ، وامرأةٌ رَبْعَةٌ، وجمعُها رَبَعَاتٌ»، «وَأَيْفَعُ الغُلامُ: ارتفع، وَغُلامٌ يافِعٌ وَيَفْعَةٌ، وَغِلْمَانٌ أَيْفَاعٌ وَيَفْعَةٌ».

(١) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «والمذكور»، والتصويب من «معاني القرآن» للرَّجَّاجِ.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفَرَّاءِ (٢: ٣٢).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للرَّجَّاجِ (٣: ٨٨ - ٨٩).

(٤) صوابه: ابنُ عامرٍ، لا أبو عمرو. انتهى من حاشية النسخة الموصلية. وهو المُوَافِقُ لِمَا في كتب القراءات،

انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢: ١٣١).

فإن قلت: فما هذه الكسرة؟ قلت: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك: يا أبي، قد رُحِلَّتْ إلى التاء، لاقتضاء تاء التانيث أن يكون ما قبلها مفتوحاً.

فإن قلت: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ قلت: امتنع ذلك فيها لأنها اسم، والأسماء حقه التحريك؛ لأصالتها في الإعراب، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تُحْرَكَ تخفيفاً؛ لأنها حرف لين، وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير، فلزم تحريكها.

فإن قلت: يُشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة: الجمع بين العوض والمعوّض منه، لأنها في حكم الياء إذا قلت: يا غلام، فكما لا يجوز «يا أبتى» لا يجوز «يا أبت»؟ قلت: الياء والكسرة قبلها شيان، والتاء عوض من أحد الشئين، وهو الياء، والكسرة غير متعرّض لها، فلا يُجمَعُ بين العوض والمعوّض منه، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير، ألا ترى إلى قولهم: «يا أبتا» مع كون الألف فيه بدلاً من التاء، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء، ولم يُعدَّ ذلك جمعاً بين العوض والمعوّض منه؟ فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قلت: فقد دلّت الكسرة في «يا غلام» على الإضافة؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتهما، فإن دلّت على مثل ذلك في «يا أبت»، فالتاء المعوضة لغو؛ وجودها كعدمها؟.....

قوله: (رُحِلَّتْ)، الجوهري: «الرَّحَلَقَةُ: كالدَّحْرَجَةِ والدَّفْعِ، يُقال: رَحَلَقْتُهُ فَتَرَ حَلَقًا». قوله: (بالفتحة التي اقتضتها التاء)، وهي الفتحة التي قبل التاء في مثل طَلْحَةٍ وحمزة، أي: إذا اقتضت التاء فتح ما قبلها كان القياس أن يسقط هذا الاقتضاء تلك الكسرة، لوجود ما يقتضي عدمها، إلا أن تُرَحَلَقَ إلى التاء، لأنها اسم، قيل: ليست باسم، وإنما هي عوض من الاسم، فأجريت مجراه.

قوله: (وجودها كعدمها)، لأن الكسرة لما دلّت على الياء، فأبى حاجة إلى ذكر التاء.

قلت: بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت: يا أبي.

فإن قلت: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ قلت: أمّا مَنْ فَتَحَ فقد حَذَفَ الألفَ من «يا أبتا»، واستَبَقِي الفتحَةَ قبلها، كما فعل مَنْ حَذَفَ الياءَ في: «يا غَلام»، ويجوزُ أن يُقالَ: حَرَكَها بحركة الياءِ المَعَوِّضِ منها في قولك: «يا أبي».

وأما مَنْ ضَمَّ فقد رأى اسماً في آخره تاءً تأنيث، فأجراه مجرى الأسماءِ المؤنثةِ بالتاءِ فقال: «يا أبتُ»، كما تقولُ: «يا بُنَّةً» من غير اعتبارٍ لكونها عَوْضاً من ياء الإضافة.

وقرئ: «إني رأيتُ» بتحريك الياء، «وأحدَ عَشَرَ» بسكون العين؛ تخفيفاً لتوالي الحركاتِ فيما هو في حكم اسمٍ واحد، وكذا إلى تسعةَ عَشَرَ، إلا اثنيَ عَشَرَ؛ لثلاثاً يلتقي ساكنان.

قوله: (بل حالها مع التاء كحالها مع الياء)، يعني: الكسرة على التاء ليست كالكسرة على الميم في «يا غلام»، وإنما هي كالكسرة في «يا غلامي» مع الياء.

قوله: (يا بُنَّة)، الجوهرية: «الثبّة: الجماعة، وأصلها بُنيّ، والجمع بُناتٌ وبُنونٌ^(١) وأثابيّ.

قوله: (و«أحدَ عَشَرَ» بسكون العين)، قال ابنُ جنّي: «قرأها أبو جعفرٍ ونافعٌ - بخلاف - وطلحةُ بنُ سُلَيْمان^(٢)، والسَّبَبُ أنَّ الاسمَينَ لَمَّا جُعِلَا كالاسمِ الواحدِ، وبنيّ الاسمِ الأوّلِ منها لأنه كصَدْرِ الاسمِ، والثاني منها لَتَضَمُّنِهِ معنى حَرفِ العطفِ، لم يَجْزِ الوقْفُ على الأوّلِ، لأنه كصَدْرِ الاسمِ من عَجْزِهِ، فَجُعِلَ تسكينُ أولِ الثاني دليلاً على أنها قد صارَا كالاسمِ الواحدِ، وكذلك البقيّةُ إلى «تسعةَ عَشَرَ»، إلا «اثنا عَشَرَ» و«اثني عَشَرَ»، فإنه لا يُسَكَّنُ لِسُكُونِ الألفِ والياءِ قبلها، ومما يدلُّ على أنَّ الاسمَينِ إذا أُجْرِيَا مجرى الاسمِ الواحدِ

(١) بضمّ التاء وكسرها، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (ثبا).

(٢) طلحةُ بنُ سُلَيْمان: هو السَّمَان، مقرئٌ مُصدَّر. «غاية النهاية» لابن الجزري (١: ٣٠٩).

و﴿رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا، لا من الرؤية، لأن ما ذكره معلوم أنه منام؛ لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام، ولما خفيت عليه وعلى الناس.

فإن قلت: ما أساء تلك الكواكب؟ قلت: روى جابر: أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت رسول الله ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: «إن أخبرتك هل تسلم؟ قال: نعم. قال: «جريان، والطارق، والذئال، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصيح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذو الكتفين. رآها يوسف. والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له» فقال اليهودي: أي والله، إنها لأسأؤها.

وقيل: الشمس والقمر: أبواه. وقيل: أبوه وخالته، والكواكب: إخوته.

وعن وهب: أن يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصاً صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه، فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه، فقال له: لا تقصها عليهم، فيبغوا لك الغوائل.

وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصر إخوته إليه أربعون سنة. وقيل: ثمانون.

عوملاً معاملة: ما حكاه أبو عمرو الشيباني^(١) من قولهم في حصر موت: حصر موت - بضم الميم - ؛ ليكون كعنكبوت^(٢).

(١) هو العلامة اللغوي النحوي الأديب أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني بالولاء الكوفي ثم البغدادي (٩٤ - ٢٠٦). «الأعلام» للزركلي (٧: ٤٧٦).

(٢) «المحتسب» لابن جنّي (١: ٣٣٢).

فإن قلت: لِمَ أحرَّ الشمسَ والقمرَ؟ قلتُ: أحرَّهما ليعطفَهما على «الكواكب» على طريق الاختصاص، بياناً لفضلِهما واستبادهما بالمزية على غيرهما من الطوائع، كما أحرَّ جبريلُ وميكائيلُ عن الملائكة، ثم عطفَها عليها لذلك.

قوله: (على طريق الاختصاص بياناً لفضلِهما واستبادهما بالمزية)، وكان من حقِّ الظاهرِ تقديمُ «الشمسِ والقمرِ» على «الكواكب» بعد إخراجِهما من الجنس؛ تقديماً للفاضلِ على المفضول، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لكنَّ خولفَ هذا الاعتبارُ بتأخيرِهما؛ قصداً إلى تغايرِهما مطلقاً، وإخراجِهما من الجنسِ رأساً، بحيثُ لا مناسبةٌ بينهما، كتقديمِ الفاضلِ على المفضول.

فإن قلت: ما نحنُ بصددهِ ليس من قبيل: ﴿وَمَلَكُوتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، لأنه من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، لأنها داخلان في الملائكة، بخلافه هاهنا؟ قلت: يكفي في التشبيه^(١) بالفضلِ والاختصاصِ تأخيرُهما وإخراجُهما من جنسِ الكواكب، وجعلُهما مُغايرينِ لها بالعطف، وهو المرادُ من قوله: «كما أحرَّ»، وقوله: «ثم عطفَها عليها».

فإن قلت: فما فائدةُ العدولِ، ولِمَ لم يقل: إني رأيتُ الكوكبَ والشمسَ والقمرَ؛ ليُوَازِيَ تلكَ الآية؟ قلت: القصدُ الأوَّلُ في تلكَ الآيةِ ذكرُ جبريلَ وميكائيلَ، كما دلَّ عليه سببُ النزولِ^(٢)، وذكرُ الملائكةِ للتوطئةِ والتمهيدِ، بخلافه هاهنا، فسلكَ به مسلكاً علِمَ منه المقصودُ، وأدمجَ التفضيلَ والاختصاصَ، وفيه إشارةٌ إلى^(٣) أن الآخرةَ مع تلكَ الهناتِ ما سلبَ عنهم نورَ الولايةِ والنُّبوةِ.

(١) تحرّف في (ف) إلى: «السبية».

(٢) حيثُ ادعى اليهودُ أن ميكائيلَ صاحبُهم، أما جبريلُ: فعُدُوهم، فنزلت الآية. كما في حديث ابن عباس عند أحمد في «مسنده» (٢٤٨٣) و(٢٥١٤)، وانظر حديث أنس عند البخاري (٤٤٨٠).

(٣) كذا في (ط) و(ح)، وفي (ف): «دلّ على».

ويجوز أن تكون الواو بمعنى «مع»؛ أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

قوله: (ويجوز أن تكون «الواو» بمعنى: مع)، قال صاحب «التقريب»: وفيه نظر؛ لانفاقهم على أن «عمرأ» في «صُرِبْتُ زيدا وَعَمْرَأ» ليس مفعولاً معه. ويجاب: أن المعنى بقوله: «بمعنى: مع» ليس أنه مفعولٌ معه، فإنَّ سؤاله: «لِمَ أُخِرَ^(١) «الشمسُ والقمر»؟».

ومعناه: كيف أخرهما وموضع التقديم ظاهر. وأجاب بجوابين: أحدهما: فيه التزام التأخير لإفادة المبالغة في التغير، وثانيهما: أن «الواو» لا توجب الترتيب، لأن مقتضاها الجمعية، لأنها بمعنى: مع، كأنه قيل: رأيت الشمس والقمر والكواكب دفعةً واحدة.

يؤيده قوله في تفسير^(٢): ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٣٦]: «إننا وحَّدَ الراجعَ في «به»، لأن الواو بمعنى: «مع»، فيتَّوَحَّدُ المرجوعُ إليه»، وقوله بعيد هذا: ﴿يَحْتَلُّ لَكُمْ﴾ إما مجزومٌ بإضمار «إن»، والواو بمعنى: «مع»، كقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾^(٣).

قال شارح «الهادي»^(٤): الواو تدلُّ على الجمع المطلق، ودلالاتها على الجمع أقوى من دلالتها على العطف، فإنها قد تعرى عن معنى العطف، ولا تعرى من معنى الجمع، فإن

(١) في الأصلين: «لِمَ ما أُخِرَ»، وهو خطأ، وأثبت ما في «الكشاف».

(٢) في الأصول الخطية: «في تفسيره»، وأثبت الأنسب للسياق.

(٣) في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، وذلك على أحد القولين في إعرابها، وهو أن يكون «تكتموا» نصباً على الجواب بالواو، أي: لا تجمعوا بينهما، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. والقول الثاني: أنه مجزومٌ بالعطف على «تلبسوا». انظر: «التيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (١: ٥٨).

(٤) لعله يريد ما ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٢: ٢٧٠٢٧) حيث قال: «الهادي في النحو والصرف» للإمام عز الدين عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني، وهو متنٌ متوسط، ثم شرَّحه شرحاً كبيراً سماه «الكافي»، ذكر في آخره: أنه قرع منه بغداد في ذي الحجة سنة ٦٥٤. انتهى باختصار.

وَأَوَّ الْقَسَمِ وَاوَّ الْحَالِ بِمَعْنَى «مَعَ»، وَلَا تُفِيدُ الْعَطْفَ، وَتُفِيدُ الْجَمْعَ، لِأَنَّهَا فِي الْقَسَمِ نَائِبَةٌ عَنِ الْبَاءِ، وَالْبَاءُ لِلِإِلصَاقِ، وَالْحَالُ مُصَاحِبَةٌ لِذِي الْحَالِ، وَالْوَاوُ فِي الْمُخْتَلَفِينَ بِمَنْزِلَةِ^(١) التَّشْبِيهِ وَالْجَمْعِ فِي الْمُتَّفِقِينَ إِذَا لَمْ يُمَكِّنْهُمُ التَّشْبِيهُ وَالْجَمْعُ فِي الْمُخْتَلَفِينَ، فَعَدَلُوا إِلَى الْوَاوِ.

وتلخيصُ الجوابينِ يرجعُ إلى ما قاله في سورة النَّمْلِ: «فإن قلت: ما الفرقُ بينَ هذا - أي: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١] - وبينَ قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؟ قلت: لا فرقٌ بينهما إلا ما بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه منَ التَّقَدُّمِ والتَّأخُّرِ، وذلك على صَرِيحٍ: صَرَبٌ جَارٍ مَجْرِي التَّشْبِيهِ، لَا يَتَرَجَّحُ جَانِبٌ عَلَى جَانِبٍ، وَصَرَبٌ فِيهِ تَرَجُّحٌ، وَالْأَوَّلُ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾^(٢)، وَالثَّانِي نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ١٨].»

وُنُقِلَ عَنِ تَلْمِيزِ ابْنِ الْحَاجِبِ أَنَّهُ قَالَ: ظَاهِرُ كَلَامِ الرَّمُحْشَرِيِّ لَا يَشْتَرِطُ فِي الْمَفْعُولِ مَعَهُ مُصَاحِبَةُ الْفَاعِلِ، وَالْحَدُّ الْمَذْكُورُ فِي «الكَافِيَةِ» لَا يَمْنَعُ مِنْ مُصَاحِبَةِ الْمَفْعُولِ^(٣)، وَنُقِلَ الْمَالِكِيُّ^(٤) عَنِ سَبْيَوِيهِ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ تَمَثِيلِهِ بـ «مَا صَنَعَتْ وَأَبَاكَ» وَ«لَوْ تَرَكْتَ النَّاقَةَ وَفَصِيلَهَا لَرَضَعَهَا»، فَـ «الْفَصِيلُ» مَفْعُولٌ مَعَهُ، وَ«الْأَبُ» كَذَلِكَ^(٥). وَقَالَ الْمَالِكِيُّ أَيْضًا: وَيَتَرَجَّحُ

(١) من قوله: «القسم وواو الحال بمعنى: مع» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) أي: أنه قدّم في البقرة - في الآية ٥٨ - الأمر بدخول الباب، فقال: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، أما في الأعراف - في الآية ١٦١ منها - فأخره، فقال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَطْفَ بِالْوَاوِ جَارٍ مَجْرِي التَّشْبِيهِ مِنْ غَيْرِ تَرَجُّحِ الْأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي.

(٣) عَرَفَ ابْنُ الْحَاجِبِ «الْمَفْعُولَ مَعَهُ» فِي «الكَافِيَةِ» بِأَنَّهُ الْمَذْكُورُ بَعْدَ الْوَاوِ مُصَاحِبَةٌ مَعْمُولٌ فِعْلٌ لِفِظًا أَوْ مَعْنَى. انظر: «شرح الرضي على الكافية» (١: ٥١٥).

(٤) يعني: ابن مالك صاحب «الألفية» المشهورة.

(٥) انظر: «الكتاب» لسبويّه (١: ٢٩٧).

فإن قلت: ما معنى تكرار ﴿رَأَيْتُ﴾؟ قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلامٌ مُستأنفٌ على تقدير سؤالٍ وَقَعَ جواباً له، كأنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: كيف رأيتها؛ سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

فإن قلت: فلمَ أُجريت مجرى العقلاء في ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاصٌ بالعقلاء وهو السُّجود، أُجريت عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثيرٌ شائعٌ في كلامهم، أن يُلبسَ الشَّيءُ الشَّيءَ من بعض الوجوه، فيعطى حكماً من أحكامه؛ إظهاراً لآثرِ الملبسةِ والمقاربةِ.

العطفُ إن كانَ بلا تكلُّفٍ ولا مانعٍ ولا مؤهِنٍ، فلو خيفَ به فواتُ ما تَصَرَّفوا به رُجِّحَ النَّصْبُ على المَعِيَّةِ^(١). كذلك هاهنا رَجَّحْنَا المَعِيَّةَ على العطفِ لِتَوْخِي حُصُولِ الأفضليَّةِ لِيَتَرَجَّحَ معنى الآيةِ إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

قوله: (أُجريتُ عليها حكمهم، كأنها عاقلة)، قال الرَّجَّاحُ: «إذا جعلَ اللهُ غيرَ المُمَيِّزِ كالمُمَيِّزِ كذلك تكونُ أفعالها وآثارها، وأما ﴿سَاجِدِينَ﴾ فحقيقته فعلٌ كُلٌّ مَنْ يَعْقِلُ، فإذا وُصِفَ به غيرُهُم فقد دَخَلَ في المُمَيِّزِينَ، وصار الإخبارُ عنهم كالإخبارِ عنهم»^(٢).

قوله: (أن يُلبسَ الشَّيءُ الشَّيءَ)، قيل: هو خَبَرٌ مُبتدأٌ محذوفٌ، أي: هو أن يُلبسَ، والجملةُ بيانٌ لقوله: «هذا كثيرٌ في كلامهم».

(١) انظر: «شرح الكافية» لابن مالك (٢: ٦٩٤-٦٩٥)، ولفظه يختلف كثيراً عن المنقول هنا، لكنه يؤدي معناه، فلعل المؤلف تصرّف في النقل كعادته رحمه الله، أو أنه ينقل من كتاب آخر لابن مالك، كـ«شرح التسهيل»، والله أعلم.

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٩١) بنحوه.

[قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْضُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * ٥-٦]

عَرَفَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلَالََةَ الرُّؤْيَا عَلَىٰ أَنَّ يُوسُفَ يُبَلِّغُهُ اللهُ مَبْلَغًا مِنَ الْحِكْمَةِ، وَيَصْطَفِيهِ لِلنَّبُوَّةِ، وَيُنْعِمُ عَلَيْهِ بِشَرَفِ الدَّارَيْنِ، كَمَا فَعَلَ بِأَبَائِهِ، فَخَافَ عَلَيْهِ حَسَدَ الْإِخْوَةِ وَبَغْيِهِمْ.

والرُّؤْيَا: بمعنى الرُّؤْيَا؛ إلا أنها مُخْتَصَّةٌ بِمَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَنَامِ دُونَ الْيَقَظَةِ، فُرِّقَ بَيْنَهُمَا بِحَرْفِي التَّائِيثِ، كَمَا قِيلَ: الْقُرْبَىٰ وَالْقُرْبَىٰ.

وَقُرِيءَ: «رُؤْيَا» بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ وَآوَاءَ، وَسَمِعَ الْكِسَائِيُّ: «رُيَا» وَ«رِيَا» بِالْإِدْغَامِ وَصَمَّ الرَّاءَ وَكَسَّرَهَا،

قوله: (والرُّؤْيَا: بمعنى الرُّؤْيَا، إلا أنها مُخْتَصَّةٌ بِمَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَنَامِ)، قال أبو علي: «الرُّؤْيَا: مَصْدَرٌ كَالْبُشْرَىٰ وَالسُّقْيَا وَالْبُقْيَا، إِلا أَنَّهُ لَمَّا صَارَ اسْمًا لِهَذَا التَّخْيِيلِ فِي الْمَنَامِ جَرَىٰ مَجْرَىٰ الْأَسْمَاءِ، وَخَرَجَ عَنِ حُكْمِ الْإِعْمَالِ، وَمِمَّا يُقْوَىٰ خُرُوجُهُ عَنِ أَحْكَامِ الْمَصَادِرِ تَكْسِيرُهُمْ لَهَا عَلَى «رُؤْيَا»، فَصَارَ بِمَنْزِلَةِ «ظَلَمَ»، وَالْمَصَادِرُ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ لَا تُكْسَرُ»^(١)، وَسَيَجِيءُ الْكَلَامُ فِي حَقِيقَةِ «الرُّؤْيَا» بُعِيدَ هَذَا.

قوله: (وَقُرِيءَ: «رُؤْيَا» بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ وَآوَاءَ)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «الْجُمْهُورُ أَنَّ الْأَصْلَ الْهَمْزُ، وَقُرِيءَ بِوَاوٍ مَكَاتِنًا، لِانْتِزَاعِ مَا قَبْلَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُدْغِمُ، فَيَقُولُ: رُيَا، فَأَجْرَىٰ الْمُخَفَّفَةَ مَجْرَىٰ الْأَصْلِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْسِرُ الرَّاءَ لِتُنَاسِبِ الْيَاءَ»^(٢).

(١) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٩٨).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٢٢).

وهي ضعيفة؛ لأن الواو في تقدير الهمزة، فلا يقوى إدغامها كما لم يقوَ الإدغام في قولهم: «أَنْزَرَ» من الإزار، و«أَنْجَرَ» من الأجر.

﴿فِيَكِيدُوا﴾ منصوبٌ بإضمار «أن»، والمعنى: إن قَصَصْتَهَا عليهم كأدوك.

فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك، كما قيل: ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥]؟ قلت: ضَمَّنَ معنى فعل يتعدى باللام، ليُفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المُضَمَّن، فيكون أكد وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك. ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر.

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ العداوة لِمَا فَعَلَ بِأَدَمَ وَحَوَّاءَ، ولقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فهو يَحْمِلُ على الكيد والمكر وكل شر، لِيُورِطَ مَنْ يَحْمِلُهُ، ولا يُؤْمَنُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ على مثله.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الاجتباء ﴿يَحْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يعني: وكما اجتبتك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن، كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلامٌ مُبْتَدَأٌ غيرٌ داخِلٍ في حُكْمِ التَّشْبِيهِ، كأنه قيل: وهو يُعَلِّمُكَ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ. والاجتباء: الاصطفاء، افتعالٌ من: جَبَّيْتُ الشَّيْءَ: إِذَا حَصَلَتْهُ لِنَفْسِكَ، وَجَبَّيْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ: جَمَعْتَهُ.

قوله: (وهي ضعيفة)، قال أبو علي: «فإن خَفَّفَتْ قُلْتُ: «الرؤيا»، قَلْبَتَهَا ولم تُدْغِمِ الواو في الياء، وإن كانت قد تَقَدَّمَتْهَا ساكنة، لأن الواو في تقدير الهمزة، فهي كذلك غير لازمة، وإذا لم يلزم لم يَقَعِ الاعتدالُ بها، فلم تُدْغِمِ، كما لم تُقَلِّبِ الأولى في ﴿وَوَرَى عَنْهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] لِمَا كانت الثانية غير لازمة، ومن ثمَّ جازَ «صَوٌّ» و«شيءٌ»، فبقي الاسم على حرفين؛ أحدهما حرف لين، وجازَ تحركُ حرف اللين وتصحُّحُه مع انفتاح ما قبله، لأن الهمزة في تقدير الثبات»^(١).

(١) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٣٩٨ - ٣٩٩).

والأحاديث: الرؤيا؛ لأنَّ الرؤيا إما حديثٌ نفسٍ أو ملكٍ أو شيطان. وتأويلُها: عِبَارَتُهَا وَتَفْسِيرُهَا، وكان يوسفُ عليه السَّلامُ عَبْرَ النَّاسِ لِلرُّؤْيَا، وَأَصَحَّهْمُ عِبَارَةً لَهَا. ويجوزُ أن يُرادَ بـ ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: معاني كُتُبِ اللَّهِ وَسُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وما عَمَّصَ واشتَبَهَ على النَّاسِ من أَعْرَاضِهَا وَمَقَاصِدِهَا،

قوله: (ويجوزُ أن يُرادَ بـ ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ معاني كُتُبِ اللَّهِ وَسُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ)، فعلى هذا فيه إشارةٌ إلى أنَّ العِلْمَ أَجَلُ النَّعْمِ، وَأَشْرَفُ العُلُومِ: تأويلُ كتابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. الراغب: «التأويل»^(١): مِنَ الْأَوَّلِ، وهو الرجوعُ إلى الأصلِ، ومنه المَوْتُلُ للمَوْضِعِ الذي يُرْجَعُ إليه، وذلك هو رَدُّ الشَّيْءِ إلى الغايةِ المرادَةِ منه^(٢)؛ عِلْمًا كَانَ أو فِعْلًا، ففي العِلْمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وفي الفِعْلِ قولُ الشاعر:

وللنَّوى قَبْلَ يَوْمِ البَيْتِ تَأْوِيلٌ^(٣)

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: بيانه الذي هو غايته المقصودةُ منه، والأول: السياسةُ التي يُرعى مآلُها، يُقال: أَلْنَا وَإَيْلَ عَلَيْنَا^(٤)»^(٥).

(١) من قوله: «الأحاديث معاني كتاب الله» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف)، وأثبتته من (ط).

(٢) قال العلامةُ الكوثريُّ رحمه الله تعالى في مقدِّمة «قانون التأويل» للإمام الغزالي: «التأويل: هو بيانُ ما يحتاجُ إلى التدبُّرِ من القولِ، وتبيينُ ما يؤوَّلُ إليه الكلامُ. وهذا هو معنى التأويلِ في أصلِ اللغة. وأما استعمالُه بمعنى صَرْفِ الكلامِ عن معناه الظاهر: فاصطلاحٌ مُحدثٌ». انظر: «مُقَدِّماتُ الإمام الكوثري» ص ١٢٣.

(٣) عَجَزُ بَيْتِ لَعْبَدَةَ بْنِ الطَّيِّبِ، كما في «المُفَضَّلِيَّاتِ» ص ١٣٦، وصَدْرُهُ:

وللأحِبَّةِ أَيامٌ تَذَكَّرُهَا

(٤) قال العلامةُ ابنُ منظورٍ في «لسانِ العرب»، مادة (أول): «وفي المَثَلِ: «قد أَلْنَا وَإَيْلَ عَلَيْنَا»، يقول: وَلَيْنَا وَوَلِيَّ عَلَيْنَا، وَتَسَّبَّ ابْنُ بَرِّي هَذَا القَوْلَ إلى عُمَرَ، وقال: معناه: أي: سُنَّنا وَسَيَسَّ عَلَيْنَا».

(٥) «مفردات القرآن» ص ٩٩.

يُفَسِّرُهَا لَهُمْ وَيَسِّرُهَا وَيُدْهِمُ عَلَى مُودَعَاتِ حِكْمِهَا. وَسُمِّيَتْ: أَحَادِيثُ؛ لِأَنَّهُ يُحَدِّثُ بِهَا عَنِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ. فَيُقَالُ: قَالَ اللَّهُ، وَقَالَ الرَّسُولُ كَذَا وَكَذَا. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي آيَاتِ حَدِيثِ بَعْدِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وَهُوَ اسْمٌ جَمْعٌ لِلْحَدِيثِ، وَلَيْسَ بِجَمْعِ أُحْدُوثة؟ وَمَعْنَى إِتِمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ: أَنَّهُ وَصَلَ لَهُمْ نِعْمَةَ الدُّنْيَا بِنِعْمَةِ الآخِرَةِ، بِأَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ فِي الدُّنْيَا وَمُلُوكًا، وَتَقَلَّهَمَ عَنْهَا إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْجَنَّةِ. وَقِيلَ: أَتَمَّهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِالْحِلَّةِ وَالْإِنْجَاءِ مِنَ النَّارِ وَمَنْ ذَبَحَ الْوَلَدِ، وَعَلَى إِسْحَاقَ بِإِنْجَائِهِ مِنَ الذَّبْحِ وَفِدَائِهِ بِذَبْحِ عَظِيمٍ وَبِإِخْرَاجِ يَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ مِنْ صُلْبِهِ. وَقِيلَ: عَلِمَ يَعْقُوبُ أَنَّ يُوسُفَ يَكُونُ نَبِيًّا وَإِخْوَتُهُ أَنْبِيَاءَ اسْتِدْلَالًا بِضَوْءِ الْكَوَاكِبِ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾.....

قوله: (وهو اسمٌ جمعٌ للحديث، وليس بجمع أُحْدُوثة)، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (١): «الْأَحَادِيثُ تَكُونُ اسْمٌ جَمْعٌ (٢) لِلْحَدِيثِ، وَمِنْهُ: أَحَادِيثُ الرَّسُولِ، وَتَكُونُ جَمْعًا لِلْأُحْدُوثةِ الَّتِي هِيَ مِثْلُ الْأُضْحُوكَةِ وَالْأَعْجُوبَةِ، وَهِيَ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ تَلْهِيًا وَتَعْجَبًا»، وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ نَاقِضٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي «الْمَفْصَلِ»: «وَقَدْ يَجِيءُ الْجَمْعُ مَبْنِيًّا عَلَى غَيْرِ وَاحِدِهِ الْمُسْتَعْمَلِ، وَذَلِكَ نَحْوُ: أَرَاهِطُ وَأَبَاطِيلُ وَأَحَادِيثُ» (٣).

قَالَ الْفَرَّاءُ: تَرَى أَنَّ وَاحِدَ «الْأَحَادِيثِ»: أُحْدُوثة، ثُمَّ جَعَلُوهُ جَمْعًا لِلْحَدِيثِ. وَقَالَ عَلَمُ الدِّينِ السَّجَاوَنْدِيُّ فِي «شَرْحِ الْمَفْصَلِ»: كَانَهُمْ جَمَعُوا «حَدِيثًا» عَلَى «أُحْدُوثة»، ثُمَّ جَمَعُوا الْجَمْعَ عَلَى «أَحَادِيثِ»، كَقَطِيعٍ وَأَقْطِعةٍ وَأَقَاطِيعِ، فَعَلِيَ هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى وَاحِدِهِ الْمُسْتَعْمَلِ.

(١) فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ ٤٤ مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ.

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «تَكُونُ جَمْعًا»، وَالثَّبْتُ مِنْ «الْكَشَافِ».

(٣) «الْمَفْصَلِ» لِلزُّنْحَشَرِيِّ ص ١٩٦.

وقيل: لَمَّا بَلَغَتِ الرَّؤْيَا إِخْوَةَ يُوسُفَ حَسَدُوهُ وَقَالُوا: مَا رَضِيَ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ إِخْوَتُهُ حَتَّى سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ. وقيل: كان يعقوبُ مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره لَمَّا يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلَمَّا رأى الرؤيا ضاعف له المحبة، فكان يضمُّه كل ساعة إلى صدره، ولا يصبرُ عنه، فتبالغَ فيهم الحسد.

وقيل: لَمَّا قَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى يَعْقُوبَ، قَالَ: هَذَا أَمْرٌ مُشْتَتٌ يَجْمَعُهُ اللَّهُ لَكَ بَعْدَ دَهْرٍ طَوِيلٍ.

و«أَل يَعْقُوبَ»: أهله، وهم نسلُه وغيرهم. وأصل «أَل»: أهل، بدليل تصغيره على «أَهَيْل»، إلا أنه لا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيمَنْ لَهُ خَطَرٌ، يُقَالُ: أَلُ النَّبِيِّ، وَأَلُ الْمَلِكِ. وَلَا يُقَالُ: أَلُ الْحَائِكِ، وَلَا: أَلُ الْحَجَّامِ، وَلَكِنْ: أَهْلُهَا.

قوله^(١): (من المخايل)، وهي جمع مخيلة، وهي المظنة^(٢)، وبأوه كياء «معاش».

قوله: (هذا أمرٌ مُشْتَتٌ يَجْمَعُهُ اللَّهُ [لك] بعد دهرٍ طويل)، يعني: أَنْ رُؤْيَاكَ أَمْرٌ يَدُلُّ عَلَى تَشْتِيتِ أَمْرِكَ أَوَّلًا، ثُمَّ يَجْمَعُ اللَّهُ مِنْ شَتَاتِكَ بَعْدَ دَهْرٍ طَوِيلٍ، الْجَوْهَرِيُّ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنَا مِنْ شَتِّ»، ودلالته عليه لأنَّ سُجُودَ إِخْوَتِهِ مَعَ بُغْضِهِمْ إِيَّاهُ وَحَسَدِهِمْ أَمْرٌ بَعِيدٌ، وَكَوْنُهُ مَسْجُوداً لِأَبْوَيْهِ أَبْعَدُ، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ ضَرْبَاتِ الدَّهْرِ وَشَتَاتِ الْأُمُورِ وَتَقَلُّبَاتِ الْأَحْوَالِ.

(١) لم يتعرض الإمام الطيبي لما ذكره الزمخشري هنا من كون الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والأصح أنه إسمايل عليه السلام، وكذا لم يتعرض الطيبي لذلك فيما سيأتي في تفسير الآية ٣٦ والآية ٨٩ من هذه السورة، وعلى كُُلِّ فقد أورد الزمخشري الخلاف فيه في تفسير الآية ١٠٢ من سورة الصافات، فانظر التفصيل فيه هناك.

(٢) في (ح): «وهي ما يظن»، والمعنى واحد.

(٣) في الأصول الخطبة: «يجمع»، والمثبت من «الكشاف»، وهو المناسب للسياق.

وأراد بـ«الأبوين»: الجدَّ وأبا الجدِّ؛ لأنَّهما في حكم الأب في الأصلة، ومن ثمَّ يقولون: ابن فلان، وإن كان بينه وبين فلان عدَّة.

و﴿إِذْ رَهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿أَبَوَيْكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ مَنْ يَحِقُّ لَهُ الاجْتِبَاءُ ﴿حَكِيمٌ﴾ لَا يَتِمُّ نِعْمَتُهُ إِلَّا عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا.

[﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِئِلِينَ﴾ [٧]

﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي: في قصَّتهم وحدثهم ﴿آيَاتٌ﴾ علاماتٌ ودلائلٌ على قدرة الله وحكمته في كلِّ شيء، ﴿لِّلسَّالِئِلِينَ﴾ لِمَنْ سَأَلَ عَنْ قِصَّتِهِمْ وَعَرَفَهَا. وقيل: آياتٌ على ثبوتِ محمدٍ ﷺ لِلَّذِينَ سَأَلُوهُ مِنَ الْيَهُودِ عَنْهَا، فَأَخْبَرَهُمْ بِالصَّحَّةِ مِنْ غَيْرِ سَمَاعٍ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا قِرَاءَةٍ كِتَابٍ.

وقرئ: «آية»، وفي بعض المصاحف: «عبرة».

وقيل: إنَّها قصصُ الله تعالى على النبيِّ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَبَرَ يُوسُفَ وَبَغْيَ إِخْوَتِهِ عَلَيْهِ لِمَا رَأَى مِنْ بَغْيِ قَوْمِهِ عَلَيْهِ لِيَتَأَسَّى بِهِ. وقيل: أساميهم: يَهُودًا، وَرُوبِيلَ، وَشَمْعُونَ، وَلاوِي، وَزِبَالُونَ، وَبَشَجْرُ، وَدِينَةُ، وَدَانُ، وَنَفْتَالِي، وَجَادُ، وَأَشْرُ؛ السَّبْعَةُ الْأَوَّلُونَ كَانُوا مِنْ لَيَّا بِنْتِ خَالَةِ يَعْقُوبَ، وَالْأَرْبَعَةُ الْآخَرُونَ مِنْ سُرِّيَّتَيْنِ: زَلْفَةُ، وَبَلْهَةُ. فَلَمَّا تُوفِّيَتْ لَيَّا تَزَوَّجَ أختَهَا راحيلَ، فَوَلَدَتْ لَهُ بَنِيَامِينَ وَيُوسُفَ.

قوله: (لِلَّذِينَ سَأَلُوهُ)، الضميرُ راجعٌ للرَّسُولِ ﷺ، وقوله: «من اليهود» بيانٌ «لِلَّذِينَ»، والضميرُ^(١) في «عنها» لِلْقِصَّةِ، هَذَا مُشْعِرٌ بِأَنَّ السَّائِلِينَ هُمُ الْيَهُودُ، وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: «فَقَدْ رُويَ أَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ قَالُوا الْكُتُبَاءُ الْمَشْرِكِينَ: سَلُوا مُحَمَّدًا عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ»، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَزَلَ اسْتِدْعَاءَهُمُ الْمَشْرِكِينَ سؤَالَهُ مَنْزِلَةَ سؤَالِهِمْ.

(١) في الأصلين: «ضمير»، وأصلحته بحسب السياق.

[﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴾ [٨]

﴿ قَالُوا لِيُوسُفُ ﴾ اللامُ للابتداء، وفيها تأكيدٌ وتحقيقٌ لمضمون الجملة، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمرٌ ثابتٌ لا شبهة فيه ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ هو بنيامين، وإنما قالوا: «أخوه» وهم جميعاً إخوته، لأن أمهما كانت واحدة. وقيل: ﴿ أَحَبُّ ﴾ في الاثنين، لأن «أفعل من» لا يُفرق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه «من»، ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أُضيفَ جاز الأمران.

والواو في ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ واو الحال؛ يعني: أنه يُفضّلها في المحبة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة تقوم بمرافقه، فنحن أحقُّ بزيادة المحبة منهما، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما. ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي: في ذهابٍ عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة: العشرة فصاعداً. وقيل: إلى الأربعين، سُموا بذلك لأنهم جماعة تُعصبُ بهم الأمور.....

قوله: ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي: في ذهابٍ عن طريق الصواب في ذلك، يعني: أن نسبة الضلال إلى أبيهم إن كان مطلقاً، يُوهم سوء أدب، لكن مقيّد بقريّة الأحوال، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦]، أي: في أمور التجارة، كقوله: ﴿ فَإِنِ اسْتَسْمَ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ [النساء: ٦]، أي: رُشداً في طريق التجارة.

قوله: (لأنهم جماعة تُعصبُ بهم الأمور)، الراغب: «العصب: أطنابُ المفاصل، ولحم عصب: كثير العصب، والمعصوب: المشدود بالعصب، ثم يُقال لكل شد: عصب، نحو قولهم: لأعصبتك عصب السلّمة^(١)، وفلان شديد العصب، ومعصوب الخلق، أي: مُدمج الخلق، والعصبة: جماعة مُتعصبة، قال تعالى: ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُورًا بِالْعَصْبَةِ ﴾ [القصص: ٧٦]،

(١) والسلّمة: شجرة ذات شوك، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (عصب).

وَيُسْتَكْفُونَ النَّوَابِ. وروى النَّزَالُ بْنُ سَبْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَنَحْنُ عُصْبَةٌ»،
بِالنَّصْبِ. وقيل: معناه: ونحن نجتمعُ عُصْبَةً. وعن ابنِ الأَنْبَارِيِّ: هذا كما تقول العربُ:
إِنَّمَا الْعَامِرِيُّ عِمَّتَهُ؛ أَي: يَتَعَاهَدُ عِمَّتَهُ.

[﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾]

[٩]

وقال: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ١٤]، أَي: مُجْتَمِعَةُ الْكَلَامِ مُتَعَاوِدَةً، وَاعْصُوبُ الْقَوْمِ:
صَارُوا عُصْبًا، وَالْعِصَابَةُ: مَا يُعْصَبُ بِهَا الرَّأْسُ وَالْعِمَامَةُ^(١).

قوله: («وَنَحْنُ عُصْبَةٌ بِالنَّصْبِ»)، الْإِنْتِصَافُ: «هَذَا يُؤَيِّدُ قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ: «هُنَّ أَطْهَرَ
لَكُمْ»^(٢)، كَأَنَّهُ قَالَ: لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ نَحْنُ، كَقَوْلِهِ:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي^(٣)

فَلَا بُعْدَ لِحَدَفِ الْخَبْرِ لِمُسَاوَاتِهِ الْمُبْتَدَأِ، فَوَقَعَ الْحَالُ بَعْدَهُ، وَمِثْلُهُ: «هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطْهَرَ لَكُمْ»، فَقَوْلُهُ: «هُنَّ» فِي حُكْمِ الْكَلَامِ التَّامِّ، أَي: هُنَّ الْمَشْهُورَاتُ بِالْأَوْصَافِ الْكَامِلَةِ^(٤).

قوله: (إِنَّمَا الْعَامِرِيُّ عِمَّتَهُ)، الْجَوْهَرِيُّ: «فَلَانٌ حَسَنُ الْعِمَّةِ: أَي: حَسَنُ الْإِعْتِمَادِ، وَاعْتَمَّ

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٦٨.

(٢) أَي: بِنَّصْبِ «أَطْهَرَ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨].

(٣) صَدْرُ بَيْتِ لَأَبِي النَّجْمِ، وَهُوَ الْفَضْلُ بْنُ قُدَامَةَ، وَتَمَامُهُ - كَمَا فِي «الْأَغَانِي» (٢٢: ٣٤١) -:

لِلَّهِ دَرُّ مَا يُجِنُّ صَدْرِي

وَهُوَ مِنْ شَوَاهِدِ «الْمُقْصَلِ» لِلزُّخْمَشَرِيِّ ص ٢٦، وَ«مَغْنِي اللَّيْلِ» لِابْنِ هِشَامٍ (١: ٣٢٩) رَقْم (٥٣٦)،

وَ«شَرْحِ الرُّضِيِّ عَلَى الْكَافِيَةِ» (١: ٢٥٥ و ٣٢٥).

(٤) «الانْتِصَافُ» لِابْنِ الْمُنِيرِ (٢: ٣٠٤) بِحَاشِيَةِ «الْكَشَافِ».

﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ من جملة ما حكى بعد قوله: ﴿ إِذْ قَالُوا ﴾ كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال: ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾، وقيل: الأمر بالقتل شمعون، وقيل: دان، والباقون كانوا راضين، فجعلوا أمرين، ﴿ أَرْضًا ﴾ أرضاً منكورةً مجهولةً بعيدةً من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، وإيهامها من هذا الوجه نُصِبَتْ نَصْبَ الظُّرُوفِ المبهمة، ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾ يُقْبَلُ عَلَيْكُمْ إقبالةً واحدةً لا يَلْتَفِتُ عنكم إلى غيركم. والمراد: سلامةً محبته لهم ممن يُشارِكُهم فيها ويُنازِعُهم إياها، فكان ذِكْرُ الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأنَّ الرجل إذا أقبَلَ على الشيء أقبَلَ بوجهه. ويجوز أن يُراد بـ«الوجه»: الذات، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْفِي وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقيل: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ ﴾ يَفْرُغُ لكم من الشُّغْلِ بيوسف ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد كفايته بالقتل أو التَّغْرِيبِ، أو: يَرْجِعُ الضَّمِيرُ إلى مصدرٍ ﴿ أَقْتُلُوا ﴾ أو ﴿ أَطْرَحُوهُ ﴾....

بالعمامة وتعمم بها: بمعنى، يقول: ليس العامريُّ إلا عبارةً عن تعهد عمامته واستعماله بما يتزيَّنُ به، وليس من المكارم في شيء، قال الحطّينة:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(١)

قوله: (وقيل: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ ﴾: يَفْرُغُ لكم من الشُّغْلِ بيوسف)، عطفٌ على قوله: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾ يُقْبَلُ عَلَيْكُمْ إقبالةً واحدةً، وأما توسيطُ قوله: «ويجوز أن يُراد بـ«الوجه»: الذات» بين المعطوف والمعطوف عليه، فللدلالة^(٢) على أنَّ الوجه الأوَّلَ مُحْتَمِلٌ لأنَّ يُراد بـ«الوجه»: الجارحةُ المخصوصة، وأن يُراد الذاتُ كُلُّها؛ إطلاقاً لاسمٍ مُعْظَمِ الشيءِ على كُلِّها، وعلى أنَّ الثاني لا يَحْتَمِلُ غيرَ الذات.

(١) «ديوان الحطّينة» ص ٨٦.

(٢) في (ح) و(ف): «فالدلالة».

﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتُم عليه، أو: يَصْلُحُ ما بينكم وبين أبيكم بعذرٍ مُّهدونه، أو: تَصْلُحُ دُنْيَاكُمْ وَتَنْتَظِمُ أُمُورَكُمْ بَعْدَهُ بِخُلُوقِهِ أَيْكُمْ. و﴿تَكُونُوا﴾ إما مجزومٌ عطفًا على ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾، أو منصوبٌ بإضمار «أن»، والواو بمعنى: «مع»، كقوله: ﴿وَتَكُونُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢].

[﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا نَفْقَهُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْنَفِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ ١٠]

وعلى التقادير: التركيب من باب الكناية؛ أما بيان الوجه الأول - وهو أن يُراد بـ«الوجه» الجارحة - : فإنَّ من أقبل على الشيء بوجهه لا يلتفت إلى الغير، وملزوم ذلك إخلاص المحبة له، وإليه الإشارة بقوله: «والمُراد سلامةُ محبته لهم، وإلى معنى الكناية أشار بقوله: «وكان ذكرُ «الوجه» لتصوير معنى إقباله عليهم»، وهو كما إذا عبرت عن جود زيد بقولك: «هو كثيرُ الرماد»، وإذا أُريد بـ«الوجه» الذات، ويكون كناية عن المحبة، فالأمر على هذا.

وأما بيان الوجه الثاني: فإنَّ من تخلى بذاته كُله إلى الشيء تفرغ له من الشغل بالغير، وهذا لا يُوجب المحبة، وعليه قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، قال المصنّف: «هو من قول الرجل لمن يهدّده: سأفْرغُ لك؛ يُريد: سأتجرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه، حتى لا يكون لي شغل سواه»، والمُراد في هذا المقام التوفّر على إصلاح أمورهم وانتظام أحوالهم.

قوله: (أو: تَصْلُحُ دُنْيَاكُمْ)، عطفٌ على «تائبين إلى الله»، لأنَّ المُراد بـ«الصّلاح»: إما الدّيني وإما الدّنيوي، والدّيني: إما التوبة إلى الله تعالى أو التّحرّي إلى رضا الوالد، لأنه أيضاً مُوجب رضا الله.

قوله: (كقوله: ﴿وَتَكُونُوا الْحَقَّ﴾)، يُريدُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

﴿ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً، وهو الذي قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ [يوسف: ٨٠] قال لهم: القتل عظيم، ﴿ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ ﴾ وهي غورُهُ، وما غابَ منه عن عين الناظر، وأظلمَ من أسفله، قال المنخل:

وإن أنا يوماً غيبتني غيأتي فسيرُوا بسيري في العشيِّرة والأهل

أراد: غيابة حُفرتِه التي يُدفن فيها.

وقرئ: «غِيَابَاتٍ» على الجمع، و«غِيَابَاتٍ» بالثشديد، وقرأ الجحدريُّ «غِيَابَةً»....

وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴿ [البقرة: ٤٢]، أي: لا تجمعوا بين كبس الحقِّ بالباطل وكتمان الحقِّ، كقوله: «لا تأكل السَّمَك وتَشرب اللبن»، والمعنى: اطرحوهُ أرضاً ليَجتمعَ لكم إقبالُ أبيكم عليكم وصلاحُ أمرِ دُنْيَاكُمْ.

قوله: (وقال لهم: القتل عظيم)، وإنما وصفه بالعظم لأن الذي أُبدل منه - وهو الإلقاء في الجبِّ - مُعلَّلٌ بالالتقاط، ولأنه مُؤكَّدٌ بالشرط، أي: إن كان لا بُدَّ من أن تفعلوا به ما ترؤمونه، فهذا، لأنه أهون.

قوله: (وإن أنا يوماً غيبتني) البيت^(١)، أي: غيابة حُفرتي التي أَدفَنُ فيها، فسيرُوا بنعتي في القبائل والعشائر، وقيل: «فسيروا» من السيرة لا من السير، كانت العادةُ فيهم إذا مات رئيسٌ عظيمٌ الخطرِ يطوفُ أحدٌ منهم على القبائل، ويصعدُ على الروابي، ويقول: أنعى فلاناً، يُريدون تشهيرَ أمره، وتعظيمَ التفجع به.

قوله: (قرئ: «غِيَابَاتٍ» على الجمع)، نافعٌ في الموضعين، والباقون: على التوحيد.

قوله: (و«غِيَابَاتٍ» بالثشديد)، قال ابنُ جنِّي: «وهي قراءةُ الأعرج، وقرأ الحسن: «في غِيَابَةٍ»، أما «غِيَابَةٌ» فإنه اسم جاء على «فَعَالَةٍ»، وكان أبو علي يضيفه إلى ما حكاهُ سيبويه

(١) ذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١: ٣٠٢)، وسمي المنخل: ابن سبيح العنبري.

و«الجُبُّ»: البئر لم تُطَوَّ، لأنَّ الأرض تُجَبُّ جَبًّا لا غير.

﴿يَلْفِظُهُ﴾ يأخذه، ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بعضُ الأقوام الذين يَسِيرُونَ في الطريق. وقُرِي: «تَلْتَقِطُهُ» بالتاء على المعنى؛ لأنَّ بعضَ السَّيَّارَةِ: سَيَّارَةٌ، كقوله:

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِّ

ومنه: ذَهَبَتْ بعضُ أصابعه.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى أَنْ تَفْعَلُوا مَا يَحْصُلُ بِهِ غَرَضُكُمْ، فهذا هو الرأى.

مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى «فَعَالٍ»، كالجَبَّانِ^(١)، والكَلَاءِ^(٢)، والْفَيَّادِ - لِدَكَرِ الْبُومِ -، وَوَجَدْتُ أَنَا التَّيَّارَ - لِلْمَوْجِ -، وَالْفَخَّارَ - لِلخَرْفِ -، وَغَيْرَهُمَا. وَأما «عَيْنِيَةُ الجُبِّ»: فيجوزُ أَنْ يَكُونَ حَدَثًا فَعْلَةً مِنْ: غَيْبٍ، فَيَكُونُ كَقَوْلِنَا: وَظَلَمَةُ الجُبِّ^(٣).

قوله: (والجُبُّ: البئرُ لم تُطَوَّ، لأنَّ الأرض تُجَبُّ جَبًّا)، يعني: إِنها سُمِّيَ البئرُ من غيرِ المَطْوِيِّ جُبًّا^(٤)، إِذ لَيْسَ فِيهِ إِلا جَبُّ الأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُطَوَّ بَعْدَ. «الْأَسَاسِ»: «طَوِيَّ البِنَاءِ بِاللَّيْنِ، وَالبِئْرُ بِالحِجَارَةِ، وَهِيَ الطَّوِيُّ وَالْأَطْوَاءُ».

قوله: (كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِّ)، مَضَى شَرَحُهُ فِي آلِ عِمْرَانَ^(٥).

(١) كذا في (ط) و(ف)، والجَبَّانِ والجَبَّانَةُ: الصَّحْرَاءُ، كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لابنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (جَبَنَ)، وَفِي (ح): «كالجِبَالِ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ، وَفِي الْمَطْبُوعِ مِنَ «الْمَحْتَسَبِ»: «كالجَبَّارِ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ أَيْضًا، فَالْكَلَامُ هُنَا فِي الْأَسْمَاءِ، لَا فِي صَيِّغِ الْمُبَالَغَةِ، وَإِلَّا فَ«فَعَالٌ» كَثِيرٌ فِيهَا.

(٢) وَهُوَ مَرْفَأُ الشُّفْنِ، كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لابنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (كَلَأَ).

(٣) «الْمَحْتَسَبِ» لابنِ جِنِّي (١: ٣٣٣).

(٤) كذا في (ط) و(ح)، وَفِي (ف): «إِنها سُمِّيَ البئرُ حُجْبًا وَهُوَ مِنْ غَيْرِ المَطْوِيِّ».

(٥) فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ ١٠٣ مِنْهَا (٤: ٢٠٦).

[﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ * أَرْسَلَهُ مَعَنَا عَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١١-١٢﴾]

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ قُرئ بإظهار التَّوْنين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام،

قوله: (وبالإدغام بإشمام)، قال صاحب «التيسير»^(١): «كُلُّهُمْ قرأ ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ بإدغام التَّوْنِ الأُوْلَى في الثانية، وإشمامها الضَّم، وحقيقة الإشمام في ذلك أن يُشار بالحركة إلى التَّوْنِ لا بالعضو إليها، فيكون ذلك إخفاءً لا إدغاماً صحيحاً، لأنَّ الحركة لا تُسَكَّنُ رأساً، بل يَضَعُفُ الصَّوْتُ، فيفصلُ بَيْنَ المُدْغَمِ والمُدْغَمِ فِيهِ لذلك، هذا قولُ عامةِ أئمَّتنا، وهو الصواب؛ لتأكَّدِ دَلَالَتِهِ وَصِحَّتِهِ في القياس».

وقال الشيخُ برهانُ الدين الجَعْبَرِيُّ^(٢) شارحُ «القصيدة» - في قوله: «وتأمننا للكُلِّ يُخْفِي مُفْضَلاً»، وقوله: «وَأدْغَمَ مَعَ إِشْمَامِهِ البَعْضُ عَنْهُمْ»^(٣) - : يُرِيدُ بقوله: «إخفاءُ الحركة»: اختلاسها، ومعنى «مُفْضَلاً»: فَضْلٌ إِحْدَى التَّوْنينِ عن الأخرى، وهو حقيقةُ الإظهار، وهذا معنى قولِ أبي عليٍّ الفارِسِيِّ: «ويجوزُ أن تُبَيَّنَ ولا تُدْغَمَ وتُخْفِي الحركة، وهو أن تَخْتَلِسَهَا»^(٤)، ومفهومُ إطلاقِ البَيْتِ أن كَلَّما مِنَ النَّقْلَةِ رَوَّهَ عن السَّبْعَةِ، وليس كذلك؛ لإطباقِ العِراقِيِّينَ على خِلافِهِ، وقوله: «وَأدْغَمَ» وَجْهٌ ثانٍ، وهو إدغامُ التَّوْنِ في الأخرى والإشمام، وهو ضَمُّ الشَّفَتَيْنِ مَعَ أَوَّلِ التَّشْدِيدِ من غيرِ حَرَكَةٍ في التَّوْنِ، وبهذا قَطَعَ ابنُ مُجاهِدٍ في قوله: وكُلُّهُمْ قرأ

(١) في (ح) و(ف): «التفسير»، وهو تحريف، والمراد: «التيسير» لأبي عمرو الداني، وانظر منه ص ١٢٧.

(٢) العلامةُ برهانُ الدين أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ عُمَرَ بنِ إبراهيمِ الجَعْبَرِيُّ الشافعي (٦٤٠-٧٣٢)، نزيلُ مدينةِ الخليلِ عليه السَّلَام، له تاليفُ مفيدة، أكثرُها في القراءات والتجويد ورسم المُصَحِّف، منها «كنز

المعاني من حرز الأمان»؛ يعني: «الشاطبية»، وهو المراد بـ«القصيدة» في كلام المؤلف، رحمهما الله

تعالى. «طبقات الشافعية» للسبكي (٣٩٩:٩)، و«الأعلام» للزركلي (١: ٥٥-٥٦).

(٣) وهما البيتان (٧٧٣) و(٧٧٤) من «الشاطبية» المسماة بـ«حرز الأمان».

(٤) انظر: «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٤٠١-٤٠٢).

و«تَيْمَنًا» بكسْرِ التاءِ مع الإدغام، والمعنى: لِمَ تخافنا عليه ونحن نريدُ له الخيرَ ونحبُّه ونُسْفِقُ عليه، وما وُجِدَ منّا في بابه ما يَدُلُّ على خِلافِ النَّصِيحَةِ والمِقَّةِ؟ وأرادوا بذلك لَمّا عزموا على كَيْدِ يوسفَ استنزأه عن رأيه وعادته في حِفْظِهِ منهم. وفيه دليلٌ على أنه أَحَسَّ منهم بما أوجِبَ أن لا يأمنهم عليه.

﴿نَرْتَعُ﴾ تَسْعُ في أَكْلِ الفَوَاكِهِ وغيرها. وأصلُ الرَّتْعَةِ: الخِصْبُ والسَّعَةُ.

﴿تَأَمَّنَّا﴾ بفتح الميم وضمّ النون وإدغام النون الأولى في الثانية، والإشارة إلى إعراب النون المدغمة بالضمّ، ونَبّه بقوله: «وَضَمَّ النُّونَ» على أن الفعل مرفوع، لثَمَمَ عِلَّةُ الإِشْمامِ.

قوله: (والمقّة)، الجوهرى: «المقّة: المحبّة، والهَاءُ عَوْضٌ مِنَ الواوِ، وقد وَمَقَهُ يَمَقُّهُ - بالكسْرِ فيها - : أي: أَحَبَّهُ، فهو وامق»، وفي قولهم: «وما وُجِدَ منّا في بابه ما يَدُلُّ على خِلافِ النَّصِيحَةِ» إشارةٌ إلى أن جُمْلَةَ قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصِيحُونَ﴾ جارٍ مجرّى الاعتراضِ والتذييلِ، لا الحالِ، أي: نحنُ عَصَبَةٌ عادتنا في حَقِّهِ النُّصْحُ والشَّفَقَةُ.

قوله: (استنزأه عن رأيه)، مفعولٌ «أرادوا»، وقوله: «لَمّا عَزَمُوا» ظَرَفٌ له.

قوله: «نَرْتَعُ» تَسْعُ في أَكْلِ الفَوَاكِهِ، وهذا أَوْلَى مما قيل: تَرْتَعُ إِبِلُنَا؛ إذ المرادُ التَّنَزُّهُ والخروجُ إلى الأريافِ والمياهِ، كما هو عادةُ الناسِ إذا خَرَجُوا إلى الرِّياضِ والبساتينِ، ثم أُتْسِعَ واستُعْمِلَ في تَيْلِ الثوابِ الجزيلِ، كما وَرَدَ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إذا مَرَرْتُمْ برياضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا، فقل: يا رسولَ الله، ما رياضُ الجَنَّةِ؟ قال: المساجِدُ، قيل: فما الرَّتْعُ يا رسولَ الله؟ قال: سُبْحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ»، أخرجَه الترمذِيُّ (١) عن أبي هريرة.

وتلخيصُه: فإذا مَرَرْتُمْ بالمساجِدِ فقولوا: سُبْحانَ الله، والحمدُ لله، فلما وُضِعَ «رياضُ الجَنَّةِ» مَوْضِعَ «المساجِدِ»؛ بناءً على أن العبادةَ فيها سَبَبٌ للحُصولِ في رياضِ الجَنَّةِ، رُوِيَ

(١) في «جامعه» برقم (٣٥٠٩). وأخرجه أيضاً (٣٥١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وَقُرِئَ: «يَرْتَع» من: اِرْتَعَى يَرْتَعِي. وَقُرِئَ: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ بالياء، و«يَرْتَعُ»: من: اَرْتَعَ مَا شِئْتَهُ،

الْمُنَاسِبَةُ لِفِظًا وَمَعْنَى، وَوُضِعَ «الرَّتْعُ» مَوْضِعَ الْقَوْلِ، لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ سَبَبٌ لِئِيلِ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ، كُلُّ ذَلِكَ لِلتَّرْغِيبِ وَالتَّحْرِيفِ.

ولو لُصِّحَ فِي «الرَّتْعِ» تَنَاوُلُ ثَمَرَةِ الشَّجَرَةِ الَّتِي غَرَسَهَا الذَّاكِرُ؛ عَلَى مَا رَوَى التِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِي أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ التُّرْبَةُ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانُ^(٢)، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، فَجَاءَ أُسْلُوبًا بَدِيعًا وَمَمْلُوحًا عَجِيبًا^(٣).

قوله: («يَرْتَع» من: ارتعى)، الحَرَمِيَانِ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ مِنْ «يَرْتَع»، وَجَزَمَهَا الْبَاقُونَ، أَي: سَكَّنَهَا. الْكُوفِيُّونَ^(٤) وَنَافِعٌ: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ بِالْيَاءِ فِيهَا، وَالْبَاقُونَ: بِالثُّونِ^(٥).

وَفِي «الْمَعَالِمِ»^(٦): قِيلَ: الْمَعْنَى فِي «رَتَعَ» - بِالثُّونِ - : رَتَعُ إِبْلُنَا، فَحَدَفَ الْمُضَافُ، وَأَسْتَدَّ الْفِعْلُ إِلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ. يُرِيدُ: أَنَّ الْأَصْلَ: يَرْتَعُ إِبْلُنَا - بِالْيَاءِ - ، وَالْفَاعِلُ «إِبْلُنَا»، فَلَمَّا حُدِفَ الْفَاعِلُ أُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، وَهُوَ ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ، فَانْقَلَبَ الْفِعْلُ عَنْ لَفْظِ الْغَائِبِ لِلْمُتَكَلِّمِ. كَذَا عَنْ الْمُصَنِّفِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتَلُغَ﴾ [الْكَهْفُ: ٦٠].

(١) فِي «جَامِعِهِ» بِرَقْمِ (٣٤٦٢).

(٢) الْقَاعُ: الْمَكَانُ الْمُسْتَوِي الْوَاسِعُ فِي وَطْأَةِ مِنَ الْأَرْضِ، يَغْلُوهُ مَاءُ السَّمَاءِ، فَيُمَسِّكُهُ، وَيَسْتَوِي نَبَاتُهُ، وَيُجْمَعُ عَلَى: قِيَعَةٍ وَقِيَعَانٍ. «الْنَهَائِيُّ» لِابْنِ الْأَثِيرِ (٤: ١٣٢ - ١٣٣)، مَادَةٌ (قِيَع).

(٣) مِنْ قَوْلِهِ: (قَوْلُهُ: «رَتَعَ» تَسْعُ) إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف).

(٤) أَي: عَاصِمٌ وَحِزَّةٌ وَالْكَسَائِيُّ.

(٥) انظُرْ: «التَّيْسِيرُ» لِلدَّانِي ص ١٢٨، وَ«حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» ص ٣٥٥.

(٦) إِنْ أَرَادَ «مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغْوِيِّ فَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ فِيهِ، وَإِلَّا فَيُنْظَرُ مَا مُرَّادُهُ بِهِ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقرأ العلاء بن سَيَابَةَ: «يُرْتَع» بكسر العين، وَيَلْعَبُ» بالرَّفْعِ على الابتداء.

فإن قلت: كيف استجاز لهم يعقوبُ عليه السَّلَامُ اللعب؟ قلت: كان لَعِبُهُمُ الاستِيقَاقَ والانتِصالَ؛ لِيُضْرُوا أَنْفُسَهُمْ بما يُحْتَاجُ إليه لِقتالِ العَدُوِّ لا لِلهُو، بدليل قوله: ﴿يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] وإنما سَمَّوهُ لعباً لأنه في صُورَتِهِ.

قوله: (وقرأ العلاء بن سَيَابَةَ^(١)): «يُرْتَع» بكسْرِ العَيْنِ)، قال ابنُ جِنِّي: «هو جَزْمٌ، لأنه جوابٌ ﴿أَرْسَلَهُ﴾، و«يَلْعَبُ» مرفوعٌ استِثْنافاً، أي: هو مَن يَلْعَبُ، كقولك: زُرْنِي أَحْسِنُ إليك، إلا أن الرِّفْعَ في «أَحْسِنُ» هاهنا يُضْعِفُ الصَّمانَ، ألا ترى أنَّ معناه: أنا كذلك، وليس فيه قُوَّةٌ معنَى الإحسانِ إليه مَعَ الجزمِ، وأما ﴿يُرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ فمجزومان، لأنهما جوابان، أحدهما معطوفٌ على صاحبه، وهو على حَذْفِ المفعولِ، أي: يُرْتَعُ مَطِيئَتَهُ»، قال ابنُ جِنِّي: «فما أَعْرَبَهُ^(٢) وأَعَذَبَهُ في الكلام»^(٣).

قوله: (كان لَعِبُهُمُ الاستِيقَاقَ)، قال مُحْيِي السُّنَّةِ^(٤): هو تَشاعُلٌ منهم بإجماعِ النفسِ مِنَ الجِدِّ بمُباحٍ يَحْضُلُ به تَعْيِشٌ وقُوَّةٌ على العَمَلِ، وليس هذا كاللعبِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥].

قوله: (لِيُضْرُوا أَنْفُسَهُمْ)، الأساس: «ومن المجاز: ضَرَيْتُ فُلانًا بكذا، وعلى كذا: لَهَجَ». الجوهري: «ضَرَيْتُ الكلبَ بالصَّيْدِ؛ أي: تَعَوَّدَ، وأضْرأهُ صاحِبُهُ؛ أي: عَوَّدَهُ، وكذلك التَضْرِيَةُ».

(١) من الكوفيين، روى عن طلحة بن مُصَرِّفٍ، وروى عنه ابنُه الوليدُ بن العلاء. كذا في «الإكمال» لابن ماكولا (٥: ١٥).

(٢) في (ط) و(ف): «أعربه»، والمُثَبِّتُ من (ح)، وهو المُوافِقُ لِمَا في «المحتسب» لابن جِنِّي.

(٣) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣٣٣).

(٤) لم أقف عليه في «تفسيره»، والله أعلم.

[قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾]

﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ اللام لامُ الابتداء، كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٢٤]، ودُخولها أحد ما ذكَّره سببويه من سببِي المضارعة. اعتذر إليهم بشيئين: أحدهما: أن ذهابهم به ومُفارقة إياه مما يحزُّه، لأنه كان لا يصبرُ عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برغيهم ولعبيهم، أو قلَّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم.

قوله: (من سببِي المضارعة)، وهما دخول اللام والسين للحال والاستقبال^(١)، وسببه: أن بين فعل المضارع وبين الاسم المُشترَك أمراً جامعاً^(٢)، وهو أنها موضوعان مُتعدِّدٌ مُحالفٌ في الحقيقة، ثم يصيرُ كُلُّ واحدٍ منهما مُتعيَّنٌ بقرينة تدخلُ عليه بعد أن كان شائعاً، فدخول حرفِ الاستقبالِ قرينةٌ يتَّضحُ بها مدلولُه في قُصدِ المُتكلِّم من غير زيادة، هذا هو الوجه، لا ما قيل: هو مثلُ اسم الجنس، نحو: رجل، يقعُ علىٍ آحادٍ مُتعدِّدةٍ على البَدَل، ثم يتميَّزُ لكُلِّ واحدٍ من آحادِهِ إذا قُصدَ إليه بحرفِ التعريف، لأنَّ المضارعَ موضوعٌ لكُلِّ واحدٍ من مدلوليهِ^(٣)، وهما مُحْتَلِفان، واسمُ الجنس هو في المعنى الحقيقةُ واحدة، لا اختلافٌ فيه، وبهذا يتبيَّنُ وجهُ قوله في «المفصل»: «وَيَشْتَرِكُ فِيهِ الْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ»^(٤)، هذا تلخيصُ كلامِ ابنِ الحاجب^(٥).

قوله: (من عدوة الذئب)، أي: حطفته، الجوهرية: «دَفَعْتُ عَنْكَ عَادِيَةَ فُلَانٍ؛ أَي: ظَلَمَهُ وَسَرَّهُ».

(١) فيه لفٌّ ونسْر، أي: دخول اللام للحال، والسين للاستقبال.

(٢) في الأصول الخطية: «أمر جامع» بالرفع!

(٣) وهما الحال والاستقبال.

(٤) «المفصل» للزمخشري ص ٢٤٤.

(٥) انظر: «الإيضاح في شرح المفصل» لابن الحاجب (٢: ٦ - ٧).

وقيل: رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف، فكان يحذره، فمن ثمّ قال ذلك، فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: البلاء مؤكّل بالمنطق.

وقرئ: ﴿الذئب﴾ بالهمزة على الأصل وبالتخفيف. وقيل: اشتقاقه من: تذاءبت الريح؛ إذا أتت من كل جهة.

﴿قَالُوا لَئِن آكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾ [١٤]

القسم محذوف، تقديره: والله ﴿لَئِن آكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ واللام مؤنّثة للقسم. وقوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾ جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط، والواو في ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ واو الحال. حلّفوا له: لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم، وحالهم أنّهم عشرة رجال، بمثلهم تُعصب الأمور وتكفي الخطوب، إنهم إذن لقوم خاسرون، أي: هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً، أو: مستحقّون أن يهلكوا، لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو: مستحقّون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار، وأن يقال: خسروهم الله ودمرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضررون. وقيل: إن لم تقدّر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذن وخسرناها.

قوله: (وقرئ: ﴿الذئب﴾ بالهمز)، كلهم إلا ورشاً والكسائي وأبا عمرو، قال أبو علي: «قال الحسن^(١): «الذئب» مهموز في الأصل، قالوا: تذاءبت الريح؛ إذا جاءت من كل جهة، كأن المعنى فيه أنها أتت كما يأتي الذئب»^(٢)، والمصنّف عكس بقوله: «اشتقاقه من تذاءبت الريح».

قوله: (فقد هلكت مواشينا إذن وخسرناها)، وهو عبارة عن حفظ أخيه على الوجه الأبلغ، أي: نحن لَمَّا كَفِينَا عن مواشينا الذئب، فلأن نكفي عن أخينا بالطريق الأولى،

(١) قوله: «قال الحسن» ليست في «الحجة» لأبي علي الفارسي.

(٢) «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٤٠٨).

فإن قلت: قد اعتذَرَ إليهم بعدَ رين، فلمَ أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ قلتُ: هو الذي كان يَغِيظُهُمْ وَيُذَيِّقُهُمُ الأَمْرَيْنِ، فأعاروه آذاناً صَمًّا ولم يَعبَوا به.

[﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٥]

﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ مفعول «أجمعوا»؛ من قولك: أجمع الأمر وأزعمه، ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]. وقرئ: «في غيابات الجب»، وقيل: هو بئر بيت المقدس. وقيل: بأرض الأردن، وقيل: بين مصر ومدين. وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب.

وجواب «لما» محذوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي: أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة، وأخذوا يمينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يُعِثْهُ إلا بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه. فجعل يصيح: يا أبتاه، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء، فقال يهوذا: أما أعطيتُموني موثقاً أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بشياهم فنزعوها من يده، فتعلق بحائط البئر، فربطوا يديه ونزعو قميصه، فقال: يا إخوتاه، رُدُّوا عليَّ قميصي أتوارى به،

ها هنا على حقيقتها، وعلى الوجوه السابقة مجاز عن الهلاك، ثم الهلاك إما محمول على الضعف والخور - وهو الوجه الأول -، أو على حقيقة الهلاك، وهو أيضاً على وجهين: إما استحراق الهلاك أو الدعاء بالهلاك.

قوله: (ويذيقهم الأمرين)، يُقال: لقيتُ من فلان الأمرين، وهي الدواهي، من المرة، وهي القوة، المعنى: ما أجابوا عن هذا العذر لكونهم ما التفتوا إليه أوّل الأمر، لأن قوله: ﴿لِيَحْزُنُنِي﴾ دَلَّ على محبته، ومحبته إياه هي التي أورثتهم الحسد، وأوقعتهم^(١) في تلك الورطات.

قوله: (فأعاروه آذاناً صمًّا)، الضمير للعذر، جعلوا العذر شخصاً، وأعاروه آذانهم

(١) في (ف): «دلَّ على محبته ومحبته إياه، وهذا الذي أورثهم وأوقعتهم»، وفي خَلَل، والمثبت من (ط) و(ح).

وَأَمَّا نَزْعُوهُ لِيُلَطِّخُوهُ بِالْدَّمِ وَيَحْتَالُوا بِهِ عَلَى أَبِيهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: ادْعُ الشَّمْسَ وَانْقَمِرْ
وَالْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً تُؤْنِسُكَ، وَدَلُّوهُ فِي الْبَيْتِ، فَلَمَّا بَلَغَ نِصْفَهَا أَلْقَوْهُ لِيَمُوتَ، وَكَانَ فِي
الْبَيْتِ مَاءٌ فَسَقَطَ فِيهِ، ثُمَّ أَوَى إِلَى صَخْرَةٍ فَقَامَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَبْكِي، فَنَادَوْهُ، فَظَنَّ أَنَّهَا رَحْمَةٌ
أَدْرَكْتُهُمْ، فَأَجَابَهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَرْضَخُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَمَنَعَهُمْ يَهُوذَا، وَكَانَ يَهُوذَا يَأْتِيهِ
بِالطَّعَامِ.

وَيُرَوَّى: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَجُرِّدَ عَنْ ثِيَابِهِ، أَنَاهُ جَبْرِئِلُ
بَقْمِيصٍ مِنْ حَرِيرِ الْجَنَّةِ، فَالْبَسَهُ إِيَّاهُ، فَدَفَعَهُ إِبْرَاهِيمُ إِلَى إِسْحَاقَ، وَإِسْحَاقُ إِلَى يَعْقُوبَ،
فَجَعَلَهُ يَعْقُوبُ فِي تَمِيمَةٍ عَلَّقَهَا فِي عُنُقِ يَوْسُفَ، فَجَاءَ جَبْرِئِلُ فَأَخْرَجَهُ وَأَلْبَسَهُ إِيَّاهُ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قِيلَ: أَوْحِيَ إِلَيْهِ فِي الصَّغَرِ، كَمَا أَوْحِيَ إِلَى يَحْيَى وَعِيسَى. وَقِيلَ:
كَانَ إِذْ ذَاكَ مُدْرِكاً. وَعَنِ الْحَسَنِ: كَانَ لَهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾
وَأَمَّا أَوْحِيَ إِلَيْهِ لِيُؤْنَسَ فِي الظُّلْمَةِ وَالْوَحْشَةِ، وَيَبْشُرَ بِمَا يَوُودُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ. وَمَعْنَاهُ:
لَتَسْتَخْلَصَنَّ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، وَلَتُحَدِّثَنَّ إِخْوَتَكَ بِمَا فَعَلُوا بِكَ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنْكَ يَوْسُفَ؛
لِعُلُوِّ شَأْنِكَ وَكِبْرِيَاءِ سُلْطَانِكَ، وَبُعْدِ حَالِكَ عَنْ أَوْهَامِهِمْ، وَلَطُولِ الْعَهْدِ الْمُبَدَّلِ لِلْهَيْئَاتِ
وَالْأَشْكَالِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ مُتَمَارِينَ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، دَعَا
بِالصُّوَاعِ، فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، ثُمَّ تَفَرَّهَ فَطَنَّ، فَقَالَ: إِنَّهُ لِيُخْبِرُنِي هَذَا الْجَاهُ أَنَّهُ كَانَ لَكُمْ أَخٌ
مِنْ أَبِيكُمْ يُقَالُ لَهُ: يَوْسُفُ، وَكَانَ يُذْنِبُهُ دُونَكُمْ، وَأَنْكُمْ أَنْطَلَقْتُمْ بِهِ وَالْقَيْمُوهُ فِي غِيَابَةِ
الْجُبِّ، وَقَلْتُمْ لِأَبِيكُمْ: أَكَلَهُ الذُّئْبُ، وَيَعْتُمُوهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾؛ عَلَى: أَنَا أَنْسَنَاهُ بِالْوَحْيِ،

الصَّمَمُ، كَأَنَّهُمْ لَمَّا تَصَامَمُوا عَنْ سَمَاعِ ذَلِكَ الْعُذْرِ، نَزَّلُوا الْعُذْرَ مَنْزِلَةَ شَخْصٍ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعَارَةِ
الْمَكْنِيَّةِ، وَخَلَعُوا عَلَيْهِ الصَّمَمَ، وَالْبَسُوهُ إِيَّاهُ؛ مُبَالَغَةً.

وَأَرْزَلْنَا عَنْ قَلْبِهِ الْوَحْشَةَ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ذَلِكَ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُ مُرْهَقٌ مُسْتَوْحِشٌ لَا أُنَيْسَ لَهُ.

وَقُرِي: «لُنُنَّبَنَّهُمْ» بِالنُّونِ عَلَى أَنَّهُ وَعِيدٌ لَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ«أَوْحَيْنَا» لِأُخْرَى.

[﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ١٦-١٧]

وَعَنِ الْحَسَنِ: «عُشِيًّا» عَلَى تَصْغِيرِ «عِشِيٍّ»، يُقَالُ: لَقَيْتُهُ عُشِيًّا وَعُشِيَانًا، أُصِيلًا وَأُصِيلَانًا، وَرَوَاهُ ابْنُ جُنَيْ: «عُشِيٌّ» بِضَمِّ الْعَيْنِ وَالْقَصْرِ، وَقَالَ: عُشُوا مِنَ الْبُكَاءِ.....

قَوْلُهُ: (مُرْهَقٌ)، أَي: مُضَيِّقٌ عَلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «فَإِنْ رَهَقَ سَيِّدَهُ ذَيْنَ»^(١) أَي: لَزِمَهُ أَدَاؤُهُ وَضَيِّقَ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ«أَوْحَيْنَا» لِأُخْرَى، أَي: عَلَى قِرَاءَةِ النَّونِ^(٢)، يَعْنِي: أَوْحَيْنَا إِلَى يُوسُفَ هَذَا التَّهْدِيدَ وَالْوَعِيدَ فِي حَقِّهِمْ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَذَا الْوَحْيِ، لِأَنَّ إِنْبَاءَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ عَدَمِ شُعُورِهِمْ بِهِ، بِخِلَافِ إِنْبَاءِ يُوسُفَ، لِأَنَّهُ حَصَلَ مَعَ عَدَمِ شُعُورِهِمْ، كَمَا ذُكِرَ فِي طَيِّبِ الصُّوَاعِ. وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِجَوَازِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ: «لُنُنَّبَنَّهُمْ»، وَأَنْ يُرَادَ بِ«إِنْبَاءِ اللَّهِ»: إِيصَالُ جَزَاءٍ فَعَلِهِمْ بِهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْإِنْبَاءَ هُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يُوسُفَ: ٨٩].

قَوْلُهُ: (وَرَوَاهُ ابْنُ جُنَيْ: «عُشِيٌّ» بِضَمِّ الْعَيْنِ وَالْقَصْرِ)، قَالَ ابْنُ جُنَيْ: «رَوَاهُ عَيْسَى

(١) لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ، وَالْمَوْلُفُ يُنْقَلُ عَنْ ابْنِ الْأَثِيرِ فِي «النَّهْيَةِ» (٢: ٢٨٣)، مَادَّةَ (رَهَقَ).

(٢) أَي: «لُنُنَّبَنَّهُمْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿لُنُنَّبَنَّهُمْ﴾، وَهِيَ قِرَاءَةُ سَلَامٍ - يَعْنِي: ابْنِ سَلِيْمَانَ الطَّوِيلِ - كَمَا فِي «الدَّرِّ

المصون» لِلْسَّمِينِ الْحَلْبِيِّ (٦: ٤٥٤).

ورُوي أن امرأة حاكمت إلى شريح، فبكت، فقال له الشَّعْبِيُّ: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يَبْكُون، وهم ظلمة، ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية. ورُوي أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما بالكم وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان؛ كالانتضال والتناضل، والارتقاء والترامي، وغير ذلك. والمعنى: نتسابق في العدو أو في الرمي. وجاء في التفسير: نتضيل.

﴿يُؤْمِنُ لَنَا﴾ بمصدق لنا، ﴿وَلَوْ كُنَّا نَصْدِقِينَ﴾ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، لشيء محبتك ليوسف، فكيف وأنت سئ الظن بنا، غير واثق بقولنا؟! ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه،

ابن ميمون^(١): «جاءوا أباهم عشي يَبْكُون»؛ عَشُوا مِنَ الْبُكَاءِ، وطريق ذلك أنه جمع «عاشٍ»، وكان قياسه: عِشَاءٌ، كعاشٍ ومِشَاءٌ، إلا أنه حذَفَ الهاءَ تخفيفاً، وهو يُرِيدُهَا، وفيه ضَعْفٌ، لأنَّ قَدْرَ مَا بَكَوا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَعِشُو مِنْهُ الْإِنْسَانُ، ويجوز أن يكون جمع عِشْوَةٌ؛ أي: ظلاماً، وجمعه لتفرق أجزائه»^(٢).

(١) لفظ ابن جني: «رواه عيسى بن ميمون عن الحسن»، وعيسى بن ميمون: هو المكِّي، صاحب التفسير، وهو ثقة. «تهذيب التهذيب» لابن حجر (٨: ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٣٥).

وَالزُّورُ بِذَاتِهِ، وَنَحْوَهُ:

فَهَنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلٌ

وَقُرِي: «كَذِبًا» نَصْبًا عَلَى الْحَالِ، بِمَعْنَى: جَاءُوا بِهِ كَاذِبِينَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ. وَقَرَأَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَدِبٍ»، بِالذَّلَالِ غَيْرِ الْمُعْجَمَةِ؛ أَي: كَدِر. وَقِيلَ: طَرِيٌّ، وَقَالَ ابْنُ جَنِّي: أَصْلُهُ مِنَ الْكَدْبِ؛ وَهُوَ الْفُوفُ الْبِيضُ الَّذِي يَخْرُجُ عَلَى أَظْفَارِ الْأَحْدَاثِ، كَأَنَّهُ دَمٌّ قَدْ أَثَّرَ فِي قَمِيصِهِ. رُوِيَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا سَخْلَةً وَلَطَّخُوهُ بِدَمِهَا، وَزَلَّ عَنْهُمْ أَنْ يُمَزَّقُوهُ. وَرُوِيَ: أَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا سَمِعَ بِخَبَرِ يَوْسُفَ صَاحٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ الْقَمِيصِ؟ فَأَخَذَهُ وَالْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَبَكَى حَتَّى حَضَبَ وَجْهَهُ بِدَمِ الْقَمِيصِ، وَقَالَ: تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ذَنْبًا أَحْلَمَ مِنْ هَذَا، أَكَلِ ابْنِي وَلَمْ يُمَزَّقْ عَلَيْهِ قَمِيصَهُ.

وَقِيلَ: كَانَ فِي قَمِيصِ يَوْسُفَ ثَلَاثُ آيَاتٍ؛ كَانَ دَلِيلًا لِيَعْقُوبَ عَلَى كَذِبِهِمْ، وَالْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا، وَدَلِيلًا عَلَى بَرَاءَةِ يَوْسُفَ حِينَ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ.

قوله: (فَهَنَّ بِهِ^(١) جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلٌ)، الضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْوَصْلِ، أَي: هُوَ لِإِنْسَاءِ الْوَصْلِ جُودٌ.

قوله: (وَهُوَ الْفُوفُ)، وَأَنْشَدُوا:

فَأرْسَلْتُ إِلَى سَلْمَى	بِأَنَّ النَّفْسَ مَشْفُوفَةً
فَمَا جَادَتْ لَنَا سَلْمَى	بِزَنْجِيرٍ وَلَا فُوفَةٍ

الزَّنَجِرَةُ: قَرْعُ الْإِبْهَامِ عَلَى الْوُسْطَى بِالسَّبَّابَةِ، وَالاسْمُ: الزَّنَجِيرُ.

قوله: (كَانَ دَلِيلًا لِيَعْقُوبَ عَلَى كَذِبِهِمْ)، إِلَى آخِرِهِ: بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ثَلَاثُ آيَاتٍ^(٢).

(١) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «فَهَرَبُوا»، وَالْمُتَّبَعُ مِنْ (ط)، وَهُوَ الْمَوْافِقُ لِمَا فِي «الْكَشَافِ».
(٢) هَذِهِ الْفُقْرَةُ أُخْرِتْ فِي (ح) وَ(ف) بَعْدَ فُقْرَةِ «قَوْلِهِ: (سَوَّلَتْ: سَهَّلَتْ)»، وَوَرَدَتْ فِي (ط) هُنَا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ هُنَا تَرْتِيبَهُ فِي «الْكَشَافِ».

فإن قلت: ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ ما محلُّه؟ قلت: محلُّه النَّصْبُ عَلَى الظَّرْفِ، كأنه قيل: وجاؤوا فوق قميصه بدم، كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قلت: هل يجوز أن تكونَ حالاً مُتَقَدِّمَةً؟ قلتُ: لا، لأنَّ حالَ المجرورِ لا تتقدَّمُ عليه.

﴿سَوَّلَتْ﴾ سَهَّلَتْ؛ مِنَ السَّوَلِ، وَهُوَ الاسْتِرْخَاءُ، أَي: سَهَّلَتْ، ﴿لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا﴾ عَظِيمًا ارْتَكَبْتُمُوهُ مِنْ يَوْسُفَ، وَهُوَ نَتْنُهُ فِي أَعْيُنِكُمْ.

قوله: (محلُّه النَّصْبُ عَلَى الظَّرْفِ، كأنه قيل: جاؤوا^(١) فوق قَمِيصِهِ بدم)، قال صاحبُ «التقريب»: في كونه ظرفاً للمجيء وبقاء المعنى المقصود حرازةً، ويجوز أن يُقال: إنَّ ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ حالٌ من «جاؤوا» بتضمينه معنى الاستيلاء^(٢)، أي: مُسْتَوِلِينَ عَلَى قَمِيصِهِ، و﴿بِدمٍ﴾ حال من «قميص»، أي: مُلْتَبِسًا بِدمٍ كَذِب.

قال أبو البقاء: «هو حالٌ من «الدم»، [لأنَّ التقدير]: جاؤوا بدمٍ كَذِبٍ عَلَى قَمِيصِهِ»^(٣). قال صاحبُ «اللُّباب»: ولا تتقدَّمُ صاحبها، أي: لا تتقدَّمُ الحالُ عَلَى صاحبها المجرورِ عَلَى الأصحِّ، نحو: مَرَرْتُ جالِسةً بهند، إلا أن يكونَ ظرفاً^(٤).

قوله: ﴿سَوَّلَتْ﴾ سَهَّلَتْ، الراغب: «التسويل: تزيينُ النفسِ لِمَا تحرِّصُ عليه»^(٥)، وتصويرُ القبيحِ منه بصورةَ الحسنِ»^(٦).

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «وجاؤوا»، والمعنى واحد.

(٢) تحرّف في (ف) إلى: «الاستعلاء».

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٢٦)، ومنه أضفت ما بين حاصرتين.

(٤) أي: إلا أن تكونَ الحالُ جاراً ومجروراً، كما في الآية الكريمة، تقدّمت الحال - وهي قوله: ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾ - عَلَى الدم الذي هو صاحبُ الحال.

(٥) في (ف): «التزيين للفتى»، والمثبت من (ط) و(ح)، وهو الموافق لِمَا في «مفردات القرآن» للراغب.

(٦) «مفردات القرآن» ص ٤٣٧.

استَدَلَّ عَلَىٰ فِعْلِهِمْ بِهِ بِمَا كَانَ يَعْرِفُ مِنْ حَسَدِهِمْ وَبِسَلَامَةِ الْقَمِيصِ، أَوْ: أَوْحَىٰ إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ قَصَدُوهُ، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ خَيْرٌ أَوْ مَبْتَدَأٌ لِكُونِهِ مَوْصُوفًا؛ أَي: فَأَمْرِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، أَوْ: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أَمْثَلٌ، وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي: «فَصَبْرًا جَمِيلًا» وَالصَّبْرُ الْجَمِيلُ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ: أَنَّهُ «الَّذِي لَا سَكْوَىٰ فِيهِ إِلَى الْخَلْقِ»، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وَقِيلَ: لَا أَعَايِشُكُمْ عَلَىٰ كَاتِبَةِ الْوَجْهِ، بَلْ أَكُونُ لَكُمْ كَمَا كُنْتُ. وَقِيلَ: سَقَطَ حَاجِبًا يَعْقُوبَ عَلَى عَيْنَيْهِ، فَكَانَ يَرْفَعُهُمَا بِعَصَابَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: طَوَّلَ الزَّمَانَ، وَكَثُرَتِ الْأَحْزَانُ. فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: يَا يَعْقُوبُ أَتَشْكُونِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، خَطِيئَةٌ فَاغْفِرْهَا لِي.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أَي: أَسْتَعِينُهُ ﴿عَلَىٰ﴾ اِحْتِمَالِ ﴿مَا نَصَّفُونَ﴾ مِنْ هَلَاكِ يَوْسُفَ، وَالصَّبْرِ عَلَى الرَّزْءِ فِيهِ.

قَوْلُهُ: (استَدَلَّ عَلَىٰ فِعْلِهِمْ بِهِ بِمَا كَانَ يَعْرِفُ مِنْ حَسَدِهِمْ وَبِسَلَامَةِ الْقَمِيصِ)، الْإِنْتِصَافُ: «أَقْوَىٰ شَاهِدٍ عَلَى التُّهْمَةِ أَنَّهُمْ ادَّعَوْا الْوَجْهَ الْخَاصَّ الَّذِي أَتَمَّهُمْ بِهِ آبُوهُمْ، وَهُوَ أَكْلُ الذُّبِّ إِيَّاهُ، وَكَثِيرًا مَا تُتَلَقَّفُ الْأَعْدَارُ الْبَاطِلَةُ مِنْ فِي مَنْ يُعْتَدَّرُ إِلَيْهِ»^(١).

قُلْتُ: وَمِنَ الْأَسْلُوبِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) [الانفطار: ٦].

قَوْلُهُ: (مَا هَذَا؟)، أَي: أَيُّ شَيْءٍ مَا نَرَىٰ بِكَ مِنَ الْكِبَرِ، وَلَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغَ آبَاؤُكَ فِي السِّنِّ؟

(١) «الانْتِصَافُ» لابن الْمُنِيرِ (٢: ٣٠٧) بِحَاشِيَةِ «الْكَشَافِ».

(٢) نَقَلَ الْإِمَامُ الرَّازِي فِي «مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ» (٣١: ٧٥) أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ: «إِنَّمَا قَالَ: ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ لِيَكُونَ ذَلِكَ جَوَابًا عَنِ ذَلِكَ السُّؤَالِ؛ حَتَّى يَقُولَ: عَزَّيْكَ كَرَمُكَ، وَلَوْلَا كَرَمُكَ لَمَّا فَعَلْتَ، لِأَنَّكَ رَأَيْتَ فَسَّرْتَ، وَقَدَّرْتَ فَامَهَلْتَ». قَالَ الرَّازِي: «وَهَذَا الْجَوَابُ إِنَّمَا يَبْصِحُ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾ لَيْسَ الْكَافِرُ».

وَنَقَلَ الرَّازِي أَيْضًا أَنَّهُ «قِيلَ لِلْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ: إِذَا أَقَامَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ لَكَ: مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، مَاذَا تَقُولُ؟ قَالَ: أَقُولُ: عَزَّتْنِي سُتُورُكَ الْمُرْخَاةُ».

[وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا عَلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾]

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ رُفْقَةٌ تَسِيرُ مِنْ قِبَلِ مَدِينِ إِلَى مِصْرَ، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ إِقَاءِ يَوْسُفَ فِي الْجُبِّ، فَأَخْطَوْا الطَّرِيقَ، فَتَزَلُّوا قَرِيباً مِنْهُ، وَكَانَ الْجُبُّ فِي قَفْرَةٍ بَعِيدَةٍ مِنْ الْعُمَرَانِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِلرَّعَاةِ. وَقِيلَ: كَانَ مَأْوَاهَا مِلْحًا، فَعَذَّبَ حِينَ أُلْقِيَ فِيهِ يَوْسُفَ، ﴿ فَأَرْسَلُوا ﴾ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ بْنُ ذُعْرِ الْخَزَاعِيِّ، لِيَطْلُبَ لَهُمُ الْمَاءَ. وَالْوَارِدُ: الَّذِي يَرِدُ الْمَاءَ لِيَسْتَقِيَ لِلْقَوْمِ. ﴿ يَا بُشْرَى ﴾ نَادَى الْبُشْرَى، كَأَنَّهُ يَقُولُ: تَعَالَى، فَهَذَا مِنْ آوَيْتِكَ. وَقُرِي: « يَا بُشْرَايَ » عَلَى إِضَافَتِهَا إِلَى نَفْسِهِ.

قوله: (فهذا من آوتتك)، قَالَ الزَّجَّاجُ: «معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تُحِبُّ ولا تَعْقِلُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى تَنْبِيهِ الْمُخَاطَبِينَ، وَتَوْكِيدِ الْقِصَّةِ، فَإِذَا قُلْتَ: يَا عَجَبًا، فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: اعْجَبُوا، وَيَا أَيُّهَا الْعَجَبُ هَذَا مِنْ حِينِكَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: يَا أَيَّتُهَا الْبُشْرَى هَذَا مِنْ إِيَّاكَ وَأُوَايِكَ»^(١). وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «إِنَّ هَذَا الْوَقْتَ مِنْ أُوَايِكَ، وَلَوْ كُنْتَ مِنْ يُخَاطَبُ، فَخُوِطِبْتَ الْآنَ».

قوله: (وقري: «يا بُشْرَايَ» على إضافتها)، قَرَأَهَا نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ، وَالْكَوْفِيُّونَ: ﴿ يَا بُشْرَى ﴾ عَلَى وَزْنِ فُعْلَى، وَأَمَّا فَتْحَةُ الرَّاءِ حَمَزَةً وَالْكَسَائِيَّ^(٢). قَالَ مُجِمِّي السُّنَّةِ: «وَالْوَجْهُ فِي إِفْرَادِهَا عَنْ يَأِ الْمُتَكَلِّمِ: هُوَ أَنَّ «بُشْرَى» نَكْرَةٌ هَاهُنَا، فَنَادَاهَا كَمَا تُنَادَى النُّكْرَاتُ، نَحْوَ قَوْلِكَ: يَا رَجُلًا، وَيَا رَاكِبًا، إِذَا جَعَلْتَ النَّدَاءَ شَائِعًا، فَيَكُونُ مَوْضِعُهُ نَصْبًا عَلَى التَّنْوِينِ، إِلَّا أَنَّ «فُعْلَى» لَا سَبِيلَ إِلَيْهَا لِلتَّنْوِينِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «بُشْرَى» مُنَادَى تَعَرَّفَ بِالْفَضْلِ، نَحْوُ: يَا رَجُلًا»^(٣).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٩٧).

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٨، و«حجة القراءات» ص ٣٥٧.

(٣) لم أقف عليه في «تفسيره»، والذي فيه (٤: ٢٢٤): «قرأ الأكثرون هكذا بالالف وفتح الياء (بشراي)، بَسَّرَ الْمُسْتَقِي أَصْحَابَهُ، يَقُولُ: أَبِشْرُوا. وَقَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ: ﴿ يَا بُشْرَى ﴾ بِغَيْرِ إِضَافَةٍ؛ يُرِيدُ: نَادَى الْمُسْتَقِي رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ اسْمُهُ بُشْرَى».

وفي قراءة الحسن وغيره: «يا بُشْرِي» بالياء مكان الألف، جُعِلَتِ الياءُ بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة، وهي لغة للعرب مشهورة، سَمِعْتُ أَهْلَ السَّرَوَاتِ يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: يَا سَيِّدِي وَمَوْلِي. وعن نافع: «يا بُشْرَانِي»: بالسكون، وليس بالوجه؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّقَاءِ السَّاكِنِينَ عَلَى غَيْرِ حَدِّهِ، إِلَّا أَنْ يَقْصِدَ الْوَقْفَ.

قوله: («يا بُشْرِي»)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «هِيَ قِرَاءَةٌ أَبِي الطَّفِيلِ^(١) وَالْجَحْدَرِيِّ^(٢)، وَرُوِيَتْ عَنِ الْحَسَنِ، وَهَذِهِ لُغَةٌ فَاشِيَةٌ فِيهِمْ»^(٣).

قوله: (جُعِلَتِ الياءُ بمنزلة الكسرة)، قَالَ الزَّجَّاجُ: «إِنَّ يَاءَ الْإِضَافَةِ تُغَيَّرُ مَا قَبْلَهَا، وَلَا يَتَيَّنُّ مَعَهَا الْإِعْرَابُ، فَإِذَا كَانَ قَبْلَهَا أَلْفٌ فَلَاخْتِيَارُ أَنْ لَا تُغَيَّرَ، وَبَعْضُ الْعَرَبِ يُبَدِّلُ مَعَهَا يَاءً، فَيَكُونُ بَدَلُهَا بِمَنْزِلَةِ تَغْيِيرِ الْحَرْفِ قَبْلَهَا»^(٤)، هَذَا الَّذِي عَنَاهُ الْمُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: «جُعِلَتِ الياءُ بمنزلة الكسرة»، يَعْنِي: فِي التَّغْيِيرِ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «إِنَّ مَا يُضَافُ إِلَى الْيَاءِ يُحْرَكُ بِالْكَسْرِ إِذَا كَانَ الْحَرْفُ صَحِيحًا، نَحْوُ: غُلَامِي وَدَارِي، فَلَمَّا لَمْ تَحْتَمِلِ الْأَلْفُ الْكَسْرَةَ، وَقَرَّبَتْ الْأَلْفُ مِنَ الْيَاءِ بَقَلْبِهَا إِلَيْهَا، كَمَا كَانَ الْحَرْفُ يَكُونُ مَكْسُورًا، وَالْأَلْفُ قَرِيبَةً مِنَ الْيَاءِ، فَلِذَلِكَ يُبَدَّلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ»^(٥).

قوله: (أهل السَّرَوَاتِ)، النِّهَايَةُ: «السَّرَوُ: مِحْلَةٌ حِمِيرٍ، وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ: «لِيَأْتِيَنَّ الرَّاعِي سَرَوَاتٍ حِمِيرٍ»، الْمَعْرُوفُ فِي وَاحِدٍ «سَرَوَاتٍ»^(٦) سَرَاةً.

- (١) لَعَلَّهُ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، آخِرُ الصَّحَابَةِ وَفَاةً، فَقَدْ تُوِيَ فِي سَنَةِ ١١٠.
- (٢) هُوَ عَاصِمُ بْنُ الْعَجَّاجِ الْبَصْرِيُّ، سَنَةَ ١٢٨ هـ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. «غَايَةُ النِّهَايَةِ» لِابْنِ الْجَزْرِيِّ (١: ٣١٧).
- (٣) «الْمَحْتَسَبُ» لِابْنِ جَنِّي (١: ٣٣٦).
- (٤) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَّاجِ (٣: ٩٧).
- (٥) «الْحِجَّةُ لِلْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ» لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارَسِيِّ (٤: ٤١٤).
- (٦) قَوْلُهُ: «حِمِيرٍ، الْمَعْرُوفُ فِي وَاحِدٍ سَرَوَاتٍ» سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف).

وقيل: لَمَّا أَذْلَى دَلْوَهُ؛ أي: أرسلها في الجُبِّ تَعَلَّقَ يوسُفُ بالحبل، فلما خرَجَ إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بُشْرَايَ هذا غلام. وقيل: ذهب به، فلَمَّا دنا من أصحابه صاح بذلك يُبَسِّرُهُم به.

﴿وَأَسْرُوهُ﴾ الضَّمِيرُ للواردِ وأصحابه؛ أخفوه من الرُّفْقَةِ. وقيل: أخفوا أمره ووجداتهم له في الجُبِّ، وقالوا لهم: دَفَعَهُ إلينا أهلُ الماءِ لنبيعه لهم بِمِصْرَ. وعن ابن عباس: أن الضَّمِيرُ لإخوة يوسف، وأتَمَّ قالوا للرُّفْقَةِ: هذا غلامٌ لنا قد أَبَقَ فاشترَوْهُ مِنَّا، وسَكَتَ يوسفُ مخافةً أن يَقتُلوه.

﴿بِضْعَةٍ﴾ نَصَبٌ على الحال؛ أي: أخفوه متاعاً للتجارة. والبِضَاعَةُ: ما بُضِعَ مِنَ المَالِ للتجارة؛ أي: قُطِعَ؛ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخفَ عليه إسرارهم، وهو وَعِيدٌ لهم حيثُ اسْتَبْضَعُوا ما ليس لهم، أو: واللهُ عَلِيمٌ بما يعملُ إخوةُ يوسفَ بأبيهم وأخيهم من سُوءِ الصَّنِيعِ.

قوله: ﴿وَبِضْعَةٍ﴾ نَصَبٌ على الحال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة، كذا عن أبي البقاء^(١). قال صاحبُ «الفرائد»: وَيُمْكِنُ أن يُقالَ: ضَمَّنَ «أَسْرُوهُ» معنى: جَعَلُوهُ، أي: جَعَلُوهُ بِضَاعَةً مُسَرِّينَ، فهو مفعولٌ ثانٍ.

قال ابنُ الحاجب: «يحتملُ أن يكونَ مفعولاً من أجله، أي: كَتَمُوهُ لأجلِ تحصيلِ المَالِ فيه، لأنه كانَ على حالٍ تَقْتَضِي التَّجَارَةَ»^(٢) كِتْمَانَهُ خَوْفاً من أن تَمْتَدَّ الأَطْمَاعُ من غيرهم، فلا يجوزُ أن يكونَ تمييزاً، لأنه ليسَ من بابِ «عشرين»، ولا من بابِ: حَسَنَ زَيْدٌ وَجْهًا، لِمَا يُؤَدِّي إليه أن الإِسْرَارَ كانَ لبِضَاعَتِهِ لاله، وهو خِلافُ المعنى»^(٣).

قوله: (والبِضَاعَةُ: ما بُضِعَ مِنَ المَالِ)، الراغب: «البِضَاعَةُ: قِطْعَةٌ واحِدَةٌ وإِفْرَةٌ مِنَ المَالِ

(١) انظر: «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ٧٢٧).

(٢) في (ح) و(ف): «النَّجَاة»، والمُثَبَّتُ من (ط)، وهو الموافق لما في «الأمالي النحوية».

(٣) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١٥٢).

[﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ٢٠]

﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ وباعوه ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ مَبْخُوسٍ ناقصٍ عن القيمةِ ثَقْصَانًا ظاهرًا، أو: زَيْفٍ ناقصِ العِيَارِ، ﴿ دَرَاهِمَ ﴾ لا دنانير، ﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ قَلِيلَةٌ تُعَدُّ عَدًّا وَلَا تُوزَنُ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزِنُونَ إِلَّا مَا بَلَغَ الْأَوْقِيَّةَ؛ وَهِيَ الْأَرْبَعُونَ، وَيُعَدُّونَ مَا دُوْنَهَا. وَقِيلَ لِلْقَلِيلَةِ: مَعْدُودَةٌ؛ لِأَنَّ الْكَثِيرَةَ يُمْتَنَعُ مِنْ عَدِّهَا لِكَثْرَتِهَا. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتْ عِشْرِينَ دَرَاهِمًا. وَعَنْ السُّدِّيِّ: اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ. ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ مَن يَرْعَبُ عَمَّا فِي يَدَيْهِ، فَيَبِيعُهُ بِمَا طَفَّ مِنَ الثَّمَنِ، لِأَنَّهُم التَّقَطُّوهُ، وَالْمُلْتَقِطُ لِلشَّيْءِ مُتَهَاوِنٌ بِهِ لَا يُبَالِي بِمِ بَاعِهِ، وَلِأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ مُسْتَحِقٌّ يَنْتَزِعُهُ مِنْ يَدَيْهِ، فَيَبِيعُهُ مِنْ أَوَّلِ مُسَاوِمٍ بِأَوْكَسِ الثَّمَنِ.

ويجوزُ أن يكونَ معنى ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾: واشتروه؛ يعني: الرُّفْقَةُ مِنْ إِخْوَتِهِ، ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ أَبَقُ،

تَقْتَنِي لِلتَّجَارَةِ، يُقَالُ: أَبْضَعُ بَضَاعَةً وَابْتَضَعَهَا، وَالبِضْعُ - بالكسر -: المَقْتَطَعُ مِنَ الْعِشْرَةِ^(١).

قوله: (ناقصِ العِيَارِ)، الراغب: «العِيَارُ: تقديرُ المِكْيَالِ والمِيزَانِ، ومنه قيل: عَيْرْتُ الدَّرَاهِمَ»^(٢).

قوله: (بما طَفَّ)، أي: بما قَلَّ.

قوله: (لأنهم التَّقَطُّوهُ)، النهاية: «الالتقاط: أن يُعْتَرَّ عَلَى الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ طَلَبٌ».

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ معنى ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾: واشتروه)، عطفٌ على قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾: وباعوه»، وعلى هذا: الضميرُ في ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ لِلرُّفْقَةِ، وعلى الأول: للإِخْوَةِ البَائِعِينَ، وقوله: «مَن يَرْعَبُ عَمَّا فِي يَدَيْهِ» بيانٌ لقوله: ﴿ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾، والضميرُ

(١) «مفردات القرآن» ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق ص ٥٩٦.

فخافوا أن يُحْطَرُوا بِهَلْمٍ فِيهِ. وَيُرْوَى: أَنَّ إِخْوَتَهُ أَتَبَعُوهُمْ يَقُولُونَ لَهُمْ: اسْتَوْثِقُوا مِنْهُ لَا يَأْبُق.

وقوله: ﴿فِيهِ﴾ ليس من صِلَةِ ﴿الزَّاهِدِينَ﴾، لأنَّ الصِّلَةَ لَا تَتَقَدَّمُ عَلَى المَوْصُولِ، أَلَا تَرَكَ لَا تَقُولُ: وَكَانُوا زَيْدًا مِنَ الضَّارِبِينَ، وَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ زَهَدُوا؟ فَقَالَ: زَهَدُوا فِيهِ.

المُسْتَتِرُ فِي «يَرَعَبُ» وَالمَجْرُورُ فِي «يَدُهُ» عَائِدٌ إِلَى «مَنْ»، وَ«لَأَنَّهُم التَّقَطُّوه» تَعْلِيلٌ «مَنْ يَرَعَبُ فِي يَدِهِ» (١).

قوله: (كَأَنَّهُ قِيلَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ زَهَدُوا؟ فَقَالَ: زَهَدُوا فِيهِ)، قَالَ صَاحِبُ «الفرائد»: يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: تَقْدِيرُهُ: وَكَانُوا مِنَ الزَّاهِدِينَ فِيهِ، مِنْ قَبِيلِ الإِضْمَارِ عَلَى شَرِيحَةِ التَّفْسِيرِ.

وَقُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُشْتَعِلٍ عَنْهُ بِالضَّمِيرِ، فَإِنَّ الأَصْلَ: كَانُوا مِنَ الزَّاهِدِينَ فِيهِ، عَلَى أَنَّ «فِيهِ» لَيْسَ مِنْ صِلَتِهِ، بَلْ مُتَعَلِّقٌ بِجُمْلَةٍ مَحذُوفَةٍ عَلَى السُّؤَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: كَانُوا مِنَ الزَّاهِدِينَ، لَمْ يُعْلَمْ فِي أَيِّ شَيْءٍ، اتَّجَعَّ لِسَائِلُ أَنْ يَقُولَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ زَهَدُوا؟ فَقِيلَ: فِيهِ. وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الزَّجَّاجِ: «﴿فِيهِ﴾ لَيْسَتْ بِصِلَةِ ﴿الزَّاهِدِينَ﴾، المَعْنَى: كَانُوا مِنَ الزَّاهِدِينَ، ثُمَّ يَبَيِّنُ فِي أَيِّ شَيْءٍ زَهَدُوا، فَقَالَ: زَهَدُوا فِيهِ، وَهَذَا فِي الظُّرُوفِ (٢) جَائِزٌ، وَأَمَّا المَفْعُولَاتُ فَلَا يَجُوزُ فِيهَا، لَا يَجُوزُ: كُنْتُ زَيْدًا مِنَ الضَّارِبِينَ، لِأَنَّ «زَيْدًا» مِنْ صِلَةِ «الضَّارِبِينَ»، فَلَا يَتَقَدَّمُ المَوْصُولُ صِلَتَهُ» (٣).

وَذَهَبَ ابْنُ الحَاجِبِ إِلَى الجَوَازِ، قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي لَكُمَّا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]: «الظَّاهِرُ أَنَّ ﴿لَكُمَّا﴾ فِي مِثْلِ هَذَا وَنَحْوِهِ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿النَّاصِحِينَ﴾، لِأَنَّ المَعْنَى عَلَيْهِ، فَإِنَّ

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «بَيَانٌ لِقَوْلِهِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) أَي: فِي الجَائِزِ وَالمَجْرُورِ. وَانظُرْ مَا تَقَدَّمَ تَعْلِيْقًا عِنْدَ تَفْسِيرِ الآيَةِ ٥٨ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ (٧: ٥١٢).

(٣) «مَعَانِي القُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَّاجِ (٣: ٩٨).

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ
وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَانًا لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَنَلَّمْنَاهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ
أَمْرِهِ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢١]

﴿ الَّذِي اشْتَرَاهُ ﴾ قيل: هو قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذي كان على خزانين
مصر، والملِّك يومئذ الرِّيان بن الوليد؛ رجلٌ من العماليق، وقد آمن بيوسف ومات في
حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مُصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى واشتراه
العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن
الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العِلْمَ والحِكْمَةَ وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، وتوفي
وهو ابن مئةٍ وعشرين سنة.

وقيل: كان الملِّك في أيامه فرعون موسى، عاش أربع مئة سنة، بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ
جَاءَ كُفْرًا يَؤُسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [غافر: ٣٤]. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون
يوسف.

وقيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين. وقيل: أدخلوه
السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه، حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً، فابتاعه
قطفيرٌ بذلك المبلغ.

اللام إنما تحييء بها لتخصيص معنى النضح بالمخاطبين، وإنما فرَّ^(١) الأكثرون لأن صلة
الموصول لا تعمل فيما قبل الموصول، والفرق عندنا أن الألف واللام لهما كانت صورتها
صورة الحرف المنزلة جزءاً من الكلمة صارت كغيرها من الأجزاء التي لا تمنع التقديم،
ولذا لم توصل بجملة اسمية، لتعذر ذلك فيها، وهذا واضح، فلا حاجة إلى التعسف^(٢).

(١) في الأصلين: «قرأ»، وهو تحريف، والمثبت من (ط) وهو الموافق لما في «الأمالي» لابن الحاجب.

(٢) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١٥٢).

﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ اجْعَلِي مَنَزِلَهُ وَمَقَامَهُ عِنْدَنَا كَرِيحًا؛ أَي: حَسَنًا مَرْضِيًّا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ رَفِيعٌ أَحْسَنُ مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢٣]، وَالْمَرَادُ: تَفْقِيدِيهِ بِالْإِحْسَانِ وَتَعَهْدِيهِ بِحُسْنِ الْمَلَكَةِ، حَتَّى تَكُونَ نَفْسُهُ طَيِّبَةً فِي صُحْبَتِنَا، سَاكِنَةً فِي كَنَفِنَا. وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: كَيْفَ أَبُو مَثْوَاكَ وَأُمُّ مَثْوَاكَ؛ لِمَنْ يَنْزِلُ بِهِ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ، يُرَادُ: هَلْ تَطْيِبُ نَفْسَكَ بِثَوَائِكَ عِنْدَهُ، وَهَلْ يُرَاعِي حَقَّ نَزْوِكَ بِهِ؟

وَاللَّامُ فِي ﴿لَا مَرَأَتِي﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِ«قَالَ»، لَا بِ«أَشْرَتْهُ».

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ لَعَلَّهُ إِذَا تَدَرَّبَ وَرَاضَ الْأُمُورَ وَفَهِمَ مَجَارِيهَا، نَسْتَضْهِرُ بِهِ عَلَى بَعْضِ مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ، فَيَنْفَعُنَا فِيهِ بِكِفَايَتِهِ وَأَمَانَتِهِ. أَوْ: تَتَبَّاهُ وَنُقِيمُهُ مَقَامَ الْوَالِدِ، وَكَانَ قَطْفِيرٌ عَقِيمًا لَا يُوَلِّدُ لَهُ، وَقَدْ تَفَرَّسَ فِيهِ الرَّشْدَ، فَقَالَ ذَلِكَ. وَقِيلَ: أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةَ: الْعَزِيزُ حِينَ تَفَرَّسَ فِي يَوْسُفَ، فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾،

قَوْلُهُ: (بِحُسْنِ الْمَلَكَةِ)، يُقَالُ: فَلَانٌ حَسَنُ الْمَلَكَةِ: إِذَا كَانَ حَسَنَ الصَّنِيعِ إِلَى تَمَالِكِهِ (١).

قَوْلُهُ: (لِمَنْ يَنْزِلُ بِهِ)، أَي: لِلْمُضَيَّفِ، أَي: يُقَالُ لِلْمُضَيَّفِ الَّذِي يُرَاعِي حَقَّ الضَّيْفِ إِذَا كَانَ رَجُلًا: أَبُو مَثْوَى الضَّيْفِ، وَإِذَا كَانَ امْرَأَةً: أُمُّ مَثْوَاهُ، نُزِّلَ الضَّيْفُ - فِي طَيِّبَةِ نَفْسِهِ وَسُكُونِهِ عِنْدَ الْمُضَيَّفِ إِذَا كَانَ يَقُومُ بِمُرَاعَاةِ حَقِّهِ، وَيُشْفِقُ عَلَيْهِ شَفَقَةَ الْوَالِدِ - مَنْزِلَةَ الْوَالِدِ (٢)، ثُمَّ كُنِّيَ بِالْمَنْزِلِ وَالْمَقَامِ عَنْهُ؛ رِفْعَةً لِمَنْزِلَتِهِ وَكَرَامَةً لَهُ، كَمَا يُقَالُ: الْمَجْلِسُ الْعَالِي، وَهَذَا قَالَ: «تَكُونُ نَفْسُهُ طَيِّبَةً فِي صُحْبَتِنَا، سَاكِنَةً فِي كَنَفِنَا».

قَوْلُهُ: (تَدَرَّبَ وَرَاضَ الْأُمُورَ)، الْجَوْهَرِيُّ: «دَرَبَ بِالشَّيْءِ وَدَرَدَبَ بِهِ: إِذَا اعْتَادَهُ وَصَرِّي بِهِ، وَرَجُلٌ مُدَرَّبٌ؛ أَي: مُجَرَّبٌ، وَقَدْ دَرَبْتَهُ الشَّدَائِدُ حَتَّى قَوِيَ».

(١) تَفْسِيرُهُ «حُسْنُ الْمَلَكَةِ» مُسْتَفَادٌ مِنَ الْجَوْهَرِيِّ فِي «الصُّحَااحِ»، مَادَّةُ (مَلِكٌ)، وَلَمْ يَعْزُزْهُ إِلَيْهِ خِلَافًا لِعَادَتِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(٢) فِي (ف): «شَفَقَةُ الْوَالِدِ عَلَى الْوَالِدِ»، وَهُوَ خَطَأٌ.

والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها: ﴿يَتَأَبَتِ اسْتَعْرِجُهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما. ورُوي: أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنفسه، فعرفه. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه، والكاف منصوب، تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مَكَّنَّا﴾ له؛ أي: كما أنجينا وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر، وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ من تأويل الأحاديث ﴿كان ذلك الإنجاء والتمكين، لأن غرضنا ليس إلا ما محمد عاقبته من علم وعمل، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ على أمر نفسه، لا يمنع عما يشاء، ولا ينازع ما يريد ويقضي. أو: على أمر يوسف؛ يُدبره لا يكفه إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيد الله.

قوله: (وروي أنه سأله)، عطف على قوله: «وقد نقرس فيه الرشد»، أي: علم رُشدَه بالفراسة، أو سأله عن نسبه فأخبره أنه من ولد إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ففاسه على آباءه الراشدين، وحكم عليه بالرشد.

قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ من تأويل الأحاديث ﴿كان ذلك الإنجاء^(١)﴾، أي: مُعلِّله محذوف، وهذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، ففهم من الجملة الأولى تمكينه في الأرض، وهو نعمة الملك، ومن الثانية: تعليمه الأحاديث، وهو نعمة العلم، ولما كان المقصود من الإنجاء والتمكين: التعليم، ومن التعليم: العمل، قال: «ليس المقصود إلا ما محمد عاقبته من علم وعمل»، وفيه أن المقصود من إتياء الملك العلم، ليدبر أمور

(١) تحرف في الأصول الخطية إلى: «الإبحاء».

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٢٢]

قيل في «الأشد»: ثماني عشرة سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون. وقيل: أقصاه: ثنتان وستون.

﴿حُكْمًا﴾ حكمة؛ وهو العلم بالعمل، واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حُكْمًا بين الناس وفقها، ﴿وَكذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه كان مُحْسِنًا في عمله، مُتَّقِيًا في عُنُقِوَانِ أمره،

عبادته^(١)، لا أن يَتَمَتَّعَ باللذات، ومن العلم بالعمل، لا ليُجَارِيَ به العلماء، ويُجَارِيَ به السُّفَهَاءُ، أو يَصْرِفَ وجوه الناس إليه، والذي يَدُلُّ على تأويل العلم بالعمل قوله بعده: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

ثم الضمير في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾: إما لله عَزَّ وَجَلَّ، فالجملة تذييل، أي: غالب على أمره لا أحد فوقه، يفعل ما يشاء، لا رادَ لِمَا أَرَادَهُ، وإما ليوسف، فيكون تسميًا لِمَا ذَبَّرَهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُ، وَمَعْنَى مَغْلُوبِيَّةِ الْأَمْرِ عَلَى التَّمْثِيلِ، فَإِنَّ الْمَغْلُوبَ مُذَلَّلٌ لِلغَالِبِ، فَيَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ مَانِعٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «لَا يَكِلُهُ إِلَى غَيْرِهِ» إلى قوله: «ولم يكن إلا ما أَرَادَ اللهُ تَعَالَى»، والأول صريح في مذهب أهل السنة، ولكن أهل الاعتزال لا يعلمون.

قوله: ﴿حُكْمًا﴾ حكمة، وهو العلم بالعمل، واجتناب ما يجهل فيه، هذا حد الحكمة، ويفهم منه أن الحكمة لا يعبر عنها بمجرد العلم، وأن لا بُدَّ فيها من اجتناب ما يجهل فيه، أي: ما يُعَدُّ بِهِ جَاهِلًا، وَإِنْ كَانَ عَالِمًا، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ عِلْمًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهُ لَا يُسَمَّى حَكِيمًا، أَوْ عَمِلَ مَا يُضَادُّهُ عُدَّ سَفِيهًا لَا حَكِيمًا، وَيَعْضُدُهُ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ بُعِيدَ هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصْبَحَ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وتمام تحقيقه استقصيناه في سورة لقمان^(٢).

(١) أي: لِيُدَبِّرَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمُورَ عِبَادِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

(٢) في تفسير الآية ١٢ منها (١٢: ٢٨٨).

وَأَنَّ اللَّهَ آتَاهُ الْحُكْمَ وَالْعِلْمَ جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ. وعن الحسن: من أحسنَ عبادةَ ربِّه في شبيته، آتاهُ اللهُ الحِكْمَةَ في اكتِهاله.

[﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَثْرَبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ٢٣]

المراودة: مُفاعلة، من: راد يرود: إذا جاء وذَهَبَ،

قوله: (وَأَنَّ اللَّهَ آتَاهُ الْحُكْمَ وَالْعِلْمَ جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ)، لا يُحْمَلُ هذا على الاستِحقاق والوجوب، بل على التيسير والتسهيل، أي: أَنَّ اللهُ خَلَقَهُ لِلْحُكْمِ وَالْعِلْمِ، فُوَّقَ لِأَن يُحْسِنَ ويكون مُتَهَيِّئًا لِمَا خُلِقَ لَهُ، وعليه يُحْمَلُ قولُ الحسن، أي: وَمَنْ وُفِّقَ أَنْ يُحْسِنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ فِي شَبِيئِهِ يُؤْتَى الْحُكْمَ فِي اكْتِهَالِهِ، وعليه ما رويناهُ عن البخاريِّ ومُسلمٍ^(١) عن عائشة رضي اللهُ عنها في حديثِ بَدءِ الوحي، فقال: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي، فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ - وَأَخْبَرَهَا الْخَبْرَ - : لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبِشْرَ، فَوَالله لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»، الحديث.

قوله: (المراودة: مُفاعلة؛ من: راد يرود)، الراغب: «الرَّوْدُ: التَّرَدُّدُ فِي طَلَبِ الشَّيْءِ بِرَفْقٍ، يُقَالُ: رَادَ وَارْتَادَ، وَمَنَّهُ: الرَّائِدُ؛ لِطَالِبِ الْكَلِّ، وَباعتبارِ الرَّفْقِ قِيلَ: رَادَتِ الْإِبِلُ فِي مَشِيئِهَا تَرُودٌ وَرُودَانًا^(٢)، وَمَنَّهُ: رُؤِيدٌ.

والإرادة منقولة من: راد يرود؛ إذا سعى في طلب شيء، والإرادة في الأصل - : قُوَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ سَهْوَةٍ وَحَاجَةٍ وَأَمَلٍ، وَجُعِلَ اسْمًا لِنُزُوعِ النَّفْسِ مَعَ الْحُكْمِ فِيهِ بِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ أَوْ لَا يُفْعَلَ، ثُمَّ تُسْتَعْمَلُ مَرَّةً فِي الْمَبْدَأِ، وَهُوَ نُزُوعُ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ، وَتَارَةً فِي الْمُنْتَهَى،

(١) البخاري (٣) و(٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) في (ح) و(ف): «رُودًا»، والثبت من (ط) وهو الموافق لما في «المفردات» للراغب، مادة (رود) وكلاهما - أعني: «الرَّوْدُ» و«الرَّوْدَانُ» - مصدرٌ للفعل «راد»، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (رود).

كَأَنَّ الْمَعْنَى: خَادَعْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ؛ أَي: فَعَلْتَ مَا يَفْعَلُ الْمَخَادِعُ لِصَاحِبِهِ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ يَدِهِ، يَحْتَالُ أَنْ يَغْلِبَهُ عَلَيْهِ وَيَأْخُذَهُ مِنْهُ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّمَحُّلِ لِمَوَاقِعَتِهِ إِيَّاهَا.

فإنه تعالى يتعالى عن معنى النزوع، فمعنى: أَرَادَ اللهُ كَذَا: حَكَمَ فِيهِ أَنَّهُ كَذَا أَوْ لَيْسَ بِكَذَا، وَقَدْ يُرَادُ بِهَا مَعْنَى الْأَمْرِ، نَحْوُ: أُرِيدُ مِنْكَ كَذَا، أَي: أَمُرُكَ بِكَذَا، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والمراودة: أَنْ تُتَنَازَعَ غَيْرَكَ فِي الْإِرَادَةِ، فَتُرِيدُ غَيْرَ مَا يُرِيدُهُ، أَوْ تَرُودُ غَيْرَ مَا يَرُودُهُ، وَرَاوَدْتُ فُلَانًا عَنْ كَذَا، ﴿قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، وَقَالَ: ﴿أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠]، أَي: تَصْرِفُهُ عَنِ رَأْيِهِ، وَعَلَى ذَلِكَ: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، ﴿قَالُوا سَوَّرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١] (١).

قوله: (خَادَعْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ؛ أَي: فَعَلْتَ مَا يَفْعَلُ الْمَخَادِعُ لِصَاحِبِهِ)، قَالَ صَاحِبُ «الفرائد»: مُرَادُهُ: تَضْمِينُ «رَاوَدْتَ» مَعْنَى «خَادَعْتَ»، فَعَلَى مَا ذَكَرَ «عَنْ» مُتَعَلِّقَةٌ بِ«رَاوَدْتَ»، لِأَنَّ فِي الْمَخَادَعَةِ مَعْنَى التَّبْعِيدِ، وَهُوَ مُتَعَدٌّ بِ«عَنْ»، كَأَنَّهُ قِيلَ: بَعَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، أَي: مِنْ حِفْظِ نَفْسِهِ.

قلت: لَيْسَ فِي كَلَامِ الْمُصَنِّفِ مَا يُشْعِرُ بِالتَّضْمِينِ، لِأَنَّ التَّضْمِينَ هُوَ أَنْ يُضْمَنَ فِعْلٌ مَعْنَى فِعْلٍ، وَيُعَدَّى تَعْدِيَّتَهُ مَعَ إِرَادَةِ مَعْنَاهُمَا، فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِمَا فِي التَّفْسِيرِ مَعًا، قَالَ الْمُصَنِّفُ فِي الْكَهْفِ (٢): «الغَرَضُ فِي هَذَا الْأَسْلُوبِ إِعْطَاءُ مَجْمُوعِ مَعْنَيْنِ، وَذَلِكَ أَقْوَى مِنْ إِعْطَاءِ مَعْنَى وَاحِدٍ».

وَأَمَّا التَّعْدِيَةُ فَإِنَّ «خَادَعَ» وَرَدَّ فِي «الأساس» عَلَى اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ، وَلَيْسَ فِيهَا تَعْدِيَّتُهُ

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٧١-٣٧٢.

(٢) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢٨ مِنْهَا.

﴿وَعَلَّقَتِ الْأَتْرَابَ﴾ قيل: كانت سبعة. وقُرئ: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء، وبنائوها كبناء «أَيْنَ» و«عَيْطَ». و«هَيْتَ» ك«جَيْرٍ»، و«هَيْتُ» ك«حَيْثُ»، و«هَيْتُ» بمعنى: تَهَيَّأْتُ، يُقال: هاء يهَيءُ، كجاء يَجِيءُ؛ إذا تَهَيَّأ. و«هَيْتُ لَكَ». واللام من صلة الفعل،

ب«عن»، وأما هاهنا فليس على حقيقته، لقوله: «فَعَلَّتْ مَا يَفْعَلُ الْمُخَادِعُ بِصَاحِبِهِ»، لأنه وارد على التشبيه وتمثيل حاله بحاله، وأيضاً ما أتى في هذا التركيب بلفظ «المراودة»، وقد مرَّ أنَّ شَرْطَهُ أَنْ يُذَكَّرَ مَعَ مَعْنَى الْمُضْمَنِ فِيهِ، وَذَكَرَ فِي «الأساس» أيضاً: «راوَدَ رَوْدَانًا: جَاءَ وَذَهَبَ، وَمَا لِي أَرَاكَ تَرَوُدُ مِنْذُ الْيَوْمِ»، وَذَكَرَ فِي قِسْمِ الْمَجَازِ: «ورَاوَدَهُ عَنْ نَفْسِهِ: خَادَعَهُ عَنْهَا»، ثُمَّ مَجْمُوعُ التَّمثِيلِ كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَحَلِّ لِمُوَاقَعَتِهِ إِيَّاهَا.

قوله: ﴿قُرئ: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء وكسرها)، نافع وابنُ ذُكْوَانَ: بِالكَسْرِ - من غير همز - وَفَتْحِ التَّاءِ، وَهَسَامٌ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَهْمِزُ، وَقَدْ رُوِيَ ضَمُّ التَّاءِ عَنْهُ، وَابْنُ كَثِيرٍ: بِفَتْحِ الهَاءِ وَضَمِّ التَّاءِ، وَالباقون: بِفَتْحِهَا.

قوله: (كبناء «أَيْنَ» و«عَيْطَ»)، الأساس: «عَيْطَ: إِذَا مَدَّ الصَّوْتُ بِالصَّرِيخِ، وَهُوَ الْعِيَاطُ»^(١).

قوله: (و«هَيْتَ» ك«جَيْرٍ»^(٢))، و«هَيْتُ» ك«حَيْثُ»، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «(هَيْتُ لَكَ) بِالْهَمْزِ وَضَمِّ التَّاءِ: قِرَاءَةٌ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَ«هَيْتَ» بِفَتْحِ الهَاءِ وَكُسْرِ التَّاءِ: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَفِيهَا لُغَاتٌ: هَيْتَ وَهَيْتَ وَهَيْتُ وَهَيْتُ؛ كُلُّهَا أَسْمَاءٌ سُمِّيَ بِهَا الْفِعْلُ، وَمَعْنَاهَا: أَسْرِعْ وَبَادِرْ، وَالْحَرَكَاتُ فِي أَوَاخِرِهَا لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ.

(١) وَأَقْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُمْ: «عَاطَتِ النَّاقَةُ تَعِيْطُ عِيَاطًا، وَتَعِيْطَتُ، وَاعْتَاطَتْ؛ لَمْ تَحْمِلْ سِنِينَ مِنْ غَيْرِ عَقْرٍ، وَهِيَ عَائِطٌ، مِنْ إِبْلِ عَيْطٍ وَعَيْطٌ وَعَيْطَاتٌ»، وَقَوْلُهُمْ: «عَيْطٌ عَيْطٌ؛ وَهِيَ كَلِمَةٌ يُنَادَى بِهَا عِنْدَ الشُّكْرِ أَوِ الْغَلْبَةِ». انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (عيط).

(٢) وَمَعْنَاهَا: أَجَلٌ، كَمَا فِي «لسان العرب» لابن منظور، مادة (جير).

وأما في الأصوات فللبيان، كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هَلَمْ لك.

﴿مَعَادَ اللَّهِ﴾ أَعُوذُ بِاللَّهِ مَعَاذًا، ﴿إِنَّهُ﴾ إِنَّ الشَّانَ وَالْحَدِيثَ ﴿رَبِّي﴾ سَيِّدِي وَمَالِكِي؛ يُرِيدُ: قَطْفِيرٌ ﴿أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ حِينَ قَالَ لَكَ: أَكْرَمِي مَثْوَاهُ، فَمَا جَزَاؤُهُ أَنْ أَخْلَفَهُ فِي أَهْلِهِ سُوءَ الْخِلَافَةِ وَأَخُونَهُ فِيهِمْ، ﴿إِنَّهُ لَا يُقْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الَّذِينَ يُجَاوِزُونَ الْحَسْنَ بِالسَّيِّئِ،

وأما «هَيْتُ» بالهمزِ وَضَمِّ التَّاءِ: ففِعْلٌ يُقَالُ فِيهِ: هَيْتُ أَهْيءُ هَيْئَةً، كَجِئْتُ أَجِيءُ جَيْئَةً، أَي: تَهَيَّأتُ، وَقَالُوا أَيْضًا: هَيْتُ أَهَاءُ، كَخِفْتُ أَخَافُ، أَي: خُذْ.

وَأما «هَيْتُ لَكَ»: ففِعْلٌ صَرِيحٌ كـ«هَيْتُ»، أَي: أَصْلِحْتُ لَكَ فِدْوَنَكَ، وَمَا انْتَظَرُكَ؟! وَاللَّامُ فِيهِ مُتَعَلِّقَةٌ بِنَفْسِ «هَيْتُ» كَتَعَلَّقَهَا بِنَفْسِ «هَلَمْ» فِي قَوْلِهِمْ: هَلَمْ لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَتْ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، أَي: إِرَادَتِي بِذَلِكَ لَكَ، وَأما «هَيْتُ لَكَ»: فَاللَّامُ فِيهِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْفِعْلِ، كَقَوْلِكَ: أَصْلِحْتُ لَكَذَا^(١).

قوله: (وأما في الأصواتِ فللبيان)، يعني: على تقدير سؤالٍ وجوابٍ، كما سَبَقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَنُودًا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «كَأَنَّهُ قِيلَ: لَكَ أَقُولُ هَذَا»، يَعْنِي: لَمَّا قِيلَ: هَيْتُ، قَالَ: لِمَنْ تَقُولُ: هَيْتُ؟ قَالَ: لَكَ أَقُولُ هَذَا.

قوله: (قَالَ لَكَ: أَكْرَمِي مَثْوَاهُ)، يعني: عَلَّلَ الْاِمْتِنَاعَ عَمَّا أَرَادَتْهُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَى﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، وَقَوْلُهُ: «أَرَادَ اللَّهُ لِأَنَّهُ مُسَبَّبُ الْأَسْبَابِ» عَطْفٌ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْسَنَ مَثْوَى، وَجَعَلَ قَطْفِيرَ^(٢) الْوَاسِطَةَ بَأَن قَالَتْ لَكَ: أَكْرَمِي مَثْوَاهُ، فَلَا أَكْفُرُ نِعْمَةَ رَبِّي.

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٣٧-٣٣٨).

(٢) وهو العزيزُ الذي اشترى يوسفَ عليه السَّلامُ، كما ذكره العلامةُ الزمخشريُّ رحمه الله تعالى قبل ص ٢٨٣ في تفسير الآية ٢١.

وقيل: أراد الزناة، لأنهم ظالمون أنفسهم. وقيل: أراد الله تعالى، لأنه مُسَبَّبُ الأسباب.

[﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِمْ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ٢٤]

هَمَّ بِالْأَمْرِ: إِذَا قَصَدَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ، قَالَ:

هَمَّمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَكَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُئُلَهُ

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا هماً؛ أي: ولا أكاد أن أفعله كيداً، ولا أهتم بفعله هماً، حكاة سيبويه، ومنه: الهمام: وهو الذي إذا هم بأمر أمضاه ولم ينكأ عنه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِمْ﴾ معناه: ولقد هممت بمخالطته، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وهم بمخالطتها، ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِمْ﴾ جوابه محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لمخالطها، فحذف؛ لأن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يدل عليه، كقولك: هممت بقتله لولا أنني خفت الله، معناه: لولا أنني خفت الله لقتلته.

قوله: (وقيل: أراد الزناة)، عطف على قوله: «الذين يجازون الحسن بالسئ».

قوله: (هممت ولم أفعل)، البيت: قائله عمرو بن ضابغ البرجمي^(١)، أي: قصدت قتل عثمان رضي الله عنه، ومفعول «تركت» الجملة بعده، يريد: ليتني تركت هذه الكلمة عليه، وهو قول الناس: «تبكي حلالئله»، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ - ٧٩].

(١) بل لأبيه ضابغ بن الحارث البرجمي، شكاه بنو جرول بن نَهْشَل إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه لما رمى أمهم بكلب، فحبسه، فلما دعي به ليؤدب شد سكيناً في ساقه ليقتل بها عثمان، فعبر عليه، فأحسن أدبه، فقال في ذلك أبياتاً، منها المذكور، ولم يزل في الحبس إلى أن مات. انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١: ٢٦٨)، و«الكامل» للمبرد (١: ٢٩٩ و ٣٠٣ - ٣٠٤)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (قير).

فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همٌّ بالمعصية وقصدٌ إليها؟ قلت: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقومه ميلاً يُشبهُ الهمُّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكادُ تذهبُ بالعقول والعزائم، وهو يكسرُ ما به ويرُدُّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع؛ لأنَّ استِعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همُّ كهما عن عزيمة، كما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين.

ويجوز أن يُريدَ بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وشارف أن يهَمَّ بها، كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يُريد: مشارفة القتل ومشافهته، كأنه شرع فيه.

قوله: (مَيْلًا يُشْبِهُ الهمَّ به)، اللام في «الهم» للعهد، وهو راجع إلى هم المرأة، والضمير في «به» راجع إلى يوسف، أي: ميلاً يُشْبِهُ همَّ المرأة بيوسف، وكذلك في قوله: «والقصد إليه»، و«كما تقتضيه» معطوف على «يُشْبِهُ»، أي: ميلاً كما تقتضيه صورة تلك الحالة، وهي أن المرأة البديعة الجمال إذا تبيأت للشاب البالغ^(١) حد الكمال في الخلوة، لا بد من مجاذبات بين هوى النفس والدين.

قوله: (وهو يكسر ما به)، أي: يوسف يكسر ما يلتبس به ويرُدُّه، وهو حال من قوله: «إنَّ نفسه مالت إلى المخالطة».

قوله: (في برهان الله المأخوذ على المكلفين)، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، قال المصنّف: «إنه تعالى نصّب لهم الأدلة على وحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى» إلى آخره.

(١) من قوله: «إليه وكما تقتضيه» إلى هنا، سقط من (ف).

فإن قلت: قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ داخلٌ تحت حُكْمِ الْقَسَمِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْءٍ﴾، أم هو خارجٌ منه؟ قلت: الأمرانِ جائزان، ومن حقَّ القارئِ إذا قَدَّرَ خُرُوجَهُ مِنْ حُكْمِ الْقَسَمِ وَجَعَلَهُ كَلَاماً بِرَأْسِهِ: أَنْ يَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْءٍ﴾، وَيَبْتَدِئَ قَوْلَهُ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، وفيه أيضاً إشعارٌ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْهَمِّينِ.

فإن قلت: لِمَ جَعَلْتَ جَوَابَ «لَوْلَا» مَحذُوفاً يَدُلُّ عَلَيْهِ «هَمَّ بِهَا»، وَهَلَّا جَعَلْتَهُ هُوَ الْجَوَابَ مُقَدِّمًا؟ قلت: لِأَنَّ «لَوْلَا» لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا جَوَابُهَا مِنْ قَبْلِ أَنَّهُ فِي حُكْمِ الشَّرْطِ، وَلِلشَّرْطِ صَدْرُ الْكَلَامِ، وَهُوَ مَعَ مَا فِي حَيْزِهِ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ مِثْلُ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ بَعْضِ الْكَلِمَةِ عَلَى بَعْضٍ، وَأَمَّا حَذْفُ بَعْضِهَا إِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ فَجَائِزٌ.

قوله: (الأمرانِ جائزان، ومن حقَّ القارئِ إذا قَدَّرَ خُرُوجَهُ مِنْ [حُكْمِ] الْقَسَمِ، وَجَعَلَهُ كَلَاماً بِرَأْسِهِ أَنْ يَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْءٍ﴾، وَيَبْتَدِئَ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾)، قَالَ صَاحِبُ «الْمُرِيدِ»^(١): «فإن وَقَفَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْءٍ﴾، ثُمَّ يَبْتَدِئُ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا﴾؛ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا كَانَ مِنْهُ؛ كَانَ صَالِحًا، وَلَا بَأْسَ بِهِ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمُرَاةَ هَمَّتْ عَلَى صِفَةٍ، وَيُوسُفُ عَلَى صِفَةٍ أُخْرَى».

وقال بعضهم: معناه: اشتهته واشتهاها، وحرصت عليه، لولا أن رأى برهان ربه - والبرهان: دلالة الله إياه على تحريمه، وعلى أن من فعل ذلك الفعل استحق من الله تعالى الغضب والعذاب - لفعل ما دعته إليه من ذلك، فلاجل هذا البرهان امتنع من فعل ما اشتهاها، وضبط نفسه عنه.

وقائل هذا الوجه يذهب إلى أن الشهوة قد تجري تجرئ الهم في سعة اللغة، واحتج بقولهم: «هذا أهم الأشياء إلي» أي: أشهى، وهذا أحسن الوجوه عندي.

قوله: (لأنَّ «لَوْلَا» لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا جَوَابُهَا)، إِلَى آخِرِهِ: قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: الْوَجْهُ

(١) تقدّم التعريف به في تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة (٧: ٢٣٣).

فإن قلت: فلم جعلت «لولا» متعلقة بـ«همم بها» وحده، ولم تجعلها متعلقة
بجملة قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَاءِ وَهَمَّ بِهَا﴾، لأن الهم لا يتعلق بالجواهر، ولكن
بالمعاني، فلا بد من تقدير المخالطة، والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً، فكأنه قيل:
ولقد همما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قلت: نعم ما قلت،

عندي أن يقال: لا شك أن «لولا» تتقدم بالطبع على الجواب، لأنه هو الذي يوجب الجواب،
والموجب يتقدم بالطبع على الموجب ضرورة، فتقديمه عليه إخراج له من الأصل،
والإخراج من الأصل لا يجوز إلا بموجب راجح على ما يوجب الإبقاء على الأصل، وهو
كونه أهم بالذکر منه، ولما كان الاهتمام بذكره بعد «لولا»، لأنه هو الذي يقتضي ذكره
ويؤجبه، لم يكن أن يكون أهم منه، فلم يوجد الموجب الراجح لتقديمه، فوجب تأخيره
عملاً بالموجب السالم عن المعارض، هذا اختيار الإمام في «تفسيره»^(١).

قوله: (لا يتعلق بالجواهر)، أي: بالأعيان. فإذا قلت: هم فلان يزيد؛ فمعناه: هم بقتله
أو بشتويه وما أشبههما، ولا تريد: أنه هم بعينه وجنته.

حاصل السؤال: لِمَ علقت «لولا» بالجملة الثانية، ولم تعلق بالجملة الأولى معاً لِمَ لم
يمكن ذلك، لأن الهم لا يتعلق بالذوات، وإنما يتعلق بالمعاني، كالمخالطة والمعانقة
والملامسة والمباشرة ونحوها، وهذا المعنى مما لا يحصل إلا من الجانبين، فيستخرج من مجموع
قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَاءِ وَهَمَّ بِهَا﴾ معنى المخالطة^(٢)، ثم يقيد هم يوسف بأن يقال: ولقد
همما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما.

وختلاصة الجواب: أن أخذ الزائدة وإن جاز، لكن يفوت معنى التفصيل المراد من
التركيب، لأنه تعالى قصد فيه استقلال كل من الهممين، وتميز أحدهما عن الآخر؛ بأن أتى
بالفعلين، وعطف أحدهما بالآخر، وكان عنه مندوحة، بأن يقال: لقد همما بالمخالطة لولا

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٤٤١).

(٢) من قوله: «والمعانقة» إلى هنا، سقط من (ح).

أن منع مانع أحدهما، فعدّل إلى هذا التركيب لفائدة، ولو أخذ الرُبْدَةَ كَانَ إِغْفَالاً لِيَتْرَكَ التّفصِيل، وإلغَاءً لمجئتها هكذا منسوقة، والفائدة: هي أن يُبيّن أن هَمَّهَا كان مُتَمَادِيّاً في الشهوة، وهَمَّ يوسُفَ انقطع برؤية البرهان، وفيه ارتفاعُ شأنِ يوسُفَ عليه السّلام؛ حيث لم يُشاركه معها في الهَمِّ، وجعلَ هَمَّهُ مُمَيِّزاً عن هَمِّهَا.

هذا يوافق ما روى مُحمي السُّنّة في «المعالم»، وقال: «قال بعض أهل الحقائق: الهَمُّ هَمَّان: هَمٌّ ثابت، وهو إذا كان معه عَزْمٌ وَعَقْدٌ ورضا، مثل: هَمَّ امرأة العزيز، فالعبدُ^(١) مأخوذٌ به. وهَمٌّ عارض، وهو الحَظَرَةُ وحديث النفس من غير اختيار ولا هَمِّ، مثل هَمِّ يوسُفَ عليه السّلام، فالعبدُ غيرُ^(٢) مأخوذٌ به ما لم يتكلم أو يعمل^(٣)».

وقلت: ويؤيِّده ما روينا عن البخاريّ ومُسلم وأبي داودَ والترمذيّ^(٤) عن أبي هريرة: أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله تجاوَزَ لي عن أمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلّموا».

هذا التفسير هو الذي يجب أن يذهب إليه ويتخذ مذهباً، وإن نقل المُفسِّرون ما نقلوا، لأنّ مُتَابَعَةَ النَّصِّ القاطع وبراءة ساحة النبيّ المعصوم عن تلك الرذيلة، وإحالة التقصير إلى الرواة أولى بالمصير إليه، على أن أساطين النّقل المُتَقِنِينَ الذين همّوا صَفَوْا مَشَارِبِ النّقل عن كُدورات الواضعين وتحريف الزائغين، مثل الإمامين مالك وأحمد، والشيخين البخاريّ ومُسلم، ومن تبعهم مثل الترمذيّ وأبي داودَ والنسائيّ والدارميّ وابن ماجه ما ذكروا في كُتُبهم ما يُداني هذه الروايات، فضلاً عما يُساويها، وما دَخَلَ على مَنْ نقل من المُفسِّرين

(١) من قوله: «وهو إذا كان معه عزم» إلى هنا، سقط من (ح)

(٢) لفظة «غير» سقطت من (ح).

(٣) «معالم التنزيل» للبخوي (٤: ٢٣١).

(٤) البخاري (٥٢٦٩) و(٦٦٦٤)، ومُسلم (١٢٧)، وأبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣).

وأخرجه أيضاً النسائي (٣٤٣٣ - ٣٤٣٥)، وابن ماجه (٢٠٤٠).

أمثال هذه الهنات على الأنبياء، إلا من التهاون في الضبط، إذ جُلِّها بل كُلِّها مأخوذ من مُسَلِّمة أهل الكتاب.

وروينا في «صحيح البخاري»^(١) في «باب لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»: عن الزُّهري، أخبرني حميد، سمع معاوية يُحدث رَهطاً من قُرَيْشٍ بالمدينة، وذُكِرَ كَعْبُ الأَحْبَارِ، فقال: «إِنْ كَانَ مِنْ أَصْدَقِ هَؤُلَاءِ المُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ عَنِ الكِتَابِ، وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ لَنَبْلُو عَلَيْهِ الكَذِبَ».

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بالعِبرانية، وَيُفَسِّرُونَهَا بالعربية لأهل الإسلام، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] وما أُنزِلَ إِلَيْكُمْ، الآية»^(٢).

وعن ابن عَبَّاسٍ: «كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ عَن شَيْءٍ، وَكِتَابِكُمُ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ رَسُولِي أَحَدَثٌ، تَقْرَؤُونَهُ مَحْضاً لَمْ يُشَبَّ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ نَمَنًا قَلِيلاً، أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَن مُسَاءَلَتِهِمْ، لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكُمْ»^(٣)، كُلُّ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحِ».

ومنه ما روينا عن البخاري ومسلم والترمذي^(٤) عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن

(١) برقم (٧٣٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) و(٧٣٦٢) و(٧٥٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٢٣).

وقوله: «لم يشب»: بضم أوله وفتح المعجمة بعدها موحدة، أي: لم يخلط. «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٥: ٢٩٢).

(٤) البخاري (١٢٢) و(٣٤٠١) و(٤٧٢٥) و(٤٧٢٦) و(٤٧٢٧)، ومسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩).

عبّاس: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ^(١) يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ صَاحِبُ الْخَضِرِ، فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَامَ مُوسَىٰ خَطِيْبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ: فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَىٰ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقَالَ لَهُ: أَحْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ^(٢)، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحَوْتَ فَهُوَ ثَمٌّ، الْحَدِيثُ.

واعلم أنّ هذا أصلٌ عظيمٌ في الباب، وعليه التعويل. وقال صاحبُ «الانتِصافِ»^(٣): «الصحيحُ عندنا تنزيهُ الأنبياءِ عن الكبائرِ والصغائرِ، وأنَّ يوسفَ بريءٌ، وأنَّ الوَقْفَ عندَ قوله: ﴿هَمَّتْ بِوَيْءٍ﴾، وَبُيْتَدَأُ: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾، كما تقول: قتلتُ زيداً لولا أني أخافُ الله، فإنَّ كانَ الزَّخْشَرِيُّ يُعْرَضُ بِأَهْلِ السُّنَّةِ فَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبَهُمْ، وإنَّ كانَ يعنِي به غيرَهُم فَشَأْنُهُ وَإِيَاهُمْ»^(٤).

وقلت: أما دلالةُ كلامِ الله المجيدِ على البراءةِ فهو كما قال الإمام: «كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ فَقَدْ شَهِدَ بِبَرَاءَةِ يَوْسُفَ، وَأَمَّا يَوْسُفُ فَقَالَ: ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾»

(١) قال الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري» (٨: ٤١٣): «بَكْسَرِ الْمُوَحَّدَةِ مُحَقَّفًا، وَبَعْدَ الْأَلْفِ لَامٌ، وَوَقَعَ عِنْدَ بَعْضِ رُؤَاةِ «مُسْلِمٍ»: بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَالتَّشْدِيدِ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابُ، وَاسْمُ أَبِيهِ فَضَالَةٌ - بَفَتْحِ الْفَاءِ وَتَخْفِيفِ الْمُعْجَمَةِ - ، وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى بَنِي بِكَالٍ بْنِ دُعَمِيِّ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَوْفٍ؛ بَطْنٍ مِنْ حِمَيْرٍ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ امْرَأَةٍ كَتَبَ الْأَحْبَارُ، وَقِيلَ: ابْنُ أَخِيهِ، وَهُوَ تَابِعِيٌّ صَدُوقٌ». وانظر: «الأنساب» للسَّمْعَانِيِّ (٣: ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٢) وهو ما يُعْمَلُ مِنَ الْخَوْصِ، يُحْمَلُ فِيهِ التَّمْرُ وَغَيْرُهُ. «المصباح المنير» للفيومي، مادة (كتل).

(٣) في (ف): «صاحب التقريب»، وهو خطأ.

(٤) «الانتِصاف» لابن المنير (٢: ٣٢٦) بحاشية «الكشاف».

[يوسف: ٢٦] على التأكيد أو التخصيص، لأن التركيب نحو: أنا عرفت^(١)، وقال: ﴿رَبِّ السَّجُنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وأما المرأة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] على القسمة - قال المصنف: «الاستعصام: بناءً مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفُّظ الشديد» -، وقالت: ﴿أَلَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وأما الزَّوْجُ فقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُونُسُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩]، وأما النسوة فقلن: ﴿حَسْبُ لَنَا اللَّهُ مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُورٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وأما اليهود فقالوا: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدْمًا مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٧] الآية، وأما الله عزَّ شأنه فقد قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]^(٢).

وقلت: فيه من التأكيد أنه قرَنَ «الفحشاء» بـ«السوء» لينفي عنه الزنْيَ ومُقدِّمَتَهَا، وسَمَّاهُ «عَبْدَهُ»، وأدخَلَهُ في زُمْرَةِ «المُخْلِصِينَ»، وَعَلَّلَ الصَّرْفَ بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، وأتى باسم الإشارة وكاف التشبيه تفخيماً للتبثيت، أي: مثل ذلك التبثيت العجيب الشأن لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ.

«وأما إبليس فإنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، والله تعالى شَهِدَ له بالإخلاق، وأكَّدَ الشهادة بالطريق البرهاني حيثُ أدخَلَهُ في جُمْلَةِ «المُخْلِصِينَ»^(٣)، وأما المَلِكُ فقد قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

(١) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢٢٠ وما بعدها.

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٤٤٠-٤٤١)، وزاد فيه المؤلف ما نقله عن الزمخشري، ولذا وضعته بين علامتي الاعتراض.

(٣) وهذا من تَبَيَّنَ كلام الإمام الرازي رحمه الله تعالى في «مفاتيح الغيب» (١٨: ٤٤١).

وقال الإمام: «أما تفسيرُ «الهمَّ» فقد جاءَ على معانٍ:

أحدها: العزمُ على الفعل، قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا﴾ [المائدة: ١١]، أي: عزموا على ذلك.

وثانيها: حُطُورُ الشيءِ بالبال، قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَلَّافَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، أي: حَطَّرَ ببالهم دونَ أن يعزموا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، لأن الله تعالى لا يكونُ وليَّ مَنْ عَزَمَ على المعصية.

وثالثها: الشَّهْوَةُ وَمَيْلُ الطَّنْبِ، يقولُ القائلُ فيما لا يَشْتَهِيه: لا يَهْمُنِي هذا، وفيما يَشْتَهِيه: هذا أَهَمُّ الأشياءِ إليّ.

والمُرَادُ بـ«الهمَّ» في الآية: حُطُورُ الشيءِ بالبال، أو مَيْلُ الطَّنْبِ بالشَّهْوَةِ، وذلكَ أنَ المرأةَ الفائقةَ في الحسنِ والجمالِ إذا تَهَيَّأتَ للشَّابِّ القَوِيَّ لا بُدَّ أن يقعَ هناكَ بينَ الشهوةِ والحكمةِ وبينَ النفسِ والعقلِ مجاذباتٍ ومنازعاتٍ، فتارةً تقوى داعيةُ الشهوةِ والطبيعيةِ، وتارةً تقوى داعيةُ العقلِ والحكمةِ، فالهمُّ عبارةٌ عن جَوَازِبِ الطبيعةِ، ورؤيةِ البُرْهَانِ عبارةٌ عن جَوَازِبِ النُّبُوَّةِ والحكمةِ. مثاله: أنَ الرجلَ الصالحِ الصائمِ في الصَّيْفِ الصائفِ إذا رأى المَاءَ المَبْرَدَ فطبيعتهُ تَحْمِلُهُ على شُرْبِهِ، إلا أن هُدَاهُ ودينه يَمْنَعُهُ منه، وهذا لا يَدُلُّ على حُصولِ الذَّنْبِ، بل كُلُّمَا كانت هذه الحالةُ أَشَدَّ كانتِ القُوَّةُ [في القيامِ] بِلُؤازِمِ العُبُودِيَّةِ أَكْمَلَ.

ولو أُريدَ به العزمُ كانَ أيضاً دليلاً على عِصْمَتِهِ، لأنه تعالى لَمَّا أَظْهَرَ ما يَصْرِفُهُ عن العزمِ وَجَبَ أن لا يكونَ منه عزمٌ، فلما لم يكنْ منه عزمٌ لم يكنْ منه فعلٌ، لأنَّ الفِعْلَ تابعٌ للعزمِ^(١).

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٤٤٢ - ٤٤٣) بنحوه، ومنه أضفتُ ما بينَ حاصِرَتَيْنِ.

ولكن الله سبحانه وتعالى قد جاء بالهَمِّينِ على سبيل التفصيل، حيث قال: ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾، فكان إغفاله إغفاءً له، فوجب أن يكون التقدير: ولقد هَمَّتْ بِمُخَالَطَتِهِ وَهَمَّ بِمُخَالَطَتِهَا، على أن المراد بالمُخَالَطَتَيْنِ: تَوَصُّلُهَا إِلَى مَا هُوَ حَظُّهَا مِنْ قِضَاءِ شَهْوَتِهَا مِنْهُ، وَتَوَصُّلُهُ إِلَى مَا هُوَ حَظُّهُ مِنْ قِضَاءِ شَهْوَتِهِ مِنْهَا، ﴿لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فترك التَّوَصُّلَ إِلَى حَظِّهِ مِنَ الشَّهْوَةِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَتْ «لَوْلَا» حَقِيقَةً بِأَنْ تَعَلَّقَ بِ «هَمَّ بِهَا» وَحَدَهُ.

وقد فُسر «هَمُّ يوسُفَ»: بأنه حَلَّ الِهْمِيَانِ وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الْمُجَامِعِ، وبأنه حَلَّ تِكَّةَ سَرَاوِيلِهِ، وَقَعَدَ بَيْنَ شُعْبَيْهَا الْأَرْبَعِ، وَهِيَ مُسْتَلْقِيَةٌ عَلَى قَفَاهَا، وَفُسر «الْبُرْهَانُ»: بأنه سَمِعَ صَوْتًا: إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا، فَلَمْ يَكْتَرِثْ لَهُ، فَسَمِعَهُ ثَانِيًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَسَمِعَ ثَالِثًا: أَعْرَضَ عَنْهَا، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِ، حَتَّى مُثِّلَ لَهُ يَعْقُوبُ عَاضًا عَلَى أَنْمَلَتِهِ. وَقِيلَ: ضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ، فَخَرَجَتْ شَهْوَتُهُ مِنْ أَنْمَلِهِ. وَقِيلَ: كُلُّ وَكْدٍ يَعْقُوبُ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا إِلَّا يوسُفَ، فَإِنَّهُ وُلِدَ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ وَلَدًا، مِنْ أَجْلِ مَا نَقَصَ مِنْ شَهْوَتِهِ حِينَ هَمَّ، وَقِيلَ: صِيحَ بِهِ: يَا يوسُفُ لَا تَكُنْ كَالطَّائِرِ؛ كَانَ لَهُ رِيشٌ، فَلَمَّا رَزَى قَعَدَ لَا رِيشَ لَهُ. وَقِيلَ: بَدَتْ كَفُّ فِيهَا بَيْنَهُمَا لَيْسَ لَهَا عَضْدٌ وَلَا مِعْصَمٌ، مَكْتُوبٌ فِيهَا ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنِينًا﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، فَلَمْ يَنْصَرِفْ، ثُمَّ رَأَى فِيهَا ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فَلَمْ يَنْتَهَ، ثُمَّ رَأَى فِيهَا ﴿وَأَنْقَضُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِ، فَقَالَ اللَّهُ لَجَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَدْرِكْ عَبْدِي قَبْلَ أَنْ يُصِيبَ الْخَطِيئَةَ، فَانْحَطَّ جَبْرِئِيلُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا يوسُفُ، أَعْمَلُ عَمَلَ السُّفَهَاءِ وَأَنْتَ مَكْتُوبٌ فِي دِيوَانِ الْأَنْبِيَاءِ؟ وَقِيلَ: رَأَى تَمَثَالَ الْعَزِيزِ. وَقِيلَ: قَامَتِ الْمَرَأَةُ إِلَى صَنْمٍ كَانَ هُنَاكَ فَسَرَّتْهُ.....

قوله: (حَلَّ الِهْمِيَانِ)، الجوهري: «هِمِيَانُ الدَّرَاهِمُ - بكَسْرِ الْهَاءِ -: مَعْرُوفٌ»، وَفِي

النهاية: «الهِمِيَانُ: تِكَّةُ السَّرَاوِيلِ».

وقالت: أستحيي منه أن يرانا. فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحيي من السميع البصير العليم بذوات الصدور!

وهذا ونحوه مما يُورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى عليه وسُمي مُخلصاً، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدخض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومُصدّق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته، وضرب صورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار، والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يُؤدّي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين؛ ليقتدي بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية، وفي حلّ تكّته للوقوع عليها، وفي أن ينهأ ربّه ثلاث كرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جائم في مربيضه

قوله: (الدخض)، الجوهري: «مكان دخض^(١)؛ أي: زلق».

(١) دخض ودخض - بتسكين الحاء وتحريكها -، كما نبه إليه الجوهري نفسه في «الصّحاح»، مادة (دخض).

لَا يَتَحَلَّلُ وَلَا يَتَهَيَّ وَلَا يَتَّبِعُهُ، حَتَّى يَتَدَارَكَهُ اللَّهُ بِجَبْرِيلَ وَيُجْبِرُهُ، وَلَوْ أَنَّ أَوْفَحَ الزُّنَاةِ وَأَشْطَرَهُمْ وَأَحَدَهُمْ حَذَقَةً. وَأَجْلَحَهُمْ وَجْهًا لُقِيَ بِأَدْنَى مَا لُقِيَ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ تَمَّا ذَكَرُوا، لَمَّا بَقِيَ لَهُ عِرْقٌ يَنْبِضُ، وَلَا عُضْوٌ يَتَحَرَّكُ! فَيَالَهُ مِنْ مَذْهَبٍ مَا أَفْحَشَهُ! وَمِنْ ضَلَالٍ مَا أَيْبَنَهُ!

﴿كَذَلِكَ﴾ الكافُ منصوبُ المَحَلِّ؛ أي: مثل ذلك الشَّيْبِ ثَبْتَاهُ، أو: مَرَفُوعُهُ؛ أي: الأمرُ مثل ذلك ﴿لِنَصْرَفِ عَنَّهُ السُّوءِ﴾ من خِيَانَةِ السَّيِّدِ ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ من الزُّنَى، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، وَبِالْفَتْحِ: الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ لَطَاعَتِهِ بِأَنْ عَصَمَهُمْ.

قوله: (لَا يَتَحَلَّلُ)، «حَلَحَلْتُ الْقَوْمَ؛ أي: أزعجتهم عن مَوَاضِعِهِمْ»^(١).
قوله: (وَأَجْلَحَهُمْ)، الأساس: «رَجُلٌ أَجْلَحٌ، وَرَأْسُهُ جَلَحٌ»^(٢)، ومن المجاز: فُلَانٌ وَقِحٌ مُجْلَحٌ، وَفِي وَجْهِهِ تَجْلِيحٌ، وَهُوَ الْإِقْدَامُ عَلَى الشَّرِّ».
قوله: (فِيَا لَهُ مِنْ مَذْهَبٍ): الْمُنَادَى مَحذُوفٌ، أَي: يَا قَوْمِ احْضُرُوا لَهُ، ثُمَّ بَيَّنَّ الضَّمِيرَ بِقَوْلِهِ: «مِنْ مَذْهَبٍ»، وَفِيهِ تَعَجُّبٌ وَتَعْجِيبٌ.

قوله: (وَبِالْفَتْحِ: الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ): عَطْفٌ عَلَى «الْمُخْلِصِينَ»، الَّذِينَ أَخْلَصُوا، أَي: قُرَى: «الْمُخْلِصِينَ» بِكَسْرِ اللَّامِ؛ وَالْمَعْنَى: الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ، وَبِالْفَتْحِ؛ وَالْمَعْنَى: الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ، قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ: بِالْكَسْرِ، وَالباقون: بِالْفَتْحِ^(٣).

(١) وهو من كلام الجوهري أيضاً في «الصحاح»، مادة (حلل).
(٢) وهو ذهابُ الشعر من مُقَدِّمِ الرَّأْسِ، وَقِيلَ: هُوَ إِذَا زَادَ قَلِيلاً عَلَى النَّزْعَةِ، وَالْجَلَحُ: فَوْقَ النَّزْعِ، وَهُوَ انْحِسَارُ الشَّعْرِ عَنِ جَانِبِي الرَّأْسِ، وَأَوَّلُهُ النَّزْعُ ثُمَّ الْجَلْحُ ثُمَّ الصَّلْعُ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: إِذَا انْحَسَرَ الشَّعْرُ عَنِ جَانِبِي الْجَبْهَةِ فَهُوَ أَنْزَعٌ، فِإِذَا زَادَ قَلِيلاً فَهُوَ أَجْلَحٌ، فِإِذَا بَلَغَ النُّصْفَ وَنَحْوَهُ فَهُوَ أَجْلِيٌّ، ثُمَّ هُوَ أَجْلَهُ. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (جلح).

(٣) انظر: «التيسير» ص ١٢٨، و«حجة القراءات» ص ٣٥٨.

ويجوزُ أن يُريدَ بـ ﴿السُّوءِ﴾: مُقدِّماتِ الفاحشة؛ من القُبلةِ والنَّظَرِ بشهوةٍ، ونحوِ ذلك.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ معناه: بعضِ عبادِنَا؛ أي: هو مُخْلِصٌ من جُملةِ المُخْلِصِينَ، أو هو ناشىءٌ منهم، لأنه من ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

[﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ * قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّارَةً أَقَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [٢٥-٢٩]

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ وتَسَابَقَا إِلَى الْبَابِ؛ عَلَى حَذْفِ الْجَارِّ وَإِصَالِ الْفِعْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أَوْ عَلَى تَضْمِينِ ﴿وَأَسْتَبَقَا﴾ مَعْنَى «ابْتَدَرَا». نَفَرَ مِنْهَا يُوسُفُ، فَاسْرَعَ يُرِيدُ الْبَابَ لِيَخْرُجَ، وَأَسْرَعَتْ وَرَاءَهُ لَتَمْنَعَهُ الْخُرُوجَ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَحَدَّ الْبَابَ، وَقَدْ جَمَعَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣]؟ قُلْتَ: أَرَادَ الْبَابَ الْبَرَّانِيَّ الَّذِي هُوَ الْمَخْرُجُ مِنَ الدَّارِ، وَالْمَخْلَصُ مِنَ الْعَارِ، فَقَدْ رَوَى كَعْبٌ: أَنَّهُ لَمَّا هَرَبَ يُوسُفُ جَعَلَ فَرَّاشُ الْقُفْلِ يَتَنَاثَرُ وَيَسْقُطُ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْأَبْوَابِ.

قوله: (البَابُ الْبَرَّانِيُّ)، الْأَسَاسُ: «جَلَسْتُ بَرًّا، وَخَرَجْتُ بَرًّا: إِذَا جَلَسَ إِلَى ظَاهِرِ الدَّارِ، وَخَرَجَ إِلَى ظَاهِرِ الْبَلَدِ. وَمَنْ أَصْلَحَ جَوَانِيهِ أَصْلَحَ اللَّهُ بَرَّانِيهِ، وَافْتَحَ الْبَابَ الْبَرَّانِيَّ، وَيُقَالُ: أَرِيدُ جَوًّا وَيُرِيدُ بَرًّا، أَي: أَرِيدُ خُفِيَّةً وَهُوَ يُرِيدُ عَلَانِيَةً».

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، مِنْ دُبُرٍ﴾ اجْتَدَبْتَهُ مِنْ خَلْفِهِ فَانْقَدَّ؛ أَي: انشَقَّ حِينَ هَرَبَ مِنْهَا إِلَى الْبَابِ وَتَبِعْتَهُ تَمَعُهُ، ﴿وَأَلْفَيَا سَيْدَهَا﴾ وَصَادَفَا بَعْلَهَا وَهُوَ قِطْفِيرٌ، تَقُولُ الْمَرْأَةُ لِبَعْلِهَا: سَيْدِي. وَقِيلَ: إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: سَيْدَهُمَا، لِأَنَّ مَلِكَ يُوسُفَ لَمْ يَصَحَّ، فَلَمْ يَكُنْ سَيِّدًا لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ. قِيلَ: أَلْفَيَا مُقْبِلًا يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ. وَقِيلَ: جَالِسًا مَعَ ابْنِ عَمِّ لِلْمَرْأَةِ؛ لَمَّا أَطْلَعَ مِنْهَا زَوْجَهَا عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ الْمُرِيبَةِ وَهِيَ مُغْتَاظَةٌ عَلَى يُوسُفَ إِذْ لَمْ يُؤَاتِهَا، جَاءَتْ بِحِيلَةٍ جَمَعَتْ فِيهَا غَرَضِيهَا؛ وَهِيَ تَبَرُّهُ سَاحَتِهَا عِنْدَ زَوْجِهَا مِنَ الرَّبِيَّةِ، وَالغَضَبُ عَلَى يُوسُفَ وَتَخْوِيفُهُ طَمَعًا فِي أَنْ يُؤَاتِيهَا؛ خِيفَةً مِنْهَا وَمِنْ مَكْرِهَا، وَكْرَهَا لَمَّا أُبْسِتَ مِنْ مَوَاتَاتِهِ طَوْعًا. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهَا: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ، لِيُسَجَّنَ﴾ [يُوسُفَ: ٣٢].

و«ما» نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: من في الدار إلا زيد.

فإن قلت: كيف لم تُصِرَّح في قولها بذكر يوسف، وأنه أراد بها سوءاً؟ قلت: قَصَدَتِ الْعُمُومَ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا فَحَقُّهُ أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِيهَا قَصْدَتُهُ مِنْ تَخْوِيفِ يُوسُفَ،

قوله: (قَصَدَتِ الْعُمُومَ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا فَحَقُّهُ أَنْ يُسَجَّنَ)، الانْتِصَافُ: «أَوْ أَرَادَتْ بِالْإِجْمَالِ الْحَيَاءَ وَالْحِشْمَةَ أَنْ تَقُولَ لِبَعْلِهَا: هَذَا أَرَادَ بِي سُوءًا، وَلِذَلِكَ كُنْتُ بِالسُّوءِ عَنِ الْفَاحِشَةِ بُعْدًا عَنِ الْقِحَّةِ^(١) الَّتِي تُوهِمُ الرَّبِيَّةَ، وَقَالَتْ ابْنَةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [الْقِصَصُ: ٢٦]، وَلَمْ تَقُلْ: إِنَّهُ قَوِيٌّ أَمِينٌ؛ حَيَاءً مِنْ أَبِيهَا»^(٢).

(١) يُقَالُ: «وَفُحَّ يَوْفُحُ وَفَاحَةٌ وَفُوقِحَةٌ وَفُوقِحَةٌ وَفُوقِحَةٌ، أَي: صَلْبٌ. وَوَفَّحَ الرَّجُلُ وَوَفَّحَ: إِذَا صَارَ قَلِيلَ الْحَيَاءِ، فَهُوَ وَفَّحٌ وَوَفَّاحٌ، وَامْرَأَةٌ وَفَّاحٌ، بغير هاء. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (وفح).

(٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣١٣) بحاشية «الكشاف».

وقيل: العذاب الأليم: الضرب بالسياط. ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، ولو لا ذلك لكتّم عليها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: كان ابن عمّ لها، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها؛ لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للثمة عنه. وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب. وقيل: كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشير، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبته الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق. وقيل: كان ابن خال لها صبيّاً في المهدي. وعن النبي ﷺ: «تكلّم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى».

قوله: (أغرت به)، الجوهري: «غري به - بالكسر - أي: أولع به، والاسم الغراء».

قوله: (تكلّم أربعة وهم صغار)، وكذا في «المعالم»^(١)، ويردّه دلالة الحصر في الرواية عن البخاريّ ومسلم^(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلّم في المهدي إلا ثلاثة: عيسى

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ٢٣٤ - ٢٣٥).

والحديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٨٢١) عن ابن عباس موقوفاً، وصحّحه ابن حبان (٢٩٠٤)، والحاكم (٢: ٤٩٦ - ٤٩٧).

وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢: ٥٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

وأخرج مسلم (٣٠٠٥) من حديث ضهيب رضي الله عنه في قصة أصحاب الأخدود: «حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه، اصبري، فإنك على الحق». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦: ٤٨٠): «فيجتمع من هذا خمسة».

أما قول المؤلف: «ويردّه دلالة الحصر... إلخ: فقد ردّه الجلال السيوطي فقال: هذا منه - أي: من المؤلف العلامة الطيبي - على جاري عادته من عدم الاطلاع على طرق الأحاديث، والحديث المتقدّم صحيح - وذكر السيوطي تخريجه -، وفي حديث «الصحيحين» زيادة على الأربعة: الصبي =

فإن قلت: لِمَ سُمِّيَ قوله: شهادة، وما هو بلفظ الشهادة؟ قلت: لِمَا أَدَّى مُؤَدَى الشَّهَادَةِ فِي أَنْ نَبَّتَ بِهِ قَوْلُ يَوْسُفَ، وَبَطَّلَ قَوْلَهَا؛ سُمِّيَ شَهَادَةً.

فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قلت: لأنها قولٌ من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهدٌ فقال: إن كان قميصه....

ابن مريم، وصاحب جريج، وكان رجلاً عابداً فاتخذ صومعة، وكانت امرأة بغي، فتعرّضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً يأوي إلى صومعته، فوقع عليها، فلما وكّدت قالت: هو من جريج، فأتى جريج الصبي وطعن في بطنه، وقال: من أبوك؟ قال: فلان الراعي. وبيننا صبي يرضع من أمه، فمرّ رجل راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي فقال: اللهم لا تجعلني مثله، هذا مختصر من ألفاظ الحديث.

قوله: (الجملة الشرطية)، أي: الجملة الشرطية فيها معنى التّرقّب والتعليق، وفعل الشهادة يقتضي الأداء والإنشاء، فبينهما تناف؟ وأجاب بجوابين: أحدهما: أن فعل الشهادة

= الذي كان يرضع من أمه، فمرّ راكب... الخ، فصاروا خمسة، وهم أكثر من ذلك؛ ففي «صحيح مسلم» تكلم الطفل في قصة أصحاب الأخدود، وقد جمعت من تكلم في المهدي فبلغوا أحد عشر، ونظمتها فقلت:

وتجيبى وعيسى والخليل ومريم	تكلّم في المهدي النبي محمّد
وطفلٌ لذي الأخدود يرويه مسلم	ومبري جريج ثم شاهد يوسف
يقال لهاتزني ولا تتكلم	وطفلٌ عليه مرّ بالأمّة التي
وفي زمن الهادي المبارك يُحتم	وما شطّة في عهد فرعون طفلها

نقله العلامة الألوسي في «روح المعاني» (١٢: ٢٢٠) وقال: «وفيه أنه يرُدُّ على الطيّب الطعن على الحديث الذي ذكّر كما توهم، وإنما أراد أن بين الحديث الدالّ على الحصر وغيره تعارضاً يحتاج إلى التوفيق».

قلت: وبعض من ذكره الحافظ السيوطي في نظمه المذكور لا يصح عنه الكلام في المهدي، وإنما أراد رحمه الله تعالى أن يجمع كل من ورد عنه ذلك، كما لا يخفى، فتنبّه.

فإن قلت: إن دَلَّ قَدْ قَمِيصِهِ مِنْ دُبُرٍ عَلَى أَنَّهَا كاذبة، وأنها هي التي تَبِعْتُهُ واجتَبَدَتْ ثوبَهُ إِلَيْهَا فَقَدَّتْهُ، فَمِنْ أَيْنَ دَلَّ قَدَّهُ مِنْ قُبُلٍ عَلَى أَنَّهَا صادقة، وأنه كان تَابِعَهَا؟ قلت: من وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أنه إذا كان تَابِعَهَا وهي دافَعْتُهُ عن نَفْسِهَا قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ قُدَامِهِ بِالذَّفْعِ. والثاني: أن يُسْرِعَ خَلْفَهَا لِيَلْحَقَهَا، فَيَتَعَثَّرَ فِي مَقَادِمِ قَمِيصِهِ، فَيُسْقَى.

من إطلاقِ الخاصِّ على العامِّ، كأنه قيل: قال قائل: إن كانَ قَمِيصُهُ، على طريق أداء الشهادة، أو القولُ محذوف، كأنه قيل: وشهدَ شاهد، فقال: إن كانَ قَمِيصُهُ^(١).

قال صاحبُ «الفرائد»: هذا التقديرُ غيرُ مُستَقِيم، وإنما يَسْتَقِيمُ أن لو قيل: فإن كانَ قَمِيصُهُ، وَوَجْهُهُ أن يُقال: وشهدَ شاهدٌ قائلاً: إن كانَ قَمِيصُهُ.

وقلت: ما المانعُ من تقدير ما يَسْتَقِيمُ به المعنى، سواء كانَ حَرْفاً أو غيره، ولا شك أن ذلك التقديرُ أَفْصَحُ، لأنه على وَزَانِ قولهِ تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِكِكُمْ فَأَقْلُبُوا أُنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

قوله: (من وَجْهَيْنِ: أحدهما: أنه إذا كانَ تَابِعَهَا وهي دافَعْتُهُ) إلى آخِرِهِ، الانتِصاف: «وَيُمْكِنُ مِثْلُهُ فِي اتِّبَاعِهَا لَهُ، فَإِنَّمَا إِنَّمَا قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ قُبُلٍ؛ بِتَقْدِيرِ أَنْ تَكُونَ جَذْبَتُهُ حِينَ صَارَا مُتَقَابِلَيْنِ، بَلْ هَاهُنَا أَظْهَرَ، لِأَنَّ الْمَوْجِبَ لِلْقَدِّ غَالِباً الْجَذْبُ لَا الذَّفْعُ»^(٢).

وقوله: (الثاني: أن يُسْرِعَ خَلْفَهَا لِيَلْحَقَهَا، فَيَتَعَثَّرَ فِي مَقَادِمِ قَمِيصِهِ، فَيُسْقَى)، الانتِصاف: «هذا بَعِيْنُهُ مُحْتَمَلٌ إِذَا كَانَتْ هِيَ التَّابِعَةَ، وَهُوَ فَارٌّ مِنْهَا، وَالْحَقُّ أَنَّ الشَّاهِدَ إِنْ كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ، فَالْآيَةُ فِي مُجَرَّدِ كَلَامِهِ، كَمَا كَانَ كَلَامُ عَيْسَى بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَةِ مَرْيَمَ، فَلَا يَظْهَرُ فِي وَجْهِهِ الْأَمَارَةُ الْمَذْكُورَةَ، وَإِنْ كَانَ الشَّاهِدُ^(٣) بَعْضَ أَهْلِهَا فَإِنَّهُ بَصُرَ بِهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُ،

(١) من قوله: «على طريق أداء الشهادة» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٢) «الانتِصاف» لابن المنير (٢: ٣١٤) بحاشية «الكشاف».

(٣) من قوله: «إن كان صبيًّا» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

وَقُرِي: «مِنْ قُبْلٍ» و«مِنْ دُبْرٍ»؛ بِالضَّمِّ عَلَى مَذْهَبِ الْغَايَاتِ. وَالْمَعْنَى: مِنْ قُبْلٍ الْقَمِيصِ، وَمِنْ دُبْرِهِ. وَأَمَّا التَّنْكِيرُ فَمَعْنَاهُ: مِنْ جِهَةٍ يُقَالُ لَهَا: قُبْلٌ، وَمِنْ جِهَةٍ يُقَالُ لَهَا: دُبْرٌ. وَعَنْ ابْنِ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّهُ قَرَأَ: «مِنْ قُبْلٍ» وَ«مِنْ دُبْرٍ» بِالْفَتْحِ، كَأَنَّهُ جَعَلَهُمَا عَلَمَيْنِ لِلجِهَتَيْنِ، فَمَنَعَهُمَا الصَّرْفَ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ. وَقُرْنَا بِسُكُونِ الْعَيْنِ.

تَشْعُرُ، فَأَغْضَبَهُ اللهُ لِيُؤَسِّفَ بِالشَّهَادَةِ لَهُ، وَكَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُصَدِّقَ يُوْسُفَ وَيُكذِّبَهَا، لَكِنْ أَرَادَ أَنْ لَا يَكُونَ الْفَاضِحَ لَهَا، فَتَعَلَّقَ بِانْقِطَاعِ الْقَمِيصِ وَأَمَرْتَهُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ إِبْعَاداً لِلتُّهْمَةِ، وَلِذَلِكَ قَدَّمَ أَمَارَةَ صِدْقِهَا عَلَى أَمَارَةِ صِدْقِهِ، وَكَذَا فَعَلَ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وَكَذَا فَعَلَ يُوْسُفُ فِي كَوْنِهِ بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ، وَالشَّاهِدُ قَصَدَ الْأَمَارَةَ الْأَخِيرَةَ، وَجَعَلَ الْأُولَى تَوِطُّةً لَهَا. وَأَمَّا إِنْ كَانَ الشَّاهِدُ الْحَكِيمُ فَلَا بُدَّ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ، وَأَقْرَبُهَا أَنْ قَدَّهُ مِنْ دُبْرٍ دَلِيلٌ عَلَى إِدْبَارِهِ عَنْهَا، وَقَدَّهُ مِنْ قُبْلٍ دَلِيلٌ عَلَى إِقْبَالِهِ إِلَيْهَا بِوَجْهِهِ^(١).

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «مِنْ قُبْلٍ» وَ«مِنْ دُبْرٍ»)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: «هِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ يَعْمَرَ وَالْجَارُودِ^(٢)، وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤٤]، يُرِيدُ: مِنْ دُبْرِهِ وَمِنْ قُبْلِهِ، فَلَمَّا حَذَفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ صَارَ الْمُضَافُ غَايَةَ نَفْسِهِ بَعْدَمَا كَانَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ غَايَةَ لَهُ، فَبُنِيَ عَلَى الضَّمِّ^(٣)، لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ قَمِيصَهُ، يَعْنِي: أَنَّ الشَّرْطَ وَإِنْ كَانَ مَاضِيًا، لَكِنْ فِي تَأْوِيلِ الْمُضَارِعِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ إِرْشَادُ الْعَزِيزِ إِلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِكَ: إِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ فَقَدْ أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ؛ فِي الْإِخْبَارِ وَالْإِعْلَامِ، وَهَذَا تَقْوِيلُهُ لِمَنْ يَمُنُّ عَلَيْكَ بِإِحْسَانِهِ.

قَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ: «وَإِنَّمَا صَحَّ ذَلِكَ لِأَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ لَا يَكُونُ إِلَّا جُمْلَةً، وَقَدْ يَكُونُ

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣١٤ - ٣١٥) بحاشية «الكشاف».

(٢) الجارود: هو ابن أبي سبرة - كما صرح باسمه ابن جني نفسه في «المحتسب».

(٣) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٣٨).

فإن قلت: كيف جاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين «كان»؟ قلت: لأن المعنى: إن يُعْلَمَ أنه كان قميصه قُدًّا، ونحوه قولك: إن أحسنت إلي فقد أحسنت إليك من قبل، لمن يَمْتَنُّ عليك بإحسانه، تُريد: إن تَمَتَّنَ عَلَيَّ أمتنُّ عليك.

﴿فَلَمَّارًا﴾ يعني: قَطْفِير، وَعَلِمَ براءة يوسفَ وَصِدْقَهُ وَكَذِبَهَا، ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ إن قولك: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، أو: إن الأمرَ وهو طمُعُهَا فِي يوسف، ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ الخِطَابُ لها ولأُمَّتِهَا؛ وإنما اسْتَعْظَمَ كَيْدَ النساءِ لأنه وإن كان في الرجال، إلا أن النساءَ أَلْطَفُ كَيْدًا وَأَنْفَذُ حَيْلَةً، وَلَهْنٌ فِي ذَلِكَ نَيْقَةٌ وَرِفْقٌ، وَبِذَلِكَ يَغْلِبُنَ الرِّجَالُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، وَالْقَصْرِيَّاتُ مِنْ بَيْنَهُنَّ مَعَهُنَّ مَا لَيْسَ مَعَ غَيْرِهِنَّ مِنَ الْبَوَائِقِ.

معنى الشرط فيه الإعلام^(١) بها هو المشروط، ذكره في «الأمالي».

وقال أيضاً: «﴿كَانَ﴾ هاهنا بمعنى: ثَبِتَ، كأنه قيل: إن ثبت أن قميصه، وثبوت الشيء لا يلزم منه أن يكون قبل^(٢) ذلك ثابتاً، والمعنى: إن ثبت هذا في المُسْتَقْبَلِ فَهِيَ صَادِقَةٌ»^(٣).

قوله: (نَيْقَةٌ)، نَيْقَةٌ: فِعْلَةٌ؛ مِنْ: تَنَوَّقَ فِي الْأَمْرِ؛ إِذَا مَهَرَ فِيهِ وَحَذَقَ.

قوله: (وَالْقَصْرِيَّاتُ مِنْ بَيْنَهُنَّ)، أي: اللاتي نشأن في القصور، أي: الحَصْرِيَّاتُ دُونَ

الْبَدَوِيَّاتِ.

قوله: (مِنَ الْبَوَائِقِ)، وهي جمع بائقة؛ الداهية، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^(٤)، أي: ظَلَمَهُ وَعُشِمَهُ.

(١) من قوله: «وهذا تقوله لمن يمتنُّ عليك» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) من قوله: «إن ثبت أن قميصه» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف)، وأثبتته من (ط).

(٣) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١٠٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٧٢) و(٧٨٧٨) و(٨٤٣٢) و(٨٨٥٥) من حديث أبي هريرة، (١٢٥٦١) =

وعن بعض العلماء: أنا أخافُ من النساءِ أكثرَ مما أخافُ من الشيطان، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

﴿يُوسُفُ﴾ حُذِفَ منه حرفُ النداء، لأنه مُنادى قريبٌ مُفَاطِنٌ للحديث، وفيه تقريبٌ له وتلطيفٌ لمحلِّه، ﴿أَعْرِضْ عَن هَذَا﴾ الأمرِ واكتمهُ ولا تُحدِّث به، ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ أنتِ ﴿لِذُنُوبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب.

قوله: (لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾)، الانتصاف: «وفيه نظر؛ لأنَّ الذي في هذه الآية من كلام العزيز، فيمكنُ أن تكونَ حكايته تصحيحاً لكلامه لا تحقيقاً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ مُقَابَلٌ بكَيْدِ الله، فَحَقُّهُ أن يكونَ ضعيفاً، ولأنَّ كَيْدَ^(١) الشيطانِ أصلٌ لِكَيْدِ النساءِ، فلا يكونُ كَيْدُهُنَّ أعظم»^(٢).

قوله: (لأنَّه مُنادى قريبٌ مُفَاطِنٌ للحديث)، يعني: يُجاءُ بحرفِ «يا» الندائية لأمرين: إما أنَّ المُنادى بعيد، فيطلبُ إقباله به، وإما أنه قريبٌ ساوٍ بليدٌ فينبه به، ويوسفُ عليه السَّلامُ لم يكنْ بهذه المثابة.

قوله: (وفيه تقريبٌ له وتلطيفٌ لمحلِّه)، نُشِرُ للمعنيين، يعني: في حذِفِ حرفِ النداءِ تقريبٌ له، أي: تنزيهٌ عن بُعدِه، ورفعةٌ لمكانِه، لأنه مُفَاطِنٌ ذكي، وليسَ بساوٍ.

= و(١٣٠٤٨) من حديث أنس بن مالك، و(٢٧١٦٢) من حديث أبي شريح الخزاعي الكعبي، رضي الله عنهم.

(١) من قوله: «العزيز فيمكن» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣١٥) بحاشية «الكشاف».

يُقَالُ: خَطِيءٌ؛ إِذَا أَذْنَبَ مُتَعَمِّدًا، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ تَغْلِيْبًا لِلذَّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ، وَمَا كَانَ الْعَزِيزُ إِلَّا رَجُلًا حَلِيمًا. وَرُوي أَنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الْغَيْرَةِ.

[﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ. قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَمَتَّ كُلَّ وَجَدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ٣٠-٣٢]

قوله: (يُقَالُ: خَطِيءٌ؛ إِذَا أَذْنَبَ مُتَعَمِّدًا)، الراغب: «الخطأ: العُدُولُ عن الجهة، وذلك أَضْرَبُ:

أحدها: أن تُريدَ غيرَ ما تُحسِنُ إرادته، فتفعله، هذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، ويُقالُ فيه: خَطِيءٌ يَخْطَأُ خِطَاءً وَخِطَاءً، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَلْبَهُمْ كَانَ خِطْأًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].

وثانيها: أن يُريدَ ما يُحسِنُ فعله، ولكن يقعُ خلافه، فيقال: أَخْطَأَ خِطَاءً فَهُوَ مُخْطِئٌ، وهذا قد أَصَابَ في الإرادة وأَخْطَأَ في الفعل، ومنه الحديث: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان»^(١)، وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْأًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وثالثها: أن يُريدَ ما لا يُحسِنُ فعله، ويتفقُ خلافه، فهذا مُخْطِئٌ في الإرادة مُصِيبٌ في الفعل، فهو مذموم [بِقَصْدِهِ] غيرُ محمودٍ بفعله، وهو المرادُ بقولِ الشاعر:

أرَدتُ مَسَاعِي فَاجْتَرَزتُ مَسَرَّتِي وقد يُحسِنُ الإنسانُ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي^(٢)

(١) أخرجه ابنُ ماجه (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البيهقي لأسماء بن خارجة، كما في «الأغاني» (٢٠: ٣٧٩)، لكن لفظه فيه: «أرَدتُ صِراري فاعتمدتُ مَسَرَّتِي».

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ وقال جماعة من النساء، وكُنَّ خمساً: امرأة السّاقبي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدّواب، وامرأة صاحب السّجن، وامرأة الحاجب. والنسوة: اسمٌ مُفردٌ لجمع المرأة، وتأتيه غير حقيقيّ كتأنيث اللّمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث. وفيه لغتان: كسر النون وضمها، ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ في مصر، ﴿أَمْرَاتُ الْعَرَبِ﴾ يُرْدَنَ قَطْفِير، والعزير: الملك بلسان العرب، ﴿فَنَهَا﴾ غلامها.

وجملة الأمر أن من أراد شيئاً وافق منه غيره يُقال له: أخطأ، وإن وقع منه كما أراد يُقال: أصاب، ويُقال لمن فعل فعلاً لا يحسن، أو أراد إرادة لا تجمل: أخطأ، ولهذا يُقال: أصاب الخطأ وأخطأ الصّواب وأصاب الصّواب وأخطأ الخطأ^(١)، هذه اللفظة^(٢) مُشتركة كما ترى، مُترددة بين معانٍ يجب لمن يتحرى الحقائق أن يتأملها^(٣)»^(٤).

قوله: (كتأنيث اللّمة)، وهي اسمٌ لجماعة النساء، النهاية: «وفي الحديث: «أن فاطمة خَرَجَتْ في لَمَةٍ من نساها»^(٥)، أي: في جماعة، قيل: هي ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: اللّمة: المثل في السنّ والتّرب. الجوهري: «الهَاءُ عَوْضٌ»^(٦) من الهمزة الذاهية من وسطه، وأصلها: فُعلةٌ؛ من الملاءمة، وهي الموافقة».

(١) في (ج): «ولهذا يقال: أصاب الصّواب وأخطأ الخطأ»، والمثبت من (ط) وهو الموافق لما في «المفردات» (خطأ).

(٢) من قوله: «منه كما أراد» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) في الأصول الخطية: «يجب أن يتحرى الحقائق وأن تتأملها»، والمثبت من «المفردات» للراغب، مادة (خطأ).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٢٨٧.

(٥) ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣: ٢٨١) بلفظ: «في ثلاثة من نساها»، وانظر: «تنزيه الشريعة

المرفوعة» لابن عَرّاق (٢: ٣٧٦).

(٦) ذكره الجوهري في «الصّحاح»، مادة (لمى)، واقتصر على قوله: «الهَاءُ عَوْضٌ»، أما بقية الشرح فهو

من قول الزّحخشري في «الفائق»، مادة (لم). أفادة المُحقّقان الفاضلان لكتاب «النهاية» لابن الأثير.

يُقال: فتاي: وفتاي؛ أي: غلامي وجاريتي، ﴿شَغَفَهَا﴾ خَرَقَ حُبَّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْفُؤَادِ، وَالشَّغَافُ: حِجَابُ الْقَلْبِ، وَقِيلَ: جِلْدَةٌ رَقِيْقَةٌ يُقَالُ لَهَا لِسَانُ الْقَلْبِ. قال النابغة:

وقد حال همُّ دونَ ذلكَ والِجِّ مكانَ الشَّغافِ تَبَتَّغِيهِ الأصابعُ

وَقُرِي: «شَعَفَهَا» بالعين، من: شَعَفَ البعيرَ؛ إذا هَنَأَهُ فأحرقَه بالقَطِرانِ، قال:

كما شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطالِي

و﴿حُبًّا﴾ نَصَبٌ عَلَى التَّمييزِ، ﴿فِي ضَلَكِلِ مَبِينٍ﴾ فِي خَطَأٍ وَبُعْدٍ عَنِ طَرِيقِ الصَّوَابِ.

﴿بِمَكْرَهِنَّ﴾ باغْتِيابِهِنَّ وَسُوءِ قَالَتِهِنَّ، وَقَوْلُهُنَّ: امْرَأَةُ العَزِيزِ عَشِيقَتٌ عِبْدَهَا الكِنَعَانِيَّ وَمَقْتَنَهَا،

قوله: (وقد حال همُّ دونَ ذلكَ) البيت^(١)، يقول: قد حالَ همُّ دونَ ذلكَ الأمرِ داخلَ بينَ القلبِ والفؤادِ، بحيثُ تَبَتَّغِيهِ الأصابعُ، فلا تَجِدُهُ من شِدَّةِ الكُمونِ فيه، وقيل: تبتغيه؛ أي: تَلْتَمِسُهُ أصابعُ الأطبَّاءِ، يَنْظُرُونَ أَنْزَلَ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ أم لا؟

قوله: (كما شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطالِي)، أولُه لامرئِ القيسِ^(٢):

أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فُؤَادَهَا

قال ابنُ جني: «معناه: وَصَلَ حُبُّهُ إِلَى قَلْبِهَا، وكادَ يَحْرِقُهُ بِجِدَّتِهِ، وَأَصْلُهُ مِنَ البعيرِ يَهْنَأُ بالقَطِرانِ، فَتَصِلُ حَرَارَةُ ذَلِكَ إِلَى قَلْبِهِ، قَالَ الأَصْمَعِيُّ: كُلُّ شَيْءٍ يَذْهَبُ بالفُؤَادِ مِنْ خَيْرٍ وَسُرٍّ فَهُوَ شَاغِفٌ»، وَأَنْشَدَ البَيْتَ.

قوله: (ومقتنَهَا)، الجوهري: «مَقْتَنَهُ مَقْتَأٌ: أَبْغَضَهُ».

(١) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» ص ٥٣.

(٢) انظر: «ديوان امرئ القيس» ص ١٤٢، وفيه: «أَيَقْتُلُنِي أَنِي شَعَفْتُ فُؤَادَهَا».

وسُمِّيَ الاغْتِيَابُ مَكْرًا لِأَنَّهُ فِي خُفْيَةٍ وَحَالٍ غَيْبِيَّةٍ، كَمَا يُخْفِي الْمَاكِرُ مَكْرَهُ. وَقِيلَ: كَانَتْ اسْتَكْتَمْتُهُنَّ سِرًّا، فَأَفْسَيْتَهُ عَلَيْهَا، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دَعَتْهُنَّ. قِيلَ: دَعَتْ أَرْبَعِينَ امْرَأَةً مِنْهُنَّ الْخَمْسُ الْمَذْكُورَاتُ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ مَا يَتَكَنَّ عَلَيْهِ مِنْ نَارِاقٍ، قَصَدَتْ بِتِلْكَ الْهَيْئَةِ - وَهِيَ قُعُودُهُنَّ مَتَكِّنَاتٍ وَالسَّكَاكِينُ فِي أَيْدِيهِنَّ - أَنْ يَدَهْشْنَ وَيَبْهَتْنَ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ، وَيُسْغَلْنَ عَنِ نَفُوسِهِنَّ، فَتَقَعَ أَيْدِيهِنَّ عَلَى أَيْدِيهِنَّ فَيَقْطَعْنَهَا، لِأَنَّ الْمَتَكِّيَّ إِذَا بَهَتَ لشيءٍ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى يَدِهِ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَقْصِدَ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَكْرِ بِهِ وَبَيْنَ، فَتَضَعُ الْخَنَاجِرَ فِي أَيْدِيهِنَّ لِيَقْطَعْنَ أَيْدِيهِنَّ، فَتُبَكِّتُهُنَّ بِالْحُجَّةِ، وَلِتَهْوَلَ يُوسُفَ مِنْ مَكْرِهَا إِذَا خَرَجَ عَلَى أَرْبَعِينَ نِسْوَةً مُجْتَمَعَاتٍ فِي أَيْدِيهِنَّ الْخَنَاجِرَ، وَتُوهِمَهُ أَنَّهُنَّ يَشِينَنَ عَلَيْهِ.

وقيل: ﴿مُتَكِّكًا﴾ مجلسَ طعام، لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك: نَبِيٌّ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ مُتَكِّنًا، وَأَتَتْهُنَّ السَّكَاكِينُ لِيُعَالِجْنَ بِهَا مَا يَأْكُلْنَ. وقيل: ﴿مُتَكِّكًا﴾ طعامًا، من قولك: اتكأنا عند فلان: طعمنا، على سبيل الكناية؛ لِأَنَّ مَنْ دَعَا تَه لِيَطْعَمَ عِنْدَكَ اتَّخَذَتْ لَهُ تَكَاةً يَتَكَّى عَلَيْهَا. قَالَ جَمِيلٌ:

فَظَلَّلْنَا بِنِعْمَةٍ وَأَتَكَّأْنَا وَشَرَبْنَا السَّحْلَالَ مِنْ قُلَّةِ

وعن مجاهد: ﴿مُتَكِّكًا﴾ طعاماً يُحْزُ حَزًّا، كَانَ الْمَعْنَى يُعْتَمَدُ بِالسَّكِينِ؛ لِأَنَّ الْقَاطِعَ يَتَكَّى عَلَى الْمَقْطُوعِ بِالسَّكِينِ.

قوله: (فَضَعُ الْخَنَاجِرَ)، الْفَاءُ تَفْصِيلٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي قَوْلِهِ: «أَنَّ تَقْصِدَ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَكْرِ بِهِ - أَي: يُيُوسِفُ - وَبَيْنَ»، أَي: بِالنِّسْوَةِ.

قوله: (فَظَلَّلْنَا) الْبَيْتُ (١)، «وَأَتَكَّأْنَا»: أَي: أَخَذْنَا مُتَكِّكًا نَتَكَّى عَلَيْهِ، وَ«الْقُلَّةُ»: جَمْعُ قُلَّةٍ، وَهِيَ الْجَرَّةُ، وَ«الْحَلَالُ»: النَّبِيدُ.

(١) انظر: «ديوان جميل بثينة» ص ١٠٦.

وَقُرِّئَ: «مُتَّكَأً» بغيرِ همز. وعن الحسن: «مُتَّكَاءً» بالمدِّ، كأنه مُفْتَعَالٌ، وذلك لإشباع فتحة الكاف، كقوله: «بِمُنْتَزَاحٍ» بمعنى: بِمُنْتَزَحٍ. ونحوه: «يَنْبَاعٌ»؛ بمعنى: يَنْبَعُ. وَقُرِّئَ: «مُتَّكَأً» وهو الأترُجُّ، وأنشد:

فَأَهْدَتْ مُتَّكَأَ لَبْنِي أَبِيهَا تَخَبُّ بِهَا الْعَثْمَمَةُ الْوِقَاحُ

وكانت أهدت أترجةً على ناقة، وكأتمها الأترجة التي ذكرها أبو داود في «سننه» أنها شقت بنصفين، ومُحْمَلًا كالعذلين على جمل.

قوله: (بِمُنْتَزَاحٍ)، قال:

وَأَنْتَ مِنَ الْعَوَائِلِ حِينَ تَرْمِي وَمَنْ ذَمَّ الرِّجَالَ بِمُنْتَزَاحٍ^(١)

قوله: (ونحوه: «ينباع»)، أي: في شعرِ عترة، قال:

يَنْبَاعٌ مِنْ ذِفْرِي عَضُوبٍ جَسْرَةٍ زِيَاةٌ مِثْلَ الْفَنَيْقِ الْمُكْدَمِ^(٢)

أي: يَنْبَعُ الْعَرَقُ خَلْفَ نَاقَةِ عَضُوبٍ، و«الجسرة»: القويّة، و«الزيافة»: المتبخّرة، و«الفنيق»: الفحل، و«المكدم»^(٣)؛ مِنْ الْكَدَمِ، وهو العَضُّ.

قوله: (فأهدت متكة لبني أبيها): أي: إخوتها، والعثممة: الناقة الصلبة، والوقاح: شديد الحافر.

(١) البيت لابن هزّمة يرثي ابنه، كما في «الخصائص» لابن جني (٢: ٣١٦) و(٣: ١٢١)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (نرح).

(٢) «ديوان عترة» ص ١٢٢.

والذفرى: الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن، وقوله: «عضوب جسرة»: وُصِفَ لمحدوف، أي: ناقة عضوب جسرة.

(٣) من قوله: «أي: ينبع العرق» إلى هنا، سقط من (ف).

وقيل: الزماورد. وعن وهب: أترجأ وموزاً وبطيخاً. وقيل: أعتدت لهن ما يقطع، من: منك الشيء؛ بمعنى: بتكته؛ إذا قطعه. وقرأ الأعرج: «متكاً»؛ مفعلاً، من: تكىء يتكأ: إذا اتكأ.

﴿رَأَيْتُهُ أَكْبَرَنَّهُ﴾ أعظمته وهبنا ذلك الحسنة الرائع، والجمال الفائق. قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسنة كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء. وعن النبي ﷺ: «مررت بيوسف ليلة التي عرج بي إلى السماء، فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال يوسف، فقيل: يا رسول الله، كيف رأيت؟ قال: «كالقمر ليلة البدر».

وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالو وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس من الماء عليها. وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف. وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه. وقيل: ورث الجمال من جدته سارة.

وقيل: «أكبرن» بمعنى: حزن، والهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة: إذا حاضت، وحققتها: دخلت في الكبر، لأنها بالحض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر، وكان أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

قوله: (الزماورد)، الزماورد: بفتح الزاي، ذكره الأزهرى، وهو الرقاق الملفوف باللحم وغيره، كأنه يتكسى عليه السكين، كذا وجدته في الحواشي^(١).

قوله: (كما يرى نور الشمس من الماء عليها)، أي: يرى انعكاس ضوء الشمس من الماء على الجدران.

قوله: (والهواء للسكت)، قيل: تحريك هاء السكت لحن، فكأنه أجري الوقف مجرى الوصل، فيه جواب عن قول الزجاج: «ويقال: ﴿أكبرن﴾: حزن، وقد رويت عن مجاهد،

(١) أي: في حواشي النسخة التي بين يدي المؤلف رحمه الله تعالى من «الكشاف».

خَفِ اللهُ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بَبْرُقِعِ فَإِنْ لَحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ
﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جَرَحْنَهَا، كما تقول: كُنْتُ أَقْطَعُ اللَّحْمَ فَقَطَعْتُ يَدِي، تُرِيدُ:
جَرَحْتُهَا.

﴿حِضْنَ﴾ كَلِمَةٌ تُفِيدُ مَعْنَى التَّنْزِيهِ فِي بَابِ الْاسْتِثْنَاءِ، تَقُولُ: أَسَاءَ الْقَوْمُ حَاشَا زَيْدًا. قَالَ:
حَاشَا أَبِي ثُوْبَانَ إِنْ بِهِ ضِنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالسُّتْمِ

وليس ذلك بمعروف في اللغة، وأنشدوا بيتاً فيه:

يَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا يَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِكْبَارًا

والهاء في ﴿أَكْبَرْنَ﴾ تنفي هذا، لأنه لا يجوز: «النِّسَاءُ حِضْنُهُ يَا هَذَا»، لأنَّ «حِضْنَ» لَا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ^(١).

ولهذا جَعَلَ الْمُصَنِّفُ الْهَاءَ لِلسَّكْتِ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْهَاءَ ضَمِيرٌ مُصَدَّرٌ، كَأَنَّهُ
قِيلَ: أَكْبَرْنَ إِكْبَارًا، كَمَا فِي قَوْلِهِمْ: «عَبْدُ اللَّهِ أَظَنَّهُ مُنْطَلِقٌ».

قوله: (خَفِيَ اللهُ) البيت^(٢)، وفيه: «ذَابَتْ» بَدَلُ «حَاضَتْ»، قَالَ الْوَاحِدِيُّ: «يَقُولُ:
اسْتُرْ جَمَالَكَ بَبْرُقِعِ تُرْسِلُهُ عَلَى وَجْهِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ ظَهَرَتْ ذَابَتْ الشَّوَابُ فِي خُدُورِهِنَّ عِشْقًا
لَكَ. وَيُرْوَى: «حَاضَتْ»، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا اغْتَلَمَتْ حَاضَتْ»^(٣).

قوله: (حَاشَا أَبِي ثُوْبَانَ) البيت، قيل: كُلُّ مِصْرَاعٍ مِنْ بَيْتٍ، وَتَرْتِيبُ الْبَيْتَيْنِ هَكَذَا:

حَاشَا أَبِي ثُوْبَانَ إِنْ أَبَا ثُوْبَانَ لَيْسَ بِبِكَمِيَّةٍ فَذَمُّ
عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِنْ بِهِ ضِنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالسُّتْمِ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٠٦-١٠٧).

(٢) «ديوان المتنبي» (١: ٢٠٦) بشرح الواحدي.

(٣) «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (١: ٢٠٦).

وهي حرفٌ من حروف الجرِّ، فَوُضِعَت موضعَ التَّنْزِيهِ والبراءة، فمعنى «حاشا لله»: براءةُ الله وتزْيِهُ الله، وهي قراءةُ ابنِ مسعود، على إضافة «حاشا» إلى «الله» إضافة البراءة.

وَمَنْ قرأ: «حاشا لله»، فَتَحَوْ قَوْلَكَ: سُقِيَا لَكَ؛ كَأَنَّهُ قال: براءة، ثم قال: لله، لِبَيَانٍ مِّنْ يُبْرَأُ وَيُنزَّهُ،

والبيت - كما في الكتاب - : رواه ابنُ جني في «المحتسب»^(١).

«ضِنًا»: بكسر الضاد، أي: يَضِنُّ بنفسه عن المَلْحَاة، وهي المَفْعَلَةُ؛ مِنْ: لَحَيْتُ الرجل: إذا لُئِمْتَهُ، واللَّحَاءُ - مكسوراً ممدوداً - : اللَّعْنُ والعَذْلُ، وهو مُشْتَقٌّ مِنْ: لَحَوْتُ العصا: إذا قَسَرْتَهَا^(٢)، يقول: أذْمَهُم وألومُهُم إلا أبا ثوبان، فإني أضِنُّ أن أُلْحَاهُ، أي: أشتمه.

قوله: (وهي حرفٌ من حروف الجرِّ)، قيل: إضافة «حاشا» إلى الله لا يَسْتَقِيمُ على تقدير كون «حاشا» حرفَ جَرٍّ، لأنَّ حرفَ الجرِّ لا يُضَافُ، وإذا كان حرفَ جَرٍّ لا يُبْتَدَأُ به الكلام، وكذا إذا كان حرفَ استِثْنَاءٍ، كقولك: أساءَ القومُ حاشا زيد، وأما قولُ الشاعر: «حاشا أبي ثوبان»، فِيمَكِينُ أن يكونَ قد تَقَدَّمَ ما يكونُ هذا مُسْتَنَى منه؛ إذ المعنى: أذْمَهُم وألومُهُم إلا أبا ثوبان.

والجواب: أن قوله: «فَوُضِعَت مَوْضِعَ التَّنْزِيهِ والبراءة» يَدْفَعُ هذا الزَّعْمَ، وسيجيءُ عن الزَّجَاجِ وأبي عليٍّ أنها ليست بحرف.

قوله: (قال: براءة، ثم قال: لله، لِبَيَانٍ مِّنْ يُبْرَأُ وَيُنزَّهُ)، قال ابنُ الحاجب: «إنه اسمٌ من أسماء الأفعال، بمعنى: برئَ اللهُ مِنَ السُّوءِ، ولَعَلَّ دخولَ اللامِ كدُخُولِهَا فِي «هَيْبَاتٍ هَيْبَاتٍ لِمَا تَوَعَّدُونَ» [المؤمنون: ٣٦]»^(٣).

(١) انظر: «المحتسب» لابن جني (١: ٣٤١)، وهكذا ذكره ابنُ جني أيضاً في «اللمع» ص ٧٠، والزنجشري في «المفصل» ص ٢٩٠.

(٢) في الأصول الخطية: «قشرته».

(٣) «الإيضاح في شرح المفصل» لابن الحاجب (٢: ١٥٩).

والدليل على تنزيل «حاشا» منزلة المصدر: قراءة أبي السَّمال: «حاشاً لله» بالتَّنوين، وقراءة أبي عمرو: «حاش لله» بحذف الألف الأخيرة،

ووجه قراءة من قرأ بالإضافة أن يكون مصدراً مضافاً، ومن قرأ «حاشاً» بالتَّنوين، وهو إما أن يكون مصدراً أيضاً أو اسم فعل، والتَّنوين كما في «صه»، ومن قرأ «حاشا لله» وقلَّب التَّنوين ألفاً أجرى الوصل مجرى الوقف، أو يكون اسم فعل موضوع هكذا بغير تنوين.

قوله: (وقراءة أبي عمرو: «حاش لله» بحذف الألف الأخيرة)، قال صاحب «التهسير»: «قال أبو عمرو: «حاش لله» في الحرفين^(١) بألف في الوصل، فإذا حذفتها اتباعاً للخط، ورؤي ذلك عن اليزيدي^(٢)، والباقون: بغير ألف في الحالين»^(٣).

قال الزَّجاج: «حاشا لله» و«حاش لله» يُقرآن بحذف الألف وإثباتها، ومعناه الاستثناء، المعنى - فيما فسَّره أهل التفسير - : «قلن: معاذ الله ما هذا بشراً»، وأما على مذهب المحققين من أهل اللغة، فهي^(٤) مُشتقة من قولك: كنتُ في حشا فلان، أي: في ناحيته، والمعنى: براءة من الله؛ من التنحي، والمعنى: قد نَحَى اللهُ هذا من هذا، إذا قلت: حاشا لزيد، معناه: قد تنحى زيد من هذا وتباعده منه»^(٥).

وقال أبو علي: «لا يخلو حَشَّ لله» أن يكون الحرف الجارِّ في الاستثناء، ومثل قول الشاعر:

(١) أي: في الموضعين من سورة يوسف، وهما في الآيتين: ٣١ و٥١.

(٢) هو شيخُ القراء، أبو مُحَمَّد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدويُّ البصريُّ ثم البغداديُّ النحوي، وعُرف باليزيدي لا اتصاله بالأمير يزيد بن منصور خال المهدي، وكان يُؤدِّب ولده. تقدمت ترجمته.

(٣) «التهسير في القراءات السبع» لأبي عمرو الداني ص ١٢٨-١٢٩.

(٤) في الأصول الخطية: «وهي»، وفي «معاني القرآن» للزجاج: «فحاشا» مُشتقة، ولذا أثبتتها «فهي».

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٠٧).

حاشا أبي ثوبان

أو يكون «فاعل»؛ من قوله: حاشا يُحاشي.

لا يجوزُ الأول؛ لأنَّ الجارَّ لا يدخُلُ على مثله، ولأنَّ الحرفَ لا يُحذفُ إذا لم يكن فيه تضعيف، فتعيَّن الثاني، فـ«حاشا»: فاعلٌ؛ من «الحشأ» الذي يُعنى به: الناحية، أي: صارَ في حشأ - أي: ناحية - مما قُرِفَ به، أي: لم يقترِفُه ولم يلبسُه، وصارَ في عَزلةٍ عنه وناحية. وإذا كانَ فِعلاً فلا بُدَّ من فاعِل، وفاعلُه يوسف، أي: بعدَ عن هذا الذي رُميَ به لله، أي: لخوفِهِ ومُراقبَةِ أمرِهِ.

وأما حذفُ الألفِ فيه: فلأنَّ الأفعالَ قد حُذِفَ منها، نَحو: لم يَكُ، ولا أذِر، ولم أُبَلِّ (١) (٢).

وقال الجوهري: «حاشا: قد يكونُ فِعلاً وقد يكونُ حَرَفًا، قال سيبويه: «حاشا» لا يكونُ إلا حرفَ جَرٍّ، لأنها لو كانت فِعلاً لَجازَ أن تكونَ صِلَةً لِـ«ما»، كما يجوزُ ذلكَ في «خلا»، فلما امتنعَ أن يُقال: «جاءني القومُ ما حاشا زيداً»، دلَّت على أنها ليست بفِعْل، وقال المُبرِّد: «حاشا» قد تكونُ فِعلاً، واستدلَّ بقولِ النابغة:

ولا أرى فاعِلاً في الناسِ يُشبهُه وما أحاشي من الأَقالِمِ من أحدٍ (٣)

(١) أي: لم أبال، من المبالاة، حذفوا منه الألفَ تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

(٢) «الحجة للقرء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤: ٤٢٢ - ٤٢٣).

(٣) انظر: «ديوان النابغة» ص ١٢، وبعده:

إلا سُلَيْمانَ إذ قالَ الإلهُ له قُم في البريةِ فاحدُذها عن القنَدِ

أي: امتنعها من كُفْرِ النعمة.

وقراءةُ الأعمش: «حَشَى اللهُ» بحذفِ الألفِ الأولى.

وَقُرِي: «حاشِ اللهُ» بسكونِ الشين، على أن الفتحةَ تَبَعَتِ الألفَ في الإسقاط، وهي ضعيفةٌ لِمَا فيها من التِقَاءِ الساكِنينِ على غيرِ حَذِّه.....

فَنَصَّرُفُه يَدُلُّ على أنه فَعْلٌ، ولأنه يُقال: «حاشا لِرَزيد»، فحرفُ الجرِّ لا يجوزُ أن يَدْخُلَ على حرفِ الجرِّ، ولأنَّ الحذفَ يَدْخُلُهَا، كقولهم: حاشِ لِرَزيد، والحذفُ لا يكونُ في الحرفِ»^(١).

وَقُلْتُ: إنَّ المصنَّفَ اختارَ مذهبَ سيبويه، وأتابَ الحرفَ منابَ المصدرِ، كما أنهم أمالوا «بلي» و«يا»، مَعَ أن الحروفَ لا تُمال، لأنها أشبهتِ الجملةَ في الاستقلال، فكأنها من قبيل الأفعال، وَيَنْصُرُهُ قولُ المُفسِّرين: معناه: معاذَ اللهُ، كما نَقَلَهُ الرَّجَاجُ^(٢). وقال المالكِي: والتزَمَ سيبويهَ فَعْلِيَّةَ «عدا»، وحرَفِيَّةَ «حاشا»، فإن وَلِيهَا مجرورٌ باللام لم تَتَّعِنِ فَعْلِيَّتُهَا خِلافًا للمُبرِّد، بل اسميَّتُها لجوازِ تنوينها.

وَقُلْتُ: سبقَ في أولِ البقرةِ بيانُ مجازها.

قوله: (وَقُرِي: «حاشِ اللهُ»)، قال ابنُ جِنِّي: «وهي قراءةُ الحسن - بخلاف -، وفيه ضَعْفٌ من وَجْهين: أحدهما: التِقَاءُ الساكِنينِ الألفِ والشين، وليستِ الشينُ مُدْغَمَةً. والآخر: إسكانُ الشينِ بعدَ حَرَفِ الألفِ، ولا مُوجِبَ لذلك. وطريقُه في الحذف: أنه لِمَا حَذَفَ الألفَ تخفيفاً أتبعَ ذلكَ الفتحةَ؛ إذ كانت كالعَرَضِ اللاحِقِ مَعَ الألفِ، فصارت كالتركيبِ في الرءاء، والتفشي في الشين، والصِّفِيرِ في الصادِ والسِّينِ، والإطباقِ في الصادِ والضادِ والطاءِ والظاءِ، ومتى حَذَفَتْ حرفاً من هذه الحروفِ ذهبَ مَعَهُ ما يَصْحَبُهُ من التكريرِ والصِّفِيرِ والإطباقِ»^(٣).

(١) «الصَّحاح» للجوهري (٧: ١٦٤)، مادة (حشا).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٠٧).

(٣) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣٤١ - ٣٤٢).

وَقَرِيءٌ: «حاشا الإله».

فإن قلت: فلمَ جاز في «حاشا لله» أن لا يُنَوَّنَ بعد إجرائه مجرى «براءة لله»؟ قلت: مُرَاعَاةً لأصله الذي هو الحرفيَّة، ألا تَرَى إلى قولهم: جَلَسْتُ مِنْ عَنِ يَمِينِهِ، كَيْفَ تَرَكَوا «عَنْ» غَيْرَ مُعَرَّبٍ عَلَى أَصْلِهِ؟ و«عَلَى» فِي قَوْلِهِ:
عَدَّتْ مِنْ عَلَيْهِ

قوله: (وَقَرِيءٌ: «حاشا الإله»)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: «وَهِيَ أَيْضاً قِرَاءَةُ الْحَسَنِ، هُوَ كَقَوْلِكَ: حَاشَا الرَّبِّ، وَحَاشَا الْمَعْبُودِ»^(١).

قوله: (جَلَسْتُ مِنْ عَنِ يَمِينِهِ)، أَي: نَاحِيَةِ يَمِينِهِ.

قوله: (عَدَّتْ مِنْ عَلَيْهِ)، [تَمَامُهُ]:

عَدَّتْ مِنْ عَلَيْهِ تَنْفُضُ الطَّلَّ بَعْدَمَا رَأَتْ حَاجِبَ الشَّمْسِ اسْتَوَى فِتْرَفَعًا^(٢)
وَيُرَوَّى:

عَدَّتْ مِنْ عَلَيْهِ بَعْدَمَا تَمَّ ظَمُّوْهَا تَصِلُّ وَعَنْ قَيْضِ بَيْدَاءَ مَجْهَلٍ^(٣)

(١) «المحتسب» لابن جنِّي (١: ٣٤١).

(٢) البيهقي ليزيد بن الطَّيْرِيَّة، كما في «الكامل» للمُبَرِّد (٣: ٧٤).

وهو من شواهد «المُقْتَضِب» للمُبَرِّد (٢: ٣٢٠) و(٣: ٥٣).

(٣) البيهقي لُزَاجِمِ الْعُقَيْلِيِّ، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (صلل) و(علا). وانظر: «الكامل»

للمُبَرِّد (٣: ٧٤)، و«الصَّحاح» للجوهري، مادة (علا)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي، مادة

(علو). وهو من شواهد «شرح ابن عقيل» (٢: ٢٨).

ولفظه في هذه المصادر: «بزيزاء مجَّهَل»، وكلاهما صحيح، فقد صرَّح الجواليقي في «شرح أدب

الكتاب» ص ٣٥٠ أنها روايتان، قال: قوله: «عَدَّتْ مِنْ عَلَيْهِ»؛ أَي: عَدَّتْ الْقَطَاةُ مِنْ فَوْقِ فَرْخِهَا،

وكانت تحضنه، والظَّمء: ما بَيْنَ الشَّمْرِيَّتَيْنِ، وَيُرَوَّى: «بَعْدَمَا تَمَّ حَمْسُهَا»، والخمسة: سِتْرٌ أَرْبَعِ لِيَالٍ...

وَيُرَوَّى: «بَيْدَاءَ»، والبَيْدَاءُ: الْمَفَاذَةُ الَّتِي لَا أَعْلَامَ بِهَا، وَمَنْ رَوَى: «بَزِيزَاءَ» فَلَا وَجْهَ لِتَرْكِ الصَّرْفِ إِلَّا =

مُنْقَلِبَ الْأَلْفِ إِلَى الْيَاءِ مَعَ الضَّمِيرِ؟

والمعنى: تنزيهُ الله تعالى من صفات العجز، والتَّعَجُّبُ من قُدْرته على خَلْقِ جميلٍ مثله. وأما قوله: ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] فَالتَّعَجُّبُ من قُدْرته على خَلْقِ عَظِيمٍ مثله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ نَفَيْنَ عنه البَشَرِيَّةَ لغرابته وجماله ومُباعِدةِ حُسْنِهِ لِمَا عليه محاسنُ الصُّور، وأُثْبِتَنَ له المَلَكِيَّةَ وَبَتَّنَ بها الحُكْمَ، وذلك لأنَّ الله عزَّ وجلَّ رَكَّزَ في الطَّبَاعِ أن لا أَحْسَنَ من المَلِكِ، كما رَكَّزَ فيها أن لا أَقْبَحَ من الشَّيْطَانِ، ولذلك يُشَبَّهُ كُلُّ مُتَنَاهٍ في الحُسْنِ والقُبْحِ بهما، وما رَكَّزَ ذلك فيها إِلَّا لأنَّ الحَقِيقَةَ كذلك، كما رَكَّزَ في الطَّبَاعِ أن لا أَدخَلَ في الشَّرِّ من الشَّيْطَانِ، ولا أَجْمَعَ للخير من الملائكة، إلا ما عليه الفِئَةُ الخاسِئَةُ المُجْبِرَةُ من تَفْضِيلِ الإنسانِ على المَلِكِ، وما هو إِلَّا من تَعَكُّيسِهِم للحَقائِقِ، وَجُحُودِهِم للعلومِ الضَّروريةِ، ومُكابِرَتِهِم في كُلِّ بابٍ ...

يَصِفُ قَطَاةً، وَاسْتَعَارَ الظَّمْمَ لها، وهو للإبلِ خاصَّةً، «تَصَلَّ»: أي: يُصَوِّتُ جَوْفُهَا مِنْ شِدَّةِ العَطَشِ، و«عَنْ قَيْضٍ»: أي: وَمِنْ عَنِ قَيْضٍ، وهو القِشْرُ الأَعْلَى مِنَ البَيْضِ.

قوله: (مُنْقَلِبَ الْأَلْفِ)، أي: أَلَا تَرَى إِلَى «عَلَى» - فِي قولِ الشاعِرِ - مُنْقَلِبَ الْأَلْفِ إِلَى الْيَاءِ مَعَ الضَّمِيرِ، وَقَلْبُ الْأَلْفِ يَاءً لا يَكُونُ إِلَّا فِي الحَرْفِ.

قوله: (وَبَتَّنَ بِهَا الحُكْمَ)، يعني: نَفَيْنَ عنه البَشَرِيَّةَ بـ«ما»، ثُمَّ أُثْبِتَنَ له المَلَكِيَّةَ بـ«إلا»، وهما في الحَصْرِ أَصْلٌ، وبهما يُقَطَّعُ الحُكْمُ.

قوله: (إلا ما عليه الفِئَةُ الخاسِئَةُ المُجْبِرَةُ من تَفْضِيلِ الإنسانِ على المَلِكِ)، الانْتِصافُ:

= أن يُجْعَلَ اسمٌ بَعْدَ بَعْدِهَا، ولو رُوي: «بِرِزَاءِ مَجْهَلٍ» مُضَافاً لكانَ جائِزاً، وكانَ تَقديرُهُ: «بِرِزَاءِ أرضِ مَجْهَلٍ»: والرِّزَاءُ: أرضٌ مَجْهَلٍ، والرِّزَاءُ: الأَرْضُ الغَلِيظَةُ الصُّلْبَةُ. و«عَلَى»: فِي البَيِّنِ اسمٌ بِمعْنَى (فوق)، ولذلك جازَ دَخولُ حَرْفِ الجَرِّ عَلَيْهَا.

وإعمال «ما» عمَل «ليس» هي اللغة القُدُمى الحِجَازِيَّةُ وبها وَرَدَ القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]،

«أكثرُ السَّفاهة، وحسبَ أن هذه المسألة من الضروريات، وقنعَ في ذلك بأنه رُكِّزَ في الطَّباع، والمُرَادُ هاهنا طِبَاعُ النِّسَاءِ ومِثْلُهَا إلى الشَّهَوَاتِ وإِثَارُ العَاجِلَةِ»^(١).

الإِنصَاف^(٢): «الآيَةُ دَلَّتْ - إن صَحَّ كَلامُ النُّسُوءِ - على أن المَلِكَ أَجْمَلَ وأَحْسَنُ من البَشَرِ، وليسَ الخِلافُ إلا في أَيِّها أَفْضَلُ، ولا يَلزَمُ من كونه أَجْمَلُ أن يكونَ أَفْضَلُ».

قال الإمام: «الأوَّلُ أن يكونَ هذا التَّشْبِيهُ واقِعاً في نفي دواعي الشَّهْوَةِ والحِرْصِ على طَلَبِ المُشْتَهَى، وإثباتِ ضِدِّ ذلك، وهو غَضُّ البَصَرِ وقَمْعُ النَفْسِ عن المَيْلِ إلى المُحَرَّمَاتِ، بدليل قولِهِنَّ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلامَلِكٌ كَرِيمٌ﴾، سَلَمْنَا لَكِن تَعْظِيمُ حالِ يوسُفَ في الحُسْنِ والجمالِ لا في السَّيِّرة، لأنَّ ظهورَ عُذْرِها في شِدَّةِ عَشِقِها، إنْما يحصلُ بسببِ قَرطِ يوسُفَ في الجمالِ، فلمَ قلْتُم: إنَّ ذلكَ يُوجِبُ المَزِيدَ في الفُضْلِ، بمعنى: كثرةِ الثَّوابِ»^(٣).

قلت: ويؤيِّدُ هذا قولُ المصنِّفِ في: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾: «قُلْنَ ذلكَ رَفْعاً لمنزِلَتِهِ في الحُسْنِ واستِحْقاقِ أن يُحَبَّ ويُفَتَّنَ به، ولذلك أَوْشَرَ ﴿بَشَرًا﴾ على «إنساناً»، لأنَّ البَشَرَ ماخوذٌ من البَشَرَةِ، ومن هنا سُمِّيَتِ البِشَارَةُ بِشارةً، لأنها أخبارٌ تَبْسُطُ بَشَرَةَ الوَجْهِ بسببِ اتِّشَارِ الدَّمِ فيه، ولو قيل: إنساناً لكانَ نَفياً للإنسانِيَّةِ، وكانَ كلاماً في المعنى، ولزِمَ من ذلكَ الفُضْلُ المطلوبِ، فلما نُفِيَتْ عنه البَشَرِيَّةُ عُلِمَ أنَّ المنفِيَّ كمالُ حُسْنِ المنظَرِ والطلعةِ البَهيَّةِ.

قال الراغب: «الإنسانُ أوجِدَ لأنَّ يَعْلَمَ وَيَعْمَلُ بحسبِهِ، فكلُّ إنسانٍ لم يُوجَدِ كاملاً لِمَا خُلِقَ له لم يَسْتَحِقَّ اسمَهُ عليه مُطلقاً، بل قد يُنفَى عنه، كقولهم: ليسَ بإنسانِ، أي: لا يُوجَدُ

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣١٨) بحاشية «الكشاف».

(٢) لِعَلَمِ الدينِ العراقي، تقدَّم التعريفُ به عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢: ٤٣٦).

وَمَنْ قَرَأَ عَلَى سَلِيقَتِهِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قَرَأَ: «بَشْرٌ» بِالرَّفْعِ. وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ. وَقُرِي: «مَا هَذَا بِبَشْرِي» أَي: مَا هُوَ بَعِيدٌ مَمْلُوكٌ لَتِيمٍ ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، تَقُولُ: هَذَا بِبَشْرِي، أَي: حَاصِلٌ بِبَشْرِي، بِمَعْنَى: هَذَا مُشْتَرَى. وَتَقُولُ: هَذَا لَكَ بِبَشْرِي أَمْ بِكَرِي؟ وَالْقِرَاءَةُ هِيَ الْأُولَى لِمُوَافَقَتِهَا الْمَصْحَفَ، وَمُطَابَقَةِ «بَشْرٍ» لـ «مَلَكٍ».

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ﴾ وَلَمْ تُقَلِّ: فَهَذَا، وَهُوَ حَاضِرٌ، رَفَعًا لِمَنْزِلَتِهِ فِي الْحُسْنِ، وَاسْتِحْقَاقٍ أَنْ يُحِبَّ وَيُفْتَنَّ بِهِ، وَرَبًّا بِحَالِهِ، وَاسْتِبْعَادًا لِمَحَلِّهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى الْمَعْنَى بِقَوْلِهِنَّ: عَشِيقَتُ عَبْدَهَا الْكِنَعَانِيَّ، تَقُولُ: هُوَ ذَلِكَ الْعَبْدُ الْكِنَعَانِيُّ الَّذِي صَوَّرْتُنَّ فِي أَنْفُسِكُنَّ، ثُمَّ لُمْتُنِّي فِيهِ. تَعْنِي: أَنْ كُنَّ لَمْ تُصَوِّرْتَهُ بِحَقِّ صُورَتِهِ، وَلَوْ صَوَّرْتَهُ بِمَا عَايَنْتُنَّ لَعَذَرْتُنِّي فِي الْاِفْتِتَانِ بِهِ.

الاستيعصام: بناءً مبالغية يدلُّ على الامتناع البليغ والتَّحْفُظِ الشَّدِيدِ،

فيه المعنى الذي خُلِقَ لِأَجَلِهِ»^(١).

قوله: (سَلِيقَتِهِ)، الجوهري: «السَّلِيقَةُ: الطَّبِيعَةُ، يُقَالُ: فُلَانٌ يَتَكَلَّمُ بِالسَّلِيقَةِ؛ أَي: بِالطَّبِيعِ لَا عَن تَعَلُّمٍ».

قوله: (مَا هَذَا بِبَشْرِي)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «هِيَ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ وَأَبِي الْحُوَيْرِثِ»^(٢)، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: «هَذِهِ الْقِرَاءَةُ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، لِأَنَّ مِثْلَ «بِشْرِي» يُكْتَبُ فِي الْمَصْحَفِ بِالْيَاءِ، وَقَوْلُهُنَّ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مُطَابِقٌ فِي اللَّفْظِ لـ «بِشْرًا»^(٤).

قوله: (وَرَبًّا بِحَالِهِ)، الجوهري: «يُقَالُ: إِنِّي لِأَرْبَأُ بِكَ عَن هَذَا الْأَمْرِ؛ أَي: أَرْفَعُكَ عَنْهُ».

(١) لم أقف عليه في «مفردات القرآن» للراغب، ولا في «درة التنزيل» للخطيب الإسكافي - والمؤلف ينقل عنه وينسبه للراغب -، فلعله في «تفسيره» أو في كتاب آخر له، والله أعلم.

(٢) الحنفي، كما صرح به ابن جني في «المحتسب»، ويُنظر من هو؟

(٣) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٤٢).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٠٧).

كأنه في عِصْمَةٍ وهو يجتهد في الاستِزَادَةِ منها. ونحوه: اسْتَمْسَكَ، واسْتَوْسَعَ الفَتْقُ، واستَجَمَعَ الرَّأْيُ، واستَفْحَلَ الحَطْبُ. وهذا بيانٌ لِمَا كان من يوسفَ عليه السَّلَامُ لا مزيدَ عليه، وبرهانٌ لا شيءٌ أنورُ منه، على أنه بريءٌ مما أضاف إليه أهلُ الحَشْوِ مما فسروا به الهَمَّ والْبُرْهَانَ.

فإن قلت: الضَّميرُ في ﴿ءَأْمُرُهُ﴾ راجعٌ إلى الموصولِ أم إلى يوسفَ؟ قلت: بل إلى الموصولِ. والمعنى: ما أُمِرَ به، فحُذِفَ الجارُّ، كما في قولك: أمرتُك الخيرَ، ويجوز أن تجعلَ «ما» مصدريةً، فيرجعُ إلى يوسفَ، ومعناه: ولئن لم يفعلْ أمرِي إِيَّاهُ؛ أي: مُوجِبَ أمرِي ومُقْتَضَاهُ.

قِرَى: ﴿وَلَيْكُونَا﴾ بالتَّشْدِيدِ والتَّخْفِيفِ، والتَّخْفِيفُ أَوْلَى، لأنَّ التَّنُونُ كُتِبَتْ في المَصْحَفِ أَلْفًا على حُكْمِ الوقْفِ، وذلك لا يكونُ إِلَّا في الخفيفةِ.

قوله: (بل إلى الموصولِ)، أي: لا يرجعُ إلى يوسفَ، بل إلى الموصولِ، لأنه لو عادَ إلى يوسفَ بقيَ الموصولُ بلا عائدٍ، أو يلزمُ حذفُ الجارِّ معَ المجرورِ. وقال نورُ الدينِ الحكيمُ: بل الأولى أن يكونَ راجعاً إلى يوسفَ، والراجعُ إلى الموصولِ حُذِفَ بعدما نُصِبَ بنزعِ خافضِهِ، كما قُرِّرَ في قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، حُذِفَ هناك كما استَكَنَّ هاهنا.

قوله: ﴿وَلَيْكُونَا﴾ بالتَّشْدِيدِ والتَّخْفِيفِ، التَّخْفِيفُ هو المشهورُ، والتَّشْدِيدُ شاذٌّ، قال الزَّجَّاجُ: «القراءةُ الجيدةُ التَّخْفِيفُ، والوقفُ عليها بالألفِ، لأنَّ التَّنُونَ الخفيفةُ تُبدَلُ منها في الوقفِ الألفِ، تقول: اضربنُ زيداً، فإذا وَقَفْتَ قلت: اضربا، وقُرئتُ بالتَّشْدِيدِ وأكْرَهها لِخِلافِ المَصْحَفِ، لأنَّ التَّنُونَ الشديدةُ لا يُبدَلُ منها شيءٌ»^(٢).

(١) انظر ما تقدّم في تفسير الآية ١٠٤ من سورة يونس (٧: ٥٧٩-٥٨٠).

(٢) «معاني القرآن وإعراجه» للزجاج (٣: ١٠٨).

[﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٣٣ -

[٣٤

وَقُرئ: «السِّجْنُ» بالفتح على المصدر. وقال: ﴿يَدْعُونَنِي﴾ على إسنادِ الدَّعوةِ إِلَيْهِنَّ جميعاً، لأنهنَّ تَنصَحُنَّ له وَزَيَّنَّ له مُطَاوَعَتَهَا، وَقُلْنَ له: يَاكَ وَإِقَاءَ نَفْسِكَ فِي السِّجْنِ وَالصَّغَارِ، فَالتَّجَأَ إِلَى رَبِّهِ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿رَبِّ﴾ نَزُولِ السِّجْنِ ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ مِنْ رُكُوبِ المَعْصِيَةِ.

قوله: ﴿يَدْعُونَنِي﴾ على إسنادِ الدَّعوةِ إِلَيْهِنَّ جميعاً، فالنُّونُ: ضميرُ جماعةِ النِّساءِ، وَوَزْنُهُ: «يَفْعَلْنَ»، وَهَذِهِ الصِّيغَةُ يَشْتَرِكُ فِيهَا النِّسَاءُ كَمَا نَحْنُ فِيهِ، وَالرِّجَالُ كَمَا فِي قَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَيَلْقَوهُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، قَالُوا: وَفِي المَذَكَّرِ ضميرُهُم، وَالتُّونُ عَلَمُ الرَّفْعِ، وَالوَاوُ فِي المُوَثِّ لَامُ الفِعْلِ، وَالتُّونُ ضميرُهُنَّ. ذَكَرَ^(١) نَحْوَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قوله: (تَنصَحُنَّ له)، تَنصَحُ: أَي: تَسَبَّهَ بالنُّصْحَاءِ، وَتَكَلَّفَ أَن يَكُونَ ناصِحاً.

قوله: (فالتَّجَأَ إِلَى رَبِّهِ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: رَبِّ نَزُولِ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رُكُوبِ المَعْصِيَةِ)، مِثْلُ هَذَا الاسْتِثْنَاءِ يُشْعِرُ بِاسْتِعْظَامِ المَعْصِيَةِ، وَخَوْفِ الفُضِيحَةِ الَّتِي يُجْتَنَأُ عِنْدَهَا الحِجَامُ، كَمَا قَالَتْ مَرِيمُ: ﴿بَلِّغْتَنِي مِن قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

رَوَى السَّجَاوَنْدِيُّ وَصَاحِبُ «الإيجاز»^(٢): عَلِقَ^(٣) بَعْضُ نِسَاءِ المَدِينَةِ مِنْ صَمِيمِ شَرَفِهَا

(١) أي: الرَّخِشْرِي، فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ المَذْكُورَةِ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ (٣: ٤٣٩).

(٢) انظر: «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (١: ٤٣٤).

(٣) أي: أَحَبُّ.

فإن قلت: نُزول السَّجْنِ مشقَّةٌ على النفس شديدة، وما دَعَوْنَه إليه لَذَّةٌ عظيمة، فكيف كانتِ المَشَقَّةُ أَحَبَّ إليه من اللذَّة؟ قلت: كانت أَحَبَّ إليه وآثَرَ عنده نظراً في حُسْنِ الصَّبْرِ على احتماها لوجهِ الله،

وَحَسَنَاتٍ دَهْرَهَا سُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ^(١)، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَدْخَلٍ، دَخَلَتْ عَلَيْهِ مُسْتَفْتِيَةً، وَقَالَتْ: لَيْسَ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمْرُكَ لِأَصِيحَنِّ وَأَشْهَرَنِّكَ، فَسَكَّتْهَا، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَجَلَّ وَطَنَهُ فِرَاراً مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَرَأَى يَوْسُفَ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا يَوْسُفُ الَّذِي هَمَمْتَ، وَأَنْتَ سُلَيْمَانُ الَّذِي لَمْ تَهَمْ^(٢).

قوله: (كانت أَحَبَّ إليه وآثَرَ عنده نظراً في حُسْنِ الصَّبْرِ)، قال القاضي: «وقيل: إنما ابْتُئِيَ بِالسَّجْنِ لِقَوْلِهِ هَذَا، وَإِنَّمَا كَانَ الْأَوَّلِيُّ بِهِ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، وَلِذَلِكَ رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَنْ كَانَ يَسْأَلُ الصَّبْرَ»^(٣)، رَوَيْنَا عَنْ التِّرْمِذِيِّ^(٤) عَنْ مُعَاذٍ، سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصَّبْرَ، قَالَ: «سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَلَاءَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ»، وَعَنْهُ^(٥) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ».

وقال الإمام: «إنه عليه السَّلَامُ إنما أجاب بهذا قولها: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَةٍ لَيْسَجَنَّ﴾»،

(١) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «بشار»، والصواب «يسار».

وهو سليمان بن يسار المدني، أحد أئمة المدينة وفقهائها، وُلِدَ في خلافة عثمان رضي الله عنه، وتوفي سنة ١٠٧ هـ رحمه الله تعالى.

(٢) رواها ابن أبي خيثمة في «تاريخه» (٤: ١٤٨-١٤٩ و ١٦٣)، وأبو نعيم الأصفهاني في «حلية الأولياء» (٢: ١٩٠-١٩١).

وذكرها الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤: ٤٤٦)، وقال بإثرها: «إسناده منقطع».

(٣) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٨٦).

(٤) في «جامعه» برقم (٣٥٢٧).

(٥) أي: وعن الترمذي، والحديث في «جامعه» برقم (٣٥٧١)، وضعّفه.

وفي قُبْحِ المعصية، وفي عاقبة كُلِّ واحدةٍ منهما، لا نظراً في مُشْتَهَى النَّفْسِ ومَكْرُوهِهَا. ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فَزَعُ مِنْهُ إِلَى الطَّافِ اللهُ وَعِصْمَتِهِ، كعادة الأنبياءِ والصَّالِحِينَ فيما عَزَمَ عَلَيْهِ وَوَطَّنَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ مِنَ الصَّبْرِ، لا أن يَطْلُبَ مِنْهُ الإِجْبَارَ عَلَى التَّعَفُّفِ والإِجْبَاءِ إِلَيْهِ، ﴿أَصَبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلُ إِلَيْهِنَّ.....

وتقديره: إذا كَانَ لا بُدَّ مِنَ الإِجْرَامِ بِأَحَدِ الأَمْرَيْنِ - أعني: الزَّنى أو السَّجْنِ - ، فهذا أَوْلَى، لأنه متى وَجَبَ الإِجْرَامُ أَحَدِ قِسْمَيْنِ؛ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا شَرٌّ، فأخفُّهُمَا أَوْلَى بالتَّحْمُلِ»^(١).

قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فَزَعُ مِنْهُ إِلَى الطَّافِ اللهُ وَعِصْمَتِهِ، التقدير: وإن لم تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ فِي تَجْبِيبِ ذَلِكَ إِلَيَّ وَتَحْسِينِهِ عِنْدِي بِالتَّشْبِيتِ عَلَى العِصْمَةِ، ﴿أَصَبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلُ إِلَى إِبْجَابَتِهِنَّ بِطَبْعِي وَمُقْتَضَى شَهْوَتِي.

قال الإمام: «كَانَ قَدْ حَصَلَ جَمِيعُ الأسبابِ المُرَغَّبَةِ إِلَى إِبْجَابَةِ دواعي الشهوة، من المَالِ والجَاهِ والتَّمَتُّعِ بِالمُنْكَوحِ، وَحَصَلَ فِي الإِعْرَاضِ عَنْهَا جَمِيعُ الأسبابِ المُتَّفِرَّةِ، فَالتَّجَأُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي طَلْبِ تَرْجِيحِ دواعي الحِكْمَةِ عَلَى الشَّهْوَةِ»^(٢)، قال: «وَاحتَجَّ أصحابنا بِهذه الآيَةِ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ لا يَنْصَرِفُ عَنِ المَعْصِيَةِ إِلا إِذَا صَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى، وَإِنْ لَمْ يَصْرِفْهُ فَقَدْ وَقَعَ فِيهَا»^(٣)، ومن هَذَا فَرَّ المُصَنِّفُ، وَقَالَ: «فَزَعُ مِنْهُ إِلَى الطَّافِ اللهُ وَعِصْمَتِهِ، لا أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الإِجْبَارَ عَلَى التَّعَفُّفِ»، وَلا يَخْفَى ضَعْفُهُ.

قوله: ﴿أَصَبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلُ إِلَيْهِنَّ، الرَّاعِبُ: «الصَّبِيُّ: مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ، وَرَجُلٌ مُصَّبٌ: ذُو صَبِيانٍ، وَصَبَا فُلَانٌ صَبُوءاً وَصَبُوءَةً: إِذَا نَزَعَ وَاشْتَاقَ وَفَعَلَ فِعْلَ الصَّبِيانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصَبُ إِلَيْهِنَّ﴾، وَأَصْبَانِي فَصَبَوْتُ»^(٤).

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٤٥١ - ٤٥٢).

(٢) المصدر السابق (١٨: ٤٥٢).

(٣) المصدر السابق (١٨: ٤٥٢).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٤٧٥.

وَالصَّبُوءُ: المَيْلُ إِلَى الهَوَى. ومنها: الصَّبَا؛ لِأَنَّ النَّفُوسَ تَصْبُو إِلَيْهَا لِطَيْبِ نَسِيمِهَا وَرُوحِهَا. وَقُرِي: «أُصِبُّ إِلَيْهِنَّ» مِنَ الصَّبَابَةِ.

﴿مِنَ الْجَهْلَيْنِ﴾ مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، لِأَنَّ مَنْ لَا جَدْوَى لِعَلِمِهِ فَهُوَ وَمَنْ لَا يَعْلَمُ سِوَاءَهُ، أَوْ مِنَ السُّفَهَاءِ، لِأَنَّ الْحَكِيمَ لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الِاسْتِجَابَةَ وَلَمْ يَتَقَدَّمَ الدُّعَاءُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ فِيهِ مَعْنَى طَلَبِ الصَّرْفِ وَالدُّعَاءِ بِاللُّطْفِ. ﴿السَّمِيعُ﴾ لِدُعَوَاتِ الْمُتَلَجِّئِينَ إِلَيْهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَحْوَالِهِمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ.

[﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُتُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٣٥]

﴿بَدَأَ لَهُمْ﴾ فَاعِلُهُ مُضَمَّرٌ، لِدَلَالَةِ مَا يُفَسِّرُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ ﴿لِيَسْجُتُنَّهُ﴾، وَالْمَعْنَى: بِدَاهِمٌ بَدَأَهُ، أَي: ظَهَرَ لَهُمْ رَأْيِي ﴿لِيَسْجُتُنَّهُ﴾، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ لِلْعَزِيزِ وَأَهْلِهِ، ﴿مِنَ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا﴾ وَهِيَ الشُّوَاهِدُ عَلَىٰ بَرَاءَتِهِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا بِاسْتِئْزَالِ الْمَرْأَةِ لِرُوحِهَا، وَقَتْلِهَا مِنْهُ فِي الدُّرُوزَةِ وَالغَارِبِ،

قوله: ﴿آيَاتِنَا﴾ وهي الشواهد على براءته، قال القاضي: «كشهادة الصبي، وقد القميص، وقطع النساء أيديهن، واستعصامه عنهن»^(١).

قوله: (ياستئزال المرأة لزوجها)، وهي كناية عن الحيلة، ولهذا صرح بذكر المرأة والزوج، أي: المكيدة التي تجري بين المرأة وزوجها من استئزاله من رأيه الصائب إلى ما أرادت، وفيه معنى التدرج، كما جاء في المثل الآتي بعده، الأساس: «ومن المجاز: استئزلته من رأيه».

قوله: (وقتلها منه في الدرورة والغارب)، مثل في الخداع، لأن رائص الصغبة إذا أراد رياضتها مسح سنامها ودروتها^(٢).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٨٧).

(٢) قال الميداني في «مجمع الأمثال» (٢: ٦٩): «الذروة: أعلى السنام، وقتل الذروة في البعير: هو أن يجده» =

وكان مطواعة لها، وجملاً ذلولاً، زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات، وعمل برأيها في سجنه، والحق الصغار به كما أوعدته به، وذلك لما آيست من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلل السجُنُ ويُسخَرَه لها. وفي قراءة الحسن: «لَتَسْجُنَنَّه» بالتاء على الخطاب؛ خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه. وفي قراءة ابن مسعود: «عَتَىٰ حِينٍ»، وهي لغة هذيل، وعن عمر رضي الله عنه: أنه سمع رجلاً يقرأ: «عَتَىٰ حِينٍ»، فقال: مَنْ أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ، فَجَعَلَهُ عَرَبِيًّا، وَأَنْزَلَهُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، فَأَقْرَأِ النَّاسَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، وَلَا تُقْرَأُهُمْ بِلُغَةِ هَذِيلٍ، وَالسَّلَامُ».

[﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾]

[٣٦]

قوله: (مطواعة)، المطواعة: بناء مبالغة، والهاء على تأويل النفس، كالهلباجة للأحق.

الأساس: «يُقَالُ: هُوَ مُطِيعٌ وَمَطْوَاغٌ وَمَطْوَاعَةٌ، قَالَ (١):

إِذَا سُدَّتْهُ سُدَّتْ مَطْوَاعَةٌ وَمَهْمَا وَكَلَّتْ إِلَيْهِ كَفَاهُ (٢)».

= صاحبه ويتلطف له بقتل أعلى سنامه ليسكن إليه، فيسلك بالزمام عليه، والذروة والغارب واحد، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: فَتَلَّ فِي ذُرْوَتِهِ؛ أَي خَادَعَهُ حَتَّىٰ أَزَالَهُ عَنْ رَأْيِهِ.

(١) التَّنْحَلُ الهَنْلِي، وَاسْمُهُ مَالِكُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ فِي رِثَاءِ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ، كَمَا فِي «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢): (٥٥٣)، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني (٢٤: ٩٥)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (طوع).

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «كفأكا»، وَالمُتَّبَعُ مِنْ «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ» لِلزَّمخَشَرِيِّ، مَادَةٌ (طُوعٌ)، وَمِنْ مَصَادِرِ الْبَيْتِ.

«مع»: يدلُّ على معنى الصُّحْبَةِ واستِحدائِها، تقول: حَرَجْتُ مَعَ الأميرِ، تُريدُ: مُصاحِباً له، فيجبُ أن يكونَ دُخولُها السَّجْنَ مُصاحِبِينَ له.

﴿فَتَيَّانٌ﴾ عَبْدَانِ لِلْمَلِكِ؛ خَبَّازُهُ وَشَرَابِيئُهُ، رُقِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُمَا يَسْمَانِهِ، فَأَمَرَ بِهِمَا إِلَى السَّجْنَ، فَأُدْخِلَا سَاعَةَ أُدْخِلَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامَ. ﴿إِنِّي أَرِنِّي﴾ يعني: في المنام، وهي حكاية حالٍ ماضية، ﴿أَعَصِرُ خَمْرًا﴾ يعني: عِنْبًا، تسميةٌ للعِنَبِ بما يؤولُ إليه. وقيل: الخمرُ بلغةِ عُمَانَ: اسمٌ للعِنَبِ.

«سُدَّتْهُ»؛ أي: اختَرَتْهُ للسيادة.

قوله: («مع» يدلُّ على معنى الصُّحْبَةِ واستِحدائِها)، فيجبُ أن يكونَ دُخولُها السَّجْنَ مُصاحِبِينَ له، قيل: يَنْتَقِضُ هذا بقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٤٤]، فيقال: لا يَنْتَقِضُ، بل يُجْمَلُ ذلكَ على التخصيصِ للصارِفِ، يدلُّ عليه قولُ المُصنِّفِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصفات: ١٠٢]: «لا يَصِحُّ تَعْلِيْقُهُ بـ ﴿بَلَغَ﴾، لا قِتْضائِهِ بُلُوغِهَا حَدَّ السَّعْيِ مَعًا، ولا بـ ﴿السَّعْيِ﴾، لأنَّ صِلَةَ المَصْدَرِ لا تَتَقَدَّمُ عليه، فيكونُ بيانًا، كأنه لَمَّا قال: فلما بَلَغَ السَّعْيَ، أي: الحدَّ الذي يَقْدِرُ فيه على السَّعْيِ، قيل: مَعَ مَنْ؟ قال: مَعَ أبيه».

ف«مع» هاهنا جارٍ على الحقيقة، حالٌ من فاعلِ «دَخَلَ»، وَقَيْدٌ للفِعْلِ، فيكونُ حَدوُها مَعَ حَدوِثِ الفِعْلِ، ولا صارِفٍ مِنَ الحِمْلِ على الحقيقة، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عليها.

قوله: (رُقِيَ إِلَيْهِ)، الجوهري: «رُقِيَ عليه كلاماً تَرْقِيَةً: إِذَا رَفَعَ».

قوله: (بَلُغَةَ عُمَانَ)، النهاية: «عَمَانٌ - بَفَتْحِ العَيْنِ وَتَشْدِيدِ المِيمِ - : مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ بِالشَّامِ مِنْ أَرْضِ البَلْقَاءِ، فَأَمَّا بِالضَّمِّ وَالتَّخْفِيفِ: فَهُوَ صُفْعٌ^(١) عِنْدَ البَحْرَيْنِ، وَهَذَا ذِكْرٌ فِي الحَدِيثِ».

(١) الصُّفْعُ: الناحيةُ من البلاد. «المصباح المنير» للفيومي، مادة (صقع).

ومن قوله: «كلاماً تَرْقِيَةً» إلى هنا، سقط من (ف).

وفي قراءة ابن مسعود: «أعصر عنباً». ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يُحْسِنُونَ عبارة الرؤيا؛ أي: يُجيدونها، رأياه يُقْصُّ عليه بعض أهل السَّجْنِ رؤياه فيؤوِّها له، فقالا له ذلك. أو: من العلماء، لأنَّهما سَمِعاه يذكُرُ للنَّاس ما عَلِمَا به أنه عالم. أو: من المُحْسِنِينَ إلى أهل السَّجْنِ، فأحسِنَ إلينا بأن تُفَرِّجَ عَنَّا العُمَّةَ بتأويل ما رأينا إن كانت لك يدٌ في تأويل الرؤيا. رُوي: أنه كان إذا مَرِضَ رجلٌ منهم قام عليه، وإذا أضاق أوسَعَ له، وإذا احتاج جَمَعَ له.....

قوله: (من الذين يُحْسِنُونَ عبارة الرؤيا)، قال الزَّجَّاج: «فيه أن أمر الرؤيا صحيح، وأن منها ما يصح، ومن دفعه فليس بمُسلم، لأنه يدفع القرآن والسنة، روي عن النبي ﷺ: أن^(١) «الرؤيا جُزءٌ من أربعين جزءاً من النبوة»^(٢)، وتأويله: أن الأنبياء يُخبرون بها سيكون، والرؤيا تدلُّ على ما سيكون»^(٣).

قوله: (إن كانت لك يدٌ في تأويل الرؤيا)، وإنما قَيَّدَ في هذا الوجه بالشرط، لأنها حيثئذٍ ما رأياه يُقْصُّ عليه أحدُ رؤياه، وهو يؤوِّها، ولا سَمِعاه يذكُرُ للنَّاس ما عَلِمَا به أنه عالم، بل أطلقا قولها^(٤): ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فِرَاسَة، فَنَاسَبَ لذلك التعليل.

قوله: (وإذا أضاق أوسَعَ له)، الأساس: «ومن المَجَاز: وأصابته ضَيْقَة: فَقر، وقد أضاقَ إضاقَة، ورجلٌ مَضِيقٌ».

(١) من قوله: «أمر الرؤيا صحيح» إلى هنا، سقط من (ح) و (ف).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٢٢٧٨) من حديث أبي رزين العقيلي.

وأخرجه البخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت، والبخاري (٦٩٨٣) و (٦٩٩٤) من حديث أنس بن مالك، والبخاري (٦٩٨٨) و (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة، والبخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنهم، بلفظ: «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزَّجَّاج (٣: ١١٠).

(٤) في الأصول الخطية: «قولهم».

وعن قتادة: كان في السجن ناسٌ قد انقطع رجاؤهم وطال حُرثُهم، فجعل يقول: أبشروا، اصبروا توجروا، إن لهذا لأجراً، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك! وما أحسن خلقك! لقد بُورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسفُ ابنُ صفيِّ الله يعقوبَ ابنِ ذبيحِ الله إسحاقَ ابنِ خليلِ الله إبراهيم، فقال له عاملُ السجن: لو استطعتُ خَلَيْتُ سَبِيلَكَ، ولكني أحسنُ جِوارِكَ، فكُن في أيِّ بيوتِ السجنِ شئت. ورؤي: أن الفَتَيْنِ قالا له: إنا لَنُجِبُكَ من حين رأيناكَ، فقال: أنشدكما بالله أن لا تُحْباني، فوالله ما أحبني أحدٌ قطُّ إلا دخل عليَّ من حبه بلاء، لقد أحببني عمّتي، فدخل عليَّ من حُبّها بلاء، ثم أحببني أبي، فدخل عليَّ من حبه بلاء، ثم أحببني زوجةَ صاحبي، فدخل عليَّ من حُبّها بلاءً، فلا تُحْباني، بارك الله فيكما.

وعن الشعبي: أنّهما تحالماً له ليمتحناهُ، فقال الشَّرابيُّ: إني أراني في بستان، فإذا بأصل حَبَلَةٍ عليها ثلاثةُ عناقيدٍ من عنب، فقطفتُها وعصرتُها في كأسِ الملك، وسقيته. وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي ثلاثُ سلالٍ فيها أنواعُ الأطعمة، وإذا سباعُ الطير تنهشُ منها.

فإن قلت: إلام يرجع الضميرُ في قوله: ﴿نَبَشْنَا بِأَوِيلِهِ﴾ ؟

قوله: (إنهما تحالماً له)، النهاية: «تَحَلَّمَ: إذا ادعى الرؤيا كاذباً، ومنه الحديث: (مَنْ تَحَلَّمَ فقد كُفَّ أن يعقد بين شعيرتين)»^(١).

قوله: (بأصل حَبَلَةٍ)، النهاية: «الحَبَلَةُ - بفتح الحاءِ والباءِ، ورُبها سُكَّنت - : الأصل والقَضيبُ من شَجَرِ الأَعْنابِ»، وكذا في «الصَّحاح»، وفي «المُعَرَّبِ»^(٢) بالفتح لا غير.

قوله: (تنهشُ منها)، الأساس: «نَهَشَ اللَّحْمَ وانتَهَشَهُ: أخذَه بمُقَدَّمِ فيه».

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٢) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) «المُعَرَّبِ في ترتيب المُعَرَّبِ» لأبي الفتح المُطَرِّزي (١: ١٧٨).

قلت: إلى ما قصصا عليه، والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه، كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

[﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِزَاهِهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ٣٧-٣٨]

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترص ذلك، فوصل به ووصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه يُنبئهما بما يُحمل إليهما من الطعام من السجج قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان وزينه لهما، ويُبجح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفناه واحد منهم؛ أن يُقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتي فيه، ثم يُفتيه بعد ذلك. وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم،

قوله: (ووصفاه بالإحسان)، أي: بقوله: ﴿إِنَّا نُرزِّقُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: من العلماء، الجوهري: «هو يُحسِنُ الشيء؛ أي: يَعْلَمُهُ»، وذلك أنها سمعا يوسف يذكر للناس ما يُعلم منه أنه عالم، فلما سمع يوسف هذا وصل به قوله: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ﴾ إلى آخره؛ ليُرِيَهُمْ أَنَّ عِلْمَهُ فَوْقَ مَا يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ.

قوله: (وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد)، أي: جعل وصف نفسه بالعلم الفائق وسيلة إلى ذكر التوحيد، وذلك أن الجواب عن فتواهم هو قوله: ﴿يَصْنَعِي

فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِهَا هُوَ بَصَدِّدِهِ، وَعَرَّضَهُ أَنْ يُقْتَبَسَ مِنْهُ وَيُنْتَفَعَ بِهِ فِي الدِّينِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ بَابِ التَّرَكِيَةِ.

﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ بَيَانِ مَا هَيْبَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُشْبَهُ تَفْسِيرَ الْمَشْكَلِ وَالْإِعْرَابِ

عَنْ مَعْنَاهُ.

السَّجِنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا ﴿الآيَةَ، لَكِنْ قَدَّمَ عَلَيْهِ مُقَدِّمَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَبِهَا بُعِثُوا، وَلَهَا أَمْرٌ، فَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ مُخْلِصًا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَصْنَعِي السَّجِنِ مَآزِبَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ﴾، وَالْمُخْلِصُ: هُوَ الرَّابِطَةُ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ الْأَجْنَبِيَّيْنِ، فَتَعَلَّقَهُ بِالْجَوَابِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ وَهَذَا كَالْمُقَدِّمَةِ لَهُ لِيُوطِنَ أَنْفُسَهُمَا لِقَبُولِ مَا يَرِدُ بَعْدَهُ مِنَ الْجَوَابِ وَجَعَلَهُ مُخْلِصًا لِمَطْلُوبِهِ وَإِذْنًا بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالْمَغْيِبَاتِ ^(١) مِنَ الْمَوَاهِبِ الَّتِي اخْتَصَّهَا اللَّهُ بِالْمُرْتَضِينَ مِنَ الرُّسُلِ، وَالْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَجَعَلَتْ ذَرِيعةً إِلَى الشَّرُوعِ فِي إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ، وَنَفَى الشَّرِكَ عَنْ نَفْسِهِ، عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِدْرَاجِ وَإِرْخَاءِ الْعَنَانِ، لِثَلَا يُلَبَّسَ لَهُ جِلْدُ النَّمْرِ ^(٢) إِذَا ابْتَدَأَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَآزِبَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ خَيْرٌ أَمَّ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ﴾.

وَأُدْمِجَ فِي الْمُقَدِّمَةِ الرَّخِصَةُ فِي تَرْكِيَةِ النَّفْسِ عِنْدَ الْاِحْتِيَاجِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَفِيهِ أَنَّ الْعَالِمَ إِذَا جَهِلَتْ مَنْزِلَتُهُ فِي الْعِلْمِ، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِهَا هُوَ بَصَدِّدِهِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ بَابِ التَّرَكِيَةِ». فِي الْجَوَابِ التَّخْلِصُ إِلَى تَوْخِيِ الْمَطْلُوبِ مِنْ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْبُؤَةِ، وَالْاسْتِدْرَاجُ إِلَى إِسْمَاعِ الْحَقِّ، وَالْإِدْمَاجُ لِمَعْنَى التَّرَكِيَةِ.

قَوْلُهُ: ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ بَيَانِ مَا هَيْبَتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ، النَّهَايَةُ: «التَّأْوِيلُ: مِنْ: آلَ الشَّيْءِ يُؤْوَلُ

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «وَهَذَا كَالْمُقَدِّمَةِ لَهُ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف).

(٢) قَالَ الْمِيدَانِيُّ فِي «مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ» (٢: ١٨٠): «لَبَسْتُ لَهُ جِلْدَ النَّمْرِ: يُضْرَبُ فِي إِظْهَارِ الْعِدَاوَةِ وَكَشْفِهَا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي تَشَمَّرَ فِي الْأَمْرِ: لَبَسَ جِلْدَ النَّمْرِ، وَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِيَزِيدَ عِنْدَ وَفَاتِهِ: تَشَمَّرَ كُلَّ التَّشَمَّرِ، وَالْبَسَ لَابِنَ الزُّبَيْرِ جِلْدَ النَّمْرِ».

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة لهما إلى التأويل، أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وأوحى به إليّ، ولم أقله عن تكهنٍ وتنجّم، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لهما قبله؛ أي: عَلَّمَنِي ذلك وأوحى إليّ؛ لأنّي رَفَضْتُ مِلَّةَ أولئك واتبعتُ مِلَّةَ الأنبياء المذكورين، وهي المِلَّة الحنيفيّة، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون: أهل مصرَ ومن كانَ الفتيانَ على دينهم وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، وأنّ غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها، وهم الذين على مِلَّة إبراهيم، ولتوكيد كُفْرِهِم بالجزء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يَرْتَكِبُهَا إِلَّا مَنْ هو كافرٌ بدار الجزاء.

إلى كذا؛ أي: رَجَعَ وصارَ إليه، وتأويل الآية: نُقِلَ ظاهر اللفظ عن وَضْعِهِ الْأَصْلِيِّ إلى ما يحتاجُ إلى دليل، لولاه ما تُرِكَ ظاهر اللفظ.

الأساس: «أَوَّلَ الْحَكَمِ إِلَى أَهْلِهِ: رَدَّهُ إِلَيْهِمْ، وَمِنَ الْمَجَازِ: يُقَالُ: لَا تُعَوِّلْ عَلَى الْحَسَبِ تَعْوِيلًا، فَالْتَقَوَى أَحْسَنُ تَأْوِيلًا؛ أَي: عَاقِبَةٌ.»

والمُرَادُ هَاهُنَا الْمَجَازِ، يَعْنِي: إِذَا أَخْبَرْتُكُمْ بِحَقِيقَةٍ مَا يُحْمَلُ إِلَيْكُمَا مِنَ الطَّعَامِ، ثُمَّ تَجَدَّاهُ كَمَا أَخْبَرْتُكُمْ، فَقَدْ أَبْنَأْتُكُمْ بِعَاقِبَةِ ذَلِكَ، فَهَذَا التَّأْوِيلُ لَيْسَ مِنْ نَقْلِ ظَاهِرِ اللَّفْظِ عَنِ وَضْعِهِ الْأَصْلِيِّ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ، بَلْ يُشْبِهُ بَيَانَ الْمُجْمَلِ وَالْمُشْكَلِ الَّذِي يُحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِهِ وَكَشْفِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبِي السُّجْنِ كَانَا يَعْلَمَانِ عَلَى الْإِجْمَالِ مَا يُحْمَلُ إِلَيْهِمَا مِنَ الطَّعَامِ، لَكِنَّ مَاهِيَّةَ ذَلِكَ الطَّعَامِ وَكَيْفِيَّتَهُ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ، فِإِذَا بَيَّنَّ ذَلِكَ لَهَا فَقَدْ فَسَّرَ الْمُبْهَمَ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لَأَنَّ ذَلِكَ يُشْبِهُ تَفْسِيرَ الْمُشْكَلِ.»

قوله: (ولتوكيد كُفْرِهِم بالجزء)، معطوفٌ على «للدلالة على أنهم» يعني: في تكرير ضميرهم وتقديمه على ﴿كُفِرُونَ﴾ دلالة على الاختصاص والتوكيد، فالتخصيص من التقديم، والتوكيد من التكرير، وقد أشار في تركيبه إلى ذلك بقوله: «إِنَّ غَيْرَهُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ بِهَا»، ثم قوله: «وَهُم الَّذِينَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ»: دَلَّ عَلَى التَّخْصِيسِ وَالتَّوَكِيدِ، وَقَوْلُهُ: «لِلدَّلَالَةِ

ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مُني به من جهتهم حين أو دَعُوهُ السَّجَنَ بعدما رأوا الآياتِ الشاهدة على براءته، وأن ذلك ما لا يُقدِّم عليه إلا من هو شديد الكُفر بالجزاء، وذكر آباءه لئريها أنه من بيت النبوة بعد أن عرفها أنه نبيُّ يوحى إليه، بما ذكر من إخباره بالغيوب؛ ليقوي رغبتها في الاستماع إليه وأتباع قوله.

﴿مَا كَانَتْ لَنَا﴾ ما صحَّ لنا معشر الأنبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ﴾ أي شيء كان من ملكٍ أو جنِّي أو إنسي، فضلاً أن نُشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر، ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ التَّوْحِيدُ ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي: على الرُّسل وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المبعوث إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله، فيشركون ولا يتبهنون.

وقيل: إن ذلك من فضل الله علينا، لأنه نصَّب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلُّ بها، وقد نصَّب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلُّون أتباعاً لأهوائهم، فييقنون كافرين غير شاكرين.

على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، ثم قوله: «ولتوكيد كفرهم بالجزاء»: دلَّ على ما دلَّ ذلك. قوله: (تعريض بما مُني به)، أي: قُدِّر له. النهاية: «يُقال: منى الله عليك خيراً أيمني منياً، ومنه سُمِّيَتِ المَنِيَّةُ، لأنها مُقدَّرةٌ بوقتٍ مخصوص»، يعني: تركت ملة قوم فعلوا بي ما فعلوا بعدما رأوا الآيات، ومن ثمَّ قال: «وإن ذلك ما لا يُقدِّم عليه إلا من هو شديد الكُفر بالجزاء».

قوله: (وقيل: إن ذلك من فضل الله)، أي: عدم صحَّة الإشراف منا معاشر الأنبياء من فضل الله تعالى، لأنه نصَّب الأدلة التي يُنظر فيها ويُستدلُّ بها، فالمشار إلى مضمون الكلام الدالَّ على التوحيد، و«فضل الله» على الأول: سَمِعِي؛ لقوله: «نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه»، وعلى الثاني: عَقَلِي؛ لقوله: «نصَّب لنا الأدلة».

[يَصَدِّحِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَخَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠-٣٩﴾]

﴿يَصَدِّحِي السِّجْنَءَ﴾ يُرِيدُ: يَا صَاحِبِي فِي السِّجْنِ، فَأَضَافَهَا إِلَى السِّجْنِ، كَمَا تَقُولُ: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ، فَكَمَا أَنَّ اللَّيْلَةَ مَسْرُوقٌ فِيهَا غَيْرٌ مَسْرُوقَةٌ، فَكَذَلِكَ السِّجْنُ مَصْحُوبٌ فِيهِ غَيْرٌ مَصْحُوبٌ، وَإِنَّمَا الْمَصْحُوبُ غَيْرُهُ وَهُوَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ لِصَاحِبِيكَ: يَا صَاحِبِي الصَّدَقِ، فَتُضَيِّفُهَا إِلَى الصَّدَقِ،

قوله: (فَكَذَلِكَ السِّجْنُ مَصْحُوبٌ فِيهِ غَيْرٌ مَصْحُوبٌ)، الراغب: «الصاحب: المُلَازِمُ؛ إِنْسَانًا كَانَ أَوْ حَيَوَانًا، مَكَانًا كَانَ أَوْ زَمَانًا، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ مُصَاحِبْتُهُ بِالْبَدَنِ، وَهُوَ الْأَصْلُ وَالْأَكْثَرُ، أَوْ بِالْعِنَايَةِ وَالهِمَّةِ، وَعَلَى هَذَا قَالَ:

لِئِنْ غَبْتِ عَنْ عَيْنِي لَمَّا غَبْتِ عَنْ قَلْبِي^(١)

وَلَا يُقَالُ فِي الْعُرْفِ إِلَّا لِمَنْ كَثُرَ مُلَازِمَتُهُ، وَيُقَالُ لِمَالِكِ الشَّيْءِ: هُوَ صَاحِبُهُ، وَكَذَلِكَ لِمَنْ يَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٧]، وَالْإِصْحَابُ لِلشَّيْءِ: الْإِنْقِيَادُ لَهُ، وَأَصْلُهُ: أَنْ يَصِيرَ لَهُ صَاحِبًا، وَيُقَالُ: وَأَصْحَبَ فُلَانٌ فُلَانًا: جَعَلَهُ صَاحِبًا لَهُ^(٢).

(١) عَجَزِيَّتْ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ، وَصَدْرُهُ - كَمَا فِي «عَيُونِ الْأَخْبَارِ» لِابْنِ قَتَيْبَةَ (٤: ٨٦) -:

أَمَا وَالَّذِي لَوْ شَاءَ لَمْ يَخْلُقِ النَّوَى

وَبَعْدَهُ:

يُوهْمُنِيكَ الشُّوقُ حَتَّى كَانَنِي
أُنَاجِيكَ عَنْ قُرْبٍ وَمَا أَنْتَ فِي قُرْبِي

(٢) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٤٧٥-٤٧٦.

ولا تُريدُ أَنَّهُمَا صَحِبَا الصَّدَقِ، ولكنْ كما تقول: رَجُلًا صِدْقٍ، وَسَمَّيْتَهُمَا صَاحِبَيْنِ؛ لَأَنَّهَا صَحِبَاكَ. ويجوزُ أن يُريدَ: يا سَاكِنِي السَّجَنِ، كقولهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ يُريدُ التَّفَرُّقَ فِي العَدَدِ وَالتَّكَاثُرِ، يَقولُ أَنَّ تَكُونَ لَكُمَا أَرْبَابٌ شَتَى، يَسْتَعْبِدُكُمَا هَذَا وَيَسْتَعْبِدُكُمَا هَذَا ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمَا ﴿أَمْرٌ﴾ أَنْ يَكُونَ لَكُمَا رَبٌّ وَاحِدٌ قَهَّارٌ لَا يُغَالِبُ وَلَا يُشَارِكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، بَلْ هُوَ ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغَالِبُ، وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ وَلِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ.

قوله: (كما تقول: رَجُلًا صِدْقٍ)، يعني: كما دَلَّ الإِضَافَةُ بِمعْنَى اللامِ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَ مالِكُهُمَا مُبَالَغَةٌ، والأصل: رَجُلَانِ صَادِقَانِ، كذَلِكَ إِضَافَةُ «صَاحِبِي» إِلَى «الصَّدَقِ»، والمُرَادُ: صَدَقْتُمَا فِي صُحْبَتِي، أَي: بَدَلْتُمَا مَجْهُودَكُمَا فِي حَقِّي^(١)، وَفَعَلْتُمَا مَا يُوجِبُهُ حَقُّ الصُّحْبَةِ.

الراغب: «الصَّدَقُ»: مُطَابَقَةُ القَوْلِ الضَّمِيرِ وَالمُخْبِرِ عَنْهُ معاً، وَيُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ مَا يَحِقُّ وَيَحْصُلُ فِي العِتْقَادِ؛ نَحْوُ: صَدَقَ ظَنِّي، وَفِي فِعْلِ الجَوَارِحِ؛ نَحْوُ: صَدَقَ فِي القِتَالِ: إِذَا وَفَى حَقَّهُ، وَفَعَلَ مَا يَجِبُ فِي القِتَالِ»^(٢).

قوله: (وهذا مِثْلُ ضَرْبِهِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى)، فِيهِ إِشْكَالٌ؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ نَفْيُ اسْتِواءِ الأَصْنَامِ وَعِبَادَتِهَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِعِبَادَتِهِ، فَأَيُّنَ المَثَلِ؟! لَكِنِ التَّقْدِيرُ: أَسَادَاتُ شَتَى تَسْتَعْبِدُ مَمْلُوكاً وَاحِداً إِلَى عِبَادَتِهَا خَيْرٌ مِنْ سَيِّدٍ وَاحِدٍ قَهَّارٍ، فَوَضَعَ مَوْضِعَ «الرَّبِّ السَّيِّدِ»: ﴿اللَّهُ﴾؛ لِكُونِهِ مُقَابِلاً لِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾، كقولِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا لِرَجُلٍ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مِثْلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

(١) فِي (ف): «صَدَقْتُمَا فِي صُحْبَتِي إِلَى بَدَلِكُمَا مَجْهُودَكُمَا كَمَا فِي حَقِّي»، وَفِيهِ خَلَلٌ ظَاهِرٌ، وَالمُبْتَدَأُ مِنْ (ط) وَ(ح).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٤٧٩.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ خِطَابٌ لَهَا وَلَمَنْ عَلَى دِينِهَا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ﴿ إِلَّا أَسْمَاءَ ﴾ يَعْنِي: أَنْكُمْ سَمَّيْتُمْ مَا لَا يَسْتَحِقُّ الْإِلَهِيَّةَ آلِهَةً، ثُمَّ طَفِقْتُمْ تَعْبُدُونَهَا، فَكَانَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا أَسْمَاءَ فَارِغَةً لَا مُسَمَّيَاتٍ تَحْتَهَا. وَمَعْنَى ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾: سَمَّيْتُمْ بِهَا. يُقَالُ: سَمَّيْتُهُ بَزِيدٍ، وَسَمَّيْتُهُ زَيْدًا، ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أَي: بِتَسْمِيَّتِهَا ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ مِنْ حُجَّةٍ، ﴿ إِنْ الْحُكْمُ ﴾ فِي أَمْرِ الْعِبَادَةِ وَالذِّينِ ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾، ثُمَّ بَيَّنَّ مَا حَكَمَ بِهِ فَقَالَ: ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَنْقَضْتُمْ ﴾ الثَّابِتُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينُ.

[﴿ يَصْخَبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ مَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيَضَلُّ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [٤١].

﴿ أَمَا أَحَدُكُمْ ﴾ يُرِيدُ: الشَّرَائِبَ ﴿ فَيَسْقَى رَبَّهُ ﴾ سَيِّدَهُ. وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ: «فَيُسْقَى رَبَّهُ» أَي: يُسْقَى مَا يُرْوَى بِهِ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لِلأَوَّلِ: مَا رَأَيْتَ مِنَ الْكِرْمَةِ وَحُسْنِهَا هُوَ الْمَلِكُ وَحُسْنُ حَالِكٍ عِنْدَهُ؛ وَأَمَا الْقُضْبَانُ الثَّلَاثَةُ فَإِنَّهَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ تَمْضِي فِي السَّجْنِ، ثُمَّ تَخْرُجُ وَتَعُودُ إِلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ، وَقَالَ لِلثَّانِي: مَا رَأَيْتَ مِنَ السَّلَالِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُقْتَلُ، ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ قُطِعَ وَتَمَّ مَا ﴿ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ فِيهِ مِنْ أَمْرِكُمْ وَشَأْنِكُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا اسْتَفْتِيَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ، بَلْ فِي أَمْرَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ، فَمَا وَجَهُ التَّوْحِيدِ؟
قُلْتَ: الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ: مَا اتَّهَمَا بِهِ مِنْ سَمِّ الْمَلِكِ وَمَا سُجِنَا مِنْ أَجْلِهِ،

قوله: (لَا مُسَمَّيَاتٍ تَحْتَهَا)، صَحَّ بِالْكَسْرِ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا يُنْصَبُ بِهِ، وَعِنْدَ الْأَخْفَشِ: مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ.

قوله: (الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ: مَا اتَّهَمَا بِهِ مِنْ سَمِّ الْمَلِكِ)، إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِّي أَخَصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف: ٣٦] الْآيَةَ، وَتَفْسِيرُهُ لَهُ: «دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ عَبْدَانِ لِلْمَلِكِ، رُقِيَ إِلَيْهِ أَنَّهَا يَسْمَانِهِ، فَأَمَرَ بِهَا إِلَى السَّجْنِ» إِلَى آخِرِهِ، كَأَنَّهَا حِينَ عَرَضَا الْمَنَامِينَ عَلَيْهِ طَلَبَا مِنْهُ تَنْزِيلَهُمَا عَلَى شَأْنِيهِمَا وَقَصَّتَهُمَا مِنَ التُّهْمَةِ، وَإِيقَاعِهِمَا

وظننا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما. أعاقبته نجاه أم هلاك؟ فقال لهما: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أي: ما يجزئ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما ونجاه الآخر. وقيل: جحدا وقالوا: ما رأينا شيئا. على ما روي أنها تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن، صدقتما أو كذبتما.

[وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ
ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضَعِّ سِنِينَ] ﴿٤٢﴾

﴿ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرايئ، ويكون الظن بمعنى اليقين، ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ صِفْنِي عِنْدَ الْمَلِكِ بِصِفْتِي، وَقُصِّ عَلَيْهِ قِصَّتِي،

السَّجْنَ لَهَا، وَهَلْ لَهَا الْخِلَاصُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعَاقِبَةِ، فَالْأَمْرُ وَالشَّأْنُ هُوَ مَجْمُوعُ هَذِهِ الْاِعْتِبَارَاتِ وَرُبْدَتُهَا وَخُلَاصَتُهَا، وَلِذَلِكَ عَادَ فِي بَيَانِهِ بِقَوْلِهِ: «أَي: مَا يَجْزِي إِلَيْهِ مِنَ الْعَاقِبَةِ إِلَى آخِرِهِ».

قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: الْمُرَادُ بِ«الْأَمْرِ»: «التَّأْوِيلُ» فِي قَوْلِهِ: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾، وَعِبَارَةُ الرَّؤْيَا وَاحِدَةٌ، وَإِنْ تَعَدَّدَتْ، وَمَا ذَكَرَ لَا يُوَافِقُ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُمَا تَحَالَمَا لِيَمْتَحِنَاهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَظَنَّا أَنَّ مَا رَأِيَاهُ فِي مَعْنَى مَا نَزَلَ بِهِمَا».

وَقُلْتُ: هُوَ مَا عَنَى بِ«الْأَمْرِ» إِلَّا «التَّأْوِيلُ» الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْعَاقِبَةِ، كَمَا سَبَقَ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي «الْأَسَاسِ»: «لَا تُعْوَلُ عَلَى الْحَسَبِ تَعْوِيلًا، فَالتَّقْوَى أَحْسَنُ تَأْوِيلًا، أَي: عَاقِبَةٌ»، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ فِي الْجَوَابِ الْأَوَّلِ: «أَي: مَا يَجْزِي إِلَيْهِ مِنَ الْعَاقِبَةِ»، وَفِي الثَّانِي: «أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ»، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ هُوَ قَوْلُهُ: «هَلَاكُ أَحَدِهِمَا وَنَجَاةُ الْآخَرِ»، وَهُوَ تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: «مَا يَجْزِي إِلَيْهِ مِنَ الْعَاقِبَةِ».

لَعَلَّهُ يَرْحَمُنِي وَيَتَأْتِنِي مِنْ هَذِهِ الْوَرُطَةِ، ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿فَأَنْسَى الشَّرَابِيَّ﴾ ﴿ذَكَرَ رَبِّهِ﴾ أَنْ يَذْكُرَهُ لِرَبِّهِ. وَقِيلَ: فَأَنْسَى يَوْسُفُ ذِكْرَ اللَّهِ حِينَ وَكَّلَ أَمْرَهُ إِلَى غَيْرِهِ. ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ الْبِضْعُ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ، وَأَكْثَرُ الْأَقْوَابِلِ عَلَى أَنَّهُ لَبِثَ فِيهِ سَبْعَ سِنِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَقْدِرُ الشَّيْطَانُ عَلَى الْإِنْسَانِ؟ قُلْتَ: يُوسُوسُ إِلَى الْعَبْدِ بِمَا يَشْغَلُهُ عَنِ الشَّيْءِ مِنْ أَسْبَابِ النَّسْيَانِ، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ وَيَزُولُ عَنْ قَلْبِهِ ذِكْرُهُ، وَأَمَّا الْإِنْسَاءُ ابْتِدَاءً فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ إِضَافَةِ «الذِّكْرِ» إِلَى «رَبِّهِ» إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَلِكُ؟ وَمَا هِيَ بِإِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْفَاعِلِ وَلَا إِلَى الْمَفْعُولِ؟ قُلْتَ: قَدْ لَابَسَهُ فِي قَوْلِكَ: فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَهُ لِرَبِّهِ، أَوْ عِنْدَ رَبِّهِ، فَجَازَتْ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْإِضَافَةَ تَكُونُ بِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ. أَوْ عَلَى تَقْدِيرٍ: فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ إِخْبَارِ رَبِّهِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ الَّذِي هُوَ الْإِخْبَارُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أَنْكَرَ عَلَى يَوْسُفَ الْإِسْتِعَانَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ فِي كَشْفِ مَا كَانَ فِيهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، وَقَالَ حِكَايَةُ عَنْ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]،

قوله: (يتأتيني من هذه الورطة)، أي: يُخَلِّصُنِي، النهاية: «وفي حديث عائشة تصفُ أباها رضي الله عنها: «فانتأش الدين بنعشيه»^(١)، أي: استدركه»، واستنقذه، وتناوله، وأخذَه من مهواته^(٢).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠: ١٨٤) رقم (٣٠٠) من طريق علي بن أحمد السدوسي، عن أبيه قال: بلغ عائشة أن ناساً ينالون من أبي بكر... فذكرت حديثاً طويلاً.

وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩: ٥٠): «أحمد السدوسي لم يدرك عائشة، ولم يعرفه ولا ابته».

(٢) المهواة: ما بين الجبلين، وقيل: الحفرة. «المصباح المنير» للفيومي، مادة (هوى).

وفي الحديث: «الله في عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَحِيهِ الْمُسْلِمِ»، «مَنْ فَرَّجَ عَنِ مَوْمِنٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ الْآخِرَةِ»، وعن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَأْخُذْهُ النَّوْمُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، وَكَانَ يَطْلُبُ مَنْ يَحْرُسُهُ، حَتَّى جَاءَ سَعْدٌ، فَسَمِعَتْ غَطِيظَهُ». وهل ذلك إلا مثلُ التَّدَاوِي بِالْأَدْوِيَةِ وَالتَّقْوِي بِالْأَشْرِيَةِ وَالْأَطْعَمَةِ؟! وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ كَافِرًا، فَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِ أَنْ يُسْتَعَانَ بِالْكَفَّارِ فِي دَفْعِ الظُّلْمِ وَالغَرَقِ وَالْحَرَقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمَضَارِّ.

قلت: كما اصطفي الله تعالى الأنبياء على خَلِيقَتِهِ، فَقَدْ اصْطَفَى لَهُمْ أَحْسَنَ الْأُمُورِ وَأَفْضَلَهَا وَأَوْلَاهَا، وَالْأَحْسَنُ وَالْأَوْلَى بِالنَّبِيِّ أَنْ لَا يَكِلَ أَمْرَهُ إِذَا ابْتُلِيَ بِبِلَاءٍ إِلَّا إِلَى رَبِّهِ، وَلَا يَعْتَصِدُ إِلَّا بِهِ، خِصُوصًا إِذَا كَانَ الْمُعْتَصِدُ بِهِ كَافِرًا؛

قوله: (الله في عَوْنِ الْعَبْدِ)، الْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَأَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَأَوْرَدَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٢): «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْرَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ لَيْلَةً، فَقَالَ: لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ، قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعْنَا حَشْحَشَةَ سِلَاحٍ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لِي، ثُمَّ نَامَ».

قوله: (وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ)، عَطَفُ عَلَى قَوْلِهِ: «لِمْ أَنْكِرَ عَلَى يَوْسُفَ الْاسْتِعَانَةَ فِي كَشْفِ مَا كَانَ؟» أَي: إِنْ كَانَ الْإِنْكَارُ لِمُطَلَقِ الْاسْتِعَانَةِ فَلَيْسَ كَذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] إِلَى آخِرِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ كَافِرًا فَكَذَا، إِلَى آخِرِهِ.

(١) مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٤٢٥) و(١٩٣٠) و(٢٩٤٥).

وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢٢٥).

(٢) البخاري (٢٨٨٥) و(٧٢٣١)، ومسلم (٢٤١٠)، والترمذي (٣٧٥٦).

لئلا يَشْمُتَ به الكَفَّارُ ويقولوا: لو كان هذا على الحقِّ وكان له ربُّ يُغِيثُهُ لَمَّا استغاثَ بنا. وعن الحسن: أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحنُ إذا نزلَ بنا أمرٌ فزِعْنَا إلى الناسِ.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَفْتُونُ فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [٤٣]

لَمَّا دَنَا فَرَجُ يوسف، رأى مَلِكُ مِصْرَ الرِّيانُ بنُ الوليدِ رُؤيا عَجيبَةً هالِئِهِ؛ رأى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ خَرَجْنَ مِنْ نَهْرِ يَابِسٍ، وَسَبْعَ بَقَرَاتٍ عِجَافٍ، فابْتَلَعَتِ الْعِجَافُ السِّمَانَ، وَرَأَى سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ قَدْ انْعَقَدَ حَبُّهَا، وَسَبْعًا أُخْرَى يَابِسَاتٍ قَدْ اسْتَحْصِدَتْ وَأُدْرِكَتْ، فَالتَوَّتِ الْيَابِسَاتُ عَلَى الْخُضْرِ حَتَّى غَلَبْنَ عَلَيْهَا. فَاسْتَعْبَرَهَا، فَلَمْ يَجِدْ فِي قَوْمِهِ مِنْ يُحْسِنُ عِبَارَتَهَا.

﴿ سِمَانٍ ﴾ جمع سَمِينٍ وَسَمِينَةٍ، وَكَذَلِكَ رِجَالٌ وَنِسْوَةٌ كِرَامٍ.

فإن قلت: هل من فرقي بين إيقاعِ ﴿ سِمَانٍ ﴾ صفةً للمُمَيِّزِ وهو ﴿ بَقَرَاتٍ ﴾، دون المُمَيِّزِ وهو ﴿ سَبْعٍ ﴾، وأن يُقال: سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانًا؟ قلت: إذا أوقعتها صفةً لـ ﴿ بَقَرَاتٍ ﴾، فقد قَصَدَتْ إلى أن تُمَيِّزَ «السَّبْعَ» بنوعِ مِنَ الْبَقَرَاتِ،

قوله: (فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها)، الجوهري: «يُحْسِنُ: يَعْلَمُ». الأساس: «ومن المجاز: فلان لا يحسن شيئاً، وقيمة المرء ما يحسن».

قوله: (إذا أوقعتها صفةً لـ ﴿ بَقَرَاتٍ ﴾) إلى آخره، بيِّنَ الفَرْقَ بَيْنَ اللفظَيْنِ، وَأَحَالَ الفائِدةَ إلى الذَّهْنِ، وَيُمْكِنُ أن يُقال: إنَّ المُمَيِّزَ إذا وُصِفَ، ثم رُفِعَ به الإبهامُ والإجمالُ مِنَ العَدَدِ، أذِنَ بأنَّها مقصودانِ في الذِّكْرِ، بخِلافِهِ إذا مُيِّزَ ثم وُصِفَ، بل وَصَفُ المُمَيِّزِ أَدْعَى مِنَ وصفِ العَدَدِ، لأنَّ المُمَيِّزَ إنَّما اسْتَجْلِبَ للوصفِ، وَمِنْ ثَمَّ تُرِكَ التَّمييزُ في القرائنِ الثَّلَاثِ؛ ﴿ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ و﴿ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ و﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾، والمقامُ يَقْتَضِيهِ، لأنَّ المقصودَ

وهي السَّهْمَانُ مِنْهِنَّ، لَا بِجَنْسِهِنَّ، وَلَوْ وَصَفَتْ بِهَا «السَّبْعُ» لَقَصَدَتْ إِلَى تَمْيِيزِ «السَّبْعِ» بِجَنْسِ الْبَقَرَاتِ لَا بِنَوْعِ مِنْهَا، ثُمَّ رَجَعَتْ فَوَصَفَتْ الْمُمَيَّزَ بِالْجَنْسِ بِالسَّمَنِ. فإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: «سَبْعَ عِجَافٍ» عَلَى الْإِضَافَةِ؟ قُلْتَ: التَّمْيِيزُ مَوْضُوعٌ لِبَيَانِ الْجَنْسِ، وَالْعِجَافُ وَصْفٌ لَا يَقَعُ الْبَيَانُ بِهِ وَحْدَهُ.

فإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ يَقُولُونَ: ثَلَاثَةُ فِرْسَانٍ وَخَمْسَةُ أَصْحَابٍ؟ قُلْتَ: الْفَارَسُ وَالصَّاحِبُ وَالرَّكَبُ وَنَحْوُهَا: صِفَاتٌ جَرَتْ مَجْرَى الْأَسْمَاءِ، فَأَخَذَتْ حُكْمَهَا وَجَازَ فِيهَا مَا لَمْ يَجْزُ فِي غَيْرِهَا. أَلَا تُرَاكَ لَا تَقُولُ: عِنْدِي ثَلَاثَةُ ضِخَامٍ وَأَرْبَعَةُ غِلَاطٍ. فإِنْ قُلْتَ: ذَاكَ مِمَّا يُشْكَلُ، وَمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: بَقَرَاتٍ سَبْعَ عِجَافٍ، لَوْ قَوَعَ الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمُرَادَ الْبَقَرَاتِ؟ قُلْتَ: تَرَكَ الْأَصْلَ لَا يَجُوزُ مَعَ وَقُوعِ الْإِسْتِغْنَاءِ عَمَّا لَيْسَ بِأَصْلٍ، وَقَدْ وَقَعَ الْإِسْتِغْنَاءُ بِقَوْلِكَ: ﴿سَبْعَ عِجَافٍ﴾ عَمَّا تَقَرَّحَهُ مِنَ التَّمْيِيزِ بِالْوَصْفِ.

بَيَانُ الْإِبْتِلَاءِ بِالشَّدَّةِ بَعْدَ الرَّخَاءِ، وَبَيَانُ الْكَمِّيَّةِ بِالْعَدَدِ وَالْكِيفِيَّةِ بِالْبَقَرَاتِ تَابِعٌ.

قَوْلُهُ: (وَالْعِجَافُ وَصْفٌ لَا يَقَعُ الْبَيَانُ بِهِ وَحْدَهُ)، يَعْنِي: أَنَّ التَّمْيِيزَ لِبَيَانِ الْجَنْسِ، وَلَا تَدُلُّ الصِّفَةُ عَلَى الْجَنْسِ، لِأَنَّ الْوَصْفَ لَا يَدُلُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مَا مُتَّصِفٌ بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا جَازَ «ثَلَاثَةُ فِرْسَانٍ» وَ«خَمْسَةُ أَصْحَابٍ» لِجَزْيِ «الصَّاحِبِ» وَ«الْفَارَسِ» - بِطَرَحِ مَوْصُوفِهِمَا - مَجْرَى الْأَسْمِ، وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ «ثَلَاثَةُ ضِخَامٍ» لِأَنَّهُ يُلْبَسُ.

قَوْلُهُ: (ذَاكَ مِمَّا يُشْكَلُ)، أَي: «ثَلَاثَةُ ضِخَامٍ» وَ«أَرْبَعَةُ غِلَاطٍ» مِمَّا يُشْكَلُ، لِأَنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ الضِّخْمَ وَالْغَلِيظَ مَا هُوَ؟ وَمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مَعْلُومٌ أَنَّ ﴿عِجَافٌ﴾ لَيْسَ غَيْرَ الْبَقَرَاتِ؛ لَوْ قَوَعَ مُقَابِلًا لِقَوْلِهِ: ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾، فَهُوَ إِذْنُ نَحْوُ قَوْلِكَ: «ثَلَاثَةُ فِرْسَانٍ»؟

وَأَجَابَ: أَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَجْرَى الْوَصْفِ عَلَى الْوَصْفِيَّةِ، وَإِنَّمَا يُتْرَكُ الْأَصْلُ إِذَا مَنَعَ مَانِعٌ، كَمَا فِي قَوْلِكَ: «خَمْسَةُ أَصْحَابٍ»، وَهَاهُنَا لَمَّا وَصَفَ السَّبْعَ بِالْعِجَافِ، فَأَيُّ حَاجَةٍ

إلى جَعَلِهِ تَمييزاً، ثم يَتَنَصَّبُ للتأويل.

وتحريزه: أن الكلامَ تَرَدَّدَ بَيْنَ قوله: «سَبْعُ عِجَافٍ» على الوَصْفِ، وبين «سَبْعُ عِجَافٍ» على الإضافة، فالحملُ على الوَصْفِ أَوْلَى، لأنك إذا أضفتَه^(١) أزلت «عِجَافٍ» عن مُقْتَضَاهُ - وهو الوَصْفُ - إلى الجِنْسِ بالتأويل، فترك الوَصْفِ - الذي هو الأصل - والذهابُ إلى الجِنْسِ مَعَ حُصولِ المطلوبِ من الكَشْفِ والبيانِ غيرُ جائز.

قال صاحبُ «الفرائد»: لَمَّا كانتِ الصِّفَةُ قائمةً مَقَامَ الموصوفِ في قولنا: «عِجَافٍ» على الإضافة، والموصوفُ معلومٌ لِمَا تَقَدَّمَ، فقولنا: «سَبْعُ عِجَافٍ» كقولنا: «سَبْعُ بقراتٍ عِجَافٍ»، فالتَمييزُ المطلوبُ بالإضافةِ حاصلٌ بالإضافةِ إلى الصِّفَةِ؛ لقيامها مَقَامَ الموصوفِ، فكما يجوزُ «سَبْعُ بقراتٍ عِجَافٍ» يجوزُ «سَبْعُ عِجَافٍ»، وقوله: «تركُ الأصلُ لا يجوزُ مَعَ وقوعِ الاستِغناءِ عما ليسَ بأصلٍ» منظورٌ فيه، لأنَّ الأصلَ في العَدَدِ حُصولُ تَمييزهِ بالإضافة، والوَصْفُ على خِلافِ الأصلِ، فإذا أضفتَ وقُلْتَ: «سَبْعُ عِجَافٍ» فالموصوفُ محذوفٌ، لأنه معلومٌ، والصِّفَةُ قائمةٌ مَقَامَهُ، وإذا لم تُضِفْ وجَعَلتَهُ موصوفاً فلا بُدَّ من تقديرِ المُضَافِ إليه بأن تقول: «سَبْعُ بقراتٍ عِجَافٍ»، فكانَ كُلُّ واحدٍ على خِلافِ الأصلِ^(٢)، وإنما لم يُضَفْ لأنه قائمٌ مَقَامَ البقراتِ، وهي موصوفةٌ بـ«عِجَافٍ»، فكانت من قبيلِ إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفَةِ، وهي غيرُ جائزةٍ إلا بتأويل.

وقلت: هذا كلامٌ حَسَنٌ، لأنَّ الأصلَ «سَبْعُ بقراتٍ عِجَافٍ» لِقَضِيَةِ التَقَابُلِ، فلما حُذِفَ المُميِزُ إيجازاً لِعَدَمِ اللَّبْسِ انقَلَبَ الوَصْفُ تابعاً للمُميِزِ، فارتفعَ اعتِناءُ بشأنِ الوَصْفِ، كما سَبَقَ أنَّ المقصودَ الابتلاءُ بالشَّدَّةِ بعدَ الرخاءِ، وأما التفادي عن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفَةِ دونَ اعتبارِ المعنى فأمْرٌ سهْلٌ.

(١) في (ح): «وصفتَه»، والمُثَبَّتُ من (ط) و(ف)، وهو الصواب.

(٢) من قوله: «فإذا أضفتَ وقُلْتَ: سبعِ عِجَافٍ» إلى هنا، سقط من (ف).

والعَجْفُ: الهُزَالُ الذي ليس بعده. والسَّبَبُ في وُقُوعِ «عِجَافٍ» جمعاً لـ «عَجْفَاء»، و«أَفْعَلٌ» و«فَعْلَاءٌ» لا يُجْمَعَانِ عَلَى «فِعَالٍ»: حَمَلُهُ عَلَى «سِمَانٍ»، لأنه نَقِيضُهُ، ومن دَأْبِهِمْ حَمْلُ النَّظِيرِ عَلَى النَّظِيرِ، والنَّقِيضِ عَلَى النَّقِيضِ.

فإن قلت: هل في الآية دليلٌ على أن السُّنْبُلَاتِ اليابسة كانت سبباً كالحُضْر؟ قلت: الكلامُ مبنيٌّ على انصِبَابِهِ إلى هذا العددِ في البقراتِ السِّمَانِ والعِجَافِ والسَّنَابِلِ الحُضْر، فوجبَ أن يتناولَ معنى الأخرِ السَّبْع، ويكونَ قوله: ﴿وَأَخْرَ يَابِسَتِ﴾ بمعنى: وسبباً آخر.

فإن قلت: هل يجوزُ أن يُعْطَفَ قوله: ﴿وَأَخْرَ يَابِسَتِ﴾ على ﴿سُنْبُلَاتِ حُضْرٍ﴾، فيكونَ مجروراً المحلِّ؟ قلت: يُؤدِّي إلى تَدَافُعٍ، وهو أن عطفها على ﴿سُنْبُلَاتِ حُضْرٍ﴾ يقتضي أن تدخلَ في حُكْمِهَا،

قوله: (حَمْلُ النَّظِيرِ عَلَى النَّظِيرِ)، قيل: نحو: غار، فإن مَصَدَرَهُ «غُور»؛ حَمَلَهُ عَلَى نَظِيرِهِ وَنَقِيضِهِ، أما نَظِيرُهُ فـ«دَخَلَ دُخُولاً»، وأما نَقِيضُهُ فـ«خَرَجَ خُرُوجاً».

قوله: (يُؤدِّي إلى تَدَافُعٍ)، قال صاحبُ «التقريب»: إذ عطفه يَقتَضِي دُخُولَهُ في حُكْمِ السَّبْعِ المذكور، وكونه مُمَيَّزاً بالسُّنْبُلَاتِ الحُضْر وبالأخر، ولفظُ «الأخر» يَقتَضِي كونه غيرَ السَّبْعِ، فيَصِحُّ «سبعةُ رجالٍ قيام وعود»، أي: بعضهم قيام وبعضهم قُعود، ولا يَصِحُّ «وآخرين قُعود»، وفيه نَظَرٌ، لأنَّ الصَّحِيحَ أنَّ العطفَ في حُكْمِ تَكريرِ العَامِلِ^(١) لا الانسحاب، فلو عُطِفَ «آخرين» على «رجالٍ قيام» لكانَ «سبعةً مُكْرَّرَةً في المعطوف، أي: وسبعةُ آخرين، أي: «رجالٍ آخرين قُعود»، وَيَفْسُدُ المعنى، لأنَّ المفروضَ أنَّ الرِّجَالَ سبعة.

وأما الآيةُ فلو كُرِّرَ فيها، وقيل: سَبْعُ أُخْرٍ، أي: وَسَبْعُ سُنْبُلَاتٍ أُخْرٍ، استقام، لأنَّ

(١) من قوله: «سبعة رجال قيام وعود» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف)، وأثبت من (ط).

الحُضْرَ سبعة، واليابساتُ سبعة، نعم؛ لو فَرَعْنَا على المرجوح - وهو انسحابُ العاِمِلِ في العطف - أَدَى إلى أَنَّ السَّبْعَ المذكورةَ مُمَيَّزَةٌ بـ «سُنْبَلَاتِ حُضْرٍ» و«سُنْبَلَاتِ أُخْرٍ يابسات»، وفَسَدٌ، إذ المرادُ أَنْ كُلاًّ منهما سبعة، لا أنها سبعة.

فالمثال ليس وِزَانَ الآية؛ إذ هو على تَكْرِيرِ العاِمِلِ يَفْسُدُ، وعلى الانسحابِ يَصِحُّ، والآيةُ بالعكس، والصحيحُ التكرير، فجازَ العطف، لكن الأولى أن يُعْطَفَ «أُخْرٍ» على «حُضْرٍ»، لا على «سُنْبَلَاتِ حُضْرٍ»، لِيَدُلُّ على موصوفٍ «أُخْرٍ»، وهو «سُنْبَلَاتِ»، ولا يُقَدَّرُ موصوفُها بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ.

والتدافعُ ممنوعٌ؛ إذ العطفُ يَقْتَضِي دُخُولَهُ في حُكْمِ «السَّبْعِ» المذكورِ على تقديرِ الانسحابِ، ولفظُ «الأُخْرٍ» يَقْتَضِي أن يكونَ غيرَ «السَّبْعِ» المذكورِ على تقديرِ التكريرِ، فلا تَدَافِعُ.

والجوابُ عنه: أنه قد سَبَقَ مراراً وأطواراً أَنْ مَذَهَبَ المُنْصِفِ في عَطْفِ المَفْرَدِ على المَفْرَدِ القولُ بالانسحابِ قَطْعاً، وبُطْلَانُهُ بأنه مرجوحٌ لا يُجْدِيهِ، على أَنَّ ابنَ الحاجبِ نَصَّ على القولِ بِرِجْحَانِ^(١) الانسحابِ، حيثُ قَالَ بعدَ ذِكْرِ المذاهبِ الثلاثة: «والصحيحُ الانسحابُ في الجميع، وجوازُ التقديرِ في المعطوفِ مُطْلَقاً»، ثم عَلَّلَهُ بقوله: لأنَّ به يَتَقَوَّمُ المعنى المَقْتَضِي للإعرابِ، ولأنَّ المعنى عليه، بدليل «اشتريتُ الجاريةَ نِصْفَهَا» و«جاءني غُلامٌ زَيْدٌ وَعَمْرُو»، ألا ترى أنه لو قُدِّرَ الأولُ لَفَسَدَ المعنى، وكُرِّرَ هذا البحثُ.

أما بيانُ التدافعِ فيما نحنُ بصدده: فإنَّ البَيَانَ والمُبَيِّنَ شيءٌ واحدٌ، فإذا بُيِّنَتْ «السَّبْعَةُ» في قولك: «سبعةُ رجالٍ» بـ «رجالٍ قيامٍ وقُعودٍ» على طريقِ العطفِ صَحَّ، لأنَّ المُبَيِّنَ مُتَعَدِّدٌ، ولا مُنَافَاةَ بَيْنَهُ وبينَ البَيَانِ، لأنَّ المرادَ: بعضهم قيامٌ وبعضُهم قُعودٌ. وأما إذا

(١) في (ح): «بجواز»، والمثبت من (ط) و(ف).

فتكون معها مُمَيِّزاً لِلسَّبْعِ المذكورة، ولفظ «الأخر» يقتضي أن تكون غير السَّبْع، بيانه: أنك تقول: عندي سبعة رجالٍ قيامٍ وقُعودٍ - بالجرّ - فيصيحُ؛ لأنك ميّزت السَّبْعَةَ برجالٍ موصوفين بالقيام والقعود، على أن بعضهم قيامٌ وبعضهم قعود؛ فلو قلت: عنده سبعة رجالٍ قيامٍ وآخرين قعود، تدافع ففسد.

﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء، واللام في قوله: ﴿لِلرَّثِيئَةِ﴾ إما أن تكون للبيان، كقوله: ﴿وَكَاثُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، وإما أن تدخل لأن العامل إذا تقدّم عليه معموله لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخّر عنه، فعُضِدَ بها كما يُعْضَدُ بها اسمُ الفاعل، إذا قلت: هو عابِرٌ للرُّوْيا؛ لانحطاطه عن الفعل في القوّة. ويجوز أن يكون ﴿لِلرَّثِيئَةِ﴾ خبرٌ «كان»، كما تقول: كان فلانٌ لهذا الأمر؛ إذا كان مُسْتَقْبَلًا به مُتِمِّكِنًا منه، و﴿تَعْبُرُونَ﴾ خبرٌ آخرٌ أو حالٌ،

أعقبته بـ«آخرين»، وكان تفسير «السبعة» أيضاً، حصل الاختلاف وجاء التدافع.

وتوهم أن الفساد من جهة أن المفروض أن الرجال سبعة: فاسد، فعلى هذا: في الآية إذا عطفت ﴿يَأْتِيهَا﴾ وحدها على ﴿خَضِرٍ﴾ صح، وإن لزم الاختلاف في العدد، لأن الكلام في صحّة التركيب لا العدد، وأما إذا أتيت بـ«آخر» جاء التدافع، وأيضاً لو أوجبنا القول بالتقدير دون الانسحاب كان لفظ «أخر» تطويلاً، فوجب صون كلام الله منه، وللقائلين بالانسحاب (١) أن يستدلوا بهذه الآية على وقوعه صريحاً في التنزيل.

قوله: (إما أن تكون للبيان)، كأنه لما قيل: كنتم تعبرون، فقيل: لأي شيء؟ فقيل: للرُّوْيا، كما قال في قوله: ﴿وَكَاثُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]: «في أي شيء زهدوا فقال: زهدوا فيه».

(١) من قوله: «كان لفظ «أخر» تطويلاً» إلى هنا، سقط من (ح).

وَأَنْ يُضْمَنَ ﴿تَعَبَّرْتُ﴾ معنى فِعْلٍ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ كُنْتُمْ تَنْتَدِبُونَ لِعِبَارَةِ الرَّؤْيَا. وَحَقِيقَةُ «عَبَّرْتُ الرَّؤْيَا»: ذَكَرْتُ عَاقِبَتَهَا وَآخِرَ أَمْرِهَا، كَمَا تَقُولُ: عَبَّرْتُ النَّهْرَ؛ إِذَا قَطَعْتَهُ حَتَّى تَبْلُغَ آخِرَ عَرَضِهِ، وَهُوَ عِبْرُهُ، وَنَحْوُهُ: أَوْلْتُ الرَّؤْيَا؛ إِذَا ذَكَرْتَ مَآلَهَا، وَهُوَ مَرَجِعُهَا. وَ«عَبَّرْتُ الرَّؤْيَا» بِالتَّخْفِيفِ: هُوَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ الْأَثْبَاتُ، وَرَأَيْتُهُمْ يُنْكِرُونَ «عَبَّرْتُ» بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّعْبِيرِ وَالْمُعْبَرِ. وَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى بَيْتِ أَنْشَدَهُ الْمُبَرِّدُ فِي كِتَابِ «الْكَامِلِ» لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ:

رَأَيْتُ رُؤْيَا نَمَّ عَبَّرْتُهَا وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارًا

[﴿قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ﴾ ٤٤]

﴿أَضْغَنْتُ أَحْلَمٌ﴾ تَخَالِطُهَا وَأَبَاطِلُهَا، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا مِنْ حَدِيثِ نَفْسٍ أَوْ وَسْوَئَةٍ

شَيْطَانٍ.

قوله: (تَنْتَدِبُونَ)، يُقَالُ: نَدَبْتَهُ فَانْتَدَبَ؛ أَي: دَعَوْتُهُ فَأَجَابَ، وَيُعَدَّى بِاللَّامِ.

قوله: (وَهُوَ عِبْرُهُ)^(١)، الْجَوْهَرِيُّ: «وَعِبْرُ النَّهْرِ: شَطْرُهُ وَجَانِبُهُ». قَالَ الْقَاضِي: «عِبَارَةُ الرَّؤْيَا: الْإِتْقَالُ مِنَ الصُّورِ الْخَيَالِيَّةِ إِلَى الْمَعَانِي النَّفْسَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِثَالُهَا؛ مِنَ الْعُبُورِ، وَهُوَ الْمُجَاوِزَةُ»^(٢).

قوله: (الَّذِي اعْتَمَدَهُ الْأَثْبَاتُ)، الْأَثْبَاتُ: جَمْعُ ثَبَّتَ، يُقَالُ: فُلَانٌ ثَبَّتَ؛ أَي: ثَابَتَ الْقَلْبُ، وَلَا أَحْكَمُ بِكَذَا إِلَّا بَثَّبْتُ؛ أَي: بِحُجَّةٍ^(٣).

(١) هذه الفقرة أُخِّرَتْ فِي الْأَصْلِينَ بَعْدَ الَّتِي تَلِيهَا، وَقَدِّمْتُهَا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِئِنَّا سَبَّ تَرْتِيبَ الْكَلَامِ هُنَا تَرْتِيبَهُ فِي «الْكَشَافِ».

(٢) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَيْضَاوِيِّ (٣: ٢٩١).

(٣) تَفْسِيرُهُ «الثَّبَّتَ» مُسْتَفَادٌ مِنَ الْجَوْهَرِيِّ فِي «الصَّحَاحِ»، مَادَّةُ (ثَبَّتَ)، وَلَمْ يَعْزُزْهُ إِلَيْهِ، خِلَافًا لِإِعَادَتِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وأصل «الأضغاث»: ما جُمع من أخلاطِ النَّباتِ وحُزْمِ، الواحدُ: ضِغْتُ، فاستُعيرت لذلك، والإضافةُ بمعنى «مِنْ»، أي: أضغاثٌ من أحلام. والمعنى: هي أضغاثٌ أحلام.

فإن قلت: ما هو إلا حُلْمٌ واحد، فلمَ قالوا: ﴿أَضَغَتْ أَحْلَامِي﴾ فجمَعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلانٌ يركبُ الخيلَ ويلبَسُ عِمامةَ الحَزِّ، لمن لا يركبُ إلا فرساً واحداً وما له إلا عِمامةٌ فرْدَةٌ؛ تَزِيداً في الوصف، فهؤلاء أيضاً تَزِيدوا في وَصْفِ الحُلْمِ بالبُطلان، فجَعَلوه أضغاثَ أحلام.

قوله: (فاستُعيرت لذلك)، أي: استُعيرتِ «الأضغاثُ» للتخاليطِ والأباطيلِ، سُبِّهَتْ تخاليطُ الأحلامِ وأباطيلُها بما جُمعَ من أخلاطِ النَّباتِ وحُزْمِ، والجامعُ الاختِلاطُ من غيرِ تمييزِ بينِ جيِّدٍ وِردِيٍّ، ثم استُعِملَ «أضغاثُ» في مَوْضِعِ «الأباطيلِ»، وجُعِلَتِ القَرِينَةُ الإضافة.

قوله: (أي: أضغاثٌ من أحلام)، الراغب: «الحِلْمُ: ضَبَطَ النَّفْسَ عَنِ هَيْجَانِ الغَضَبِ، وجمعه أحلام، قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ [الطور: ٣٢]، قيل: عُقُولُهُمْ، وليس الحِلْمُ في الحقيقة: العقل، لكنَّه من مُسَبِّباتِهِ، وقد حَلَمَ وحَلَمَهُ العقلُ وتحلَّم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩]، أي: زَمَانَ الحِلْمِ، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَلَقٍ حَلِيمٍ﴾ [الصفاء: ١٠١]، أي: وُجِدَ فِيهِ قُوَّةُ الحِلْمِ، وَسُمِّيَ الحِلْمَ لكونِ صاحِبِهِ جَدِيراً بالحِلْمِ، يقال: حَلَمَ حِلْماً وحِلْماً، وَتَحَلَّمَ واحْتَلَّمَ، وَحَلَمْتُ بِهِ في نومي، أي: رأيتُهُ في المنام»^(١).

قوله: (فلانٌ يركبُ الخيلَ، ويلبَسُ عِمامةَ الحَزِّ)، قال صاحبُ «الفرائد»: ولما كانت ﴿أَضَغَتْ أَحْلَامِي﴾ مُستَعارةً لِمَا ذُكِرَ، وهي تخاليطُها وأباطيلُها، وهي مُتَحَقِّقَةٌ في رُؤْيَا

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٥٣.

وَاحِدَةً بِحَسَبِ أَنهَا مُتَرَكِّبَةٌ مِنْ أَشْيَاءَ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُلْمٌ، فَكَانَتْ أَحْلَامًا، فَلَا افْتِقَارَ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنَ التَّكْلِيفِ.

وقلت: هذا كلامٌ حَسَنٌ، وكلامُ الْمُصَنِّفِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْحُلْمَ وَالرُّؤْيَا مُتَرَادِفَانِ، فَكَانَهُ قِيلَ: أَضْعَاثُ رُؤْيَى، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا رُؤْيَا وَاحِدَةٌ لَا رُؤْيَى، وَلِذَلِكَ اسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

رَأَيْتَ رُؤْيَا نَمَّ عَبَّرْتَهَا وَكَانَتْ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارًا^(١)

ولولا أَنَّ الرُّؤْيَا وَالْحُلْمَ وَاحِدٌ لَمْ يَصِحَّ قَوْلُهُ: «لِلْأَحْلَامِ عَبَّارًا».

قَالَ صَاحِبُ «النِّهَايَةِ»: «وَالرُّؤْيَا وَالْحُلْمُ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَرَاهُ النَّائِمُ فِي النَّوْمِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ «الرُّؤْيَا» عَلَى مَا يَرَاهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّيْءِ الْحَسَنِ، وَغَلَبَ «الْحُلْمُ» عَلَى مَا يَرَاهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْقَبِيحِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَضْغَثْتُ أَخْلَابِي﴾، وَتُضَمُّ لَامُ «الْحُلْمِ» وَتُسَكَّنُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ)^(٢)».

قَالَ التُّورِبِشْتِي^(٣): الْحُلْمُ عِنْدَ الْعَرَبِ: مُسْتَعْمَلٌ اسْتِعْمَالَ الرُّؤْيَا، وَالتَّفْرِيقُ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الْأَصْطِلَاحَاتِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَقْتَضِهَا بَلِيغٌ، وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا حَكِيمٌ، بَلْ سَنَّهَا صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ لِلْفَضْلِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُسَمَّى مَا كَانَ مِنَ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ بِاسْمِ وَاحِدٍ، وَجَعَلَ الرُّؤْيَا عِبَارَةً عَنِ الْقِسْمِ الصَّالِحِ لِمَا فِي صَيغَتِهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى مُشَاهَدَةِ

(١) انظر: «الكامل» للمبرِّد (٢: ٣٨)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١: ٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٢) و(٥٧٤٧) و(٦٩٨٤) و(٦٩٨٦) و(٦٩٩٥) و(٧٠٠٥)، ومسلم (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) هو العلامةُ المُحدِّثُ الفقيهُ شهاب الدين أبو عبد الله فضل الله بنُ حَسَنِ التُّورِبِشْتِي الحنفي، من أهل شيراز، له مُصَنَّفَاتٌ بِالْفَارْسِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ، مِنْهَا «الْمَيْسَرُ»، وَهُوَ شَرْحٌ حَسَنٌ عَلَى «مِصَابِيحِ» الْبَغْوِيِّ، تُوْفِيَ سَنَةَ ٦٦١. تَرَجَّمَ لَهُ النَّاجُ السُّبْكِيُّ فِي «طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ» (٨: ٣٤٩) ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ شَافِعِيٌّ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَانظُرْ: «الْأَعْلَامُ» لِلزَّرْكَلِيِّ (٥: ١٥٢).

الشيء بالبصير والبصيرة، وجعل الحُلْمَ عبارة عما كان من الشيطان، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يُخَيَّلُ إلى الحالم في منامه من قضاء الشهوة مما لا حقيقة له.

وقلت: لعلَّه رحمه الله أراد بقوله: «ولم يبتد إليها حكيم»: ما عرَفَتْها الفلاسفة؛ على ما نقله القاضي في «تفسيره»: «الرؤيا: انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت، لِمَا بينهما من التناصب، عند فراغه من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصوَّرُ بها فيما مما يليق من المعاني الحاصلة هناك، ثم إنَّ المتخيلة تُحاكيه بصورة تناسبه، فترسلها إلى الحس المشترك، فيصيرُ مشاهدة، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى؛ بحيث لا يكون التفاوت إلا بأدنى شيء^(١)، استغنت الرؤيا عن التعبير^(٢).

والذي يُؤيِّد قول الإمام التوريشتي ما روينا عن البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود^(٣): «رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»، وزاد بعضهم: «فإنه لا يكذب^(٤)»، قال محمد بن سيرين: «وأنا أقول هذه، قال: وكان يُقال: والرؤيا ثلاثة: حديث النفس وتخويف الشيطان وبُشرى من الله»، هكذا وردَ في «جامع الأصول»^(٥). وإنما خصَّ صلوات الله عليه رؤيا المؤمن، وجعلها جزءاً من أجزاء النبوة، ونصَّ الأعداد، لئلا يشرع

(١) لفظ البيضاوي: «بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكُلِّيَّة والجزئية».

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٧٤).

(٣) البخاري (٦٩٨٨) و(٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣)، والترمذي (٢٢٧٠) و(٢٢٩١)، وأبو داود (٥٠١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٨٩٤).

وأخرجه البخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤)، والترمذي (٢٢٧١)، وأبو داود (٥٠١٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٤) وهي رواية البخاري (٧٠١٧) في حديث أبي هريرة، وفي هذه الرواية نفسها قول محمد بن سيرين الآتي.

(٥) «جامع الأصول» لابن الأثير (٢: ٥١٥).

ويجوز أن يكون قد قَصَّ عليهم مع هذه الرؤيا رؤى غيرها.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ إِمَّا أَنْ يُرِيدُوا بِالْأَحْلَامِ: الْمَنَامَاتِ الْبَاطِلَةَ خَاصَّةً، فَيَقُولُوا: لَيْسَ لَهَا عِنْدَنَا تَأْوِيلٌ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ إِنَّمَا هُوَ لِلْمَنَامَاتِ الصَّحِيحَةِ الصَّالِحَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِقُصُورِ عِلْمِهِمْ وَأَنَّهِمْ لَيْسُوا فِي تَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِنَحَارِيرٍ.

فيه الفَلَسْفِيُّ أصلاً، وَيُدْخِلُهَا فِي تَعْرِيفِهِ الْمُخْتَلِّ^(١)، لِأَنَّهَا مِنْ مُشْرَعٍ لَا مَجَالَ لِلْعَقْلِ فِيهِ. قَوْلُهُ: (رُؤْيَى غَيْرَهَا)، رُؤْيَى: كَعُلَى؛ لَجَمْعِ الْعُلْيَا، الْجَوْهَرِيِّ: «جَمْعُ الرُّؤْيَا: رُؤْيَى، بِالتَّنْوِينِ، مِثْلُ: رُعَى».

قَوْلُهُ: (وَإِمَّا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِقُصُورِ عِلْمِهِمْ)، الْإِنْتِصَافُ: «هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَحَمَلُ الْكَلَامِ عَلَى الْأَوَّلِ يُصَيِّرُهُ مِنْ وَادِي».

عَلَى لِأَجِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ^(٢)

كَأَنَّهُمْ قَالُوا: أَحْلَامٌ بَاطِلَةٌ، وَلَا تَأْوِيلَ لِلْأَحْلَامِ الْبَاطِلَةِ، فَيَكُونُوا بِهَا عَالِمِينَ، وَقَوْلُ الْمَلِكِ لَهُمْ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي عِلْمِهِ عَالِمِينَ بِهَا، لِأَنَّ «إِنْ» لِلشَّكِّ، فَجَاءَ اعْتِرَافُهُمْ مُطَابِقاً لِشَكِّهِ فِيهِمْ، وَقَوْلُ الْفَتَى: ﴿أَنَا أُتَيْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ^(٣).

وَقَلْتُ: لَا ارْتِيَابَ أَنَّ التَّعْرِيفَ فِي ﴿الْأَحْلَامِ﴾: إِمَّا لِلْعَهْدِ، وَالْمَعْهُودُ وَمَا صَرَّحُوا بِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَضَعْتُ أَحْلَامِي﴾، وَإِمَّا لِلْجِنْسِ، وَهُوَ مَا يَعْلَمُ كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّ الْأَحْلَامَ مَا هِيَ؟

(١) كَذَا فِي (ط) وَ(ح)، وَفِي (ف): «الْمُتَخَيَّلُ».

(٢) صَدْرُ بَيْتٍ لِامْرِئِ الْقَيْسِ، كَمَا فِي «دِيوانه» ص ٩٥، وَتَمَامُهُ:

إِذَا سَافَةَ الْعَوْدُ النَّبَاطِيَّ جَزَجْرًا

وَيُرْوَى: «الْعَوْدُ الدِّيَابِيُّ»، كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (سُوف)

(٣) «الْإِنْتِصَافُ» لِابْنِ الْمُنِيرِ (٢: ٣٢٤) بِحَاشِيَةِ «الْكَشَافِ».

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي﴾ [٤٥]

قُرئ: ﴿وَادَّكَرَ﴾ بالدال وهو الفصيح. وعن الحسن: «وادَّكَرَ» بالدال المعجمة، والأصل: تَدَكَّرَ، أي: تَدَكَّرَ الذي نَجَا من الفَتَيْنِ مِنَ القتلِ يوسفَ وما شاهدَ منه، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعدَ مدَّةٍ طويلة، وذلك أنه حينَ اسْتَفْتَى المَلِكُ في رؤياه، وأَعْضَلَ على المَلَأِ تأويلها، تَدَكَّرَ الناجي يوسفَ وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكِّره عند الملك.

وقرأ الأشهبُ العُقَيْلِيُّ: «بَعْدَ إِمَّةٍ» بكسر الهمزة، والإمَّة: التَّعْمَةُ، قال عَدِيّ:

ثُمَّ بَعْدَ الفَلاحِ والمَلِكِ والإِمِّ مَةِ وَازَتْهُمُ هُنَاكَ القُبُورُ

والوجهانِ مبنيانِ على هذا، والأوَّلُ هو الظاهر، لأنهم ما جَعَلُوا ذلك المَنامَ أضغاثَ أحلامٍ إلا لَتَمْهيدِ عُدْرِهِمُ أَنهم غيرُ عالمينَ بها.

قوله: ﴿وَادَّكَرَ﴾ بالدال، المُهْمَلَةُ: المشهورة، وبالدالِ المُعْجَمَةُ: شاذة.

قوله: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعدَ مدَّةٍ طويلة، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَيْكَ أُمَّةً﴾ [هود: ٨]، أي: بُرْهَةً مِنَ الزمانِ، وطائفةٍ منه، والجملةُ مُعْتَرِضةٌ.

قوله: (ثم بعد الفلاح والملك)، البيت:

ثُمَّ بَعْدَ الفَلاحِ والمَلِكِ والإِمِّ مَةِ وَازَتْهُمُ هُنَاكَ القُبُورُ

أَيْنَ كِسرِي كِسرِي المُلُوكِ أبو ساسان^(١) أم أين قبله سابور^(٢)

قائلهما عَدِيٌّ بنُ زَيْدِ الفَلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، يقول: أينَ عَظْمَاءُ المُلُوكِ الذين

(١) كذا في (ط) و(ح)، وفي (ف): «أبو شروان»، وكلاهما مروى في هذا البيت.

(٢) البيتان لعَدِيٍّ بنِ زَيْدِ العبادي، كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١: ١٥٠)، و«عيون الأخبار» له

(٣: ١١٥)، و«الأغاني» للأصبهاني (٢: ١٣١)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (كلس).

أي: بعدما أنعم عليه بالنجاة. وقُرئ: «بَعْدَ أَمِّهِ» أي: بَعْدَ نسيان، يُقال: أمة يأمه أمها؛ إذا نسي. ومن قرأ بسكون الميم فقد خُطئ.

﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أنا أخبركم به عمّن عنده علمه. وفي قراءة الحسن: «أنا آتِيكُمْ بتأويله» ﴿فَأَرْسِلُونِي﴾ فابعثوني إليه لأسأله، ومُرُونِي باستعبارِه. وعن ابن عباس: لم يكن السّجنُ في المدينة.

[﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلُكٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسْتَكْبَرُ لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٤٦]

المعنى: فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أيها البليغ في الصدق، وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق أحواله وتعرّف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل، ولذلك كلّمه كلامٌ محترزٌ فقال: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لأنه ليس على يقين من الرجوع،

كانوا في النعمة والخبور^(١)، سترتهم القبور عن أعين الناس، ولا يدرى ما حالهم تحت التراب.

قوله: (لأنه ذاق أحواله)، أي: إنما قال: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ لأنه جرّب نفسه وأحواله مراراً كثيرة، إذ لا يُقال لأحد «صديق» حتى جرّب وشوهد منه الصدق مرّة بعد مرّة، روينا عن البخاريّ ومسلم^(٢): «إن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقاً»، جيء بالمضارع الدالّ على الاستمرار، وقُرِنَ معه كلمة التدرّج.

قوله: (ولذلك كلّمه كلامٌ محترزٌ)، أي: ولأجل أنه ذاق أحواله، وعلم أنه صديق لا

(١) أي: الشُّرور. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (حبر).

(٢) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فَرَبِّمَا اخْتَرِمَ دُونَهُ، وَلَا مِنْ عِلْمِهِمْ، فَرَبِّمَا لَمْ يَعْلَمُوا، أَوْ مَعْنَى ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ فَضْلَكَ وَمَكَانَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَيَطْلُبُوكَ وَيُحَلِّصُوكَ مِنْ مِحْنَتِكَ.

[﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ [٤٧-٤٩]

﴿تَزْرَعُونَ﴾ خبرٌ في معنى الأمر، كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِالْحُدُودِ﴾ [الصف: ١١]، وإِنَّمَا يَخْرُجُ الْأَمْرُ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ لِلْمِبَالِغَةِ فِي إِجْبَابِ إِجْبَادِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَيُجْعَلُ كَأَنَّهُ يَوْجَدُ، فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْهُ. وَالذَّلِيلُ عَلَى كَوْنِهِ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ قَوْلُهُ: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.

﴿دَابًّا﴾ بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدر: دَابَّ فِي الْعَمَلِ، وَهُوَ حَالٌ مِنَ الْمَأْمُورِينَ، أَي: دَائِبِينَ، إِذَا عَلَى تَدَابُؤِنَ دَابًّا، وَإِنَّمَا عَلَى إِيقَاعِ الْمَصْدَرِ حَالًا، بِمَعْنَى: ذَوِي دَابِّ.

يَصْدُرُ مِنْهُ إِلَّا الصَّدْقَ، وَلَا يَرْوُجُ عِنْدَهُ إِلَّا الصَّدْقَ، كَلَّمَهُ كَلَامَ مُحْتَرِزٍ عَنِ الْكُذْبِ؛ حَيْثُ لَمْ يَقْطَعْ بَرْجُوعِهِ إِلَى النَّاسِ، لِأَنَّ الْمَوْتَ وَاقِعَ، وَلَمْ يَقْطَعْ أَيْضًا بِأَنَّ الْقَوْمَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا اعْتِمَادَ عَلَى فَهْمِ النَّاسِ، وَكَرَّرَ لَفْظَ الرَّجَاءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ^(١).

قوله: (اخْتَرِمَ دُونَهُ)، أَي: يَمُوتُ الشَّرَائِبُ بَيْنَ يَدَيْ رَجُوعِهِ، أَي: قَبْلَهُ. الْجَوْهَرِيُّ: «اخْتَرَمَهُمُ الدَّهْرُ وَتَخَرَّمَهُمْ؛ أَي: اقْتَطَعَهُمْ وَاسْتَأْصَلَهُمْ».

قوله: (مَصْدَرٌ: دَابَّ فِي الْعَمَلِ)، الْجَوْهَرِيُّ: «دَابَّ فُلَانٌ فِي عَمَلِهِ؛ أَي: جَدَّ وَتَعَبَ».

وَقَرَأَ حَفْصٌ: بِالتَّحْرِيكِ، وَالباقون: بِالسُّكُونِ، وَ﴿دَابًّا﴾ حَالٌ مِنَ الْمَأْمُورِينَ؛ إِذَا بِتَقْدِيرِ الْفِعْلِ وَإِضْمَارِهِ، وَإِقَامَةِ الْمَصْدَرِ مَقَامَهُ، أَوْ بِمَعْنَى: ذَوِي دَابِّ.

(١) وَهُوَ «لَعَلَّ» فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّيْ-أَرْجِعُمْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ لئلا يَتَسَوَّسَ، و﴿يَأْكُلْنَ﴾ من الإسناد المجازي؛ جُعِلَ أَكْلُ أَهْلِهِنَّ مُسْنَدًا إِلَيْهِنَّ. ﴿تُحْصِنُونَ﴾ تُحْرِزُونَ وَتُحَبِّوْنَ.

﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ مِنَ الْغَوْثِ أَوْ مِنَ الْغَيْثِ. يُقَالُ: غِيَثَتِ الْبِلَادُ؛ إِذَا مُطِرَتْ.....

قوله: (جُعِلَ أَكْلُ أَهْلِهِنَّ مُسْنَدًا إِلَيْهِنَّ)، قَالَ الْقَاضِي: «أَي: يَأْكُلُ أَهْلُهُنَّ مَا ادَّخَرْتُمْ لِأَجْلِهِنَّ، فَاسْتَدَّ إِلَيْهِنَّ عَلَى الْمَجَازِ؛ تَطْبِيقًا بَيْنَ الْمُعْبَّرِ وَالْمُعْبَّرِ بِهِ»^(١)، يَعْنِي: لَمَّا كَانَ سَبَبُ الْإِدْخَارِ السُّنَيْنِ الْمَجْدِبَةِ، كَانَ الصَّرْفُ إِلَى أَهْلِهِنَّ لِلْأَكْلِ الصَّرْفَ إِلَيْهِنَّ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ:

أشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ
رَكَرُ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَيْشِي^(٢)

قوله: (تُحْرِزُونَ وَتُحَبِّوْنَ)، قَالَ الْقَاضِي: «﴿تُحْصِنُونَ﴾ [تُحْرِزُونَ] لِبُدْوَرِ الزَّرَاعَةِ»^(٣).

قوله: (مِنَ الْغَوْثِ أَوْ مِنَ الْغَيْثِ)، الرَّاعِبُ: «الْغَيْثُ: يُقَالُ فِي الْمَطَرِ، وَالْغَوْثُ: فِي النُّصْرَةِ. وَاسْتَعْتَبْتُهُ: طَلَبْتَ الْغَوْثَ أَوْ الْغَيْثَ، فَأَعَانَنِي - مِنَ الْغَوْثِ - وَغَانَنِي - مِنَ الْغَيْثِ - وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغَوْثِ أَوْ الْغَيْثِ، وَكَذَا ﴿يُغَاثُوا﴾»^(٤).

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٩٢).

(٢) البيهقي للصلتان العبدوي، كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١: ٤٠٩)، و«الكامل» للمبرِّد (٣: ١٣٥)، و«الحماسة» لأبي تمام ص ٢٢٨.

(٣) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٩٢)، ومنه أضفت ما بين حاصرتين.

(٤) «مفردات القرآن» ص ٦١٧.

ومنه قول الأعرابية: غثنا ماشئنا. ﴿يَعَصِرُونَ﴾ بالياء والتاء، يَعَصِرُونَ العنبَ والزيتونَ والسَّمِيسِمَ. وقيل: يَحْلُبُونَ الضَّرْعَ.

وَقُرئ: «يُعَصِرُونَ» على البناء للمفعول، من: عَصَرَهُ؛ إذا أَنْجَاهُ، وهو مُطَابِقٌ للإغاثَةِ. ويجوزُ أن يكونَ المَبْنِيُّ للفاعلِ بمعنى: يَنْجُونَ،

قوله: (الأعرابية: غثنا ما شئنا)، ذكر ابنُ دُرَيْدٍ^(١) في كتاب «المَطَر» عن أبي حاتم^(٢) عن الأصمعيِّ عن أبي عَمْرٍو ابنِ العلاءِ عن ذي الرُّمَّة: «قاتلَ اللهُ أُمَّةَ بني فُلانٍ ما أغرَبَها؛ سألتُها عن المَطَرِ ببلادِهِم، قالت: غثنا ما شئنا، أي: أصابنا الغيثُ».

قوله: ﴿يَعَصِرُونَ﴾ بالياءِ والتاء، حمزةٌ والكسائيُّ: بالتاءِ الفوقانيَّةِ، والباقونَ: بالياءِ^(٣).

قوله: (من: عَصَرَهُ؛ إذا أَنْجَاهُ)، الجوهريُّ: «واعْتَصَرْتُ بِفُلانٍ وتَعَصَّرتُ: إذا تَجَّأتَ إليه، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾»، وقال أبو عبيدة^(٤): ﴿يَعَصِرُونَ﴾ أي: يَنْجُونَ؛ وهو مِنَ العُصْرَةِ؛ وهي المَنْجاةُ.

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ المَبْنِيُّ للفاعلِ بمعنى: يَنْجُونَ)، أي: ﴿يَعَصِرُونَ﴾ بمعنى: يَنْجُونَ، كما أنَّ «يُعَصِرُونَ» من: عَصَرَهُ؛ إذا أَنْجَاهُ.

(١) العلامةُ شيخُ الأدبِ أبو بكر محمدُ بنُ الحسنِ بنِ دُرَيْدِ الأزدِيِّ البصريِّ، صاحبُ التصانيفِ، كانَ آيَةً من الآياتِ في قُوَّةِ الحِفظِ، كانَ يُقالُ: ابنُ دُرَيْدٍ أَعْلَمُ الشُّعراءِ وأشعُرُ العلماءِ، تُوِّفِيَ في شعبانَ سنةَ إحدى وعشرينَ وثلاثِ مئةٍ، وله ثمانِ وتسعونَ سنةً. «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٥: ٩٦ - ٩٨).

(٢) يعني: الإمامَ العلامةَ سهلَ بنَ محمدِ السُّجِسْتانيِّ ثم البصريِّ، المُقَرَّبِ النحويِّ اللغويِّ، صاحبُ التصانيفِ، التُوِّفِيَ سنةَ ٢٤٨، وقيل: ٢٥٠، وقيل: ٢٥٥. «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٢: ٢٦٨ - ٢٧٠).

(٣) انظر: «التيسير» ص ١٢٩، و«حجة القراءات» ص ٣٥٩.

(٤) مَعَمَّرُ بنُ المُثَنَّى، وهو في «مجاز القرآن» له (١: ٣١٣).

كأنه قيل: فيه يُغاث الناس وفيه يُغيثون أنفسهم؛ أي: يُغيثهم الله ويُغيث بعضهم بعضاً. وقيل: ﴿يَعَصِرُونَ﴾: يُمطرون، من: أعصرت السحابة. وفيه وجهان: إما أن يُضْمَنَ «أعصرت» معنى: مُطِرت، فيُعَدَى تعديته. وإما أن يُقال: الأصل: أعصرت عليهم، فحُذِفَ الجارُّ وأُوصِلَ الفِعل.

تأول البقرات السَّمانَ والسُّنبُلَاتِ الحُضْرَ بَسِينٍ مَخاصيب، والعِجافَ واليابساتِ بَسِينٍ مُجْدِبَةٍ، ثم بَشَرَهُم بعدَ الفِراغِ من تأويل الرُّويَا بأنَّ العامَّ الثامنَ يبيءُ مُباركاً حَصبياً كثيراً الخيرِ غزيرِ النِّعمِ، وذلك من جِهَةِ الوحي. وعن قتادة: زاده الله عِلْمَ سنة.

فإن قلت: معلومٌ أنَّ السَّنِينَ المُجْدِبَةَ إذا انتَهَتْ كان انتهاؤها بالحِصْبِ، وإلا لم تُوصَفْ بالانتهاء، فلمَ قلت: إنَّ عِلْمَ ذلك من جِهَةِ الوحي؟ قلت: ذلك معلومٌ عِلْماً مُطلقاً لا مُفضَّلاً. وقوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ تفصيلٌ لحالِ العام، وذلك لا يُعَلِّمُ إلا بالوحي.

[﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوفِ﴾
الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ* قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ
قُلْنَ حَنَشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ
نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٥٠-٥١]

قوله: (من: أعصرت^(١) السحابة)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَاً﴾ [النبا: ١٤]، قال^(٢): «المُعْصِرَاتِ: السَّحَابُ إِذَا أَعْصَرَتْ، أَي: شَارَفَتْ أَنْ تُعْصِرَهَا الرِّيحُ فُتْمَطِرُ، كَقَوْلِكَ: أَجَزَّ الرِّزْعُ؛ إِذَا حَانَ لَهُ أَنْ يُجَزَّ».

قوله: (علماً مُطلقاً)، يعني: لا يَشُكُّ أَحَدٌ في معرفةِ انتهاءِ الجَدْبِ إلى الحِصْبِ، لكنَّ

(١) في (ح) و(ف): «اعتصرت»، والمُتَّبَعُ من (ط).

(٢) أي: الزمخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة النبا (١٦: ٢٤٥).

إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك، وقدم سؤال النسوة؛ ليظهر براءة ساحته عما قُرف به وسُجن فيه، ولئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقييح أمره عنده، ويجعلوه سلماً إلى حط منزله لديه، ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم، وجرم كبير، حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره. وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التُّهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في موافقها، قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقفن موافق التُّهم»، ومنه قال رسول الله ﷺ للمؤمنين به في معتكفه وعنده بعض نساته: «هي فلانة»؛ اتقاء للتُّهمة،

الخِضْبَ يحتمل أن يكون تاماً وغير تام، ونُصِصِيَهُ أحدهما لا تُعلم إلا بالوحي، فقوله: ﴿يَعَصِرُونَ﴾ يدلُّ على خِضْبٍ تامٍّ لا مزيد عليه، كأنه قيل: ينتهي الخِضْبُ حتى يتجاوزَ من المأكول إلى المشروبِ والادِّخارِ فيه.

وتكريرُ «فيه» تميمٌ لقوله: ﴿يَعَصِرُونَ﴾، وفي تخصيصِ اسمِ «الناس» دونَ أن يُقال: «تغاثون»، كما قيل: ﴿تزرعون﴾، تميمٌ لأثرِ الخِضْبِ في سائرِ الأماكن، وفي إيثارِ ﴿يُعَاثُ﴾ دونَ «يُمَطَّر» تميمٌ للتميم.

قوله: (لئلا يتسلق الحاسدون)، الأساس: «سَلَقْتُ اللَّحْمَ عن العظم: قَشَرْتَهُ، وهو يتكلمُ بالسَّلِيقَةِ، وتَسَلَّقَ الحائط. ومن المجاز: سَلَقَهُ بِلِسَانِهِ، ولسانٌ مِسْلَقٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَقُواكُمْ بِالْسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].»

قوله: (ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن)، استعملَ الخلودَ في امتدادِ الزمانِ وطولِ المكث، دونَ الدوامِ والأبد، كما هو عليه مذهبُ أهلِ الشُّنَّةِ^(١).

قوله: («هي فلانة» اتقاءً للتُّهمة)، الحديثُ من روايةِ أنسٍ: «أن رسولَ الله ﷺ كان

(١) أي: بحسب أصلِ الوَضْعِ، على أنه قد يُستعملُ في امتدادِ الزمانِ وطولِ المكث عند أهل السنة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

وعن النبي ﷺ: «لقد عَجِبْتُ من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين سُئِلَ عن البقرات العجاف والسَّان، ولو كنتُ مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يُخْرِجوني، ولقد عَجِبْتُ منه حين أتاه الرسولُ فقال: ارجعْ إلى ربِّك، ولو كنتُ مكانه ولبثتُ في السَّجن ما لبثتُ، لأسرعتُ الإجابةَ وبأدرتهمُ البابَ، ولَمَّا ابتغيتُ العذرَ،

مَعَ إحدَى نِسائِهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَدَعَا، وَقَالَ: هَذِهِ زَوْجَتِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ بِهِ فَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ بِكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يُجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١).

قوله: (والله يغفر له)، قيل: هذا إشارةٌ إلى تَرْكِ العَزيمةِ بالرُّخصةِ، وهيَ تَقْدِيمُ حَقِّ اللَّهِ بِتَبْلِيغِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ عَلَى بَرَاءَةِ نَفْسِهِ.

وقلت: قد أسلفنا في سورة «براءة» (٢) على أن مثل هذه المُقدِّمة مُشعِرةٌ بتعظيم المُخاطَبِ وتوقيره وتوفير حُرْمَتِهِ، وهو كما تقول لمن تُعظِّمُهُ: عفا اللهُ عنكَ ما صنعتَ في أمري؟ ورضي اللهُ عنكَ ما جوابُكَ عن كلامي؟

قوله: (لأسرعتُ الإجابةَ)، الحديث: من رواية الإمام أحمد بن حنبل (٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لو كنتُ لأسرعتُ الإجابةَ، وما ابتغيتُ العذرَ».

وعن البخاريِّ ومُسلمٍ والترمذيِّ (٤) عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لو كنتُ ثم جاءني الرسولُ لأجبتُ»، قال مُحبي السنة في «شرح السنة»: إنه ﷺ «وَصَفَّ يَوْسُفَ

(١) في «صحيحه» برقم (٢١٧٤).

وأخرجه البخاري (٢٠٣٨) و(٢٠٣٩) و(٣٢٨١) و(٧١٧١)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صَفِيَّةَ بِنْتِ حُجَيْبٍ، وَالْقِصَّةُ لَهَا.

(٢) (٧: ٢٥٥) في تفسير قوله تعالى... في الآية ٤٣ منها -: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾.

(٣) في «مسنده» (٨٥٥٤) و(٩٠٦٠).

(٤) البخاري (٣٣٧٢) و(٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١)، والترمذي (٣١١٦) بلفظ: «ولو لبثتُ في السَّجن طولَ ما لبثتُ يوسفُ لأجبتُ الداعي». وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً ابنُ ماجه (٤٠٢٦).

إِنْ كَانَ لِحْلِيَاءَ ذَا أَنَاةٍ».

وإنما قال: سَلِ الْمَلِكَ عَنْ حَالِ النَّسْوَةِ، ولم يَقُلْ: سَلُهُ أَنْ يُفْتَشَّ عَنْ شَأْنِنَ، لِأَنَّ السُّؤَالَ مِمَّا يُهَيِّجُ الْإِنْسَانَ وَيُحَرِّكُهُ لِلْبَحْثِ عَمَّا سُئِلَ عَنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُورَدَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ لِيَجِدَ فِي التَّفْتِيشِ عَنْ حَقِيقَةِ الْقِصَّةِ وَفِصِّ الْحَدِيثِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ بَرَاءَتُهُ بَيَانًا مَكْشُوفًا يَتَمَيَّزُ فِيهِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ.

بِالْأَنَاةِ وَالصَّبْرِ حَيْثُ لَمْ يُبَادِرْ إِلَى الْخُرُوجِ حِينَ جَاءَ رَسُولُ الْمَلِكِ؛ فَعَلَّ الْمَذْنِبَ حِينَ يُعْفَى عَنْهُ مَعَ طَوْلِ لُبِّهِ فِي السَّجْنِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَتَسْأَلُهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ﴾، أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ الْحِجَّةَ فِي حَبْسِهِمْ إِيَّاهُ ظُلْمًا، فَقَالَ ﷺ عَلَى سَبِيلِ التَّوَضُّعِ، لَا أَنَّهُ ﷺ كَانَ فِي الْأَمْرِ مِنْهُ مُبَادِرَةٌ وَعَجَلَةٌ لَوْ كَانَ مَكَانَ يَوْسُفَ، وَالتَّوَضُّعُ لَا يُصَغَّرُ كَبِيرًا، وَلَا يَضَعُ رَفِيعًا، وَلَا يُبْطِلُ لِذِي حَقٍّ حَقًّا، وَلَكِنَّهُ يُوجِبُ لِصَاحِبِهِ فَضْلًا، وَيُكْسِبُهُ جَلَالًا وَقَدْرًا^(١).

قوله: (إِنْ كَانَ لِحْلِيَاءَ)، «إِنْ» هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، الْأَنَاةُ: الْوَقَارُ، وَقِيلَ: هُوَ اسْمٌ مِنَ التَّأْنِي فِي الْأُمُورِ.

قوله: (لِأَنَّ السُّؤَالَ مِمَّا يُهَيِّجُ الْإِنْسَانَ)، أَي: يُحَرِّكُ مِنْهُ، يَعْنِي: قَوْلُهُ: ﴿فَتَسْأَلُهُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْمَسْأَلَةِ، أَي: سَلُهُ عَنْ حَقِيقَةِ شَأْنِنَ، وَأَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الطَّلَبِ، وَهُوَ أَنْ يُفْتَشَّ عَنْ^(٢) شَأْنِنَ، فَحِينَ قَيَّدَهُ بِلَفْظَةِ ﴿مَا﴾ الَّتِي يُسْأَلُ بِهَا عَنْ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ ظَاهِرًا هَيَّجَهُ لِلتَّفْتِيشِ عَنْ حَالِنَ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ حَرِيصٌ عَلَى تَحْصِيلِ تَحْقِيقِ الشَّيْءِ، وَيَسْتَكْفُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْجَهْلِ بِهِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ: سَلُهُ أَنْ يُفْتَشَّ، أَي: اطَّلَبْ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي بِهَذَا الطَّلَبِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، سَيِّمًا عَنْ أَمْثَالِ الْمُلُوكِ.

قوله: (وَفِصِّ الْحَدِيثِ)، الْأَسَاسُ: «فُلَانٌ حَزَّازُ الْفُصُوصِ»: إِذَا كَانَ مُصِيبًا فِي رَأْيِهِ وَجَوَابِهِ، وَأَتَيْتُكَ مِنْ فَصِّهِ؛ أَي: مِنْ حَزِّهِ وَأَصْلِهِ، وَمِنْهُ فَصُوصُ الْأَخْبَارِ».

(١) «شرح السنة» للبخاري (١: ١١٧).

(٢) في الأصول الخطية: «من»، وأثبت «عن» موافقةً للفظِ الزمخشريِّ في «الكشاف».

وَقُرِئَ: «النُّسُوءُ» بضمَّ النونِ.

ومن كرمه وحُسنِ أدبه: أنه لم يذكر سيِّدته مع ما صنَّعت به وتَسبَّبت فيه من السَّجن والعذاب، واقتصر على ذكرِ المَقطَّعاتِ أيديهنَّ.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ إن الله تعالى ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أراد أنه كيدٌ عظيمٌ لا يعلمه إلا الله ليُعيد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنهنَّ كيدنه، وأنه بريءٌ مما قُرِفَ به، أو أراد الوعيدَ لهنَّ، أي: هو عليمٌ بكيدهنَّ فمُجازينَّ عليه.

﴿مَا خَطْبُكَ﴾ ما شأنُكَ ﴿إِذْ رَوَدْتَنِّي يُوسُفَ﴾ هل وجدتنَّ منه ميلاً إليكَ؟ ﴿قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ﴾ تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيءٍ من الرِّيبة ومن نزاهته عنها. ﴿قَالَتْ أَمْرَأْتُ الْعَرَبِيزِ الْفَنَّ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي: نبت واستقرَّ.

قوله: (أو استشهد بعلم الله على أنهنَّ كيدنه)، كأنه قال: «فأسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَّعنَ أيديهنَّ، وأردنَ كيدي، والله شاهدي على ذلك»، وشهادة الله تلك الأماراتُ الدالة على براءته، والوجهُ الثالثُ بعيدٌ وبعيدٌ من كرم يوسف عليه السلام، والوجهُ هو الأول، ولهذا أتى بالموصولة، وأوقع صلتهَا قطعَ الأيدي؛ ليُصوِّرَ تلكَ الحالاتِ واللاتي جَلَسْنَ مُتَكِنَاتٍ دَهْشَاتٍ، وأردنَ الكيدَ بهنَّ^(١)، ويستحضر صورتهَا في ذهنِ السامع، ويتعجب منها، فيكون وسيلةً إلى الاستعلام.

قوله: (هل وجدتنَّ منه ميلاً إليكَ)، فإن قلت: كيف دَلَّ قوله: ﴿مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِّي يُوسُفَ﴾ على هذا؟ قلت: من حيث إنه مُطلق، ومقامُ الباعثِ للسؤالِ من قوله: ﴿فَسْأَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يستدعيه، ألا ترى كيف كان الجوابُ قولهم: ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾؟ قوله: ﴿حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي: نبت واستقرَّ، الراغب: «حَصَّصَ الْحَقُّ: وَضَحَ، وَذَلِكَ

(١) كذا في الأصول الخطية، ولعل الصواب: «به».

وَقُرِي: «حُصِّحَصَ» على البناء للمفعول، وهو من: حَصَّحَصَ البعير؛ إذا أُنْقِيَ ثِفْنَاتِهِ لِلإِنَاخَةِ، قال:

فَحَصَّحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثِفْنَاتِهِ وِنَاءً بِسُلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا

ولا مزيدَ على شهادتِهِنَّ له بالبراءة والنزاهة،

بانكشاف ما يَعْمُرُهُ، وَحَصَّ وَحَصَّحَصَ: نَحَوُ: كَفَّ وَكَفَكَفَ، وَكَبَّ وَكَبَّكَبَ. وَحَصَّه: قَطَعَ مِنْهُ، إِمَّا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْ بِالْحُكْمِ، فَمِنْ الْأَوَّلِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

قَد حَصَّصَتِ الْبَيْضَةَ رَأْسِي^(١)

ومنه قيل: رَجُلٌ أَحَصَّ؛ انْقَطَعَ بَعْضُ شَعْرِهِ. وَالْحُصَّةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُمْلَةِ، وَاسْتُعْمِلَتْ اسْتِعْمَالُ النَّصِيبِ^(٢).

قوله: (فَحَصَّحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا)، البيت^(٣): الْمُسْتَرْتَبُ فِي «فَحَصَّحَصَ» لِلْبَعِيرِ. «ثِفْنَاتُهُ»: مَبَارِكُهُ؛ جَمْعُ الثَّفِينَةِ، وَهِيَ مَا وَلِيَ الْأَرْضَ مِنْ كُلِّ ذِي أَرْبَعٍ إِذَا بَرَكَ؛ مِثْلُ الرُّكْبَتَيْنِ وَالكَكْلِكْلِ. وَنَاءٌ [بِهِ] الْحِمْلُ: إِذَا أَثْقَلَهُ. وَالتَّصْمِيمُ: الْمُضِيُّ فِي الْأَمْرِ، يَعْنِي: رَكَبَتْ عَلَيْهِ

(١) البيت لأبي قيس الحارث بن الأسلت الأوسي، كما في «المفصليات» ص ٢٨٤، و«الصحاح» للجوهري، و«لسان العرب» لابن منظور، كلاهما في مادة (حصص) و(هجع)، ولفظه بتمامه:

قَد حَصَّصَتِ الْبَيْضَةَ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ غُمْضًا غَيْرَ تَهْجَاعِ

وسياتي بتمامه عند الزمخشري في تفسير الآية ١٧ من سورة الذاريات (١٥: ١٦)، لكن بلفظ: «أطعمُ نوماً»، والمعنى واحد.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٢٣٧.

(٣) البيت لحَمِيدِ بْنِ ثَوْرٍ، كما في «الصحاح» للجوهري، مادة (حصص) و(صمم)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (حصص) و(صمم).

وذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (٤: ١٤٤) بلفظ:

وَأَثَرَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثِفْنَاتِهِ وَرَمَّتْ سُلَيْمَى أَمْرَهُ ثُمَّ صَمَّمَا

واعترافهنَّ على أنفسهنَّ بأنه لم يتعلَّق بشيء مما قرَّفتهُ به، لأنهنَّ خصومهُ، وإذا اعترفَ الخصمُ بأنَّ صاحبه على الحقِّ وهو على الباطلِ، لم يبقَ لأحدٍ مقال.

وقالت المُجبرَةُ والحسويَّة: نحن قد بقيَ لنا مقال، ولا بدَّ لنا من أن نُدقَّ في فِروةٍ من بُتَّت نِزاهتُهُ.

[﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ﴾ ٥٢]

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من كلام يوسف، أي: ذلك التثبيتُ والتشمرُّ لظهور البراءة ليعلمَ العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ بظهِر الغيبِ في حُرْمَتِهِ. ومحلُّ ﴿بِالْغَيْبِ﴾ الحالُ من الفاعلِ أو المفعول، على معنى: وأنا غائبٌ عنه خَفِيٌّ عن عَيْنِهِ، أو وهو غائبٌ عَنِّي خَفِيٌّ عن عَيْنِي.

ويجوزُ أن يكونَ ظرفاً؛ أي: بمكان الغيبِ، وهو الخفاءُ والاستتارُ وراءَ الأبوابِ السَّبعةِ المُعلَّقة، وليعلمَ أنَّ ﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ﴾ لا يُنفِذُهُ ولا يُسدِّدُهُ،

سُلْمَى ونَهَضَ بها وسارَ، يقول: هذا البعيرُ ألقى ثفنايته، ثم قام بسُلْمَى وقصد السفرَ، ومضى في السفر^(١).

قوله: (ذلك التثبيتُ)، التعريفُ في «التثبيت» للعهد، وهو قولُ يوسفَ عليه السلام للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ﴾ إلى آخِرِهِ، أي: تلك الجسارةُ لأجل أن يعلمَ أني لم أخنهُ.

قوله: (في حُرْمَتِهِ)، أي: في امرأته، قال:

تَهْوَىٰ حَيَاتِي وَأَهْوَىٰ مَوْتَهَا شَغَفًا
والموتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ^(٢)

(١) من قوله: «يقول: هذا البعير» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٢) البيتُ لإسحاقَ بنِ خَلْفٍ، كما في «الحماسة» ص ٥٢، قال ابنُ منظور في «لسان العرب»، مادة (شفق): «وقيل: لابنِ المُعلِّ»، ولفظهُ فيهما: «وأهوى مَوْتَهَا شَغَفًا».

وأوردَهُ بلفظ: «شَغَفًا» ابنُ داود الأصفهاني في «الزهر» (٢: ٦٦١).

وكأنه تعريضٌ بامرأته في خيانتها أمانة زوجها، وبه في خيانتِه أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآياتِ على حبسِه. ويجوزُ أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً كما هدَى اللهُ كَيْدَهُ ولا سَدَّده.

[﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي٤ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ٥ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي٦ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٥٣]

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مُزْكياً، وبحالها في الأمانة مُعجَباً ومُفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»،

قوله: (وكأنه تعريضٌ بامرأته)، الراغب: «خصَّ الخائنينَ تنبيهاً على أنه قد يَهْدِي كَيْدَ مَنْ لَمْ يَقْصِدْ بِكَيْدِهِ خِيَانَةَ، ككَيْدِ يَوْسُفَ بِأَخِيهِ»^(١).

قوله: (ويجوزُ أن يكون تأكيداً لأمانته)، أي: اعتراضاً وتديلاً، فيجبُ إثباتُ الكيدِ ليوسفَ عليه السَّلامُ لِتَطَهَّرَ به أمانته، وتندفعَ عنه الخيانةُ التي نُسبتَ إليه، وهو ما ذكره في قوله: «ذَلِكَ الثَّبْتُ وَالتَّشْمُرُ لِظُهُورِ الْبِرَاءَةِ»^(٢) لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخْنِهِ بِالْغَيْبِ»، لأنَّ صُورَتَهُ صُورَةُ الْكَيْدِ، يعني: لو كنتُ خائناً ما برأتُ ساحتِي حتَّى بَشَّمُرِي وَتَثْبُتِي.

قوله: (أنا سيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ)، تمامه: «بيدي لواءُ الحمدِ وَلَا فَخْرَ، وما من نبيٍّ يَوْمَئِذٍ؛ آدَمُ»^(٣) فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِيَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ^(٤) عَنِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٢٨.

(٢) في الأصول الخطية: «لظهور أمره»، والمثبت من «الكشاف»، وسيأتي كذلك عند المؤلف بعد قليل.

(٣) في الأصول الخطية: «ما من بني آدم يومئذ»، وأثبت ما يوافق لفظ الحديث عند الترمذي.

(٤) في «جامعه» برقم (٣١٤٨) و(٣٦١٥). ونحوه عند ابن ماجه (٤٣٠٨).

وأخرج البخاري (٢٤١٢) في قصة أخرى من حديث أبي سعيد أيضاً: «فأكونُ أَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضَ».

وأخرج مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة: «أنا سيِّدُ وُلْدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنَشَّقُ عَنْهُ الْقَبْرَ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ».

ولِيُبَيِّنَ أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْأَمَانَةِ لَيْسَ بِهِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ وَعِصْمَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَتْرَيْتُ نَفْسِي﴾ مِنَ الزَّلَلِ، وَمَا أَشْهَدُ لَهَا بِالْبَرَاءَةِ الْكُلِّيَّةِ وَلَا أَزْكِيهَا. وَلَا يَخْلُو: إِذَا أَنْ يُرِيدَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ، لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْهَمِّ الَّذِي هُوَ مِثْلُ النَّفْسِ عَنِ طَرِيقِ الشَّهْوَةِ الْبَشَرِيَّةِ لَا عَنِ طَرِيقِ الْقَصْدِ وَالْعَزْمِ. وَإِنَّمَا أَنْ يُرِيدَ عُمُومَ الْأَحْوَالِ. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أَرَادَ الْجِنْسَ، أَي: إِنَّ هَذَا الْجِنْسَ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ وَيَجْمَلُ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، ﴿إِلَّا مَا رَجَحَ رَبِّي﴾ إِلَّا الْبَعْضَ الَّذِي رَحِمَهُ رَبِّي بِالْعِصْمَةِ، كَالْمَلَائِكَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَا رَجَحَ﴾ فِي مَعْنَى الزَّمَنِ، أَي: إِلَّا وَقْتَ رَحْمَةِ رَبِّي، يَعْنِي: أَنَّهَا أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ، إِلَّا وَقْتَ الْعِصْمَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا، أَي: وَلَكِنْ رَحْمَةُ رَبِّي هِيَ الَّتِي تَصْرِفُ الْإِسَاءَةَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُقَدُّونَ﴾ * إِلَّا رَحْمَةً ﴿[يَس: ٤٣-٤٤].

قوله: (ولا يخلو: إما أن يُريدَ في هذه الحادثة؛ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْهَمِّ الَّذِي هُوَ مِثْلُ النَّفْسِ لَا الْعَزْمَ^(١))، وَإِنَّمَا أَنْ يُرِيدَ عُمُومَ الْأَحْوَالِ)، الْإِنْتِصَافُ: «عُمُومَ الْأَحْوَالِ أَبْلَغُ فِي التَّنْزِيهِ وَهَضَمَ النَّفْسَ، وَأَبْعَدُ عَنِ تَرْكِيئِهَا»^(٢).

قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُقَدُّونَ﴾ * إِلَّا رَحْمَةً ﴿، أَي: «وَلَا هُمْ يَنْجُونَ مِنَ الْمَوْتِ بِالْعَرَقِ إِلَّا لِرَحْمَةِ مِنَّا»، هَكَذَا ذَكَرَهُ^(٣)، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ مِنْ أَعْمَ عَامِّ الْمَفْعُولِ لَهُ، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «هُوَ مَفْعُولٌ لَهُ أَوْ مَصْدَرٌ، وَقِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ»^(٤).

وقلت: تقديره: وَلَا هُمْ يَنْجُونَ مِنَ الْعَرَقِ الْبَتَّةَ، وَلَكِنْ رَحْمَةُ رَبِّي هِيَ الَّتِي تُنَجِّيهِمْ.

(١) في العبارة اختصاراً عما في «الكشاف» لا يخفى.

(٢) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٢٧) بحاشية «الكشاف».

(٣) أي: الزمخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة يس (١٣: ٦٠).

(٤) «التيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ١٠٨٤).

وقيل: معناه: ذلك ليعلم الله أنني لم أخنه لأن المعصية خيانة.

وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أنني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة، فإني قد خنته حين قرفته وقلت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن، وأودعته السجن، تُريد الاعتذار مما كان منها، إن كل نفس ﴿لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استغفرت ربها واسترحمتها مما ارتكبت.

قوله: (وقيل: معناه: ذلك ليعلم الله)، معطوف على قوله: «ذلك الثبوت والتشمر لظهور

البراءة ليعلم العزيز».

فإن قلت: ما معنى قول يوسف: ليعلم الله أنني لم أخنه بالغيبة؟ قلت: معنى قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذلك أن الله لم يزل عالماً بأن يوسف لم يخنه، لكن المراد أن يسأل الملك ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ليجزين الله بصبري عن معصية الله، لأن معصيته خيانة، بأن يظهر بسؤاله براءة ساحتي، ويكرمني ويرفع منزلتي.

قوله: (وقيل: هو من كلام امرأة العزيز)، معطوف على قوله: «ذلك ليعلم» من كلام يوسف، والأول أوفق لتأليف النظم من غير تقديم ولا تأخير، وذلك أن النسوة لما برأن ساحته على سبيل التأكيد، حيث جعلن ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ تمهيداً وتشبهاً بقوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهٍ مِنْ سُوءٍ﴾، فنقین عنه السوء المنكر على سبيل الاستغراق، وكذا امرأة العزيز قدمت الفاعل المعنوي في قولها: ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ﴾ على سبيل الاختصاص، وأتبعته قولها: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تقريراً له، أي: هو من زمرة الصادقين، وله مساهمة في الصدق، وأن هذا الوصف كاللقب المشهور له، قال يوسف: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك السؤال والجواب ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الملك أنني لم أخن العزيز بظهر الغيب في حرمة، ومن ذلك ﴿وَمَا أَبْرئُ نَفْسِي﴾ براءة كلبية كما

فإن قلت: كيف صحَّ أن يجعل من كلام يوسف، ولا دليل على ذلك؟ قلت: كفى بالمعنى دليلاً قائداً إلى أن يجعل من كلامه، ونحوه قوله: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِخِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠]، ثم قال: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٠]، وهو من كلام فرعون يُخاطبهم ويستشيرهم.

وعن ابن جريج: هذا من تقديم القرآن وتأخيرها؛ ذهب إلى أن ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ﴾ [يوسف: ٥٢] متصل بقوله: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ [يوسف: ٥٠]، ولقد لَفَقَتِ المَبْطَلَةُ روايات مصنوعة، فزعموا أن يوسف حين قال: ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف: ٥٢]، قال له جبريل: ولا حين هَمَمْتَ بها؟ وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حَلَلْتَ تِكَّةَ سَراويلِكَ يا يوسف؟ وذلك لتهاكهم على بهت الله ورُسُلِهِ.

[﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَستَحْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾]

[٥٤]

أشرف إليها على مر^(١)، كيف وأني هَمَمْتُ بها لولا أن رأيت بُرْهانَ ربي، فعلى هذا: قوله: ﴿ إِلَّا مَا رَجَحَ رَبِّي ﴾ إشارة إلى ذلك البرهان، والاستثناء منقطع، وكان ذلك منه عليه السلام تفادياً عن الركون إلى إطراء المدح، وتصديقاً لقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾، أي: المتوغّلين في الصدق^(٢).

قوله: (هذا من تقديم القرآن)، أي: ذهب ابن جريج إلى أن قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ متصل بقوله: ﴿ فَتَسْأَلُهُ ﴾، كأنه قيل: فاسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَعْنَ أيديهنَّ ليُخْبِرَنَّهُ ببراءتي، وذلك السؤال لأجل أن يعلم أني لم أخنّه بالغيّب.

(١) كذا في (ط) والفقرة ساقطة من (ح) و(ف) ومن النسخة الموصلية كما سيأتي.

(٢) من قوله: «والأول أوفق لتأليف النظم» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف)، ومن النسخة الموصلية أيضاً.

يقال: استخلصه واستحصه؛ إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾
 وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قَالَ﴾ أيها الصديق ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة
 ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء. روي: أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك،
 فخرج من السجن، ودعا لأهله: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تغم
 عليهم الأخبار. فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات، وكتب على باب السجن:
 هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء. ثم اغتسل
 وتنظف من درن السجن، وليس ثياباً جُدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني
 أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلم عليه ودعا له
 بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال لسان أبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً،
 فكلمه بها، فأجابته بجميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق، إني أجب أن أسمع
 رؤيائي منك. فقال: رأيت بقرات؛ فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن،
 ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك، لا يجرم منها حرفاً، وقال
 له: من حَقِّك أن تجمع الطعام في الأهراء، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك،
 ويجمع لك من الكنوز ما لم يجمع لأحد قبلك.

قوله: (ولا تُغم عليهم الأخبار)، الجوهرى: «عميت معنى البيت تعمية، ومنه المعنى»،
 فقوله: «اعطف عليهم قلوب الأخيار» كناية عن طلب خلاصهم، وقوله: «ولا تُغم عليهم»
 كناية عن طلب ما به يحصل تسليهم في ذلك المكان من الاعتبار بالواقعات.
 قوله: (في الأهراء)، واحداً: هُري، وهو الأنبار، ولم أجده إلا في الحاشية^(١).

(١) أي: حاشية «الكشاف» نفسه، والمؤلف ينقل عنها في مواضع، صرح في بعضها أن الكلام للزخسري نفسه.
 أما عدّم وقوف المؤلف رحمه الله تعالى على هذا المعنى إلا في الحاشية: فغريب، فقد ذكره الخليل بن أحمد
 الفراهيدي في «العين» (٤: ٨٤)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥: ١٥٥)، وأبو عبيد البكري في «معجم
 ما استعجم» (١: ١٩٧)، وغيرهم. قال الخليل: «الهري: بيت ضخم لطعام السلطان، وجمعه: أهراء».

[﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ٥٥]

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ وَلَنِي خَزَائِنَ أَرْضِكَ ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ آمينُ
أحفظُ ما تَسْتَحْفِظُنِيهِ، عالمٌ بوجوه التَّصَرُّفِ، وَصِفَا لِنَفْسِهِ بِالْأَمَانَةِ وَالْكَفَايَةِ اللَّتَيْنِ
هُمَا طَلِبَةُ الْمُلُوكِ مَنْ يُؤْتُونَهُ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى إِمضَاءِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِقَامَةِ
الْحَقِّ وَبَسْطِ الْعَدْلِ، وَالتَّمَكُّنِ مِمَّا لِأَجَلِهِ تُبْعَثُ الْأَنْبِيَاءُ إِلَى الْعِبَادِ، وَلِعَلِّمَهُ أَنْ أَحَدًا غَيْرَهُ
لَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ، فَطَلَّبَ التَّوَلِيَةَ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ لَا لِحُبِّ الْمُلْكِ وَالدُّنْيَا. وَعَنْ
النَّبِيِّ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ، لَوْ لَمْ يَقُلْ: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، لَأَسْتَعْمَلَهُ
مِنْ سَاعَتِهِ، وَلَكِنَّهُ أُخِّرَ ذَلِكَ سَنَةً».

فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر، ويكون تبعاً له وتحت أمره
وطاعته؟ قلت: روي مجاهد أنه كان قد أسلم. وعن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن
يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة
البغاة ويرونه. وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم
إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به. وقيل: كان الملك يصدُرُ عن
رأيه، ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

[﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ
وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٥٦]

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ ومثل ذلك التمكن الظاهر ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ في أرض مصر. روي
أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين، ﴿ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ قرئ بالنون والياء؛

قوله: (وَيَرُونَهُ)، أي: يعقدونه من الرأي، وهو الاعتقاد.

قوله: ﴿ حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ قرئ بالنون والياء، بالنون: ابن كثير، والباقون: بالياء^(١).

(١) انظر: «التيسير» ص ١٢٩، و«حجة القراءات» ص ٣٦٠.

أي: كل مكانٍ أراد أن يتَّخذه منزلاً ومُتَبَوِّأً له، لم يُمنع منه لاستيلائه على جميعها، ودُخوله تحت مَلَكتِهِ وسُلْطَانِهِ. رُوي: أَنَّ الْمَلِكَ تَوَجَّهَ وَخْتَمَهُ بِخَاتَمِهِ، وَرَدَّاهُ بِسَيْفِهِ، وَوَضَعَ لَهُ سَرِيرًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلًا بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، وَرُوي أَنَّهُ قَالَ لَهُ: أَمَّا السَّرِيرُ فَأَشَدُّ بِهِ مُلْكَكَ، وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَأَدْبُرُ بِهِ أَمْرَكَ، وَأَمَّا التَّاجُ فَلَيْسَ مِنْ لِبَاسِي وَلَا لِبَاسِ آبَائِي. فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتُهُ إِجْلَالًا لَكَ، وَإِقْرَارًا بِفَضْلِكَ. فَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ، وَدَانَتْ لَهُ الْمُلُوكُ، وَفَوَّضَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ أَمْرَهُ، وَعَزَلَ قِطْفِيرًا، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَهُ، فَزَوَّجَهُ الْمَلِكُ امْرَأَتَهُ زَلِيخًا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِمَّا طَلَبْتَ؟ فَوَجَدَهَا عِزْرَاءً، فَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ: إِفْرَائِيمَ وَمِيشَا، وَأَقَامَ الْعَدْلَ بِمِصْرَ،

قوله^(١): (وَرَدَّاهُ بِسَيْفِهِ)، أَي: وَشَحَّه، الْأَسَاسُ: «لَبَسَتِ الْمَرْأَةُ رِدَاءَهَا؛ أَي: وَشَاخَهَا. وَتَرَدَّتْ وَارْتَدَّتْ: تَوَشَّحَتْ». وَأُنشِدُ:

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرٍو بْنِ بَكْرِ
لِي السَّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ عَنْهُ بِسَطْرٍ^(٢)

قوله: (أَمَّا السَّرِيرُ فَأَشَدُّ بِهِ مُلْكَكَ)، أَي: أَضْبِطُهُ وَأَسَخِّرُهُ لَكَ، وَلَمَّا كَانَ السَّرِيرُ يُرَادُ الْمَلِكَ وَيُلَازِمُهُ - حَتَّى قِيلَ: اسْتَوَى فَلَانَ عَلَى السَّرِيرِ، وَأُرِيدُ: سَخَّرَ لَهُ الْمَلِكُ، وَدَانَ لَهُ النَّاسَ، وَإِنْ لَمْ يَقْعُدْ عَلَى السَّرِيرِ - قَالَ ذَلِكَ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ ذَلِكَ لَا تَنَافِي حَقِيقَةَ الْجُلُوسِ عَلَى السَّرِيرِ مَعَ ضَبْطِ الْمَلِكِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: «فَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ، وَدَانَتْ لَهُ الْمُلُوكُ».

قوله: (وَأَمَّا التَّاجُ فَلَيْسَ مِنْ لِبَاسِي وَلَا لِبَاسِ آبَائِي)، يُجَالِفُهُ قَوْلُهُ بَعْدَ هَذَا^(٣): «فِي عُنُقِهِ طَوْقٌ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ»، إِلَّا أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ: «وَضَعْتُهُ إِجْلَالًا لَكَ» عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ يَوْسُفَ لَا الْمَلِكِ، أَي: وَضَعْتُهُ عَلَى رَأْسِي إِجْلَالًا لِأَمْرِكَ.

(١) من قوله: «في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم» - قبل ٩ فقرات - إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) البيتان أنشدتهما الزمخشري في تفسير الآية ١١٢ من سورة النحل (٩: ٢١١).

(٣) ص ٨٩ في تفسير الآية ٥٨ من هذه السورة.

وأحبتّه الرّجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحطِ الطعامَ بالدنانير والدراهم في السنّة الأولى حتى لم يبقَ معهم شيءٌ منها، ثم بالحليّ والجواهر، ثم بالدوابّ، ثم بالضّياع والعقار، ثم برقابهم، حتى استرقّهم جميعاً، فقالوا: والله ما رأينا كالיום ملكاً أجلاً ولا أعظمَ منه! فقال الملك: كيف رأيت صنعَ الله بي فيما حوّلني، فما ترى؟ قال: الرأي رأيتك. قال: فإني أشهدُ الله وأشهدك أنّي اعتقتُ أهلَ مصرَ عن آخرهم، ورددتُ عليهم أملاكهم، وكان لا يبيعُ من أحدٍ من المُتارينَ أكثرَ من جملٍ بعير، تقسيطاً بين الناس. وأصابَ أرضَ كنعانَ وبلادَ الشامِ نحو ما أصابَ أرضَ مصر، فأرسلَ يعقوبُ بنيه ليمتاروا، واحتبسَ بنيامين.

﴿بَرَحْمَتِنَا﴾ بعبائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم، ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ مَنْ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ نَشَاءَ لَهُ ذَلِكَ، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَنْ نَأْجِرَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

[﴿وَلَا نُجْرُ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ ٥٧]

﴿وَلَا نُجْرُ الْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ لهم. قال سفيان بن عيينة: المؤمنُ يُثَابُ عَلَى حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْفَاجِرُ يُعْجَلُ لَهُ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلِاقٍ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ.

[﴿وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ٥٨]

لَمْ يَعْرِفُوهُ لِطُولِ الْعَهْدِ وَمُفَارَقَتِهِ إِيَاهُمْ فِي سِنِّ الْحِدَاثَةِ، وَلَا عِتْقَادِهِمْ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، وَلِذَهَابِهِ عَنْ أَوْهَامِهِمْ لِقَلَّةِ فِكْرِهِمْ فِيهِ وَاهْتِمَامِهِمْ بِشَأْنِهِ، وَلِبُعْدِ حَالِهِ الَّتِي بَلَغَهَا مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ عَنْ حَالِهِ الَّتِي فَارَقُوهُ عَلَيْهَا طَرِيحاً فِي الْبَثْرِ،

قوله: (لَمْ يَعْرِفُوهُ لِطُولِ الْعَهْدِ)، تفسيرٌ لقوله: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾، فدلَّ هذا وقوله بُعِيدَ هَذَا: «أخبروني من أنتم؟ وما شأنكم؟ فإني أنكركم» على أن الإنكارَ يُضَادُّ الْعِرْفَانَ، وَلِذَلِكَ أَوْفَعَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ مُقَابِلًا لِقَوْلِهِ: ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾.

مَشْرِيًّا بِدِرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ، حَتَّىٰ لَوْ تُحْتَمِلُ لَهُمْ أَنَّهُ هُوَ لَكَذَّبُوا أَنفُسَهُمْ وَظَنُوتِهِمْ، وَلَآنَ الْمَلِكِ مِمَّا يُبَدِّلُ الزِّيَّ، وَيُلْبَسُ صَاحِبَهُ مِنَ التَّهَيُّبِ وَالِاسْتِعْظَامِ مَا يُنْكِرُ لَهُ الْمَعْرُوفَ. وَقِيلَ: رَأَوْهُ عَلَىٰ زِيٍّ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ ثِيَابُ الْحَرِيرِ، جَالِسًا عَلَىٰ سُرِيرٍ، فِي عُنُقِهِ طَوْقٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجٌ، فَمَا حَظَرَ بِبَاهِمٍ أَنَّهُ هُوَ. وَقِيلَ: مَا رَأَوْهُ إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مَسَافَةٌ وَحِجَابٌ، وَمَا وَقَفُوا إِلَّا حَيْثُ يَقِفُ طُلَّابُ الْحَوَائِجِ، وَإِنَّمَا عَرَفَهُمْ لِأَنَّهُ فَارَقَهُمْ وَهُمْ رِجَالٌ، وَرَأَىٰ زَيْئَهُمْ قَرِيبًا مِنْ زَيْئِهِمْ إِذْ ذَاكَ، وَلَآنَ هِمَّتَهُ كَانَتْ مَعْقُودَةً بِهِمْ وَبِمَعْرِفَتِهِمْ، فَكَانَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَفَقَّنُ. وَعَنِ الْحَسَنِ: مَا عَرَفَهُمْ حَتَّىٰ تَعَرَّفُوا لَهُ.

[﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونَ بَآخَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتِرُونَ أَمْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ ٥٩]

قال الراغب: «المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكير لأثره، فهو أخص من العلم، يُقال: فلان يعرف الله، ولا يُقال: يعلم الله، مُتَعَدِّيًّا إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، لَمَّا كَانَ مَعْرِفَةُ الْبَشَرِ لِلَّهِ تَعَالَى بِتَدْبِيرِ آثَارِهِ دُونَ إِدْرَاكِ ذَاتِهِ. وَيُقَالُ: اللَّهُ يَعْلَمُ كَذَا، وَلَا يُقَالُ: يَعْرِفُ، لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ تُسْتَعْمَلُ فِي الْعِلْمِ الْقَاصِرِ الْمُتَوَصَّلِ إِلَيْهِ بِتَفَكُّرٍ، وَأَصْلُهُ مِنْ: عَرَفْتُ، أَي: أَصَبْتُ عَرَفَهُ؛ أَي: رَاحَتْهُ، وَيُضَادُّ الْمَعْرِفَةَ الْإِنْكَارَ، كَالْعِلْمِ لِلْجَهْلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، وَالْعَارِفُ فِي تَعَارُفِ الْقَوْمِ: هُوَ الْمُخْتَصُّ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ مَلَكَوْتِهِ، وَحُسْنُ مُعَامَلَتِهِ»^(١).

قوله: (على زيِّ فرعون)، وفرعون إنما ملك بعد يوسف في عهد موسى عليه السلام، يُقالُ لَمْلُوكٍ مِصْرَ: الْفَرَاغَةُ، وَالْيَمَنُ: التَّابِعَةُ، وَالرُّومُ: الْقِيَاصِرَةُ، وَالْفُرْسُ: الْأَكَايِسِرَةُ^(٢).

(١) مفردات القرآن ص ٥٦٠-٥٦١.

(٢) هذه الفقرة قُدِّمَتْ فِي (ح) وَ(ف) قَبْلَ فِئْرَةِ «قَوْلُهُ: لَمْ يَعْرِفُوهُ لَطُولَ الْعَهْدِ»، وَوَرَدَتْ فِي (ط) هُنَا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي «الْكَشَافِ».

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي: أصلحهم بعدتهم، وهي عُدَّة السَّفَر من الزَّاد وما يحتاج إليه المسافرون، وأوقر ركائبهم بما جاؤوا له من الميرة.

وقرئ: «بجهازهم» بكسر الجيم، ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ لا بد من مُقَدِّمَةٍ سَبَّقت له معهم، حتى اجترَّ القول هذه المسألة.

رُوي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم، فإني أنكركم؟ قالوا: نحن قومٌ من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد، فجئنا نمتار، فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورةً بلادي؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أبٍ واحد، وهو شيخٌ صديقٌ نبيٌّ من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد. قال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا بلاد لا يعرفنا فيها أحدٌ فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة، واتوني بأخيكم من أبيكم،

قوله: ﴿بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي: أصلحهم بعدتهم، الراغب: «الجهاز: ما يعدُّ من متاعٍ وغيره، والتجهيز: حمل ذلك وبعثه، وضرب البعير بجهازه: إذا ألقى متاعه في رجليه فنقر»^(١).

قوله: (من الميرة)، قيل: هو بيان «ما»، بل هو صلة «أوقر»، لأنهم الممتارون، يدلُّ عليه ما ذكر قبيل هذا: «فأرسل يعقوبُ بنيه ليمتاروا»، والباء في «بما جاؤوا له» بكسرة، و«ما جاؤوا له» هو البضاعة التي في قوله^(٢): ﴿وَقَالَ لِفَتِيِّنِهِ اجْعَلُوا بَعْضَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾.

قوله: (عورةً بلادي)، العورة: الحلل، أراد الحلل التي تكون في الثغور.

(١) مفردات القرآن ص ٢٠٩.

(٢) قوله: «وما جاؤوا له هو البضاعة التي في قوله» سقط من (ح) و(ف).

وهو يَحْمِلُ رسالةً من أبيكم حتى أُصَدِّقَكم، فاقْتَرَعُوا بينهم، فأصابتِ القرعةُ شَمْعون، وكان أَحْسَنَهُمْ رأياً في يوسف، فخلَّفوه عنده، وكان قد أَحْسَنَ إنزاهم وضيافتهم.

﴿وَلَا تُقْرَبُونَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكونَ داخِلاً في حُكْمِ الجزاءِ مجزوماً، عطفاً على محلِّ قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾، كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تُحْرَمُوا ولا تُقْرَبُوا، وأن يكونَ بمعنى النهي.

[﴿قَالُوا سَتَرُوا عَنْهُ آيَاتِهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ٦١]

﴿سَتَرُوا عَنْهُ آيَاتِهِ﴾ سَخَّادِعُهُ عنه، وَسَنَجَتَهُدُ وَنَحْتَالُ حَتَّى نَنْتَزِعَهُ مِنْ يَدِهِ، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ وإنا لقادرون على ذلك، لا نَتَعَايَا بِهِ، أو: وإنا لفاعِلون ذلك لا محالة، لا نُفَرِّطُ فِيهِ وَلَا نَتَوَانِي.

[﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٦٢]

قوله: (فأصابتِ القرعةُ شَمْعون، وكان أَحْسَنَهُمْ رأياً)، قَالَ بَعْضُهُمْ: فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّهُ يُخَالِفُ مَا قَالَ قَبْلَ هَذَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ [يوسف: ١٠]: «هُوَ يَهُودًا، وَكَانَ أَحْسَنَهُمْ رأياً، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: ﴿فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠].»

قوله: (وأن يكونَ بمعنى النهي)، يعني: يكونَ داخِلاً في حُكْمِ الجزاءِ معطوفاً عليه، لَكِنْ جَزَمَهُ لِأَجْلِ النَّهْيِ.

قوله: (لا نَتَعَايَا بِهِ)، يُقَالُ: أَعْيَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَتَعَايَا: إِذَا عَجَزَ عَنْهُ، وَعَلَىٰ هَذَا: قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ تَدْبِيلٌ وَتَوْكِيدٌ لِفِعْلِ الْمُرَاوِدَةِ، وَأَنَّهُ يَصْدُرُ مِنْهُمْ الْبِتَّةُ، إِطْلَاقاً لِاسْمِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ، لِأَنَّ الْأَفْعَالَ مَصَادِرُهَا الْقُدْرَةُ، وَعَلَى الثَّانِي: تَوْكِيدٌ لِلْوَعْدِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «لَا نُفَرِّطُ فِيهِ».

﴿لِفِتْيَتِهِ﴾ و﴿قُرِي﴾: ﴿لِفِتْيَتِهِ﴾، وهما جمع فتى، كإخوة وإخوان في أخ، و«فِعْلَةٌ» للِقَلَّةِ، و«فِعْلَانٌ» للكثرة، أي: لِعِلْمَانِهِ الْكَيَالِينَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَ حَقَّ رَدِّهَا وَحَقَّ التَّكْرُمِ بِإِعْطَاءِ الْبَدَلِينَ ﴿إِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ وَفَرَّغُوا ظُرُوفَهُمْ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لَعَلَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِذَلِكَ تَدْعُوهُمْ إِلَى الرَّجُوعِ إِلَيْنَا، وَكَانَتْ بِضَاعَتُهُمُ النَّعَالَ وَالْأُدْمَ. وَقِيلَ: تَخَوَّفَ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَ أَبِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ مَا يَرْجِعُونَ بِهِ. وَقِيلَ: لَمْ يَرِ مِنَ الْكِرْمِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ثَمَنًا، وَقِيلَ: عَلِمَ أَنْ دِيَانَتَهُمْ تَحْمِلُهُمْ عَلَى رَدِّ الْبِضَاعَةِ لَا يَسْتَجِلُّونَ إِمْسَاكَهَا، فَيَرْجِعُونَ لِأَجْلِهَا. وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لَعَلَّهُمْ يَرُدُّونَهَا.

[﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مِنَّا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾ ٦٣]

﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يُرِيدُونَ قَوْلَ يَوْسُفَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾، لِأَنَّهُمْ إِذَا أُنذِرُوا بِمَنْعِ الْكَيْلِ فَقَدْ مَنِعَ الْكَيْلُ،

قوله: (وقيل: معنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾)، عطف على قوله: «لَعَلَّ مَعْرِفَتَهُمْ» إِلَى آخِرِهِ، فَيَكُونُ مِنَ الرَّجْعِ، لَا مِنَ الرَّجُوعِ^(١).

قوله: (بإعطاء البدلين)، أي: البضاعة والكيل.

قوله: (لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل)، تعليل لتفسير ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ بقوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾، وذلك أنه عليه السَّلامُ مَنَعَهُمْ مِنَ الْاِكْتِيَالِ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ تُفِيدُ أَنَّ الْمَمْنُوعَ هُوَ الْكَيْلُ، فَيَكُونُ كِنَايَةً عَنْهُ^(٢).

(١) قال العلامة الفيروزآبادي في «القاموس»، مادة (رجع): «رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا: انصَرَفَ، وَرَجَعَ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ، وَرَجَعَهُ إِلَيْهِ رَجْعًا: صَرَفَهُ وَرَدَّهُ، كَارْجَعَهُ».

(٢) هذه الفقرة قُدِّمَتْ فِي الْأَصْلِينَ قَبْلَ فِقْرَةِ «قَوْلُهُ»: وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وَأَخْرَجْنَا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ لِئَن يَسِبَ تَرْتِيبُ الْكَلَامِ هُنَا تَرْتِيبَهُ فِي «الْكَشَافِ».

﴿نَكَتَلْ﴾ نَرَفَعَ الْمَانِعَ مِنَ الْكَيْلِ، وَنَكَتَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَقَرِيءٌ: «يَكْتَلُ» بِمَعْنَى: يَكْتَلُ أَحُونًا، فَيَنْضُمُ اكْتِيَالَهُ إِلَى اكْتِيَالِنَا، أَوْ يَكُنُ سَبَبًا لِلَاكْتِيَالِ، فَإِنَّ امْتِنَاعَهُ بِسَبَبِهِ.

[﴿قَالَ هَلْ ءَامَنَّاكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَّاكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٦٤]

﴿هَلْ ءَامَنَّاكُمْ عَلَيْهِ﴾ يُرِيدُ أَنْكُمْ قَلْتُمْ فِي يَوْسُفَ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، كَمَا تَقُولُونَهُ فِي أَخِيهِ، ثُمَّ خَشِئْتُمْ بَضْمَانِكُمْ، فَمَا يُؤْمِنُنِي مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ وَدَفَعَهُ إِلَيْهِمْ، وَ﴿حَفِظًا﴾ تَمْيِيزٌ، كَقَوْلِكَ: هُوَ خَيْرُهُمْ رَجُلًا، وَلِلَّهِ دَرَّةٌ فَارِسَاءً. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا.....

قوله: (نرفع المانع)، يعني: جواب الأمر هذا، فوضع موضعه ﴿نَكَتَلْ﴾، لأن يوسف عليه السلام لما علّق المنع من الكيل بعدم إتيان أخيه في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾، كَانَ إِرسَالُهُ رَفْعًا لِذَلِكَ الْمَانِعِ، فَوُضِعَ مَوْضِعَهُ ﴿نَكَتَلْ﴾، لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ، وَقَوْلُهُ: «وَنَكَتَلُ مِنَ الطَّعَامِ» شُرُوعٌ فِي تَفْسِيرِ الْاِكْتِيَالِ. قَالَ السَّجَاوَنْدِيُّ: سَأَلَ الْمَازِنِيُّ ابْنَ السَّكَيْتِ عِنْدَ الْوَائِقِ^(١) عَنِ وَزْنِ ﴿نَكَتَلْ﴾، فَقَالَ: «نَفْعَلُ»، قَالَ الْمَازِنِيُّ: فَإِذْ نَ مَاضِيَةٌ «كَتَلُ»، بَلْ وَزْنُهُ «نَفْتَلُ».

قوله: (أو يَكُنُ سَبَبًا لِلَاكْتِيَالِ)، فعلى هذا: إسنادُ «يَكْتَلُ» إِلَى أَخِي يَوْسُفَ عَلَى الْمَجَازِ. قوله: (ثُمَّ خَشِئْتُمْ بَضْمَانِكُمْ)، الْأَسَاسُ: «وَمِنَ الْمَجَازِ: خَاسَ الْعَهْدَ وَبِوَعْدِهِ؛ إِذَا نَكَتَ وَأَخْلَفَ، وَخَاسَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ».

(١) الخليفة العباسي، هارون بن المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد، (١٩٦ - ٢٣٢)، ولي الخلافة سنة ٢٢٧، إلى أن مات، فولّيها بعده أخوه المتوكل. «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٠: ٣٠٦ - ٣١٤).

وَقُرِّي: «حِفْظًا»، وقرأ الأعمش: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظِي»، وقرأ أبو هريرة: «خَيْرُ الْحَافِظِينَ»،
 ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فَأَرْجُو أَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِحِفْظِهِ وَلَا يَجْمَعْ عَلَيَّ مُصِيبَتَيْنِ.

[وَلَمَّا فَتَحُوا مَنَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَلْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَأْسَآ مَا نَبِغِي هَذِهِ.
 بِضَلْعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾

[٦٥]

وَقُرِّي: «رِدَّتْ إِلَيْنَا» بالكسر، على أن كسرة الدال المدغمة نُقِلَتْ إِلَى الرَّاءِ، كما في:
 قِيلَ وَبِيعَ، وَحَكِي قُطْرُبٌ: ضَرْبٌ زَيْدٌ؛ عَلَى نَقْلِ كَسْرَةِ الرَّاءِ فَيَمَنْ سَكَّنَهَا إِلَى الضَّادِ،
 ﴿مَا نَبِغِي﴾ لِلنَّبْيِ؛ أَي: مَا نَبِغِي فِي الْقَوْلِ،

قوله: (وَقُرِّي: «حِفْظًا»)، ﴿حِفْظًا﴾: حَفْصٌ وَحَمَزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ، وَالْباقون: «حِفْظًا»^(١).
 قال أبو البقاء: «﴿حِفْظًا﴾» بالألف: تَمْيِيزٌ، وَمِثْلُ هَذَا يَجُوزُ إِضَافَتُهُ، وَقِيلَ: هُوَ حَالٌ، وَ«حِفْظًا»:
 تَمْيِيزٌ لِأَغْيَرٍ^(٢).

قوله: (وَلَا يَجْمَعُ عَلَيَّ مُصِيبَتَيْنِ)، يعني: جِيءَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تَدْبِيلاً
 لِقَوْلِهِ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ لِلإِسْتِعْطَافِ وَالتَّرْحُمِ، وَمِنْ ثَمَّ اعْتَبِرَ فِي مَعْنَاهُ الحِفْظُ، وَقَالَ:
 «فَأَرْجُو أَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِحِفْظِهِ».

قوله: («رِدَّتْ إِلَيْنَا» بالكسر)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «هِيَ قِرَاءَةٌ عَلَقَمَةٌ وَيُحْيَى»^(٣).

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٣٦٢.

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٣٧).

(٣) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٤٥).

ويحيى: هُوَ ابْنُ وَثَّابٍ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ أَبُو حَيَّانٍ فِي «الْبَحْرِ الْمُحِيطِ» (٥: ٣٢١)، وَهُوَ الْفَقِيهُ الْمُقَرَّرُ
 الْقُدُورَةُ يَحْيَى بْنُ وَثَّابِ الْأَسَدِيِّ الْكَاهِلِيُّ مَوْلَاهُمُ الْكُوفِيُّ، قَرَأَ عَلَى عَلَقَمَةَ وَغَيْرِهِ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٠٣ هـ،
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. «سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (٤: ٣٧٩ - ٣٨٢).

وما تَزِيدُ فيما وَصَفْنَا لك من إِحْسَانِ الْمَلِكِ وَإِكْرَامِهِ، وكانوا قالوا له: إِنَّا قَدِمْنَا عَلَى خَيْرِ رَجُلٍ، أَنْزَلْنَا وَأَكْرَمْنَا كِرَامَةً لَوْ كَانَ رَجُلًا مِنْ آلِ يَعْقُوبَ مَا أَكْرَمْنَا كِرَامَتَهُ. أو: ما نَبْتَعِي شَيْئًا وِرَاءَ مَا فَعَلَ بِنَا مِنَ الْإِحْسَانِ. أو: عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ، بِمَعْنَى: أَيَّ شَيْءٍ نَطْلُبُ وِرَاءَ هَذَا؟ وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَا تَبْعِي» بِالتَّاءِ؛ عَلَى مُحَاطَبَةِ يَعْقُوبَ، مَعْنَاهُ: أَيَّ شَيْءٍ تَطْلُبُ وِرَاءَ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ؟ أَوْ مِنْ الشَّاهِدِ عَلَى صِدْقِنَا؟ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: مَا نَرِيدُ مِنْكَ بِضَاعَةً أُخْرَى.

وقوله: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُوَضَّحَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا تَبْعِي﴾، وَالْجَمْلُ بَعْدَهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَيْهَا، عَلَى مَعْنَى: إِنَّ بَضَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا، فَانْسَطَّهْرُهَا، ﴿وَنَعِيرُ أَهْلَنَا﴾ فِي رُجُوعِنَا إِلَى الْمَلِكِ، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَنَا﴾ فَمَا يُصِيبُهُ شَيْءٌ مِمَّا تَخَافُهُ، وَنَزْدَادُ بَاسْتِصْحَابِ أَحِينَا وَسَقَ بَعِيرٍ زَائِدًا عَلَى أَوْسَاقِ أَبَاعِرِنَا، فَأَيُّ شَيْءٍ نَبْتَعِي وِرَاءَ هَذِهِ الْمَبَاغِي الَّتِي نَسْتَصْلِحُ بِهَا أَحْوَالَنَا، وَنُوسِّعُ ذَاتَ أَيْدِينَا. وَإِنَّمَا قَالُوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لِأَنَّ ذَكَرْنَا أَنَّهُ كَانَ لَا يَزِيدُ لِلرَّجُلِ عَلَى جَمَلٍ بَعِيرٍ لِلتَّقْسِيطِ.

فإن قلت: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فأما إذا فسرت بالكذب والتزييد في القول، كانت الجملة الأولى

قوله: (وما تَزِيدُ)، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: تَزِيدُ فِي الْحَدِيثِ: تَكْذِبُ فِيهِ، الْمَعْنَى: زَادَ فِيهِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ (١).

قوله: (أو ما نبتغي شيئاً ولا ما فعل بنا)، يعني: بالغ في الإكرام بحيث لا مزيد عليه فلا يطلب شيئاً آخر.

قوله: (وسق بعير)، قال الخليل: الوسق: حمل البعير (٢)، والوقر: حمل البغل والحمار.

(١) قوله: «المعنى: زاد فيه ما لم يكن منه» سقط من (ط).

(٢) من قوله: «قوله: (أو ما نبتغي شيئاً ولا ما فعل بنا)» سقط من (ح) و(ف).

- وهي قوله: ﴿هَذِهِ بَضَعْنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ - بياناً لصدقهم وانفءاء التزئد عن قِيلهم، فما تصنع بالجمَل البواقي؟ قلتُ: أعطفها على قوله: ﴿مَا نَبَغِي﴾؛ على معنى: لا نَبغي فيما نقول ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ونفعل كَيْتَ وَكَيْتَ.

ويجوزُ أن يكونَ كلاماً مُبتدأً، كقولك: وينبغي أن نَميرَ أهلنا،

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ كلاماً مُبتدأً)، أي: قوله: ﴿وَنَمِيرُ﴾. قال صاحبُ «الفرائد»: لا تصلحُ الواوُ في الابتداء، ولا أن تكونَ للعطفِ أو للحال، وفي هذا المقام هو للعطف، والتقدير: ما نكذب، هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، وكانَ الرَّدُّ دليلاً على صدقنا فيما قلنا؛ من أنه أكرمنا كما وصفنا، نمشي بها، ونَميرُ أهلنا، وكذا القولُ في الوجهِ الثالثِ والرابع.

وقلت: نحوُ هذا - أي: المعطوفُ عليه - قَدَرَه المصنّفُ في غير هذا الوجه، وهو ما ضَبَطَ معناه بقوله: «كلاماً مُبتدأً»، فإنه أرادَ الاعتراضَ والتذليل، كقولك: فلانٌ ينطقُ بالحقِّ، والحقُّ أبلج، ألا ترى إلى قوله: «وينبغي لي أن لا أقصر» مُقابلاً لقوله: «وينبغي أن نَمير»، وعليه قوله تعالى: ﴿سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ كما سبق، ومن ثمَّ قال: «وإنَّا لفاعِلونَ ذلكَ لا محالة»، ألا ترى أنه كيف عَقَبَ بقوله: «واجتهدتُ في تحصيل عَرَضِهِ» قوله: «سَعَيْتُ في حاجةِ فلان»، ثم عَقَبَها مُؤكِّداً بقوله: «وينبغي لي أن لا أقصر».

وتوجيهُ السؤالِ أن قوله: ﴿هَذِهِ بَضَعْنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ بيانٌ لقوله: ﴿مَا نَبَغِي﴾، بمعنى: لا نكذب، لكنَّ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَحَانَا﴾ لا يصلحُ أن يكونَ بياناً له، فلا يجوزُ العطفُ على البيان، وأما إذا جعلته جُملةً مُؤكِّدةً على سبيل التذليل والاعتراضِ استقام، لأنَّ الكلامَ في الامتياز، وكُلُّ من الجمَل في معناه.

نعم؛ يصحُّ أن يكونَ بياناً إذا حُمِلَ ﴿مَا نَبَغِي﴾ على معنى المشورة والرأي، كما قال: «وما نَنطِقُ إلا بالصواب فيما نُشير»، ويرادُ بقوله: ﴿هَذِهِ بَضَعْنَا﴾ العَرَضُ وما يرجعونَ به إلى طَلَبِ الميرة، وإليه الإشارةُ بقوله: «ونفعل ونصنع؛ بياناً لأنهم لا يبعونَ في رأيهم». وما قَدَرَه صاحبُ «الفرائد» أيضاً وَجَهٌ يُصارُ إليه.

كما تقول: سَعَيْتُ فِي حَاجَةِ فُلَانٍ، وَاجْتَهَدْتُ فِي تَحْصِيلِ غَرَضِهِ، وَيَجِبُ أَنْ أَسْعَى، وَيَنْبَغِي لِي أَنْ لَا أَقْصُرَ.

ويجوز أن يُرَادَ: مَا نَبَغِي وَمَا نَنْطِقُ إِلَّا بِالصَّوَابِ فِيمَا نُشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ تَجْهِيْزِنَا مَعَ أَحِينَا، ثُمَّ قَالُوا: ﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا﴾ نَسْتَهْرُ بِهَا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ وَنَفْعَلُ وَنَصْنَعُ؛ بَيَانًا لِأَنَّهُمْ لَا يَبْعُونَ فِي رَأْيِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مُصِيبُونَ فِيهِ، وَهُوَ وَجْهٌ حَسَنٌ وَاضِحٌ.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أَي: ذَلِكَ مَكِيلٌ قَلِيلٌ لَا يَكْفِينَا، يَعْنُونَ: مَا يُكَالُ لَهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَزِدَادُوا إِلَيْهِ مَا يُكَالُ لِأَخِيهِمْ. أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى ﴿كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾، أَي: ذَلِكَ الْكَيْلُ شَيْءٌ قَلِيلٌ يُجِيبُنَا إِلَيْهِ الْمَلِكُ وَلَا يُضَايِقُنَا فِيهِ، أَوْ سَهْلٌ عَلَيْهِ مُتَيْسِّرٌ لَا يَتَعَاظَمُهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ يَعْقُوبَ، وَأَنَّ جَهْلَ بَعِيرٍ وَاحِدٍ شَيْءٌ يَسِيرٌ لَا يُخَاطَرُ لِمِثْلِهِ بِالْوَلَدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ [يوسف: ٥٢].

[﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ٦٦]

﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ مُنَافٍ لِحَالِي - وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمْ مَا رَأَيْتُ -: إِرْسَالُهُ مَعَكُمْ، ﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حَتَّى تُعْطُونِي مَا أَتَوَّقُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،

قوله: (كقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾)، يعني: كما أن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن يكون من كلام يوسف، وأن يكون من كلام زليخا^(١)، كذلك قوله: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ احتمل أن يكون من كلام الأخوة، وأن يكون من كلام أبيهم.

قوله: (إرساله معكم)، متعلق بقوله: «منافٍ لحالي»، وقوله: «وقد رأيتُ منكم ما رأيتُ منكم ما رأيتُ» إما حالٌ أو جملةٌ مُعَرَّضَةٌ، قَالَ فِي «الانْتِصَافِ»: «لَمَّا اعْتَمَدَ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ عَلَى أَنْ

(١) وهي امرأة العزيز.

أراد أن يحلفوا له بالله، وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه؛ لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدّد، وقد أذن الله في ذلك، فهو إذن منه، ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ جواب اليمين؛ لأن المعنى: حتى تحلفوا لتأتني به، ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا فلم تطبقوا الإتيان به. أو: إلا أن تهلكوا.

فإن قلت: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء، ففيه إشكال؟ قلت: ﴿أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ مفعول له، والكلام المثبت - الذي هو قوله: ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ - في تأويل النفي. معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم؛ أي: لا تمتنعون منه لعلّة من العليل إلا لعلّة واحدة، وهي أن يحاط بكم، فهو استثناء من أعمّ العامّ في المفعول له، والاستثناء من أعمّ العامّ لا يكون إلا في النفي وحده، فلا بدّ من تأويله بالنفي. ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي: قولهم: أقسمت بالله لَمَا فَعَلْتَ وَإِلَّا فَعَلْتَ،

«لن» تأكيد للنفي، فإذا قلت: لن أفعل، فالمعنى: لن أفعله، وأن فعله يُنافي حالي، قال: مناف لحالي»^(١).

قوله: (وقد أذن الله في ذلك، فهو إذن منه)، تفسير لموقع ﴿مِنْ أَلَلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَوْثِقًا مِنْ أَلَلَّهِ﴾.

قوله: (أَقَسَمْتُ بِاللَّهِ لَمَا فَعَلْتُ)، رُوِيَ عن المصنّف أنه قال: «أَقَسَمْتُ» هو إثبات في الظاهر، وليس به، لأنه في معنى النفي، وَقَسَمْتُ وَلَيْسَ بِقَسَمٍ، لأنه في معنى الاستدعاء والطلب، وظاهر «لَمَا» الوقت، وليس بوقت، لأنه في معنى الاستثناء، وما بعده فعل،

(١) «الاتصاف» لابن المنير (٢: ٣٣٢) بحاشية «الكشاف». وفي نقل المؤلف رحمه الله تعالى اختصاراً شديد، ولفظ ابن المنير: «اعتمد - يعني: الرخشري - في إحالة الرؤية على الله أن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣] معناه: أن الرؤية مُنافية لحالي، وجعل هذه المنافة من مُقتضى «لن»، ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت؛ لِمَرْنِ الأذهان على أن هذا مُقتضى «لن»، وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك».

تريد: ما أطلبُ منك إلا الفعل، ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من طَلَبِ الْمَوْثِقِ وإعطائه ﴿وَكَيْلٌ﴾ رقيبٌ مُطَّلِعٌ.

[﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَسَهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٦٧ - ٦٨].

وإنما تمأههم أن يدخلوا من بابٍ واحدٍ لأنهم كانوا ذوي بهاءٍ وشارةٍ حسنةٍ، اشتهرهم أهلُ مصرَ بالقرية عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم،

وليس بفعل، لأنه في معنى الاسم، فالكلامُ كُلُّه - إذن - ليس على ظاهره، بل مؤوَل، ولذلك أعضَل على سيبويه حتى قال: سألت الخليل عن قول العرب: «أقسمت بالله لَمَا فَعَلْتُ».

قال في «الانتصاف»: «إنما اختصَّ قوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِمْ﴾ في النفي، لأنَّ المُسْتَنَى منه مسكوتٌ عنه، والنفي عامٌ؛ إذ يلزمُ من نفي الإتيان نفي عوارضه، فكأنها مُكْرَرَةٌ، بخلاف الإثبات، فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال، فلا تَوَقَّف له إلا على أحدها، ولقد صدَّق القائل: «البلاءُ مُوَكَّلٌ بالمتنطق»، قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، فقالوا: أكله الذنب، وقال: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾، فأحيطَ بهم^(١).

وقال أبو البقاء والقاضي: «التقدير: لتأتني به على كُلِّ حالٍ إلا حالَ الإحاطةِ بكم»^(٢).

قوله: (وشارة حسنة)، الجوهري: «الشارة: اللباسُ والهيئة».

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٣٢) بحاشية «الكشاف». ولفظه في آخره: «وقال: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾، أي: تُغلبوا عليه، فابتني أيضاً بذلك، وأحيطَ بهم، وغلبوا عليه»، واختصَّره المؤلفُ رحمه الله تعالى على وجهٍ قد يخفى به المعنى.

(٢) «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء المُكَبَّرِي (٢: ٧٣٧)، و«أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٩٨).

فكانوا مَظِنَّةً لَطُمُوحِ الْأَبْصَارِ إِلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ الْوُفُودِ، وَأَنْ يُشَارَ إِلَيْهِمْ بِالْأَصَابِعِ، وَيُقَالُ: هُوَ لَاءُ أَضْيَافِ الْمَلِكِ، انظُرُوا إِلَيْهِمْ مَا أَحْسَنَهُمْ مِنْ فِتْيَانٍ! وَمَا أَحَقَّهُمْ بِالْإِكْرَامِ! لِأَمْرِ مَا أَكْرَمَهُمُ الْمَلِكُ وَقَرَّبَهُمْ وَفَضَّلَهُمْ عَلَى الْوَافِدِينَ عَلَيْهِ، فَخَافَ لِذَلِكَ أَنْ يَدْخُلُوا كَوَكْبَةً وَاحِدَةً، فَيُعَانُوا لِحِمَاهِمُ وَجَلَالَةِ أَمْرِهِمْ فِي الصُّدُورِ، فَيُصِيبَهُمْ مَا يَسُوءُهُمْ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يُوصِهِمْ بِالتَّفَرُّقِ فِي الْكِرَّةِ الْأُولَى، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَجْهُولِينَ مَعْمُورِينَ بَيْنَ النَّاسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِلْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ وَجَهٌ تَصِحُّ عَلَيْهِ؟ قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُحَدِّثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى الشَّيْءِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ، نُقْصَانًا فِيهِ وَخَلَلًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ، وَامْتِحَانًا لِعِبَادِهِ، لِتَمَيِّزِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَشْوِ، يَقُولُ الْمُحَقِّقُ: هَذَا فِعْلُ اللَّهِ، وَيَقُولُ الْحَشْوِيُّ: هُوَ أَثَرُ الْعَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية [المدثر: ٣١]]. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يُعَوِّدُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ يَقُولُ: «أُعِيدُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ».

قوله: (فَيُعَانُوا لِحِمَاهِمُ)، الجوهري: «عِنْتُ الرَّجُلُ: أَصَبْتُهُ بَعِينِي، فَأَنَا عَائِنٌ، وَهُوَ مَعِينٌ؛ عَلَى النِّقْصِ، وَمَعِينٌ؛ عَلَى التَّمَامِ»^(١)، وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي التَّمَامِ:

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّدًا وَإِحْأَالَ أَنْكَ سَيِّدٌ مَعِينٌ^(٢)

قوله: (كَانَ يُعَوِّدُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ)، رَوَيْنَا عَنْ الْبُخَارِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ^(٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَوِّدُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّدُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ؛ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ.

(١) أي: على تمام وزنه: «مفعول»، أما الأول فقد نقص منه حرف الواو.

(٢) البيهقي لعباس بن مرداس، كما في «الأغانى» لأبي الفرج الأصبهاني (٦: ٣٥٨)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (عين).

(٣) البخاري (٣٣٧١)، والتِّرْمِذِيُّ (٢٠٦٠)، وأبو داود (٤٧٣٧). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٥٢٥).

﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفَعكم، ولم يدفَع عنكم ما أشرت به عليكم من التفَرُّق، وهو مُصِيبكم لا محالة، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: مُتَفَرِّقِينَ ﴿مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ رأي يعقوب ودخولهم مُتَفَرِّقِينَ شيئاً قط،

«الجامع»: «الهامة: واحدة الهوام، وهي الحياتُ وكُلُّ ذي سُمٍّ يَقْتُلُ، فأما ما لا يَقْتُلُ وَيَسْتَمُّ فهو السَّوَامُ، وواحدُها: سامة، كالعقرب والزُّنْبُور، وقد تقع «الهوام» على كُلِّ ما يَدْبُ من الحيوان. واللامّة: ذات اللِّمَم، ولم يَقُل: مُلِمّة، وإن كانت من: أَلَمَّتْ تَلَمَّ^(١)؛ طلباً للازدواج بـ(هامة)»^(٢)، ويجوزُ أن تكونَ على ظاهرها؛ بمعنى: جامعِة للشَّرِّ على المعيون؛ من: لَمَّه يَلُمَّه؛ إذا جَمَعَه.

قوله: (ثم قال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾)، عطفُ على مُقَدَّر، و«ثم» للتراخي في الأخبار. المعنى: أن الله تعالى حكى عن يعقوب عليه السَّلام أنه قال أولاً: ﴿نَبِيَّيْ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ صيانة لهم عن عَيْنِ الكمال، وقال لهم ثانياً: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ صيانة للكلام عن شوب الاعتزال^(٣)، ثم حَقَّقَ ذلك المعنى بقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾.

وقال أبو البقاء: «في جواب «لَمَّا» وَجْهَان:

أحدهما: هو ﴿ءَاوَيْتَ﴾، وهو جوابُ «لَمَّا» الأولى والثانية، كقولك: «لَمَّا جِئْتِكَ وَلَمَّا كَلَّمْتِكَ أَجَبْتَنِي»، وحَسَّنَ ذلك أن دُخُولهم على يوسفَ يَعْقُبُ دُخُولهم من الأبواب.

(١) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «أَلَمَّتْ بكم»، والمُتَّبَت من «جامع الأصول».

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (٤: ٣٦٩).

(٣) في (ح): «عن شوائب الاعتزال»، والمعنى واحد.

حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهما بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع؛ على معنى: ولكن حاجة ﴿فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَنَهَا﴾ وهي شفقتة عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به،

الثاني: محذوف، أي: امثلوا وقصوا حاجة أبيهم^(١).

ويجوز أن يكون الجواب معنى ﴿مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ﴾، وعلى هذا كلام المصنف، وتلخيصه: فلما دخلوا متفرقين ليسلموا عما حذروا منه، ما أغنى عنهم ذلك شيئاً، حيث أصابهم ما أصابهم.

قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع، ويمكن أن يكون متصلاً من باب «لا عيب فيهم غير أن سيوفهم»^(٢)، المعنى: ما أغنى عنهم ما وصاهم به أبوهما شيئاً إلا شفقتة، ومن الضرورة أن شفقة الأب مع قدرة الله كالهباء، فإذن ما أغنى عنهم شيئاً قط.

وفي تصريح اسم يعقوب إشعاراً بالتعطف والشفقة والترحم، لأنه اشتهر بالحزن والرقة.

الراغب^(٣): «الحاجة إلى الشيء: الفقر إليه مع محبة، وجمعه: حاج وحاجات وحوائج، ويقال: جاج كوج»^(٤).

(١) «التيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٣٨).

(٢) يريد: قول النابغة الذبياني - كما في «ديوانه» ص ٣٢ -

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

ويسمى هذا الباب عند علماء البلاغة: «تأكيد المدح بما يشبه الذم».

(٣) في «مفردات القرآن» ص ٢٦٣.

(٤) من قوله: «الراغب» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

﴿وَأِنَّهُ لَدُوْعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: قوله: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ﴾ وَعِلْمُهُ بِأَنَّ الْقَدَرَ لَا يُغْنِي عَنْهُ الْحَدْرُ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٦٩]

﴿ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضَمَّ إِلَيْهِ بِنْيَامِينَ. وَرُوي أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: هَذَا أَخُونَا قَدْ جِئْنَاكَ بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَحْسَبْتُمْ وَأَصْبَبْتُمْ، وَسَتَجِدُونَ ذَلِكَ عِنْدِي، فَأَنْزَلَهُمْ وَأَكْرَمَهُمْ، ثُمَّ أَضَافَهُمْ وَأَجْلَسَ كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَائِدَةٍ، فَبَقِيَ بِنْيَامِينُ وَحَدَهُ، فَبَكَى وَقَالَ: لَوْ كَانَ أَخِي يُوسُفُ حَيًّا لَأَجْلَسَنِي مَعَهُ، فَقَالَ يُوسُفُ: بَقِيَ أَخُوكُمْ وَحِيدًا، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَىٰ مَائِدَتِهِ وَجَعَلَ يُوَاكِلُهُ، قَالَ: أَنْتُمْ عَشْرَةٌ فَلَيَنْزِلُ كُلُّ اثْنَيْنِ مِنْكُمْ بَيْتًا، وَهَذَا لَا ثَانِي لَهُ، فَيَكُونُ مَعِي، فَبَاتَ يُوسُفُ يَضُمُّهُ إِلَيْهِ وَيُسْمُّ رَائِحَتَهُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ،

قوله: (وَعِلْمُهُ بِأَنَّ الْقَدَرَ)، نَضَبٌ؛ عَطْفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ: «قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ﴾» عَلَىٰ سَبِيلِ الْبَيَانِ، وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِالْعِلْمِ الْفَائِقِ لِمُطَابَقَةِ قَوْلِهِ مُعْتَقَدَهُ، وَذَلِكَ بِإِسْنَادِ التَّعْلِيمِ إِلَى اللَّهِ، وَبِتَعْظِيمِ ضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ، وَأَنْ لَمْ يَقُلْ: «عَالِمٌ»، وَقِيلَ: ﴿لَدُوْعٌ عَلِيمٌ﴾ عَلَى الْكِنَايَةِ، وَنُكَّرَ ﴿عَلِيمٌ﴾، وَنُفِيَ عَنِ أَكْثَرِ النَّاسِ.

وفيه إشارة إلى تعظيم القول بالقضاء والقدر، ونفي الحول والقوة عن الخلق بالكلية، وأنه علمٌ جليلٌ دقيقٌ يختصُّ بالعظماء من الأنبياء والمرسلين، وأن أكثر عقول البشر قاصرة عن إدراكه، جاهلة عن إمعان حقيقته، إلا من وفقه الله تعالى، واختصه به.

قوله: (﴿ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضَمَّ إِلَيْهِ بِنْيَامِينَ)، الراغب: «أوى إليه ياوي أويًا ومأوى، وأواه غيره إيواء». تقول: أوى إليه كذا: انضم إليه، ياوي أويًا^(١) ومأوى، قال

(١) في الأصول الخطية: «أياً وأويًا»، والمصدر الأول (أياً) لم يرد في «مفردات القرآن» للراغب، مادة (أوى)، ولم أقف عليه في معاجم اللغة، ولذا حذفته.

وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين، اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف، ﴿فَلَا تَبْتَيْسُ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك. وعن ابن عباس: تعرّف إليه. وعن وهب: إنما قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقود، فلا تبتيس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمتهم.

تعالى: ﴿إِذْ أَوْىٰ الْفَتِيَّةَ إِلَىٰ الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ءَأْوَيْتَ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩]، وقال: ﴿وَتَوَوَّىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٥]: كقوله: ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] في إضافته إلى المصدر. وأويت له^(١): راحته، أويًا وأية^(٢) ومأوية، وتحقيقه: رجعت إليه بقلبي^(٣).

قوله: ﴿فَلَا تَبْتَيْسُ﴾ فلا تحزن، الراغب: «البؤس والبأس والبأساء: الشدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكابة^(٤)»، نحو: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، وقد بؤس ييؤس، ﴿فَلَا تَبْتَيْسُ﴾ أي: لا تلتزم البؤس ولا تحزن^(٥).

قوله: (وعن ابن عباس: تعرّف إليه)، يعني: بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾.

قوله: (إنما قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقود)، تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾.

(١) في الأصول الخطية: «وأويته»، والمثبت من «مفردات القرآن» للراغب، مادة (أوى).

(٢) في الأصول الخطية: «أياً وأية»، والمثبت من «المفردات»، وفي «لسان العرب»: «أوية وأوية ومأوية».

(٣) «مفردات القرآن» ص ١٠٣-١٠٤.

(٤) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «الكنابة».

(٥) «مفردات القرآن» ص ١٥٣.

وروي أنه قال له: أنا لا أفارقك. قال: قد علمت اغتنام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمُّه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل. قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك. قال: فإنِّي أدسُّ صاعِي في رَحْلِكَ، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته، ليتَّهياً لي ردُّك بعد تسريحك معهم. قال: افعل.

[﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرْتُمْ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ * قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ٧٠-٧٢]

﴿السِّقَايَةَ﴾ مشربة يُسقى بها، وهي الصُّوع. قيل: كان يُسقى بها الملك، ثم جُعِلَتْ ضاعاً يُكَالُ به. وقيل: كانت الدَّوَابُّ تُسقى بها ويُكَالُ بها. وقيل: كانت إناءً مُسْتَطِيلاً يُشْبهُ المَكْوَك. وقيل: هي المَكْوَكُ الفارسيُّ الذي يلتقي طَرَفَاهُ، تَشْرَبُ به الأعاجم. وقيل: كانت من فِضَّةٍ مُمَوَّهَةٍ بِالذَّهَبِ، وقيل: كانت من ذَهَبٍ. وقيل: كانت مُرْصَعَةً بالجواهر، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثم نادى مُنَادٍ. يُقَالُ: أَذَنَهُ: أَعْلَمَهُ. وَأَذَّنَ: أَكْثَرَ الإِعْلَامَ، ومنه: المُؤَذِّنُ، لكثرة ذلك منه.

رُوي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدرِكوا وحبسوا، ثم قِيلَ لهم ذلك.

والعَيْرُ: الإِبِلُ التي عليها الأحمالُ، لأنها تَعِيرُ؛ أي: تذهبُ وتجيء. وقيل: هي قافلةُ الحمير، ثم كَثُرَتْ حتى قِيلَ لكلِّ قافلة: عِيرٌ، كأنها جمعُ عَيْرٍ، وأصلُها: فُعِلَ، كَسَقَفَ وسُقِفَ، فُعِلَ به ما فُعِلَ بـ «بيضٍ» و«غَيْدٍ»،

قوله: (فُعِلَ به ما فُعِلَ بـ «بيضٍ»)، الجوهرية: «جَمْعُ الأَبْيَضِ: بَيْضٌ، وأصلُه: بِيِضٌ؛ بَضْمٌ الباء، وإنما أبدلوا مِنَ الضَّمَّةِ كسرةً لِتَصِحَّ الباء».

قوله: (و «غَيْدٍ»)، بالغينِ المُعْجَمَةِ؛ جَمْعُ «أَغِيدٍ»؛ مِنَ العَيْدِ بمعنى: النُّعُومَةِ.

والمُرَادُ أَصْحَابُ الْعِيرِ؛ كقوله: «يا خَيْلَ اللَّهِ اركبِي».

وقرأ ابنُ مسعود: «وجعلَ السَّقَايَةَ»؛ على حَذْفِ جوابِ «لَمَّا»، كأنه قيل: فلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ وجعلَ السَّقَايَةَ في رَحْلِ أَخِيهِ أَمَهْلَهُمْ حتى انطلقوا، ثم أذَّنْ مُؤذِّنٌ. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: «تُفْقِدُونَ»؛ من: أَفْقَدْتُهُ؛ إذا وَجَدْتَهُ فَمَقِيداً. وَقُرِيءُ: «صَوَاعٌ»، و«صَاعٌ»، و«صَوَعٌ» و«صُوعٌ»؛ بفتحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا،

قوله: (يا خَيْلَ اللَّهِ اركبِي)، النهاية: «جاءَ في الحديث، وهو على حَذْفِ المُضَافِ، أي: [يا] فُرْسَانَ خَيْلِ اللَّهِ اركبِي، وهذا من أَحْسَنِ الْمَجَازَاتِ وَالطَّفْهَاتِ».

قال الراغب: «الْخَيْلُ في الْأَصْلِ: اسْمٌ لِلْأَفْرَاسِ وَالْفُرْسَانِ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ رَبَّاطُ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وَيُسْتَعْمَلُ في كُلِّ مِنْهَا مُنْفَرِداً، نَحْوَ ما رُوِيَ: «يا خَيْلَ اللَّهِ اركبِي»، فهذا لِلْفُرْسَانِ، ومنه الحديث: «عَفَوْتُ لَكُمْ عن صَدَقَةِ الْخَيْلِ»^(١)، يعني: الأفراس»^(٢).

قوله: (من: أَفْقَدْتُهُ؛ إذا وَجَدْتَهُ فَمَقِيداً)، الراغب: «الْفَقْدُ: عَدَمُ الشَّيْءِ بَعْدَ وُجُودِهِ، فَهُوَ أَحْصَى مِنَ الْعَدَمِ، فَإِنَّ الْعَدَمَ يُقَالُ فِيهِ وَفِيما لَمْ يُوجَدْ بَعْدَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا ذَا تَفْقِدُونَ﴾، وَالتَّفْقُدُ: التَّعَهُدُ، لَكِنْ حَقِيقَةُ التَّفْقُدِ: تَعَرُّفُ فُقْدَانِ الشَّيْءِ، وَالتَّعَهُدُ: تَعَرُّفُ الْعَهْدِ الْمُتَقَدِّمِ»^(٣).

قوله: (وَقُرِيءُ: «صَوَاعٌ» و«صَاعٌ»)، قَالَ ابنُ جِنِّي: «قرأ أبو رجاء: «صَوَعُ الْمَلِكِ»؛ بفتحِ الصَّادِ، وقرأ عبدُ اللَّهِ بنُ عَوْنٍ^(٤): «بضَمِّهَا، ويحيى بنُ يَعْمَرَ: بفتحِ الصَّادِ وبالغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ،

(١) أخرجه أبو داود (١٥٧٤)، والترمذي (٦٢٠)، وابنُ ماجه (١٧٩٠) من حديثِ عليِّ رضي اللهُ عنه.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٠٤.

(٣) المصدر السابق ص ٦٤١.

(٤) المزيُّ البصريُّ (٦٦ - ١٥١)، الإمامُ الثَّقَةُ الْوَرَعُ، كانَ من ساداتِ أهلِ زمانِهِ عِبادةً وَفُضْلاً، وَوَرَعاً وَتُسْكَاً، وَصَلابةً في السُّنَّةِ، وَشِدَّةً على أهلِ البدع. «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر (٣٤٦:٥ - ٣٤٩).

والعينُ مُعْجَمَةٌ وغيرُ مُعْجَمَةٌ.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يقوله المؤذّن، يُريد: وأنا بحِمْلِ البَعِيرِ كَفِيلٌ، أُؤدِّيهِ إِلَى مَنْ جَاءَ بِهِ؛ وَأَرَادَ: وَسَقَى بَعِيرٍ مِنْ طَعَامٍ جُعِلَ لِمَنْ حَصَلَهُ.

[﴿قَالُوا تَأَلَّهَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [٧٣]

﴿تَأَلَّهَ﴾ قَسَمَ فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مِمَّا أُضِيفَ إِلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا قَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ فَاسْتَشْهَدُوا بِعِلْمِهِمْ؛ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ مِنْ دَلَائِلِ دِينِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ فِي كَرَّتِي مَجِيئِهِمْ وَمُدْخَلَتِهِمْ لِلْمَلِكِ، وَلَا نَهْمَ دَخَلُوا وَأَفْوَاهُ رَوَّاحِلِهِمْ مَكْعُومَةٌ؛ لِثَلَا تَتَنَاوَلَ زَرْعاً أَوْ طَعَاماً لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ السُّوقِ؛ وَلَا نَهْمَ رَدُّوا بِضَاعَتَهُمُ الَّتِي وَجَدُوهَا فِي رِحَالِهِمْ. ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ وَمَا كُنَّا قَطُّ نُوصَفُ بِالسَّرْقَةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِلْحَالِنَا.

وَأَبُو هُرَيْرَةَ: «صَاع»، وَالنَّاسُ: ﴿صُوعًا﴾. وَالصَّاعُ وَالصُّوعُ وَالصُّوعُ^(١): وَاحِدٌ، وَكُلُّهَا مِكْيَالٌ، وَقِيلَ: الصُّوعُ: إِنَاءُ الْمَلِكِ يَشْرَبُ مِنْهُ، وَأَمَّا الصُّوعُ: فَمَصْدَرٌ وَضِعَ مَوْضِعَ اسْمِ الْمَفْعُولِ، أَي: الْمَصُوعُ^(٢).

قَوْلُهُ: (قَسَمَ فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ)، الْمَعْنَى: مَا أَعْجَبَ حَالَكُمْ، أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ عِلْمًا جَيِّدًا لَا رَيْبَ فِيهِ لِمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ أَحْوَالِنَا أَنَا بَرِيثُونَ مِمَّا تَصْنَعُونَ إِلَيْنَا. ثُمَّ تَنَسَّبُوهُ إِلَيْنَا. قَدْ الزَّجَّاجُ: «النَّاءُ لَا يُقَسَمُ بِهَا إِلَّا فِي «اللَّهِ»، وَهِيَ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ كَمَا فِي «وَرَاثَ»: ثَرَاثٌ^(٣).

قَوْلُهُ: (مَكْعُومَةٌ)، الْجَوْهَرِيُّ: «الْكِعَامَةُ: شَيْءٌ يُجْعَلُ عَلَى فَمِ الْبَعِيرِ، يُقَالُ: كَعَمْتُ الْبَعِيرَ: أَي: شَدَدْتُ فَمَهُ فِي هِيَاجِهِ، فَهُوَ مَكْعُومٌ».

(١) بفتح الصادِ وضمِّها، صرَّحَ بِهِ ابْنُ جَنِّي نَفْسَهُ.

(٢) «المحتسب» لابن جَنِّي (١: ٣٤٦).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزَّجَّاجِ (٣: ١٢٠).

[قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ ^{٧٤} إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ^{٧٥}]
كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٤-٧٥﴾

﴿فَمَا جَزَاؤُهُ ^{٧٤}﴾ الضَّمِيرُ لِلصُّوَاعِ؛ أَي: فَمَا جَزَاءُ سَرَقَتِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾
فِي جُحُودِكُمْ وَادِّعَائِكُمُ الْبِرَاءَةَ مِنْهُ؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أَي: جَزَاءُ سَرَقَتِهِ أَخَذُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، وَكَانَ
حُكْمُ السَّارِقِ فِي آلِ يَعْقُوبَ أَنْ يُسْتَرْقَ سَنَةً، فَلِذَلِكَ اسْتَفْتُوا فِي جَزَائِهِ، وَقَوْلُهُمْ:
﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْحُكْمِ؛ أَي: فَأَخَذُ السَّارِقَ نَفْسِهِ هُوَ جَزَاؤُهُ لَا غَيْرَ، كَقَوْلِكَ:
حَقُّ زَيْدٍ أَنْ يُكْسَى وَيُطْعَمَ وَيُنْعَمَ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ حَقُّهُ، أَي: فَهُوَ حَقُّهُ؛ لِتَقَرُّرِ مَا ذَكَرْتَهُ
مِنْ اسْتِحْقَاقِهِ وَتَلَزُّمِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿جَزَاؤُهُ﴾ مُبْتَدَأً، وَالْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ كَمَا هِيَ خَبَرُهُ، عَلَى إِقَامَةِ
الظَّاهِرِ فِيهَا مَقَامَ الْمُضْمَرِ. وَالْأَصْلُ: جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ هُوَ، فَوُضِعَ «الْجَزَاءُ»
مَوْضِعَ «هُوَ»، كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ: مَنْ أَخُو زَيْدٍ؟ فَيَقُولُ لَكَ: أَخُوهُ مَنْ يَقْعُدُ إِلَى جَنْبِهِ
فَهُوَ هُوَ، يَرْجِعُ الضَّمِيرُ الْأَوَّلُ إِلَى «مَنْ» وَالثَّانِي إِلَى «الْأَخِ»، ثُمَّ تَقُولُ: فَهُوَ أَخُوهُ؛ مُقْبِياً
لِلْمُظْهَرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ.

قوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْحُكْمِ، قَالَ أَبُو الْبِقَاءِ: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿مَنْ وُجِدَ﴾
خَبَرُهُ، وَالتَّقْدِيرُ: اسْتِعْبَادُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، وَ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمَعْنَى
الْأَوَّلِ^(١). وَمِثْلُهُ فِي دُخُولِ الْفَاءِ بَيْنَ الْمُؤَكَّدِ وَالْمُؤَكَّدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ فِي أَحَدٍ
وَجْهِيهِ.

قوله: ﴿مُقْبِياً لِلْمُظْهَرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ﴾، قَالَ الزَّجَّاجُ بَعْدَمَا حَكَى هَذَا الْوَجْهَ: «الْإِظْهَارُ
أَحْسَنُ؛ لِشَلَا يَقَعُ اللَّبْسُ، وَلِثَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّ «هُوَ» إِذَا عَادَتْ ثَانِيَةً لَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ إِلَى الْجَزَاءِ،

(١) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٣٩).

ويحتمل أن يكون ﴿جَزَاؤُهُ﴾ خبرٌ مبتدأٌ محذوف؛ أي: المسؤولُ عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، كما يقول: مَنْ يَسْتَفْتِي فِي جَزَاءِ صَيْدِ الْمُحْرَمِ: جَزَاءُ صَيْدِ الْمُحْرَمِ،

وَالْعَرَبُ إِذَا فَخَّمَتْ أَمْرَ الشَّيْءِ جَعَلَتْ الْعَائِدَ إِلَيْهِ إِعَادَةً لَفْظِهِ بِعَيْنِهِ^(١).

قوله: (في جَزَاءِ صَيْدِ الْمُحْرَمِ)، يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: «يُسْتَفْتَى»، وقوله: «جَزَاءُ صَيْدِ الْمُحْرَمِ» حِكَايَةٌ قَوْلِ الْمُسْتَفْتَى؛ يَحْكِيهِ الْمُفْتَى تَوَاطُؤَةً لِفَتْوَاهُ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي الْفَتْوَى وَيَقُولُ: ﴿وَمَنْ قَلَّكَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ [المائدة: ٩٥] الآية.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: «جَزَاءُ صَيْدِ الْمُحْرَمِ» لَيْسَ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿جَزَاؤُهُ﴾، أَي: الْمَسْئُولُ عَنْهُ جَزَاؤُهُ، لِأَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ؟ قُلْتَ: إِذَا حَكِيَ الْمَسْئُولُ عَنْهُ حِكَايَةَ كَلَامِ السَّائِلِ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرٍ مَا يَتِمُّ بِهِ كَلَامُهُ، فَقَوْلُهُ: «جَزَاءُ صَيْدِ الْمُحْرَمِ»: تَمَامُهُ مَا أَذْكَرُهُ؛ لِذِلَالَةِ قَوْلِهِ: «ثُمَّ يَقُولُ»، وَالرَّادُّ بِالْمَسْئُولِ عَنْهُ مَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ؟﴾، وَهُوَ حُكْمُ السَّارِقِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: فَمَا جَزَاءُ مَنْ سَرَقَ؟ أَي: سَرِقَةَ السَّارِقِ لِلصَّاعِ؟ أَي: السَّارِقُ الَّذِي سَأَلْتَ عَنْ حُكْمِهِ هُوَ جَزَاؤُهُ^(٢).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٢١).

(٢) ولم يتعرّض الزمخشري هنا، ولا المؤلف، لإظهار قوله: ﴿وَعَاءُ أَخِيهِ﴾ بَدَلِ إِضْمَارِهِ، فَقَدْ كَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ: «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْهُ»؛ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِهِ، وَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي «الْأَمَالِي النَّحْوِيَّةِ» (١: ١٠٢ - ١٠٣)؛ قَالَ: «لَوْ قِيلَ: «ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْهُ» لِأَوْهَمَ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْأَخِ نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ كَأَنَّ الْأَخَّ كَانَ مُبَاشِرًا بِطَلْبِ خُرُوجِ الْوَعَاءِ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ لِمَا فِي الْمُبَاشَرَةِ مِنَ الْأَذَى الَّذِي تَأْبَاهُ النَّفُوسُ الْأَيُّبِيَّةُ، فَأَعِيدَ بِلَفْظِ الظَّاهِرِ لِنَفْيِ هَذَا التَّوَهُّمِ.

وإنما لم يُضَمَّرِ «الأخ» فيقال: «ثم استخرجها من وعائه» لأمرين:

أحدهما: أَنَّ ضَمِيرَ الْفَاعِلِ فِي «اسْتَخْرَجَهَا» لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَوْ قَالَ: «مِنْ وَعَائِهِ»، لَتَوَهُّمَ أَنَّهُ لِيُوسُفَ، لِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكَورٍ، فَأُظْهِرَ رَفْعًا لِذَلِكَ.

والثاني: أَنَّ الْأَخَّ مَذْكَورٌ مُضَافًا إِلَيْهِ، وَلَمْ يُذَكَّرْ فِيهَا تَقَدُّمًا مَقْصُودًا بِالنِّسْبَةِ الْإِخْبَارِيَّةِ، فَلِمَا احتجج إلى إِعَادَةِ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ أَظْهِرَ أَيْضًا.

ثم يقول: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ [المائدة: ٩٥].

[﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٦]

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ قيل: قال لهم من وُكِّلَ بهم: لا بُدَّ من تفتيش أو عييتكم، فانصرفت بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أو عييتهم قبل وِعَاءِ بنيامين لنفي التهمة، حتى بلغ وِعَاءَهُ، فقال: ما أظنُّ هذا أخذَ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله، فإنه أطيبُ لنفسك وأنفُسنا، فاستخرجه منه.

وقرأ الحسن: «وِعَاءِ أَخِيهِ» بضم الواو، وهي لغة. وقرأ سعيد بن جبیر: «إِعَاءِ أَخِيهِ» بقلب الواو همزة.

فإن قلت: لِمَا ذَكَرَ ضَمِيرَ «الصُّوَاعِ» مَرَاتٍ ثُمَّ أَنَّهُ؟ قلت: قالوا: رَجَعَ بِالتَّائِيثِ عَلَى «السَّقَايَةِ»، أَوْ أَنَّ «الصُّوَاعَ» لِأَنَّهُ يُذَكَّرُ وَيُؤنَّثُ، وَلَعَلَّ يَوْسُفَ كَانَ يُسَمِّيهِ سِقَايَةَ، وَعَبِيدُهُ صُوعَاءً، فَقَدْ وَقَعَ فِيمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ: سِقَايَةَ، وَفِيمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْهُ: صُوعَاءً.

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ﴿لِيُوسُفَ﴾ يعني: عَلَّمْنَاهُ إِيَّاهُ، وَأَوْحَيْنَا بِهِ إِلَيْهِ، ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ تفسيرٌ للكيد وبيانٌ له،

قوله: (مثل ذلك الكيد العظيم كدنا)، اعلم أن الكيد هو المكر والخديعة، وهو أن تُوهِمَ غيرك خلاف ما تُخفيه، وهو في حق الله تعالى محمولٌ على التمثيل، فكان صورة صنع الله تعالى في تعليمه يوسف عليه السلام أن لا يحكم على إخوته حكم الملك بأن يعرّم السارق مثلي ما أخذه، بل يجري عليهم الحكم على سنن مذهبهم بأن يستعبد السارق،

لأنه كان في دين مَلِكٍ مِصْرَ وما كان يحكمُ به في السارق: أن يُغَرِّمَ مثليَّ ما أخذ، لا أن يُلْزَمَ وَيُسْتَعْبَدَ، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه، ﴿نَزَفُوعٌ دَرَجَتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ في العلم كما رَفَعْنَا درجةَ يوسفَ فيه.

تُشْبِهُ^(١) صورةَ صُنْعٍ مَنْ يُوهِمُ الْغَيْرَ خِلَافَ مَا يُخْفِيهِ، لأنَّ مقصودَ يوسُفَ عليه السَّلَامُ إيواءَ أخيه إليه، وكان لا يَتِمُّ ذلكَ إلا بهذه الحيلة.

ولمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ هو عَيْنُ الْكَيْدِ، قَالَ الْمُصَنِّفُ: هو «تفسيرٌ للكَيْدِ».

الراغِبُ: «الكَيْدُ: ضَرْبٌ مِنَ الْاِحْتِيَالِ، وَقَدْ يَكُونُ مَحْمُوداً أَوْ مَذْمُوماً، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَذْمُومِ أَكْثَرَ اسْتِعْمَالاً، وَكَذَلِكَ الْاسْتِدْرَاجُ وَالْمَكْرُ، وَيَكُونُ بَعْضُ ذَلِكَ مَحْمُوداً، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبْنَا لِيُوسُفَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِيَّاتٍ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وَفُلَانٌ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ، أَي: يَجُودُ»^(٢).

قَوْلُهُ: (أَنْ يُغَرِّمَ مِثْلِيَّ مَا أَخَذَ)، اسْمُ «كَانَ» فِي قَوْلِهِ: «كَانَ فِي دِينِ الْمَلِكِ»، وَ«مَا» - فِي «مَا كَانَ يَحْكُمُ بِهِ» - مُوصُولَةٌ، وَهُوَ عَطْفٌ تَفْسِيرِيٌّ عَلَى «دِينِ الْمَلِكِ»، وَالضَّمِيرُ فِي «لأنه كَانَ» لِلشَّانِ.

قَوْلُهُ: (إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِذْنِهِ)، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ كَلِمَةً تَأْيِيدَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ أِبْدَاءً، لِأَنَّهُ جَلَّ مَنْ انْتَصَبَ لِمَنْصِبِ النُّبُوَّةِ أَنْ يَحْكُمَ بِدِينِ الْكُفَّارِ، نَحْوُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبَّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، لِأَنَّ عَوْدَهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ مِمَّا لَنْ يَشَاءَ اللَّهُ عَلَى مَذْهَبِهِ^(٣) كَمَا قَرَّرَهُ.

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «سِنَةٌ»، وَلَعَلَّ صَوَابُهَا: «سِنَةٌ»، وَمَا أَثْبَتَهُ أَوْضَحَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٧٢٨-٧٢٩.

(٣) أَي: عَقِيدَتُهُ الْاِعْتَرَاثِيَّةُ فِي أَنَّ اللَّهَ لَا يُرِيدُ الْقَبِيحَ، كَالْكَفْرِ وَالشَّرِّ وَنَحْوَهُمَا، وَإِنَّمَا يَقَعُ ذَلِكَ بِإِرَادَةِ الْعَبْدِ.

وَقُرِئَ: «يَرْفَعُ» بالياء، و﴿دَرَجَاتٍ﴾ بالتَّنوين. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾
فوقه أرفعُ درجةً منه في علمه، أو فوقَ العلماءِ كلِّهم ﴿عَلَيْمٌ﴾ هم دُونَه في العلم،
وهو الله عزَّ وعلًا،

قال الزَّجَّاج: «مَوْضِعُ ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نَصْبٌ؛ لَمَّا سَقَطَتِ الْبَاءُ^(١) أَفْضَى الْفِعْلُ»^(٢).

قوله: ﴿نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ﴾، عاصمٌ وحمزةٌ والكِسَائِيُّ: بالنون، والباقون: بالياء^(٣).

قوله: ﴿و﴿دَرَجَاتٍ﴾ بالتَّنوين﴾، قال أبو البقاء: «﴿مَنْ﴾ - على هذا - مفعولٌ ﴿نَرَفَعُ﴾،
و﴿دَرَجَاتٍ﴾ ظَرْفٌ أو حَرْفٌ الجَرِّ محذوف، أي: إلى دَرَجَاتٍ»^(٤).

قوله: (أو فوقَ العلماءِ كلِّهم ﴿عَلَيْمٌ﴾ هم دُونَه في العلم، وهو الله عزَّ وجلَّ)،
ولفظَةُ «كُلِّ» على الأولِ استِغْرَاقِيَّةٌ، وعلى الثاني مجموعية.

قال القاضي: «واحتجَّ به مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ تعالى عالمٌ بذاته؛ إذ لو كان ذاعِلم، لكانَ فوقَه
مَنْ هو أعلمُ منه، والجواب: أنَّ المراد: كُلُّ ذِي عِلْمٍ مِنَ الخلق، لأنَّ الكلامَ فيهم، ولأنَّ
العليمَ هو الله تعالى، ومعناه: الذي له العِلْمُ البالغُ لغته، ولأنه لا فَرْقَ بَيْنَه وبينَ قولنا: فوقَ
كُلِّ العُلَمَاءِ عليم، وهو مخصوص»^(٥).

وقلت: قَضِيَّةُ النِّظْمِ تَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾
تفسيرٌ وبيانٌ لقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ﴾، والكَيْدُ: هو تعليمُ الله إياه أن يُسْرِقَ أخاه،
وَيُكذِّبَ إِخْوَتَهُ؛ لِيَسْتَعْبِدَهُ، ومثُلُ هذا الحكم الذي تُرَى في الظاهرِ حُرْمَتُهُ، وهو في الحقيقةِ

(١) أي: كان الأصلُ أن يُقال: «إلا بأن يشاء الله»، فحُذِفَتْ منه الباء.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزَّجَّاج (٣: ١٢٢).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٢٦١، و«حجة القراءات» ص ٢٥٨-٢٥٩ و٣٦٣.

(٤) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١: ٥١٥)، قاله في إعراب الآية ٨٣ من سورة الأنعام، وقد أحال

إليها في هذا الموضع من سورة يوسف عليه السلام.

(٥) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٣٠٢).

فإن قلت: ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أي وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]؟ قلت: هو في صورة البهتان، وليس بهتان في الحقيقة؛ لأن قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف.

وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكديماً، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب، كما صرح لهم بالتسريق لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧].

هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضَمًّا﴾ [ص: ٤٤] ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم عليه السلام: «هي أختي»، لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة، فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة، وانزاحت عنها وجوه القبح لِمَا ذُكِرْنَا.

مُتَّصِنٌ لِأَسْرَارِ وَحِكْمٍ لَا يَصِلُ إِلَى كُنْهَيْهَا كُلِّ ذِي عِلْمٍ، فَإِنَّ أَصْحَابَ الْعِلْمِ وَأَرْبَابَهُ تَتَفَاوَتْ دَرَجَاتِهِمْ؛ فَمِنْ عَالِمٍ لَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَى ظَاهِرِ الْحَالِ فَيُنْكِرُ، وَمِنْ عَالِمٍ يَعْلَمُ السَّرَّ وَالْحِكْمَةَ فِيهِ كَيُوسُفَ وَالْخَضِرَ فَيُضْيِئُهُ، فَجَاءَ قَوْلُهُ: ﴿وَفَوَّقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ تذيلاً للكلام السابق، فعلى هذا: يُحْمَلُ «الْكُلُّ» في قوله: ﴿كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ على الاستغراقية دون المجموعية، ويُحْمَلُ «العَلِيمُ» على غير الله عزَّ وَجَلَّ قَطْعاً.

قوله: (تورية)، وهي أن يُطْلَقَ لفظ له معنيان؛ قريبٌ وبعيدٌ، ويرادُّ البعيدُ منها، فقوله:

[﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ٧٧]

﴿أَخٌ لَّهُ﴾ أرادوا يوسف. رُوي: أنهم لما استخرجوا الصَّاعَ من رَحْلِ بنيامين نكسَ إخوته رؤوسهم حياءً، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ ففضحتنا وسودت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصُّوعَ في رَحلي الذي وضع البضاعة في رِحاليكم.

واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة: فقيل: كان أخذ في صباه صنياً لجدّه أبي أمّه، فكسره وألقاه بين الحيفِ في الطريق. وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفعه. وقيل: كانت في المنزلِ عناقٌ أو دجاجة فأعطها السائل. وقيل: كانت لإبراهيم عليه السلامُ منطقةٌ يتوارثها أكبرُ ولده، فورثها إسحاق، ثم وقعت إلى ابنته، وكانت أكبرُ أولاده، فحضنت يوسفَ وهي عمته بعد وفاة أمّه، وكانت لا تصبرُ عنه، فلما شبَّ أراد يعقوبُ أن يتزرعه منها، فعمدت إلى المنطقة، فحزمتها على يوسفَ تحت ثيابه، وقالت: فقدتُ منطقةَ إسحاق، فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومةً على يوسف، فقالت: إنه لي سلمٌ أفعلُ به ما شئت، فخلاه يعقوبُ عندها حتى ماتت.

﴿فَأَسْرَهَا﴾ إضمارٌ على شريطة التفسير،.....

﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ معناه القريب: سرقة الصاع، والبعيد: فعلهم بيوسف ما فعلوا، وهو المرادُ هاهنا.

قوله: (إضمارٌ على شريطة التفسير)، من قول الزجاج: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾ إضمارٌ

على شريطة التفسير، لأنه بَدَلٌ من «ها» في ﴿فَأَسْرَهَا﴾ أي: أَسْرَ يوسُفُ في نَفْسِهِ قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، المعنى: أنتم شرُّ مكاناً^(١) في السَّرِقَةِ بالصَّحَّةِ، لأنكم سَرَقْتُمْ أَخَاكُمْ من أبيكم^(٢).

وقال أبو عليّ في «الإغفال»^(٣): الإضمارُ على شريطة التفسير على ضَرَبَيْنِ: أحدهما: أن يُفسَّرَ بمفرد، نحو: نَعَمْ رجلاً زيدٌ، ففي «نعم» ضميرٌ هو الفاعل، و«رجلاً» تفسيرٌ له، ومثله: «رُبَّةٌ رجلاً»^(٤).

وثانيهما: أن يُفسَّرَ بجُملة، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، أي: الأمرُ اللهُ أَحَدٌ، ثم يُدخَلُ عليها عواملُ المبتدأ، نحو: «كان» و«إن» و«ليس».

وتفسيرُ المضمَرِ في كِلَا المَوْضِعَيْنِ مُتَّصِلٌ بِالجُمْلَةِ التي فيها الإضمارُ المشروطُ تفسيره، ومُتعلِّقٌ به، أما في المبتدأ ففي مَوْضِعِ الخبر، وأما في المُفْرَدِ فمُتعلِّقٌ بما عَمِلَ في الضمير، ألا ترى أن «رجلاً» في قوله: «نعم رجلاً» مُتَّصِبٌ عن الفعل، وفي «رُبَّةٌ رجلاً» مُتَّصِبٌ عن تمامِ الهاءِ المضمَرِ، فهو من باب «لي مثله رجلاً»^(٥) و«أفضل رجلاً أنا».

(١) من قوله: «إضمار على شريطة التفسير لأنه بدل» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٢٣).

(٣) وهو «الإغفال فيما أغفله الزجاج في المعاني» لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي (٢٨٨ - ٣٧٧ هـ)، يُريدُ بـ«المعاني»: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، وظاهرُ عنوانه: أنه استدرأ وإكمالٌ لكتاب الزجاج، لكنه في حقيقته إصلاحٌ لما يرى أبو علي أن الزجاج أخطأ فيه، كما صرح بذلك في مُقدِّمته.

(٤) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢: ١٧٦-١٧٨)، و«الخصائص» لابن جني (٢: ٢٠)، و«المفصل» للزمخشري ص ١٣٤ و ٢٨٦، و«شرح الرضي على الكافية» (٢: ٥٣ و ٥٩ و ٦١) و(٢: ٤٠٦) و(٣: ٢٣٥) و(٤: ٢٤٨)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (رب)، وغيرها.

(٥) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١: ٤٤) و(٢: ١٨١)، و«المقتضب» للمبرِّد (٣: ٣٤)، و«شرح الرضي على الكافية» (٢: ٦٢ و ١٧٨)، وغيرها.

تفسيره: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وإِنَّمَا أَنْتَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة، كأنه قيل: فأسرَّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾. والمعنى: قال في نفسه: أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا؛ لأنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بَدَلٌ مِنْ «أَسْرَهَا». وفي قراءة ابن مسعود: «فَأَسْرَهُ»، على التذكير، يُرِيدُ: القَوْلَ أَوْ الكَلَامَ.

فظهر أن تفسير المضمير المشروط تفسيره لا يكون إلا متعلقاً بالجملة التي تتضمن المضمير، ولا يكون منقطعاً عنها، والذي ذكره الزجاج منقطعاً^(١).

والوجه أن يُجْمَلَ الضمير في «أَسْرَهَا» على الإجابة؛ كأنهم لما قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أسرَّ يوسف عليه السلام إجابتهم في نفسه في الوقت، ولم يُبَيِّدْها لهم، أو على المقالة؛ أي: أسرَّ مقالاتهم، والمقالة والقول واحد، والمراد القول، كالخلق والمخلوق، فمعنى «أَسْرَهَا»: وعابها وأكثفها في نفسه إرادة التوبيخ.

وقال القاضي^(٢): «وأجيب بأن الحصر ممنوع، فإنهم سموا نحو: «زيداً ضربته» بهذا الاسم، ولا مناقشة في التسمية».

وقال القاضي: «في جعل ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بَدَلٌ مِنَ الضمير على تأويل الكلمة أو الجملة نظر؛ إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن»^(٣).

وفي قول المصنّف: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بَدَلٌ مِنْ «أَسْرَهَا» إثبات لكلام النفس.

(١) «الإغفال» للفارسي (٢: ٣٣٣-٣٣٥).

(٢) يعني: البيضاوي، كما هو اصطلاح المؤلف رحمه الله تعالى، ولم أفق على ما نُقِلَ عنه هنا في «تفسيره»، وإتباعه بقوله: «وقال القاضي» مرة أخرى: غريب، والله أعلم.

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٣٠٢).

ومعنى ﴿أَنْتُمْ سَرٌّ مَكَانًا﴾: أنتم سرٌّ منزلة في السرِّق؛ لأنكم سارقون بالصَّحَّة، لِسَرِّقَتِكُمْ أَحَاكُم مِّنْ أَبِيكُمْ، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعلم أنه لم يَصِحَّ لي ولا لأخي سَرِّقَة، وليس الأمر كما تصفون.

[﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

الْمُحْسِنِينَ﴾ [٧٨]

استعطفوه بإذكارهم إياه حقَّ أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السنِّ أو كبير القَدْر، وأن بنيامين أحبُّ إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولدًا له قد هلك، وهو عليه نُكْلان، وأنه مُستأنس بأخيه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ فخذُه بدلَه على وجه الاستِرهان أو الاستِعباد، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتِمِّم إحسانك، أو: من عادتِكَ الإحسانُ فاجرٍ على عادتك ولا تُعَيِّرْها.

[﴿قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعِنَا بِهِ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَمُوتٌ﴾ [٧٩]

﴿مَكَادَ اللَّهُ﴾ هو كلامٌ مُوجه، ظاهره أنه وجبَ على قضيَّة فتواكم أخذَ مَنْ وَجَدَ الصُّواعُ في رَحْلِهِ واستِعباده، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظلم،

قوله: (سَرٌّ مَنْزِلَةٌ فِي السَّرِّقِ)، السَّرِّق: مَصْدَرٌ كَالْكَذِبِ، وقيل: الاسمُ من «سَرَقَ يَسْرِقُ سَرَقًا»: السَّرِّقُ والسَّرِّقَة بكسرِ الراءِ فيها.

قوله: (أو: من عادتِكَ الإحسانُ)، فالجملةُ على هذا مُعترضة، وعلى الأولِ استِثناويةٌ على بيانِ المُوجب، فتكونُ مُتَّصِلَة. وبيانهُ على الأول: فخذُ أحدنا مكانَه كما كنتَ تُحسِنُ إلينا فيما سَلَفَ، فيكونُ هذا الإحسانُ من تَمَّتْه. وعلى الثاني: إثباتُ إحسانِه على العمومِ في كُلِّ الناسِ.

قوله: (كلامٌ مُوجه)، أي: ذو وَجْهَيْنِ، كقولِ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه حينَ سُئِلَ عن

وباطنه أن الله أمرني وأوحى إليّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمّة علّمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه، كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي.

ومعنى ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ﴾: نعوذُ بالله معاذاً من أن نأخذ، فأضيف المصدرُ إلى المفعولِ به، وحذف «مِنْ». و﴿إِذَا﴾ جوابٌ لهم وجزاء؛ لأنَّ المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا.

رسول الله ﷺ حين مهاجرتيها: «هذا رجلٌ يهديني السبيل»^(١).

قوله: (لأنَّ المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا)، تعليلٌ لتصحیح معنى الجزاء، قال ابنُ الحاجب - في معنى قول الزجاج في قولهم: «يقول الرجل: (أنا آتيك، فتقول: إذن أكرمك): إن كان الأمر كما ذكرت فإني أكرمك - : «تَبَّ الزَّجَّاجُ أَنْ فِيهَا مَعْنَى الْجَزَاءِ حَتَّى صَحَّ تَقْدِيرُهُ مُصَرَّحاً بِهِ»^(٢)، وأما جوابُ المتكلم فإنه سأل ماذا يكونُ مُرتَبطاً بالإكرام، فأجابته بارتباطِ إكرامه به.

وقال المرزوقي رحمه الله تعالى: «وفائدة»إذن« في قوله:

إذن لِقَامِ بِنَصْرِي مَعَشْرُ خُشْنٍ»^(٣)

هو أن هذا خرجَ مخرَجَ جوابِ قائلٍ قال له: ولو استباحوا ماذا كان يفعلُ بنو مازن؟ فقال: إذن لِقَامِ بِنَصْرِي. قال سيبويه: [إذن] جوابٌ وجزاء، فهذا^(٤) البيتُ جوابٌ لهذا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٩١١).

(٢) «الإيضاح في شرح المُفَصَّل» لابن الحاجب (٢: ٢٦٣).

(٣) صَدْرُ بَيْتِ لُقْرِيطِ بْنِ أَنْسَبِ أَحَدِ بَنِي الْعَنْبَرِ، كَمَا فِي «الحماسة» ص ١١، وقمائه:

عند الحفيظة إن ذو لؤثة لانا

وهو من شواهد «معني اللبيب» لابن هشام (١: ٢١) رقم (٢٠).

(٤) في الأصول الخطية: «هذا»، والمثبت من «شرح الحماسة» للمرزوقي.

﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْتَسُوا مِنْهُ حَكَلُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [٨٠]

﴿ أَسْتَيْتَسُوا ﴾ يَسُؤُوا، وزيادة السَّيْنِ والتَّاءِ في المبالغة: نَحُوْ ما مرَّ في «استعصم» [يوسف: ٣٢]. و«النَّجِيُّ» على مَعْنَيَيْنِ: يكونُ بمعنى: المناجِي، كالعَشِيرِ والسَّمِيرِ؛ بمعنى: المُعَاشِرِ والمُسَاوِرِ، ومنه قوله تعالى: ﴿الْأَيْمَنَ وَقَرَنَتْهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وبمعنى المصدرِ الذي هو التَّنَاجِي، كما قيل: «النَّجْوَى» بمعناه.....

السائل وجزاء على فعل المُسْتَيْسِحِ^(١).

قوله: ﴿أَسْتَيْتَسُوا﴾ يَسُؤُوا، الراغب: «اليأس: انتفاء الطمع، يُقال: يَيْسَسُ واستيأس، مثل: عَجِبَ واستعجب، وسَخِرَ واستخسر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْتَسُوا مِنْهُ حَكَلُوا نَجِيًّا﴾، وقال تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا أَسْتَيْتَسَ الرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَسُؤُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: ١٣]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الرعد: ٣١]: قيل: معناه: أفلم يعلم، ولم يُرَدَّ أَنَّ اليأسَ موضوعٌ في كلامهم للعلم، وإنما قُصِدَ أَنَّ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَحْصَلَ بَعْدَ الْعِلْمِ بِانْتِفَائِهِ، فإِذَنْ ثُبُوتُ يَأْسِهِمْ يَقْتَضِي حُصُولَ عِلْمِهِمْ^(٢).

قوله: (نَحُوْ ما مرَّ في «استعصم»)، والذي مرَّ هو قوله: «الاستعصامُ بناءٌ مُبَالِغَةٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ الْبَلِيغِ»، كأنه في عِصْمَتِهِ، وهو يجتهدُ في الاستِزَادَةِ منها، لِأَنَّ السَّيْنَ لِلطَّلَبِ، وَلَا بُدَّ مِنْ رِعَايَةِ مَعْنَاهَا.

قوله: (وبمعنى المصدرِ الذي هو التَّنَاجِي)، كما تقول: قومٌ رِضَا، وإنما الرضا فِعْلُهُمْ، يُجْعَلُ الْمَصْدَرُ مَنْزِلَةَ الْوَصْفِ.

(١) «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ٢٢-٢٣).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٨٩٢.

ومنه قيل: قومٌ نَجِيٌّ، كما قيل: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧]؛ تنزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف. ويجوز أن يُقال: هم نَجِيٌّ، كما قيل: هم صَدِيقٌ، لأنه بزنة المصادر، وجمع: أنجِيَّة، قال:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَّةً

ومعنى ﴿خَلَصُوا﴾: اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يُخالطهم سواهم، ﴿نَجِيًّا﴾ ذوي نجوى، أو: فوجاً نجياً، أي: مُناجياً؛ لمُناجاة بعضهم بعضاً.

قوله: (ومنه قيل)، أي: ومن استعمالِ «النَجِيِّ» بمعنى: التناجي، قيل: قومٌ نَجِيٌّ. قوله: (هُم نَجِيٌّ)، أي: ويجوز أن يُستعملَ «نَجِيٌّ» مكانَ الجمع، فقوله: «ويجوز أن يُقال» على تقدير سؤالٍ يردُّ على الوجهِ الأول، معنى: سَلَّمْنَا أَنْ ﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى: المناجي، فكيف يُحمَلُ على الجماعة، وهو مُفرد؟ فقال: جاز كما جازَ أن يُقال: هُم صَدِيقٌ، لأنَّ المصدرَ جنسٌ يُحمَلُ على القليل والكثير، وهو وإن أُريدَ به الوصف، لكنّه لَمَّا كَانَ عَلَى زِنَةِ المصادرِ عُمَلٌ مُعاملةُ المصدرِ، ومنه قوله تعالى: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾.

قوله: (إني إذا ما القوم كانوا أنجية)، بعده:

..... واضطرب القوم اضطراب الأرشية

هناك أوصني ولا تُوصِ بِيَّةً^(١)

«كانوا أنجية»: أي: صاروا فرقا لَمَّا حَزَبَهُم مِنَ الشَّرِّ؛ يَتَنَاجَوْنَ وَيَتَشَاوَرُونَ، وفارقهم القرارُ من شِدَّةِ الخوفِ، يقومون ويقعدون اضطراب الأرشية عند الاستيقاظ، «هناك»: أي: في ذلك الوقت يُوجَدُ الغنى والكفاية عندي.

(١) البيت لسُحَيْمِ بْنِ وَثِيلِ الْيَرْبُوعِيِّ، كما في «لسان العرب»، مادة (نجا).

وأحسنُ منه: أنهم تَمَحَّضُوا تَنَاجِيًا؛ لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجدِّ واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورةُ التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم، على أيِّ صفةٍ يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقومٍ تعايوا بما ذهبتهم من الخطب، فاحتاجوا إلى التشاور.

﴿كَبِيرُهُمْ﴾ في السنِّ وهو رُوَيْبِل. وقيل: رئيسهم وهو شَمْعُون. وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو يهوذا، ﴿مَا فَرَطْتُمْ فِي يَوْسَفَ﴾ فيه وجوه: أن تكونَ «ما» صلة، أي: ومن قبلِ هذا قَصَرْتُمْ في شأنِ يوسفَ ولم تحفظوا عهدَ أبيكم. وأن تكونَ مصدرية، على أن محلَّ المصدر: الرفعُ على الابتداء، وخبرُه الظرف، وهو ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾،.....

قوله: (وأحسنُ منه)، أي: مما ذكِرَ - من أن يكونَ بمعنى: ذوي نجوى أو فوجاً مُتَاجِيًا - أنهم تَمَحَّضُوا؛ أي: يكونُ من باب قولهم: رجلٌ عدلٌ، مُبالغةً في التناجي، وقولها^(١):

وإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ

قوله: (إفادتهم)، من: أفادَ الناسُ في الحديث؛ أي: خاضوا وسرعوا فيه.

قوله: (على أيِّ صفةٍ يذهبون)، الجارُّ والمجرورُ معمولٌ «يذهبون»، كما أن «ماذا» معمولٌ «يقولون»، وهو بيانٌ لقوله: «في تدبير أمرهم».

قوله: (تعايوا)، أي: عَجَزُوا.

قوله: (أن تكونَ «ما» صلة)، أي: زائدة، قال أبو البقاء: «من: مُتعلِّقةٌ على هذا بالفعل، أي: فَرَطْتُمْ من قبلِ ذلك»^(٢).

قوله: (الرفعُ على الابتداء، وخبرُه: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾)، قال أبو البقاء: «المعنى: وتفريطكم

(١) يعني: الخنساء، والبيتُ بتمامه - كما في «ديوانها» ص ٤٨ - :

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ

(٢) «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٤٢).

ومعناه: ووقع من قبل تفريطكم في يوسف. أو النَّصْبُ عطفاً على مفعول ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾، وهو ﴿أَنْتَ أَبَاكُمْ﴾، كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم مؤثماً وتفريطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة؛ بمعنى: ومن قبل هذا ما قرطتموه، أي: قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة، ومحلّه الرّفْعُ أو النَّصْبُ على الوجهين.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الانصراف إليه، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها، أو بالانصراف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

في يوسف من قبل هذا، وهذا ضعيف؛ لأن «قَبْلَ» إذا وَقَعَتْ خَبَرًا أو صِلَةً لا تُقَطَّعُ عن الإضافة لثلاث تبقى ناقصة^(١).

قوله: (أو النَّصْبُ عطفاً على مفعول ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾)، قال أبو البقاء^(٢): «وقيل: هو ضعيف^(٣)، لأن فيه فضلاً بين حرف العطف والمعطوف عليه»^(٤).

قوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر، قال الراغب: «الْبَرَّاحُ: المكان المتسع الظاهر الذي لا بناء فيه ولا شجر، فيُعتَبَرُ تارةً ظهوره فيقال: فعل ذلك بَرَّاحاً، أي: صُراحاً لا يَسْتُرُهُ شيء، وْبَرَّاحُ الخفاء: ظهر، كأنه حصل في بَرَّاح يُرى، وْبَرَّاحٌ: ذهب في البراح، ومنه: البارح من الظباء والطير، وخصّ بها ينحرف عن الرامي إلى جهة لا يمكنه فيه الرمي، فينشأ ثم به، ولما تُصَوَّرَ معنى التشاؤم اشتقت منه: التبريح، فقيل: بَرَّاحٌ بي الأمر، ولقيت منه البرّاحين والبرّحاء، [أي] الشدائد، وْبَرَّاحٌ بي فلان في التقاضي»^(٥).

(١) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ٧٤٢).

(٢) من قوله: «المعنى: وتفريطكم في يوسف» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) من قوله: «لأن «قبل» إذا وقعت خبراً» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) «التيبان في إعراب القرآن» للعلكبري (٢: ٧٤٢).

(٥) «مفردات القرآن» ص ١١٥-١١٦.

[﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾ (٨١)]

وَقُرِئَ: «سُرِّقَ» أَي: نُسِبَ إِلَى السَّرْقَةِ، ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عَلَيْهِ بِالسَّرْقَةِ ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ مِنْ سَرَقْتِهِ وَتَبَيَّنَاهُ؛ لِأَنَّ الصُّوَاعَ اسْتَخْرَجَ مِنْ وَعَائِهِ، وَلَا شَيْءَ أُبَيِّنُ مِنْ هَذَا، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾ وَمَا عَلَّمْنَا أَنَّهُ سَيَسْرِقُ حِينَ أُعْطِينَاكَ الْمَوْثُوقَ. أَوْ: مَا عَلَّمْنَا أَنَّكَ تُصَابُ بِهِ كَمَا أُصِيبَتْ بِيُوسُفَ. وَمِنْ قَرَأَ: «سُرِّقَ» فَمَعْنَاهُ: وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِقَدْرِ مَا عَلَّمْنَا مِنَ التَّسْرِيقِ، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لِلأَمْرِ الْخَفِيِّ، أَسْرَقَ بِالصَّحْحَةِ أَمْ دُسَّ الصَّاعُ فِي رَحْلِهِ وَلَمْ يَشْعُرْ؟

قوله: (لأن الصُّوَاعَ اسْتَخْرَجَ مِنْ وَعَائِهِ، وَلَا شَيْءَ أُبَيِّنُ مِنْ هَذَا)، «الانتصاف»: «إن كان في شَرَعِهِمْ أَنْ مَجْرَدَ وجودِ الشَّيْءِ بِيَدِ مَنْ يُدْعَى عَلَيْهِ^(١) بَعْدَ إنكَارِهِ يَجْعَلُهُ سَارِقًا، فَالْعِلْمُ عَلَى ظَاهِرِهِ إِذْنٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهَذَا بِمَجْرَدِهِ لَا يُوجِبُ عِلْمَ كَوْنِهِ سَارِقًا، لَكِنْ ظَنًّا بَيْنًا»^(٢).

وقلت: على هذا يُوافقه معنى قِرَاءَةِ «سُرِّقَ»، وَيَلْتَمِمْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾ مُؤَكِّدًا، وَعَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُصَنِّفُ لَا تَلْتَمِمْ الْقِرَاءَتَانِ، وَلَا يَجِيءُ التَّذْيِيلُ مُطَابِقًا لِلْمُذْيَلِ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ - كَمَا فَسَّرَهُ - إِلَّا مَعَ التَّعَسُّفِ.

قَالَ مُحِبِّي السُّنَّةِ: «﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ فَإِنَّا رَأَيْنَا إِخْرَاجَ الصَّاعِ مِنْ مَتَاعِهِ، وَقِيلَ: ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ أَي: مَا كَانَتْ شَهَادَةٌ فِي عُمُرِنَا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا، وَليست هذه شَهَادَةٌ مَتَا، إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ صَنِيعِ ابْنِكَ بِزَعْمِهِمْ، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾»^(٣).

قوله: (أَسْرَقَ بِالصَّحْحَةِ أَمْ دُسَّ)، الرَّاغِبُ: «الْحِفْظُ: يُقَالُ تَارَةً لِهَيْئَةِ النَّفْسِ الَّتِي بَهَا

(١) من بداية فقرة «قوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾» إلى هنا أثبتته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

(٢) «الانتصاف» لابن المنبِّير (٢: ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ٢٦٦).

[وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢-٨٣﴾]

﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هي مصر، أي: أرسل إلى أهلها فسألهم عن كنه القصة، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل: من أهل صنعاء، معناه: فرجعوا إلى أبيهم.....

يَبْتُ ما يُؤدِّي إليه الفهم، وتارة لِيَضْبُطِ الشَّيْءَ في النفس، وَيُضَادُّه النسيان، وتارة لاسْتِعْمَالِ تلك القُوَّة، فيقال: حَفِظْتُ كذا حِفْظاً، ثم يُسْتَعْمَلُ في كُلِّ تَفَقُّدٍ وَتَعَهُدٍ ورعاية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٥] كناية عن العِفَّة، والتَحَفُّظ: قيل: هو قِلَّةُ العَفْلة^(١)، وحقيقته: إنها هو تكَلُّفُ الحِفْظِ لِضَعْفِ القُوَّةِ الحافِظَةِ، ولَمَّا كانت تلك القُوَّة من أسباب العقل تَوَسَّعوا في تفسيرها، كما ترى، والحفيظة: العَضْبُ الذي يحمل على المُحَافَظَةِ^(٢)، ثم اسْتُعْمِلَ في العَضْبِ المُجَرَّد، فقيل: أَحْفَظَنِي فلان، أي: أَعْضَبَنِي^(٣).

قوله: (معناه: فرجعوا إلى أبيهم)، هذا وَجْهُ اتِّصَالِ قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ بما قبله، لأن قوله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ قولٌ بعضُ بَنِيهِ في مصر، و﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ كلامٌ لأبيهم في كنعان^(٤): رَدّاً لِعُذْرِهِمْ، فلا بُدَّ من هذه المُقَدَّرَاتِ ليتصل الكلامان في الكلام^(٥)، وإن

(١) في الأصول الخطية: «قلة العقل»، وهو تحريف، والمثبت من «مفردات القرآن» للراغب.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «المفردات»: «الغضب الذي تحمل عليه المحافظة، أي: ما يجب عليه أن يحفظه ويحمله»، وهو أشبه بالصواب، والله أعلم.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٤) أي: في بلاد كنعان، وهي الأرض المقدسة (فلسطين)، عَجَّلَ اللهُ تَحْرِيرَهَا.

(٥) في (ج): «فلا بُدَّ من هذه المقدمة وإن أوجب...»، وفي (ف): «فلا بُدَّ من هذه المقدمات ليتصل الكلامان، وإن أوجب...»، والمثبت من (ط).

فقالوا له ما قال لهم أخوهم ف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أردتموه، وإلا فما أدري ذلك الرجل أن السارق يُؤخذ بسرّفته لولا فتواكم وتعليمكم، ﴿بِهِمْ جَمِيعاً﴾ بيوسف وأخيه ورؤبيل أو غيره، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن والأسف، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلة.....

أوجب هذه المضمرات، لكن لا يقتضي ما يتضمّن الاتصال بالفاءات كما قدّرها، بل يابأه القطع على سبيل الاستئناف، فإن السامع لما سمع تلك المقالة اتّجه له أن يقول: إلام عاد ماأل هذه المقالة، وماكان جواب أبيهم حين رجعوا بها وأدّوها إليه، فأجيب: بأنه قال: بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم.

قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أردتموه، وإلا فأي شيء أدري^(١) ذلك الرجل، الانتصاف: «قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾^(٢) في الكرة الأولى^(٣) ظاهر، وأما في الثانية فلم يكن من صنيعهم، لكن لما علم يعقوب عليه السلام أن أخذ السارق لم يكن من دين الملك، لكن من دين يعقوب كما قال: ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾، كان تنبيها على وجه اتهام يعقوب بنيه، وأنه إنما فعل ذلك بفتواهم، وكان قد سبق قوله: ﴿فَمَا جَزَّؤُهُ وَإِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ﴾ قالوا جزؤهم من واحد في رخله، فافتوا - وإن لم يشعروا - أن المراد إلزامهم واتهام من تتطرق إليه التهمة، ويحتمل أن يكون الذي سوغ ذلك أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رخله سرقة من غير أن يثبت الحكم عليه بوجه معلوم، وهذا لا تثبت به السرقة، وهذا هو التسويل إن كان شرعهم كشرعنا، وإلا فالعمدة هو الوجه الأول^(٤).

قوله: ﴿وَرُوبِيلَ أَوْ غَيْرَهُ﴾، يعني: شمعون أو يهوذا، كما سبق في تفسير ﴿كَبِيرَهُمْ﴾.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «فما أدري»، والمعنى واحد.

(٢) من أول الفقرة إلى هنا، سقط من (ج).

(٣) أي: عندما جاؤوه بقميص يوسف وعليه دم، فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨].

(٤) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٣٨ - ٣٣٩) بحاشية «الكشاف».

[وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾]

[٨٤]

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ وأعرض عنهم كراهةً لِمَا جاؤوا به، ﴿ يَا أَسْفَىٰ ﴾ أضاف الأسفَ - وهو أشدُّ الحُزَنِ والحسرة - إلى نفسه، والألفُ بَدَلٌ من ياء الإضافة، والتجانُسُ بينَ لفظتي «الأسف» و«يوسف» مما يقع مطبوعاً غير مُتعمَلٍ، فيملحُ ويبدعُ،

قوله: (والتجانُسُ بينَ لفظتي الأسفِ ويوسفِ)، وهو من التجنيسِ المُضارعِ، وإن جُعِلَ يوسفُ عربياً - كقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيْتُمْ﴾ [التوبة: ٣٨] - فهو من الاشتقاقِ، وأما قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَرُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] فمن المُضارعِ، لكونِ الهمزةِ والهاءِ مخرجَهما الحلق، وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فمن الخطيِّ، وقوله: ﴿مَنْ سَيَّأُ بِئَلَّكُ﴾ [النمل: ٢٢] فمن المُزدوجِ^(١).

قوله: (مما يقع مطبوعاً غير مُتعمَلٍ، فيملحُ ويبدعُ)، اعلم أن الترصيعَ والتصريعَ والتجنيسَ والترديدَ^(٢) إنما يحسنُ قليله دون كثيره؛ لِمَا فيها من أماراتِ الكُلفةِ.

(١) انظر تعريفَ «الجناس» وذكّر بعض أنواعه فيما تقدّم ص ٨٩ تعليقاً عند تفسير الآية ٤٤ من سورة هود، وانظر: «مفتاح العلوم» ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

(٢) الترصيع: هو السجعُ الذي في إحدى القريبتين أو أكثرٍ يثل ما يقابله من الأخرى في الوزن، والتوافقُ على الحرفِ الآخرِ المُرادِ من القريبتين هما المُتوافقتانِ في الوزنِ والتقفية، نحو: «فهو يطبعُ الأسجاعَ بظواهرِ لفظه، ويقرغُ الأسجاعَ بزواجرِ وعظه»، فجميعُ ما في القرينةِ الثانيةِ يُوافقُ ما يقابله في الأولى في الوزنِ والتقفية، وأما لفظه فلا يقابله شيءٌ من القرينةِ الثانيةِ.

والترصيع: هو أن تكونَ الألفاظُ مُستويةَ الأوزانِ مُتَّفِقةَ الأعجازِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤].

ذكره العلامةُ الشريفُ الجرجاني رحمه الله تعالى في «التعريفات» ص ٥٥ - ٥٦.

ونحوه ﴿أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿مَنْ سَايَ بِنَدْوٍ﴾ [النمل: ٢٢].

وعن النبي ﷺ: «لم تعط أمة من الأمم: إنا لله وإنا إليه راجعون» عند المصيبة إلا أمة محمد، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع، وإنا قال: ﴿يَتَأَسَفَى﴾.

فإن قلت: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث، والرؤء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً؟ قلت: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه، وأن الرؤء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرياً.

ولم تُنسني أوفى المصيات بعده

ولأن الرؤء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في وكده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به.

﴿وَأَبْصَتَ عَيْنَاهُ﴾ إذا كثر الاستيعاب محقت العبرة سواد العين وقلبت إلى بياض كدر. قيل: قد عمي بصره. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً.

قوله: (ولم تُنسني أوفى المصيات بعده)، [بعده]:

ولكن نكء القرح بالقرح أوجع^(١)

(١) كان لذي الرمة إخوة؛ هشام وأوفى ومسعود، فمات أوفى، ثم مات بعده ذو الرمة، فقال هشام - كما في «الكامل» للمبرد (١: ٢٠٨)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣: ٦٧) -، أو مسعود - كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢: ٤٤١) -:

عزاء وجفن العين بالماء مشرع
ولكن نكء القرح بالقرح أوجع

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده
ولم تُنسني أوفى المصيات بعده

وغيلان: هو ذو الرمة.

قُرِي: ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ و«مِنَ الْحُزْنِ». الْحُزْنُ كَانَ سَبَبَ الْبُكَاءِ الَّذِي حَدَّثَ مِنْهُ الْبِياضُ، فَكَأَنَّهُ حَدَّثَ مِنَ الْحُزْنِ. قِيلَ: مَا جَفَّتْ عَيْنَا يَعْقُوبَ مِنْ وَقْتِ فِرَاقِ يَوْسُفَ إِلَى حِينِ لِقَائِهِ ثَمَانِينَ عَامًا، وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ يَعْقُوبَ. وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ سَأَلَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا بَلَغَ مِنْ وَجْدِ يَعْقُوبَ عَلَى يَوْسُفَ؟ قَالَ: وَجَدَ سَبْعِينَ نَكْلًا. قَالَ: «فَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ؟» قَالَ: أَجْرُ مِثَّةٍ شَهِيدٍ، وَمَا سَاءَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ سَاعَةً قَطًّا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جازَ لِنَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ الْجَزَعُ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ؟ قُلْتَ: الْإِنْسَانُ مَجْبُورٌ عَلَى أَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ مِنَ الْحُزْنِ، وَلِذَلِكَ حُمِدَ صَبْرُهُ، وَأَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ حَتَّى لَا يَخْرُجَ إِلَى مَا لَا يَحْسُنُ، وَلَقَدْ بَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ: «الْقَلْبُ يَجْزَعُ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا عَلَيْكَ - يَا إِبْرَاهِيمُ - لَمَحْزُونُونَ»، وَإِنَّمَا الْجَزَعُ الْمَذْمُومُ مَا يَقَعُ مِنَ الْجَهْلَةِ مِنَ الصَّيَاحِ وَالنَّيَاحَةِ وَلَطْمِ الصُّدُورِ وَالْوُجُوهِ وَتَمْزِيقِ الثِّيَابِ. وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ بَكَى عَلَى وَلَدٍ بَعْضِ بَنَاتِهِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَبْكِي وَقَدْ نَهَيْتَنَا عَنِ الْبُكَاءِ؟!

هَشَامٌ هَذَا فُجِعَ بِأَخِيهِ أَوْفَى، ثُمَّ أُصِيبَ بِأَخٍ آخَرَ اسْمُهُ غَيْلَانُ الْمَشْهُورُ بِذِي الرُّمَّةِ، قَالَ: إِنَّ الْجَزَعُ بِأَوْفَى لَمْ يَزَلْ، وَمَا يَعْقُبُهُ مِنَ الْمُصِيبَاتِ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا تَفْجُعًا، كَمَا أَنَّ الْجَرَاحَ إِذَا نَكَأَ ثَانِيًا وَأَدْمَى كَانَ إِنْجَاعُهُ أَشَدَّ، وَإِبْلَامُهُ أَبْلَغُ.

قَوْلُهُ: (الْقَلْبُ يَجْزَعُ)، الرَّوَايَةُ عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ ^(١) عَنْ أَنَسٍ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَخْشَعُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

قَوْلُهُ: (أَنَّهُ بَكَى عَلَى وَلَدٍ بَعْضِ بَنَاتِهِ)، رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيَّ ^(٢)

(١) الْبُخَارِيُّ (١٣٠٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٣١٥).

(٢) الْبُخَارِيُّ (٧٣٧٧)، وَمُسْلِمٌ (٩٢٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٣١٢٥)، وَالنَّسَائِيُّ (١٨٦٨).

فقال: «ما نَهَيْتُمْ عَنِ الْبُكَاءِ، وَإِنَّمَا نَهَيْتُمْكُمْ عَنِ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ: صوتِ عِنْدَ الْفَرَحِ، وصوتِ عِنْدَ التَّرْحِ». وعن الحسن: أنه بكى على ولدٍ أو غيره، فقيل لهفي ذلك، فقال: ما رأيتُ اللهَ جعلَ الحُزْنَ عاراً على يعقوب.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فهو مملوءٌ من الغَيْظِ على أولادِهِ، ولا يُظهِرُ ما يَسُوؤُهُمْ. «فَعِيلٌ» بمعنى «مَفْعُولٌ»، بدليل قوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]؛ من: كَظَمَ السَّقَاءَ؛ إذا شَدَّهُ على مَلْتِهِ، وَالكَظَمُ - بفتح الظاء -: مَخْرَجُ النَّفْسِ. يُقال: أَخَذَ بِأَكْظَامِهِ. [قَالُوا تَأَلَّوْا تَأَلَّوْا تَقْتَوُا تَذَكَّرُ يُؤَسِّفُ حَتَّى تَكُونُ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ] ﴿٨٥﴾].

﴿تَقْتَوُا﴾ أراد: لا تَقْتَوُ، فَحَذِفَ حَرْفُ النَّفْيِ لَأَنَّهُ لَا يَلْتَبِسُ بِالْإِثْبَاتِ، لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ إِثْبَاتًا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ اللَّامِ وَالنُّونِ،

عن أسامة قال: «أرسلت بنتُ النبي ﷺ: إن ابناً لي قُبِضَ، فأُتِنَا، وساق الحديث إلى قوله: «فقامَ وقامَ معه سعدُ بنُ عبادَةَ، ومُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، وأبِيُّ بنُ كَعْبٍ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، ورجالٌ فَرَفَعَ إلى رسولِ الله ﷺ الصَّبِيَّ، فأقعدَهُ في حِجْرِهِ، ونَفْسُهُ تَقَعَّقُ»^(١) كأنها في شَنِّ^(٢)، ففاضت عَيْنَاهُ. فقال سعد: يا رسولَ الله، ما هذا؟ فقال: هذه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ في قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرَحِمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».

النهاية: «يجودُ بنفسِهِ؛ أي: يُجْرِجُهَا وَيَدْفَعُهَا كَمَا يَدْفَعُ الْإِنْسَانُ مَالَهُ يَجُودُ بِهِ، أي: كَانَ فِي النَّزْعِ وَسِياقِ الْمَوْتِ».

قوله: (لو كان إثباتاً لم يكن بُدٌّ مِنَ اللَّامِ وَالنُّونِ)، يعني: أَنَّ الْقَسَمَ إِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ عِلْمَةٌ

(١) أي: تَضَطَّرَبُ وَتَتَحَرَّكُ، أَرَادَ: كَلَّمَا صَارَ إِلَى حَالٍ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى أُخْرَى تُقَرِّبُهُ مِنَ الْمَوْتِ.

«النهاية» لابن الأثير (٤: ٨٨)، مادة (قعقع).

(٢) الشَّنُّ: الْقَرْبَةُ الْحَلِيقَةُ الْيَابِسَةُ. «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٣: ١٥٧).

ونحوه:

فَقُلْتُ: يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا

ومعنى «الآنَفْتَأُ» لا تزال. وعن مجاهد: لا تَفْتَرُ من حُبِّه، كأنه جعل الفتوة والفتورَ أخوين، يُقال: ما فَتَيْتُ يَفْعَلُ، قال أوس:

فَمَا فَيْتَتْ حَيْلٌ تُثُوبٌ وَتَدَّعِي وَيَلْحَقُ مِنْهَا لَاحِقٌ وَتَقَطَّعُ

الإثبات كان على النفي^(١)، وهو من قول الرَّجَّاجِ: «وإنما جازَ إضمارُ «لا» في قوله: ﴿تَأَلَّه تَفْتَرُ﴾، لأنه لا يجوزُ في^(٢) القَسَمِ: تأله تَفْعَلُ، حتى تقول: لَتَفْعَلَنَّ؛ في الإثبات، أو تقول: لا تَفْعَلُ؛ في النفي^(٣).

قوله: (فَقُلْتُ: يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا)، تمامه - لامرئ القيس -:

وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي^(٤)

الأوصال: جمع وِضْلٍ - بكسر الواو -، وهو المِفْضَلُ، قيل: إن امرأ القيس سَرى إلى ابنة قَيْصَرَ، فقالت: تُريدُ أن تَفْضَحَنِي، أَلَسْتَ تَرى السُّمَارَ والرُّقَبَاءَ راقدين حَوْلِي؟! فقال مُجِيباً لها: إني لا أَبْرَحُ حتى أنال منك حاجتي، ولو قَطَّعْتُ إزباً إزباً.

قوله: (فَمَا فَيْتَتْ حَيْلٌ) البيت^(٥)، «فَمَا فَيْتَتْ»: أي: ما زالت، و«الثوب»: هو أن الرَّجُلَ إذا اسْتَصْرَخَ وَلَوَّحَ بثوبه، كان ذلك كالدُّعَاءِ والإِنْذَارِ^(٦)، و«التداعي»: في الحرب: أن يَدْعُو قومٌ بعضهم بعضاً بأن يقول: يا آل فلان، و«تَقَطَّعُ»: أي: تَتَفَرَّقُ، يقول: ما زالت الخيلُ

(١) في (ف): «يعني أن القسم إذا كان للإثبات كانت معه علامته»، والمثبت من (ط).

(٢) من قوله: «من اللام والنون» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٢٦).

(٤) «ديوان امرئ القيس» ص ١٤١.

(٥) انظر: «ديوان أوس بن حُجر» ص ٥٨.

(٦) في (ف): «والإيدان»، والمثبت من (ط) و(ح).

﴿ تَكُونُ حَرَضًا ﴾ مُشْفِيًا عَلَى الْهَلَاكِ مَرَضًا، وَأَحْرَضَهُ الْمَرَضُ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ. وَالصَّفَةُ: حَرَضٌ - بِكسْرِ الرَّاءِ -، وَنَحْوُهُمَا: دَنَفٌ وَدَنِيفٌ، وَجَاءَتِ الْقِرَاءَةُ بِهِمَا جَمِيعًا. وَقَرَأَ الْحَسَنُ: «حَرَضًا» بِضَمَّتَيْنِ، وَنَحْوُهُ فِي الصِّفَاتِ: رَجُلٌ جُنُبٌ وَعُرْبٌ.

[﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْبِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٨٦]

الْبَثُّ: أَصْعَبُ الْهَمِّ الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، فَيَبِثُهُ إِلَى النَّاسِ، أَي: يَنْشُرُهُ، وَمِنْهُ: بَأَثَهُ أَمْرَهُ، وَأَبْثَهُ إِيَّاهُ.....

تَسْتَصْرِخُ، وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْمُنْهَزَمِينَ وَالْمُنْقَطِعِينَ، وَيَلْحَقُ مِنْهَا فِي الْحَرْبِ اللَّاحِقُونَ وَالْمُنْقَطِعُونَ، اسْتَصْرَخَنِي فَأَصْرَخْتُهُ؛ أَي: اسْتَغَاثَنِي فَأَغَثْتُهُ.

قوله: ﴿ حَرَضًا ﴾ مُشْفِيًا عَلَى الْهَلَاكِ، الرَّاعِبُ: «الْحَرَضُ: مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَهَذَا يُقَالُ لِمَا أُشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ: حَرَضٌ، وَالتَّحْرِيسُ: الْحَثُّ عَلَى الشَّيْءِ بِكَثْرَةِ التَّزْيِينِ وَتَسْهِيلِ الْخَطْبِ فِيهِ، كَأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ إِزَالَةُ الْحَرَضِ، نَحْوُ: مَرَضْتُهُ وَقَدَيْتُهُ؛ أَي: أزلت عنه المرَضَ وَالْقَدْيَ»^(١).

قوله: (فِي الصِّفَاتِ: رَجُلٌ جُنُبٌ وَعُرْبٌ)، الْجَوْهَرِيُّ: «الغُرْبَةُ: الاغْتِرَابُ، تَقُولُ مِنْهُ: تَغْرَبُ وَاغْتَرَبَ، فَهُوَ غَرِيبٌ وَعُرْبٌ أَيْضًا؛ بِضَمِّ الْغَيْنِ وَالرَّاءِ».

قوله: (الْبَثُّ: أَصْعَبُ الْهَمِّ الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، فَيَبِثُهُ إِلَى النَّاسِ)، الرَّاعِبُ: «أَصْلُ الْبَثِّ: إِثَارَةُ الشَّيْءِ وَتَفْرِيقُهُ، كَبَثَ الرِّيحَ التَّرَابَ، وَبَثَّ النَّفْسَ مَا انطَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْغَمِّ وَالسَّرِّ، يُقَالُ: بَثَّته فانبَثَّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ [الْوَاقِعَةُ: ٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَشْكُوا بَنِي ﴾ أَي: عَمِّي أَبْنُوهُ عَنِ كِتْمَانِ، فَهُوَ مَصْدَرٌ فِي تَقْدِيرِ مَفْعُولٍ، أَوْ عَمِّي الَّذِي

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٢٨.

ومعنى ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا﴾: إِنِّي لَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ وَمِنْ غَيْرِكُمْ، إِنَّمَا أَشْكُو إِلَى رَبِّي، دَاعِيًا لَهُ وَمُلْتَجِيًا إِلَيْهِ، فَخَلُونِي وَشِكَايَتِي. وهذا معنى تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُمْ، أَي: فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ إِلَى اللَّهِ وَالشُّكَايَةَ إِلَيْهِ. وقيل: دَخَلَ عَلَى يَعْقُوبَ جَارًّا لَهُ فَقَالَ: يَا يَعْقُوبُ، قَدْ تَهَشَّمْتَ وَفَنَيْتَ وَمَا بَلَغْتَ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغَ أَبُوكَ! فَقَالَ: هَشَّمَنِي وَأَفْنَانِي مَا ابْتَلَانِي اللَّهُ بِهِ مِنْ هَمٍّ يَوْسُفَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا يَعْقُوبُ، أَتَشْكُونِي إِلَى خَلْقِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، خَطِيئَةٌ أَخْطَأْتُهَا فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ قَالَ: إِنَّمَا أَشْكُو بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ.

ورُوي: أَنَّهُ أَوْحِيَ إِلَى يَعْقُوبَ: إِنَّمَا وَجَدْتُ عَلَيْكُمْ لِأَنْكُمْ ذَبِحْتُمْ شَاةً، فَقَامَ بِبَابِكُمْ مَسْكِينَ، فَلَمْ تُطْعِمُوهُ، وَإِنَّ أَحَبَّ خَلْقِي إِلَيَّ الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الْمَسَاكِينَ، فَاصْنَعْ طَعَامًا وَاذْعُ عَلَيْهِ الْمَسَاكِينَ. وقيل: اشْتَرَى جَارِيَةً مَعَ وَلَدِهَا، فَبَاعَ وَلَدَهَا، فَبَكَتْ حَتَّى عَمِيَتْ.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: أَعْلَمُ مِنْ صُنْعِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحُسْنِ ظَنِّي بِهِ أَنَّهُ يَأْتِينِي بِالْفَرَجِ مِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُ. ورُوي: أَنَّهُ رَأَى مَلَكَ الْمَوْتِ فِي مَنْامِهِ، فَسَأَلَهُ: هَلْ قَبِضْتَ رُوحَ يَوْسُفَ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ هُوَ حَيٌّ، فَاطْلُبْهُ.

وقرأ الحسن: «وَحُزْنِي» بفتح الحين، «وَحُزْنِي» بضم الحين: فتادة.

[﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ٨٧]

﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فَتَعَرَّفُوا مِنْهَا وَتَطَلَّبُوا خَبْرَهُمَا. وقرئ بالجيم، كما قرئ بهما في «الحجرات»، وهما «تفعل» من الإحساس وهو المعرفة؛ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢]،

بَثَّ فِكْرِي، نَحْوُ: تَوَزَّعَنِي الْفِكْرُ، فَيَكُونُ فِي مَعْنَى الْفَاعِلِ «(١)».

(١) «مفردات القرآن» ص ١٠٨.

ومن الجَسِّ؛ وهو الطَّلَب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان: الحواسِّ والجواسِّ.
﴿مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ من فَرَجِهِ وَتَنْفِيْسِهِ، وقرأ الحسنُ وقتادة: «من رُوحِ اللَّهِ» بالضَّمِّ،
أي: من رحمته التي يحيا بها العباد.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُتْرَ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ
فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [٨٨]

﴿الْفُتْرُ﴾ الهُزَالُ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْجُوعِ، ﴿مُزَجَّلَةٌ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر
رغبة عنها واحتقاراً لها؛ من: أزجيتُه؛ إذا دفعته وطرده، والريحُ تزجي السحاب.
قيل: كانت من متاع الأعراب صُوفاً وسمناً. وقيل: الصنوبر وحبّة الخضراء، وقيل:
سويق المقل والأقط. وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾
الذي هو حقنا، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ وتفضل علينا بالمساحة والإغماض عن رداءة
البضاعة، أو: زدنا على حقنا، فسمّوا ما هو فضلٌ وزيادةٌ لا تلزمه: صدقة، لأنّ
الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت محلّ لغير نبينا. وسئل ابن عيينة عن
ذلك فقال: ألم تسمع: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ أراد: أنها كانت حلالاً لهم.....

قوله: (من: أزجيتُه؛ إذا دفعته)، قال الزجاج: «الترجية: الشيء الذي يدافع به، تقول:
فلانٌ يزجي العيش، أي: يدفع بالقليل ويكتفي [به]، أي: إنا جئنا ببضاعةٍ إنها يدافع بها
ويتقوت، وليست مما يتسع^(١) به»^(٢).

قوله: (إلا بوضيعة)، يُقال: وُضِعَ في تجارته وضيعة؛ خسر، كذا في «الأساس».
قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ الذي هو حقنا، إنا قال: حقنا، لأنهم عطفوا ﴿وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَا﴾ - المعنيّ به الفضل - عليه، لأنّ الفضل إنما يتبع الواجب.

(١) في (ف): «يتسع» ولها معنى صحيح، والمثبت من (ط) و(ح)، وهو الموافق لِمَا في «معاني القرآن» للزجاج.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٢٧).

والظاهر أنهم تَمَسَّكُوا له وطلبوا إليه أن يَتَّصِدَّقَ عليهم، ومن ثمَّ رَقَّ لهم وَمَلَكَتُهُ الرَّحْمَةُ عليهم، فلم يَتَمَالَكَ أن عَرَفَهُمْ نَفْسَهُ، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ شاهدٌ لذلك، لِذِكْرِ الله وَجَزَائِهِ، وَالصَّدَقَةُ: العَطِيَّةُ التي تَبْتَغِي بها المَثُوبَةَ من الله، ومنه قولُ الحسن - لَمَنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: اللهم تَصَدَّقْ عَلَيَّ -: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَّصِدَّقُ، إِنَّمَا يَتَّصِدَّقُ الذي يَبْتَغِي الثَّوَابَ، قُل: اللَّهُمَّ اعْطِنِي، أو تَفَضَّلْ عَلَيَّ، أو ارْحَمْنِي.

[﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ٨٩]

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ أتاها من جهة الدِّين، وكان حَلِيمًا مُوَفَّقًا، فَكَلَّمَهُمْ مُسْتَهْمًا عن معرفة وَجْهِ القُبْحِ الذي يَجِبُ أن يُرَاعِيَهُ النَّائِبُ، فقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ قُبْحَ ﴿ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ لا تعلمون قُبْحَهُ، فلذلك أَقْدَمْتُمْ عليه، يعني: هل علمتُم قُبْحَهُ فَبُتُّم إلى الله منه؟ لأنَّ عِلْمَ القُبْحِ يدعو إلى الاستقباح، والاستقباحُ يجرُّ إلى التوبة،

قوله: (والظاهر أنهم تَمَسَّكُوا له)، أي: أَظْهَرُوا المَسْكَنةَ، وتكلَّفوها^(١) لِيَرِقَّ لهم وَيَرْحَمَهُم لِمَا نَالُوا من النَّصَبِ، فَجَعَلُوا طَلَبَ الصَّدَقَةِ وَسِيلَةً إليه، لأنَّ طَالِبَ الصَّدَقَةِ لا يَكُونُ إِلَّا مِسْكِينًا، وَيَنْصُرُهُ تَذِيلُهُ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، لأنَّ ذِكْرَ الله يَدُلُّ على الاستشفاع.

قوله: (هل علمتُم قُبْحَهُ فَبُتُّم إلى الله منه)، يعني: اسْتَهَمَ بـ«هل» مَنْ كَانَ عَالِمًا بما فَعَلَهُ، وَجَعَلَ الفِعْلَ ماضِيًا، وَقَيْدَهُ بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ لِيُفِيدَ الحَثَّ على التوبة، يعني: هل اسْتَمَرَّ ذلك الجَهْلُ بِقُبْحِ الفِعْلِ أم تُدْورُكُ بِالْعِلْمِ المُوَجِّبِ للرُّجُوعِ منه وتَلَفِيهِ بالتوبة، فَإِنَّ العاقِلَ إِذَا تَجَلَّى لَهُ قُبْحُ القبيحِ لا يَتَوَقَّفُ رُجُوعُهُ منه، ولهذا الترتيب جاء بالفاء في قوله: «فَبُتُّم».

(١) في الأصول الخطية: «وتكلفوها لها».

فكان كلامه شَفَقَةً عليهم، وَتَنْصُحاً لهم في الدِّين، لا مُعَاتَبَةً وَتَثْرِيباً؛ إِيثاراً لِحَقِّ الله على حَقِّ نَفْسِهِ في ذلك المقام الذي يَتَنَفَّسُ فيه المَكْرُوب، وَيَنْفُثُ المَصْدُور، وَيَتَشَفَّى المَغِيْظُ المُحْتَق، وَيُدْرِكُ ثَأْرَهُ المَوْتُور، فَلِلَّهِ أخلاقُ الأنبياء ما أوطأها وَأَسَجَّحَها! والله حَصِي عَقُولِهِم ما أَرَزَتْها وَأَرْجَحَها!

قوله: (وتثريباً)، الجوهري: «التثريب: كالتأنيب والتغيير والاستقصاء في اللوم».

قوله: (المحتق)، الجوهري: «حَتَّقَ عليه - بالكسر -؛ أي: اغتاض، فهو حَتِيق، وأحنقه غيره، فهو مُحْتَق».

قوله: (وأسججها)، الجوهري: «الإسجاج: حُسْنُ العَفْو^(١)، يُقال: مَلَكْتَ فأَسَجَّجَ^(٢)».

قوله: (ولله حصى عقولهم)، الأساس: «ومن المجاز: فلان ذو حِصاةٍ وَقُورٍ، وماله حِصاةٌ؛ أي: رِزَانَةٌ، قال طَرَفَةٌ^(٣)».

وإن لسان المرء ما لم يكن له حِصاةٌ على عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلٌ^(٤)

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «العنق»، والمثبت من (ط)، وهو الموافق لما في «الصّحاح» للجوهري، مادة (سجج).

(٢) قال الميداني في «مجمع الأمثال» (٢ : ٢٨٣): «أي: مَلَكْتَ الأمرَ عليّ، فأحسِنِ العَفْوَ عني، وأصله: السُّهولةُ والرَّفقُ، قال أبو عُبَيْد: يُروى عن عائشة أنها قالت لعليّ رضي الله عنهما يومَ الجمل حينَ ظهرَ على الناس، فدنا من هُوْدَجِها، ثم كَلَّمَهَا بكلام، فأجابته: «مَلَكْتَ فأَسَجَّجَ»، أي: مَلَكْتَ فأحسِن، فجهَّزَها عندَ ذلكَ بأحسِنِ جَهاز، وبعثَ معها أربعينَ امرأةً - وقال بعضهم: سبعينَ امرأةً - حتى قَدِمَتِ المدينة».

قلت: وقد جاء ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ في قِصَّةٍ أُخرى عند البخاري (٣٠٤١) و(٤١٩٤)، ومسلم (١٨٠٦).

(٣) في (ف): «قال الشاعر»، والمثبت من (ط) و(ح).

(٤) «ديوان طرفة بن العبد»، شرح الأعلام السُّنَمَرِي، ص ٩٢.

وقيل: لم يُرَدِّ نَفِي الْعِلْمِ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عُلَمَاءَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَفْعَلُوا مَا يَقْتَضِيهِ الْعِلْمُ وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا جَاهِلًا، سَتَّاهَمَ جَاهِلِينَ. وقيل: معناه: إذ أنتم صبيانٌ في حَدِّ السَّفَهِّ وَالطَّيْشِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا أَوْ أَنْ أَحْلُمَ وَالرَّزَانَةَ. رُوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ أَرْفَضَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ هَذَا الْقَوْلُ. وقيل: أدُّوا إِلَيْهِ كِتَابَ يَعْقُوبَ: «مَنْ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلَ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ ذَبِيحِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتِ مُوَكَّلَ بِنَا الْبَلَاءِ؛ أَمَّا جَدِّي فَشَدَّتْ يَدَاهُ وَرَجَلَاهُ، وَرُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ لِيُحْرَقَ، فَجَاءَهُ اللَّهُ وَجُعِلَتِ النَّارُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَأَمَّا أَبِي فَوُضِعَ السَّكِينُ عَلَى قَفَاهُ لِيُقْتَلَ، فَقَدَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا أَنَا فَكَانَ لِي ابْنٌ، وَكَانَ أَحَبَّ أَوْلَادِي إِلَيَّ، فَذَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ،

قوله: (وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا جَاهِلًا)، عَطْفٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى عَلَى مَا قَبْلَهُ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: «لَمْ يَفْعَلُوا مَا يَقْتَضِيهِ الْعِلْمُ» فِي مَعْنَى: فَعَلُوا مَا اقْتَضَاهُ الْجَهْلُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَعَلُوا مَا اقْتَضَاهُ الْجَهْلُ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا جَاهِلًا.

وقلت: يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: لَمْ يَفْعَلُوا مَا يَقْتَضِيهِ الْعِلْمُ، وَفَعَلُوا مَا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا جَاهِلًا^(١)، وَعَكْسُهُ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٦٦].

قوله: (وقيل: معناه: إذ أنتم صبيانٌ في حَدِّ السَّفَهِّ وَالطَّيْشِ)، وَهَذَا تَعْلِيمٌ مِنْهُ لِلْإِعْتِدَارِ عَنْهُ، كَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ: ٢٠] فِي جَوَابِ ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ: ١٩]، وَهُمْ لَوْ طَلَبُوا عُذْرًا لَمْ يَجِدُوا كَذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) [الْإِنْفِطَارُ: ٦٦].

قوله: (أَرْفَضَتْ عَيْنَاهُ)، الْجَوْهَرِيُّ: «أَرْفَضَ الضَّمْعُ: تَرَشُّشُهُ».

(١) كَذَا فِي (ط) وَ(ف)، وَفِي (ح): «وَفَعَلُوا مَا اقْتَضَاهُ الْجَهْلُ»، وَالْأَمْرُ فِيهِ قَرِيبٌ.

(٢) يَعْنِي: أَنَّهُ لَقَّعَهُ الْجَوَابَ بِأَنْ يَقُولَ: غَرَّنِي كَرَمُكَ يَا رَبِّ. وَانظُرْ مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٨ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

ثم أتوني بقميصه مُلَطَّخاً بالدم وقالوا: قد أكله الذئب، فَذَهَبَتْ عَيْنَايَ من بكائي عليه، ثم كان لي ابن، وكان أخاه من أمه، وكنْتُ أُتَسَلَّى به، فذهبوا به، ثم رجعوا وقالوا: إنه سَرَق، وأنك حَبَسْتَهُ لذلك، وإنا أهلُ بيتٍ لا نَسْرِقُ ولا نَلْدُ سارقاً، فإن رَدَدْتُهُ عَلَيَّ وإلا دعوتُ عليك دعوةً تُدْرِكُ السابِغَ من وَكَدِكَ، والسَّلَام». فلما قرأ يوسفُ الكتابَ لم يَتِمَّا لَكَ وَعَيْلَ صَبْرُهُ، فقال لهم ذلك. ورُوي: أنه لما قرأ الكتابَ بكى، وكتبَ الجوابَ: «اصبرِ كما صَبَرُوا، تظفَرُ كما ظَفَرُوا».

فإن قلت: ما فِعْلُهُم بأخيه؟ قلت: تَعْرِضُهُم لِإِيَّاهِ لِلغَمِّ وَالثُّكُلِ بِإِفْرَادِهِ عن أخيه لأبيه وأُمِّه، وَجَفَاؤُهُم به، حتى كان لا يَسْتَطِيعُ أن يُكَلِّمَ أحداً مِنْهُمْ إلا كَلَامَ الدَّلِيلِ للعزیز، وإيذاؤُهُم له بأنواع الأذى.

[﴿قَالُوا أَيْتَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَك اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيبِينَ * قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٠-٩٣]

قوله: (وَعَيْلَ صَبْرُهُ)، الجوهرى: «عألني الشيءُ يَعِيلُنِي عَيْلاً وَمَعَيْلاً: إِذَا أَعَجَزَكَ»^(١).

قوله: (تَعْرِضُهُم لِإِيَّاهِ)، أي: جَعَلُوهُ عُرْضَةً لِلغَمِّ.

(١) أما ما ورد في الكتاب الذي أورده الزمخشري في «الكشاف» هنا من وَصَفِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالذَّبِيحِ - وكذا ما تقدّم في تفسير الآية ٥ من هذه السورة - فسيأتي ذِكْرُ الخِلافِ في تعيين الذبيح: هل هو إسحاق أو إسماعيل عليهما السَّلَام في تفسير الآية من ١٠٢ سورة الصافات، والراجح فيه أنه إسماعيل عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام.

قُرئ: ﴿أَيْنَاكَ﴾ على الاستفهام، و«إِنَّكَ» على الإيجاب، وفي قراءة أبي: «إِنَّكَ أَوْ أَنْتَ يَوْسُفَ»، على معنى: أئنكَ يوسفُ أو أنتَ يوسفُ. فحذفَ الأوَّلَ لدلالةِ الثاني عليه، وهذا كلامٌ متعجبٌ مُستغربٌ لِمَا يُسمع، فهو يُكرَّرُ الاستثبات. فإن قلت: كيف عرفوه؟ قلت: رأوا في رُوائِهِ وشَائلِهِ.....

قوله: (و«إِنَّكَ» على الإيجاب)، ابنُ كثير: «إِنَّكَ» بهمزة مكسورة على الخبر، والباقون: على الاستفهام.

قوله: (إِنَّكَ أَوْ أَنْتَ يَوْسُفَ)، يعني: قرأ بَدَلَ اللامِ «أَوْ»، قَالَ ابنُ جَنِّي: «ينبغي أن يكونَ هذا على حَذْفِ «إِنْ»، حتى كأنه قيل: إِنَّكَ لغيرُ يوسفَ أَوْ أَنْتَ يوسفَ^(١)؟ فكانه قيل: بل أَنْتَ يوسفَ، فلما خرجَ مخرجَ التوقيفِ^(٢) قال: أنا يوسفَ، وقد جاءَ عنهم حذفُ خَبَرِ «إِنْ»، قَالَ الأعشى:

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنْ^(٣) مُرْتَحَلًّا وَإِنْ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا^(٤)

أراد: إِنَّ لَنَا مَحَلًّا وَإِنْ لَنَا مُرْتَحَلًّا، فحذفَ الخبرَ، والكوفيون لا يُجيزونَ حذفَ خَبَرِ «إِنْ»، إلا إذا كانَ اسمُها نكرةً، ولهذا وَجَهٌ حَسَنٌ عِنْدَنَا، وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُنَا يُجيزونَهُ مَعَ المعرفةِ أَيْضًا^(٥).

قوله: (يُكرَّرُ الاستثبات)، يُريد: أَنَّ المُتَعَجَّبَ إِذَا سَمِعَ مِنَ المُخَاطَبِ مَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ يُكرَّرُ ذَلِكَ الكَلَامَ تَعَجُّبًا، أَي: هَلْ هُوَ كَذَا؟ هَلْ هُوَ كَذَا؟

قوله: (في رُوائِهِ)، أَي: مَنظَرِهِ، «ما شَعَرُوا بِهِ»: مفعولٌ «رأوا»، و«معَ عِلْمِهِمْ» حال.

(١) من قوله: «وقال ابنُ جَنِّي» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) في «المحتسب» لابن جَنِّي: «التوقُّف»، ولعله أقرب.

(٣) في (ح) و(ف): «أَوْ»، ولا يستقيمُ به الوزن، والمُتَبَّنُّ من (ط)، وهو الموافق لما في «ديوان الأعشى».

(٤) «ديوان الأعشى» ص ١٧٠.

(٥) «المحتسب» لابن جَنِّي (١: ٣٤٩).

حِينَ كَلَّمَهُمْ بِذَلِكَ مَا شَعَرُوا بِهِ أَنَّهُ هُوَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ لَا يَصْدُرُ مِثْلَهُ إِلَّا عَنِ حَنِيفٍ مُسْلِمٍ مِنْ سِنِّخِ إِبْرَاهِيمَ، لَا عَنِ بَعْضِ أَعْرَاءِ مِصْرَ. وَقِيلَ: تَبَسَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ فَعَرَفُوهُ بِشَيَآءِهِ، وَكَانَتْ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُنَظَّومِ. وَقِيلَ: مَا عَرَفُوهُ حَتَّى رَفَعَ التَّاجَ عَنِ رَأْسِهِ، فَنَظَرُوا إِلَى عَلَامَةٍ بَقَرْنِهِ كَانَتْ لِيَعْقُوبَ وَسَارَةَ مِثْلَهَا، تُشَبِّهُ الشَّامَةَ الْبَيْضَاءَ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ سَأَلُوهُ عَنِ نَفْسِهِ، فَلِمَ أَجَابَهُمْ عَنْهَا وَعَنِ أَخِيهِ، عَلَى أَنَّ أَخَاهُ كَانَ مَعْلُومًا لَهُمْ؟ قُلْتَ: لِأَنَّهُ كَانَ فِي ذِكْرِ أَخِيهِ بَيَانٌ لِمَا سَأَلُوهُ عَنْهُ.

﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ مَنْ يَخْفِ اللَّهُ وَعِقَابَهُ، ﴿وَيَصْبِرِ﴾ عَنِ الْمَعَاصِي وَعَلَى الطَّاعَاتِ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ أَجْرَهُمْ، فَوَضَعَ «الْمُحْسِنِينَ» مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمُتَّقِينَ وَالصَّابِرِينَ.

قوله: (مِنْ سِنِّخِ إِبْرَاهِيمَ)، أَي: أَصْلُهُ.

قوله: (لِأَنَّهُ كَانَ فِي ذِكْرِ أَخِيهِ)، بَيَانٌ لِمَا سَأَلُوهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُمْ سَأَلُوهُ عَنِ حَقِيقَةِ كَوْنِهِ يَوْسُفَ؛ حَيْثُ أَتَوْا بِالْهَمْزَةِ الْمَقْرَّرَةَ الْمُؤَكَّدَةَ لِلتَّعَجُّبِ، وَأَدْخَلُوا اللَّامَ فِي الْخَبَرِ، فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَا يَوْسُفُ﴾ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَهَذَا الْمُتَمَيِّزُ الشَّاهِدُ مِنْ أَبِي وَأُمِّي.

وَفِي ذِكْرِ الْأَخِ وَإِرَادِ اسْمِ الْإِشَارَةِ: مَزِيدٌ تَقْرِيرٌ وَقَفْضٌ تَمْيِيزٌ لَهُ، وَبَيَانٌ أَنَّهُ يَوْسُفٌ لَا مَحَالَةَ.

وَكَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يَقُولَ: بَلَى، أَوْ: أَنَا هُوَ، فَعَدَلَ لِطِبَاقِ تَعَجُّبِهِمْ وَاسْتِيعَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: أَنْتَ يَوْسُفُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَى الْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا سَأَلُوهُ مُتَعَجِّبِينَ: أَنْتَ يَوْسُفُ؟ أَجَابَ: لَا تَسْأَلُونِي عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ، وَلَكِنْ اسْأَلُونِي مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ مِنَ الْإِمْتِنَانِ وَالْإِعْزَازِ بِمَا صَبَرْتَ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ، وَثَبَّتَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ، وَكَذَلِكَ أَخِي.

قوله: ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ مَنْ يَخْفِ اللَّهُ وَعِقَابَهُ، ﴿وَيَصْبِرِ﴾ عَنِ الْمَعَاصِي وَعَلَى الطَّاعَاتِ، قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: حَمَلَ ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ عَلَى الْمَجَازِ، وَلَا مَانِعَ مِنَ الْحَمْلِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْعُدُولُ مِنْهُ إِلَى الْمَجَازِ بِغَيْرِ ضَرُورَةٍ غَيْرُ جَائِزٍ، فَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ: ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ مَنْ احْتَرَزَ عَنِ تَرْكِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَعَنِ ارْتِكَابِ مَا نُهِىَ عَنْهُ، وَصَبَرَ فِي الْمَكَارِهِ، وَذَلِكَ بِاخْتِيَارِهِ، وَهَذَا بِغَيْرِ

﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين، وإن شأنا وحالنا آنا كنا خاطئين مُتعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرّم أن الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك.

﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل «الشرب» من الثرب؛ وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش. ومعناه: إزالة الثرب،

اختياره^(١): فهو محسن.

وذكر الصبر بعد التقوى: كذكر الصلاة والزكاة بعد ذكر الأعمال الصالحة^(٢)، وكذكر جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة^(٣). ويجوز أن يكون ذكر الصبر بعد التقوى لإرادة الثبات على التقوى، كأنه قيل: ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ ويثبت على تقواه.

وقلت: ولا ارتياب أن قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، وتعرض بإخوته، يدل على قولهم في الجواب: ﴿تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾، أي: فضلك الله علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾ مُتعمدين للإثم لم نتق؛ أي: لم نحف عقاب الله وسوء المعصية، ولم نصبر على طاعة الله تعالى وطاعة أبينا وعلى المعصية^(٤)؛ حيث فعلنا بك ما فعلنا، فأثبتوا في يوسف ما نفوا عن أنفسهم، فإذا لا بد من ارتكاب المجازي وتخصيص العام بحسب ما يقتضيه المقام.

(١) قوله: «وهذا بغير اختياره» سقط من (ف)، وفي (ح): «وذلك باختياره وهذا باختياره» والمثبت من (ط).

(٢) أي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

(٣) أي: في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

(٤) كذا في الأصول الخطية، ووجهه أن يُقدَّر: «وعلى ترك المعصية» أو «وعلى اجتناب المعصية» أو نحو ذلك.

كما أَنَّ التَّجْلِيدَ والتَّقْرِيعَ إِزَالَةٌ لِالجِلْدِ والقَرَعِ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ الهُزَالِ والعَجْفِ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ، فَضُرِبَ مَثَلًا لِلتَّقْرِيعِ الَّذِي يُمَزَّقُ الأَعْرَاضُ، وَيَذْهَبُ بِهَاءِ الوُجُوهِ.

فَإِنْ قَلْتَ: بِمَ تَعَلَّقُ «أَيَّوَمَ»؟ قَلْتَ: بِالثَّرِيبِ، أَوْ بِالمَقْدَرِ فِي «عَلَيْكُمْ» مِنْ مَعْنَى الاسْتِقْرَارِ، أَوْ بِ«يَغْفِرُ».....

قوله: (والقرع)، الجوهرى: «القرعُ - بالتحريك - : بَشْرٌ أبيضٌ يخرُجُ بالفِصال^(١)، ودواؤه المِلْحُ، وَجُبَابُ ألبانِ الإبلِ»، وهو شَيْءٌ يعلو ألبانَ الإبلِ كالزُّبْدِ، وَلَا زُبْدَ لها.

قوله: (فضرب مثلاً للتقريع)، يعنى: أَنَّ تَثْرِيبَ الحَيوانِ - أَيْ: إِزَالَةَ الثَّرِبِ عَنْهُ - يُظْهِرُ غَايَةَ هُزَالِهِ، وَبِهِ تَظْهَرُ عُيُوبُهُ، كَذَلِكَ تَقْرِيعُ الإنسانِ، وهو ارتِدَاعُهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ آيَةُ الكُرْسِيِّ وَنَحْوُهَا: قَوَارِعُ^(٢)، كَأَنَّهَا تَذْهَبُ الشَّيْطَانُ وَتُهْلِكُهُ وَتَمَزَّقُ أَعْرَاضَهُ وَتَذْهَبُ بِهَاءِ وَجْهِهِ.

قوله: (بالثريب)، أَيْ: أَعَلَّقُ «اليومَ» بِ«الثريبِ»، قَالَ صَاحِبُ «التقريبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ، إِذْ يَكُونُ حَيْثُ مِثَاباً لِلْمُضَافِ، نَحْوُ: «لَا ضَارِباً زَيْدًا»، فَكَيْفَ يُفْتَحُ، وَقَدْ ذَكَرَ^(٣) فِي «لَا غَالِبَ لَكُمْ» [الأَنْفَالُ: ٤٨]: إِنَّ «لَكُمْ» لَيْسَ مَفْعُولاً، وَإِلَّا لَقِيلَ: «لَا غَالِباً لَكُمْ»، بَلْ هُوَ خَبَرٌ، كَقَوْلِهِ:

لَا نَسَبَ اليَوْمِ وَلَا خُلَّةَ^(٤)

(١) أَيْ: بِالْجَمَالِ الصَّغِيرَةِ، قَالَ الفَيْوَمِيُّ فِي «المصباح المنير»، مَادَّةُ (فصل): «الفَصِيلُ: وَكَلْدُ النَّاقَةِ، لِأَنَّهُ يَفْصِلُ عَنْ أُمِّهِ، فَهُوَ «فَعِيلٌ» بِمَعْنَى: مَفْعُولٌ، وَالجَمْعُ: فُضْلَانٌ؛ بَضْمُ الفَاءِ وَكسْرِهَا، وَقَدْ يَجْمَعُ عَلَى فِصَالٍ - بِالكسْرِ -، كَأَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا فِيهِ الصَّفَةَ، مِثْلُ: كَرِيمٌ وَكِرَامٌ».

(٢) قَوَارِعُ القُرْآنِ: هِيَ الآيَاتُ الَّتِي يُتَعَوَّذُ بِهَا وَيُتَحَصَّنُ، وَمَنْ قَرَأَهَا أَمِنَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالجِنِّ وَالإِنْسِ، كَأَنَّهَا تَقْرَعُ هَوْلًا وَتَدْفَعُهُمْ وَتَقْمَعُهُمْ، كَأَيَّةِ الكُرْسِيِّ وَالمُعَوَّذَتَيْنِ وَنَحْوِهَا. انظُرْ: «بصائر ذوي التَّمْيِيزِ» لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي (٤: ٢٥٩)، مَادَّةُ (قرع)، وَ«الإِتْقَانُ فِي عِلْمِ القُرْآنِ» لِلشُّيُوطِيِّ (١: ٥٧).

(٣) أَيْ: الزَّمخَشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ المَذْكُورَةِ مِنْ سُورَةِ الأَنْفَالِ.

(٤) صَدْرُ بَيْتٍ نَسَبَهُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي «لسان العرب» (قمر) وَ(عتق) إِلَى أَبِي عَامِرٍ جَدِّ العَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ، =

والمعنى: لا أُثْرِبُكُمْ اليوم، وهو اليوم الذي هو مَظِنَّةُ التَّشْرِيبِ، فما ظَنُّكُمْ بغيره من الأيام؟ ثم ابتداءً فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما قَرَطَ منهم. يُقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً،

أي: لا تشريب في اليوم.

وقال أبو البقاء: «في خَبَرِ «لا» وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ: ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ﴾، وَ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يَتَعَلَّقُ بِالظَّرْفِ أَوْ بِالْعَامِلِ فِي الظَّرْفِ، وَهُوَ الِاسْتِقْرَارُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ «عَلَى» بِ«تَثْرِيْبٍ»، وَلَا يُنْصَبُ ﴿الْيَوْمَ﴾ بِهِ، لِأَنَّ اسْمَ «لا» إِذَا عَمِلَ نُونٌ^(١).

قوله: (والمعنى: لا أُثْرِبُكُمْ اليوم، وهو اليوم الذي هو مَظِنَّةُ للتَّشْرِيبِ^(٢))، فما ظَنُّكُمْ بغيره)، قَالَ فِي «الِاتِّصَافِ»: «هَذَا الْمَعْنَى يَتَوَجَّهُ عَلَى الْإِعْرَابِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ الْأَصْحَحُ، لِقَوْلِهِمْ: ﴿يَتَأَبَّأْنَا أَتَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا بَعْدُ فِي عَهْدَةِ الذَّنْبِ، وَلَوْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِ«يَغْفِرُ» لَقَطَعُوا بِالْغُفْرَانِ بِإِخْبَارِ الصَّادِقِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: قَطَعَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا يَرْجِعُ إِلَى حَقِّهِ دُونَ أَخِيهِ»^(٣).

وقلت: لو عُلِّقَ بِ«تَثْرِيْبٍ» لَكَانَ ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دُعَاءَ لَهُم بِالْمَغْفِرَةِ، وَالنَّبِيُّ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ، فَيَلْزِمُ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْقَطْعَ.

= ونماؤه:

أَتَّسَعَ الْفَتْقُ عَلَى الرَّائِقِ

وَيُرْوَى:

أَتَّسَعَ الْحَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

وانظر الكلام عليه في «اللسان».

(١) «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العُكْبَرِيِّ (٢: ٧٤٤ - ٧٤٥).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «مَظِنَّةُ للتَّشْرِيبِ»، والمعنى واحد.

(٣) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٤٢) بحاشية «الكشاف».

ومنه قول المُشَمَّت: «يَهْدِيكُمْ اللَّهُ وَيُصَلِّحُ بِالْكُفْمِ». أو ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بشارةً بعاجِلِ غُفْرانِ اللَّهِ لِمَا تَجَدَّدَ يَوْمَئِذٍ مِنْ تَوْبَتِهِمْ وَنَدَمِهِمْ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ.

وَرُوِيَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بَعْضَادَتِي بَابَ الْكَعْبَةِ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَقَالَ لِقْرِيشٍ: «مَا تَرَوْنِي فاعِلاً بِكُمْ؟» قالوا: نَظُنُّ خيراً، أَخُ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، وَقَدْ قَدَّرْتَ، فَقَالَ: «أَقُولُ مَا قَالَ أَخِي يَوْسُفُ: لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ». وَرُوِيَ: أَنَّ أبا سَفِيانَ لَمَّا جَاءَ لِيُسَلِّمَ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: إِذَا آتَيْتَ الرَّسُولَ فَاتَّلْ عَلَيْهِ: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ﴾، فَفَعَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِمَنْ عَلَّمَكَ».

وَيُرْوَى: أَنَّ إِخْوَتَهُ لَمَّا عَرَفُوهُ وَأرسلوا إليه: إِنَّكَ تَدْعُونَا إِلَى طَعَامِكَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، وَنَحْنُ نَسْتَحْيِي مِنْكَ لِمَا قَرَطَ مَنَا فِيكَ، فَقَالَ يَوْسُفُ: إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ وَإِنْ مَلَكَتُ فِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ بِالْعَيْنِ الْأُولَى،

قال الإمام: «رُوِيَ عَنْ عطاء: أَنَّ طَلَبَ الْحِوَانِجِ إِلَى الشُّبَّانِ أَنْجَحَ مِنْهَا إِلَى الشُّيُوخِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، وَقَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾»^(١).

قوله: (ومنه قول المُشَمَّت)، أي: من الوارد على لفظ المضارع للدعاء كالماضي: «يَهْدِيكُمْ اللَّهُ وَيُصَلِّحُ بِالْكُفْمِ» الحديث، رواه البخاريُّ وأبو داود^(٢) عن أبي هريرة عن رسولِ اللَّهِ ﷺ في حديث.

قوله: (أو ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾)، هذا على أن يتعلَّق الظرف بـ ﴿يَغْفِرُ﴾، و﴿يَغْفِرُ اللَّهُ﴾ بشارة لا دعاء.

قوله: (بعضادتي باب الكعبة)، الجوهرى: «أعضاءُ كُلِّ شيءٍ: ما يُشَدُّ حِوَالِيهِ مِنَ الْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ، وَعِضَادَتَا الْبَابِ: هُمَا خَشْبَتَاهُ مِنْ جَانِبَيْهِ».

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٨: ٥٠٦).

(٢) البخاري (٦٢٢٤)، وأبو داود (٥٠٣٣).

ويقولون: سبحانَ مَنْ بَلَغَ عبداً بَيْعَ عِشْرِينَ درهماً ما بَلَغَ، ولقد شَرَفْتُ الآنَ بكم، وَعَظُمْتُ فِي العُيُونِ؛ حَيْثُ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّكُمْ إِخْوَتِي. وَأَنْتِي مِنْ حَفَدَةِ إِبْرَاهِيمَ.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ قيل: هو القميصُ المتوارثُ الذي كان في تَعْوِيذِ يوسُفَ وكان من الجنة، أَمَرَهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُرْسِلَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ فِيهِ رِيحَ الْجَنَّةِ، لَا يَقَعُ عَلَى مُبْتَلَى وَلَا سَقِيمٍ إِلَّا عُوْفِي. ﴿يَأْتِ بِصَبْرًا﴾ يَصْرُ بِصَبْرًا، كَقَوْلِكَ: جَاءَ الْبِنَاءُ مُحْكَمًا، بِمَعْنَى: صَارَ، وَيَشْهَدُ لَهُ ﴿فَأَزْتَدَّ بِصَبْرًا﴾ [يوسف: ٩٦]، أَوْ: يَأْتِ إِلَيَّ وَهُوَ بِصَبْرٍ. وَيَنْصُرُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَتُوفٍ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: يَأْتِنِي أَبِي، وَيَأْتِنِي اللَّهُ جَمِيعًا. وَقِيلَ: يَهُودًا هُوَ الْحَامِلُ، قَالَ: أَنَا أَحْزَنْتُهُ بِحَمَلِ الْقَمِيصِ مَلْطُوحًا بِالْدَّمِ إِلَيْهِ، فَأَفْرَحُهُ كَمَا أَحْزَنْتُهُ، وَقِيلَ: حَمَلَهُ وَهُوَ حَافٍ حَاسِرٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى كَنْعَانَ، وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةٌ ثَمَانِينَ فَرَسَخًا.

[﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بِصَبْرًا﴾]

قوله: (وَيَنْصُرُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَتُوفٍ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾)، أَي: يُقْوِي هَذَا الْوَجْهَ - وَهُوَ أَنْ يَجْرِي ﴿يَأْتِ﴾ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَيَكُونُ ﴿بِصَبْرًا﴾ حَالًا مِنْ فَاعِلِهِ - عَطْفُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَتُوفٍ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَلَى ﴿يَأْتِ﴾، لِأَنَّ الْمَعْنَى: يَأْتِنِي أَبِي وَأَهْلِي كُلُّهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ الدَّلِيلَيْنِ أَظْهَرَ؟ قَوْلُهُ: ﴿فَأَزْتَدَّ بِصَبْرًا﴾ (١) أَمْ ﴿وَأَتُوفٍ﴾ (٢)؟ قُلْتَ: الثَّانِي، لِأَنَّهُ أْبْلَغُ وَأَوْجَزُ وَأَقْطَعُ لِحْصُولِ مَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ إِقْدَاءُ الْقَمِيصِ - كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا شَكَّ فِي ارْتِدَادِ الْبَصْرِ، لِأَنَّهُ مَقْطُوعٌ بِهِ، بَلِ الْكَلَامُ فِي إِتْيَانِهِ بِصَبْرًا -، وَلِأَنَّ إِتْيَانَ الْأَهْلِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِيَّةِ أَوْلَى مِنَ الْعَكْسِ، وَدُخُولِ الْأَبِ (٣) فِي زُمْرَةِ الْأَهْلِ.

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «حَالًا مِنْ فَاعِلِهِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف).

(٢) فِي (ح): «أَوْ تَمَّ أَتُونِي»، وَفِي (ف): «تَمَّ فَاتُونِي»! وَالثَّبْتُ مِنْ (ط).

(٣) أَي: وَلِدُخُولِ الْأَبِ.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٤-٩٦﴾

﴿فَصَلَّتِ الْعَيْرُ﴾ خَرَجَتْ مِنْ عَرِيشِ مِصْرَ، يُقَالُ: فَصَلَ مِنَ الْبَلَدِ فُضُولًا؛ إِذَا انْفَصَلَ مِنْهُ وَجَاوَزَ حَيْطَانَهُ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَلَمَّا انْفَصَلَ الْعَيْرُ».

﴿قَالَ﴾ لَوْلَدٍ وَلِدِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أَوْجَدَهُ اللَّهُ رِيحَ الْقَمِيصِ حِينَ أَقْبَلَ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانٍ. وَالتَّفْنِيدُ: التَّسْبُؤُ إِلَى الْفَنَدِ، وَهُوَ الْخَرْفُ وَإِنْكَارُ الْعَقْلِ مِنْ هَرَمٍ، يُقَالُ: شَيْخٌ مُفْنِدٌ، وَلَا يُقَالُ: عَجُوزٌ مُفْنِدَةٌ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي شَبَابِهَا ذَاتَ رَأْيٍ، فَتَفْنَدُ فِي كِبَرِهَا. وَالْمَعْنَى: لَوْلَا تَفْنِيدُكُمْ إِنِّي آيَايَ لَصَدَّقْتُمُونِي.

﴿لِنَفْسٍ ضَلَّالِكَ الْكَدِيرِ﴾ لِنَفْسٍ ذَهَابِكَ عَنِ الصَّوَابِ. قُدُمًا فِي إِفْرَاطٍ مَحَبَّتِكَ لِيُوسُفَ، وَلِهَجِّكَ بِذِكْرِهِ، وَرَجَائِكَ لِلِقَائِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

﴿أَلْقَنَهُ﴾ طَرَحَ الْبَشِيرُ الْقَمِيصَ عَلَى وَجْهِ يَعْقُوبَ، أَوْ: أَلْقَاهُ يَعْقُوبَ، ﴿فَازْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فَرَجَعَ بَصِيرًا، يُقَالُ: رَدَّهُ فَارْتَدَّ، وَارْتَدَّهُ؛ إِذَا ارْتَجَعَهُ.

قوله: (من عريش مصر)، أي: من عُمرانِه، الجوهري: «قيل لبيوت مكة: العرش؛ لأنها عيدان تُنصب، ويُظلل عليها».

قوله: (أوجدته الله ريح القميص)، أي: جعله الله واجداً، الجوهري: «أوجدته الله مطلوبه؛ أي: أظفره».

قوله: ﴿لِنَفْسٍ ضَلَّالِكَ الْكَدِيرِ﴾ لِنَفْسٍ ذَهَابِكَ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَنْشَدَ السَّجَاوُنْدِيُّ لِلْبَيْدِ:

تَمَنَّى أَنْ تُلَاقِيَ آلَ سُلَيْمِي بِخَطْمَةٍ وَالْمُنَى طُرُقُ الصَّلَالِ (١)

قوله: (ولهجك بذكره)، الجوهري: «اللَّهُجُّ بِالشَّيْءِ: الْوَلُوعُ، وَقَدْ لَهَجَ بِهِ إِذَا أَغْرَى بِهِ، فَتَابَرَ عَلَيْهِ»، أَي: وَاطَّابَ عَلَيْهِ.

(١) «ديوان لبَّيد» ص ١٠٤.

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ يعني: قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، أو قوله: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ كلامٌ مُبتدأٌ لم يَقَعْ عليه القول، ولك أن تُوقِعَه عليه وتُريدَ قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ورُوي: أنه سأل البشير: كيف يوسف؟ فقال: هو ملكٌ مصر. فقال: ما أصنع بالملك؟ على أي دينٍ تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تَمَّتِ النعمة.

[﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ * قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٩٧-٩٨]

﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ قيل: أخر الاستغفار إلى وقت السحر. وقيل: إلى ليلة

الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة.

قوله: (يعني: قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾)، هذا إذا كان الكلام مع ولدٍ وولده^(١) ومن حوله، وقوله: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ إذا كان الكلام مع ولده، ويحتمل الأمرين لمساعدة قرائن المقام، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهو تعليل لظهور صدقه فيما قال.

وعلى أن يكون مقولاً للقول: المعنى: إنما أشكو إلى ربي داعياً ومُلتجئاً لأنني أعلم من صنيعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، فأتى ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ هناك بالواو تفويضاً لاستفادة الترتب إلى ذهن السامع، كما تقرر، وصرح هنا بـ«إن» للدلالة على التعليل.

قوله: (إلى ليلة الجمعة)، روي عن الترمذي^(٢) عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «قال

(١) في (ح): «مع ولده»، والمثبت من (ط) و(ف)، وهو الصواب.

(٢) في (ح): «عن البخاري عن الترمذي»، وهو خطأ، والحديث في «جامع الترمذي» (٣٥٧٠) ضمن حديث طويل، وصححه الحاكم في «المستدرک» (١: ٣١٦)، وتعبه الحافظ الذهبي بقوله: «هذا حديث شاذ، أخاف أن يكون موضوعاً، وقد حيرني والله جودة سنده»، وعده في «ميزان الاعتدال» =

وقيل: ليتعرّف حالهم في صدق التّوبة وإخلاصها. وقيل: أراد الدّوام على الاستغفار لهم، فقد روي: أنه كان يستغفر لهم كلّ ليلة جمعة في نيّف وعشرين سنة. وقيل: قام إلى الصّلاة في وقت السّحر، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف، وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين.

وروي أنهم قالوا له - وقد علّتهم الكآبة -: ما يُغني عنّا عفوكم إن لم يعفُ عنّا ربّنا، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عينٌ أبداً، فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفها أدلّة خاشعين عشرين سنة، حتى بلغ جهدهم وظنوا أنّها الهلكة،

أخي يعقوبُ لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة.

قوله: (أراد الدوام)، أي: في ﴿سَوْفَ﴾ زيادة تنفيسٍ وتمامٍ في الفعل، ولا يبعد أن يُراد به الدوام، والدليل عليه ما روي أنه كان يستغفر لهم كلّ ليلة جمعة في نيّف وعشرين سنة. قوله: (واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم)، أي: فعلوا به من الإساءة. «الأساس»: «أتى إليه إحساناً: إذا فعله».

قوله: (وقد علّتهم الكآبة)، الجوهرية: «الكآبة: سوء الحال والانكسار».

قوله: (وظنوا أنّها الهلكة)، أي: الهلاك، والضمير للقصة، والمبتدأ ضميرٌ يرجع إلى ما هم عليه من استبطاء إجابة الدعاء، وبلوغ جهدهم فيه، أي: أنّ القصة هي الهلكة.

= (٤: ٣٤٧) من مناكير الوليد بن مسلم - أي: بسبب تدليسه وتسويته؛ قال: «ومن أنكر ما أتى حديث حفظ القرآن، رواه الترمذي...»، وقال الحافظ ابن كثير في «فضائل القرآن» عن هذا الحديث: «إنه من البين غرابته بل نكارته».

نزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد موثيقهم بعدك على النبوة. وقد اختلف في استنبائهم.

[﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ * وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَأْتِبْتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رِيًّا حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْرِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رِيًّا لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ٩٩-١٠٠]

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ قيل: وجّه يوسف إلى أبيه جهازاً ومثني راحلة ليجهز إليه بمن معه. وخرج يوسف والمالك في أربعة آلاف من الجنيد والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهودا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا، أهذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ولدك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحران.....

قوله: (وعقد موثيقهم بعدك على النبوة)، من قولهم: عقد ألوية، جزاز ناصية، جواب قاصية، للخيل جزار^(١). النهاية: «هلك أهل العقد ورب الكعبة^(٢)»، يعني: أرباب الولاية على الأمصار.

قوله: (استنباهم)، استنبا الرجل وتنبا: إذا جعل نبياً.

قوله: (ليجهز إليه بمن معه): النهاية: «تجهيز الغازي: تحميله وإعداد ما يحتاج إليه في غزوه، ومنه تجهيز العروس والميت».

قوله: (وهو يمشي يتوكأ)، توكأت على عصا، وأوكأت فلاناً أيكأه: إذا نصبت له مئكناً.

(١) قوله: «جراز ناصية، جواب قاصية، للخيل جزار» سقط من (ح) و(ف).

(٢) أخرجه النسائي (٨٠٨) عن أبي بن كعب رضي الله عنه موقوفاً. وقسّر الراوي في آخره «أهل العقد»: أنهم الأمراء.

وقيل: إن يوسف قال له لِمَا التَّقِيَا: يا أبتِ، بكيت عليّ حتّى ذهب بَصْرُكَ، ألم تَعْلَمْ أن القيامةَ تَجْمَعُنَا؟ فقال: بلى، ولكنْ خَشِيتُ أن تُسَلِّبَ دينك، فيُحَالَ بيني وبينك، وقيل: إن يعقوبَ ووَلَدَهُ دَخَلُوا مِصْرَ وهم اثنان وسبعون، ما بين رجلٍ وامرأة، وخرَجوا منها مع موسى ومُقاتِلَتِهِمْ سِتُّ مِئَةِ أَلْفٍ وخمُسُ مِئَةٍ وبِضْعَةُ وسبعون رجلاً، سوى الذُّرِّيَّةِ والهَرَمِيِّ، وكانت الذُّرِّيَّةُ أَلْفَ أَلْفٍ ومِئَتِي أَلْفٍ.

﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويْهِ﴾ صَمَّهَا إِلَيْهِ وَاَعْتَنَقَهَا. قال ابنُ أبي إسحاق: كانت أمُّه تحيا، وقيل: هما أبوه وخالته، ماتت أمُّه فتزوَّجها وجعلها أحدَ الأبوين؛ لأنَّ الرَّابَّةَ تُدْعَى أُمَّاً، لقيامها مقامَ الأمِّ، أو لأنَّ الخالَةَ أُمُّ كَمَا أَنَّ العَمَّ أَبٌ، ومنه قوله: ﴿وَاللَّهُ ءَابَاؤُكُمْ لِإِزْهَامِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

قوله: (أن تُسَلِّبَ دينك)، وهو مُسْتَنِدٌ إلى ضميرِ المُخاطَبِ، و«دينك»: بَدَلُ اشتغال^(١).
قوله: (وَهُمُ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ، ما بين رجلٍ وامرأة)، «ما» موصوفة، والظَّرْفُ مع مُتعلِّقِهِ: صِفَتُهَا، أي: عَدَدًا حَصَلَ وَثَبَ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ^(٢).
ويجوزُ أن يكونَ المجموعُ كِنْيَةً عن المُمَيِّزِ، أي: اثنانِ وسبعونَ ذكوراً وإناثاً، أو المُمَيِّزُ محذوف، والجُمْلَةُ خَبَرٌ بعدَ خَبَرٍ.

(١) فعلى هذا: تُضْبَطُ «دينك» بالرفع، ويجوزُ ضبطُها بالنَّضْبِ على أنها المفعول الثاني لـ«سلب». وهذا ينلُ ما ذُكِرَ في قوله ﷺ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ العَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ» - وقد أخرجَه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) من حديثِ ابنِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما -، قال العلامةُ ابنُ الأثيرِ في «النهاية» (٥: ١٤٨)، مادة (وتر): «يُرْوَى بِنَضْبِ «الأهل» وَرَفْعِهِ، فَمَنْ نَضَبَ جَعَلَهُ مَفْعُولًا ثَانِيًا لـ«وتر»، وَأَضَمَّرَ فِيهَا مَفْعُولًا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ عَائِدًا إِلَى الَّذِي فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ، وَمَنْ رَفَعَ لَمْ يُضْمِرْ، وَأَقَامَ «الأهل» مَقَامَ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لِأَنَّهُم المَصَابُونَ المَأخُودُونَ، فَمَنْ رَدَّ النِقْصَ إِلَى الرَّجُلِ نَضَبَهَا، وَمَنْ رَدَّه إِلَى الأهلِ والمالِ رَفَعَهَا».

(٢) من قوله: «ما: موصوفة» إلى هنا، سقط من (ط).

فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلت: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مَضْرِبٍ أو بَيْتٍ ثُمَّ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وَلَمَّا دَخَلَ مِصْرَ وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ مُسْتَوْبِئًا عَلَى سَرِيرِهِ وَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، أَكْرَمَ أَبُوَيْهِ، وَفَرَعَهُمَا عَلَى السَّرِيرِ، ﴿وَخَرُّوا لَهُ﴾، يَعْنِي: الْإِخْوَةَ الْأَحَدَ عَشَرَ وَالْأَبْوِينَ ﴿سُجَّدًا﴾. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَرَجَ فِي قُبَّةٍ مِنْ قِبَابِ الْمَلُوكِ الَّتِي تُحْمَلُ عَلَى الْبِغَالِ، فَأَمَرَ أَنْ يُرْفَعَ إِلَيْهِ أَبُوَاهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْقُبَّةَ، فَأَوَاهُمَا إِلَيْهِ بِالضَّمِّ وَالِاعْتِنَاقِ، وَقَرَّبَهُمَا مِنْهُ، وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ادْخُلُوا مِصْرَ.

فإن قلت: بِمَ تَعَلَّقَتِ الْمَشِيئَةُ؟ قلت: بِالذُّخُولِ مُكَيِّفًا بِالْأَمْنِ، لِأَنَّ الْقَصْدَ إِلَى اتِّصَافِهِمْ بِالْأَمْنِ فِي دُخُولِهِمْ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: اسْلَمُوا وَائْتَمِنُوا فِي دُخُولِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ لِلْغَازِي: ارْجِعْ سَالِمًا غَانِمًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَا تُعَلِّقِ الْمَشِيئَةَ بِالرُّجُوعِ مُطْلَقًا، وَلَكِنْ مُقَيَّدًا بِالسَّلَامَةِ وَالْغَنِيمَةِ مُكَيِّفًا بِهِمَا. وَالتَّقْدِيرُ: ادْخُلُوا مِصْرَ آمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ دَخَلْتُمْ آمِنِينَ، ثُمَّ حُدِّفَ الْجُزْءُ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، ثُمَّ اعْتَرِضَ بِالْجُمْلَةِ الْجُزْأِيَّةِ بَيْنَ الْحَالِ وَذِي الْحَالِ.

قوله: (كأنه قيل [لهم]: اسلموا وائتمنوا في دخولكم)، يعني: في التركيب معنى الدعاء، ولذلك أتى بها على لفظ الأمر.

قوله: (ثم اعترض بالجملة الجزائية - أي: الشرطية - بين الحال وعامله^(١))، قال صاحب «الفرائد»: التقدير: ادخلوا مصر إن شاء الله دخلتم آمنين، ف﴿ءأمينين﴾ متعلق بالجزء المحذوف، فعلى هذا لا يفتقر إلى التقديم والتأخير، وإلى أن تجعل الجزائية معترضة بين الحال وذو الحال.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «بين الحال وذو الحال».

ومن بدع التفاسير: أن قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من باب التقديم والتأخير؛ وأن موضِعها ما بعد قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في كلام يعقوب. وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره!

فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلت: كانت السجدة عندهم جارية تجرى التَّحِيَّةِ والتَّكْرِمَةِ، كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من أفعال شُهرت في التعظيم والتوقير. وقيل: ما كانت إلا انحناءً دون تعفير الجباه، وخروهم سُجداً أباه. وقيل: معناه: وخرُّوا لأجل يوسف سُجداً لله شكراً. وهذا أيضاً فيه نبوة.

يُقال: أَحَسَنَ إِلَيْهِ وَبِهِ، وكذلك أساءَ إِلَيْهِ وَبِهِ، قال:

أسيئي بنا أو أحسني لاملومة

﴿مِنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية؛ لأنهم كانوا أهلَ عَمَدٍ وأصحابَ مَواشٍ، يَتَنَقَّلُونَ في المياه والمناجِعِ. ﴿نَزَعٌ﴾ أفسدَ بيننا وأغرَى، وأصله من: نَحَسَ الرَّائِضُ الدَّابَّةَ وَحَمَلَهَا على الجُرِّي، يُقال: نَزَعَهُ وَنَسَعَهُ؛ إِذَا نَحَسَهُ.

وقلت: ولا ارتياب أن هذا الاستثناء في أثناء الكلام كالتسمية في الشروع فيه للتيمن والتبرك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤]، واستعماله مع الجزاء كالشريعة المنسوخة، فحسُنَ مَوقِعُهُ في الكلام أن يكون مُعْتَرِضاً.

قوله: (وهذا أيضاً فيه نبوة)، لأن السجدة كانت تَكْرِمَةً؛ لقوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

قوله: (أهل عمد)، الأساس: «يُقال لأصحاب الأخبية هم: أهل عمود، وأهل عماد، وأهل عمد». والنُّجعة: طَلَبُ الكَلَأِ.

﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ لطيفُ التدبيرِ لأجلِهِ، رقيقٌ حتَّى يمجىءَ على وَجهِ الحِكْمَةِ والصَّوابِ. ورُوي: أَنَّ يوسُفَ أخذَ بيدَ يعقوبَ، فطافَ به في خَزَائِنِهِ، فأدخَلَه خَزَائِنَ الوَرِقِ والذَّهَبِ، وخَزَائِنَ الحَلِيِّ، وخَزَائِنَ الثِّيَابِ، وخَزَائِنَ السِّلَاحِ، وغيرَ ذلكَ، فلَمَّا أدخَلَه خِزانَةَ القِراطِيسِ قالَ: يا بُنَيَّ، ما أعقَكَ! عندَكَ هذه القِراطِيسُ وما كُتِبَتَ إليَّ على ثَمَانِ مَراجِلِ؟ قالَ: أمرَني جبريلُ. قالَ: أوَما تسألُهُ؟ قالَ: أنتَ أبسطُ إليهِ مَنِّي فسَلُهُ. قالَ جبريلُ عليه السَّلَامُ: اللهُ تعالى أمرَني بذلكَ؛ لقولِكَ: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبَابُ﴾، قالَ: فهَلَّا خِفْتَنِي؟

ورُوي: أَنَّ يعقوبَ أقامَ معَهُ أربعاً وعشرينَ سَنَةً ثم ماتَ. وأوصى أن يدفِنَهُ بالشامِ إلى جَنبِ أبيهِ إسحاقَ، فمضى بنفسِهِ ودفنَهُ ثَمَّةً، ثم عادَ إلى مِصرَ، وعاشَ بعدَ أبيهِ ثلاثاً وعشرينَ سَنَةً، فلَمَّا تَمَّ أمرُهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لا يدومُ لَهُ، طَلَبَتِ نفسُهُ المُلْكَ الدائمَ الخالدَ، فتَأَقَّتْ نفسُهُ إليهِ، فتمنَّى الموتَ. وقيلَ: ما تَمَنَّا نبيُّ قَبْلَهُ ولا بعدَهُ، فتوفاه اللهُ طيباً طاهراً، فتخاصَمَ أهلُ مِصرَ وتَشاحَّوا في دَفْنِهِ؛ كُلُّ يُحِبُّ أن يُدْفَنَ في مَحَلَّتِهِم حتَّى هَمُّوا بالقتالِ، فأروا مِنَ الرأْيِ أنَ عَمِلُوا لَهُ صُنْدوقاً من مَرَمِرٍ وجعلوه فيه، ودَفَنُوهُ في النَّيلِ بمكانٍ يمرُّ عليه الماءُ، ثم يصلُ إلى مِصرَ ليكونوا كلُّهم فيه شرعاً واحداً.

قوله: (لطيفُ التدبيرِ لأجلِهِ)، أي: لأجل ما يشاء، يُريد: أن قولَهُ: ﴿لِّمَا يَشَاءُ﴾ مُطلقٌ، لكن قُيِّدَ لقرنيةِ المقامِ به، أي: لطيفُ التدبيرِ في جميعِ الأشياءِ حيثُ دَبَّرَ أمرِي كذلكَ، قالَ السَّجَّادُ ونُدَيُّ: ذَكَرَ الخِروجَ مِنَ السَّجْنِ دونَ الدُّخولِ لِثَلَاثِ يَكونَ شكايةً عن اللهُ تعالى، ولم يَذْكَرِ الجُبَّ لِثَلَاثِ يَسْتَحْيِي إِخوتَهُ.

قوله: (فتأقت)، اشتاقت.

قوله: (وتشاحوا)، يُقالُ: تشاحَّ الرجلانِ على الأمرِ: لا يُريدانِ أن يفوتَهُما.

قوله: (شرعاً واحداً)، الجوهري: «الناسُ في هذا الأمرِ شرعٌ؛ أي: سواءٌ، يُحرَكُ ويُسَكَّنُ، يَسْتَوِي فيه الواحدُ والجمعُ، والمذكَّرُ والمؤنثُ».

وَوُلِدَ لَهُ: إِفْرَائِيمَ وَمِيثَا، وَوُلِدَ لِإِفْرَائِيمَ: نُونٌ؛ وَلِنُونٍ: يُوشَعَ فَتَى مُوسَى، وَلَقَدْ تَوَارَثَتِ الْفِرَاعِنَةُ مِنَ الْعَمَالِيْقِ بَعْدَهُ مِصْرَ، وَلَمْ يَزَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ عَلَى بَقَايَا دِينَ يُوسُفَ وَأَبَائِهِ، إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

[﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١)]

«مِنْ» - فِي ﴿مِنَ الْمَلِكِ﴾ وَ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ - لِلتَّبْعِيضِ، لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطَ إِلَّا بَعْضَ مُلْكِ الدُّنْيَا، أَوْ بَعْضَ مُلْكِ مِصْرَ وَبَعْضَ التَّأْوِيلِ، ﴿أَنْتَ وَلِيِّ﴾ الَّذِي تَتَوَلَّانِي بِالنِّعْمَةِ فِي الدَّارَيْنِ، وَبَوَضِلَ الْمُلْكُ الْفَانِي بِالْمُلْكِ الْبَاقِي، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ طَلَبٌ لِلوَفَاءِ عَلَى حَالِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِأَنَّ يُحْتَمَّ لَهُ بِالْخَيْرِ وَالْحُسْنَى، كَمَا قَالَ يَعْقُوبُ لَوَلَدِهِ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]،

قوله: (ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر) أي: بعد يوسف، إلى قوله: (إلى أن بعث الله محمدًا صلوات الله عليه)، فيه بحث، ولو قال: إلى أن بعث الله موسى^(١) عليه السلام كان أولى، لأنه عليه السلام خلص بني إسرائيل من تحت يد فرعون، ونقلهم إلى الشام.

قوله: (أو بعض ملك مصر)، ظاهره يُنافي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، اللهم إلا أن يُحْمَلَ الْمُلْكُ عَلَى الْمَالِكِيَّةِ، لَا عَلَى التَّسَلُّطِ وَالتَّصَرُّفِ.

قوله: (كما قال يعقوب لولده: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾)، وَجْهُ الْمُشَابَهَةِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَمُوتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالْمَوْتُ لَيْسَ بِمَقْدُورِهِمْ، فَيَكُونُ أَمْرًا بِأَنْ يَكُونُوا

(١) وكذا وقع في بعض النسخ المطبوعة من «الكشاف»، وكأنه من إصلاح بعض الناسخين أو الناشرين، فكلام المؤلف رحمه الله تعالى صريح في أن في نسخته: «محمدًا ﷺ»، وهكذا هو في الأصل المخطوط الذي بين يدي من «الكشاف»، وهو نفيس.

ويجوزُ أن يكونَ تمنيًّا للموتِ على ما قيل: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائي، أو على العموم.

وعن عمرَ بنِ عبد العزيز: أنَّ ميمونَ بنَ مهرانَ باتَ عنده، فرآه كثيرَ البكاءِ والمسألة للموت، فقال له: صنَعَ اللهُ على يديكَ خيراً كثيراً؛ أحييتَ سنناً وأمتتَ بدعاً، وفي حياتِكَ خيرٌ وراحةٌ للمسلمين! فقال: أفلا أكونُ كالعبدِ الصالحِ لما أقرَّ اللهُ عينه وجمعَ له أمره قال: توفني مسلماً وألحِقني بال صالحين.

فإن قلت: علامَ انتصبَ ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ﴾؟ قلت: على أنه وصِفٌ لقوله: ﴿رَبِّ﴾، كقولك: أخا زيدٍ حسنَ الوجه، أو على النداء.

[﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

[١٠٢]

على حالةٍ إن أدركهُم الموتُ أدركهُم وهم على تلك الحالة، وهي حالة الإسلام، فصَحَّ قوله: «طلباً للوفاةِ على حالِ الإسلام».

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ تمنيًّا للموتِ على ما قيل)، أي: على ما سبقَ القولُ آنفاً، وهو قوله: «وقيل: ما تمنأه نبيُّ قبله ولا بعده».

قوله: (أنَّ ميمونَ بنَ مهرانَ)، قال صاحبُ «الجامع»: «هو أبو أيوبَ ميمونَ بنُ مهرانَ مولى بني أسد، سمِعَ ابنَ عمَرَ وابنَ عباسٍ وأبا الدرداءِ، وُلِدَ سنةَ أربعين، وماتَ سنةَ ثمانِ عشرةٍ ومئةٍ»^(١).

قوله: (كقولك: أخا زيدٍ حسنَ الوجه)، قيل: «حسنَ الوجه» نكرة، لأنَّ الإضافةَ لفظية، و«أخا زيد» معرفة، فكيفتقعُ صفةً له، وهو بدلٌ في الظاهر؟ والجوابُ موقوفٌ على المراد من إيقاعِ ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ﴾ وصفاً لقوله: ﴿رَبِّ﴾، وأنها من أيِّ قبيلِ هي؟ وذلك أن

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٩٢٠).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبا يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ، ومحلّه الابتداء. وقوله: ﴿مَنْ أَنْبَأَ الْغَيْبِ تُوجِّهِ إِلَيْكَ﴾ خبر «إن».

يوسف عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾ أتبعه بذكر ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استلذاذاً ودفعاً لِمَا عسى أن يدخُل في خلد غبي^(١) من الشركة، فكيف وقد سبق أنه قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾؟ ألا ترى إلى سحره فرعون كيف ميزوا رب العالمين بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]! وما ذلك إلا لتوهم الشيوخ. ولما كان «أخا زيد» مثالاً له ينبغي أن يُحمَل على الشيوخ أيضاً، وذلك بأن يكون لزيد إخوة فيهم حسن الوجه وقبيحُه، فيميز أحدهم بحسن الوجه.

وتحوه إيقاع «يسبني» صفة «اللئيم»^(٢)، فيكون «أخو زيد» في تأويل «واحد من الإخوة»، وفيه بحث.

وقيل: يمكن أن يقال: مراده من هذا التشبيه أنه مثله في أنه ليس مُنادى مستقلاً، فكما أن ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ﴾ تابع لِمَا قبله، وليس مُنادى مستقلاً، ولما اشتركا في هذا المعنى شبهه به، وإن اختلفا في أن أحدهما صفة، والآخر بدل.

(١) لفظه: «غبي» لم تُنقط في (ح)، ونقطت الغين فقط في (ط)، وفي (ف): «غني»، المُبْتَدَأ هو ما يُناسِبُ السِّياق.

(٢) يعني: في قول شمر بن عمرو الحنفي:

ولقد أمرُ على اللئيم يسبني
فمَصَّيْتُ نُمَّتَ قُلْتُ: لا يعنيني

كما في «الكتاب» لسيبويه (٣: ٢٤)، و«الكامل» للمبرِّد (٣: ٦١)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (ثم) و(مني)، وفسروه بأن «أفعل» فيه بمعنى: «فعلت»؛ أي: «أمرت» بمعنى: «مررت»، وهكذا هو في «الأصمعيات» ص ١٢٦.

قال العلامة السكاكي في «مفتاح العلوم» ص ١٨٥: «عرَّفَ» اللئيم، والمعنى: ولقد أمر على لئيم من اللئام، ولذلك تُقدَّرُ «يسبني» وصفاً لا حالاً، وله في القرآن غير نظير.

قلت: استشهد به الزمخشري على هذا المعنى في تفسير الآيات: (الفاحة: ٧، والنساء: ٩٨، ويس: ٣٣، والجمعة: ٥).

ويجوز أن يكون اسماً موصولاً بمعنى: الذي، و﴿مِنَ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ صلته، و﴿نُوحِيهِ﴾ الخبر. والمعنى: أن هذا النبأ غيبٌ لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضُر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاءهم أخاهم في البئر، كقوله: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾؛ وهذا تهكُّمٌ بقريشٍ وبمن كذَّبه؛

قوله: (وهذا تهكُّمٌ بقريشٍ)، يعني قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ الآية، وذلك أنه صلواتُ الله عليه أخبرهم بهذه القصة العجيبة التي عجزت عنها رواثه من غير أن يخرم منها حرفاً، فصدقوه في ذلك، مع استمرارهم على إنكار الوحي، فخطب به صلواتُ الله عليه معرضاً بهم على سبيل التهكُّم، استركاكا لعقولهم، وإليه الإشارة بقوله: «يا مكابرة»، يعني: أيها المكابرون، إنه لم يخف عليكم أنه لم يكن من حملة هذا الحديث، ولا لقي فيها أحداً، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، ولم يكن مُشاهداً لذلك أيضاً، فلم يبق إلا الوحي، فإذا أنكرتُم الوحي لزم أنكم لم تصدقوه فيما صدقتموه، وإليه الإشارة بقوله: «فإذا أنكروه - أي: الوحي - تهكُّمٌ بهم»، لأنه لزمهم نفي ما أثبتوه، فإن التهكُّم يُتزعُّ من نفس التضاد.

وأحسنُ منه قولُ القاضي: «﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكِرَ من نَبأِ يوسف، والخطابُ للرسول [ﷺ]، وهو مُبتدأ، وقوله: ﴿مِنَ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبرانٍ له، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ الآية: كالدليل عليهما، والمعنى: إن هذا النبأ غيبٌ لم تعرفه إلا بالوحي، لأنك لم تحضُر إخوة يوسف حين عزموا على ما همُّوا به في غيابة الجب، وهم يمكرون به وبأبيه ليُرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مُكذِّبِكَ أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك، فتعلمه منه، وإنما حذف هذا السُّقُّ استغناءً بذكِّره في غير هذه القصة، كقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩] (١).

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٣١٠ - ٣١١).

لأنه لم يُخَفَّ على أحدٍ من المكذِبين أنه لم يكن من حَمَلَةِ هذا الحديثِ وأشباهه، ولا لَقِيَ فيها أحداً ولا سَمِعَ منه، ولم يكن من عِلْمِ قومِه، فإذا أُخْبِرَ به وقَصَّه هذا القَصَصُ العجيبُ الذي أعجَزَ حَمَلَتَهُ ورُواتَهُ، لم تقع شُبُهَةٌ في أنه ليسَ منه وأنه من جِهَةِ الوحي، فإذا أنكروه تُهَكِّمَ بهم وقيل لهم: قد عَلِمْتُمْ - يا مُكَايِرَةً - أنه لم يكن مُشَاهِداً لِمَنْ مَضَى من القرونِ الخالية. ونحوه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسفَ وَيَبْعُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ.

﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا تَشْتَأْهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٣-١٠٤﴾

﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يُرِيدُ الْعُمُومَ، كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وعن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما: أراد أهلَ مَكَّةَ، أي: وما هم بمؤمنين ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ وتهاكَّت على إيمانهم؛ لِتَصْمِيمِهِمْ على الكُفْرِ وعِنادِهِمْ. ﴿وَمَا تَشْتَأْهُمْ﴾ على ما تُحَدِّثُهُمْ به وتُذَكِّرُهُمْ أن يُنِيلُوكَ منفعَةً وَجَدْوَى، كما يُعْطَى حَمَلَةُ الْأَحَادِيثِ والأخبار، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ من الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عَامَّةً، وَحَثُّ على طَلَبِ النَّجَاةِ على لِسَانِ رَسُولٍ من رُسُلِهِ.

قوله: (وقَصَّه هذا القَصَصُ)، الضميرُ في «قَصَّه» للحديثِ، و«هذا القَصَصُ»: مفعولٌ مُطلَق.

قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عَامَّةً، وَحَثُّ على طَلَبِ النَّجَاةِ على لِسَانِ رَسُولٍ من رُسُلِهِ، اعْلَمْ أن هذا الكلامَ إلى آخِرِهِ بيانٌ لِمُنَافَاةِ طَلَبِ الْأَجْرِ، لأنَّ كونه تذكيراً من الله ومَوْعِظَةً، وكونه عَامَّةً لِلثَّقَلَيْنِ، وكونه طلباً لِلنَّجَاةِ، وكونه رسولاً واحداً من رُسُلِهِ، يَأْبَى أن يُطَلَّبَ من كُفَّارِ قُرَيْشِ الْأَجْرِ؛ لأنَّ كونه تذكيراً من الله تعالى لِعبادِهِ، فلا نُه تعالى مُسْتَعْتَفٍ عن العالمين، فينافي طَلَبَ الْأَجْرِ من قُرَيْشِ، وكونه عَامَّةً لِلثَّقَلَيْنِ يُبَعِّدُ أن يُطَلَّبَ الْأَجْرُ من قُرَيْشِ، وكونه طلباً

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

[١٠٥]

﴿مِّنْ آيَةٍ﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويشاهدونها وهم مُعْرِضُونَ عنها لا يَعْتَبِرُونَ بها. وقُرئ: «والأرض» بالرفع على الابتداء، و﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾: خبره، وقرأ السُّدِّي «والأرض» بالنصب؛ على: وَيَطُؤُونَ الْأَرْضَ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا. وفي مُصْحَفِ عبد الله: «والأرضُ يَمْشُونَ عَلَيْهَا»، برفع «الأرض»، والمراد: ما يَرَوْنَ من آثارِ الأُمَّمِ الهالِكَةِ وغير ذلك من العِبَر.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [١٠٦]

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في إقراره بالله وبأنه خَلَقَهُ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِلَّا وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعِبَادَتِهِ الْوَتْنِ، وعن الحسن: هم أهل الكتاب؛ معهم شرك وإيمان. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يُشَبِّهُونَ اللهَ بِخَلْقِهِ.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[١٠٧]

﴿غَشِيَةٌ﴾ نِقْمَةٌ تَغْشَاهُمْ. وقيل: ما يَغْمُرُهُم مِنَ الْعَذَابِ.....

لِلنَّجَاةِ مِنَ الدُّنْيَا يُنَافِي أَنْ يُطَلَّبَ بِهِ حُطَامُ الدُّنْيَا، وَكَوْنَهُ رَسُولًا وَاحِدًا مِنْ رُسُلِهِ لَهُ أُسْوَةٌ بِسَائِرِ الرُّسُلِ، وَمَا طَلَّبَ نَبِيٌّ قَطُّ أَجْرًا مِنْ أُمَّتِهِ.

قوله: (مَعَهُمْ شِرْكٌ وَإِيمَانٌ)، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَبَيْنَ الشِّرْكِ؛ قَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ بْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ بْنُ اللَّهِ.

قوله: (وَقِيلَ: مَا يَغْمُرُهُمْ)، فَعَلَى الْأَوَّلِ: مِنَ الْغَشِيَانِ، وَعَلَى الثَّانِي: مِنَ الْغِشَاءِ، وَهُوَ

الغطاء.

وَيُجَلِّلُهُمْ. وقيل: الصَّوَاعِقُ.

[قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾]

﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ هذه السَّبِيلُ التي هي الدَّعْوَةُ إِلَى الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ: سَبِيلِي، وَالسَّبِيلُ وَالتَّطَرُّقُ: يُذَكِّرَانِ وَيُؤَنِّثَانِ، ثُمَّ فَسَّرَ «سَبِيلَهُ» بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: أَدْعُو إِلَى دِينِهِ مَعَ حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ غَيْرِ عَمِيَاءَ، وَ﴿أَنَا﴾ تَأْكِيدٌ لِلْمُسْتَتِرِ فِي ﴿أَدْعُو﴾، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عَطْفٌ عَلَيْهِ. يُرِيدُ: أَدْعُو إِلَيْهَا أَنَا، وَيَدْعُو إِلَيْهَا مَنْ اتَّبَعَنِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿أَنَا﴾ مُبْتَدَأً، وَ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ خَبَرًا مُقَدِّمًا، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عَطْفًا عَلَى ﴿أَنَا﴾؛ إِخْبَارًا مُبْتَدَأً بِأَنَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ عَلَى حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ، لَا عَلَى هَوَى.

قوله: (وَيُجَلِّلُهُمْ)، جَلَّلَ الشَّيْءُ تَجَلِّيلاً؛ أَي: عَمَّ^(١)، وَالمُجَلِّلُ: السَّحَابُ الَّذِي يَعْطُرُ الأَرْضَ بِالمَطَرِ.

قوله: (هذه السَّبِيلُ التي هي الدَّعْوَةُ إِلَى الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ: سَبِيلِي)، يُشِيرُ إِلَى أَنَّ المُشَارَ إِلَيْهِ مَا فِي الذَّهْنِ، وَهُوَ مَعْنَى ﴿سَبِيلِي﴾، وَمَعْنَى ﴿سَبِيلِي﴾ مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، وَهُوَ الإِيمَانُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وَهُوَ التَّوْحِيدُ^(٢).

قوله: (إِخْبَارًا مُبْتَدَأً)، عَامِلُهُ مُضْمَرٌ، أَي: يُخْبِرُ إِخْبَارًا، أَوْ خَبَرَ بَعْدَ خَبَرٍ لـ «كَانَ»^(٣)،

(١) فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةُ: «غَمْرٌ»، وَالمُتَّبِعُ مِنَ «الصَّحاحِ» لِلجوهرِي، مَادَةٌ (جَلَلٌ)، وَتَفْسِيرُ المُؤَلَّفِ لِلتَّجَلِّيْلِ مُسْتَفَادٌ مِنْهُ، وَلَمْ يَغْرَهُ إِلَيْهِ، إِخْلَافًا لِعَادَتِهِ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يُكثِرُ مِنَ النُّقْلِ عَنْهُ صَرِيحًا.

(٢) هَذِهِ الفِقْرَةُ قُدِّمَتْ فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةُ قَبْلَ فِقْرَةِ «قَوْلِهِ: (وقيل: ما يغمرهم)»، وَأَخْرَجَهَا إِلَى هَذَا المَوْضِعِ لِئَن يَسِبَ تَرْتِيبُ الكَلَامِ هُنَا تَرْتِيبَهُ فِي «الكَشَافِ».

(٣) أَي: التي فِي قَوْلِهِ: «وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿أَنَا﴾ مُبْتَدَأً، وَ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ خَبَرًا مُقَدِّمًا...»، وَعَلَيْهِ: فـ ﴿أَنَا﴾ اسْمٌ «يَكُونُ»، وَ«مُبْتَدَأً» خَبَرٌ أَوَّلٌ لـ «يَكُونُ»، وَ«إِخْبَارًا» خَبَرٌ ثَانٍ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ حالاً من ﴿أَدْعُوا﴾ عامِله الرَّفْعُ في ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾.

﴿وَسَبِّحْنَ اللَّهَ﴾ وأنزَّهُه من الشَّرْكَاء.

[﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٠٩]

أو تمييزاً، أي: يجوزُ أن يكونَ كذا من هذه الجهة.

قال صاحبُ «المُرشد»: «﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وقفٌ حَسَنٌ، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ مثله، هذا مذهبُ أبي حاتم^(١)، وهو الجيّد^(٢).

قوله: (وأنزَّهُه من الشَّرْكَاء)، مُؤذِنٌ بأنَّ قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ حالٌ من فاعلِ «أُسَبِّحُ»^(٣)، وأنَّ قوله: ﴿وَسَبِّحْنَ اللَّهَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾، هذا يُقَوِّي أن يكونَ قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ حالاً من ﴿أَدْعُوا﴾.

وفيه: أن مَنْ يدعو الناسَ إلى الله وإلى دينه ينبغي أن يكونَ على بُرْهَانٍ وَحُجَّةٍ من الله؛ لِئَلَّا يُضَلَّهُمْ، وَمَنْ يُنَزَّهُه عما لا يليقُ بجلاله ينبغي أن يكونَ مُوحِّداً؛ لِئَلَّا يَمِيلَ إلى الإلحادِ والإشراكِ، وهو تعريضٌ بَمَنْ يُثَبِّتُ العقولَ^(٤)، أو يقول: العبدُ مُسْتَقْبَلٌ بالخلقِ، تلخيصُه: أنا هادٍ غيرُ مُضِلٍّ، ومُهتدٍ غيرُ ضالٍّ.

(١) السَّجِسْتَانِي، تَقَدَّمَ التعريفُ به.

(٢) انظر: «المَقْصِدُ لِلتَّحْقِيقِ مَا فِي المُرْشِدِ» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ص ٤٠٠ - ٤٠١.

وتقدّم التعريفُ بـ«المُرْشِدِ» ومؤلّفه عند تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة (٧: ٢٣٣).

(٣) المُضَمَّرُ في قوله: ﴿وَسَبِّحْنَ اللَّهَ﴾، فالتقدير: وأسبَّحُ الله تسيحاً، فحذف الفعل، وبقي المَصْدَرُ دالاً عليه، و«سبحان: اسمٌ واقعٌ موقِعُ المَصْدَرِ»، كما قال أبو البقاء العكبري في «البيان في إعراب القرآن» (٤٩: ١).

(٤) وهم: الفلاسفة.

﴿الْأَرْجَالَا﴾ لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يُريد: ليست فيهم امرأة. وقيل في سَجَاحِ الْمُتَنَبِّئَةِ:

وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ذُكْرَانَا

وَقُرَى: ﴿تُوحَى إِلَيْهِمْ﴾ بِالنُّونِ. ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ، وَأَهْلُ الْبَوَادِي فِيهِمْ الْجَهْلُ وَالْجَفَاءُ وَالْقَسْوَةُ.

قوله: (ولم تزل أنبياء^(١) الله ذكراًنا)، أوله:

أَصْحَتْ نَبِيَّتُنَا أَنْتَى نَطُوفُ بِهَا^(٢)

وفي رواية:

..... نَبِيَّتُنَا فِينَا مُؤَنَّةٌ

سَجَاح: هي بنتُ المُنْدِرِ، تَنَبَّأَتْ فِي أَيَّامِ مُسَيْلِمَةَ^(٣)، فَآتَتْ لِتَخْتَبِرَهُ^(٤)، فَآمَنَتْ بِهِ، وَسَلَّمَتْ أَمْرَهَا لَهُ.

قوله: (وقرى: ﴿توحى﴾ بالنون)، حفص: بِالنُّونِ وَكَسَرَ الْحَاءَ، وَالْبَاقُونَ: بِالْيَاءِ وَفَتَحَ الْحَاءَ^(٥).

(١) في (ح): «أولياء»، والمُتَبَّنُّ من (ط) و(ف)، وهو المُوَافِقُ لِمَا فِي «الْكَشَافِ».

(٢) البيهقي لقيس بن عاصم، أحد بني تميم، كما في «نهار القلوب» للشعالبي ص ٣١٥، ولفظه فيه: «نُطِيفُ بِهَا»، وفي بعض نُسخِهِ: «نَطُوفُ»، كما نَبَّهَ إِلَيْهِ مُحَقِّقُهُ، وَهُوَ فِي «الْأَغَانِي» لِلأَصْبَهَانِيِّ (١٠: ٤٠) وَ(١٤: ٨٩) بِلَفْظِ: «نُطِيفُ»، لَكِنْ فِي «نَهَارِ الْقُلُوبِ»: «نَبِيَّتُنَا»، وَلَعَلَّهُ تَصْحِيفٌ.

(٣) الكَذَابِ، وَهُوَ مُسَيْلِمَةُ بْنُ ثُمَامَةَ، قُتِلَ سَنَةَ (١٢ هـ)، وَعَادَتْ سَجَاحُ إِلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ مَقْتَلِهِ، وَتُوفِّتُ بِالْبَصْرَةِ حِوَالِي سَنَةِ (٥٥ هـ)، كَمَا فِي «الْأَعْلَامِ» لِلزَّرْكَوِيِّ (٣: ٧٨).

(٤) في (ح): «لتخبره»، والمُتَبَّنُّ من (ط) و(ف).

(٥) انظر: «التيسير» للداني ص ١٣٠، و«حجة القراءات» ص ٣٦٥.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ وِلْدَارُ السَّاعَةِ أَوْ الْحَالِ الْآخِرَةُ ﴿حَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ لِّلَّذِينَ خَافُوا اللَّهَ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ وَلَمْ يَعْصُوهُ. وَقُرِئَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

[﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأِهِمْ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١١٠]

﴿حَتَّىٰ﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾، فَتَرَاخَى نَصْرُهُمْ حَتَّى اسْتَيْسَسُوا عَنِ النَّصْرِ، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أَي: كَذَّبْتُهُمْ أَنفُسَهُمْ حِينَ حَدَّثْتُهُمْ بِأَنَّهُمْ يُنصَرُونَ، أَوْ رَجَاؤُهُمْ؛ لِقَوْلِهِمْ: رَجَاءٌ صَادِقٌ، وَرَجَاءٌ كَاذِبٌ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ مُدَّةَ التَّكْذِيبِ وَالْعِدَاوَةِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَانْتِظَارِ النَّصْرِ مِنَ اللَّهِ وَتَأْمِيلِهِ: قَدْ تَطَاوَلَتْ عَلَيْهِمْ وَتَمَادَتْ، حَتَّى اسْتَشْعَرُوا الْقُنُوطَ، وَتَوَهَّمُوا أَنَّ لَا نَصْرَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَجَاءَةً مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَظَنُّوا حِينَ ضَعُفُوا وَغَلِبُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْلَفُوا مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّصْرِ، وَقَالَ: كَانُوا بَشْرًا، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]،

قَوْلُهُ: (أَي: كَذَّبْتُهُمْ أَنفُسَهُمْ حِينَ حَدَّثْتُهُمْ بِأَنَّهُمْ يُنصَرُونَ)، يَعْنِي: تَحَدَّثُوا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يُنصَرُونَ، فَلَمَّا تَرَاخَى النَّصْرُ وَتَوَهَّمُوا أَنَّ لَا نَصْرَ لَهُمْ جَاءَهُمُ النَّصْرُ، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّجْرِيدِ^(١)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ [البقرة: ٩] فِي وَجْهِهِ.

قَوْلُهُ: (أَوْ رَجَاؤُهُمْ)، عَطْفٌ عَلَى «أَنفُسُهُمْ»، وَيَجُوزُ إِسْنَادُ «كَذَّبَ» إِلَى الرَّجَاءِ؛ لِمَا يُقَالُ: رَجَاءٌ صَادِقٌ وَكَاذِبٌ.

(١) انظر ما سياتي في بيان معنى «التجريد» عند المؤلف رحمه الله تعالى في تفسير الآية ١٤ من سورة الجاثية (١٤: ٢٤٧)، والتعليق عليه.

فَإِنْ صَحَّ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَدْ أَرَادَ بِالظَّنِّ: مَا يَحْطَرُّ بِالْبَالِ وَيَهْجِسُ فِي الْقَلْبِ مِنْ شِبْهِ الْوَسْوَسَةِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْبَشَرِيَّةُ. وَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي هُوَ تَرْجُحُ أَحَدِ الْجَائِزِينَ عَلَى الْآخَرَ، فَغَيْرُ جَائِزٍ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَمَا بَالُ رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ أَعْرَفُ النَّاسِ بِرَبِّهِمْ، وَأَنَّهُ مُتَعَالٍ عَنِ خُلْفِ الْمِيعَادِ، مُنَزَّهٌ عَنِ كُلِّ قَبِيحٍ؟!

وقيل: وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوا، أَي: أَخْلَفُوا. أَوْ: وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ كَذَبُوا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ؛ أَي: كَذَبَتْهُمْ الرُّسُلُ فِي أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُمْ فِيهِ.

قوله: (فَإِنْ صَحَّ)، قلت: مَا أَصَحَّه! وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»^(١) فِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: «قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ خَفِيفَةً^(٢) - قَالَ: ذَهَبَ بِهَا هُنَالِكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿حَقَّ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: فَلَقِيتُ عُرْوَةَ بِنَ الرَّبِيرِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَعَادَ اللَّهِ! وَاللَّهِ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَلَكِنْ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ، حَتَّى خَافُوا أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَهُمْ مَنْ قَوْمِهِمْ يُكْذِبُونَهُمْ. وَكَانَتْ تَقْرُؤُهَا: (أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا) - مُثْقَلَةٌ - .»

قوله: (أَوْ: وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ كَذَبُوا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ)، يُرِيدُ: أَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا وَعَدَوْهُمْ بِنُزُولِ الْعَذَابِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ إِنْ كَانُوا مُعَانِدِينَ: فَوَجَّهَ الظَّنَّ ظَاهِرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مُعَانِدِينَ فَكَذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُشَاهِدُوا مِنَ الرُّسُلِ أَمَارَاتٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي الْحَدِيثِ.

يُؤَيِّدُهُ مَا رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ^(٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ

(١) برقم (٤٥٢٤، ٤٥٢٥).

(٢) أي: بتخفيف الدال في قوله: «كذبوا».

(٣) البخاري (٤٧٧٠) و(٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨).

وقرىء: «كُذِّبُوا» بالتشديد، على: وظَنَّ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبْتُهُمْ قَوْمَهُمْ فِيمَا وَعَدُّوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنُّصْرَةَ عَلَيْهِمْ. وقرأ مجاهد: «كُذِّبُوا» بالتخفيف، على البناء للفاعل، على: وظَنَّ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا فِيمَا حَدَّثُوا بِهِ قَوْمَهُمْ مِنَ النُّصْرَةِ؛ إِمَّا عَلَى تَأْوِيلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَإِمَّا عَلَى أَنَّ قَوْمَهُمْ إِذَا لَمْ يَرَوْا لِمَوْعِدِهِمْ أَثْرًا قَالُوا لَهُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ كَذَّبْتُمُونَا،

لِقَرِيْشٍ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَحْبَبْتُمْ كُمْ أَنْ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

وفي «إيجاز البيان» حَسِبَ الْقَوْمُ أَنَّ الرُّسُلَ كَاذِبُونَ، فَهَمَّ عَلَى هَذَا مَكْذُوبُونَ، لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَأَنْتَ مَكْذُوبُهُ، كَمَا فِي صِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ: أَنَّهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ؛ أَي: صَدَّقَهُ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

وَسُئِلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْهَا فِي دَعْوَةِ حَضْرَهَا الصَّحَّاحُ مُكْرَهَا، فَقَالَ: نَعَمْ، حِينَ اسْتِيَّاسَ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُمْ، وَظَنَّ الْقَوْمُ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَّبُوهُمْ، فَقَالَ الصَّحَّاحُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ؛ يُدْعَى إِلَى عِلْمِ رَجُلٍ فَلَا يَتَلَكَّأُ، لَوْ رَحَلْتُ فِي هَذَا إِلَى الْيَمَنِ لَكَانَ يَسِيرًا^(٢).

تَلَكَّأَ عَنِ الْأَمْرِ تَلَكُّؤًا: تَبَاطَأَ عَنْهُ وَتَوَقَّفَ.

قوله: (وقرىء: «كُذِّبُوا» بالتشديد)، عاصمٌ وحمرَةُ والكِسَائِيُّ: بالتخفيف، والباقون: بالتشديد^(٣).

قوله: (إما على تأويل ابن عباس)، أي: وظننوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا.

(١) «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (١: ٤٤٨).

(٢) روى هذه القصة ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣: ١٠١).

(٣) انظر: «التيسير» ص ١٣٠، و«حجة القراءات» ص ٣٦٦.

فيكونون كاذبين عند قومهم. أو: وظنَّ المرسل إليهم أن الرُّسل قد كذبوا. ولو قرئ بهذا مُشَدِّداً لكان معناه: وظنَّ الرُّسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم.

وَقَرِئَ: «فُنَجِّي» بالتخفيف والتشديد، من: أُنْجَاهُ وَنَجَاهُ، و﴿فُنَجِّي﴾ على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابنُ مُحِيصِنٍ: «فُنَجَّا». والمرادُ ب﴿مَنْ نَشَأُ﴾: المؤمنون؛ لأنَّهم الذين يَسْتَأْهِلونَ أن يَشَاءَ نجاتهم، وقد بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

[﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١)]

الضَّمِيرُ فِي ﴿قَصَصِهِمْ﴾ لِلرُّسُلِ، وَيَنْصُرُهُ قِرَاءَةٌ مَنْ قَرَأَ: «فِي قِصَصِهِمْ» بِكسر القاف. وقيل: هو راجعٌ إلى يوسف وإخوته.

قوله: (فيكونون كاذبين عند قومهم)، وعلى الأول: كانوا كاذبين في وسوساتهم وبالهم. قوله: (قرئ: «فُنَجِّي» بالتخفيف والتشديد)، تحيي السنة: «قراءة العامة: بنونين، أي: نحن نُنجي، وابنُ عامرٍ وحمزة^(١) وعاصمٌ ويعقوب: بنونٍ واحدةٍ مضمومة، وتشديد الجيم، وفتح الياء؛ على ما لم يُسمِّ فاعله، لأنها مكتوبةٌ في المصحفِ بنونٍ واحدةٍ»^(٢). قوله: (ويُنصُرُهُ قِرَاءَةٌ مَنْ قَرَأَ: «فِي قِصَصِهِمْ»^(٣))، لأنَّ «القِصَصَ» جَمْعُ قِصَّةٍ، وَلِكُلِّ

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا في «تفسير البغوي» أيضاً، وفيه إشكال، حيث لم يذكر أهل القراءات حمزةً فيمن قرأ هذه القراءة. انظر: «التيسير» للداني ص ١٣٠، و«السبعة» لابن مجاهد ص ٣٥٢، و«حجة القراءات» ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ٢٨٧).

(٣) تُروى هذه القراءة عن الكسائي وأبي عمرو، وليست هي قراءتها المشهورة عنها. انظر: «الدرر المصون» (٦: ٥٦٨).

فإن قلت: فالإم يرجع الضمير في ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، فيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى القرآن، أي: ما كان القرآن حديثاً يُفترى، لكن كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: قبله من الكتب السماوية، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاج إليه في الدين، لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل.

وانتصاب ما نصب بعد ﴿وَلَكِنْ﴾ للعطف على خير «كان». وقرئ ذلك بالرفع على: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا أَرْقَاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ، فَإِنَّهُ أَيْمَانٌ مُسْلِمٌ تَلَاهَا وَعَلَّمَهَا أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَأَعْطَاهُ الْقُوَّةَ أَنْ لَا يَحْسُدَ مُسْلِمًا».

نبي قصة، ولو أريد بالضمير يوسف وإخوته لم يصح إلا الفتح، لأنه لم يكن لهم إلا قصة واحدة.

الجوهري: «القصة: الأمر والحديث، وقص عليه الخبر قصصاً، والاسم أيضاً: القَصَصُ - بفتح القاف -، وُضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ حَتَّى صَارَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ، وَبَكَسْرِ الْقَافِ: جَمْعُ الْقِصَّةِ الَّتِي تُكْتَبُ».

والله سبحانه وتعالى أعلم.



سورة الرعد

مختلف فيها، وهي ثلاث وأربعون آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿الْمَرْءُ تِلْكَ مَآئِتُ الْكِتَابِ﴾ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾]

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة، والمراد بـ ﴿الْكِتَابِ﴾: السورة، أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها، ثم قال: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن كله هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا مزيد عليه، لا هذه السورة وحدها،

سورة الرعد

مختلف فيها، وهي ثلاث وأربعون آية^(١)

قوله: (الكاملة)، وذلك أَنَّ خَبَرَ الْمُبْتَدَأِ إِذَا عُرِّفَ بِلَامِ الْجِنْسِ أَفَادَ الْمُبَالَغَةَ، وَأَنَّ هَذَا الْمَحْكُومَ عَلَيْهِ اِكْتِسَابَ مِنَ الْفَضِيلَةِ مَا يُوجِبُ جَعْلَهُ نَفْسَ الْجِنْسِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِهِ، وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ كَالْمُتَّعِ، وَمَنْ تَمَّ قَالَ: «العجيبة في بابها»، قَالَ فِي الْبَقْرَةِ^(٢): «إِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْكِتَابُ الْكَامِلُ، كَأَنَّ مَا عَدَاهُ مِنَ الْكُتُبِ فِي مُقَابَلَتِهِ نَاقِصٌ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُسَمَّى كِتَابًا».

(١) في (ط): «مكية وهي ثلاث وأربعون آية»، وفي (ح) و(ف): «مختلف فيها، وهي خمس وأربعون آية».

(٢) في تفسير الآية الثانية منها.

وفي أسلوب هذا الكلام قول الأنبارية: هم كالحلقة المفرغة، لا يُدرى أين طرفاها؟
تريد: الكملة.

[﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كلَّ
يجري لإجلٍ مسمىٍ يدبر الأمر يفصل الأبنت لعلكم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ
الأرضَ وجعلَ فيها رِوَسًا وأنهرًا ومن كلِّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجينِ اثنين يُغشى الليلَ النهارَ إنَّ
في ذلكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٢-٣]

﴿الله﴾ مبتدأ، و﴿الذي﴾ خبره، بدليل قوله: ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾،

قوله: (قول الأنبارية)، هي فاطمة بنت الخرشب تصفُ أبناءها، ولدت لزيد العسبي: ربيعا
الكامل، وعمارة الوهاب، وقيسا الحفاظ، وأنس الفوارس، قيل لها: أيهم أفضل؟ فقالت:
عمارة، لا بل فلان، لا بل فلان، ثم قالت: شكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة
المفرغة^(١).

والأسلوب من باب الرجوع من التفصيل إلى الإجمال، تنبيها على نفاذ الوصف دون الكمال.

قوله: (تريد الكملة^(٢))، الجوهرية: «رجل كامل، وقوم كملة، مثل: حافِدٌ وحفدة،
وأعطيه هذا المال كَمَلًا»، أي: هم مُتَناسِبُونَ في الخِصَالِ كَامِلُونَ فيها، بحيثُ يَمْتَنِعُ تعيينُ
فاضلٍ بينهم ومفضول، كالحلقة المفرغة الممتعة من تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً،
وهو من التشبيه العقلي الذي الوجه فيه غير واحد^(٣)، لكنّه في حكم الواحد.

قوله: (﴿الله﴾ مبتدأ، و﴿الذي﴾ خبره، بدليل قوله: ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾، يُريد:
أنَّ قوله: ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾ الآية، معطوفٌ على قوله: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ

(١) وسأتي ذكر الأنبارية وقصتها هذه في تفسير الآية ٤٨ من سورة الرخرف (١٤: ١٥٢).

(٢) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «الكلمة»، والمثبت من (ط).

(٣) وهو ما يُسمى بالتشبيه المركب.

ويجوز أن يكون صفة. وقوله: ﴿يَدْبِرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ خبرٌ بعد خبر، وينصُرُهُ ما تقدّمه من ذِكْرِ الْآيَاتِ.

﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْنَهَا﴾ كلامٌ مستأنف، استشهادٌ برويتهم لها كذلك.

تَرَوْنَهَا، وهو مُبتدأٌ وخبر، ليس إلا، فيحملُ المعطوفُ عليه على ما هو المعطوفُ ليتوافقا لجامعِ شبه التّضاد، وذلك أن الموصولة في الأولِ مُشمّلةٌ على ذِكْرِ العُلُويّاتِ من السماءِ ورَفَعِها، والعَرشِ والاستواءِ عليه، والشمسِ والقَمَرِ وتسخيرِهما، وفي الثاني مُشمّلةٌ على ذِكْرِ السُّفَلِيّاتِ من الأرضِ ومدّها، والجبالِ وإرسائها، والأنهارِ وإجرائها، والثَّمَرَاتِ وإخراجها.

وفائدةُ هذه الطريقةِ الإيدانُ بتعظيمِ المنزل، لأنّ قوله: ﴿اللَّهُ﴾ مُظَهَّرٌ وَضِعَ مَوْضِعَ الْمُضَمَّرِ، فإنه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ صرّحَ بالاسم الجامع، ونَسَبَ إليه العُلُويّاتِ والسُّفَلِيّاتِ؛ على معنى: مُنَزَّلُهُ مَنْ يَفْعَلُ تِلْكَ الْأَفْعَالَ الْعَظِيمَةَ.

قوله: (وَيَنْصُرُهُ ما تقدّمه من ذِكْرِ الْآيَاتِ)، يعني: يَنْصُرُ قَوْلَ مَنْ قال: إنَّ «الذي» صفة، وقوله: ﴿يَدْبِرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ خبرٌ بعد خبر: أنّ الكلامَ السابقَ وارِدٌ^(١) في ذِكْرِ آيَاتِ الْكِتَابِ ووصفها بالكمال، وبلوغها فيه أقصى الغاية، فجيء بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ بياناً للموجب، وفي إيقاع الموصولة المُشمّلة على تلك الأوصافِ العِظامِ التي تَحَيَّرُ فيها العُقُولُ والأوهامُ إشعارٌ بتعظيمِ الخبرِ الذي هو التدبيرُ والتفصيل، كأنه قيل: فما ظنُّك بآياتِ كتابِ فَصَّلَهُ، وقرآنِ أَنْزَلَهُ ودَبَّرَهُ على وَجْهِ الْمَصَالِحِ وكِفَاءِ الْحَوَادِثِ^(٢)، مَنْ دَبَّرَ أُمُورَ الْعَالَمِ، وَفَصَّلَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ دَلَائِلَ^(٣) على توحيدِهِ! وأعظَمُ بتدبيرٍ وتفصيلٍ صِفَةً مُدْبِرِهِ وَنَعَتْ مُفَصِّلِهِ أَنَّهُ ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾!

(١) في (ف): «إن كان الكلام السابق وَرَدًا»، والمُتَّبَعُ من (ط) و(ح)، وهو الصواب.

(٢) أي: على قَدْرِ ما يكونُ مُكَافِئاً لها، فحيثما اسْتَجَدَّتْ حَادِثَةٌ كَانَ فِيهِ بَيَانُهَا؛ إجمالاً أو تفصيلاً.

(٣) في الأصول الخطية: «ودلائل»، ولا يستقيم، وأصلحته بحسب السّياق.

وأشدَّ صاحبُ «المفتاح»^(١) من هذا الأسلوبِ قولَ الفرزدقِ:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بِنِي لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ^(٢)

وهذا الوجهُ من البلاغةِ بِمَنْزِلِ.

وعلى الأول: ﴿يُدِيرُ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ على تقديرِ سؤال، أي: الذي رفعَ السَّمَاوَاتِ على هذه الصفة، واستوى على العرشِ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ، ما داعي حِكْمَتِهِ في إنشائها وتسخيرها والاستواءِ عليه؟ فقيل: يُدَبِّرُ الأمرَ يُفْصَلُ الآياتِ الدالَّةَ على وجودِ مُنشئِها، وحكمةِ مُخترِعِها، لِيُوقِنَ^(٣) المكلفونَ أَنَّ المَرَجِعَ إليه، ويؤمنوا أَن لا بُدَّ من لِقَائِهِ، لِيُشَبِّهَهُم وَيُعَاقِبَهُم على ما ابتلوا به، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبِّكُمْ تَوَقُّونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: مثله ما في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبِّكَ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللهُ حَقًّا أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [يونس: ٣-٤] إلى آخِرِ الآياتِ، والله أعلم.

وقال صاحبُ «التقريب» في الفرقِ بينَ الخيرِ والصفة: «أَنه إِذَا جُعِلَ «الذي» صِفةً، فَهِيَ كَأَنَّهَا معلومة، فَذَكَرَهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهَا، وَإِذَا جُعِلَ خَبْرًا لَمْ يَلْزَمِ العِلْمُ بِهَا قَبْلَ الإخْبَارِ، فَيَكُونُ الإخْبَارُ بِهَذِهِ الآيَاتِ دَعَاوِي لَّا دَلَالَةَ، وَالأَوَّلَى أَن يَقُولَ: إِنَّمَا لَّا يَلْزَمُ لَوْ كَانَ الخَبْرُ غَيْرَ مُصَدَّرٍ بـ«الذي»، أَمَا إِذَا كَانَ مُصَدَّرًا بِهِ فَيَلْزَمُ، إِذِ الصَّلَةُ حَقُّهَا أَن تَكُونَ معلومةً كَالصِّفَةِ، فَقَدْ اسْتَوَى»، ثُمَّ كَلَامُهُ. وَفِيهِ بَحْثٌ، وَالتَّحْقِيقُ مَا أَسْلَفْنَاهُ.

(١) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ١٨٢.

(٢) لم أقف عليه في «ديوان الفرزدق»، لكن عناه إليه غير واحد من أهل العلم. انظر مثلاً «الكامل» للمبرد (٢: ٢٢٧).

(٣) في (ج): «ليوفر»، وفي (ف): «ليوفي»، والمثبت من (ط).

وقيل: هي صفة لـ ﴿عَمِدٍ﴾. وَيَعْضُدُهُ قِرَاءَةُ أَبِي: «تَرَوْنَهُ»،

قوله: (﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾)، سُرُوعٌ فِي التَّفْسِيرِ مَفْصُولٌ عَمَّا قَبْلَهُ، وَ«تَرَوْنَهَا﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالخَبْرُ «كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ»، أَي: جُمْلَةٌ مُنْقَطِعَةٌ وَارِدَةٌ لِبَيَانِ (١) أَنَّ السَّمَاوَاتِ رُفِعَتْ بِغَيْرِ عَمَدٍ، كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: «﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾»، فَقِيلَ: وَمَا الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، وَمَا الَّذِي يُسْتَشْهَدُ بِهِ لِذَلِكَ؟ فَأَجِيبُ: بِرُؤْيَا النَّاسِ لَهَا غَيْرَ مَعْمُودَةٍ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «اسْتَشْهَادُ بَرِئْتِهِمْ لَهَا كَذَلِكَ».

وَأْتَى (٢) فِي «لُقْمَانَ» بِتَنْظِيرٍ لِذَلِكَ حَيْثُ قَالَ: «أَنَا بِغَيْرِ سَيْفٍ وَلَا رُمْحٍ تَرَانِي»، وَذَلِكَ أَنِّي لَمَّا قُلْتُ: «أَنَا بِغَيْرِ سَيْفٍ وَلَا رُمْحٍ»، فَقِيلَ لَكَ: مَا الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ؟ أُجِيبُ: بِأَنَّكَ تَرَانِي بِلَا سَيْفٍ وَلَا رُمْحٍ.

قوله: (وقيل: هي صفة لـ ﴿عَمِدٍ﴾)، قَالَ الزَّجَّاجُ: «يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ مِنْ نَعْتِ «العَمَدِ»، أَي: بِغَيْرِ عَمَدٍ مَرْتِيَّةٍ، وَعَلَى هَذَا فَعَمَدُهَا قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى (٣). وَرُويَ عَنِ الْمُصَنِّفِ: يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ النِّفْيُ الصِّفَةَ وَحَدَّهَا؛ عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ عَمَدًا، إِلَّا أَنَّهَُا غَيْرُ مَرْتِيَّةٍ، وَهُوَ إِسْمَاكُ اللَّهِ إِيَّاهَا بِقُدْرَتِهِ، وَأَنْ يَتَنَاوَلَ الصِّفَةَ وَالْمَوْصُوفَ جَمِيعًا، كَقَوْلِهِ:

وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ (٤)

قوله: (وَيَعْضُدُهُ قِرَاءَةُ أَبِي: «تَرَوْنَهُ» (٥))، وَقَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: تَذَكِيرُ «تَرَوْنَهُ»

(١) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «بِلِسَانٍ»، وَالْمُتَّبَعُ مِنْ (ط).

(٢) أَي: الزَّمخَشَرِيُّ، فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٠ مِنْ سُورَةِ لُقْمَانَ (١٣: ٤٨٦).

(٣) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَّاجِ (٣: ١٣٦).

(٤) عَجَزُ بَيْتِ لَابِنِ أَحْمَرَ - وَهُوَ عَمْرُو بْنُ أَحْمَرَ الْبَاهِلِيُّ -، كَمَا فِي «تَاجِ الْعُرُوسِ» لِلزَّيْدِيِّ، مَادَّةُ (فَلْتِ)، وَصَدْرُهُ:

لَا تُفْرَعُ الْأَرْنَ بَ أَهْوَالُهَا

وَالعَجَزُ الْمَذْكُورُ هُنَا: تَقَدَّمَ عِنْدَ الزَّمخَشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٥١ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَسِيَّاتِي عِنْدَهُ أَيْضًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٨ مِنْ سُورَةِ غَافِرٍ.

(٥) وَانظُرْ: «الدَّرُّ الْمُصُونُ» لِلسَّمِينِ الْحَلْبِيِّ (٧: ١٠).

وَقُرِئَ: «عُمَدًا»، بضمَّتَيْن. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يُدَبِّرُ أَمْرَ مَلَكُوتِهِ وَرَبُّوبِيَّتِهِ، ﴿يُفَصِّلُ﴾ آيَاتِهِ فِي كُتُبِهِ الْمُنزَلَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ بِالْجِزَاءِ وَبِأَنَّ هَذَا الْمُدَبِّرَ وَالْمُفَصِّلَ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ. وَقُرَأَ الْحَسَنُ: «نَدَبَّرَ»، بِالنُّونِ.

مُشْكِلٌ، لِأَنَّ «الْعَمَدَ» جَمْعُ كَثْرَةٍ لـ «عمود»، فَلَعَلَّ الضَّمِيرَ لِلرَّفْعِ، أَوْ يُجْعَلُ اسْمَ جَمْعٍ. قَالَ صَاحِبُ «الْمُرْشِدِ»^(١): قَالَ أَبُو حَاتِمٍ^(٢): الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى «عَمَدٍ»، وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى «السَّمَوَاتِ»، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَنَا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، فَذَلَّلْنَا؛ عَلَى: أَنْتُمْ عَاجِزُونَ أَنْ تُقِيمُوا صَغِيرًا مِنَ الْأَجْسَامِ فِي الْجَوِّ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَلَا بُدَّ لِهَذِهِ الْأَجْرَامِ الْعِظَامِ مِنْ مُقِيمٍ يُقِيمُهَا، لِأَنَّ الْفِعْلَ لَا يُوجَدُ إِلَّا مِنْ فَاعِلٍ، فَمُقِيمُ السَّمَاءِ فِي الْجَوِّ^(٣) عَلَى غَيْرِ عَمَدٍ مَعَ عِظَمِ جِسْمِهَا وَثِقَلِهَا لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ صَانِعًا قَادِرًا، فَالْفَائِدَةُ فِي هَذَا الْوَجْهِ أَكْثَرُ، وَإِنْ كَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ عَظِيمَةٍ، عُمِدَاتٍ أَوْ لَمْ تُعَمَدَ.

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «إِذَا رَجَعَ الضَّمِيرُ إِلَى «الْعَمَدِ»: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تَكُونُ صِفَةً لَهُ، وَإِذَا رَجَعَ إِلَى «السَّمَوَاتِ﴾ تَكُونُ حَالًا مِنْهَا»^(٤).

قَوْلُهُ: (لَا بُدَّ لَكُمْ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ)، هَذَا التَّحْقِيقُ مِنْ اسْتِعْمَالِ «لَعَلَّ»، قَالَ^(٥): مِنْ دَيْدَنِ الْمُلُوكِ وَأَوْضَاعِ أَمْرِهِمْ أَنْ يَقْتَصِرُوا فِي مَوَاعِيدِهِمْ الَّتِي يُوطَّنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى إِنْجَازِهَا عَلَى أَنْ يَقُولُوا: «عَسَى» وَ«لَعَلَّ».

(١) تَقَدَّمَ التَّعْرِيفُ بِهِ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٣٤ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٧: ٢٣٣).

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «أَبُو حَاتِمٍ»، وَالْمُتَّبَعُ مِنْ (ط) وَ(ف). وَهُوَ أَبُو حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِي، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ

٢٤٨هـ.

(٣) فِي (ح): «فَمُقِيمُ الْجَوِّ فِي السَّمَاءِ»، وَالْمُتَّبَعُ مِنْ (ط) وَ(ف).

(٤) «الْتِيَانِ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِأَبِي الْبَقَاءِ الْعُكْبَرِيِّ (٢: ٧٥٠).

(٥) أَي: الزَّمْخَرِيُّ، فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢١ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٤: ٢٩٨).

﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ خَلَقَ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ زَوْجَيْنِ زَوْجَيْنِ حِينَ مَدَّهَا، ثُمَّ تَكَاثَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ وَتَنَوَّعَتْ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِ«الزَّوْجَيْنِ»: الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ، وَالْحُلُوتَ وَالْحَامِضَ، وَالصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمَخْتَلِفَةِ.

﴿يُعْشَى الْآيِلَ النَّهَارَ﴾ يُلْبِسُهُ مَكَانَهُ، فَيَصِيرُ أَسْوَدَ مُظْلِمًا بَعْدَمَا كَانَ أبيضَ مُنِيرًا. وَقُرِي: «يُعْشَى» بِالتَّشْدِيدِ.

[﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابِ وَزَرَغٍ وَنَجِيلٍ صِنَوَانٌ وَعَبْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٤]

﴿قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ﴾ بِقَاعٍ مَخْتَلِفَةٍ، مَعَ كَوْنِهَا مُتَجَاوِرَةً مُتَلَاصِقَةً؛ طَيِّبَةً إِلَى سَبِيخَةِ،

قَوْلُهُ: (﴿يُعْشَى الْآيِلَ النَّهَارَ﴾ يُلْبِسُهُ مَكَانَهُ)، تَقْدِيرُهُ: يُلْبِسُ اللَّيْلَ النَّهَارَ مَكَانَ ضَوْئِهِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ تَرْتُّبُ قَوْلِهِ: «فَيَصِيرُ أَسْوَدَ مُظْلِمًا بَعْدَمَا كَانَ أبيضَ مُنِيرًا»، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ الْآيِلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]، قَالَ فِيهِ: «فَاسْتَعِيرَ - أَي: السَّلَخَ - لِإِزَالَةِ الضَّوِّ وَكَشْفِهِ عَنِ مَكَانِ اللَّيْلِ وَمَلَقَى ظِلَّهُ»، وَيُوضِّحُ الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُكْوَرُ الْآيِلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارَ عَلَى الْآيِلِ﴾ [الزَّمر: ٥]، قَالَ: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةٌ؛ يَذْهَبُ هَذَا وَيُعْشَى مَكَانَهُ هَذَا، وَإِذَا غَشِيَ مَكَانَهُ فَكَأَنَّمَا أَلْبَسَهُ وَلَفَّ عَلَيْهِ، كَمَا يُلَفُّ اللَّبَاسُ عَلَى اللَّابِسِ».

قَوْلُهُ: (﴿يُعْشَى﴾ بِالتَّشْدِيدِ)، أَبُو بَكْرٍ وَحَمَزَةُ وَالْكِسَائِيُّ، وَالْباقُونَ: بِالتَّخْفِيفِ^(١).

قَوْلُهُ: (طَيِّبَةً إِلَى سَبِيخَةِ)، بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: «مُخْتَلِفَةٌ»، أَي: انْتَهَى اخْتِلَافُ^(٢) الطَّيِّبَةِ إِلَى السَّبِيخَةِ، أَوْ طَيِّبَةٌ مُنْضَمَّةٌ إِلَى سَبِيخَةٍ.

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد، و«حجة القراءات» ص ٣٦٨.

(٢) كذا في (ط) و(ف) و(ح): «انتهى مكان الطيبة!»

وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية، وذلك دليل على قادرٍ مُريدٍ مُوقِعٍ لأفعاله على وجهٍ دون وجه.

قوله: (إلى زهيدة)، الأساس: «رجلٌ زهيد: قليل الخير، وهو زهيد العين: يقنعهُ القليل».

قوله: (إلى أخرى على عكسها)، أي: إلى أرضٍ أخرى كائنة على عكس تلك؛ بأن تكون صالحة للشجر لا للزرع.

قوله: (وذلك دليل على قادرٍ مُريدٍ مُوقِعٍ لأفعاله على وجهٍ دون وجه)، قال الإمام: «إنه تعالى في غالب الأمر يذكُر الدلائل الموجودة في العالم السفلي، ويجعل مقطعها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أو ما يقربُ منه، والسببُ فيه: أن الفلاسفة يُسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات الواقعة في الأشكال الكوكبية، فأراد الله ردَّ ذلك، قال: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، يعني: من أمعن التفكير عليم أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث لأجل الاتصالات الفلكية، ومن ثمَّ عقب هذا الإرشاد بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾ الآية»، ثم قال: «ومن تأمل في هذه اللطائف ووقف عليها، عليم أن هذا الكتاب الكريم اشتمل على علوم الأولين والآخرين»^(١)، ثم قرَّر كيفية الاستدلال.

وجاء القاضي بتلخيصه حيث قال: «الأرض بعضها طيبة، وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادرٍ مُوقِعٍ لأفعاله على وجهٍ دون وجه، لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها مُتضامَّةٌ مُتشاركَةٌ في النسب والأوضاع»^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٩: ٧-٨).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٣١٧).

وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تُسقى بهاءً واحد، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلة فيها.

وفي بعض المصاحف: «قطعاً متجاورات» على: وجعل. وقرئ: «وجنات» بالنصب للعطف على ﴿زَوَّجَيْنِ﴾، أو بالجر على ﴿كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. وقرئ: «وزرع ونخيل» بالجر عطفاً على ﴿أَعْتَبَ﴾ أو «جنات».

و«الصنوان»: جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان، وأصلها واحد. وقرئ بالضم، والكسر: لغة أهل الحجاز، والضم: لغة بني تميم وقيس.

﴿يُسْقَى﴾ بالتاء والياء. ﴿وَنُفِضَ﴾ بالنون وبالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً. ﴿فِي الْأَكْلِ﴾ بضم الكاف وسكونها.

قوله: (وقرئ: «وزرع ونخيل» بالجر)، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص: بالرفع^(١)؛ عطف على ﴿وَجَعَلْتُمْ﴾.

قوله: (وقرئ بالضم)، أي: «صنوان»، قال ابن جني: «قرأ الناس^(٢): ﴿صُنَوَانٌ﴾ بكسر الصاد، والحسن وقتادة: بفتحها، وأبو عبد الرحمن السلمي: بضمها^(٣)».

قوله: (﴿يُسْقَى﴾ بالتاء والياء)، عاصم وابن عامر: بالياء التحتانية، والباقون: بالتاء^(٤)، أي: يُسقى المذكور وتُسقى الجنة.

قوله: (على البناء للفاعل والمفعول)، مبني على القراءة بالياء وحدها^(٥).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٣١، و«حجة القراءات» ص ٣٦٩.

(٢) أي: جمهور القراء وأكثرهم، فيدخل في ذلك السبعة وتيممة العشرة وغيرهم.

(٣) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٥١).

(٤) إلا أن حمزة والكسائي يميلان القاف، كما في «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٥٧، وانظر: «حجة القراءات» ص ٣٦٩.

(٥) أي: قرئ: «يُفَضَّلُ» بالبناء للفاعل، و«يُفَضَّلُ» بالبناء للمفعول، أما «نُفِضَ» فبالبناء للفاعل لا غير. =

[وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْ ذَا كُنَّا تَرَبًّا أَيْ نَأْتِي خَلْقَ جَدِيدٍ أَوْلِيَّتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ الْأَعْدَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾]

﴿وَإِن تَعَجَبَ﴾ يا مُحَمَّدُ من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيبٌ حَقِيقٌ بأن يُتَعَجَّبَ منه؛ لأنَّ مَنْ قَدَّرَ على إنشَاءٍ ما عُدَّدَ عليك من الفِطْرِ العَظِيمَةِ ولم يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ،

قوله: ﴿وَإِن تَعَجَبَ﴾ يا مُحَمَّدُ، يُريد: أَنَّ المُخَاطَبَ رَسولَ اللهِ ﷺ، وَالشَّرْطُ وَالجِزَاءُ من باب «مَنْ أَدْرَكَ الصَّامَانَ فَقَدْ أَدْرَكَ الْمَرْعَى»^(١)، أَي: مَرَعَى لَا يَكْتَنُهُ كُنْهَهُ، وَلِذَلِكَ حَقَّقَهُ بِقَوْلِهِ: «حَقِيقٌ بِأَنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ» إِلَى قَوْلِهِ: «فَكَانَ إِنْكَارُهُمْ أَعْجُوبَةً مِنَ الْأَعْجَابِ».

وقلت: ويجوز أن يكون الخطاب عاماً، وما يُتَعَجَّبُ منه: ما يُفْهَمُ مِنْ مَبْدَأِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، لِأَنَّهَا مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ الشَّانِ الدَّالَّةِ عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، فَلَا يَخْتَصُّ الْخِطَابُ بِوَاحِدٍ دُونَ وَاحِدٍ، الْمَعْنَى: إِنَّ تَعَجُّبَكَ - أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ النَّاطِرُ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ فِي هَذَا الْإِنْشَاءِ - سَبَبٌ لِلْإِخْبَارِ عَنْ شَيْءٍ عَجِيبٍ حَقِيقٌ بِأَنْ تَتَعَجَّبَ مِنْهُ، بَلْ هُوَ الْعَجَبُ كُلُّهُ؛ لِتَقَدُّمِ الْخَبَرِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ، وَهُوَ «عَجَبٌ قَوْلُهُمْ»، وَذَلِكَ أَنَّ

= وَالْأُولَى قِرَاءَةٌ حَمِزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ؛ إِخْبَاراً عَنِ اللهِ، أَي: يُفَضَّلُ اللهُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَحُجَّتُهَا أَنَّ ابْتِدَاءَ الْكَلَامِ جَرَى مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وَقَعَلَ وَقَعْلًا، فَرَدُّوا قَوْلَهُ: «وَيُفَضَّلُ» عَلَى لَفْظٍ مَا تَقَدَّمَ؛ إِذْ كَانَ فِي سِيَاقِهِ؛ لِأَيْتِلَافِ نِظَامِ الْكَلَامِ عَلَى سِيَاقٍ وَاحِدٍ. وَالْآخِرَةُ - أَعْنِي: ﴿وَيُفَضَّلُ﴾ بِالنُّونِ - قِرَاءَةٌ سَائِرِ السَّبْعَةِ؛ إِخْبَاراً اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ، وَحُجَّتُهُمْ قَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَقَالَ: ﴿وَيُفَضَّلُ الْأَيَّتِ﴾ [التوبة: ١١]؛ بِلَفْظِ الْجَمْعِ. قَالَ ابْنُ رَجُلَةَ فِي «حُجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٣٧٠.

أما «يُفَضَّلُ» - بِالْبَاءِ لِلْمَفْعُولِ - فَقِرَاءَةٌ شَادَّةٌ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ يَحْمِيُ بْنُ يَعْمَرٍ وَأَبِي حَيَّةَ، كَمَا فِي «الدَّرِّ الْمَصُونِ» لِلسَّمِينِ الْحَلَبِيِّ (٧: ١٥).

(١) انظر ما سلف في معناه عند تفسير الآية ٣٦ من سورة الأنفال (٧: ٩٧) تعليقا.

كانت الإعادة أهونَ شيءٍ عليه وأيسرَه، فكان إنكارُهم أعجوبةً من الأعاجيب، ﴿أَيُّ ذَا كُنَّا﴾ إلى آخر قولهم، يجوزُ أن يكونَ في محلِّ الرَّفْعِ بَدَلًا من ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وأن يكونَ منصوبًا بالقول. و«إذا» نَصَبٌ بما دَلَّ عليه قوله: ﴿أَيُّ نَا لَفِي خَلْقِي جَدِيدٍ﴾، ﴿أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك الكاملون المتهاذون في كفرهم، ﴿وَأَوْلَيْتِكَ الْأَعْلَالَ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وصفٌ بالإصرار، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨]، ونحوه:

لهم عن الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادٌ

الإنكار من العاقل الناظر في هذه الدلائل لِمَا هو أهونٌ من ذلك أعجوبةً من الأعاجيب. قوله: (أهونَ شيءٍ عليه)، أي: عندكم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، أي: عندكم.

قوله: (بما دَلَّ عليه قوله: ﴿أَيُّ نَا لَفِي خَلْقِي جَدِيدٍ﴾)، قال أبو البقاء: «والعامل في «إذا» فَعَلٌ دَلَّ عليه الكلام، تقديرُه: إذا كُنَّا تُرَابًا نُبْعَثُ، ودَلَّ عليه قوله: ﴿لَفِي خَلْقِي جَدِيدٍ﴾، ولا يجوزُ أن يَنْتَصِبَ بـ ﴿كُنَّا﴾، لأن «إذا» مُضَافَةٌ إليه^(١).

وقال الزَّجَّاجُ: «فَمَنْ قَرَأَ ﴿أَيُّ ذَا﴾ على الاستفهام، ثم قرأ ﴿أَيُّ نَا﴾، فـ«إذا» منصوبة؛ بمعنى: نُبْعَثُ، أي: إذا كُنَّا تُرَابًا نُبْعَثُ، ومَنْ قَرَأَ: «إِنَّا لَفِي خَلْقٍ» أدخلَ همزةَ الاستفهام على جُمْلَةِ الكلام، وكانت «إذا» نَصْبًا بـ ﴿كُنَّا﴾، لأنَّ الكلامَ في معنى الشَّرْطِ والجزاء، ولا يجوزُ أن يَعْمَلَ ﴿جَدِيدٍ﴾ في «إذا»، لأنه لا خِلافَ في أن ما بعدَ «إن» و«إذا»^(٢) لا يَعْمَلُ فيما قبلها^(٣).

قوله: (لهم عن الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادٌ)، أوله:

(١) «التيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء المَكْبَرِي (٢: ٧٥١).

(٢) تحرَّف في (ح) و(ف) إلى: «ما بعد أن راد»، والمُثَبَّتُ من (ط).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزَّجَّاج (٣: ١٣٨-١٣٩).

أو هو من جملة الوعيد.

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالنقمة قبل العافية، والإحسان إليهم بالإمهال. وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب؛ استهزاءً منهم بإنذاره، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا. والمثلة: العقوبة؛ بوزن السمرة، والمثلة؛

كَيْفَ الرَّشَادُ وَقَدْ خُلِّفَتْ فِي نَفْرٍ^(١)

الغُل: جامعة تُشدُّ^(٢) بها العنق واليد. والقيد: ما يُوضع في الرجل.

قوله: (أو هو من جملة الوعيد)، عطف على قوله: «وَصَفَّ بِالْإِصْرَارِ»، ومعنى قوله: «هو من جملة الوعيد»: أن قوله: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وعيد، وقد عطف على هذا، فيكون وعيداً مثله، فإذا «الأغلال» مجرئ^(٣) على حقيقتها، وتكرير ﴿وَأُولَئِكَ﴾ لاستقلال كل من العذابين وشدته، وإذا حُمِلَ على المجاز يكون من جملة الوصف بالكفر، لكونه معطوفاً عليه، والوجه إدخاله في جملة الوعيد، لأن ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الأول وإرد للإشعار بأن ما بعده جدير بما سبق لا تصافهم بوصف، وهم المنكرون للحشر، وأما قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فذكر مزيداً للتسجيل عليهم.

قوله: (المثلة)، الجوهري: «المثلة - بفتح الميم وضمّ التاء - : العقوبة، والجمع: المثلات، ومثّل به مثلاً، أي: نكّل به، والاسم: المثلة بالضم، ومثّل بالقتيل: جدّعه، وأمثله: جعله^(٤) مثله».

(١) البيت للملتمس - واسمه جرير بن عبد المسيح الضبعي - كما في «الحماسة البصرية» (٢: ٦٩).

(٢) في (ح) و(ف): «تشهد»، والمثبت من (ط).

(٣) لفظة «مجرئ» سقطت من (ف).

(٤) تحوّل في (ح) و(ف) إلى: «جمع»، والمثبت من (ط)، وهو الموافق لما في «الصّحاح» للجوهري، (مثل).

لِمَا بَيْنَ الْعِقَابِ وَالْمَعَابِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَائِلَةِ، ﴿وَجَزَّزُوا سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠].
ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه. والمثال: القصاص.

وَقُرِي: «المثلاث» بضمّتين لإتباع الفاء العين،

قال الراغب: «المثال: مُقَابَلَةٌ شَيْءٍ بِشَيْءٍ هُوَ تَطْيِيرُهُ، أَوْ وَضْعُ شَيْءٍ مَا لِيُحْتَدَىٰ بِهِ فِيهَا يُعْمَلُ، وَالْمَثَلَةُ نِقْمَةٌ تَنْزِلُ بِالْإِنْسَانِ، فَيُجْعَلُ مِثَالًا يَرْتَدِعُ بِهِ غَيْرُهُ، وَذَلِكَ كَالنَّكَالِ، وَجَمْعُهُ: مَثَلَاتٌ وَمَثَلَاتٌ، وَقَدْ أَمَثَلَ السُّلْطَانُ فَلَانًا: إِذَا نَكَلَ بِهِ، وَالْأَمَثَلُ: يُعْبَرُ بِهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ بِالْأَفْضَلِ وَالْأَقْرَبِ إِلَى الْخَيْرِ، وَأَمَائِلُ الْقَوْمِ: كِنَايَةٌ عَنْ خِيَارِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّا لَهُمْ طَرِيقَةً﴾ [طه: ١٠٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]، أَي: الْأَشْيَاءِ بِالْفَضِيلَةِ، وَهِيَ تَأْنِيثُ الْأَمَثَلِ^(١).

قوله: (لِمَا بَيْنَ الْعِقَابِ)، تعليلٌ للتسمية، يعني: إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْعُقُوبَةُ مَثَلَةً وَمُثَلَةً - بَصَمَّ النَّاءِ وَسُكُونِهَا - لِمَا بَيْنَ الْعِقَابِ وَالْمَعَابِ عَلَيْهِ - أَي: الْجِنَايَةِ -؛ مِنْ الْمَائِلَةِ - أَي: الْوِفَاقِ - مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرِ، وَلِأَنَّ الْجِنَايَةَ سَبَبٌ لِأَنَّ يُعَاقَبَ الْجَانِي بِمِثْلِ مَا جَنَاهُ، كَمَا سُمِّيَ جَزَاءُ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً لِأَنَّهُ مُسَبَّبٌ عَنْهَا وَمُمَائِلٌ لَهَا.

وَيُقَالُ: «تعليلٌ آخَرُ بِحَسَبِ الْاسْتِعْمَالِ، أَي: يُقَالُ: أَمَثَلْتُ الرَّجُلَ مِنْ صَاحِبِهِ، كَمَا يُقَالُ: أَقْصَصْتُهُ مِنْهُ، يُقَالُ: اقْتَصَصَ الْأَمِيرُ مِنْ فُلَانٍ؛ أَي: جَرَحَهُ مِثْلَ جَرَحِهِ، أَوْ قَتَلَهُ قَوْدًا، كَمَا يُقَالُ: أَمَثَلَ السُّلْطَانُ فُلَانًا: إِذَا قَتَلَهُ قَوْدًا.

قوله: (وَقُرِي: «المثلاث» بضمّتين)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: «قَرَأَ «المَثَلَاتُ» بِحِجِّي بْنِ وَثَّابٍ، وَرُوِيَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ حِجِّي: «المَثَلَاتُ» - بِالْفَتْحِ وَالْإِسْكَانِ -، وَقِرَاءَةُ النَّاسِ: «المَثَلَاتُ» بِفَتْحِ الْمِيمِ وَضَمِّ النَّاءِ^(٢).

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٦٠.

(٢) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣٥٣).

و«المثلاث» بفتح الميم وسكون الثاء، كما يقال: السَّمرة. و«المثلاث» بضم الميم وسكون الثاء؛ تخفيف «المثلاث» بضمّتين. و«المثلاث» جمع مُثَلَّة، كُرْكُبةٌ ورُكُبات.

﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلٰى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب، ومحلّه الحال، بمعنى: ظالمين لأنفسهم، وفيه أوجه: أن يُريدَ السيئاتِ المكفّرة لِمْجْتَنِبِ الكبائرِ، أو الكبائر بشرط التوبة، أو يريدُ بالمغفرة: السّرّ والإمهال. ورُوي أنّها لما نزلت قال النبي عليه الصّلاة والسّلام: «لولا عفوُ الله وتجاوزه ما هنا أحدُ العيش، ولولا وعيدُه وعقابه لا تكَلَّ كلُّ أحد».

[وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ لِّكُلِّ قَوْمٍ

هَادٍ ﴿٧﴾]

﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً، فاقترحو نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقيل لرسول الله ﷺ: إنّما أنت رجل أرسلت مُنذِراً ومُخَوِّفاً لهم من سوء العاقبة وناصحاً، كغيرك من الرُّسل،

قوله: (وفيه أوجه)، يعني: إذا جعل ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ حالاً من «الناس»، كان إغراءً^(١) على الظلم، لأنّ المعنى أن الله يغفر للناس مع كونهم ظالمين؛ لما فيه من المبالغة، فوجب التأويل، وفيه وجوه ثلاثة كما ذكرها، والوجه هو الثالث، لأنّ الآية على وزان قوله تعالى: ﴿قُلْ أُنزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، قال^(٢) في تفسيره: «هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يُصبَّ عليهم العذابُ صبّاً، ولكن صرّف ذلك عنهم أنه غفورٌ رحيم، يُمهّل ولا يُعاجل».

(١) أي: حشاً وحضاً.

(٢) أي: الزمخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة الفرقان (١١: ١٧٧).

وما عليك إلا الإتيان بما يَصِحُّ به أنك رسولٌ مُنذِرٌ، وَصِحَّةُ ذلك حاصِلَةٌ بِأَيَّةِ آيَةٍ كَانَتْ، وَالآيَاتُ كُلُّهَا سِوَاءٌ فِي حُصُولِ صِحَّةِ الدَّعْوَةِ بِهَا لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهَا، وَالَّذِي عِنْدَهُ كُلُّ شَيْءٍ بِمَقْدَارٍ يُعْطَى كُلَّ نَبِيٍّ آيَةً عَلَى حَسَبِ مَا اقْتَضَاهُ عِلْمُهُ بِالْمَصَالِحِ وَتَقْدِيرُهُ لَهَا.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ يَهْدِيهِمْ إِلَى الدِّينِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْهُدَايَةِ، وَبِأَيَّةٍ خُصَّ بِهَا، وَلَمْ يَجْعَلِ الْأَنْبِيَاءَ شَرَعًا وَاحِدًا فِي آيَاتٍ مَخْصُوصَةٍ.

وَوَجْهُ آخَرٌ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ كَوْنَ مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ آيَاتٍ وَيُعَانِدُونَ، فَلَا يَهْمَنَّكَ ذَلِكَ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُنذِرَ، لَا أَنْ تُثَبِّتَ الْإِيمَانَ فِي صُدُورِهِمْ، وَلَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قَادِرٌ عَلَى هِدَايَتِهِمْ بِالْإِلْجَاءِ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي تَعْقِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: إِذْبَانٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ الْإِمْهَالِ يُعَاقِبُهُمْ عِقَابًا شَدِيدًا، قَالَ الْقَاضِي: ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ نَضَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ «الْمَغْفِرَةُ»، وَالتَّقْيِيدُ بِهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْعَفْوِ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَإِنَّ التَّائِبَ لَيْسَ عَلَى ظُلْمِهِ، وَمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ خَصَّ «الظُّلْمَ» بِالصَّغَائِرِ الْمُكْفَّرَةِ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، أَوْ أَوَّلِ الْمَغْفِرَةِ بِالسُّتْرِ وَالْإِمْهَالِ^(١).

قَوْلُهُ: (وَوَجْهُ آخَرٌ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ)، عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «لَمْ يَعْتَدُوا بِالْآيَاتِ الْمُنزَلَةِ»، فَعَلَى الْأَوَّلِ: لَمْ يُنْكِرُوا أَنَّ الْمُنزَلَ آيَاتٌ، بَلْ لَمْ يَعْتَدُوا بِهَا، فَالْكَلَامُ إِذْنٌ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُعْجَزَاتِ وَإِثْبَاتِ الرُّسَالَةِ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: «إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ أُرْسِلْتَ، وَصِحَّةُ ذَلِكَ حَاصِلَةٌ بِأَيَّةِ آيَةٍ كَانَتْ»، وَالتَّنْكِيرُ فِي «هَادٍ» لِلإِبْهَامِ وَالشُّبُوحِ.

وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي: التَّنْكِيرُ فِي «هَادٍ» لِلتَّفْخِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هَادٍ﴾ قَادِرٌ عَلَى هِدَايَتِهِمْ بِالْإِلْجَاءِ.

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ١٨٢).

ولقد دَلَّ بها أَرَدَفَهُ من ذِكْرِ آيَاتِ عِلْمِهِ وتَقْدِيرِهِ الأَشْيَاءَ عَلَى قَضَايَا حِكْمَتِهِ أَنَّ إعْطَاءَهُ كُلِّ مُنْذِرٍ آيَاتٍ خِلَافَ آيَاتٍ غَيْرِهِ: أَمْرٌ مُدَبَّرٌ بِالْعِلْمِ النَّافِذِ، مُقَدَّرٌ بِالْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَلَوْ عَلِمَ فِي إِجَابَتِهِمْ إِلَى مُقْتَرِحِهِمْ خَيْرًا وَمُصْلِحَةً لِأَجَابَتِهِمْ إِلَيْهِ. وَأَمَّا عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي: فَقَدْ دَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ مَنْ هَذِهِ قُدْرَتُهُ وَهَذَا عِلْمُهُ، هُوَ الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، الْعَالَمُ بِأَيِّ طَرِيقٍ يَهْدِيهِمْ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ لغيره.

[﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ ٨-٩]

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا، وَأَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: هُوَ اللَّهُ، تَفْسِيرًا لـ ﴿هَادٍ﴾ عَلَى الْوَجْهِ الْآخِرِ، ثُمَّ ابْتَدَى فَقِيلَ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾، و﴿مَا﴾ فِي ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾: إِمَّا مَوْصُولَةٌ وَإِمَّا مُصَدَّرِيَّةٌ.....

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ: جَمَلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالٍ عَنِ مَوْجِبِ إعْطَاءِ كُلِّ مُنْذِرٍ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ دَلَّ بِهَا أَرَدَفَهُ مِنْ ذِكْرِ آيَاتِ عِلْمِهِ أَنَّ إعْطَاءَهُ كُلِّ مُنْذِرٍ^(١) آيَاتٍ خِلَافَ آيَاتٍ غَيْرِهِ أَمْرٌ مُدَبَّرٌ بِالْعِلْمِ النَّافِذِ، مُقَدَّرٌ بِالْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ»، وَفِي تَقْيِيدِ الْعِلْمِ بِحَمْلِ كُلِّ أُنْثَى وَغِيضِ الْأَرْحَامِ: أَنَّ دَلَائِلَ الْأَنْفُسِ أَدْقُ وَالطَّفُّ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى كُنْهَيْهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَعَلَى الثَّانِي: ﴿اللَّهُ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، وَالْجَمَلَةُ مُفَسَّرَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿هَادٍ﴾، وَالاسْتِنَافُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ﴾ عَلَى بَيَانِ الْمَوْجِبِ، كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: وَلَسْتَ أَنْتَ بِقَادِرٍ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، لَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ؛ أَسْجَعٌ لِسَائِلِ أَنْ يَقُولَ: فَلَايِي حِكْمَةٍ مَا هَدَاهُمْ اللَّهُ؟ فَقِيلَ: يَعْلَمُ - بِكَمَالِ عِلْمِهِ الْقَدِيمِ - الْهَادِي وَالضَّالَّ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِ مَعْلُومِهِ وَسَبْقِ قَضَائِهِ بِذَلِكَ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، أَي: بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ.

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «مَا اخْتَصَّ بِهِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

فإن كانت موصولة، فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة، وتَمَامٌ وَخَدَاجٌ، وَحُسْنٌ وَقُبْحٌ، وَطُولٌ وَقِصْرٌ، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة، ويعلم ما تغيضه الأرحام، أي: تُنْقِضُهُ. يقال: غاض الماء وغضته أنا. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِضَ الْمَاءَ﴾ [هود: ٤٤]، وما تزداده؛ أي: تأخذه زائداً، تقول: أخذت منه حقِّي وازددت منه كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَزْدَادُوا سَعَاءً﴾ [الكهف: ٢٥]، ويُقال: زدته فزاد بنفسه وازداد.

ومما تُنْقِضُهُ الرَّحِمُ وَتَزِدُّهُ: عَدَدُ الْوَلَدِ، فَإِنهَا تَشْتَمِلُ عَلَى وَاحِدٍ، وَقَدْ تَشْتَمِلُ عَلَى اثْنَيْنِ وَثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةٍ. وَيُرْوَى أَنَّ شَرِيكاً كَانَ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. ومنه: جَسَدُ الْوَلَدِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ تَاماً وَمُخَدَّجاً.

ومنه: مُدَّةٌ وَوَلَادَتُهُ، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَقَلَّ مِنْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَأَزِيدَ عَلَيْهَا إِلَى سِتِّينَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَإِلَى أَرْبَعٍ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، وَإِلَى خَمْسٍ عِنْدَ مَالِكٍ، وَقِيلَ: إِنَّ الضَّحَّاكَ وَوَلَدَ لِسِتِّينَ، وَهَرِمَ بَنَ حَيَّانَ بَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ هَرِمًا. ومنه: الدَّمُ، فَإِنَّهُ يَقِلُّ وَيَكْتَثُرُ.

وإن كانت مصدرية، فالمعنى: أنه يعلم حمل كل أنثى،

قوله: (وَمُخَدَّجٌ)، الجوهري: «أَخْدَجَتِ النَّاقَةُ: إِذَا جَاءَتْ بِوَلَدِهَا نَاقِصَ الْخَلْقِ، وَإِنْ كَانَتْ أَيَّامُهُ تَامَةً. وَخَدَجَتِ تَخْدِجُ خَدَاجًا، وَهِيَ خَادِجٌ: إِذَا أَلْقَتْ وَلَدَهَا قَبْلَ تَمَامِ الْأَيَّامِ، وَإِنْ كَانَ تَامَ الْخَلْقِ».

قوله: (أَنْ شَرِيكًا)، قَالَ صَاحِبُ «الْجَامِعِ»: «هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ الْقُرَشِيُّ، وَيُقَالُ (١): اللَّيْثِيُّ، يُعَدُّ مِنَ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» (٢)، وَلَمْ يَذْكَرْ مِنْ حَدِيثِ

(١) تحرف في الأصول الخطية إلى: «قال»، وصوبته من «جامع الأصول».

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٥٠٦).

وَيَعْلَمُ غَيْضَ الْأَرْحَامِ وَازْدِيَادَهَا، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْ أَوْقَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ.
 وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ غُبُوضٌ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَزِيَادَتُهُ، فَاسْتَدَّ الْفِعْلَ إِلَى الْأَرْحَامِ وَهُوَ
 لِمَا فِيهَا، عَلَىٰ أَنْ الْفِعْلَيْنِ غَيْرُ مُتَعَدِّيَيْنِ، وَيَعْضُدُهُ قَوْلُ الْحَسَنِ: «الغَيْضُ وَضْعٌ: أَنْ تَضَعَ
 لِمَا نِيَّةَ أَشْهَرٍ أَوْ أَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ، وَالْازْدِيَادُ: أَنْ تَزِيدَ عَلَىٰ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ. وَمِنْهُ: الْغَيْضُ
 الَّذِي يَكُونُ سَقَطًا لغير تَمَامٍ، وَالْازْدِيَادُ: مَا وُلِدَ لِتَمَامٍ.

﴿بِمِقْدَارٍ﴾ بِقَدْرِ وَاحِدٍ لَا يُجَاوِزُهُ وَلَا يَنْقُصُ عَنْهُ، كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

[القمر: ٤٩].

وَلَادَتِهِ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ^(١).

قوله: (لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ)، «ذلك»: إشارة إلى المذكور، وهو أنه تعالى يَعْلَمُ
 حَمَلَ كُلِّ أُنْثَىٰ، وَيَعْلَمُ غَيْضَ الْأَرْحَامِ وَازْدِيَادَهَا، وَالْمُرَادُ بِهِ مَا يَنْقُصُهُ الرَّحْمُ وَيَزِدَادُهُ مِنْ عَدَدِ
 الْوَلَدِ، لِأَنَّهُ عَطَفَ: «وَمِنْ أَوْقَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ» عَلَيْهِ. وَالْمُرَادُ بِ«الْأَحْوَالِ»: التَّامُّ وَالْمُخَدَّجُ،
 وَبِ«الْأَوْقَاتِ»: مَا سَبَقَ، فَذَكَرَ فِي قِسْمِ الْمَصْدَرِ مَا ذَكَرَهُ فِي الْمَوْصُولِ مِنَ التَّوَجُّهِ الثَّلَاثَةَ.

قوله: (وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: غُبُوضٌ مَا فِي الْأَرْحَامِ)، يُرِيدُ: أَنْ «غَاضَ» وَ«ازْدَادَ» جَاءَا
 مُتَعَدِّيَيْنِ وَلَا زِمَيْنِ، فَالْمَعْنَى عَلَى الْمُتَعَدِّيِّ: وَيَعْلَمُ غَيْضَ الْأَرْحَامِ وَازْدِيَادَهَا، وَعَلَى اللَّازِمِ:
 يَعْلَمُ غُبُوضَ^(٢) الْأَرْحَامِ، عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ.

قوله: (وَيَعْضُدُهُ)، أَي: وَيَعْضُدُ كَوْنًا «مَا» مَصْدَرِيَّةً قَوْلُ الْحَسَنِ: «الغَيْضُ وَضْعٌ» وَ«الغَيْضُ»

بِلَفْظِ الْمَصْدَرِ.

(١) وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ شَرِيكَ الْمَذْكُورِ هُوَ شَرِيكَ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّخَعِيِّ الْكُوفِيِّ الْقَاضِي، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٧٧ أَوْ
 ١٧٨، وَهُوَ مُتَرَجِّمٌ فِي «جَامِعِ الْأَصُولِ» أَيْضًا (١٢: ٥٠٦)، وَلَعَلَّهُ هُوَ الْأَظْهَرُ، فَإِنَّهُ أَكْثَرُ شَهْرَةً مِنَ
 الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «مَا فِي الْأَرْحَامِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف).

﴿الْكَبِيرُ﴾ العَظِيمُ الشَّانِ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، ﴿الْمُتَعَالِ﴾ الْمُسْتَعْلَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ، أَوِ الَّذِي كَبُرَ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَتَعَالَى عَنْهَا.

[﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ لَهُ مُعَقِّبَةٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ ١٠-١١]

﴿وَسَارِبٌ﴾ ذَاهِبٌ فِي سَرْبِهِ - بِالْفَتْحِ - أَي: فِي طَرِيقِهِ وَوَجْهِهِ، يُقَالُ: سَرَبَ فِي الْأَرْضِ سُرُوبًا. وَالْمَعْنَى: سِوَاءٌ عِنْدَهُ مِنْ اسْتَخْفَى، أَي: طَلَبَ الْخَفَاءَ فِي مُخْتَبَأٍ بِاللَّيْلِ فِي ظُلْمَتِهِ، وَمَنْ يَضْطَرِبُ فِي الطَّرِيقَاتِ ظَاهِرًا بِالنَّهَارِ، يُبْصِرُهُ كُلُّ أَحَدٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانَ حَقُّ الْعِبَارَةِ أَنْ يُقَالَ: وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَمَنْ هُوَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ، حَتَّى يَتَنَاوَلَ مَعْنَى الْإِسْتِوَاءِ الْمُسْتَخْفِيَّ وَالسَّارِبَ؛

قوله: (أَوِ الَّذِي كَبُرَ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ)، يَعْنِي: مَعْنَى ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ بِالنَّظَرِ إِلَى مَرْدُوفِهِ - وَهُوَ ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ -: هُوَ الْعَظِيمُ الشَّانِ إِلَى آخِرِهِ، لِيُضْمَّ مَعَ الْعِلْمِ الْعَظَمَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَبِالنَّظَرِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ إِلَى آخِرِهِ؛ أَنْ يُقَالَ: كَبُرَ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِيُقَيَّدَ تَنْزِيهَاً عَمَّا يَقُولُهُ النَّصَارِيُّ وَالْمُشْرِكُونَ.

قال أبو البقاء: «﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ خَبِيرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً، وَ﴿الْكَبِيرُ﴾ خَبِيرُهُ» (١).

وقلت: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبِيرًا بَعْدَ خَبِيرٍ لِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ﴾ فِي ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

قوله: (يَضْطَرِبُ)، أَي: يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ؛ مِنْ: ضَرَبَ فِي الْأَرْضِ؛ إِذَا ذَهَبَ فِيهَا.

قوله: (كَانَ حَقُّ الْعِبَارَةِ)، تَوْجِيهُ السُّؤَالِ: أَنَّ الْأَسْلُوبَ مِنْ بَابِ الْإِزْدَوَاجِ، فَجُمْلَةُ

(١) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٥٣).

وإلا فقد تناوَل واحداً هو ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ و«سارِبٌ»؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن قوله ﴿وَسَارِبٌ﴾ عطفٌ على «مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ»، لا على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾،.....

قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ معطوفٌ على جملة قوله: ﴿مَنْ أَسْرَ﴾ و«مَنْ جَهَرَ»، على أن كليهما مرفوعان بالابتداء أو بـ ﴿سَوَاءٌ﴾، فالظاهر أن يُقال: وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَمَنْ هُوَ سَارِبٌ بالنهار؛ ليتوافقا، وإن لم يكن التقدير هذا فقد تناوَل الاستواء^(١) شخصاً واحداً له وَصْفَانِ، وهو المرادُ من قوله: «تَنَاوَلَ وَاحِداً هُوَ ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ ﴿وَسَارِبٌ﴾»، فلم يَسْتَقِمَ لاقْتِضَاءِ الاستواءِ شَيْئَيْنِ^(٢).

قال أبو البقاء: «مَنْ أَسْرَ»: ﴿مَنْ﴾ مُبْتَدَأٌ، و﴿سَوَاءٌ﴾ خَبَرُهُ، و﴿مِنْكَ﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿سَوَاءٌ﴾، لَأنَّهُ فِي مَوْضِعِ «مُسْتَوٍ»، ومثله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠]، وَيَضَعُفُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿أَسْرَ﴾ لِمَا يُؤَدِّي إِلَى تَقْدِيمِ مَا فِي الصَّلَةِ عَلَى الْمَوْصُولِ^(٣).

وقال الزَّجَّاجُ: «مَوْضِعُ ﴿مَنْ﴾ الْأَوَّلَى وَالثَّانِيَةَ: رَفَعُ بـ ﴿سَوَاءٌ﴾، لِأَنَّهَا تَطْلُبُ اثْنَيْنِ، تَقُولُ: سَوَاءٌ زَيْدٌ وَعَمْرُو؛ فِي مَعْنَى: ذَوَا سَوَاءٍ زَيْدٌ وَعَمْرُو، لِأَنَّهَا مَصْدَرٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَرْفَعَ مَا بَعْدَهُ إِلَّا عَلَى الْحَذْفِ، تَقُولُ: عَدْلٌ زَيْدٌ وَعَمْرُو، وَالْمَعْنَى: ذَوَا عَدْلٍ، لِأَنَّ الْمَصَادِرَ لَيْسَتْ بِأَسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ، وَإِنَّمَا يَرْفَعُ الْأَسْمَاءُ أَوْصَافُهَا، وَ«سَوَاءٌ» مِمَّا كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ، فَجَرَى مَجْرَى أَسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ^(٤).

قوله: ﴿وَسَارِبٌ﴾ عطفٌ على «مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ» لا على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾، قَالَ فِي

(١) فِي (ح) وَ(ف): «تَنَاوَلَ وَهُوَ سَوَاءُ الْاِسْتِوَاءِ»، وَالْمُتَّبِعُ مِنْ (ط).

(٢) لَفْظَةُ «شَيْئَيْنِ» لَمْ تَنْضَحْ إِلَّا فِي (ط)، وَفِي النِّسْخَةِ الْمَوْصِلِيَّةِ: «شَيْئَيْنِ»، وَفِي (ح): «سَنَيْنِ»، أَمَّا (ف) فَفِيهَا: «لِاقْتِضَاءِ الْاِسْتِوَاءَيْنِ»، وَهُوَ أَبْعَدُهَا عَنِ الصَّوَابِ.

(٣) «التَّيْبَانِ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِأَبِي الْبَقَاءِ الْعُكْبَرِيِّ (٢: ٧٥٣).

(٤) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَّاجِ (٣: ١٤١).

والثاني: أنه عطفتُ على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾؛ إلا أن ﴿مَنْ﴾ في معنى الاثنين، كقوله:

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذَنْبُ يَصْطَحِبَانِ

كأنه قيل: سواءٌ منكم اثنان: مُسْتَخْفٍ بالليل وسارِبٌ بالنهار.

«الانتصاف»: «ويحتمل أن يُعْطَفَ عليه، والموصولُ محذوف، وصِلْتَهُ باقية، أي: ومَنْ هو مُسْتَخْفٍ بالليل ومَنْ هو سارِبٌ بالنهار، وحذفُ الموصولِ المعطوفِ وبقاءُ صِلْتِهِ شائعٌ^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾^(٢) [الأحقاف: ٩]، لأنَّ الثانيةَ لو عُطِفَتْ على صِلَةِ الأولى لم يكنْ لِدُخُولِ حَرْفِ النفي معنى.

ومنه قولُ حسان^(٣):

وَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ

أَي: وَمَنْ يَمْدَحُهُ^(٤).

قوله: (نكنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذَنْبُ يَصْطَحِبَانِ)، أولُه للفرزدق^(٥):

تَعَالَ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَحْوِئُنِي

قبله:

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَكْشَرُ ضَاحِكًا وَقَائِمٌ سَيْفِي مِنْ يَدِي بِمَكَانِ

«تكشَّر»؛ أي: أبدى أسنانه، يصفُ ذنباً أتاه وهو في قَفْرٍ، وأنه ألقى إليه ما يأكله، ومعنى

(١) في الأصول الخطية: «سائغ»، وله وجه، والمثبتُ من «الانتصاف»، وهو أحسن.

(٢) والأصل: ولا ما يفعل بكم. قاله ابنُ المنبِّر في «الانتصاف»، واختصره المؤلفُ كعادته في أكثر نقوله، رحمه الله تعالى.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ١٨.

(٤) «الانتصاف» لابن المنبِّر (٢: ٣٥١-٣٥٢) بحاشية «الكشاف».

(٥) انظر: «ديوانه» ص ٢٦٥.

والضَّمير في ﴿لَهُ﴾ مردودٌ على ﴿مَنْ﴾، كأنه قيل: لِمَنْ أَسْرَ وَمَنْ جَهَرَ، وَمَنْ اسْتَخْفَى وَمَنْ سَرَبَ.

﴿مُعَقَّبَاتٌ﴾ جماعاتٌ من الملائكة تَعْتَقِبُ في حِفْظِهِ وَكَلَاءَتِهِ، والأصل: مُعْتَقِبَاتٌ، فأدغمتِ التاء في القاف، كقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة: ٩٠] بمعنى: المُعْتَذِرُونَ. ويجوزُ «مُعَقَّبَاتٌ» بكسر العين، ولم يُقرأ به. أو هو مُفْعَلَاتٌ؛ من: عَقَبَهُ: إذا جاء على عَقْبِهِ، كما يُقال: قَفَاهُ؛ لأنَّ بَعْضَهُمْ يُعَقِّبُ بَعْضًا، أو لأنَّهُمْ يُعَقِّبُونَ ما يَتَكَلَّمُ بِهِ فيكْتَبُونَهُ.

﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ هما صِفَتانِ جَمِيعًا، وليس ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بِصِلَةٍ لِلْحِفْظِ، كأنه قيل: له مُعَقَّبَاتٌ من أمر الله، أو يَحْفَظُونَهُ من أجل أمر الله؛ أي: من أجل أن الله أَمَرَهُمْ بِحِفْظِهِ. والدليلُ عليه قراءةُ عليٍّ رضي الله عنه وابنِ عباسٍ وزيدِ بنِ عليٍّ وجعفرِ بنِ مُحَمَّدٍ وعكرمة: «يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ». أو: يَحْفَظُونَهُ من بأسِ الله ونقْمَتِهِ إذا أذنبَ، بدُعائِهِمْ له ومَسْأَلَتِهِمْ رَبَّهُمْ أن يمهله رجاءً أن يتوبَ وَيُنِيبَ،

قوله: «وقائم سيفي في يدي بمكان»^(١): أي: أنا قابضُ قائمِ سَيْفِي قَبْضًا قَوِيًّا تَمَكَّنُ عَلَيْهِ يَدِي تَمَكَّنًا لَيْسَ بَعْدَهُ. يُظْهِرُ تَجَلُّدَهُ وشِجَاعَتَهُ، يقول: إن عاهدتني على أن لا تخونني كُنَّا مِثْلَ رَجُلَيْنِ مُتَصَاحِبَيْنِ، و«يَصْطَحِبَانِ»: صِلَةٌ «مَنْ»، و«يا ذَنْبُ»: نِدَاءٌ اعْتَرَضَ بَيْنَ الصِّلَةِ والمَوْصُولِ، وثْنِي «يَصْطَحِبَانِ» على معنى: مَنْ، لأنَّ مَعْنَاهُ التَّشْبِيهَ.

قوله: (هما صِفَتانِ جَمِيعًا)، يعني: قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، كأنه قيل: له مُعَقَّبَاتٌ كائنةٌ من أمرِ الله يَحْفَظُونَهُ مِنَ البَلَاءِ^(٢).

(١) من قوله: «تكشروا أي: أبدى أسنانه» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٢) قال العلامة ابنُ المنير في «الاتصاف» (٢: ٣٥٢): «وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ يَدْفَعُهُ عَنْهُ بِسَبَبِ دُعَائِهِمْ، ولولا هذا السبب لكان في علم الله أن التُّقْمَةَ تُحُلُّ عَلَيْهِ، لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ ما لا يكونُ لو كانَ كَيْفَ كانَ يكونُ، وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا».

كقوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. وقيل: المعقبات: الحرس والجلاوزة حول السلطان، يحفظونه في توهمه وتقديره.

﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾؛ أي: من قضاياه ونوازيله، أو على التهكم به.

وقرئ: «له معاقب» جمع معقب أو معقبة، والياء عوض من حذف إحدى القافين

في التفسير.

قوله: (كقوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ [الأنبياء: ٤٢])، أي: ما يحفظكم من بأس الرحمن أحد في الليل والنهار إلا أن يرحم عليكم، فيدفعه عنكم أو يشفع لكم شافع بإذنه، وهو المراد من قوله: «مسألتهم ربهم أن يمهلهم رجاء أن يتوبوا».

قوله: (الحرس والجلاوزة)، الجوهري: «الحرس: حرس السلطان، وهم الحراس، الواحد حرسى، لأنه قد صار اسم جنس، فينسب إليه، ولا تقل: حارس، إلا أن تذهب به إلى معنى الحراسة دون الجنس»، وقال: «الجلواز: الشرطي، والجمع: الجلاوزة»، وهم أعوان السلطان.

قوله: (أو على التهكم به)، عطف على قوله: «في توهمه وتقديره» من حيث المعنى، يعني: يتوهم الغافل المتأدي في غروره أن حرسه وجلاوزته يحفظونه من قضاء الله، كما يشاهد من بعض الملوك والسلاطين، وهذا على طريق الإخبار من الله عز وجل عن هذا الغافل، أو على سبيل التهكم، أي: يتهكم بمن ينصب الحرسى والشرطي، ويتكبر ويحجب الناس، بقوله: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾، أي: من قضاياه ونوازيله.

قوله: (وقرئ: «له معاقب»)، قال ابن جني: «قرأها عبيد الله بن زياد^(١)»، وقال: «مثلته:

(١) أمير العراق، عبيد الله بن زياد بن أبيه (٢٨-٦٧)، ولاه معاوية بن أبي سفيان على البصرة، وأقره عليها يزيد، وكانت الفاجعة بمقتل الحسين السبط رضي الله عنه في أيامه وعلى يده، قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في «سير أعلام النبلاء» (٣: ٥٤٥): «كان جميل الصورة، قبيح السريرة ... =

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمية ﴿حَتَّى يُفْعِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي، ﴿مِنْ وَآلٍ﴾ ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم.

[﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ * وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ ١٢-١٣]

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لا يصح أن يكونا مفعولاً لها؛ لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلن إلا على تقدير حذف المضاف؛ أي: إرادة خوف وطمع. أو: على معنى: إخافة وإطعاماً، ويجوز أن يكونا مُتَّصِبَيْنِ على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على: ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين. ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يُخاف عند لَمَعِ البرق، ويُطمع في الغيث، قال أبو الطيب:

مقاديم، تكسير مُقَدَّم^(١).

قوله: (مَنْ يَلِي أَمْرَهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ)، قال القاضي: «فيه دليل على أن خلاف مُرَادِ اللَّهِ مُحَالٌ»^(٢).

= وأبغضه المسلمون لِمَا فَعَلَ بالحسين رضي الله عنه، قَتَلَهُ إبراهيم بن الأشتر، وكان قد خرج في جيش يطلبُ نَارَ الحسين. كما في: «الأعلام» للزركلي (٤: ١٩٢-١٩٣).

ولم يكن ابن زياد من القراء، وإنما نُسِبَتْ إليه هذه القراءة لأنه قرأ بها على المنبر - كما نَصَّ عليه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣: ٣٠٦)، فنُقِلَتْ عنه.

وزاد السمين الحلبي في «الدرر المصون» (٧: ٢٨) نسبة هذه القراءة إلى أبي بن كعب وإبراهيم النخعي.

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٥٥).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ١٨٣).

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ

وقيل: يَخَافُ الْمَطْرَ مَنْ لَهُ فِيهِ ضَرَرٌ، كَالْمَسَافِرِ وَمَنْ لَهُ فِي جَرِينِهِ التَّمْرُ وَالزَّيْبُ، وَمَنْ لَهُ بَيْتٌ يَكْفُ، وَمَنْ الْبِلَادِ مَا لَا يَنْتَفِعُ أَهْلُهُ بِالْمَطْرِ كَأَهْلِ مِصْرَ، وَيَطْمَعُ فِيهِ مَنْ لَهُ فِيهِ نَفْعٌ وَيَحْيَا بِهِ.

﴿السَّحَابُ﴾ اسْمُ الْجِنْسِ، وَالْوَاحِدَةُ سَحَابَةٌ. وَ﴿الثَّقَالُ﴾ جَمْعُ ثَقِيلَةٍ؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: سَحَابَةٌ ثَقِيلَةٌ وَسَحَابٌ ثِقَالٌ، كَمَا تَقُولُ: امْرَأَةٌ كَرِيمَةٌ وَنِسَاءٌ كِرَامٌ، وَهِيَ الثَّقَالُ بِالْمَاءِ.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وَيُسَبِّحُ سَامِعُ الرَّعْدِ مِنَ الْعِبَادِ الرَّاجِينَ لِلْمَطْرِ حَامِدِينَ لَهُ، أَي: يَضْجُرُونَ بِ «سُبْحَانَ اللَّهِ» وَ«الْحَمْدُ لِلَّهِ». وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»، وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْ لَهُ. وَإِذَا اشْتَدَّ الرَّعْدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ».....

قوله: (فتى كالسحاب) البيت (١)، قال الواحدي (٢): «الجون: الأسود هاهنا، ورواه ابن جني بضم الجيم، ولذلك قال: الجون: بضم الجيم، لأنه جمع. المعنى: أنه مرجو مهيب يرجو نفعه ويهاب ضرره، كالسحاب؛ يرجو مطره وتخشى صواعقه ورعده ويرقه» (٣). قوله: (في جرينه)، الجوهرية: «الجرن والجرين: موضع التمر الذي يجفف». وقال (٤): «وكف البيت وكفاً ووكيفاً وتوكافاً؛ أي: قطر، وأوكف البيت: لغة فيه».

قوله: (اللهم لا تقتلنا بغضبك) الحديث، رواه الترمذي (٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) «ديوان المتنبي» (١: ٢٠٤) بشرح الواحدي.

(٢) في (ط): «السجاوندي»، وهو خطأ.

(٣) «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (١: ٢٠٤).

(٤) أي: الجوهرية أيضاً.

(٥) في «جامعه» برقم (٣٤٥٠).

ولا تُهْلِكُنَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقٌ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ»، وَعَنِ الْحَسَنِ: خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لَيْسَ بِمَلَكٍ. وَمَنْ يَدْعُ الْمُتَصَوِّفَةَ: الرَّعْدُ صَعَقَاتُ الْمَلَائِكَةِ، وَالْبَرْقُ زَفْرَاتُ أُنْفُدَتِهِمْ، وَالْمَطَرُ بُكَاءُهُمْ. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ وَيُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ هَيْبَتِهِ وَإِجْلَالِهِ.

ذَكَرَ عِلْمَهُ النَّافِذَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَاسْتَوَاءَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ عِنْدَهُ، وَمَا دَلَّ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُمْ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنْكَرُوا آيَاتِهِ ﴿يَجْعَلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حَيْثُ يُنْكِرُونَ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَصِفُهُ بِهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَإِعَادَةِ الْخَلَائِقِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ يُعْجِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] وَيُرْدُونَ الْوَحْدَانِيَّةَ بِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ، وَيَجْعَلُونَهُ بَعْضَ الْأَجْسَامِ الْمُتَوَالِدَةِ بِقَوْلِهِمْ: «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ»، فَهَذَا جِدَاهُمْ بِالْبَاطِلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] وَقِيلَ: الْوَاوُ لِلْحَالِ؛

قوله: (أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرَّعْدِ) الحديث، رواه أحمد بن حنبلٍ والترمذي^(١) عن ابن عباس.

النهاية: «المخاريق: جمع مخراق، وهو - في الأصل - ثوبٌ يُلَفُّ وَيَضْرَبُ بِهِ الصَّبِيانُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهِيَ آلَةٌ تَزْجُرُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ السَّحَابَ وَتَسَوِّقُهُ».

قوله: (وقيل: الواو للحال)، أي: في قوله: ﴿وَهُمْ يَجْعَلُونَ فِي اللَّهِ﴾، وهو معطوفٌ على قوله: «ذَكَرَ عِلْمَهُ النَّافِذَ فِي كُلِّ شَيْءٍ» إِلَى قَوْلِهِ: «ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُمْ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ كَفَرُوا»، فعلى هذا: ﴿وَهُمْ يَجْعَلُونَ﴾ جُمْلَةٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ إِذَا كَانَ اسْتِثْنَاءً كَمَا سَبَقَ، أَي: أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ الشَّامِلِ وَقُدْرَتِهِ

(١) أحمد في «مسنده» (٢٤٨٣)، والترمذي في «جامعه» (٣١١٧).

أي: فيُصِيبُ بها من يشاءُ في حالِ جداهم، وذلك: أنْ أزيدَ أخا لبيدِ بنِ ربيعةَ العامريِّ قال لرسولِ الله ﷺ - حينَ وفَدَ عليه معَ عامرِ بنِ الطفيلِ قاصِدَينِ لقتله، فرمى اللهُ عامراً بَعْدَةَ كَعْدَةَ البعيرِ، وموتَ في بيتِ سَلُولِيَّةَ، وأرسلَ على أزيدَ صاعِقَةً فقتلته -: أخبرنا عن ربنا، أمِنَ نحاسٍ هو أم من حديد؟

الكامِلةِ بقوله: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ إلى قوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾، ثم أخبرَ عن استيواءِ الظاهرِ والخبفيِّ عنده بقوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾، ثم أخبرَ عما دَلَّ على قدرتهِ الباهرةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾، ثم أخبرَ عن وُحْدَانِيَّتِهِ بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وقوله: ﴿وَيَسْخِجُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ﴾، ثم قال: إنهم معَ ذلك ﴿يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾، أي: في شأنِ الله من عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ؛ حيثُ يُنْكِرُونَ على رسوله ما يَصِفُهُ به من القُدرةِ على البَعْثِ بقولهم: من يُحْيِي العِظَامَ وهي رَمِيمٌ، وَيُرْدُونَ الوَحْدَانِيَّةَ بِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ، ويجعلونه بعضَ الأجسامِ بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله. هذا على تقريرِ المُصنِّفِ.

والأنسبُ لتأليفِ النَّظْمِ: أن يكونَ هذا تَسْلِيَةً لِحَبِيْبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، فإنه تعالى لما نعى على كُفَّارِ قُرَيْشٍ عِنَادَهُمْ في اقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ نَحْوَ آيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وإنكارهم الذي جاء به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ (١) آيَاتٍ، سَلَاهُ، بِمَعْنَى: هَوَّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّكَ لَسْتَ مُخْتَصَّماً بِهِ، فإنهم معَ ظُهُورِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ودلائلِ التوحيدِ يُجَادِلُونَ في الله بِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ وإثباتِ الأولادِ، ومعَ شُمُولِ عِلْمِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ يُنْكِرُونَ الحِشْرَ والنَّشْرَ، ومعَ قَهْرِ سُلْطَانِهِ وشديدِ سَطْوَاتِهِ يُقَدِّمُونَ على المَكَابِرَةِ والعِنَادِ، فلا تَذَهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ.

وقد أسلفنا في الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْغِيْنَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] تقريرَ هذه الطريقة، فإنها من الأساليب الغريبة، ولا يكادُ يُوجَدُ مثُلُها في غير التنزيلِ.

قوله: (بَعْدَةَ كَعْدَةَ البعيرِ)، النهاية: «العُدَّة: الطاعونُ للإبلِ، وَقَلَّمَا تَسَلَّمُ مِنْهُ، يُقَالُ:

(١) من قوله: «فإنه تعالى» إلى هنا، سقط من (ح).

أَعَدَّ البَعِيرُ فهو مُعَدٌّ، ومنه حديثُ عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ^(١): «عُدَّةٌ كَعُدَّةِ البَعِيرِ، وموتٌ في بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ»^(٢).

قالَ الميداني^(٣): «ويروى: «أَعُدَّةٌ ومَوْتَا»، أي: أَوْعَدُ إِغْدَادًا وأموتُ مَوْتًا؟ يُقال: أَعَدَّ البَعِيرُ: إذا صارَ ذا عُدَّة، وهي طاعونُه. ومنهم من روى بالرفع، أي: عُدَّتِي كَعُدَّةِ البَعِيرِ، ومَوْتِي مَوْتٌ في بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ، وسَلُولٌ عندهم أَقْلُ العَرَبِ وأذْهُم، قال^(٤):

إلى الله أشكو أنني بِتُّ طاهراً فجاءَ سَلُولِيٌّ فبالَ على رجلي
فَقُلت: اقطعوها بارَكَ اللهُ فيكُمْ فلاني كريمٌ غيرٌ مُدخِلها رَحلي^(٥).

روى مُحمي السُّنَّةِ عن عبدِ الرحمنِ بنِ زيدٍ: «تَرَكْتُ هذه الآيةَ في عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ والوليدِ ابنِ ربيعة، وكانت قِصَّتُهما على ما روى الكَلْبِيُّ عن أبي صالح^(٦) عن ابنِ عَبَّاسٍ قال: أقبَلَ

(١) وهو عامرُ بنُ الطُّفَيْلِ العامريِّ، ولم يَختلف أهلُ النُّقلِ من المُتقدِّمين أنه مات كافراً، كما قالَ ابنُ الأثيرِ في «أسد الغابة» (٣: ٢٣)، وعلى هذا فإضافةُ «الحديث» إليه بمعنى أنه في قِصَّتِهِ وشأنِهِ لا أنه راويه.

(٢) سيأتي المُؤَلَّفُ رحمه الله تعالى قريباً بروايته كاملةً نقلاً عن البغوي.

(٣) في «مجمع الأمثال» (٢: ٥٧).

(٤) البيتان ذكرهما أبو هلال العسكريُّ في «جمهرة الأمثال» (١: ١٠٣)، وفي «ديوان المعاني» (١: ١٨٤)، ولم يُسَمَّ قائلُهما.

(٥) البيت الثاني سقط من (ف).

(٦) هو المُفسِّرُ الإخباريُّ النَّسَّابة أبو النضر محمدُ بنُ السائبِ بنِ بشرِ الكَلْبِيِّ الكوفيِّ، متروكُ الحديثِ، توفي سنة ١٤٦ هـ وأتتْهم بالكذب، كما في «سير أعلام النبلاء» (٦: ٢٤٨-٢٤٩)، و«تهذيب التهذيب» (٩: ١٧٨-١٨١).

وشيخُه أبو صالح: هو باذام مَوْلَى أُمِّ هانئِ بنتِ أبي طالب، وهو ضعيفُ الحديثِ.

لكنْ لهذه القِصَّةِ أصلٌ في «الصحيح» من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه، وسيأتي عندَ المُؤَلَّفِ رحمه الله تعالى قريباً.

عامرٌ وأربدٌ - وهما عامريّان - يُريدان رسولَ الله ﷺ، وهو جالسٌ في المجلسِ ونَقَرٌ من أصحابه، فدخلَا المسجدَ، فاستشرفَ الناسَ بِجَمَالِ عامرٍ، وكانَ أعورَ، وكانَ من أَجْمَلِ الناسِ، فقالَ رجلٌ: يا رسولَ الله، هذا عامرُ بنُ الطُّفَيْلِ قد أقبلَ نَحْوَكَ. فقالَ: «دَعُهُ، فَإِن يُرِدِ اللهُ به خيراً يَهْدِهِ».

فأقبلَ حتى قامَ عليه، فقالَ: يا مُحَمَّدُ، ما لي إن أسلَمْتُ؟ قالَ: لك ما للمُسلمينَ، وعليكَ ما على المُسلمينَ، قالَ: تجعلُ لي الأمرَ بعدَكَ؟ قالَ: ليسَ ذلكَ إليّ، وإنما ذلكَ إلى الله عزَّ وجلَّ يجعلُهُ حيثُ يشاء. قالَ: فتجعلُنِي على الوَبَرِ، وأنتَ على المَدْرِ^(١)؟ قالَ: لا. قالَ: فما تجعلُ لي؟ قالَ: أجعلُكَ على أَعْتَةِ الخيلِ^(٢) تغزوا عليها. قالَ: أوليسَ ذلكَ لي اليوم؟! قُمْ مَعِيَ أَكَلِّمُكَ.

فقامَ مَعَهُ رسولُ الله ﷺ، وكانَ أوصى إلى أربدَ: إذا رأيتني أَكَلَّمُهُ فُدِّرْ من خَلْفِهِ فاضربَهُ بالسَّيفِ، فجعلَ مُحَاصِمُ رسولَ الله ﷺ، فدارَ أربدُ خَلْفَ النبي ﷺ ليضربَهُ، فاخترَطَ من سَيْفِهِ شِبْرًا^(٣)، ثم حَبَسَهُ اللهُ عَنْهُ، فلم يَقْدِرْ على سَلِّهِ، وجعلَ عامرٌ يُومئُ إليه، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ، فرأى أربدَ وما صَنَعَ بسيفه، فقالَ: اللهمَّ اكفنيهما بما شئت. فأرسلَ اللهُ تعالى إلى أربدَ صاعقةً في يومِ صَحْوِ^(٤) فائظ، فأحرقتَه، وولَّى عامرٌ هارِباً،

(١) المرادُ بـ«الوَبَرِ»: البوادي، وهو من وَبَرَ الإبل، لأنَّ بُيوتَهُم يَتَّخِذُونَهَا مِنْهُ، والمرادُ بـ«المَدْرَ»: القُرْبَى والأمصار، واحدها: مَدْرَةٌ. «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤: ٣٠٩) و(٥: ١٤٥)، مادة (وبر) و(مدر).

(٢) جمعُ عِنانٍ، وهو لِحْجَامُ الفَرَسِ، والمرادُ: أجعلُكَ أميراً على بعضِ السَّرايا، وقائداً لبعضِ الجيوش.

(٣) أي: سَلَّ سَيْفَهُ من غَمْدِهِ مقدارَ شِبْرٍ. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢: ٢٣)، مادة (خرط).

(٤) في (ف): «يومَ حَرِّ»، والمُبْتَدَأُ من (ح) و(ط).

قال أبو حاتم السُّجِسْتَانِي: «والعامَةُ تظنُّ أَنَّ الصَّخْوَ لا يكونُ إلا ذهابَ الغَيمِ، وليسَ كذلكَ، وإنما الصَّخْوُ تَفَرُّقُ الغَيمِ معَ ذهابِ البَرْدِ». «المصباح المنير» للفَيْومِي، مادة (صحو).

وقال: يا مُحَمَّد، دَعَوْتَ رَبِّكَ فَقَتَلَ أَرَبَدَ، والله لأَمْلَأَنَّهَا حَيْلًا جُرْدًا وَفَتِيانًا مُرْدًا، فقال النبي ﷺ: يَمْنَعُكَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَبْنَاءُ قَيْلَةَ - يُرِيدُ: الأَوْسَ وَالخَزْرَجَ - وَنَزَلَ عَامِرٌ بَيْتِ امْرَأَةٍ سَلُولِيَّةٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ضَمَّ عَلَيْهِ سِلَاحَهُ، وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، فَجَعَلَ يَرْكُضُ فِي الصَّخْرَاءِ، وَيَقُولُ: اِبْرَزْ يَا مَلَكُ المَوْتِ، وَيَقُولُ الشُّعْرُ، وَيَقُولُ: واللَّاتِ لَيْسُنْ أَبْصَرْتُ مُحَمَّدًا^(١) وَصَاحِبَهُ - يَعْنِي: مَلَكَ المَوْتِ - لِأَنْفَذْتَهُمَا بَرُحْمِي، فَأَرْسَلَ اللهُ مَلَكًا فَلَطَمَهُ بِجَنَاحِيهِ، فَأَرْدَاهُ^(٢) فِي التَّرَابِ، وَخَرَجَتْ فِي رُكْبَتَيْهِ فِي الوَقْتِ غُدَّةٌ عَظِيمَةٌ، فَعَادَ إِلَى بَيْتِ السَّلُولِيَّةِ، وَهُوَ يَقُولُ: غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِيرِ، وَمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. ثُمَّ دَعَا بَقْرَسِيَهُ فَرَكِبَهُ، ثُمَّ أَجْرَاهُ، حَتَّى مَاتَ عَلَى ظَهْرِهِ^(٣).

قَالَ المِيدَانِيُّ بَعْدَمَا أتَى عَلَى القِصَّةِ بِتَمَامِهَا: «يُضْرَبُ فِي خَصَلَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا شَرٌّ مِنَ الأُخْرَى»^(٤).

وَأَمَّا مَا رَوَيْنَاهُ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»^(٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَهُوَ: «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ خَالَهُ فِي سَبْعِينَ رَاكِبًا، وَكَانَ رَئِيسُ المُشْرِكِينَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ حَايِرَ بَيْنَ ثَلَاثِ نِخْصَالٍ، فَقَالَ: يَكُونُ لَكَ أَهْلُ السَّهْلِ وَلي أَهْلُ المَدْرِ، أَوْ أَكُونُ خَلِيفَتَكَ، أَوْ أَغْزُوكَ بِأَهْلِ غَطْفَانَ بِأَلْفِ أَلْفٍ، وَطَعَنَ عَامِرٌ فِي بَيْتِ أُمِّ فُلَانٍ، فَقَالَ: غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَكْرِ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ آلِ فُلَانٍ، ائْتُونِي بِقَرَسِيٍّ، فَمَاتَ عَلَى ظَهْرِهِ».

(١) فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةُ: «لَمَّا أَصْحَرَ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَلَمْ أَرَ الفِعْلَ «أَصْحَرَ» مُتَعَدِّيًا بِ«إِلَى» فِيمَا رَجَعْتُ إِلَيْهِ مِنْ مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، وَإِنَّمَا فِيهَا: «أَصْحَرَ الرَّجُلُ: نَزَلَ الصَّخْرَاءَ، وَأَصْحَرَ القَوْمَ: إِذَا بَرَزُوا إِلَى فِضَاءٍ لَا يُؤَارِهِمْ شَيْءٌ»، كَمَا فِي «لِسَانِ العَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (صَحْر)، وَالمُتَّبَعُ مِنْ «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ.

(٢) فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةُ: «فَأَدْرَاهُ»، وَالمُتَّبَعُ مِنْ «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ.

(٣) «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ (٤: ٣٠١-٣٠٢).

(٤) «مَجْمَعُ الأَمْثَالِ» لِلْمِيدَانِيِّ (٣: ٥٨).

(٥) بِرَقْمِ (٤٠٩١).

﴿الْمَحَالِ﴾ المأخلة، وهي شدة المماكرة والمكايدة، ومنه: تَمَحَّلَ لكذا: إذا تكلَّفَ استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحلّ بفلان: إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه الحديث: «ولا تجعله علينا ماحلاً مُصدّقاً»، وقال الأعشى:

فَرَعُ نَبْعِ يَهَشُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ غَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ

والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون.

قوله: (ولا تجعله علينا ماحلاً مُصدّقاً)، قيل: تمامه: «واجعله لنا شافعاً مُشفّعاً»^(١)، والضمير للقرآن.

النهاية: «ومن حديث ابن مسعود: «القرآن شافعٌ مُشفّع، وماحلُّ مُصدّق»^(٢)، أي: خصمٌ مجادلٌ مُصدّق، وقيل: ساعٌ مُصدّق؛ من قولهم: محلّ بفلان: إذا سعى به إلى السلطان، يعني: أن من أتبعه وعمل بما فيه، فإنه شافعٌ له مقبول الشفاعة ومُصدّق عليه فيما يرفع من مساوئه إذا ترك العمل [به]، ومنه حديث الدعاء: «ولا تجعله ماحلاً مُصدّقاً».

قوله: (فَرَعُ نَبْعِ) البيت^(٣)، فَرَعُ كُلِّ شَيْءٍ: أعلاه، يُقال: هو فَرَعُ قَوْمِهِ: للشريف منهم،

(١) استعزبه بهذا اللفظ الحافظ الزيلعي في «تخریج أحاديث الكشاف» (٢: ١٨٧) - وهي عبارته فيما لم يقف عليه؛ أن يقول فيه: غريب -، ثم خرّجه من حديث جابر وأنس ومَعْقِل بن يسار وابن مسعود رضي الله عنهم بلفظ: «القرآن شافعٌ مُشفّع، وماحلُّ مُصدّق».

وأصحها حديث جابر، وقد أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٨٥٥).

(٢) حديث ابن مسعود: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٤٥٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤: ١٠٨)، وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ١٦٤): «فيه الربيع بن بَدْر، وهو متروك».

وأخرجه عبد الرزاق في «مُصنّفه» (٦٠١٠) - ومن طريقه الطبراني (٨٦٥٥) - وابن أبي شيبة في «مُصنّفه» (٣٠٦٧٧)، عن ابن مسعود موقوفاً. وإسنادُ عبد الرزاق صحيح.

(٣) انظر: «ديوان الأعشى» ص ١٦٦.

وقرأ الأعرجُ بفتح الميم، على أنه مَفْعَلٌ، من: حَالٌ يَحْوُلُ مُحَالاً: إذا احتَالَ. ومنه: أَحْوَلٌ من ذنب، أي: أشدُّ حَيْلَةً.

ويجوزُ أن يكونَ المعنى: شديدُ الفقارِ، ويكونَ مثلاً في القُوَّةِ والقُدرة، كما جاء: فساعِدُ الله أشدُّ، وموساهُ أحدٌ؛ لأنَّ الحيوانَ إذا اشتدَّ مُحَالُهُ، كانَ مَنعوتاً بشدَّةِ القُوَّةِ والاضطلاعِ بها يَعِجْزُ عنه غيرُهُ.

والفَرْعُ أيضاً: القَوْسُ التي عُمِلَتْ من طَرَفِ القَضيبِ، يقال: قَوْسٌ فَرَعٌ؛ أي: غيرُ مشقوق، وهاهنا بمعنى الثاني، إلا أنه مجازٌ عن الكريم.

و«النَّبَعُ»: شَجَرٌ تُنْحَدُ منه القِسِيَّةُ^(١)، «المشاشة»: الارتياحُ والحِفَّةُ للمعروف، «عَزِيرُ النَّدى»: كثيرُ العطاء، «شديدُ المحال»: شديدُ الكَيْدِ، وقيل: شديدُ العُقوبةِ والمكر. يقول: الممدوحُ في الصَّلَاةِ فَرَعُ النَّبَعِ له نَضَارَةٌ في غُضَنِ المَجْدِ، كثيرُ النَّدى شديدُ النَّكَاةِ على الأعداء.

قوله: (ومنه: «أحوَلٌ من ذنب»)، قالَ السَّمِيدَانِي: «هذا من الحيلة، يُقال (٢): تحوَلَ الرجل؛ إذا طَلَبَ الحيلة»^(٣).

قوله: (شديدُ الفقار)، الأساس: «فَرَسٌ قَوِيُّ المِحَالِ، وهو الفقار، الواحدة: مَحَالَةٌ، والميمُ أصلية».

قوله: (فساعِدُ الله أشدُّ)، النهاية: «وفي حديثِ البَحيرة: «ساعِدُ الله أشدُّ، وموساهُ أحدٌ»؛

(١) جمع قَوْسٍ، وقيل في جمعها أيضاً: أفوس، وأقواس، وأقياس، وقياس، وقنبي، وقنبي، وقنبي، وقنبي، وهما مقلوبان عن قُوسٍ، وإن كانَ «قُوسٌ» لم يُسْتَعْمَلْ؛ اسْتَعْنَوْا بـ«قنبي» عنه. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (قوس).

(٢) في (ح): «يقول»، والمثبت من (ط) و«مجمع الأمثال» للميداني، والفقرة كُلُّها سقطت من (ف)، كما سيأتي التنبيهُ إليه.

(٣) «مجمع الأمثال» للميداني (١: ٢٢٨).

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: فَقَرَّتُهُ الْفَوَاقِرُ؟ وَذَلِكَ أَنَّ الْفَقَارَ عَمُودُ الظَّهْرِ وَقِوَامُهُ.

[لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٤﴾]

﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن تُضَافَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْبَاطِلِ، كَمَا تُضَافُ الْكَلِمَةُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِكَ: كَلِمَةُ الْحَقِّ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ مُلَابَسَةٌ لِلْحَقِّ مُخْتَصَّةٌ بِهِ، وَأَنَّهَا بِمَعْرَلٍ مِنَ الْبَاطِلِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يُدْعَى فَيَسْتَجِيبُ الدَّعْوَةَ وَيُعْطِي الدَّاعِيَ سُؤَالَهُ إِنْ كَانَ مُصْلِحَةً لَهُ، فَكَانَتْ دَعْوَةُ مُلَابَسَةً لِلْحَقِّ،

أي: لو أراد الله عزَّ وجلَّ تحريمها بشقِّ آذانها لَحَلَّقَهَا كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَقُولُ لَهَا: كُنْ، فَتَكُونُ. قَوْلُهُ: (فَقَرَّتُهُ الْفَوَاقِرُ)، الْجَوْهَرِيُّ: «أَيُّ: كَسَّرَتْ فَقَارَ ظَهْرِهِ، الْفَاقِرَةُ: الدَّاهِيَةُ»، هَذَا مِثَالُ التَّوْهِينِ الْقَوِيِّ لِانْهِضَامِ فَقَارِ الظَّهْرِ^(١).

قَوْلُهُ: (فَكَانَتْ دَعْوَةُ مُلَابَسَةً لِلْحَقِّ)، الْفَاءُ نَتِيجَةٌ^(٢) لِقَوْلِهِ: «الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُدْعَى فَيَسْتَجِيبُ»، وَاللَّامُ فِي «لِكَوْنِهِ» تَعْلِيلٌ لِإِبْرَاتِ أَنَّ الدَّعْوَةَ لِلَّهِ مُلَابَسَةٌ لِلْحَقِّ، وَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: اللَّهُ الدَّعْوَةُ الثَّابِتَةُ غَيْرُ الزَّائِلَةِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَتِ الدَّعْوَةُ مُلَابَسَةً لِلْحَقِّ الْبَتَّةَ، لِكَوْنِهِ تَعَالَى حَقِيقًا بِأَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ الدُّعَاءُ، لِمَا فِي دَعْوَتِهِ مِنَ النِّفْعِ، بِخِلَافِ أَلْهَتِهِمُ الَّتِي لَا نَفْعَ وَلَا جَدْوَى فِي دُعَائِهَا، يُؤَيِّدُهُ مَا بَعْدَهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾.

قَالَ صَاحِبُ «الْإِنْتِصَافِ»: «قَوْلُهُ: «فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ إِذَا كَانَ مُصْلِحَةً، أَوْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ الْحَقِيقُ أَنْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ الدُّعَاءُ، بِخِلَافِ الْأَوْثَانِ»، فَيَدَّ اسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ بِرِعَايَةِ الْمَصْلِحَةِ، وَلَا يَتَّقِيْدُ بِذَلِكَ، وَلَا يَجِبُ رِعَايَةُ الْمَصَالِحِ عَلَى مَا سَبَقَ»^(٣).

(١) من قوله: «قوله: (ومنه: أحول من ذئب)» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) في (ف): «فصيحة»، والمثبت من (ح) و(ط).

(٣) انظر: «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٥٤) بحاشية «الكشاف»، ولفظه يختلف عن المذكور هنا.

لكونه حقيقاً بأن يُوجَّه إليه الدُّعاء، لِما في دَعْوَتِهِ من الجَدْوَى والنَّفْع، بخلاف ما لا يَنْفَعُ ولا يُجِدِّي دَعَاؤُهُ.

والثاني: أن تُضَافَ إلى الحَقِّ الذي هو اللهُ عزَّ وعلَا، على معنى: دعوة المَدْعُوِّ الحَقِّ الذي يَسْمَعُ فيُجِيبُ. وعن الحسن: الحَقُّ هو اللهُ، وكلُّ دعاءٍ إليه دعوة الحَقِّ. فإن قلت: ما وَجَّهَ اتِّصَالَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ بما قبله؟ قلتُ: أمَّا على قِصَّةِ أُرَيْدَ فظَاهِرٌ؛ لأنَّ إصابته بالصَّاعِقَةِ مِحَالٌ من الله ومَكْرَبُهُ من حيثُ لم يَشْعُرْ. وقد دعا رسولُ اللهِ ﷺ عليه وعلى صاحبه بقوله: «اللهمَّ اخسِفْهُمَا بما شِئتَ»، فأجِيبَ فيهما، فكانتِ الدَّعوةُ دعوةً حَقًّا. وأمَّا على الأوَّلِ فوعيدٌ للكُفْرَةِ على مُجادلتِهِم رسولَ اللهِ بِحُلُولِ مِحَالِهِ بِهِم، وإجابةُ دَعْوَةِ رسولِ اللهِ ﷺ إن دعا عليهم فيهم.

قوله: (أن تُضَافَ إلى الحَقِّ الذي هو اللهُ تعالى)، هذا مُشْكِلٌ لِما يُؤدِّي إلى أن يُقال: لله دَعْوَةٌ اللهُ، ويُمكنُ أن يُقال: معناه: والله الدَّعوةُ التي تَلِيقُ أن تُنسَبَ وتُضَافَ إلى حَضْرَتِهِ، لكونِهِ سَمِيعاً بَصِيراً كَرِيباً لا يُحِيبُ سائِلَهُ، فيُجِيبُ الدَّعاء.

والحاصل: أنَّ قوله: ﴿الْمَلْعَى﴾ وَضَفَّ جُعِلَ عِلَّةً لاسْتِجَابَةِ الدَّعاء، فإن جُعِلَ بِمعنى الحَقِّ الذي هو خِلافُ الباطِلِ، فيجبُ أن يُفَسَّرَ بالمَصْلَحَةِ، لِتَرْتَبِ عَلَيْهَا الإجابة، وإن جُعِلَ وَضَفّاً لله تعالى فيجبُ أن يَبْتُتَ له وَضَفٌّ يَصْلُحُ لِتَرْتَبِ الإجابة، وهو أن يُقال: إنه «الْمَدْعُوُّ الحَقُّ الذي يَسْمَعُ فيُجِيبُ».

قوله: (اتِّصَالَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ)، أي: قوله: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ و﴿لَهُ دَعْوَةٌ لَمْعَى﴾ هما جُمْلَتانِ خَبَرَتانِ سَمَّاهما وَضَفَيْنِ لِما قبله، وهو قوله: ﴿وَهُمَّ يُجَدِّلُونَ﴾، وهو إذا كانَ حالاً، والمُرَادُ بِذِي الحَالِ: أُرَيْدُ وصاحِبُهُ؛ فظَاهِرٌ، لأنَّ أَثَرَ شِدَّةِ بأسِ اللهِ واقِع، والدَّعاءُ قد اسْتَجِيبَ فيهم، وإذا كانَ عطفاً على قوله: ﴿اللَّهُ يَمْلِكُ﴾ كما سَبَقَ - وهو الوجهُ الأوَّلُ في تفسيره - فلم يَحْضُرْ من مُقْتَضَى الوَصْفَيْنِ شيءٌ، ومن ثَمَّ قال: «فوعيدٌ للكُفْرَةِ على مُجادلتِهِم».

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ وَالْآلِهَةَ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ الْكُفَّارُ ﴿مِنْ﴾ دُونَ اللَّهِ ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ مِنْ طَلَبَاتِهِمْ ﴿إِلَّا كَبَسَاطَ كَيْفِهِ﴾ إِلَّا اسْتِجَابَةً كَاسْتِجَابَةِ بَاسِطِ كَيْفِهِ؛ أَي: كَاسْتِجَابَةِ الْمَاءِ مَنْ بَسَطَ كَيْفِهِ إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَبْلُغَ فَاهُ، وَالْمَاءُ جَمَادٌ لَا يَشْعُرُ بِبَسَاطِ كَيْفِهِ وَلَا بَعْطَشِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُجِيبَ دَعَاءَهُ وَيَبْلُغَ فَاهُ، وَكَذَلِكَ مَا يَدْعُوهُ جَمَادٌ لَا يَحْسُ بِدُعَائِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ إِجَابَتَهُمْ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعِهِمْ. وَقِيلَ: شَبَّهُوا فِي قِلَّةِ جَدْوَى دُعَائِهِمْ لِأَهْتِهِمْ بِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ الْمَاءَ بِيَدَيْهِ لِيَشْرَبَهُ،

قوله: (إِلَّا اسْتِجَابَةً كَاسْتِجَابَةٍ)، الإِجَابَةُ وَالِاسْتِجَابَةُ بِمَعْنَى، قَالَ:

وَدَاعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ^(١)

قوله: (كَاسْتِجَابَةِ الْمَاءِ)، مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْفَاعِلِ، وَ«مَنْ»^(٢) مَفْعُولُهُ^(٣).

قوله: (وَقِيلَ: شَبَّهُوا فِي قِلَّةِ جَدْوَى)، عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «أَي: كَاسْتِجَابَةِ الْمَاءِ مَنْ بَسَطَ كَيْفَهُ».

وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ: مِنَ التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ؛ شَبَّهَ حَالَةَ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ الْأَصْنَامِ دُعَاءَهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَفُوزُوا مِنْ دُعَائِهِمْ الْأَصْنَامَ بِالْإِجَابَةِ وَالتَّنْفَعِ بِحَالَةِ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ الْمَاءِ لِمَنْ بَسَطَ كَيْفَهُ إِلَيْهِ يَطْلُبُ أَنْ يَبْلُغَ فَاهُ، وَالْوَجْهُ عَدَمُ اسْتِطَاعَةِ^(٤) إِجَابَةِ الدُّعَاءِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ إِصْصَالِ النِّفْعِ، وَهُوَ - كَمَا يُرَى - مُتَنَزِّعٌ مِنْ عِدَّةِ أُمُورٍ.

رَوَى مُحْسِي السُّنَّةِ عَنْ عَلِيٍّ وَعَطَاءٍ: «كَالْعَطْشَانَ الْجَالِسِ عَلَى شَفَةِ الْبَيْتِ، يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى

(١) الْبَيْتُ لِكَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَنْزِيِّ؛ يَرْتِي أَخَاهُ أَبَا الْغَوَارِ، كَمَا فِي «الْأَصْمَعِيَّاتِ» ص ٩٦، وَ«لِسَانَ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (جُوب).

(٢) يُرِيدُ: «مَنْ» الَّتِي فِي قَوْلِ الزَّمخَشَرِيِّ: «كَاسْتِجَابَةِ الْمَاءِ مَنْ بَسَطَ كَيْفَهُ إِلَيْهِ...».

(٣) مِنْ قَوْلِهِ: «قَوْلُهُ: (إِلَّا اسْتِجَابَةً كَاسْتِجَابَةٍ)» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف).

(٤) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «اسْتِطَاعَةِ».

فَبَسَطَهَا نَاشِرًا أَصَابِعَهُ، فَلَمْ تَلِقْ كَفَاهُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَمْ يَبْلُغْ طَلِبَتَهُ مِنْ شَرْبِهِ.

وَقُرِي: «تدعون» بالتاء، «كباسط كفيه» بالتنوين. ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ إِلَّا فِي ضَيَاعٍ لَا مَنفَعَةَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ دَعَوْا اللَّهَ لَمْ يُجِبْهُمْ، وَإِنْ دَعَوْا الْآلِهَةَ لَمْ تَسْتَطِعْ إِجَابَتَهُمْ.

[﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدْوَةِ وَالْأَصَالِ﴾ ١٥]

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أَي: يَتَقَادُونَ لِإِحْدَاثِ مَا أَرَادَهُ فِيهِمْ مِنْ أَعْيَالِهِ، شَاؤُوا أَوْ أَبْوَأَ، لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَمْتَنِعُوا عَلَيْهِ،

البر، وَلَا يَبْلُغُ قَعْرَ الْبِئْرِ، وَلَا يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ، فَلَا يَنْفَعُهُ بَسْطُ الْكَفِّ إِلَى الْمَاءِ وَدُعَاؤُهُ^(١).

والثاني: من التشبيه المركب العقلي، شَبَّهُوا فِي عَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ بِدُعَاءِ آهْلَتِهِمْ بِشَخْصِ يَرُومٍ مِنَ الْمَاءِ الشُّرْبِ، وَيَفْعَلُ مَا لَا يَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ، وَالْوَجْهُ قَلَّةُ جَدْوَى تَوْخِي الْمَطْلُوبِ.

قَالَ مُحْيِي السُّنَّةِ: «المعنى: كَبَّاسِطُ كَفِّهِ لِيَقْبِضَ عَلَى الْمَاءِ لَا يَكُونُ فِي يَدِهِ شَيْءٌ، وَلَا يَبْلُغُ إِلَى فِيهِ مِنْهُ شَيْءٌ، كَذَلِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْأَصْنَامَ، لَا يَنْفَعُهُمْ دُعَاؤُهَا، وَهِيَ لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ»^(٢).

قوله: (فَلَمْ تَلِقْ كَفَاهُ)، «تلق» من: لاق؛ أَي: أَمَسَكَ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: لَاقَتْ الدَّوَاةُ تَلِيقًا؛ أَي: لَصِقَتْ، وَلَقَّتْهَا - يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى - فَهِيَ مَلِيقَةٌ: إِذَا أَصْلَحَتْ مِدَادَهَا، وَأَلْقَتْهَا إِلَاقَةً: لُغَةٌ فِيهِ قَلِيلَةٌ، وَفُلَانٌ لَا يَلِيقُ دِرْهَمًا مَوْجُودَةً؛ أَي: مَا يُمْسِكُهُ، فَلَا يَلِصِقُ بِهِ.

قوله: (﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أَي: يَتَقَادُونَ)، جَعَلَ ﴿يَسْجُدُ﴾ مَجَازًا عَنِ الْإِنْقِيَادِ؛ لِتَنَزُّعِ مِنْهُ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكِ، فَيَصِحُّ إِطْلَاقُهُ عَلَى الْعُقَلَاءِ السَّاجِدِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَعَلَى ظِلَالِهِمْ أَيْضًا.

قال القاضي: «يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الشُّجُودُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ

(١) «معالم التنزيل» للبخاري (٤: ٣٦٠).

(٢) المصدر السابق (٤: ٣٠٦).

وَتَنقَادُ لَهُ ظِلَالُهُمْ أَيْضاً حَيْثُ تَتَصَرَّفُ عَلَى مَشِيئَتِهِ فِي الْإِمْتِدَادِ وَالتَّقْلُصِ، وَالْفِيءِ وَالزَّوَالِ،
وَقُرِيءُ: «بِالْعُدُوِّ وَالْإِيصَالِ»، مِنْ: أَصَلُوا: إِذَا دَخَلُوا فِي الْأَصِيلِ.

[﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾]

مِنَ الثَّقَلَيْنِ طَوْعاً حَالَتِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالْكَفْرَةَ كُرْهاً^(١) حَالَةَ الشَّدَّةِ وَالضَّرُورَةِ، وَظِلَالُهُمْ
بِالْعَرَضِ، وَأَنْ يُرَادَ^(٢) بِهِ انْقِيَادُهُمْ لِأَحْدَاثِ مَا أَرَادَهُ فِيهِمْ؛ شَاوُوا أَوْ كَرِهُوا، وَانْقِيَادُ ظِلَالِهِمْ
لِتَضْرِيغِهِ إِيَّاهَا بِالْمَدِّ وَالتَّقْلُصِ، وَانْتِصَابُ ﴿طَوْعاً وَكُرْهاً﴾ بِالْحَالِ أَوْ الْعِلَّةِ^(٣).

قوله: (والتَّقْلُصِ)، الجوهري: «يُقَالُ: قَلَصَ الظِّلُّ، وَقَلَصَ الْمَاءُ: إِذَا ارْتَفَعَ».

قوله: (وَالْفِيءِ وَالزَّوَالِ)، الفِيءُ: مَا بَعْدَ الزَّوَالِ مِنَ الظِّلِّ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الظِّلُّ فَيْئاً
لِرَجُوعِهِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ، قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: الظِّلُّ: مَا نَسَخَتْهُ الشَّمْسُ، وَالْفِيءُ: مَا
نَسَخَ الشَّمْسُ^(٤).

قوله: (وَقُرِيءُ: «بِالْعُدُوِّ وَالْإِيصَالِ»)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: «قَرَأَهَا أَبُو مَجْلَزٍ^(٥)، وَهُوَ مَصْدَرٌ
«أَصَلْنَا»؛ أَي: دَخَلْنَا فِي وَقْتِ الْأَصِيلِ»^(٦).

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «وَالْكَفْرَةَ لَهُ»، وَالمُتَّبِعُ مِنْ «تَفْسِيرِ الْبِيضَاوِيِّ».

(٢) قوله: «وَأَنْ يُرَادَ» مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «أَنْ يَكُونَ السُّجُودَ»، فَهُوَ الْإِحْتِمَالُ الثَّانِي فِي مَعْنَى السُّجُودِ هُنَا.

(٣) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبِيضَاوِيِّ (٣: ١٨٤).

(٤) هَذِهِ الْفِقْرَةُ أُخْرِتْ فِي (ح) وَ(ف) بَعْدَ الَّتِي تَلِيهَا، وَوَرَدَتْ فِي (ط) هُنَا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ
فِي «الْكَشَافِ».

(٥) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «ابْنُ مَجْلَزٍ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ، وَالتَّصْوِيبُ مِنْ «المُحْتَسَبِ».

وَأَبُو مَجْلَزٍ: هُوَ لِأَحِقُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّدُوسِيُّ الْبَصْرِيُّ، أَحَدُ أُمَّةِ التَّابِعِينَ الثَّقَاتِ، سَبَقَتْ تَرْجُمَتُهُ.

(٦) «المُحْتَسَبِ» لِابْنِ جِنِّي (١: ٣٥٦).

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم، وتأكيده عليهم؛ لأنه إذا قال لهم: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ لم يكن لهم بُدٌّ من أن يقولوا: الله. كقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّعِيَّةِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك؟ فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كَيْتَ وَكَيْتَ.

ويجوز أن يكون تلقيناً؛ أي: إن كُتِّعُوا عَنِ الْجَوَابِ فَلَقَّنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَتَلَقَّنُونَهُ وَلَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُنْكِرُوهُ.

﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أبعَدَ أَنْ عَلِمْتُمُوهُ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، فَجَعَلْتُمْ مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ سَبَبَ التَّوْحِيدِ مِنْ عِلْمِكُمْ وَإِقْرَارِكُمْ سَبَبَ الْإِشْرَاكِ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ لِأَنفُسِهِمْ أَنْ يَنْفَعُوهَا أَوْ يَدْفَعُوهَا عَنْهَا ضَرًّا، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُونَ لِغَيْرِهِمْ، وَقَدْ آثَرْتُمُوهُمْ عَلَى الْخَالِقِ الرَّازِقِ الْمُثِيبِ الْمَعَاقِبِ، فَمَا أَبِينَ ضَلَالَتِكُمْ.

قوله: (كُتِّعُوا فِي^(١) الْجَوَابِ)، الأساس: «كَعَّ الرَّجُلُ وَكَعَّعَهُ الْخَوْفُ فَتَكَعَّعَكَ، أَي: حَبَسَهُ فَاحْتَبَسَ».

قوله: (أبعَدَ أَنْ عَلِمْتُمُوهُ رَبَّ السَّمَاوَاتِ)، يُرِيدُ: أَنَّ الْفَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ سَبَبِيَّةً مُرْتَبَةً لِلْكَلامِ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ، وَأَدْخَلَ هَمْزَةَ الْإِنْكَارِ بَيْنَ الْمُسَبَّبِ وَالسَّبَبِ لِلتَّعْكِيْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وَهَذِهِ الْفَاءُ مِثْلُ الْفَاءِ الَّتِي أَتَى بِهَا فِي الْمِثَالِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: فَيَلْزِمُكَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: كَيْتَ وَكَيْتَ».

قوله: (مِنْ عِلْمِكُمْ وَإِقْرَارِكُمْ)، أَمَا عِلْمُكُمْ فَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَمَا إِقْرَارُكُمْ فَجَوَابُكُمْ إِذَا سُئِلْتُمْ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «عَنْ».

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ بل أجعلوا، ومعنى الهمزة الإنكار، و﴿خَلَقُوا﴾ صفة لـ ﴿شُرَكَاءَ﴾،
يعني: أنهم لم يتخذوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿فَتَشَبَهَ﴾ عليهم
خلق الله وخلقهم، حتى يقولوا: قَدَرَ هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه،

قوله: (حتى يقولوا)، غاية لقوله: «فتشابه»، ومعنى النفي في قوله: «لم يتخذوا» يعطيه
معنى الهمزة الإنكارية في «أم»، فيكون المنكر الجعل مع مفعوليه والصفة^(١).

قال في «الانتصاف»: «﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في سياق الإنكار: تهكم، فإن غير الله لا يخلق
شيئاً، لا مساوياً ولا منحطاً، فقد كان يكفي في الإنكار أن الآلهة التي اتخذوها لا تخلق، لكن
قوله: «﴿كَخَلْقِهِ﴾»^(٢) تهكم، والزخشي لا يستطيع ذكر هذه النكتة، لأن الله ربهم يخلق
الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم، وفي قوله: «﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾»^(٣) إجماع
لأفواه المشركين والقدرية، فلذلك تقاصر لسان الزخشي هنا، وقررت شقاشقه^(٤).

وقلت: أما قضيته المذهب هنا، وقوله: «لا يقدر على ما يقدر عليه من الخلق»:
فبطلانه بقوله تعالى: «﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾» ظاهر، وأما إثبات التهكم فمتكلف، لأن
التهكم هو ذكر الشيء وإرادة نقيضه استحقاقاً للمخاطب، كقوله تعالى: «﴿فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾» [آل عمران: ٢١]، وقولهم: «﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾» [هود: ٨٧]، وهاهنا
قوله: «﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾» مبالغة في إثبات العجز لها على سبيل الاستدراج وإرخاء العنان،

(١) أي أن كونهم اتخذوا الله شركاء، وكون هؤلاء الشركاء لا قدرة لهم على الخلق، كل ذلك داخل في
حيز الإنكار.

(٢) من قوله: «في سياق الإنكار» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) قال العلامة ابن منظور في «لسان العرب»، مادة (شقق): «الشَّقِيقَةُ: لَهَاةُ الْبَعِيرِ، وَالْجَمْعُ:
الشَّقَائِقُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْخُطْبَاءُ: شَقَائِقُ، شَبَّهُوا الْكَثَارَ بِالْبَعِيرِ الْكَثِيرِ الْهَذْرُ، وَفِي حَدِيثٍ عَلَى
رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ - فِي خُطْبَةٍ لَهُ - : تِلْكَ شَقِيقَةُ هَذَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ.»

(٤) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٥٥) بحاشية «الكشاف».

فاسْتَحَقُّوا الْعِبَادَةَ، فَتَتَّخِذُهُمْ لَهُ شُرَكَاءَ وَنَعْبُدُهُمْ كَمَا يُعْبَدُ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ خَالِقٍ وَخَالِقٍ؛ وَلَكِنَّهُمْ اتَّخَذُوا لَهُ شُرَكَاءَ عَاجِزِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْخَلْقُ، فَضُلًّا أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْخَالِقُ.

﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لَا خَالِقَ غَيْرُ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْخَلْقِ، فَلَا يَكُونُ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْعِبَادَةِ، ﴿وَهُوَ الْوَّاحِدُ﴾ التَّوْحِيدُ بِالرَّبُّوبِيَّةِ، ﴿الْقَهْرُ﴾ لَا يُغَالَبُ، وَمَا عَدَاهُ مَرْبُوبٌ وَمَقْهُورٌ.

[﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا فَأَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ١٧]

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ وَالْبَاطِلِ وَحِزْبِهِ، كَمَا ضَرَبَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مَثَلًا لَهَا،

فإنه تعالى لما أنكر عليهم أولاً اتخاذهم من دون الله شركاء، ووصفها بأنها لا تملك لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، فكيف لغيرهم؟! أنكر ثانياً على سبيل التدرج ووصف الخلق أيضاً، يعني: هب أنهم يقدرون على نفع أنفسهم وعلى نفع عبديهم، هل يقدرون أن يخلقوا شيئاً؟ وهب أنهم قادرون على خلق بعض الأشياء، هل يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من خلق السماوات والأرض؟^(١).

قوله: (كَمَا ضَرَبَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ، وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، مَثَلًا لَهَا)، بيان لاتصال الآيات،

(١) وناقش العلامة الألويسي المؤلف رحهما الله تعالى في كلامه هذا، وقال: «والحق أن الآية ناعية عليهم مُهَكِّمَةٌ بِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئاً مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُفَيْدَهُمْ ذَلِكَ، وَكَيْفَ يُتَوَهَّمُ فِيهِ أَنَّهُ خَالِقٌ؟! وَأَنْ يَشْتَبِهَ عَلَى ذِي عَقْلِ، فَيُنَبَّهَ عَلَى نَفْيِهِ؟! وَهَذَا الْمِقْدَارُ يَكْفِي فِي الْعَرَضِ».

فَمَثَلُ الْحَقِّ وَأَهْلَهُ بِالْمَاءِ الَّذِي يُنْزَلُهُ مِنَ السَّمَاءِ فَتَسِيلُ بِهِ أَوْدِيَةُ النَّاسِ، فَيَخَيُونَ بِهِ وَيَنْفَعُهُمْ أَنْوَاعُ الْمَنَافِعِ، وَبِالْفِلِزِّ الَّذِي يَنْتَفَعُونَ بِهِ فِي صَوْعِ الْحَلِيِّ مِنْهُ وَاتِّخَاذِ الْأَوَانِي وَالآلَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْحَدِيدُ الَّذِي فِيهِ الْبَأْسُ الشَّدِيدُ لَكَفَى بِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَا كَثُرَ فِي الْأَرْضِ، بَاقِي بَقَاءً ظَاهِرًا، يَثْبُتُ الْمَاءُ فِي مَنَابِعِهِ، وَتَبْقَى آثَارُهُ فِي الْعَيُونِ وَبِالنَّارِ وَالْحُبُوبِ وَالشَّارِ الَّتِي تَنْبُتُ بِهِ مِمَّا يُدَّخَرُ وَيُكْتَنَزُ،

وذلك أنه تعالى لما أمره صلوات الله عليه أن يُبَيِّنَ الْمُشْرِكِينَ بقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾، ثم يُؤَنِّبُهُمْ بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، ويؤنبخهم على تعكيس الأمر، وهو أنه من علم أنه ربُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَهُ وَيُوحِّدَهُ، فَهَمَّ جَعَلُوا الْعِلْمَ سَبَبًا لِلإِشْرَاقِ بِهِ، ذَيْلَهُ بَضْرِبِ الْمَثَلِ بِالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ، وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ، وَلَمَّا أَضْرَبَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: شركاء مخلوقين عاجزين لا يقدرُونَ عَلَى نَفْعِ أَنْفُسِهِمْ، فَكَيْفَ بغيرهم؟! وَتَرَكُوا عِبَادَةَ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ الْمُتَّوَحِّدِ الْمُتَّفَرِّدِ الْغَالِبِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، عَقَّبَهُ بَضْرِبِ مَثَلٍ آخَرَ.

قوله: (وبالفيلز الذي ينتفعون به)، النهاية: «الفيلز - بكسر الفاء واللام وتشديد الزاي -: ما في الأرض من الجواهر المعدنية، كالذهب والفضة والنحاس والرصاص وغيرها، قيل: هو ما ينفيه الكبير^(١)، ومنه حديث علي رضي الله عنه: (من فيلز اللجين والعقيان)^(٢)».

قوله: (مما يدخر ويكتنز)، خبر لقوله: «والحبوب والثمار»، وفيه لف؛ لأنَّ الادِّخَارَ مُحْتَصٌّ بِالْحُبُوبِ، وَالْإِكْتِنَازَ بِالشَّارِ.

(١) الكبير - بالكسر -: كير الحداد، وهو زق أو جلد ذو حاقات ينفخ به النار، والمبني من الطين: الكور. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (كبر).

(٢) لم أفق عليه مستنداً.

وَاللُّجَيْنِ: الْفِضَّةُ، وَالْعِقْيَانُ: الذَّهَبُ الْخَالِصُ. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (لجن) و(عقي).

وكذلك الجواهرُ تبقى أزمناً مُتطاولة. وشبّه الباطل في سرعة اضمِحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أُذيب.

فإن قلت: لم نُكرت الأودية؟ قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿بِقَدْرِهَا﴾؟ قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.....

الراغب: «الكنز: جعل المال بعضه على بعض وحفظه، وأصله من: كترت التمر في الوعاء، زمن الكناز: وقت ما يكثر فيه التمر»^(١).

قوله: (ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ﴾)، يعني: دل التفصيل^(٢) - وهو قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾^(٣) - أن هذا المَجْمَل أيضاً مُشْتَمِلٌ على هذا المعنى، ليتطابق التفصيل والمجمل، وليس فيه ما يدل على النفع إلا قوله: ﴿فَسَاكَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدْرِهَا﴾، فيجب تفسيره به، ويؤيده قوله: «الفائدة فيه - أي: في ﴿أَبْتَعَا حَبِيَّةَ أَوْ مَتْعَ﴾ - كالفائدة في قوله: ﴿بِقَدْرِهَا﴾»، لأنها متقابلان.

واعلم أن الآية من «باب الجمع والتقسيم مع الجمع»^(٤) على أبداع ما يكون؛ جمع أولاً

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٢٧.

(٢) في (ف): «كل التفصيل»، وفي النسخة الموصلية: «ما دل التفصيل»، وأثبت من (ط)، والجمل ساقطة من (ح).

(٣) من قوله: «يعني: دل التفصيل» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) انظر معنى «الجمع» و«التقسيم» و«التفريق» في «البيان في البيان» للمؤلف العلامة الطيبي ص ٣٣١-٣٤٠، فقد ذكر صورة «الجمع» وحده، وصورة «التقسيم» وحده، وصورة «التفريق» وحده، ثم ذكر صورة «الجمع مع التفريق»، وصورة «الجمع مع التقسيم»، وصورة «الجمع مع التفريق والتقسيم»، ومثّل عليها.

الماء والفِلْزُ في حُكْمِ كونهما جامعين لمعنى ما يَنْتَفِعُ به الناس ولَمَّا لا نَفْعَ فيه، فإنزَالِ الماءِ على القَدْرِ المحتاج إليه خالصٌ لِلنَّفْعِ، وَحَمِيلُهُ - الذي هو زَبْدُ السَّيْلِ - لا نَفْعَ فيه، وكذا الفِلْزُ: ما يَتَّخَذُ منه الحَلِيّ والأواني هو الْمُتَنَفِّعُ به، وَخَبْثُهُ الذي هو زَبْدُهُ مما لا نَفْعَ فيه، ثم فَصَّلَ ثانياً حُكْمَ كُلِّ مِنَ اللَّذَيْنِ لا نَفْعَ فِيهِمَا على طريق الجمع، بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ إلى آخِرِهِ، أي: كُلُّ ما لا نَفْعَ فِيهِ من زَبْدِ الماءِ وزَبْدِ الفِلْزِ يَذْهَبُ جُفَاءً، وَكُلُّ من الْمُتَنَفِّعِ بهما - وهما الماءُ المُنزَلُ بِقَدْرِ الفِلْزِ المُتَّخَذِ منه الحَلِيّ والمتاع - يَمُكُّثُ في الأرضِ.

قال مُجِيبُ السُّئَالِ: «قيل: قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مَثَلٌ لِلْقُرْآنِ، و«الأوديَّة» مَثَلٌ لِلْقُلُوبِ، أي: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ، واحْتَمَلَ مِنْهُ الْقُلُوبُ على قَدْرِ اليقينِ والعقلِ والشكِّ والجهلِ»^(١).

وقلت: ومُقْتَضَى إِدْخَالِ الْقُرْآنِ وَالْقُلُوبِ الْمَوْصُوفَةِ بِالْيَقِينِ وَالشَّكِّ وَالْعَقْلِ وَالْجَهْلِ فِي هَذَا الْمَقَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ضَرْبِ الْمَثَلِ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى﴾ الآية، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾.

وقال السَّجَّادُ وَنَدِي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ وَدَائِعَ وَبِدَائِعَ مِنْ خِصَائِصِ الْإِنْسَانِيَّةِ، تَحْصُلُ بِالسَّهْوِ^(٢) وَتَذْهَبُ بِالْعَبْرِ، وَالْأَنْوَارِ الْعُلُويَّةِ - أعني: آثارَ الْهُدَايَةِ - بِالْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ يَتَأَثَّرُ بِهَا^(٣) مِنَ الْأَخْلَاقِ ما هُوَ حَلِيَّةُ الرُّوحِ وَالْعَقْلِ، وَمِنَ الْأَعْمَالِ ما هُوَ قُنِيَّةُ^(٤) النَّفْعِ وَالذَّفْعِ، وَالْعِلْمُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ آتٍ^(٥) مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَقْدِماً خَالِياً مِنْ خَلَائِطِ الرَّيْفِ

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ٣٠٨).

(٢) في (ح) و(ف): «بالشهو»، والمثبت من (ط).

(٣) في (ف): «بتأثيرها»، والمثبت من (ح) و(ط).

(٤) في (ح) و(ف): «فتنة»، والمثبت من (ط).

(٥) في الأصول الخطية: «آتي»، بإنبات الياء، والوجه حذفها.

لأنه صَرَبَ المطرَ مثلاً للحقِّ، فَوَجَبَ أن يكونَ مطراً خالصاً للنفع، خالياً من المَصْرَةِ، ولا يكونَ كـبعض الأمطارِ والسُّيولِ الجَواحِفِ.

فإن قلت: فما فائدةُ قوله: ﴿أَبْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَعٍ﴾؟ قلت: الفائدةُ فيه كالفائدة في قوله: ﴿بِقَدْرِهَا﴾؛ لأنه جَمَعَ الماءَ والفِلِزَّ في النَّفْعِ في قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، لأنَّ المعنى: وأما ما ينفعهم من الماءِ والفِلِزِّ، فذَكَرَ وَجْهَ الِاتِّفَاعِ بما يُوقَدُ عليه منه ويُذَابُ، وهو الحَلِيَّةُ والمَتَاعُ. وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَعٍ﴾ عبارةٌ جامعةٌ لأنواعِ الفِلِزِّ، معَ إظهارِ الكِبْرِيَاءِ في ذِكْرِهِ عَلَى وَجْهِ التَّهَاوُنِ بِهِ،

صافياً عن سُؤالِ الكَيْفِ، ثم اختَلَطَ بشوائبِ النفسانيَّةِ وهواجِسِ الإنسانيَّةِ، فلا بُدَّ من نارِ الفِتَنِ، واختبارِ المَحْنِ؛ لِزَوَالِ زَيْدِ السَّخْبِ، وقوامِ أَوْدِ العَبَثِ، وَمَنْ تَحَمَّلَ التَّعْلِيمَ، والِاتِّصافَ بالتسليمِ، لِيَذْهَبَ الزُّبْدُ جُفَاءً، وإلا ماتَ عَطِشاً، ودَامَ نَجِساً، قال:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القدي
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربهُ^(١)

هذا مُتَّصِرٌ مِنْ كَلَامِهِ.

قوله: (والسُّيولِ الجَواحِفِ)، الجوهري: «سَيْلٌ جُحَافٌ - بِالضَّمِّ - : إذا جَرَفَ كُلَّ شيءٍ وَذَهَبَ بِهِ».

قوله: (على وَجْهِ التَّهَاوُنِ بِهِ)، وذلكَ أنَّ في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ﴾

(١) البيهق لبشار بن بريد، كما في «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣: ١٧)، و«ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (٢: ١٩٦)، و«الحماسة البصرية» (٢: ٣٤)، وقبله:

إذا كنت في كلِّ الأمور مُعَاتِباً صديقك لم تلقَ الذي لا تُعَاتِبُهُ
فِعْشٌ واحِداً أو صِلَ أخاك فإنه مُقَارِفٌ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَابِبُهُ

كما هو هَجِيرَى المُلُوك، نحو ما جاء في ذِكْر الأَجْر، ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَنْهَمِنُ عَلَى الطَّلِينِ﴾ [القصص: ٣٨].

و«مِنْ» لابتداء الغاية؛ أي: ومنهُ ينشأ زَبْدٌ مثلُ زَبَدِ الماء، أو للتَّبَعِيض؛ بمعنى: وبعضُهُ زَبْدٌ رَابِياً مُتَفَخِخاً مُرْتَفِعاً عَلَى وَجْهِ السَّيْلِ.

﴿جُفَاءً﴾ يَجْفَاهُ السَّيْلُ؛ أي: يرمي به. وَجَفَاتِ القِدْرُ بِزَبْدِهَا، وَأَجْفَأَ السَّيْلُ وَأَجْفَلَ. وفي قراءة رُؤْبَةَ بنِ العَجَّاج: «جُفَالاً»، وعن أبي حاتم: لا يُقْرَأُ بقراءة رُؤْبَةَ، لأنه كان يأكل الفأر.

عُدُولاً من الاسم إلى تَصْوِيرِ حَالَةٍ هِيَ أَحَطُّ حَالَاتِ هَذِهِ الجَوَاهِرِ، أي: هذه التي تَرَفَعُونَ أَنْتُمْ مِنْ مِقْدَارِهَا، وَتَعُدُّوْنَهَا أَنْفَسَ الجَوَاهِرِ، وَتَتَّخِذُونَ مِنْهَا الحُلِيِّ، وَتُزَيِّنُونَ بِهَا مَجَالِسَكُمْ وَتِيَجَانَكُمْ، هِيَ هَذِهِ التي تُوقِدُونَ عَلَيْهَا، كقولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥-٦]، وقولِهِ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: ١٨-١٩]، قال^(١): «من أي شيء حَقِيرِ خَلَقَهُ».

قوله: (أو للتَّبَعِيض)، قال أبو البقاء: ﴿زَبْدٌ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿مِثْلُهُ﴾ الصِّفَةُ، وَالخَبْرُ «مِمَّا يُوقِدُونَ»، المعنى: ومن جَوَاهِرِ الأَرْضِ كَالنُّحَاسِ ما فِيهِ زَبْدٌ - وهو خَبْبُهُ - مِثْلُهُ، أي: مِثْلُ الزَّبْدِ الذي يَكُونُ عَلَى المَاءِ^(٢).

قوله: ﴿جُفَاءً﴾ يَجْفَاهُ السَّيْلُ، قال أبو البقاء: «هو حال، وهمزته مُنْقَلِبَةٌ عن واو، وقيل: هي أصل»^(٣).

(١) أي: الزمخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة عبس (١٦: ٢٩٧).

(٢) «التيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٥٦).

(٣) المصدر السابق (٢: ٧٥٦).

وَقُرِئَ: ﴿يُوقَدُونَ﴾ بالياء؛ أي: يُوقَدُ النَّاسُ.

[﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنُ﴾ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلْهَادِ ﴿١٨﴾]

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ اللامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿يَضْرِبُ﴾، أي: كذلك يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا، وللكافرين الذين لم يَسْتَجِيبُوا؛ أي: هما مثلاً الفريقيين. و﴿الْحَسَنُ﴾ صفةٌ لمصدرِ «استجابوا»؛ أي: استجابوا الاستجابةَ الْحَسَنِيَّ. وقوله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ﴾ كلامٌ مُبْتَدَأٌ فِي ذِكْرِ مَا أُعِدَّ لِغَيْرِ الْمُسْتَجِيبِينَ. وقيل: قد تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وما بعده كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ و﴿الْحَسَنُ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبْرُهُ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾، والمعنى: لهمِ الثُّبُوتُ الْحَسَنِيُّ، وهي الْجَنَّةُ، و﴿الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبْرُهُ: ﴿لَوْ﴾ مع ما فِي حَيْزِهِ، و﴿سُوءُ الْحِسَابِ﴾ الْمُنَاقَشَةُ فِيهِ، وَعَنِ النَّحْصِيِّ: أَنْ يُحَاسِبَ الرَّجُلُ بَدَنَهُ كُلَّهُ لَا يُغْفَرُ مِنْهُ شَيْءٌ.

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿يُوقَدُونَ﴾ بالياء)، التحتانية؛ حمزةٌ وَحَفْصٌ وَالْكَسَائِيُّ^(١).

قوله: (وقيل: قد تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾)، قَالَ صَاحِبُ «الْمُرْشِدِ»: «هُوَ وَقْفٌ تَامٌ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لِرَبِّهِمُ الْحَسَنُ﴾ حَسَنٌ، وَكَذَا ﴿لَاقْتَدُوا بِهِ﴾»^(٢).

(١) انظر: «التيسير» لأبي عمرو الداني ص ١٣٣، و«حجة القراءات» ص ٣٧٣.

(٢) انظر: «المقصد لتلخيص ما في المرشد» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ص ٤٠٨ ط دار الكتب العلمية، و ص ٤٨ ط دار المصنف)، لكن فيه: إن الوقف على ﴿الْأَمْثَالَ﴾ تام، وكذا ﴿الْحَسَنُ﴾، وعلى ﴿لَاقْتَدُوا بِهِ﴾ حَسَنٌ.

وتقدّم التعريف بـ«المرشد» ومؤلفه عند تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة (٧: ٢٣٣).

[﴿أَفَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلَآءَ الْأَلْبَابِ﴾ ١٩]

دخلت همزة الإنكارِ على الفاء في قوله: ﴿أَفَن يَعْلَمُ﴾ لإنكار أن تقع.....

وقال القاضي: «قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاءَ الْأَرْضِ﴾ على أن يتعلَّق ﴿لِلَّذِينَ﴾ بـ ﴿يَضْرِبُ﴾: كلامٌ مُبتدأً لبيان مآل غير المُستجيبين»^(١).

وقلت: النظمُ يستدعي الثاني، لأنَّ الفصاحةَ على انقطاع ما بعد الفاصلة عنها، ولهذا انحطَّ قول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بضُح وما الإصباحُ منك بأمثل^(٢)

عن قول أبي الطيب:

إذا كانَ مَدْحًا فَالنَّسِيبُ الْمَقْدَمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْرًا مُتِّمٌ^(٣)

ولأنَّ لفظَ ﴿الْحُسْنَى﴾ لَمَّا تَعَلَّقَ بِأَحَدِ الْقَرِيئَتَيْنِ أَوْجَبَ أَنْ لَا يُعْطَلَّ مَا يُقَابِلُهَا عَنْ أُخْتِهَا؛ لِئَلَّا يَخْتَرِمَ النَّظْمُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلرَّبِّهِمُ الْحُسْنَى، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّهِمُ الشَّوْأَى، فَوَضَعَ مَوْضِعَهُ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاءَ الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَإِنَّمَا اكَتْفَى فِي الْأَوَّلِ بِـ ﴿الْحُسْنَى﴾ الْمَطْلُوقَةِ لِيَعْمَ، فَيَكُونُ أَبْلَغَ، لِأَنَّ جَانِبَ الْحُسْنَى أَرْجَحَ.

قوله: (دَخَلَتْ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ عَلَى الْفَاءِ)، يُرِيدُ: أَنَّ الْفَاءَ فِي ﴿أَفَن﴾ لِلتَّعْقِيبِ، وَالْهَمْزَةُ مُقْفَحَةٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ لِمَزِيدِ الْإِنْكَارِ، وَالْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ قَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلرَّبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ الْآيَةُ، الْمَعْنَى: ضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ١٨٥).

(٢) «ديوان امرئ القيس» ص ١٨، والبيت من مُعلِّقته المشهورة التي مطلعها:

قفا نَبِّك مِن ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَخَوْمِلِ

(٣) «ديوان المتنبي» (٢: ٦٣٨) بشرح الواحدي.

شُبْهَةٌ بَعْدَمَا ضُرِبَ مِنَ الْمَثَلِ فِي أَنْ حَالَ مِنْ عِلْمٍ ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ فاستجاب،
بِمَعْرِزٍ مِنْ حَالِ الْجَاهِلِ الَّذِي لَمْ يَسْتَبْصِرْ فَيَسْتَجِيبُ، كَبُعْدِ مَا بَيْنَ الزَّبَدِ وَالْمَاءِ، وَالْحَبْثِ
وَالْإِبْرِيزِ. ﴿إِنَّمَا يَنْذَكُرُ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أَي: الَّذِينَ عَمِلُوا عَلَى قَضِيَّاتِ عُقُولِهِمْ، فَنَظَرُوا
وَاسْتَبَصَرُوا.

[﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

الْمُسْتَجِيبِينَ وَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا، أَفِيَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، فَيَسْتَجِيبُونَ،
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ؟! وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ حَالَ مَنْ عِلْمٍ فَاسْتَجَابَ بِمَعْرِزٍ
مِنْ حَالِ الْجَاهِلِ فَلَمْ يَسْتَجِبْ، كَبُعْدِ مَا بَيْنَ الزَّبَدِ وَالْمَاءِ، وَالْحَبْثِ وَالْإِبْرِيزِ»^(١).

ثم إنك إن أمعنت النظر وجدت قوله: ﴿أَمَّنْ يَمَلِكُ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ وما
ترتب هو عليه: مُتَّصِلًا^(٢) بفاتحة السورة، يعني: بقوله: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

قوله: (كَبُعْدِ مَا بَيْنَ الزَّبَدِ)، صِفَةُ مُصَدِّرٍ مَحذُوفٍ، أَي: بَعْدَ حَالِهِمْ مِنْ حَالِ الْجَاهِلِ
بُعْدًا مِثْلَ بُعْدِ مَا بَيْنَ الزَّبَدِ وَالْمَاءِ.

قوله: (أَي: الَّذِينَ عَمِلُوا عَلَى قَضِيَّاتِ عُقُولِهِمْ)، الرَّاعِبُ: «اللَّبُّ»^(٣): الْعَقْلُ الْخَالِصُ
مِنَ الشَّوَابِ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَوْنِهِ خَالِصَ مَا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ قُوَاهِ، كَاللَّبِّابِ مِنَ الشَّيْءِ،
وَقِيلَ: هُوَ مَا زَكِيَ مِنَ الْعَقْلِ، فَكُلُّ لُبِّ عَقْلٍ، وَلَيْسَ كُلُّ عَقْلٍ لُبًّا، وَلِهَذَا عَلَّقَ اللَّهُ تَعَالَى
الْأَحْكَامَ الَّتِي لَا تُدْرِكُهَا إِلَّا الْعُقُولُ الزَّاكِيَةُ بِأُولِي الْأَلْبَابِ، نَحْوُ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

(١) الْحَبْثُ: هُوَ مَا تُلْقِيهِ النَّارُ مِنْ وَسَخِ الْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَغَيْرِهِمَا إِذَا أُذِيَا، كَمَا فِي «النهاية» لابن الأثير (٢):

(٥)، (حَبْثٌ). وَالْإِبْرِيزُ: لَفْظٌ مُعْرَبٌ، وَمَعْنَاهُ: هُوَ الذَّهَبُ الْخَالِصُ، كَمَا فِي «المصباح المنير» (برز).

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «مُتَّصِلٌ» بِالرَّفْعِ!

(٣) لَفْظَةٌ: «اللَّبُّ» سَقَطَتْ مِنْ (ح) وَ(ف).

وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّتٌ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٠-٢٤﴾

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ مبتدأ، و﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ خبره، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ
يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٥] أولئك لهم اللعنة. ويجوز أن يكون صفة لـ «أولي الأبواب»،
والأول أوجه. و«عهدُ الله»: ما عقده على أنفسهم من الشهادة برُبوبِيَّته؛ ﴿وَأَشْهَدُهُمْ
عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثُقُ﴾ ولا يَنْقُضُونَ
كُلَّ مَا وَثَّقُوهُ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَقَبَلُوهُ؛ من الإيثار بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله
وبين العباد، تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيسٍ.

أَوْفَى خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿البقرة: ٢٦٩﴾، ورجلٌ لبيبٌ^(١) من قوم
ألباء، ومحبوب: معروفٌ باللب^(٢).

قوله: (والأول أوجه)، وذلك لمكان الاستئناف عند قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾؛ لبيان
الموجب، كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]، على ما مرَّ في البقرة،
ولعطف قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ عليه، وهو غير صالح لوصف أولي الأبواب.

قوله: (تعميمٌ بعد تَخْصِيسٍ)، يعني: عطف قوله: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثُقُ﴾ - وهو عامٌ
لأنَّ التعريفَ فيه للجنس - على قوله: ﴿يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، والمراد: ما عقده على أنفسهم من
الشهادة برُبوبِيَّته، وهو خاصٌ، كما عطف: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ على قوله: ﴿يَصَلُّونَ﴾ على
هذا، لأنَّ خشيةَ الله^(٣) ملاكُ كُلِّ خَيْرٍ، وأما عطفُ ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ على «يخشون»،

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «المفردات» للراغب، مادة (لب): «أَلْبَبٌ».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧٣٣.

(٣) في (ح): «لأنَّ ربوبيته»، والمثبت من (ف) و(ط).

﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقربات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] - بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعبادة مرضاهم، وشهود جنازتهم. ومنه: مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرُفقاء في السفر، وكل ما تعلق منهم بسبب، حتى الهرة والدجاجة. وعن الفضيل بن عياض: أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان. قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين.

﴿وَيَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخشون وعيده كله، ﴿وَيَخَافُونَ﴾ خصوصاً ﴿سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

﴿صَبْرُوا﴾ مُطلق فيما يُصبرُ عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف، ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا ليُقَالَ: ما أصبره وأحمله للنوازل! وأوقره عند الزلازل! ولا لثلا يُعَاب بالجزع ولثلا يَشْمَت به الأعداء، كقوله:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ

فمن عطف الخاص على العام، ومن ثم قال: «ويخافون خصوصاً سوء الحساب»، ومثله عطف ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على ﴿صَبْرُوا﴾.

قوله: (وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ)، تمامه - لأبي ذؤيب -:

أني لَرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعُّعُ^(١)

(١) انظر: «المفضليات» ص ٤٢٢.

ولا لأنه لا طائل تحت الهَلَع، ولا مَرَدَّ فيه للفائت، كقوله:
 ما إن جَزَعْتُ ولا هَلَعْتُ تْ ولا يَرُدُّ بُكايَ زَنَدَا

وكلُّ عملٍ له وجوهٌ يُعْمَلُ عليها، فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حَسَنًا
 عند الله، وإلا لم يَسْتَحَقَّ به ثواباً، وكان فعلاً كلاً فِعْلاً.

الشامية: الفَرَحُ ببليّةٍ تَصِلُ إلى العَدُوِّ، والضَّغْضَعَةُ: الخضوع. يقول: هذا التَّجَلُّدُ الذي
 أَرِيهِ من نفسي لِدَفْعِ شاميةِ الشاميتين.

قوله: (ما إن جَزَعْتُ) البيت، قيل: هو لِعَمْرٍو بنِ مَعْدِي كَرِب^(١)، الهَلَعُ: أَفْحَشُ
 السَّجَرِ، لأنه جَزَعٌ مَعَ قِلَّةِ الصَّبْرِ، قيل: إن زيدا أخ له، ومنهم مَنْ زَعَمَ أنه فَتَشَّ فلم يجد
 له شقيقاً يُسَمِّي زيدا، ومنهم مَنْ روى «زندا»^(٢) - بالنون - أي: يَرُدُّ بُكايَ شَرَرِهِ من
 حُرْقَتِي، ذكر «الزندا» وأراد ما يخرج منه عند القَدْحِ^(٣).

رُوي عن المصنّف أنه قال: الزندا مثل في القلّة، ومن ثمَّ يُقالُ لِلثَّيمِ^(٤): مُزَنَدٌ، أي: مُحَقَّرٌ،
 «الأساس»: «ومن المجاز قولهم للحقير: زندان في مرقعة، وعطاءً مُزَنَدٌ: قليلٌ مُضَيِّقٌ».

قوله: (أن ينوي منها ما به كان حَسَنًا)، «ما» موصوفة، أي: ينوي من الوجوه شيئاً به
 كان العَمَلُ حَسَنًا عند الله، وهو أن يَصْبِرَ ابتغاءَ وجوه ربّه، اقتبسَ قوله: «حَسَنًا» من قوله
 صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٥)، فإذا
 أحسن العبد هذا الحضورَ طأشَ عنده جميعُ الهواجسِ النفسانيةِ التي ذكرها المصنّف، بل

(١) عزاهُ إليه الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديُّ في «العين» (١: ١٠٧).

(٢) وهو ما في الأصل الخطي الذي بين أيدينا من «الكشاف»، وكذا في نصّ «الكشاف» ومن النسخة
 (ط). كأن في نسخة المؤلف: «زيداً».

(٣) شرح البيت مُستفاداً من «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ١٢٣)، ولم يَغْزِهِ إليه المؤلفُ رحمه الله
 تعالى، بخلافاً لعادته؛ فإنه نَقَلَ عنه مُصَبِّحاً باسمه في مواضع.

(٤) تحرّف في (ح) إلى: «للمتم»، وسقط من (ف)، والمُثَبَّتُ من (ط).

(٥) أخرجه مسلم (٨) من حديث ابنِ عَمَرَ رضيَ اللهُ عنهما، و(٩) من حديث أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه.

﴿مِمَّا رَزَقْنَهُمْ﴾ من الحلال؛ لأنّ الحرام لا يكون رزقاً ولا يُسندُ إلى الله، ﴿مِرّاً وَعَلَايَةً﴾ يتناول النّوافل؛ لأنّها في السّرّ أفضل، والفرائض؛ لوجوب المُجاهرة بها نفيّاً للثّمة، ﴿وَيَذَرُهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ ويدفعونها. عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يردّ عليهم من سيّئ غيرهم.

وعن الحسن: إذا حُرِّموا أعطوا، وإذا ظَلِموا عَفَوْا، وإذا قُطِعوا وَصَلُّوا. وعن ابن كَيْسان: إذا أذنبوا تابوا. وقيل: إذا رأوا مُنكراً أَمَرُوا بِتَغْيِيرِهِ. ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدُّنيا وهي الجنّة، لأنّها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدُّنيا ومرجع أهلها.

يُفني^(١) حُضوره في شهوده، فيتَلدّدُ بالبلوى، ويستبشِرُ باختيار المولى، هذا هو الصّبرُ على الله عند العارفين^(٢).

قوله: (وعن الحسن: إذا حُرِّموا أعطوا)، إلى آخره: مُقتبسٌ مما رويناهُ في «مُسندِ أحمدِ ابنِ حنبلٍ»^(٣) عن عُقبة بنِ عامرٍ قال: لَقِيْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاغْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

قوله: ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدُّنيا، وهي الجنّة، لأنها هي^(٤) التي أراد الله^(٥)، الاتِّصاف:

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «يعني»، والمُثبت من (ط).

(٢) لم يتعرّض المُؤلّفُ رحمه الله تعالى هنا إلى قول الزمخشري: ﴿مِمَّا رَزَقْنَهُمْ﴾ من الحلال، لأنّ الحرام لا يكون رزقاً، ولا يُسندُ إلى الله، وهو جارٍ على مذهب الزمخشري، ولعلّ المُؤلّفَ اكتفى بتنبيهه إلى هذا المعنى في مواضع أخرى، وعلى كُُلِّ فقد تَعَقَّبَهُ فيه ابنُ المنير في «الانتصاف» (٢: ٣٥٧)، قال: «الحقُّ أن لا رازقَ إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، كما أنه لا خالقَ إلا الله ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، فإذا اقتضى العقلُ والسَّمْعُ جميعاً أن لا رازقَ إلا الله، فأبى مقالٍ بعد ذلك يبقى للقدريّ الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم، لأنّ الغالب الحرام».

(٣) برقم (١٧٣٣٤) و(١٧٤٥٢).

(٤) لفظة «هي» ليست في «الكشاف».

(٥) في الأصول الخطية: «أراد به»، والمثبت من «الكشاف».

و﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿عُقَيْبِ الدَّارِ﴾.

وَقُرِئَ: «فَنَعَمْ» بفتح النون، والأصل: نَعَمْ، فَمَنْ كَسَرَ التَّوْنَ فَلِنَقْلِ كسرة العين إليها، وَمَنْ فَتَحَ فَقَدْ سَكَنَ العينَ ولم يَنْقُلْ. وَقُرِئَ: «يُدْخَلُونَهَا» على البناء للمفعول. وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: «صَلَحٌ» بِضَمِّ اللّام، والفتحُ أَفْصَحُ. أَعْلَمَ أَنَّ الأنسابَ لا تنفعُ إذا تَجَرَّدتْ مِنَ الأعمالِ الصّالحة.

و«آبَاؤُهُمْ» جَمْعُ أبُوَيْ كُلِّ واحدٍ منهم، فكانه قيل: من آبائهم وأمهاتهم.

«العاقبة المطلقّة: هي الجنة، ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقَيْبِ الدَّارِ﴾، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فاستنبط الزمخشريُّ من ذلك أنها التي أرادها الله، والعاقبة الأخرى خلافُ المراد، فلذلك قيدها في قوله: ﴿وَعُقَيْبِ الْكُفْرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، تفادى أن ينسب إلى الله إرادة الشرِّ، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والمؤدّي إلى حميد العاقبة مأمورٌ به، والمؤدّي إلى ما سواها منهيٌّ عنه، فعاقبة الجنة أصلٌ باعتبار الأمر، لا باعتبار الإرادة»^(١).

قوله: (لا تنفع إذا تجرّدت من الأعمال)، إنما قال: «إذا تجرّدت» ليؤدّن بأنه إذا وُجِدَ منهم عمَلٌ ما كفاهم، وذلك من إيقاع الفعل - أي: ﴿صَلَحَ﴾ - صلةً للموصول، كما قال^(٢) في قوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣]: «قيل: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولم يقل: «الظالمين»، لأنّ المعنى: الذين وُجِدَ منهم الظلم»، والمعنى: أن الله تعالى يلحق قرابات أولئك الكملة بهم، وإن لم يكونوا في مرتبتهم من العمل الصالح إكراماً لهم، نحوه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، قال فيه: «أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحلّ - وهو إيمان الآباء - ألحقنا بذرّياتهم ذرّياتهم، وإن كانوا لا يستأهلونها، تفضلاً عليهم وعلى آبائهم».

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٥٨) بحاشية «الكشاف».

(٢) أي: الزمخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة هود ص ٢١٧.

﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ في موضع الحال، لأنَّ المعنى: قائلين: سلامٌ عليكم، أو: مُسلمين. فإن قلت: بِمَ تعلق قوله: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾؟ قلت: بمحذوف، تقديره: هذا بما صَبَرْتُمْ، يَعْنُونَ: هذا الثَّوَابُ بِسَبَبِ صَبْرِكُمْ، أو: بَدَلٌ ما احتَمَلْتُمْ من مَشَاقِّ الصَّبْرِ وَمَتَاعِيهِ هذه المَلَادُ وَالنَّعَمُ، والمعنى: لئن تَعَبْتُمْ في الدُّنْيَا لَقَدْ اسْتَرَحْتُمْ السَّاعَةَ، كقوله:

بما قد أرى فيها أو أنس بُدنا

قوله: (أو بَدَلٌ)، ظَرَفٌ؛ خَبِرُ قوله: «هذه المَلَادُ»، لأنه مُبتدأٌ وصِفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على مِثْلِهَا، وهي «هذا الثَّوَابُ بِسَبَبِ صَبْرِكُمْ» والصَّبْرُ على الأولِ بِمعنى الطَّاعَاتِ، لأنَّ الطَّاعَاتِ عندهم سببٌ للثَّوَابِ، وعلى الثاني بِمعناه، ولذلك قال: «ما احتَمَلْتُمْ من مَشَاقِّ الصَّبْرِ^(١) وَمَتَاعِيهِ»، وهو مُوجِبٌ لِلْعَوَاضِ وَالْبَدَلِ. وعن بعضِ العَدَلِيَّةِ^(٢): الثَّوَابُ: هو الجِزَاءُ على أَعْمَالِ الخَيْرِ، وَالْعَوَاضُ: هو البَدَلُ عن الفَائِتِ، كَالسَّلَامَةِ الَّتِي هِيَ بَدَلُ الأَلَمِ، وَالنَّعَمُ الَّتِي هِيَ مُقَابِلَةُ البَلَايَا وَالْمِحْنِ وَالرَّزَايَا وَالْفِتَنِ، وَالتَّفَضُّلُ: هو إيصالُ مَنْفَعَةٍ خَالِصَةٍ إِلَى الغَيْرِ من غيرِ اسْتِحْقَاقٍ.

قال القاضي: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿عَلَيْكُمْ﴾، أو بِمحذوفٍ، أي: هذا بما صَبَرْتُمْ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِـ﴿سَلِّمْ﴾، لأنَّ الخَبَرَ فَاصِلٌ، وَالبَاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ أَوِ البَدَلِيَّةِ^(٣).
وأجيب: أن التعلقَ بِمعنوي، وَلذلك قَدَّر: «وَنُكِرَ مُكَمَّ». قوله: (بما قد أرى فيها أو أنس بُدنا)، لَمْ يُوْجَدْ تَمَامُهُ^(٤).

(١) من قوله: «والصبر على الأول» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٢) أي: المعتزلة، فإنهم يُسَمُّونَ أَنفُسَهُمْ: أهل العدل والتوحيد.

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ١٨٦).

(٤) فَلَعَلَّهُ مِمَّا انفردَ الزمخشريُّ بِروايته من كلام العرب، وهو إمامٌ حُجَّةٌ في هذا الباب، فلا يُسْتَعْرَبُ مِثْلُهُ من مثله.

على أنهم أنشدوا للكُمَيْتِ:

وعن النبي ﷺ: أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كلِّ حوْلٍ فيقول: «السَّلَامُ عليكم بما صبرْتُمْ فِينَعَمَ عُقْبَى الدَّارِ»، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ ﴿سَلَّمَ﴾، أي: نُسَلِّمُ عليكم ونُكْرِمُكم بِصَبْرِكُمْ.

[﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ٢٥]

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعدما أوثقوه به من الاعتراف والقبول، ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ يحتملُ أن يُرادُ سُوءُ عاقبة الدنيا، لأنه في مُقابَلَةِ ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، ويجوزُ أن يُرادَ بـ ﴿الدَّارِ﴾: جَهَنَّم، وبـ «سُوئها»: عذابها.

[﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

مَتَعٌ﴾ ٢٦]

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي: اللهُ وحده هو يبسطُ الرِّزْقَ ويُقدِّره دون غيره،

و«الأوانس»: النِّساء^(١)، «البُدن»: من قولهم: بَدَنَ الرجل: إذا سَمِنَ، وهي جمعُ بادنة، وهي المرأة السَّمينة، يقول: أرى في عَرَصَةِ الحِمَى^(٢) الوَحْشَ، بَدَلٌ ما كنتُ أرى فيها النِّساءَ الأَنِسات، والاستِشهادُ بالبَاءِ في «بها»، لأنها بمعنى البَدَل.

قوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي: اللهُ وحده هو يبسطُ الرِّزْقَ، أي: لا غيره، ومثُلُ هذا التركيب عند صاحب «المفتاح» نصٌّ في إفادة تقويِّ الحكم، ولا يحتملُ التخصيصَ البتة،

= بما قد أرى فيها أوانس كالدمى وأشهدُ مِنْهُنَّ الحديثَ الخُلايسا

أي: الحديثَ الرقيق، وقيل: الكَذِب، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (خليس)، فيحتملُ أن يكونَ البيِّتُ مما اختلفَ في روايته، والله تعالى أعلم.

(١) جمعُ أنسة، يُقال: جاريةُ أنسة؛ إذا كانت طيبة النفس تُحِبُّ قُرْبَكَ وحديثك. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (أنس).

(٢) أي: ساحة الحِمَى.

وهو الذي بَسَطَ رِزْقَ أَهْلِ مَكَّةَ ووسَّعَهُ عليهم،.....

لأنَّ المَبْتَدَأَ قارٌّ في مَكَانِهِ، وليسَ مِثْلُ: «أنا عَرَفْتُ» في اِحْتِمَالِ التَّخْصِيسِ (١) وَالتَّقْوِيِّ (٢).

وَيُمْكِنُ أَنْ يُوجَّهَ تَفْسِيرُ المُصَنَّفِ بِأَنْ يُقَالَ: إِنَّ فِي التَّرْكِيبِ تَكَرُّرَ (٣) الحِكْمِ، فَاتَّسَى الحِكْمُ قُوَّةً، فَيُقَيَّدُ التَّأْكِيدَ، فَنَاسَبَ أَنْ يُضْمَنَ التَّخْصِيسَ، لِأَنَّ التَّخْصِيسَ لَيْسَ إِلَّا تَأْكِيدَ الحِكْمِ بِالنَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ، وَالتَّأْكِيدُ أَبَدًا يَرْفَعُ إِرَادَةَ التَّجَوُّزِ عَنِ الحِكْمِ، وَالوَجْهَ أَنَّ ذَلِكَ التَّخْصِيسَ مِنْ قِبَلِ اِخْتِصَاصِ الاسْمِ الجَامِعِ (٤) بِالذِّكْرِ، وَبِنَاءِ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ عَلَيْهِ.

يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ (٥) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]: «وإيقاع اسم الله» مُبْتَدَأً، وَبِنَاءِ ﴿نَزَّلَ﴾ عَلَيْهِ: فِيهِ تَفْخِيمٌ لـ ﴿أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾ (٦)، وَتَأْكِيدٌ لِإِسْنَادِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَصْدَرَ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: (وهو الذي بَسَطَ رِزْقَ أَهْلِ مَكَّةَ)، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللّامَ فِي ﴿الرِّزْقَ﴾ عِوَضٌ مِنَ المُضَافِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، وَأَنَّ الضَّمِيرَ فِي «فَرِحُوا» عَائِدٌ إِلَيْهِ، وَالآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ المُرَادَ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِينَ، وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لِرَبِّهِمْ، وَذَلِكَ لَمَّا بَسَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَفَرِحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَلَا تَرَى كَيْفَ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، إِذْ لَوْ سَمِعُوا مَا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ، وَعَلِمُوا حَقِيقَتَهُ، لَمَّا قَالُوا ذَلِكَ، وَبِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، حَيْثُ سَمِعُوهُ وَعَرَفُوا أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ،

(١) من قوله: «البتة لأن المبتدأ» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢٢٠ وما بعدها.

(٣) في (ف): «إن في التفسير تركيب»، والمثبت من (ح) و(ط).

(٤) أي: لفظ الجلالة «الله».

(٥) أي: قول الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة الزمر (١٣: ٣٦٨).

(٦) من قوله: «وإيقاع اسم الله» إلى هنا، سقط من (ف).

وَفَرِحُوا ﴿١﴾ بِمَا بَسَطَ لَهُمُ مِنَ الدُّنْيَا فَرَحَ بَطْرٍ وَأَشْرٍ لَا فَرَحَ سُورٍ بِفَضْلِ اللَّهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ،
ولم يُقابِلوه بالشُّكر حتى يَسْتَوْجِبُوا نَعِيمَ الآخِرَةِ،

وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ، فعلى هذا قوله: ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾
مُعْتَرِضَةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِمَضْمُونِ الْكَلَامَيْنِ.

وفيه: أَنَّ سَبَبَ تَنَوُّرِ قُلُوبِ الْمُسْتَجِيبِينَ وَاطْمِئْنَانِهَا: التَّجَافِي عَنِ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ
إِلَى دَارِ الْخُلُودِ^(١)، بِشَهَادَةِ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الصُّدَيْنِ.

قوله: ﴿فَرِحَ بَطْرٍ وَأَشْرٍ﴾، الراغب: «الْفَرَحُ: انشِرَاحُ الصَّدْرِ بِلَذَّةٍ عَاجِلَةٍ، وَأَكْثَرُ مَا
يَكُونُ فِي اللَّذَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ^(٢) الدُّنْيَوِيَّةِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا
تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وَلَمْ يُرَخِّصْ

(١) اقْتَبَسَهُ مِمَّا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَسَانِيدٍ ضَعِيفَةٍ - مُرْسَلًا وَمَتَّصَلًا - : «أَنَّهُ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ
اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هَذَا الشَّرْحُ؟ قَالَ:
نُورٌ يُقَدِّفُ بِهِ فِي الْقَلْبِ، فَيَنْفَسِحُ لَهُ الْقَلْبُ»، قَالَ: فَقِيلَ: فَهَلْ لِدَلِكِ مِنْ أَمَارَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ قَالَ:
نَعَمْ، قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنِ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ
قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ.

أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٣: ٣١١)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (١٠٠٦٨) مِنْ حَدِيثِ
القَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا. وَفِي إِسْنَادِهِ رَاوٍ سَاقِطٌ.
وَأَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزَّهْدِ» (٣١٥)، وَوَكَيْعٌ فِي «الزَّهْدِ» (١٥)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ»
(٣٥٤٥٥) وَ(٣٥٤٥٦) مِنْ طَرِيقِ عَمْرٍو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْرُورٍ مُرْسَلًا، وَابْنُ
مَسْرُورٍ مُتَّفَهَمٌ.

وَتَحَرَّفَ «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْرُورٍ» فِي النُّسْخِ الْخَطِيئَةِ وَالْمَطْبُوعَةِ مِنَ «الْمُصَنَّفِ» إِلَى: «عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ»، فَصَارَ
إِسْنَادًا مُتَّصَلًا صَحِيحًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، كَمَا يَبَيِّنُهُ شَيْخُنَا الْعَلَمَةُ الْمُحَقِّقُ مُحَمَّدُ عَوَامَةَ فِي التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.

وَقَدْ أَحْسَنَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ أَوْرَدَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْعَلَهَا حَدِيثًا.

(٢) فِي (ح): «فِي اللَّذَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ»، وَفِي (ف): «فِي الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ»، وَالمُتَّبِعُ مِنْ (ط)، وَهُوَ
المُؤَافِقُ لِمَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ «لِلرَّاعِبِ، مَادَّةُ (فَرِحَ).

وَحَفِيَّ عَلَيْهِمْ أَنْ نَعِيمَ الدُّنْيَا فِي جَنْبِ نَعِيمِ الآخِرَةِ لَيْسَ إِلَّا شَيْئاً نَزْراً يُتَمَتَّعُ بِهِ، كَعَجَالَةِ الرَّابِكِ، وَهُوَ مَا يَتَعَجَّلُهُ مِنْ ثُمِيرَاتٍ أَوْ شَرْبَةِ سَوِيْقٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

[وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّيهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَشْرَفَ] [٢٧-٢٩]

فإن قلت: كيف طابَق قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّيهِ﴾ قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾؟ قلت: هو كلامٌ يجري مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسولُ الله ﷺ لم يؤتتها نبيٌّ قبله، وكفى بالقرآن وحده آيةً وراء كل آية، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم! وما أشدَّ تصميمكم على كفركم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر،

في الفرج إلا في قوله: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ لَفِي فَرْحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * يَنْصُرِ اللَّهُ ﴿[الروم: ٤-٥]﴾^(١).

قوله: (هو كلامٌ يجري مجرى التعجب)، يعني: أن قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّيهِ﴾ من باب العناد والاقتراح ورد الآيات الباهرة المتكاثرة، وإنما يستحق هذا الكلام بأن يُقابل بقوله: ما أعظم كفركم وتصميمكم على الكفر، ومثل هذا التصميم لا يكون إلا بختم الله على القلوب، وإرادة الضلال منكم، ومن يُضلل الله فلا هادي له، ما أدل هذه الآية على مذهب أهل السنة.

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٢٨.

فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿أَنَابَ﴾ أقبل إلى الحق، وحقيقته: دخل في توبة الخير، و﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾ أَنَابَ ﴿، وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، كقوله: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، أو: تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو: تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بيّنة تسكن القلوب، وتثبت اليقين فيها.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ، و﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره. ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿الْقُلُوبِ﴾، على تقدير حذف المضاف، أي: تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا، و﴿طُوبَىٰ﴾ مصدر من: طاب، كبشرى وزلفى،

قوله: (أو تطمئن بالقرآن، لأنه معجزة)، هذا الوجه ملائم لقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، ليكون تعريضاً بالكفار كما سبق.

قوله: (ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿الْقُلُوبِ﴾)، ويحتمل بدل الكل والبعض والاشتمال^(١)، بحسب التعريف في ﴿الْقُلُوبِ﴾، وهذا أحسن توافقاً للموصول الأول^(٢)، وفائدته التعريض بالكفار، وأنهم لا قلوب لهم، لأن عملهم غير صالح، وأن عنادهم بسبب أن أفئدتهم هواء، ولا يلقون أذعابهم وسمعهم كمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، و﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ - على هذا - جملة مستأنفة، كأنه قيل: فما لهم؟ وأجيب: طوبى لهم.

(١) واستظهر العلامة الألويسي رحمه الله تعالى في «روح المعاني» (١٣: ١٥٠) أنه بدل الكل، ولم يرتض أن يكون بدل البعض أو الاشتمال.

(٢) المراد بـ«الموصول الأول»: «الذين» في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، والمعنى: أن إعراب «الذين» - في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ - بدلاً أحسن من إعرابه مبتدأ.

ومعنى «طوبى لك»: أصبت خيراً وطيباً، ومحلها النَّصْبُ أو الرَّفْعُ، كقولك: طيباً لك وطيباً لك، وسلاماً لك وسلاماً لك، والقراءة في قوله: ﴿وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ بالرفْع والنَّصْب، تدلُّك على محلِّها. وَاللَّامُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ للبيان، مثلها في: سُقياً لك، والواو في ﴿طُوبَى﴾ منقلبة عن ياءِ لُصْمَةٍ ما قبلها، كمْوِقِن ومُوسِر. وقرأ مَكْوَزَةُ الأعرابيُّ: «طيبى لهم» فكسر الطاء لِتَسْلَمَ الياء، كما قيل: يَبِضُّ وَمَعِيشَةٌ.

[﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ ٣٠]

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ مثل ذلك الإرسالِ أرسلناك؛ يعني: أرسلناك إرسالاً له شأنٌ وفضلٌ على سائرِ الإرسالات،.....

قوله: ﴿وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ بالرفْع والنَّصْب، بالرفع: السَّبعة، وبالنَّصْب: شاذ. قال أبو البقاء: «الرفعُ والإضافةُ على أنه معطوفٌ على ﴿طُوبَى﴾ إذا جعلتها مُبتدأً، والنَّصْبُ على أنه عطْفٌ على ﴿طُوبَى﴾ في وجهِ نَصْبِها»^(١).

قوله: (وَقَرَأَ مَكْوَزَةً)، رُوِيَ عن المصنِّف: أنه كما سَمَّتِ العَرَبُ بـ«كُوز»، سَمَّتْ بـ«مَكْوَزَةً»، وهي إما جمعُ كُوز، كَمَشِيخَةٍ وَمَسِيْقَةٍ وَمَأْسَدَةٍ، جمعُ شَيْخٍ وَسَيْفٍ وَأَسَدٍ.

قوله: (يعني: أرسلناك إرسالاً له شأنٌ وفضلٌ)، فالكافُ صِفَةٌ مَصْدَرٍ محذوف، والتنكيرُ فيه للتعظيم^(٢)، لأنَّ اسمَ الإشارةِ في أمثالِ هذا المَقَامِ يَدُلُّ على جَلالِ شأنِ المُشارِ إليه، وهو إما ما في الدُّهْن، وهو الظاهر، أو ما سَبَقَ من الآياتِ الدالَّةِ على جَلالِ الشُّوْن، و[في] في

(١) «التيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٥٨).

(٢) قوله: «والتنكير فيه للتعظيم» سقط من (ح) و(ف)، وأثبتته من (ط)، لكن فيها: «واستكبر فيه للتعظيم» وأظنه تحريف عما أثبت.

ثم فسّر كيف أرسله فقال: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك في أمةٍ قد تقدّمتها أمةٌ كثيرةٌ فهي آخرُ الأمم، وأنت خاتمُ الأنبياء، ﴿لِتَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتابَ العظيمَ الذي أوحينا إليك، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وحالٌ هؤلاء أنهم يكفرون ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ بالبلّغِ الرحمة الذي وسّعت رحمته كلَّ شيء، وما بهم من نعمةٍ فمنه، فكفروا بنعمته في إرسالٍ مثلكَ إليهم وإنزالِ هذا القرآنِ المعجزِ المصدّقِ لسائرِ الكتبِ عليهم، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ الواحدُ المتعالى عن الشركاء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم، ﴿وَوَيْلٌ لِّمَن كَانَ عَلَىٰ مُصَابِرَتِكُمْ وَمُجَاهَدَتِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ ليست بصلةٍ لـ ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، بل بيان، ليؤدّن بالتفسير بعد الإيهام على تفخيم الشأن الذي يقتضيه المقام.

قوله: (لتقرأ عليهم الكتاب العظيم)، والتعظيمُ مُستفادٌ من وَضِعَ ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا﴾ مَوْضِعَ «القرآن»، قال^(١) في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي لِّلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]: «في إيهام الموصوفِ بحذفِهِ مِنْ فَخَامَةٍ تُفْقَدُ مَعَ إِضَاحِهِ»، وأتمَّ معنى التفخيم بإيثار^(٢) صيغةِ التعظيم.

قوله: (وحالٌ هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن)، يريد: أنّ قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، و«الرحمنُ» مُظَهَّرٌ وَضِعَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ لَتلكِ الفائدةِ التي ذكرها، وهي أنهم يكفرون بالبلّغِ الرحمة الذي وسّعت رحمته كلَّ شيء، المعنى: إنا أرسلنا مثلكَ إليهم وأنت قائدُ الأنبياء وخاتمهم لتتلوا عليهم مثل هذا القرآن العظيم المعجز المصدّق لسائرِ الكتب؛ ليعبدوني ويوحّدوني^(٣)، وهم مع ذلك بدّلوا الشكرَ بالكُفْران، ثم إنه تعالى أمره بأن يُنبئهم على خاصّةِ نفسه ووظيفته من الشكر، وما آل إليه أمره معهم تأنيباً، فقال: ﴿قُلْ

(١) أي: الزمخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة الإسراء (٩: ٢٥١).

(٢) تحرّف في (ح) إلى: «باتيان».

(٣) في الأصول الخطية: «ليعبدونني ويوحّدونني» بنونين، والوجه ما أثبت.

[﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ٣١]

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ جوابه محذوف، كما تقول لغلامك: لو أني قمت إليك، وتترك الجواب. والمعنى: ولو أن قرآنًا ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مَقَارِهَا، وَزُعِرَتْ عن مَصَاجِعِهَا، ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ حَتَّى تَتَصَدَّعَ وتترايل قطعاً، ﴿أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ فَتَسْمَعُ وتُجِيب، لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في التذكير، ونهايةً في الإنذار والتخويف، كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

هُوَ رَبِّي﴾، أي: العظيم الجامع لأوصاف^(١) الكمال الذي أرسلني إليكم، وجعلني خاتم النبيين، وأيّدني بذلك الكتاب العظيم الشأن، والبلغ الرحمة الذي كفرتم نعمته: هو رَبِّي، ولا رَبَّ لي سواه، وعليه اعتادي وتوكلي لا على غيره، وإليه متابي ومرجعي، لا إلى غيره، فالضمير جار مجرئ اسم الإشارة، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اختصاص التوكل عليه، وتفويض الأمور عاجلاً وأجلاً إليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٠٦]، قال المصنّف: «﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي»^(٢)، على أن المفهوم من كلامه أن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جار مجرئ الحال، ولذلك أوقعه وصفاً لـ ﴿رَبِّي﴾، حيث قال: «رَبِّي الواحد المتعالي عن الشركاء». قوله: (لو أني قمت إليك)، أي: لرأيت ما لا تطيقه.

(١) من قوله: «الشكر وما آل إليه» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) وقال الزمخشري أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْوَاجِ ذَلِكُمْ فَنسَى﴾ [المائدة: ٣]: «قوله: ﴿ذَلِكُمْ فَنَسَى﴾ اعتراض أكد به معنى التحريم».

هذا يَعْضُدُ ما فَسَّرْتُ به قوله: ﴿لَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٠] من إرادة تَعْظِيمِ ما أَوْحَى إلى رسول الله ﷺ من القرآن.

وقيل: معناه: ولو أن قرآنًا وَقَعَ به تَسِيرُ الجبال، وتَقْطِيعُ الأرض، وتكليمُ الموتى وتَنْبِيهِهُم، لَمَا آمَنُوا به وَلَمَا تَنْبَهُوا عليه، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

وقيل: إنَّ أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: سَيرَ بِقَرَانِكَ الجبالَ عن مَكَّةَ حَتَّى تَتَّسِعَ لَنَا، فَتَتَّخِذَ فِيهَا البساتينَ والقِطانَ، كما سُخِّرَتْ لداودَ عليه السَّلَام، إنَّ كُنْتَ نَبِيًّا كما تَزْعُمُ، فَلَسْتَ بأهْوَنَ على الله من داود، وَسَخَّرْنَا لَنَا به الرِّيحَ لِتَرْكَبَهَا وَنَتَّجِرَ إلى الشام، ثم نرجع في يومنا، فقد شَقَّ عَلَيْنَا قَطْعُ المسافَةِ البعيدة، كما سُخِّرَتْ لَسُلَيْمَانَ عليه السَّلَام.....

قوله: (وهذا يَعْضُدُ ما فَسَّرْتُ به)، يعني: إذا جَعَلْتَ جوابَ «لو» قوله: «لكانَ هذا القرآن»، لا ما يجيء: «لَمَا آمَنُوا»، ولا ما دَلَّ عليه قوله: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ» كما ذَهَبَ إليه الفراء^(١)، كانَ دالًّا على أن ذلك التفسيرَ هو الوجيه.

وأما اتصاله على هذا بما سَبَقَ: فالظاهرُ أنه داخلٌ تحتَ حَيِّزِ القول، أي: قُل: هو ربي، وقُل: لو أن قرآنًا، والله أعلم.

قوله: (وقيل: معناه: ولو أن قرآنًا وَقَعَ به تَسِيرُ الجبال... لَمَا آمَنُوا)، فعلى هذا: الآيةُ مُتَّصِلَةٌ بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، وقوله: «وقيل: إنَّ أبا جهل» مُنْفَرَعٌ على هذا الوجه، ولا يَلْزَمُ على هذا تعظيمُ القرآن، لكن يكونُ تَسْجِيلًا على شِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ^(٢) وغايةِ عِنادِهِمْ.

(١) سيأتي بيانه عند المؤلف رحمه الله تعالى قريباً.

(٢) الشَّكِيمَةُ: الأنفة، كما في «القاموس» للفيروزآبادي، مادة (شكم).

أَوْ ابْعَثْ لَنَا بِهِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً مِمَّنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا، مِنْهُمْ قُصِيُّ بْنُ كِلَابٍ؛ فَنَزَلَتْ.

ومعنى 'تقطيع الأرض على هذا': قَطَعُهَا بِالسَّيْرِ وَمَجَاوَزَتُهَا.

وعن الفراء: هو مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ. والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا

سَيَّرَتْ بِهِ أَلْجِبَالَ﴾، وما بينها اعتراض، وليس ببعيد من السداد.

قوله: (أَوْ ابْعَثْ لَنَا بِهِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً مِمَّنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا، مِنْهُمْ قُصِيُّ بْنُ كِلَابٍ)،

وإنما لم يُقَل: وابعث رجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً كَمَا بَعَثَ عَيْسَى، كَمَا صَرَّحَ بِذِكْرِ النَّبِيِّينَ^(١)؛ لِشَهْرَتِهِ.

قوله: (ومعنى 'تقطيع الأرض على هذا': قَطَعُهَا بِالسَّيْرِ)، وَأَنْشَدَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ»^(٢):

وَأَرْضٌ كَأَخْلَاقِ الْكِرَامِ قَطَعَتْهَا وَقَدْ كَحَلَّ اللَّيْلِ السَّمَاءَ فَأَبْصَرَ^(٣)

وعلى الأول: جَعَلُهَا الْقَطَائِعَ، لِأَنَّ الْمُرَادَ حَيْثُذِ الزَّرَاعَةِ. الْقَطَائِعُ: جَمْعُ قَطِيعَةٍ، وَهِيَ

الْأَرْضُ الَّتِي يُزْرَعُ فِيهَا.

قوله: (وعن الفراء: هو مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ)، أَي: جَوَابُ «لَوْ» مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ

يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾^(٤)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ^(٥): «جَوَابُ «لَوْ» مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ، أَي: وَهُمْ يَكْفُرُونَ

بِالرَّحْمَنِ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا؛ عَلَى الْمُبَالَغَةِ»^(٦).

(١) أَي: فِيمَا قَبْلَهُ، فِي قَوْلِهِ: «كَمَا سُخِّرَتْ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وَ«كَمَا سُخِّرَتْ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسَّكَّاكِيِّ ص ٣٤٤.

(٣) الْبَيْتُ لِابْنِ بَابِكٍ، كَمَا فِي «أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ» لِلْإِمَامِ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ ص ٢٣٠.

وَإِبْنُ بَابِكٍ: هُوَ شَاعِرٌ وَقْتَهُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ بَابِكِ الْبَغْدَادِيِّ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ

٤١٠، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَمِنْ لَطِيفِ مَا يُنْقَلُ عَنْهُ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ ابْنُ

بَابِكِ؟ فَقَالَ: بَلِ أَنَا ابْنُ بَابِكِ، فَأَعَجَبَهُ ذَلِكَ. «سِيرَ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» (١٧: ٢٨٠).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢: ٦٣).

(٥) مُبَيَّنًا قَوْلَ الْفَرَّاءِ وَمَوْضُوحًا لَهُ، وَإِلَّا فَقَدْ قَدَّمَ عَلَيْهِ مَا اخْتَارَهُ الزَّمخَشَرِيُّ مِنْ كَوْنِ الْجَوَابِ مَحذُوفًا.

(٦) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٥٩).

وقيل: ﴿قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ شَقَّقَتْ فَجُعِلَتْ أَنْهَاراً وَعُيُوناً.

﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ عَلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: بَلِ اللَّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا؛ إِلَّا أَنَّ عِلْمَهُ بِأَنْ إِظْهَارَهَا مَفْسَدَةٌ يَصْرِفُهُ. وَالثَّانِي: بَلِ اللَّهُ أَنْ يُلْجِئَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِلْجَاءِ، لَوْلَا أَنَّهُ بَنَى أَمْرَ التَّكْلِيفِ عَلَى الْإِخْتِيَارِ. وَيَعْضُدُهُ قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي: مَشِيئَةَ الْإِلْجَاءِ وَالْقَسْرِ، ﴿لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾. وَمَعْنَى ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِيسَ﴾: أَفَلَمْ يَعْلَمْ. قِيلَ: هِيَ لُغَةٌ قَوْمٍ مِنَ النَّخَعِ.....

قوله: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ عَلَى مَعْنَيْنِ، أَي: يَكُونُ إِمَّا إِضْرَاباً عَمَّا أَجَابَ بِهِ قَوْلَ أَبِي جَهْلٍ، أَي: أَعْرِضْ عَن هَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا اقْتَرَحَهُ، إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ أَنْ^(١) إِظْهَارَهُ مَفْسَدَةٌ، أَوْ عَن قَوْلِهِ: «وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا وَقَعَ بِهِ تَسْيِيرُ الْجِبَالِ» إِلَى آخِرِهِ، لِأَنَّ جِزَاءَ «لَوْ» عَلَى التَّقْدِيرِينَ: «لَمَّا ءَامَنُوا بِهِ»، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا: بَلَّغْ تَصْمِيمَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ لَوْ شَاهَدُوا تِلْكَ الْآيَاتِ الْعِظَامَ لَمَّا رَجَعُوا عَن تَصْمِيمِهِمْ، بَلِ اللَّهُ أَنْ يُلْجِئَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِلْجَاءِ، لَوْلَا أَنَّهُ تَعَالَى بَنَى أَمْرَ التَّكْلِيفِ عَلَى الْإِخْتِيَارِ، بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِ^(٢)، وَهَذَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْآخَرَيْنِ.

قال القاسمي: «بل الله قادرٌ على الإتيانِ بما اقترحوهُ مِنَ الآياتِ، إِلَّا أَنَّ إِرَادَتَهُ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِذَلِكَ، لِإِعْلَمِهِ بِأَنَّهُ لَا تَلِينُ لَهُ شَكِيمَتُهُمْ، يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عَن إِيْمَانِهِمْ مَعَ مَا رَأَوْا مِنَ الْأَحْوَالِ»^(٣).

قوله: (قيل: هي لغة قوم من النخع)، بفتح النونِ والخاءِ المُعْجَمَةِ، كذا في «جامع

(١) من أول الفقرة إلى هنا سقط من (ح) و(ف)، وأثبتته من (ط).

(٢) في أن أفعال العباد واقعةٌ بإيجادهم لها، لا يخلق الله تعالى.

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ١٨٨).

وقيل: إنما استعمل «اليأس» بمعنى العلم لتضمينه معناه؛ لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل «الرجاء» في معنى الخوف، و«النسيان» في معنى الترك؛ لتضمن ذلك.....

الأصول»^(١)، قال ابن جني: «رؤي عن ابن عباس: أنها لغة وهبيل^(٢)؛ فخذ من النخع، قال:

ألم يئأس الأقبام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا^(٣)

أي: ألم يعلموا. ويشبهه عندي أن يكون هذا من اليأس، لأن المتأمل للشيء المتطلب لعلمه ذاهب بفكره في جهات تعرفه إياه، فإذا ثبت يقينه^(٤) على شيء من أمره اعتقده وأضرب عما سواه، فلم ينصرف إليه، كما ينصرف اليأس من الشيء عنه، ولا يلتفت إليه^(٥).

الراغب: «اليأس: انتفاء الطمع، يقال: يئس واستيأس، مثل: عجب واستعجب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، قيل: معناه: ألم يعلم، ولم يرد أن اليأس موضوع في كلامهم للعلم، وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل بعد العلم بانتفائه، فإذن ثبوت يأسهم يقتضي حصول علمهم^(٦).

قوله: (لتضمينه معناه)، أي: هو من دلالة التضمن وإطلاق الكل على الجزء، هذا في

(١) انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٩٦٠).

(٢) تحرف في (ح) إلى: «هديل»، وفي (ف) و(ط) والموصلية إلى: «هيبيل»، والمثبت من «المحتسب» لابن جني. و«وهيبيل»: هو وهيبيل بن سعد بن مالك بن النخع، كما في «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ص ٤١٥.

(٣) البيهقي - غير منسوب - في: «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي (٧: ٣٣١)، و«أساس البلاغة» للزمخشري، مادة (يأس)، وفيها: «عن عرض العشيرة».

(٤) في الأصول الخطية: «نفسه»، والمثبت من «المحتسب».

(٥) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٥٧).

(٦) «مفردات القرآن» ص ٨٩٢.

قال سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلِ الرَّيَّاحِيِّ:

أقول لهم بالشَّعْبِ إِذْ يَسْرُونَنِي أَلَمْ تَيَّأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٍ

ويدلُّ عليه: أن عليّاً وابنَ عباسٍ وجماعةً من الصَّحابةِ والتابعين قرؤوا: «أَفَلَمْ يَتَّبِعْنِي»، وهو تفسيرٌ ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسْ﴾.

وقيل: إنما كتبه الكاتبُ وهو ناعِسٌ، فتَسَوَّى السَّنَانُ، وهذا ونحوه مما لا يُصدِّقُ في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثلُ هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام. وكان مُتقلِّباً في أيدي أولئك الأعلامِ المُحتاطين في دين الله، المُهَيِّمينَ عليه، لا يَغفُلونَ عن جلائلهِ ودقائقه، خصوصاً عن القانونِ الذي إليه المرجع، والقاعدةُ التي عليها البناء، وهذه - والله - فَرِيَةٌ ما فيها مِرْيَةٌ.

ويجوزُ أن يتعلَّقَ ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ﴾ بـ ﴿ءَأْمَنُوا﴾،.....

اليأسُ صحيحٌ كما ذكر، وفي التَّسْيَانِ ظاهر، لأنه تركُ الإنسانِ صَبْطَ ما استودِعَ صَعْفاً أو غَفْلَةً أو قَصْداً، وأما في الرجاءِ فمُشْكِلٌ، لأنَّ الرجاءَ والخوفَ مُتقَابِلَانِ، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة: ١٦]، و﴿رَبُّكُمْ الْبَرْقُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [الرعد: ١٢]، ولأنَّ الرجاءَ: ظَنُّ حُصُولِ ما فيه مَسْرَةٌ، والخوفَ: ظَنُّ حُصُولِ المَكْرُوهِ، اللهمَّ إلا أن يُرادَ بالتَّضَمُّنِ الموضوعُ اللَّغْوِيُّ، وهو ما يُفهمُ منه معنى زائد.

قوله: (بينُ دفتي الإمام)، الأساس: «حَفِظَ ما بينَ الدَّفْتَيْنِ، وهما ضمَّامَا المُصَحَّفِ من جانبيه».

قوله: (المُهَيِّمينَ عليه)، في «الجامع»: «المُهَيِّمِينَ: هو الشهيد، وقيل: الأمين، وأصله: مُؤْتَمِنٌ، فقلِّبَتِ الهمزةُ هاءً، وقيل: هو الرَّقِيبُ والحافظُ»^(١).

قوله: (ويجوزُ أن يتعلَّقَ ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ﴾ بـ ﴿ءَأْمَنُوا﴾)، عطفٌ على قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسْ﴾

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير (٤: ١٧٦).

على: أولم يَقْنَطْ عن إيمان هؤلاء الكَفَرَةَ الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولهداهم.

﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم، ﴿قَارِعَةً﴾ داهية تَقْرَعُهُمْ بما يُحِلُّ اللهُ بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة ﴿قَرِيْبًا﴾ منهم، فيفزعون ويضطربون، ويتطأرون إليهم شرارها، ويتعدون إليهم شرورها، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ وهو موثمهم أو القيامة.

وقيل: ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ كقارم مكة ﴿تُصِيبُهُمْ﴾ بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب ﴿قَارِعَةً﴾؛

الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ بِمَعْنَى: مشيئة الإلحاء، ولم يكن يستقيم المعنى إلا بجعل ﴿يَأْتِيَسِ﴾ بمعنى: يعلم، ولذلك قال: «ومعنى ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيَسِ﴾: أفلم يعلم». قال أبو البقاء: «أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ﴾ في موضع نصب بـ ﴿يَأْتِيَسِ﴾، لأن معناه: أفلم يتبين»^(١).

وعلى الوجه الثاني: ﴿يَأْتِيَسِ﴾ بمعنى: يقنط، على حقيقته، و﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ﴾ نصب بنزع الخافض، متعلق بـ ﴿آمَنُوا﴾، لأن «آمن» يُعدى بالباء، وإليه الإشارة بقوله: «آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، وعلى هذا معمول ﴿يَأْتِيَسِ﴾ محذوف، وهو: عن إيمان هؤلاء.

قوله: ﴿بِمَا يُحِلُّ اللهُ بِهِمْ﴾، حَلَّ يَحُلُّ - بِالضَّمِّ - أي: نزل، وأحللته: أنزلته. وفي بعض النسخ: ﴿يَحِلُّ﴾؛ بفتح الياء وكسر الحاء، وفي حاشيته: «أنه من: حَلَّ الْعَذَابُ يَحِلُّ - بِالْكَسْرِ - وَجَبَ»، وهو سهو، والصواب بضم الياء وكسر الحاء^(٢)؛ من: حَلَّ يَحُلُّ - بِالضَّمِّ - أي: نزل، وأحللته: أنزلته، يعضده قوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة ﴿قَرِيْبًا﴾ منهم.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٥٩).

(٢) في (ح) و(ط) والنسخة الموصلية: «بفتح الياء وكسر الحاء»، وهو خطأ بلا ريب، فإنه عين ما وَهَمَهُ المؤلّف، وفي (ف): «بفتح الياء وضم الحاء»، وله وجه، ولكنه بعيد، والأقرب للسياق ما أثبت، والله أعلم.

لأنَّ رسولَ الله ﷺ كان لا يزالُ يبعثُ السَّرايا فتُغيرُ حولَ مكَّةَ وتُختطفُ منهم، وتُصيبُ من مواشيهم ﴿أَوْ نَحْلٌ﴾ أنت يا مُحَمَّدُ ﴿قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ بجيشك، كما حلَّ بالحديبية، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعَدُ اللَّهِ﴾ وهو فتحُ مكَّةَ، وكان اللهُ قد وَعَدَهُ ذلك.

[﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

عِقَابٍ﴾ ٣٢]

الإملاء: الإمهال، وأن يُترك مِلاوةً من الزَّمانِ في خَفْضِ وأَمْنِ، كالبهيمية يُملَى لها في المرعى. وهذا وعيدٌ لهم، وجوابٌ عن اقتراحهم الآياتِ على رسولِ الله ﷺ استهزاءً به، وتسليةً له.

قوله: (مِلاوةً من الزمان)، الجوهري: «أقمتُ عنده مِلاوةً من الدَّهرِ - بفتح الميم وضُمَّها وكسرها - أي: حيناً وبرهة».

الراغب: «الإملاء: الإمداد، ومنه قيل للمُدَّةِ الطويلة: مِلاوةً من الدَّهرِ، ومِلْيٌ من الدَّهرِ، قال تعالى: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مریم: ٤٦]، ومَلَاكَ اللهُ: عَمَّرَكَ اللهُ، والمَلَّوان: قيل: الليلُ والنَّهار، وحَقِيقَةُ ذلك: تَكَرَّرُهما وامتدادُهما، بدلالة قولِ الشاعر:

نهارٌ وليلٌ دائِمٌ مَلَّواهما على كُلِّ حالِ المرءِ يَخْتَلِفان^(١)

فلو كانَ الليلُ والنَّهارُ لَمَّا أَضِيفَا إليهما^(٢).

قوله: (وعيدٌ لهم وجوابٌ عن اقتراحهم) إلى قوله: (وتسليةً له): أي: لرسولِ الله ﷺ،

(١) البيهقي لابن مَقْبِل، كما في «المُحَصَّن» لابن سِيده (٤: ٤٤٢)، وذكره ابنُ منظور في «لسان العرب»، ولم يُسَمِّ قائله.

وابنُ مَقْبِل: هو تميمُ بنُ أَبِي بنِ مَقْبِل، شاعرٌ جاهلي، أدرك الإسلامَ وأسلم، فكان يبيكي أهلَ الجاهلية، توفي بعد سنة ٣٧ هـ. انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١: ٣٦٦)، و«الأعلام» للزركلي (٢: ٨٧).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧٧٦-٧٧٧.

[﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [٣٣-٣٤]

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ احتجاج عليهم في إشرافهم بالله، يعني: أفا لله الذي هو قائم رقيب ﴿ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ﴾ صالحة أو طالحة ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعلم خيره وشره، ويُعدُّ لكل جزاءه، كمن ليس كذلك. ويجوز أن يُقدَّر ما يقع خبراً للمبتدأ، ويُعطفَ عليه ﴿ وَجَعَلُوا ﴾،

أما الوعيد والتسليّة فظاهران، وأما الجواب: فإنَّ أبا جهل حين قال: «سَيَّرَ بِقُرْآنِكَ الْجِبَالَ، وَسَخَّرَ لَنَا الرِّيحَ»، ولم يكن السؤال إلا اقتراحاً واستهزاء؛ لم يُلْتَفَتْ إليه، وقيل لرسول الله ﷺ^(١): ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تعريضاً على منوال قوله: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَبِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قَبِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨-٩].

قوله: (أفا لله الذي هو قائم)، هذا التأويل يُؤذن أنَّ قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ معطوفٌ على كلام سابق، والهمزة مُفَحِّمَةٌ بينهما لمزيد الإنكار، والذي يَصْلُحُ أن يكون معطوفاً عليه هو قوله: ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠]، المعنى: «هو ربِّي الواحد المتعالى عن الشُّركاءِ، عليه تَوَكَّلْتُ في نُصْرَتِي عليكم وإليه مَتَابِي، فَيُثَبِّتُنِي على مُصَابِرَتِكُمْ ومُجَاهَدَتِكُمْ»، أفا لله الذي هو كذلك كمن هو ليس كذلك، لأنَّ المعطوفَ عليه أيضاً مُتَضَمِّنٌ لمعنى الرَّدِّ والإنكارِ على الشرك، لأنه جوابٌ عن قوله: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد: ٣٠]، أي: يُشْرِكُونَ به.

قوله: (ويجوز أن يُقدَّر ما يقع خبراً للمبتدأ، ويُعطفَ عليه ﴿ وَجَعَلُوا ﴾)، يعني: قوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ لا بُدَّ له من خبر؛ إما أن يُقدَّر الخبرُ ما تَتِمُّ به جملة، ويُعطفَ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ على الجملة برأسها، أو أن يُقدَّر الخبرُ ما يَصِحُّ أن يُعطفَ

(١) من بداية الفقرة إلى هنا، سقط من (ح) و(ف)، وأثبتته من (ط).

وتمثيلاً: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ﴿وَجَعَلُوا﴾ له - وهو الله الذي يستحق العبادَةَ وحده - ﴿شُرَكَاءَ﴾؟! ﴿قُلْ سَمَّوْهُمْ﴾ أي: جعلتم له شركاء فسَمَّوْهم له من هم؟ ونَبَّوْهُ بأسمائهم، ثم قال: ﴿أَمْ تَنْتَبِهُنَّ﴾ على «أم» المنقطعة، كقولك للرجل: قل لي: من زيد؟ أم هو أقل من أن يُعرف، ومعناه: بل أنتَبَّوْته بشركاء لا يَعْلَمُهم في الأرض وهو العالمُ بما في السَّواتِ والأرض، فإذا لم يَعْلَمْهُم عِلْمَ أَنَّهُمْ ليسوا بشيء يتعلَّق به العِلْمُ، والمراد: نفْيُ أن يكونَ له شركاء. ونحوه: ﴿قُلْ أَتَنْتَبِهُنَّ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]. ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ بل اتَّسَمَوْهُم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكونَ لذلك حقيقة، كقوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]،

﴿وَجَعَلُوا﴾ عليه، ليكونَ من عطفِ الخيرِ على الخير، وعلى هذا ﴿لِلَّهِ﴾ مُظْهَرٌ وَضِعَ مَوْضِعَ الراجِعِ إِلَى الْمَبْتَدَأِ.

قوله: (وتمثيلاً)، أي: وتقديرُ هذا الوجه.

قوله: (كقولك للرجل)، أي: لمن يقولُ بِفَضْلِ زَيْدٍ واشتِهَارِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُمْ، وَأَنْتَ تُرِيدُ نَقْصَهُ وَحَطَّهُ مِنْ مَنَزَلَتِهِ: من زيد؟ وهو عندك مشهور، أي: لا أعرفه عَرَفْنِيهِ، ثم تَضْرِبُ عن هذا السُّؤالِ بقولك: أم هو أقل، يعني: هو أقل من أن يُسألَ عنه أنه من هو؟ فَضْلاً عن أن يُسألَ عن فَضْلِهِ وشُهْرَتِهِ.

كذا جَعَلْهُمُ اللَّهُ شُرَكَاءَ يَبْعَثُ الْقَائِلَ عَلَى أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: سَمَّوْهُمْ، أي: إن صَدَقْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، فَأَتَيْتُوا لَهَا أَسْمِيَ تَدُلُّ عَلَى وُجُودِهَا، ثم أَضْرَبَ عن قوله: ﴿سَمَّوْهُمْ﴾، يعني: جَعَلْهُمُ اللَّهُ شُرَكَاءَ إِبْنَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِوُجُودِ شُرَكَاءِ، ومثلُ هذه المُنبِّأِ به لا وُجُودَ لَهَا حتَّى يُعْلَقَ بِهَا مَا يَتَنَاوَلُهُ مِنَ الْأَسْمِ، ثم أَضْرَبَ عن هذا القَوْلِ بقوله: ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾، بمعنى: هَبْ أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ سَمَّوْهُمْ شُرَكَاءَ، فهذه التسميةُ عندهم قولٌ لا حقيقةَ لَهَا، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [يوسف: ٤٠]، وهذا الاحتجاج
 وأساليبه العجيبة التي وَرَدَ عليها.....

قوله: (وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة)، أي: هذا الاحتجاج مبني على فنون من
 علم البيان:

أولها: قوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ كَمَنْ هو ليس كذلك؟! احتجاج
 عليهم وتوبيخهم على القياسِ الفاسدِ لفقدانِ الجهةِ الجامعةِ.

وثانيها: قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ مِنْ وَضَعِ الْمُظْهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ
 جَعَلُوا شُرَكَاءَ لِمَنْ هُوَ فَزْدٌ وَاحِدٌ لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي اسْمِهِ، كقوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ
 سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

وثالثها: قوله: ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾، أي: عَيَّنُوا أَسْمَاءَهُمْ، وقولوا: فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فهو إنكارٌ
 لوجودها على وَجْهِ بُرْهَانِي، كما تقول: إِنْ كَانَ الَّذِي تَدَّعِيهِ مَوْجُوداً فَسَمِّهِ، لَأَنَّ الْمُرَادَ
 بِالْأَسْمِ الْعَلَمُ الَّذِي عُلِّقَ عَلَى الشَّيْءِ بَعَيْنُهُ، فَمَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُوداً لَمْ يَكُنْ مُعَيَّنًا، فَلَا يُعَلَّقُ عَلَيْهِ
 اسْمٌ، لَأَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَهُوَ مِنْ أَسْلُوبِ الْكِنَايَةِ الْإِبْرَائِيَّةِ.

ورابعها: قوله: ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ، بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾ احتجاج من باب نفي الشيء بنفي لازمه، وهو
 نوعٌ من الكناية.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ احتجاج من باب الاستدراج، والهمزة
 للتقرير ببعثهم على التفكير، يعني: أتقولون بأفواهكم من غير رؤية وأنتم الباء، فتفكروا
 فيه لتقفوا على بطلانه.

وسادسها: التدرُّجُ في كُلِّ مِنَ الْإِضْرَابَاتِ عَلَى الطَّفِّ وَجْهٍ.

وحينَ كانت الآيةُ مُشْتَمِلَةً عَلَى هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الْبَدِيعَةِ مَعَ اخْتِصَارِهَا عَلَى أْبْلَغِ مَا
 يَكُونُ، قَالَ: «وهذا الاحتجاج مُنَادٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ»، وَهُوَ كَلَامٌ عَالِي

مَنَادٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِلِسَانٍ طَلَّقَ ذَلْقًا: أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ لَمَنْ عَرَفَ وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

وَقُرِئَ: «أَتَنْبِئُونَهُ» بِالْتَّخْفِيفِ.

﴿مَكْرَهُمْ﴾ كَيْدُهُمْ لِلْإِسْلَامِ بِشُرِّكَهِمْ، ﴿وَصُدُّوا﴾ قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ: «وَصَدُّ» بِالتَّنْوِينِ، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ﴾ وَمَنْ يَحْذُلُهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يَهْتَدِي ﴿فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فَمَا لَهُ مِنْ أَحَدٍ يَقْدِرُ عَلَىٰ هِدَايَتِهِ.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَهُوَ مَا يَنَالُهُمُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَسَائِرِ الْمِحَنِ،

المرتبة، لَكُنْ تَذْيِيلُهُ بِقَوْلِهِ: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» وَضَعَهُ إِلَىٰ أَسْفَلِ السَّافِلِينَ^(١).

قَالَ فِي «الْإِتِّصَافِ»: «هِيَ كَلِمَةٌ حَقٌّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، يُعْرَضُ فِيهَا بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، فَتَنْبَهُ لَهَا، فَمَا أَسْرَعَ مَا يَمُرُّ بِكَ فَتَسْتَحْسِنُهَا وَتَغْفُلُ عَمَّا قَصَدَهُ بِهَا»^(٢).

قَوْلُهُ: (بِلِسَانٍ طَلَّقَ ذَلْقًا)، الْجَوْهَرِيُّ: «ذَلَّقَ اللِّسَانَ - بِالْكَسْرِ - يَذَلِّقُ ذَلْقًا: أَي: ذَرَبَ ذَرَبًا»، وَ«الذَّرِبُ: الْحَادُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

قَوْلُهُ: ﴿وَصُدُّوا﴾ قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، بَفَتْحِ الصَّادِ: نَافِعٌ وَأَبُو بَكْرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ، وَبِالضَّمِّ: الْبَاقُونَ^(٣)، وَبِالْكَسْرِ: شَاذٌ^(٤).

(١) قَوْلُهُ: «وَهُوَ كَلَامٌ عَالِي الْمَرْتَبَةِ»، أَي: كَلَامُ الرَّخْمَشَرِيِّ - فِي وَصْفِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى - عَالِي الْمَرْتَبَةِ، وَقَوْلُهُ: «لَكُنْ تَذْيِيلُهُ»، أَي: تَذْيِيلُ الرَّخْمَشَرِيِّ، وَقَوْلُهُ: «وَضَعَهُ إِلَىٰ أَسْفَلِ السَّافِلِينَ»، أَي: أَنْزَلَ كَلَامَهُ مِنْ مَرْتَبَتِهِ الْعَالِيَةِ إِلَىٰ مَرْتَبَةٍ دُنْيَا؛ لِإِسَافِهِ مِنْ وَصْفِ كَلَامِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْحَدُوثِ.

(٢) «الْإِتِّصَافُ» لِابْنِ الْمُثَنَّى (٢: ٣٦٢) بِحَاشِيَةِ «الْكَشَافِ».

(٣) انظُرْ: «التَّيْسِيرُ» ص ١٣٣، وَ«حِجَةُ الْقِرَاءَاتِ» ص ٣٧٣.

(٤) وَهِيَ قِرَاءَةٌ يَحْيَىٰ بْنُ وَثَّابٍ، قَالَ النَّحَّاسُ فِي «إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» (٢: ٢٢٥): «لَأَنَّ الْأَصْلَ: «صُدُّوا»، فَقَلِّبْتَ حَرَكَةَ الدَّالِ عَلَى الصَّادِ».

ولا يَلْحَقُهُمْ إِلَّا عِقَابٌ لَّهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، ولذلك سَمَّاهُ عَذَابًا، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ وما لهم من حافظٍ من عذابه، أو ما لهم من جِهَتِهِ وَاقٍ من رَحْمَتِهِ.

[مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾]

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صِفَتُهَا الَّتِي هِيَ فِي غَرَابَةِ الْمَثَلِ، وَارْتِفَاعُهُ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَالْخَبْرُ مَحذُوفٌ عَلَى مَذْهَبِ سَيِّبَوَيْهِ؛ أَي: فِيهَا قَصَصْنَا عَلَيْكُمْ مَثَلُ الْجَنَّةِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْخَبْرُ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كَمَا تَقُولُ: صِفَةُ زَيْدٍ أَسْمَرٌ، وَقَالَ الرَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ: مَثَلُ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، عَلَى حَذْفِ الْمُوصُوفِ تَمَثِيلًا لِمَا غَابَ عَنَّا بِهَا تُشَاهِدُ. وَقَرَأَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمْثَالُ الْجَنَّةِ» عَلَى الْجَمْعِ؛ أَي: صِفَاتُهَا. ﴿أَكُلُهَا دَائِمٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ [الوَاقِعَةُ: ٢٣]، ﴿وَظِلُّهَا﴾ دَائِمٌ لَا يُنْسَخُ، كَمَا يُنْسَخُ فِي الدُّنْيَا بِالشَّمْسِ.

قَوْلُهُ: (إِلَّا عِقَابٌ لَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ)، اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَعَمِّ الْمَفْعُولِ لَهُ، وَفَاعِلٌ «لَا يَلْحَقُهُمْ»

ضَمِيرٌ «مَا يَنَالُهُمْ»، أَي: لَا يَلْحَقُهُمْ مَا يَنَالُهُمْ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا لِلْعُقُوبَةِ.

قَوْلُهُ: (أَوْ: مَا لَهُمْ مِنْ جِهَتِهِ وَاقٍ مِنْ رَحْمَتِهِ)، «مِنْ» الثَّانِيَةُ فِي التَّنْزِيلِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ: زَائِدَةٌ، وَالْأُولَى: عَلَى الْأَوَّلِ: مُتَعَلِّقَةٌ بِـ ﴿وَاقٍ﴾، وَعَلَى الثَّانِي: مُتَعَلِّقَةٌ بِالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ، أَي: ﴿لَهُمْ﴾، وَ«مِنْ رَحْمَتِهِ» صِفَةُ «وَاقٍ»، أَي: مَا اسْتَقَرَّ لَهُمْ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ وَاقٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، أَي: شَافِعٌ كَائِنٌ مِنْ رَحْمَتِهِ، أَي: بِإِذْنِهِ.

قَوْلُهُ: (وَقَالَ الرَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ: مَثَلُ الْجَنَّةِ)، لَفْظُهُ - عَلَى مَا أوردَهُ أَبُو عَلِيٍّ فِي «الْإِغْفَالِ»^(١) - : «قَالَ سَيِّبَوَيْهِ: فِيهَا نُقِصُ عَلَيْكُمْ مَثَلُ الْجَنَّةِ، فَرَفَعَهُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾»

(١) أَلْفَهُ فِي تَعْقِبِ الرَّجَّاجِ فِي كِتَابِهِ «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ»، وَانظُرْ مَا تَقَدَّمَ ص ٤٠٢ تَعْلِيْقًا عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٧٧ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ.

مرفوع، وخَبَرُهُ: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، كما تقول: صِفَةُ فُلَانٍ أَسْمَرٌ^(١)، معناه: صِفَةُ الجنة، وكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَسَنٌ جَمِيلٌ، والذي عندي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَرَّفَنَا أَمْرَ الْجَنَّةِ الَّتِي لَمْ نَرَهَا وَلَمْ نُشَاهِدْهَا بِمَا شَاهَدْنَاهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَعَايِنَاهُ، فالمعنى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ: جَنَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(٢).

وقال أبو علي: تفسيرُ «المثل» بالصفة غيرُ مُستقيم لغةً، ولم يُوجد فيها البتة، وإنما تفسيره: الشَّبه، يَدُلُّكَ عَلَيْهِ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مِثْلِكَ، فوصفوا به النَّكْرَةَ مُضَافاً إِلَى الْمَعْرِفَةِ، كما قالوا: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ شَبِهَكَ، ولم يَخْتَصَّ بِالْإِضَافَةِ لِكثْرَةِ مَا يَقَعُ بِهِ الْإِشْتِبَاهُ، كما لم يَخْتَصَّ بِالْمُمَاثَلَةِ، ومنه قَوْلُهُمْ لِلْقِصَاصِ: الْمِثَالُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وأما النظرُ فيه من جهة التَّأْوِيلِ فغيرُ مُستقيم أيضاً، ألا ترى أَنَّ «مَثَلًا» إِذَا كَانَ مَعْنَاهُ: صِفَةً، كَانَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: صِفَةُ الْجَنَّةِ فِيهَا أَنْهَارٌ، وهو غيرُ مُستقيم، لأنَّ الْأَنْهَارَ فِي الْجَنَّةِ نَفْسِهَا لَا فِي صِفَتِهَا، ولأنه إِذَا حُمِلَ «المثل» عَلَى مَعْنَى الصِّفَةِ، وَأُجْرِيَ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُ مَجْرَاهُ، وَأُنْتُ^(٣) الرَّاجِعُ إِلَيْهِ فِي ﴿فِيهَا﴾ و﴿تَحْتِهَا﴾، فَقَدْ حُمِلَ الْأِسْمُ فِي قَوْلِهِمْ عَلَى الْمَعْنَى، وهو قَبِيحٌ، نَحْوُ: ثَلَاثِ شُخُوصٍ، وَسَبْعِ أَبْطُنٍ.

وأما الذي اسْتَخْرَجَهُ أَبُو إِسْحَاقَ^(٤) فغيرُ مُستقيم أيضاً، لأنَّ «المثل» أما إنْ يَكُونُ صِفَةً أَوْ شَبَهًا؛ أما أَوْلَى فَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يُقَالَ: صِفَةُ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ، لأنَّ الْجَنَّةَ لَيْسَتْ بِصِفَةٍ، وأما ثَانِيًا فَلأنَّ الشَّبهَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُمَاثَلَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَمَاثِلِينَ، وهو حَدَثٌ، وَالْجَنَّةُ غَيْرُ حَدَثٍ. فالصَّحِيحُ مَا قَالَهُ سَبِيوِيَه.

(١) في (ح) و(ف): «اسم»، وهو تحريف، والمثبت من (ط) و«معاني القرآن» للزجاج.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٤٩-١٥٠).

(٣) تحرف في (ح) إلى: «وليت»، وفي (ف) إلى: «وليت»، والمثبت من (ط).

(٤) يعني: الزجاج، والكلام ما زال لأبي علي الفارسي، عليهما جميعاً رحمة الله تعالى.

فإن قلت: ما تعلق قوله: ﴿تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بما قبله؟ قيل: تعلق التفسير، كما أن قوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ﴾ تفسير لقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] (١).

والجواب: أما إنكار التأويل لمنع الحمل، وتمثله بقوله: «كان تقدير الكلام: صفة الجنة فيها أنهار» فضعيف، ألا ترى إلى أنه كيف مثلها بقوله: «صفة فلان أسمر» (٢)، لأن معناه حينئذ: صفة الجنة جريان الأنهار من تحتها، ولا شك أن إرادة الصفة من المثل مجاز إنما يجوز إذا كانت الصفة مشتملة على قصة عجيبة الشأن، أو أمر عجيب، فجريان الأنهار من تحت الجنان مع دوام الأكل والظل من غير انقطاع من الأمور العجيبة.

وأما تأنيث الضمير: فلكونه راجعاً إلى «الجنة» لا إلى «المثل»، وإنما جاز ذلك لأن المقصود من المضاف عين المضاف إليه، وذكره توطئة، وليس نحو: غلام زيد (٣).

وأما قوله: «إن الشبهة» عبارة عن المماثلة، وهو حدث، والجنة غير حدث» فضعيف، لأن التشبيه حينئذ تمثيلي، والوجه متترع من عدة أمور متوهمة، فيترع من أحوال الجنان المشاهدة - من جريان أنهارها، وغضارة أغصانها (٤)، وتكاثف (٥) أفنانها، وغير ذلك من الحسن والنضارة - ما يجعل مشبهاً به، وهو المراد من قول الزجاج: «إن الله عز وجل عرفنا أمر الجنة التي لم نرها ولم نشاهدها بما شاهدناه في أمور الدنيا وعيانه»، ولذلك صرح

(١) «الإغفال» لأبي علي الفارسي (٢: ٣٤٢-٣٥٠).

(٢) في (ح) و(ف): «اسم»، والمثبت من (ط)، وهو التحريف نفسه الذي تقدم التنبيه إليه.

(٣) أي: في أن المضاف فيه غير المضاف إليه، فزيد غير غلامه.

وانظر مناقشة ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى هنا في «روح المعاني» للألوسي (١٣: ١٦٣).

(٤) أي: لينها ونعومتها وحضرتها.

(٥) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «تكلف»، والمثبت من (ط).

[﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ [٣٦]

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يريد: مَنْ أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما، وَمَنْ أسلم من النَّصَارَى، وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، هؤلاء ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ ﴾ يعني: وَمِنَ أَحْزَابِهِمْ، وهم كفرتهم الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، نحو كعب بن الأشرف وأصحابه، والسَّيِّدِ والعاقِبِ أُسْقَفِي نَجْرَانَ وأشباعهما، ﴿ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ لأنهم كانوا لا يُنكرون الأَقاصيصَ وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم غير مُحَرَّف، وكانوا يُنكرون ما هو نعت الإسلام ونعت رسول الله ﷺ وغير ذلك مما حَرَّفوه وبدَّلوه من الشرائع.

فإن قلت: كيف اتَّصَلَ قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ بما قبله؟ قلت: هو جوابٌ للمُنْكَرِينَ، معناه: قل إنهما أُمِرْتُ فيما أُنزِلَ إليَّ بأن أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ،.....

المُصَنَّفُ بلفظ^(١) التمثيل، ويكونُ قوله: ﴿ أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظَلُّهَا ﴾ بياناً لِفَضْلِ تِلْكَ الْجِنَانِ وتمييزها من هذه المُشَاهِدَةِ.

قوله: (أُسْقَفِي نَجْرَانَ)، النهاية: «الأسقف: عالم رئيس من علماء النَّصَارَى ورؤسائهم، وهو اسمٌ سُرياني، ويحتملُ أن يكونَ سُمِّيَ به لخصوعه وانحنائه في عبادته، والسَّقْفُ - في اللغة -: طُولٌ في انحناء».

نَجْرَانَ: مَوْضِعٌ معروفٌ بينَ الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ.

قوله: (هو جوابٌ للمُنْكَرِينَ)، وذلك أن الله تعالى لَمَّا حَكَى عن بعض اليهود أنه يُنْكِرُ بعض ما عليه رسولُ الله ﷺ من إثبات الإسلام ودَعْوَى النُّبُوَّةِ، قال صلواتُ الله عليه: يا رب،

(١) في الأصول الخطية: «لفظ»، وأضفت إليه الباء.

فإنكاركم له إنكارُ لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تُنكرون مع ادّعاءكم وجوب عبادة الله، وأن لا يُشرك به؛ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]. وقرأ نافع - في رواية أبي خُليد -: «ولا أشركُ»؛ بالرّفْع على الاستِثْناف، كأنه قال: وأنا لا أشركُ به، ويجوزُ أن يكونَ في موضع الحال؛ على معنى: أمرتُ أن أعبدَ الله غيرَ مُشركٍ به. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ خصوصاً لا أدعو إلى غيره، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره مرّجعي، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

[﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [٣٧]

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ومثل ذلك الإنزالِ أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده، والدعوة إليه وإلى دينه، والإنذارِ بدار الجزاء، ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حكمةً عربيةً مترجمةً بلسانِ العرب،.....

بماذا أُجيبهم إذن؟ فقيل له: قل: إن إيتائي^(١) الإسلام والنّبوة يُوجبُ عبادة الله تعالى، وإثبات التوحيد، ونفي الشُّرك، وأن المرجع إليه في العاقبة، فإنكاركم هذا إنكارٌ لِمَا نحنُ وأنتم عليه، كما قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية.

قوله: (وقرأ نافع)، وهي شاذة.

قوله: (ومثل ذلك الإنزالِ أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله)، «ذلك» إشارةٌ إلى مصدرِ «أنزلنا»، وهو المُشَبَّه به، والمُشَبَّه ما سبق من قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿، ووجه التشبيه كونُ ذلك المنزَلِ المأمورِ فيه مُبيناً مكشوفاً على وجهِ مُحْكَمِ رصين، فقوله: «والدعوة إليه وإلى دينه» تفسيرٌ لقوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾، وقوله: «والإنذارِ

(١) في (ط) و(ح): «إيتائي»، وفي (ف): «إيتاني»، ولعلّ المثبت أصوب.

وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يوافقهم عليها، منها: أن يُصَلِّيَ إلى قِبَلَتِهِمْ بعدما حَوَّلَهُ اللهُ عنها، فقليل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواءٌ وشبهٌ بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة؛ خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق. وهذا من باب الإلهاب والتّهيج، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه، وأن لا يزال زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان.

[﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾]

٣٨-٣٩]

بدار الجزاء» إشارة إلى قوله: ﴿وَلِئِذَا مَثَابٌ﴾، يعني: أجبتهم بقولك^(١): ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ الآية، واعلم أنا أنزلنا القرآن مثل ذلك الإنزال العجيب الشأن؛ تشجيعاً له وشرحاً لصدره صلوات الله عليه وتسليّة عما قاسى من إنكارهم.

قوله: (وانتصابه على الحال)، أي: انتصاب^(٢) ﴿حُكْمًا﴾ على أنها حال موطئة، كقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

قوله: (ما هو إلا أهواء)، وشبه الحصر مستفاد من وضع أهوائهم موضع ما زعموا أنه الدين، ودعوا رسول الله ﷺ إليه من أن يُصَلِّيَ إلى قِبَلَتِهِمْ، أي: ليس ذلك إلا عن شبه، وكذلك قابله بقوله: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وأخرج الجملة مخرج القسمية، لأن اللام في ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ﴾ موطئة للقسم.

قوله: (والا فكان رسول الله ﷺ)، أي: هذا من باب البعث للسامعين على الثبات والتصلب

(١) من لفظ الآية الشريفة: ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) في (ح) و(ف): «انتصابه».

كانوا يَعْيُونَهُ بِالزَّوْجِ وَالْوَالِدِ، كما كانوا يقولون: «ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطَّعامَ»، وكانوا يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ الآيَاتِ، وَيُنْكِرُونَ النَّسْخَ، فقليل: كان الرُّسُلُ قَبْلَهُ بَشَرًا مِثْلَهُ ذَوِي أَزْوَاجٍ وَذُرِّيَّةٍ، وما كان لهم أن يأتوا بآياتٍ برأيهم، ولا يأتون بما يُفْتَرِحُ عَلَيْهِمُ، وَالشَّرَائِعُ مَصَالِحٌ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ؛ فَلِكُلِّ وَقْتٍ حُكْمٌ يُكْتَبُ عَلَى الْعِبَادِ؛ أَي: يُفْرَضُ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ اسْتِصْلَاحُهُمْ، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يَنْسَخُ مَا يَسْتَصِيبُ نَسْخَهُ، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بَدَلَهُ مَا يَرَى الْمَصْلَحَةَ فِي إِثْبَاتِهِ، أَوْ يَرْكُهُ غَيْرَ مَنْسُوخٍ، وَقِيلَ: ﴿يَمْحُوا﴾ مِنْ دِيْوَانِ الْحِفْظَةِ مَا لَيْسَ بِحَسَنَةٍ وَلَا سَيِّئَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِكُتْبَةِ كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ غَيْرَهُ. وَقِيلَ: يَمْحُو كُفْرَ التَّائِبِينَ وَمَعَاصِيَهُمْ بِالتَّوْبَةِ، وَيُثَبِّتُ إِيْمَانَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ. وَقِيلَ: يَمْحُو بَعْضَ الْخَلَائِقِ وَيُثَبِّتُ بَعْضًا مِنَ الْإِنْسَانِيِّ وَسَائِرِ الْحَيْوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَصِفَاتِهَا وَأَحْوَالِهَا، وَالْكَلَامُ فِي نَحْوِ هَذَا وَاسِعُ الْمَجَالِ. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أَصْلُ كُلِّ كِتَابٍ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، لِأَنَّ كُلَّ كَاتِنٍ مَكْتُوبٌ فِيهِ.

فِي الدِّينِ، لَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يُؤْمَرَ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الشُّكِيمَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَى التَّصَلُّبِ فِي الدِّينِ، بَحِيثٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّصِرَ فَوْقَهُ، وَمَنْ ثَمَّ قَالَ: «بِمَكَانٍ»، أَي: بِمَكَانٍ لَا مَكَانَ فَوْقَهُ. تَلْخِيصُهُ: أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مُحَاطَبٌ بِهِ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ تَعْرِيفُ.

قَوْلُهُ: (لَأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِكُتْبَةِ كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ غَيْرَهُ)، قَالَ الْكَلْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ^(١): إِنَّ الَّذِي يَمْحُوهُ وَيُثَبِّتُهُ مَا يَصْعَدُ بِهِ الْحِفْظَةُ مَكْتُوبًا عَلَى بَنِي آدَمَ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ فِيهِ أَنْ يُثَبَّتَ مَا فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ، وَيَمْحُو مَا لَا ثَوَابَ فِيهِ وَلَا عِقَابَ، كَقَوْلِكَ: أَكَلْتُ وَشَرِبْتُ وَدَخَلْتُ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْكَلَامِ.

قَوْلُهُ: (وَالْكَلَامُ فِي نَحْوِ هَذَا وَاسِعُ الْمَجَالِ)، لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ لَا تَفَادَلَ لَهُ، وَمَعْلُومَاتُ اللَّهِ لَا

(١) لفظه: «والضحاك» سقطت من (ف).

وَقُرِي: «وَيُبَيِّنُ».

[وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾]

[٤٠]

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.

[﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ

سَكِرْبُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾]

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفر ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتح على

المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام، وذلك من آيات النصر والغلبة، ونحوه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ

الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]،.....

نهاية لها، وكل يوم هو في شأن، ومن ثم كاذ أقوال المفسرين فيه تفوت الحصر، قال الإمام: «يزيل ما يشاء، ويثبت ما يشاء من حكمه، ولا يُطلع على غيبه أحداً، فهو المنفرد بالحكم، والمستقل بالإنجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، والإغناء والإفقار، وغير ذلك»^(١).

قوله: (وقري: «ويبين»)، ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب: بالتخفيف، والباقون:

بالتشديد^(٢).

قوله: (وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم)، أي: لا بُد من أن تفعل، وذلك من تأكيد

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٩: ٥٢).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد ص ٣٥٩، و«حجة القراءات» ص ٣٧٤.

﴿ سَرَّيْهَمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ ﴾ [فصلت: ٥٣]، والمعنى: عليك بالبلاغ الذي حُمَّلته؛ ولا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكهُ ونُتِمُّ ما وَعَدْنَاكَ مِنَ الظَّفَرِ، ولا يُضَجِّركُ تَأَخُّرُهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لِمَا نَعْلَمُ مِنَ الْمَصَالِحِ الَّتِي لَا تَعْلَمُهَا، ثُمَّ طَيَّبَ نَفْسَهُ وَنَفَسَ عَنْهَا بِمَا ذَكَرَ مِنْ طُلُوعِ تَبَاشِيرِ الظَّفَرِ. وَقُرِئَ: «نُنْقِضُهَا» بالتشديد.

﴿لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا رادَ لِحُكْمِهِ. وَالْمَعْقَبُ: الَّذِي يَكْرَهُ عَلَى الشَّيْءِ فَيُبْطِلُهُ،

الإراءة والتوفية بما قبلها، والنون بعدها^(١)، كما ذكرناه عن الرَّجَاجِ وصاحب «المُرشد» في أول البقرة، فقوله: «أريناك» و«توفيناك» بيان أحوال الدائرة، وسيجيء الكلام فيه في سورة «حم المؤمن»^(٢).

قوله: (وَنَفَسَ عَنْهَا)، أي: أزال الغمَّ عنها.

قوله: (بِمَا ذَكَرَ مِنْ طُلُوعِ تَبَاشِيرِ الظَّفَرِ)، وهو قوله: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُضُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، كقوله: ﴿سَرَّيْهَمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾. «تباشير الصُّبْحِ»: أوائله.

قوله: (وَالْمَعْقَبُ: الَّذِي يَكْرَهُ عَلَى الشَّيْءِ فَيُبْطِلُهُ)، الراغب: «التعقيب: أن يأتي بشيء بعد آخر، قال تعالى: ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الرعد: ١١]، أي: ملائكة يتعاقبون^(٣) عليه حافظين له، وقوله تعالى: ﴿لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي: لا أحد يتعقبه ويبحث عن فعله، من قولهم: عَقَّبَ الْحَاكِمُ عَلَى حُكْمٍ مِّنْ قَبْلِهِ؛ إِذَا تَبَّعَهُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وما بعد حُكْمِ اللَّهِ تَعْقِيبُ^(٤)

(١) أي: تأكيد الفعل «نُري» والفعل «نُتَوَّقَى»، بما قبلها من المُؤكِّدات، يعني: «إن» و«ما»، وما بعدهما من المُؤكِّدات، يعني: نون التوكيد الثقيلة.

(٢) أي: سورة غافر، وانظر الآية ٧٧ منها (١٣: ٥٤٧).

(٣) في (ح) و(ف): «يتعقبون»، وفي (ط): «يعتقبون»، والمُتَّبِتُ من «مفردات القرآن» للراغب.

(٤) لم أفهم عليه، وكذا قال مُحَقِّقُ «المفردات» الدكتور صفوان داوودي: «لم أجده».

وحقيقته: الذي يعقبه، أي: يُقْفِيهِ بِالرَّدِّ والإِبْطَالِ. ومنه قيل لصاحب الحق: مُعَقَّبٌ؛ لأنه يُقْفِي غريمه بالافتضاء والطلب، قال لبيد:

طَلَبُ الْمُعَقَّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ

والمعنى: أنه حَكَمَ للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس. ﴿وَهُوَ سَكْرِيْعُ الْحِسَابِ﴾ فَعَمَّا قَلِيلٍ يُجَاسِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ عَذَابِ الدُّنْيَا. فإن قلت: ما محلُّ قوله: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾؟ قلت: هو جملة محلُّها النَّصْبُ على الحال، كأنه قيل: والله يُحْكِمُ نَافِذًا حُكْمَهُ، كما تقول: جاءني زيدٌ لا عِمَامَةَ على رأسه ولا قَلَنْسُوءَ، تُريد: حَاسِرًا.

[﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلُ الْكَفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ٤٢]

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وصفهم بالمكر، ثم جعل مكرهم كلاً مكرٍ بالإضافة إلى مكره، فقال: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾.....

ويجوز أن يكون ذلك نهيًا عن الخوض في حكمه وحكمته إذا خفيت عليهم، كالنهي عن الخوض في سرِّ القدر، والاعتقاد: أن يتعاقب شيء بعد أخرى، كاعتقاد الليل والنهار، ومنه العقبه، وهي أن يتعاقب الإنسان على ركوب ظهره^(١).

قوله: (طَلَبُ الْمُعَقَّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ)، أوله:

حتى تهجر في الرواح وهاجها^(٢)

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٧٥-٥٧٦.

(٢) انظر: «ديوان لبيد» ص ١٥٥.

ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ، وَأَعَدَّ لَهَا جَزَاءَهَا، فَهُوَ الْمَكْرُ كُلُّهُ؛ لِأَنَّهُ يَأْتِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِمَّا يُرَادُ بِهِمْ. وَقُرِي: ﴿الْكُفْرُ﴾ و«الكافرون» و«الذين كفروا» و«الْكُفْرُ»؛ أَي: أَهْلُهُ. وَالْمَرَادُ بِالْكَافِرِ: الْجِنْسُ، وَقَرَأَ جَنَاحُ بْنُ حُبَيْشٍ: «وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ»؛ مِنْ: أَعْلَمَهُ؛ أَي: سَيُخْبِرُ.

[﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ٤٣]

﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لِمَا أَظْهَرَ مِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى رِسَالَتِي، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وَالَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْقُرْآنِ وَمَا أُلِّفَ عَلَيْهِ مِنَ النَّظْمِ الْمُعْجَزِ.....

يَصِفُ أَنَا وَحَمَارًا، «تَهَجَّرَ»: أَي: خَرَجَ فِي الْهَاجِرَةِ^(١)، وَالضَّمِيرُ فِي «وَهَاجَهَا» لِلْأَتَانِ، يَقُولُ: تَرَدَّدَ الْجِمَارُ خَلْفَ الْأَتَانِ يَطْلُبُهَا كَطَلَبِ الْمُعْتَبِ الْمَظْلُومِ حَقَّهُ، وَحَمَلَ «الْمَظْلُوم» عَلَى حَمْلِ «الْمُعْتَبِ» لِأَنَّهُ فَاعِلٌ أُضِيفَ إِلَيْهِ الْمَصْدَرُ، وَالتَّقْدِيرُ: كَمَا طَلَبَ الدَّائِنُ الْمَظْلُومُ حَقَّهُ^(٢).
قَوْلُهُ: (وَقُرِي: ﴿الْكُفْرُ﴾)، ابْنُ عَامِرٍ وَالْكَوْفِيُّونَ^(٣).

قَوْلُهُ: (وَالَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْقُرْآنِ وَمَا أُلِّفَ عَلَيْهِ مِنَ النَّظْمِ الْمُعْجَزِ)، قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْقُرْآنِ شَهِيدٌ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ مُعْجِزَةٌ بِهَا ذِكْرٌ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ شَهِيدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ لِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْقُرْآنِ لَمْ يَسْمَعْ شَهَادَةَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُهُ، فَلَمْ يَكُنْ شَهِيدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ،

(١) وَهِيَ نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى الْعَصْرِ، وَقِيلَ: شِدَّةُ الْحَرِّ، وَكَذَا الْهَاجِرُ وَالْهَاجِرَةُ وَالْهَاجِرُ، أَمَّا التَّهَجُّرُ وَالتَّهَجُّرُ وَالْإِهْجَارُ: فَهُوَ السَّيْرُ فِي الْهَاجِرَةِ. «لِسَانَ الْعَرَبِ» لابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (هَجَرَ).

(٢) وَانظُرْ: «الْمُقْصَلُ» لِلزُّخْمَشَرِيِّ ص ٢٢٥، وَ«شَرْحُ الْأَلْفِيَةِ» لابْنِ عَقِيلٍ (٢: ١٠٤).

(٣) أَي: عَاصِمٌ وَحِزَّةٌ وَالْكَسَاتِيُّ، أَمَّا ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو فَفَرَّوْا: «وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ»، انظُرْ: «السَّبْعَةُ» لابْنِ مَجَاهِدٍ ص ٣٥٩.

الفائتِ لقوى البَشْرِ. وقيل: وَمَنْ هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا. لأنهم يشهدون بِنَعْتِهِ في كُتُبِهِمْ، وقيل: هو الله عزَّ وعلا، والكتابُ: اللوحُ المحفوظ. وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله.....

لأنَّ النَّظْمَ الْمُعْجِزَ وَالْفَصَاحَةَ إدراكُهَا بِالذَّوْقِ بَعْدَ أَنْ يُعْلَمَ مَا كَانَ مُحْصَلًا لَهُ.

وَقُلْتُ: عَلَى الشَّاهِدِ أَنْ يَشْهَدَ بَيْنَ الْحَضْمَيْنِ، فَمَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَدْعَنَ لِلْحَقِّ سَمِعَ الشَّهَادَةَ، وَمَنْ لَمْ يَتْرُكِ الْعِنَادَ وَإِنْ سَمِعَ وَعَرَفَ وَذَاقَ لَمْ يَنْفَعُهُ مَعْرِفَةُ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ بِشَّهَادَةِ الْغَيْرِ، أَلَا تَرَى إِلَى أَبِي جَهْلٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ كَيْفَ عَرَفَا الْمُعْجِزَ وَذَاقَا الْبَلَاغَةَ وَشَهِدَا لَهُ بِالْفَصَاحَةِ، وَلَمْ يُدْعِنَا لِلْحَقِّ، كَمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ فِي سُورَةِ «حَمِ السَّجْدَةِ»^(١)، فَالشَّاهِدُ أَرْبَابُ الْبَلَاغَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ صَاحِبُ «الْإِنْصَافِ»^(٢).

قَوْلُهُ: (وَ«الْكِتَابُ»: اللَّوْحُ الْمُحْفُوظُ)، الْإِنْصَافُ: «الْكِتَابُ - عَلَى الْأَوَّلِ -: الْقُرْآنُ، وَالَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»: الْمُؤْمِنُونَ، وَعَلَى الثَّانِي: جِنْسُ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ»^(٣).

قَوْلُهُ: (لَا وَاللَّهِ، مَا يَعْنِي إِلَّا اللَّهَ)، هَذَا رَدٌّ لِزَعْمِ مَنْ ذَهَبَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ غَيْرُ اللَّهِ، وَإِثْبَاتُ بِالْقَسَمَةِ لِمَا أَرَادَهُ، يَعْنِي: لَيْسَ كَمَا زَعَمُوا، وَاللَّهُ مَا يَعْنِي اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ إِلَّا اللَّهُ.

وَلَعَلَّ اخْتِيَارَهُ هَذَا لِأَنَّ حَمْلَهُ عَلَى الْعَارِفِ بِعِلْمِ الْقُرْآنِ - كَمَا سَبَقَ -: فِيهِ تَعَسُّفٌ، وَعَلَى مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ: بَعِيدٌ؛ لِمَا رَوَى مُحِبِّي السُّنَّةِ عَنْ قَتَادَةَ: أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ. وَأَنْكَرَهُ الشُّعْبِيُّ وَقَالَ: السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ أَسْلَمَ بِالْمَدِينَةِ. وَكَذَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ^(٤). وَلِأَنَّ الْقِرَاءَتَيْنِ

(١) أي: سورة فُصِّلَتْ، وانظر كلام الزمخشري في تفسير الآية ١٤ منها (١٣: ٥٨٤).

(٢) «الانصاف» لابن المنير (٢: ٣٦٤) بحاشية «الكشاف».

(٣) المصدر السابق (٢: ٣٦٢).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ٣٢٨).

والمعنى: كفى بالذي يَسْتَحِقُّ العبادة والذي لا يَعْلَمُ عِلْمَ ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم. وتَعَضُّدُهُ قراءةٌ من قرأ: «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ» على «مِنْ» الجازة، أي: وَمِنْ لَدُنْهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، لَأَنَّ عِلْمَ مَنْ عِلِمَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَلُطْفِهِ.

وقرئ: «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ» على «مِنْ» الجازة، و«عِلْمَ» على البناء للمفعول، وقرئ: «وَبِمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ».

فإن قلت: بَمَ ارتفع ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟ قلت: في القراءة التي وقع فيها ﴿عِنْدَهُ﴾ صلة يرتفع «العِلْمُ» بالمُقَدَّرِ في الظرف، فيكونُ فاعلاً؛ لأنَّ الظَّرْفَ إذا وَقَعَ صِلَةً أَوْعَلَ في شِبْهِ الفِعْلِ؛ لاعتِماده على الموصولِ، فَعَمِلَ عَمَلَ الفِعْلِ، كقولك: مررتُ بالذي في الدار أخوه، ف«أخوه» فاعل، كما تقول: بالذي استقرَّ في الدار أخوه.

مُسَاعِدَتَانِ لِهَذَا الْوَجْهِ، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «وَمَنْ قرأ: «عِلْمُ الْكِتَابِ» على ما لم يُسَمَّ فاعله جَعَلَ معموله (مَنْ عِنْدَهُ)»^(١).

قوله: (والمعنى: كفى بالذي يَسْتَحِقُّ العبادة)، يعني: إذا عُنِيَ بـ«مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَلْزَمُ عَطْفُ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَوَّلُ^(٢) اسْمِ الذَّاتِ بِمَا يُعْطِيهِ مِنْ مَعْنَى اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ^(٣)، لِكَوْنِهِ جَامِعاً لِمَعَانِي الْأَسْمَاءِ، كَمَا قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: لَا يَكُونُ إِلَّا حَتَّى يَكُونَ مَعْبُوداً، وَحَتَّى يَكُونَ خَالِقاً وَرَازِقاً وَمُدَبِّراً، فَاتَى بِالْمَوْصُولَةِ لِتَوَافُقِ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ عَلَى وِزَانِ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَا لَهْفَ زِيَابَةَ لِلْحَارِثِ الصِّبَايَحِ فَالْعَائِمِ فَالْأَيْبِ^(٤)

(١) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء المَكْبَرِيِّ (٢: ٧٦١).

(٢) في (ف): «فأولى»، والمثبت من (ط).

(٣) من قوله: «يعني: إذا عني» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) البيهقي لابن زِيَابَةَ، كما في «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ١٠٩).

وفي القراءة التي لم يقع فيها ﴿عِنْدَهُ﴾ صِلَةٌ يَرْتَفَعُ «الْعِلْمُ» بالابتداء.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرَّعْدِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بَوَّزَنَ كُلُّ سَحَابٍ مَضَى، وَكُلُّ سَحَابٍ يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ اللَّهِ».

الانْتِصَافُ: «قَدَّرَ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ اسْمُ «اللَّهِ» بِالَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ؛ حَدَرًا مِنْ عَطْفِ الصِّفَةِ عَلَى الْمَوْصُوفِ، وَعُدُولًا إِلَى أَنَّهُ عَطْفٌ لِإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى»^(١).
قوله: (يرتفع «العلم» بالابتداء)، قال أبو البقاء: «(مَنْ عِنْدَهُ) خَبَرٌ، وَالْمُبْتَدَأُ: ﴿عِلْمٌ أَلْكَتَبِ﴾»^(٢).

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِحَمْدِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ

* * *

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٦٤) بحاشية «الكشاف».

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٦١).

سورة إبراهيم عليه السلام

مكية، وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿الرَّكَتَبُ﴾ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١-٣﴾]

﴿رَكَتَبٌ﴾ هو كتاب، يعني: السورة. وقُرئ: «ليُخْرِجَ النَّاسَ».....

سورة إبراهيم عليه السلام

مكية، وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (هو كتاب)، هذا على تقدير أن يكون ﴿الر﴾ تعديداً للحروف؛ قرعاً للعصا وتقدمةً لدلائل الإعجاز، لا على أنها اسمٌ للسورة.

فإن قلت: لِمَ أئسَرَ هذا الوجه على أن المقام يقتضي أن يكون اسماً^(١) للسورة، لأن

(١) في (ف): «وصفاً»، والمثبت من (ط) و(ح).

﴿الظُّلْمَتِ﴾ و﴿النُّورِ﴾: استعارتان للضلال والهدى، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتسهيله وتيسيره، مُستعارٌ من الإذن الذي هو تسهيلٌ للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق،

الخطاب بقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ الآية، مع النبي ﷺ لا مع القوم؟ قلت: معناه: أن المركب من هذه هو كتابٌ بلغ في البلاغة والإعجاز إلى مكانٍ يخرج بسببه الناس من الظلمات إلى النور.

قوله: (مُستعارٌ من الإذن الذي هو تسهيلٌ للحجاب)، قال المصنّف: «استعارةُ «الإذن» للتسهيل والتيسير لأنّ الدخولَ في حقّ المالك مُتعدّرٌ، فإذا صودفَ الإذنُ تسهّلَ وتيسّرَ، فلما كان الإذنُ تسهلاً لِمَا تعدّرَ من ذلك، وُضِعَ موضِعَهُ، والمراد: عنده منحه اللطفِ وتيسيرُ الإيذان»، قال محيي السنّة: «بأمرِ رَبِّهِمْ، وقيل: بعلمِ رَبِّهِمْ»^(١).

وقوله: «مُستعارٌ من الإذن» بعد قوله: «والظلمات والنور: مُستعاران»^(٢): فيه وجهان:

أحدهما: استقلالُ كُلِّ من الاستعارات.

وثانيهما: أن يُعتبرَ التركيبُ إما عقلياً أو وهمياً، فيتصوّرُ الهدى كأنه نور، والضلالُ كأنه ظلمة، ويتصوّرُ المكلفُ لانغماسه في ظلمات الكفر بحيث لا يتسهّلُ له الخروجُ إلى نور الإيذان إلا بأن يفضّلَ اللهُ تعالى عليه بكرمه، ويبعثَ رسولاً، وينزلَ كتاباً، ثم يسهّلُ ذلكَ عليه، كمن وقعَ في يمه مظلمة ليس منها الخلاص، ولات حينَ مناص، وإن ملكاً بعثَ توفيقاً إلى بعض خواصّه في استخلاصه، وضمّنَ تسهيلَ ذلكَ على نفسه.

ثم استعملَ هناك ما كان مُستعملاً هاهنا، فقيل: «كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ بإذننا»، ووضِعَ موضِعَ الضميرِ قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، للإشعارِ بالترية واللطفِ والفضل، وبأن الهدايةَ لطفٌ محض، وفيه: أن الكتابَ والرسولَ والدعوةَ لا تُجدي دونَ الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

(١) «معالم التنزيل» للبخاري (٤: ٣٢٩).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «استعارتان».

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ بِتَكَرِيرِ الْعَامِلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِثْنَاءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِلَى أَيِّ نُورٍ؟ فَقِيلَ: إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ﴾ عَطْفٌ بَيَانٍ لـ ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾؛ لِأَنَّهُ جَرَى تَجْرَى الْأَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ لِغَلَبَتِهِ وَاسْتِخْصَاصِهِ بِالْمَعْبُودِ الَّذِي تَحَقَّقَ لَهُ الْعِبَادَةُ، كَمَا غَلَبَ «النَّجْمُ» فِي الثُّرَيَّا. وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى: هُوَ اللَّهُ.

الْوَيْلُ: تَقْيِضُ الْوَالِ؛ وَهُوَ النَّجَاةُ، اسْمٌ مَعْنَى، كَالهَلَاكِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُسْتَقْبَلُ مِنْهُ فِعْلٌ، إِنَّمَا يُقَالُ: وَيْلًا لَهُ، فَيُنْصَبُ نَصْبُ الْمَصَادِرِ، ثُمَّ يُرْفَعُ رَفْعًا لِإِفَادَةِ مَعْنَى الثَّبَاتِ، فَيُقَالُ: وَيْلٌ لَهُ، كَقَوْلِهِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ.

وَلَمَّا ذَكَرَ الْخَارِجِينَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ، تَوَعَّدَ الْكَافِرِينَ بِالْوَيْلِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ اتِّصَالِ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بِ«الْوَيْلِ»؟ قُلْتَ: لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يُؤَلَّوُونَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، وَيَضْجُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: يَا وَيْلًا!

قَوْلُهُ: (بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ بِتَكَرِيرِ الْعَامِلِ)، قَالَ الْقَاضِي: «إِضَافَةُ الصَّرَاطِ» إِلَى اللَّهِ: إِمَّا لِأَنَّهُ مَقْصِدُهُ أَوْ الْمَظْهَرُ لَهُ. وَتَخْصِصُ الْوَصْفَيْنِ - أَعْنِي: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ - لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُدَلُّ سَالِكَهُ وَلَا يُجِيبُ سَائِلَهُ»^(١).

قَوْلُهُ: (لِأَنَّهُ جَرَى تَجْرَى الْأَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ لِغَلَبَتِهِ، كَمَا غَلَبَ «النَّجْمُ» فِي «الثُّرَيَّا»)، فِيهِ بَحْثٌ عَلَى مَا سَبَقَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ؛ عَلَى: هُوَ اللَّهُ)، نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ، وَالباقونَ: بِالْجَرِّ^(٣).

قَوْلُهُ: (مَا وَجْهُ اتِّصَالِ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بِ«الْوَيْلِ»)، يَعْنِي: أَنَّ الظَّاهِرَ يَمْنَعُ

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ١٩٢).

(٢) فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، عِنْدَ الْكَلَامِ فِي لَفْظِ الْجَلَالَةِ مِنَ الْبِسْمَلَةِ.

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ١٣٤، و«حجة القراءات» ص ٣٧٦.

كقوله: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، ويجوز أن يكون مجروراً؛ صفة للكافرين، ومنصوباً على الذم، أو مرفوعاً؛ على: أعني الذين يَسْتَحِبُّونَ، أو: هم الذين يَسْتَحِبُّونَ. والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر.

وقرأ الحسن: «ويُصِدُّون» بضم الياء وكسر الصاد. يُقال: صدّه عن كذا، وأصدّه،

قال:

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ

والهمزة فيه داخله على: صَدَّ صُدُّودًا، لِيَتَنَقَّلَهُ مِنْ غَيْرِ التَّعَدِّي إِلَى التَّعَدِّي

من الاتصال: قال أبو البقاء: «(وَوَيْلٌ) مُبْتَدَأٌ وَ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ خَبْرُهُ، وَ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ صِفَةٌ «الْوَيْلُ» بَعْدَ الْخَبَرِ، وَهُوَ جَائِزٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بـ«وَيْلٌ» لِأَجْلِ الْفَضْلِ بَيْنَهُمَا بِالْخَبَرِ»^(١).

وأجاب: أنه يجوز، لأنه اتَّصَلَ بِهِ مَعْنَى لَا لَفْظًا، لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يُؤَلُّوُونَ وَيَضْجُونَ مِنْهُ^(٢)، وَقَوْلُهُ: «وَيَقُولُونَ: يَا وَيْلَاهُ» تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: «يُولُولُونَ».

قوله: (أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ)، تمامه:

صُدُّودَ السَّوَابِي عَنِ أَنْوْفِ الْخَرَائِمِ^(٣)

(١) «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٦٢).

(٢) في الأصول الخطية: «من عذاب»، والمثبت من «الكشاف».

(٣) البيت لذي الرمة، كما في «ديوانه» ص ٧٠١، وفيه: «عن أنوف المخارم»، وسيأتي بتمايمه عند الزمخشري =

ولست بفصيحة كـ «أوقفه»؛ لأنَّ الفصحاء استغنوا بـ «صدّه» و«وقفه» عن تكلف التعديّة بالهمزة.

﴿وَبَعُوثَهَا عَوْجًا﴾ وَيَطْلُبُونَ لِسَبِيلِ اللَّهِ زَيْغًا وَعَوْجًا جَاءَ، وَأَنْ يَدُلُّوا النَّاسَ عَلَى أَتَمَّا سَبِيلٍ نَاكِبَةً عَنِ الْحَقِّ غَيْرُ مُسْتَوِيَةٍ، وَالْأَصْلُ: وَيَبْعُونَ لَهَا،

«أصدَّ»: جاء بمعنى: صدّ، وهي لغة كَلْب، و«السَّوافي»: الرِّياح، و«الحَرَم» - بالخاء المُعجمَة والرَّاء المُهملة -: أنْفُ الجبل، يقول: هُم أَناسٌ صَدُّوا الأعداءَ عَن أَنفُسِهِم كَمَا تَصُدُّ الرِّيحُ عَن أنُوفِ الجِبال.

قوله: (ولست بفصيحة)، يُمكنُ أن يُراد: وليست قراءةُ الحسَنِ بفصيحة، لأنَّ المشهورَة - وهي «يصدُّون» بفتح الياء - هي الفصيحة، ونحنُ مُستغنونَ بها عن تكلفِ جعلِ «يصدُّون» منقولاً من: صدَّ صدوداً، كما استغنينا عن «أوقفه» للتعديّة، لأنّه جاء «وقفه»، وهذا مبنىٌ على عاديّه بأنَّ القراءةَ ليست بموقوفةٍ على السَّماع، بل على الاجتهاد.

قوله: (وأن يدُلُّوا النَّاسَ على أنها سَبِيلٌ ناكِبَةٌ)، قيل: هو عطفٌ على «زَيْغًا»، أي: يَطْلُبُونَ لِسَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَدُلُّوا النَّاسَ. وَالوَجْهُ أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى «يَطْلُبُونَ»، لأنَّ ما يَطْلُبُونَهُ معدومٌ مُحال، فلا يَكُونُ طَلَبُهُمْ إلا هذه الدلالة، ووَصَفُهُمْ^(١) بأنها سَبِيلٌ ناكِبَةٌ، وَقَدْحُهُمْ فيه: عِنادٌ وَتَعَنُّتٌ^(٢).

= في تفسير الآية ٨٧ من سورة القصص (١٢: ١٢٥) بلفظ: «عن أنوف الحوائم»، وهكذا أورده الجوهري في «الصحاح» (صدد)، وقال ابن منظور في «لسان العرب» (صدد): «هذا البيت أنشدّه الجوهري وغيره على هذا النّصّ، قال ابن بري: وصوابُ إنشاده: «صدود السَّواقِي عن رؤوسِ المَخارِمِ»، والسَّواقِي: مجاري الماء، والمَخَرِمُ: مُتَقَطِّعُ أنْفِ الجبل».

قلت: ومعنى «الحوائم»: العِطاش، وإبلٌ حوائِمٌ وحُومٌ: عِطاشٌ جدًّا. «لسان العرب»، مادة (حوم).

(١) في الأصول الخطية: «وصفهم» دون واو، ولم يظهر لي وجهه، فأضفتُ إليه الواو، والله تعالى أعلم.

(٢) في (ف): «وتعسف»، والمُتَبَّنُّ من (ح) و(ط).

فَحُذِفَ الْجَارُ وَأُوصِلَ الْفِعْلُ. ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ضَلُّوا عن طريقِ الحقِّ، ووقَفُوا دُونَهُ بمراحِل.

فإن قلت: فما معنى وَصَفِ الضَّلَالِ بِالْبُعْدِ؟ قلت: هو من الإسناد المجازيِّ، والبُعدُ في الحقيقة للضَّالِّ؛ لأنه هو الذي يَتَبَاعَدُ عَنِ الطَّرِيقِ، فوصف به فعله، كما تقول: جَدَّ جِدُّهُ، ويجوز أن يُرادَ: في ضلالٍ ذي بُعْدٍ، أو: فيه بُعْدٌ؛ لأنَّ الضَّالَّ قد يَضِلُّ عن الطريقِ مكاناً قريباً وبعيداً.

قوله: (في ضلالٍ ذي بُعْدٍ، أو: فيه بُعْدٍ)، قال صاحبُ «الفرائد»: فعلى هذا «البُعدُ» صِفَةٌ للمكان، لا صِفَةٌ للضَّلالِ. وقلت: هذا حقٌّ، وأما تحريُّرُ هذا المقامِ فإنَّ يقال: إنَّ أصلَ الكلامِ أنهم ضَلُّوا عن طريقِ الحقِّ ضلالاً أيَّ ضلالٍ، فاستُعيرَ له البُعدُ، وقيل: بعدوا فيه، فالْبُعدُ من صفتيهم، فوصفَ بالضلالِ الذي هو فعلُهُم ومُلتبسٌ بهم، نحو^(١): طريقِ سائرٍ، وهو المرادُ من قوله: «فوصفَ به فعلُهُ»، أو أنَّ الضَّلالَ كأنه مكانٌ واسعٌ ذو أطرافٍ ومسافاتٍ، وهو من الكِنَايةِ المطلوبِ بها تخصيصُ الصِّفةِ بالموصوفِ، لأنَّ القُرْبَ والبُعدَ مما يُضافُ إلى المكانِ، فنسبَ به أن محلَّ الضَّلالِ محلُّ ذو بُعْدٍ، والضَّلالُ معنى لا بُدَّ له أن يقومَ بذاتٍ يكونُ هذا المحلُّ مكانه ومُسْتَقَرَّه، قال:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوَّةَ وَالنَّدَى
فِي قُبَّةِ ضُرَيْبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ^(٢)

وأما قوله: «أو: فيه بُعْدٍ»: فهو تمثيلٌ، كأنه مثلُ طريقِ مُستقيمٍ، وصوِّرَ أنَّ العُدولَ عن الجادةِ يَمَنَّةً وَيَسْرَةَ ضلالاً، وحينئذٍ تَتَفَاوَتُ الضَّلالاتُ بِحَسَبِ المعاصي^(٣) والبِدَعِ والكُفْرِ، وإلى التمثيلِ الإشارةُ بقوله: «لأنَّ الضَّالَّ قد يَضِلُّ عن الطريقِ مكاناً قريباً وبعيداً».

(١) من قوله: «طريقِ الحقِّ ضلالاً» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٢) البيتُ لزيادِ الأعجمِ، كما تقدَّم ص ١٥٨ تعليقا عند تفسير الآية ٨٤ من سورة هود.

(٣) تحرَّفَ في (ف) إلى: «المعاني».

[﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٤]

﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليفقهوا عنه ما يدعُوهم إليه، فلا يكون لهم حُجَّةٌ على الله ولا يقولوا: لم نفهم ما حُوِّطَ بنا به، كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْتَهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤].

فإن قلت: لم يُبعث رسولُ الله ﷺ إلى العربِ وحدهم، وإنما بُعث إلى الناس جميعاً ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بل إلى الثقلين، وهم على ألسنةٍ مختلفةٍ، فإن لم تكن للعرب حُجَّةٌ فليغيرهم الحُجَّةُ، وإن لم تكن لغيرهم حُجَّةٌ فلو نزلَ بالعجمية لم تكن للعرب حُجَّةً أيضاً.

قلت: لا يخلو إما أن ينزلَ بجميع الألسنةِ أو بواحدٍ منها، فلا حاجة إلى نُزوله بجميع الألسنة، لأنَّ الترجمة تُنوبُ عن ذلك وتكفي التَّطْوِيلَ، فبقي أن ينزلَ بلسانٍ واحد، فكان أولى الألسنةِ لسانُ قومِ الرَّسُولِ؛ لأنَّهم أقربُ إليه، فإذا فهموا عنه وتبيَّنوه وتَنَوَّقَلْ عنهم وانتَشَر، قامتِ التراجُمُ ببيانهِ وتَفهيمِهِ، كما ترى الحالَ وتُشاهدُها من نيابةِ التراجُمِ في كلِّ أمةٍ من أُممِ العَجَم، مع ما في ذلك من اتِّفَاقِ أهلِ البلادِ المُتباعِدة، والأقطارِ المُتنازِحة، والأُممِ المُختلفة، والأجيالِ المُتفاوتة، على كتابٍ واحد، واجتهادِهِم في تعلُّمِ لفظِهِ وتعلُّمِ معانيهِ، وما يتشعَّبُ من ذلك من جلائلِ الفوائد، وما يتكاثرُ في إِتِبابِ النُّفوسِ وكَدِّ القرائِحِ فيه، من القُرْبِ والطاعاتِ المُفضيةِ إلى جَزيلِ الثوابِ،

قوله: (فلو نزلَ بالعجمية)، جوابُ الشرطِ على التَّأويلِ، أي: ولئن مُنِعَ أن يكون حُجَّةً لغيرِ العربِ فنحنُ نقولُ أيضاً: لو نُزِّلَ، إلى آخِرِهِ.

ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها، يتلوه عليهم معجزاً، لكان ذلك أمراً قريباً من الإلحاء.

قوله: (أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من النزاع^(١) والاختلاف)، قال صاحب «الفرائد»: وذلك أن الرسول إذا لم يكن له لسان مخالفاً للسان قومه تبيّن لهم كلهم ما أرسل به إليهم بلسانهم هم، ثم هم ينقلون ذلك إلى من سواهم من الأمم، وهلمّ جزاً، فيحصل التواتر، وبه يحصل اليقين، وأما إذا كان لسانه مخالفاً للسان المبعوث إليهم، فيحتاجون إلى الترجمان^(٢) والمبين، فيضعف النقل، فلم يحصل لهم اليقين، فيقع الاختلاف. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لم يقبض حتى صار النقل تواتراً.

قوله: (وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها، كما كلم أمته) إلى قوله: (لكان ذلك أمراً قريباً من الإلحاء)، قال في «الانتصاف»: «وفي هذا نظر؛ إذ يتضمّن أن إعجاز القرآن بلفظه خاصة، حتى لو قدر منزلاً بكل لغة لكان إلقاء إلى الإيمان، وهو بعيد، لأن الإيمان عند حصول العلم بالمعجزة ليس إلهائياً، ولا فرق بين حصوله بلغة واحدة ولغات كثيرة»^(٣).

وقلت: ولعل مراد المصنّف من الإلحاء أن رجلاً واحداً عربياً إذا تكلم باللسان التي لا تكاد تنحصر كثرة، ويكون كل منها مستقلاً بالإعجاز، كان ذلك مما يخرج عن حد المعجزة التي يصح أن يتحدث بها، فيكون كالأمور التي تلجئ إلى الإيمان، كالكشف عن قوارع الساعة، وحضور ملك الموت، وغير ذلك، ومن ثم قال: «قريباً من الإلحاء».

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «التنازع».

(٢) بضمّ التاء وفتحها، وهو الذي يُترجم الكلام، أي: ينقله من لغة إلى أخرى، والجمع: تراجم. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (ترجم).

(٣) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٦٦) بحاشية «الكشاف».

ومعنى ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾: بلغة قومه. وقُرئ: «بلسنِ قومه». واللِّسْنُ واللِّسَانُ: كالرِّيشِ والرِّيشِ، بمعنى اللغة. وقُرئ: «بلسنِ قومه» بضم اللام، والسِّينُ مضمومةٌ أو ساكنةٌ، وهو جمعُ لسانٍ، كعمادٍ وعمدٍ وعمدٍ على التَّخْفِيفِ.

وقيل: الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ لمحَمَّدٍ ﷺ، ورووه عن الضحاک. وأنَّ الكُتُبَ كُلَّهَا نزلت بالعربية، ثمَّ أذاها كلُّ نبيٍّ بلغة قومه، وليس بصحيح؛ لأنَّ قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ ضميرُ القوم، وهمُ العربُ، فيؤدِّي إلى أنَّ اللهَ أنزل التَّوراةَ من السماء بالعربية ليبيِّنَ للعرب، وهذا معنى فاسدٌ. ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾ [التغابن: ٢]، لأنَّ اللهَ لا يضلُّ إلا مَنْ يعلمُ أنه لن يؤمنَ، ولا يهدي إلا مَنْ يعلمُ أنه يؤمنُ. والمرادُ بالإضلال: التَّخْلِيَةُ وَمَنْعُ الأَلطافِ، وبالهداية: التَّوْفِيقُ والأَلطَفُ، فكان ذلك كنايةً عن الكُفْرِ والإيمانِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يُغلب على مَشِيئَتِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يَحْدِلُ إلا أهلَ الخِذْلانِ، ولا يَلطَفُ إلا بأهلَ الأَلطَفِ.

قوله: (التي هو منها)، الضميرُ المرفوعُ للرسولِ ﷺ، والمجرورُ للأمة. وقوله: «يَتْلُوهُ» حالٌ من المرفوعِ في «كَلَّمَ».

قوله: (لأنَّ قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ ضميرُ القوم، وهمُ العربُ)، وللضَّحَاكِ أن يقول: الضميرُ لكُلِّ قومٍ، كأنه قيل: وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومِ مُحَمَّدٍ ﷺ ليبيِّنَ الرسولُ لقومِهِ الذي أُرْسِلَ إليهم؛ لِدلالةِ السِّياقِ^(١).

قوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾، يُريد: أنَّ الفاءَ في ﴿فَيُضِلُّ﴾ تفصيلية، يعني: أنَّ اللهَ تعالى أُرْسِلَ الرسولُ إلى القومِ ليبيِّنَ لهم طريقَ الهدايةِ وطريقَ الضَّلالةِ، فعند ذلك حَصَلَ الاختلافُ؛ فبعضُهم اختاروا الهدايةَ وبعضُهم الضَّلالةَ، كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾

(١) نقل العلامة الألويسي في «روح المعاني» (١٣: ١٨٦) ما ذكره المؤلف هنا، وجعله تكلفاً، فليُنظر.

[﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾] ٥

﴿ أَنْ أَخْرِجْ ﴾ بمعنى: أي أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج. ويجوز أن تكون «أن» الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر، وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية. والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل: قولهم: أوغز إليه بأن افعل، فأدخلوا عليها حرف الجر. وكذلك التقدير: بأن أخرج قومك،

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿ إلى قوله: ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، لكن لما كان الإضلال والهداية مترادفين لِمَنع الألفاظ وَمَنح التوفيق، والمنع والمنح لازمين للكفر والإيمان، كتى بها عنهما على التلويحية.

وعندنا: الفاء ليست للتفصيل، لأن المعنى: ما كان إرسال الرُّسُل إلا للبيان والزام الحججة وإزاحة العلة وتمييز الضال من المهتدي، لا ليوجدوا فيهم الهداية، ويؤيلوا عنهم الضلالة، فإن ذلك من الله تعالى، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، لأنه عزيز قوي لا يُغالب، يفعل ما يشاء، حكيم لا يدرك أحد كنه حكيمته، يحكم ما يشاء، هذا ظاهر لا تعقيد فيه ولا تعسف، وموافق لفاتحة السورة، والله أعلم.

قوله: (أوغز إليه)، الجوهري: «أوغزتُ إليه في كذا وكذا؛ أي: تقدّمت، وكذلك: وعزتُ إليه توغيزاً، وقد يُحْفَفُ فيقال: وعزتُ إليه وعزاً». وفي الحاشية^(١): «أوغز؛ أي: أمر».

قوله: (فأدخلوا عليها حرف الجر)، ودخول حرف الجر مشعرٌ بأن «أن» مصدرية، لأنه من خواص الاسم، ولو كانت مفسرة لزم خلاف ذلك، لأن حرف الجر لا يدخل على الحرف ولا على الفعل.

(١) أي: حاشية نسخة المؤلف رحمه الله تعالى من «الكشاف»، وقد نقل عنها في مواضع، صرح في بعضها بعز ما فيها إلى الزمخشري، وتردد في بعض آخر، وسكت في ثالث، كما هو الحال هنا.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّنَّمَا أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ، وَانزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى، وَفَلَقَ لَهُمُ الْبَحْرَ، وَأَمَّا بِلَاؤُهُ فإِهْلَاكُ الْقُرُونِ.﴾
 وعادٍ وشمود. ومنه: أيامُ العرب؛ حُرُوبُهَا وَمَلَاجِهَا، كيومِ ذِي قَارِ، ويومِ الْفِجَارِ، ويومِ قِصَّةِ وَغَيْرِهَا، وهو الظاهر، وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: نَعْمَاؤُهُ وَبِلَاؤُهُ؛ فَأَمَّا نَعْمَاؤُهُ فَإِنَّهُ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى، وَفَلَقَ لَهُمُ الْبَحْرَ، وَأَمَّا بِلَاؤُهُ فإِهْلَاكُ الْقُرُونِ.

قوله: (ومَلَاجِهَا)، الجوهرى: المَلَحْمَةُ: الوَقْعَةُ العَظِيمَةُ فِي الْفِتْنَةِ.

«يومُ ذِي قَارِ»: يومُ لبني شَيْبَانَ، وَكَانَ أَبْرَوَيْزُ^(١) أَعَزَّهُمْ جَيْشًا، وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمِ انْتَصَرَتْ فِيهِ الْعَرَبُ مِنَ الْعَجَمِ.

و«الْفِجَارُ»: يومُ من أَيامِهِمْ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَفْجَرَةٍ؛ كَانَتْ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَمَنْ مَعَهَا مِنْ كِنَانَةَ وَبَيْنَ قَيْسِ عَيْلَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَتْ الدَّبْرَةُ عَلَى قَيْسٍ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ فِجَارًا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ.

و«يومُ قِصَّةٍ» - بِكسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ الْمُخَفَّفَةِ - : مَوْضِعٌ كَانَتْ بِهِ وَقْعَةُ تَحْلَاقِ اللَّمَمِ^(٢).

قوله: (وهو الظاهر)، أي: وَحَمَلُ «الْأَيَّامِ» عَلَى مَعْنَى الْوَقَائِعِ هُوَ الظَّاهِرُ، لِأَنَّ التَّذْكَيرَ بِالْأَيَّامِ أَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّخْوِيفِ وَالْإِنْذَارِ كَمَا سَبَقَ.

وأما دليلُ ابنِ عَبَّاسٍ عَلَى قَوْلِهِ: «نَعْمَاؤُهُ وَبِلَاؤُهُ»: فَهُوَ قَوْلُهُ: «صَكَبَارِ شَكُورٍ»، وَكَذَا

(١) وهو أبرويزُ بنُ هُرْمُزَ بنِ أنوشِروانَ بنِ قُبَازِ، أَحَدُ الْأَكَاسِرَةِ مَلُوكِ الْفَرَسِ، وَهُوَ الَّذِي غَلَبَ الرُّومَ الْعَلَبَ الْمَذْكَورَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «غَلَبَتِ الرُّومُ». قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (٣: ١٦٧)، بَابِ «ذَكَرَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ الْفَرَسِ بِالْيَمَنِ».

(٢) الْكَلَامُ كُلُّهُ لِلْجَوْهَرِيِّ؛ مُفْرَقًا فِي مَوَادِّ الْأَلْفَاظِ الْمَذْكَورَةِ.

وتحلاق اللمم: يومٌ لتغلب على بكر بن وائل، لأن الحلق كان شعارهم يومئذ. «لسان العرب»، مادة (حلق).

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يصبرُ على بلاءِ الله، وَيَشْكُرُ نِعْمَاءَهُ، فإذا سمع بها أنزَلَ اللهُ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى الْأُمَّمِ، أو أَفَاضَ عَلَيْهِمُ مِنَ النَّعْمِ، تَنَبَّهَ عَلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَاعْتَبَرَ. وقيل: أراد لكل مؤمن، لأن الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ من سَجَايَاهُمْ، تَنبِيهًا عَلَيْهِم.

[﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾
وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾]

﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ ظرفٌ للنَّعْمَةِ بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت. فإن قلت: هل يجوز أن يتصَبَّ بِ﴿عَلَيْكُمْ﴾؟ قلت: لا يخلو من أن يكون صِلَةً للنَّعْمَةِ بمعنى الإنعام، أو غيرِ صِلَةٍ إذا أردت بِ«النَّعْمَةِ» العَطِيَّةَ،

جَمْعُ «الأيام»، فإنها تَقْتَضِي اخْتِلَافَ أَنْوَاعِهَا، وقوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾، لأنه كالْتَفْصِيلِ لهذا الإجمال.

قوله: (وقيل: أراد لكل مؤمن)، عطفٌ من حيث المعنى على قوله: «يَصْبِرُ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ»، فعلى الأول: «الصَّبَّارُ» و«الشُّكُورُ» مُرَادٌ بِهَا كُلُّ مَنْ قَامَ بِهِ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ، وعلى الثاني: عبارتان عن مُعَبَّرٍ واحد، كما تقول في الكِنَايَةِ عن الإنسان: حَيٌّ مُسْتَوِي الْقَامَةِ عَرِيضُ الْأَظْفَارِ. هو من قوله: «الإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ»^(١).

قوله: (تنبيها عليهم)، مفعولٌ له، أي: قال اللهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وأراد: لكل مؤمن؛ لِئِنَّهُ السَّامِعُ عَلَى مَكَانِ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ، وَأَنَّهَا مِنْ سَجِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَشَفٌ عَنْ حَقِيقَتِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: الْمُؤْمِنُ هُوَ الَّذِي يَصْبِرُ وَيَشْكُرُ.

(١) تقدّم تخريجه ص ٢٦ في تفسير الآية ١١ من سورة هود.

فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى: اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم؛ عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت: نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول: فائضة أو نحوها، وإلا كان كلاماً. ويجوز أن يكون ﴿وَإِذْ﴾ بدلاً من ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهو بدل الاشتغال.

فإن قلت: في سورة البقرة: ﴿يُذَيِّحُونَ﴾، وفي الأعراف: ﴿يَقْتُلُونَ﴾ وهاهنا: ﴿وَيُذَيِّحُونَ﴾ مع الواو، فما الفرق؟ قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح - لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة - كأنه جنس آخر.

فإن قلت: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت: تمكينهم وإمهالهم، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله. ووجه آخر: وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً، قال تعالى: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبئلو

قوله: (كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم)، يريد: كيف نُسب البلاء الصادر من آل فرعون إلى الله تعالى؟ وأجاب: أن ما صدر منهم لما كان من تمكين الله تعالى نُسب إليه، وهذا تحريف؛ لأن لفظة التنزيل: ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ أي: وفي أفعالهم اختبار من الله، أي: أنه تعالى خلق فيهم تلك الأفعال؛ ليكون ابتلاء منه.

قوله: (فأبلاهما خير البلاء الذي يبئلو)، أوله:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم^(١)

(١) انظر: «شعر زهير بن أبي سلمى» للأعلم الشنتمري ص ٤٠، لكن فيه: «رأى الله بالإحسان».

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

لَشَدِيدٌ ﴾ [٧]

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿ نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾، كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم. ومعنى ﴿ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾: أذِنَ رَبُّكُمْ. ونظيرُ تَأَذَّنَ وَأَذَّنَ: تَوَعَّدَ وَأَوْعَدَ، تَفَضَّلَ وَأَفْضَلَ. ولا بد في «تَفَعَّلَ» من زيادة معنى ليس في «أَفْعَلَ»، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيداناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك، وتزاح الشبه. والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾، أو أجرى ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ مجرى «قال»؛ لأنه ضرب من القول.

وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم لئن شكرتم»، أي: لئن شكرتم - يا بني إسرائيل - ما حولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم

مضى شرحه في الأنفال^(١).

قوله: (ولا بد في «تَفَعَّلَ» من زيادة معنى)، ومن ذلك قيل: تكلف فلانُ فيما فعل: أي: كدح فيه وتعمَل.

قوله: (أي: لئن شكرتم - يا بني إسرائيل - ما حولتكم من نعمة الإنجاء) إلى آخره، ولما كان اللفظانِ مُطْلَقَيْنِ - أعني: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ - غير مُقَيَّدَيْنِ بأَيِّ شيءٍ يَشْكُرُونَ، وما تلك النعمة التي وَجِبَ عليهم شكرها، وما تلك الزيادة التي يَسْتَزِيدُونَهَا بالشكر، قَيَّدَ كُلًّا بما يُنَاسِبُهُ المقام، قال محيي السنة: «قيل: الشكرُ قَيَّدُ الموجودِ وصيْدُ المفقودِ»^(٢).

(١) في تفسير الآية ١٧ منها (٧: ٥٥).

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (٤: ٣٣٧).

بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿لَا زِيَادَتُكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة، ولأضاعفَنَ لكم ما آتَيْتُكُمْ، ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ﴾ وَعَمِطْتُمْ ما أنعمتُ به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لَمَنْ كَفَرَ نعمتي.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [٨]

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾: إن كفرتُم أنتم - يا بني إسرائيل - والناس كلهم، فإنما ضررتُم أنفسكم وحرمتُموها الخيرَ الذي لا بُدَّ لكم منه وأنتم إليه محايِج، والله غنيٌّ عن شُكركم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ مُستوجبٌ للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمده الحامدون.

قوله: (بالإيمان الخالص)، الباءُ مُتعلِّقةٌ بقوله: ﴿لَكِنْ شَكَرْتُمْ﴾.

قوله: (وَعَمِطْتُمْ^(١))، أي: حَقَرْتُمْ، الجوهري: «عمطَ الناس: الاحتقار لهم والإزراء».

بهم».

قوله: (فإنما ضررتُم أنفسكم وحرمتُموها الخيرَ الذي لا بُدَّ لكم منه، وأنتم إليه محايِج)، هذه المعاني إنما تُستفادُ من إيقاع قوله: ﴿فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ جزاءً لقوله: ﴿إِنَّ تَكْفُرًا﴾، فإنه على سبيل التقرُّع والتوبيخ، يعني: إني أُبْهَكُم^(٢) - أيها الجهلةُ - بسبب كُفْرانِكُم نعمة الله؛ على أنكم إنما ضررتُم أنفسكم وحرمتُموها الخيرَ الذي لا بُدَّ لكم منه، لأنه تعالى ما كلفكم إلا ليجزِيكم على أعمالِكُم، فتتفَعُوا بها يومَ القيامة؛ يومَ تحتاجون إليه، إذ لا يرجعُ نفعُها ولا ضرُّها إليه، لأنه غنيٌّ حميد، سواءً حمِدْتُموه أو كَفَرْتُم به، ولا بُدَّ مِنَ الجزاء، وليس ذلك إلا في يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بَنُون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وهو المرادُ من قوله: «وأنتم إليه محايِج»، أي: إلى الخيرِ الذي يصلُ إليكم بسبب أعمالِكُم في ذلك اليوم.

(١) يُقال: عَمِطَ وَعَمِطَ؛ من باب فهِمَ وَصَرَب.

(٢) في (ج): «أنهاكم»، والمثبت من (ط) و(ف).

[﴿الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ٩]

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً، أو: عطف «الذين من بعدهم» على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ اعتراض. والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون، يعني أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد.

قوله: (أو عطف «الذين من بعدهم» على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ اعتراض)، هذا أحسن من الاعتراض الأول، لأن الاعتراض^(١) من التحاسين في الكلام^(٢)، وحسن موقعه أن يكون مع التأكيد^(٣)، كما قال: «والمعنى: [أنهم] من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله».

وعلى الأول: والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، ليس فيه رائحة من ذلك.

قوله: (بين عدنان وإسماعيل)، قال صاحب «الجامع»: «اختلّف في نسب النبي ﷺ بعد اتفاهم أنه من ولد إسماعيل عليه السلام، وأنه من ولد معد بن عدنان، وإنما الاختلاف في الأسماء التي قبل عدنان، ولا يكاد يصح لأحد الرواة رواية ولا ضبط الأسماء»^(٤).

وأما اتصال هذه الآية بما قبلها: فإنه لما أجمل الكلام في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ

(١) من قوله: «هذا أحسن» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) وهو أحد أقسام مبحث «الإطناب» من مباحث علم المعاني في البلاغة العربية.

(٣) في (ط) و (ح): «مع التأكيد اللطيف» ولم يظهر لي وجهها، وليست في (ف)، فلم أثبتها، والله أعلم.

(٤) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٨٧).

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فَعَضُّوْهَا غَيْظًا وَضَجْرًا مَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، كَقَوْلِهِ: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، أَوْ ضَحِكًا وَاسْتَهْزَاءً كَمَنْ غَلَبَهُ الضَّحْكُ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ. أَوْ: وَأَشَارُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَمَا نَطَقَتْ بِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ﴾ أَي: هَذَا جَوَابُنَا لَكُمْ لَيْسَ عِنْدَنَا غَيْرُهُ، إِقْنَاتًا لَهُمْ مِنَ التَّصْدِيقِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ﴾، وَهَذَا قَوْلٌ قَوِيٌّ، أَوْ: وَضَعُوْهَا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ يَقُولُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ: أَطِيقُوا أَفْوَاهَكُمْ وَاسْكُتُوا. أَوْ: رَدُّوْهَا فِي أَفْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ،

إِلَّا يَلْسَانَ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿، وَفَصَلِّهِ مُبْتَدَأً بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَقَّبَهُ مُجْمَلًا بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يَأْتِيَكُمْ بُرْهَانًا مِنَ قَبْلِكُمْ قَوْرٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ تَوْبِيخًا وَتَهْدِيدًا.

قَوْلُهُ: (أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾)، يَعْنِي: الَّذِي يَنْصُرُ أَنْ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾^(١): أَنَّهُمْ أَشَارُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَا نَطَقَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ؛ عَطَفَ^(٢) قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ﴾، أَي: أَشَارُوا إِلَى أَفْوَاهِهِمْ، ثُمَّ تَكَلَّمُوا بِهِ، لِتَتَّصِلَ الْإِشَارَةُ بِالْقَوْلِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَقُولُ قَوْلِي هَذَا. وَهَذَا أَقْوَى الْوُجُوْهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى عَطَفَ «قَالُوا» عَلَى «فَرَدُّوا»^(٣)، وَالْفَاءُ لِلتَّعْقِيبِ، فَكَأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ مَا أَمْهَلُوا، بَلْ عَقَّبُوهُ بِاللَّتَكْذِيبِ، وَأَكَّدُوهُ غَايَةَ التَّأْكِيدِ، وَمَا تَفَكَّرُوا فِي الْآيَاتِ، وَمَا قَصَّروا فِي الرَّدِّ.

الانْتِصَافُ: «أَقْوَى الْوُجُوْهِ هَذَا، لِأَنَّ إِقْنَاتَهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِحَدِّثِهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ صَدَّرُوا الْجُمْلَةَ بِ«إِنَّ» الْمُؤَكَّدَةَ، وَوَجَّهُوا بِالْحِطَابِ^(٤)، وَكَرَّرُوا «إِنَّا»، وَلَا يُنَاسِبُ

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «يَعْنِي: الَّذِي يَنْصُرُ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف)، وَاثْبَتَهُ مِنْ (ط).

(٢) قَوْلُهُ: «عَطَفَ قَوْلَهُ...» هُوَ خَبَرُ الْأِسْمِ الْمَوْصُولِ «الَّذِي» الْوَارِدِ فِي أَوَّلِ الْجُمْلَةِ.

(٣) مِنْ قَوْلِهِ: «أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ» مِنْ لَفْظِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف).

(٤) أَي: بِخِطَابِ رُسُلِهِمْ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ﴾.

يُشِيرُونَ لَهُمْ إِلَى السُّكُوتِ. أَوْ: وَضَعُوهَا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ يُسَكِّتُونَهُمْ وَلَا يَذَرُونَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ.
 وقيل: الأيدي، جمع يد، وهي النعمة بمعنى: الأيادي، أي: رَدُّوا نِعَمَ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي
 هِيَ أَجَلُ النَّعْمِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَنَصَائِحِهِمْ وَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْآيَاتِ ﴿فِي
 أَفْوَاهِهِمْ﴾.....

السِّيَاقُ الضَّحِكَ وَالغَيْظَ، وَلَا التَّصْمِيْتَ، إِذْ لَمْ يُنْكِرُوا عَوْدَهُمْ إِلَى الْمَجَادَلَةِ^(١).
 قوله: (أَوْ وَضَعُوهَا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ يُسَكِّتُونَهُمْ)، أي: يُسَكِّتُونَهُمْ قَسْرًا بَوَاضِعِ الْأَيْدِي
 عَلَى شِفَاهِهِمْ، وَفِي الْوَجْهِ السَّابِقِ: لَمْ يَكُنِ الْوَضْعُ لِلْقَسْرِ بَلْ لِلإِشَارَةِ.
 قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَنَعَهُمْ مِنَ التَّحَدُّثِ بِمَا جَاؤُوا^(٢) بِقَدْرِ
 اسْتَطَاعَتِهِمْ، لِأَنَّهُ إِنْ حُمِلَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْكُلُّ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ،
 وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ غَيْرُ وَاقِعٍ.

وقلت: لا يلزم ذلك، لأنه حينئذ من باب «قَتَلَ بَنُو تَمِيمٍ»^(٣) فُلَانًا، وَإِنَّمَا قَتَلَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ.
 قوله: (وقيل: «الأيدي»: جمع «يد»، وهي النعمة، بمعنى: الأيادي)، إنما قال: «بمعنى:
 الأيادي»؛ لِأَنَّ «الأيادي» عَكَبَتْ فِي النَّعْمِ، وَ«الأيدي» فِي الْجَوَارِحِ، قَالَ:
 سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِّي يَ أَيَادِي لَمْ تُثْمَنَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ^(٤)

(١) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٦٨-٣٦٩) بحاشية «الكشاف».

(٢) رُيِسَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي (ح): «أَجَاؤُوا»، وَفِي (ف): «اِخْتَارُوا»، وَالْمُثْبِتُ مِنْ (ط).

(٣) كَذَا فِي (ط) وَ(ف)، وَفِي (ح): «بَنُو فُلَانٍ»، وَالْأَمْرُ فِيهِ قَرِيبٌ.

(٤) اِخْتَلَفَ فِي قَائِلِهِ اِخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَقِيلَ: لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي مَدْحِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، كَمَا فِي
 «خَزَانَةِ الْأَدَبِ» لِلْبَغْدَادِيِّ (٢: ٢٦٥)، وَقِيلَ: لِعَمْرِو بْنِ كُمَيْلٍ فِي مَدْحِ عَمْرِو بْنِ ذَكْوَانَ، كَمَا فِي
 «شَرْحِ الْحِمَاسَةِ» لِلْخَطِيبِ التَّبْرِيزِيِّ (٢: ٢٦٦)، وَقِيلَ: لِمُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ، كَمَا فِي «عَيُونَ الْأَخْبَارِ»
 لِابْنِ قَتَيْبَةَ (٣: ١٦١).

وَالْبَيْتُ - غَيْرَ مَنْسُوبٍ - فِي «الْحِمَاسَةِ» لِأَبِي نَمَامٍ ص ٣٢٥، وَ«دِيْوَانَ الْمَعَانِي» لِأَبِي هَلَالِ الْعَسْكَرِيِّ
 (١١٠: ١)، وَهُوَ مِنْ شَوَاهِدِ «مِفْتَاحِ الْعُلُومِ» لِلْسَّكَاكِيِّ ص ١٧٦.

لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله. وقرئ: «تَدْعُونَا» بإدغام النون، ﴿مُرِيْبٍ﴾ موقِع في الريبة، أو: ذي ريبة، من: أرابه وأراب الرجل، وهي قَلتُ النَّفْسِ وأن لا تطمئن إلى الأمر.

[﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ١٠]

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يتحمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، أو: يَدْعُوكُمْ لأجل المغفرة،

قوله: (على طريق المثل)، أي: مثل ما جاء به الأنبياء من المصالح والنصائح والمواعظ، وأنهم ردوها أبلغ رد، وما قبلوها، بما يحاول رده إلى حيث جاء منه؛ من الكلام الخارج من الفم، فقيل: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، نحوه قوله تعالى: ﴿بَدَّ قَبِيحٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١]، قال المصنف: «نَبَذَهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِثْلَ لَتَرَكِهِمْ وَأَعْرَضَهُمْ عَنْهُ بِمَا يُرْمَى بِهِ وِرَاءَ الظَّهْرِ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ وَقَلَّةَ التِّيْفَاتِ إِلَيْهِ»، فإذا لا يَدَ وَلَا فَمَ هُنَاكَ.

قوله: (لأن الكلام ليس في الشك)، يعني: من حق حرف الاستفهام أن يدخل على فعل الشك، لا على الظرف الذي هو متعلقه، وإنما أدخل عليه لأن التردد إنما وقع في المشكوك فيه، لأن الشك موجود لا كلام فيه.

قوله: (أي: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، أو: يَدْعُوكُمْ لأجل المغفرة)، وعلى الثاني: الدعوة مطلقاً أو المدعو إليه عام، قال القاضي: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغْفِرَ

كقوله: دَعَوْتُهُ لِيَنْصُرَنِي، ودَعَوْتُهُ لِيَأْكَلَ مَعِي، وقال:

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِي مَسُورًا فَلَبَّا فَلْبِي يَدَي مِسُورِ

فإن قلت: ما معنى التَّبْعِيضِ في قوله: ﴿مِن دُنُوبِكُمْ﴾؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن دُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣-٤]، ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن دُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَذُكَّرُ عَلَىٰ نَحْرِهِ نُنِجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِمِ﴾ [الصف: ١٠] إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، وغير ذلك مما يُوقِفُك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتَّفَرُّقِ بين الخطَّابَيْنِ،

لَكُمْ، أو يدَعُوكم إلى المَغْفِرَةِ، كقولك: دَعَوْتُهُ لِيَنْصُرَنِي؛ على إقامة المفعول له مقام المفعول به^(١)، أراد: أن المدعُوَّ إليه في الأول: الإيمان، و﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ تعليلٌ قَصْدًا، وفي الثاني: المدعُوُّ إليه المَغْفِرَةِ، والتعليلُ لازمٌ لكن من غير قَصْد.

قوله: (دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِي مَسُورًا فَلَبَّا فَلْبِي يَدَي مِسُورِ)، رُوِيَ عن المُصَنِّف: أن ذَكَرَ «الْيَدَيْنِ» على سبيل الإقحام، وأضاف «لبي» إلى المَظْهَر، كما يُضَافُ إلى المُضْمَر، وفي حاشية «الصُّحَّاح»: «قال أبو تمام: البيتُ لأعرابيٍّ من بني أسد، اسْتَشْهَدَ به على أن «لبيك» مُثْنِي، والياءُ علامةُ التثنية، وليست مثل: عليك وإليك. وكتب ابنُ الحبيب الكاتب».

ف«لبا» الأولى بالألف، والثانية بالياء على إضافتها إلى «يدي» إضافةً للمصدرِ إلى المفعول، وَصَحَّحَهُ الصَّغَانِي، والأولُ فِعْلٌ وإن كانت الألفُ رابعة^(٢)، ولعلَّ ذلك للتمييز، والفاءُ الثانيةُ سَبَبِيَّةٌ على حَذْفِ الفِعْلِ، وإقامة المصدرِ مقامه، دعا له أن يكونَ مُجَابًا كما كانَ مُجِيبًا، و«يدي» تأكيد.

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ١٩٤).

(٢) يعني: كان حَقُّها أن تُكْتَبَ على صورة الياء لأنه فِعْلٌ رباعيٌّ، كما هي القاعدةُ فيه.

ولثلاثا يُسَوِّي بينَ الفريقينِ في الميعاد، وقيل: أريدَ أنه يَغْفِرُ لهم ما بينَهُم وبينَ الله، بخلاف ما بينَهُم وبينَ العبادِ مِنَ المظالمِ ونحوها.

قالَ الجوهري: «قولُهُم: هذا كما قَدَّمْتُ يداك، وهو تأكيد، كما يُقال: هذا ما جَنَّتْ يداك، أي: جَنَيْتَهُ أَنْتَ».

يقول: دَعَوْتُ مَسُوراً لِنَصْرَتِي لِمَا نَابَنِي مِنَ الشدائد، فأجابَ اللهُ دُعَاءَهُ وَنَصَرَهُ اللهُ نَصْراً.

قوله: (وقيل: أريدَ أنه يَغْفِرُ لهم ما بينَهُم وبينَ الله تعالى، بخلافِ ما بينَهُم وبينَ العبادِ مِنَ المظالمِ)، قالَ صاحبُ «التقريب»: وفيه نَظَرٌ، لأنه مُشْتَرِكٌ بينَ الفريقينِ، أي: المؤمنينِ إذا تابوا، والكافرينِ إذا آمنوا.

وقلت: الذي عليه الحديثُ الصَّحِيحُ الذي رويناهُ في «صحيح مُسَلِّم»^(١) عن عَمْرٍو ابنِ العاص قال: «لَمَّا جَعَلَ اللهُ الإِسْلامَ في قلبي، أثبتَ النبي ﷺ فقلت: ابسُطْ يَمِينَكَ فلا يَبْعَكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قال: فَبَقِضْتُ يَدِي، فقال: ما لَكَ يا عَمْرٍو؟ قلت: أردتُ أن أشرطَ، قال: تَشَرِّطُ ماذا؟ قلت: أن يُغْفَرَ لي، قال: أما عَلِمْتَ أن الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ، وأن الهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَها، وأن الحِجَّ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ»، يَرُدُّ نَظَرَهُ وهذا القولُ أيضاً.

قالَ التَّورِبِشْتِي^(٢): «اعلَمْ أن الفِضائلَ المُرتَبَةَ بَعْضُها على بعضٍ مُخْتَلِفَةٌ لا يَجوزُ التَّسْوِيَةُ بينَها في الحِكم، وذلك أن الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ على الإِطلاق، مَظْلَمَةٌ كانت أو غيرَ مَظْلَمَةٌ، كَبيرةٌ كانت أو صَغيرةً، فأما الهِجْرَةُ والحِجُّ فإنها لا يُكْفِرانِ المَظالمَ، ولا يُقَطِّعُ فيهما أيضاً بَغْضانِ الكَبائرِ التي بينَ الله وبينَ العبادِ، فيُحْمَلُ الحديثُ على أن الهِجْرَةَ والحِجَّ يُكْفِرانِ الصَّغائرَ والكَبائرَ أيضاً فيما لا يَتَعَلَّقُ بِحُقوقِ العبادِ، كما عَرَفْنَا ذلكَ من أصولِ الدِّينِ».

(١) برقم (١٢١).

(٢) تقدَّم التعريفُ به ص ٣٥٣ تعليقا عند تفسير الآية ٤٤ من سورة يوسف.

وقلت: وروينا في «سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ»^(١) عن عَبَّاسِ بْنِ مُرْدَاسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا عَشِيَّةَ عَرَفَةَ لِأُمَّتِهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَأَكْتَرَ الدُّعَاءَ، فَأُجِيبُ: أَنِي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ مَا خَلَا الْمَظَالِمَ»^(٢)، فَإِنِّي أَخَذْتُ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ، إِنْ شِئْتَ أُعْطِيتَ الْمَظْلُومَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَغَفَرْتَ لِلظَّالِمِ. فَلَمْ يُجِبْ عَشِيَّتَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ بِالْمُزْدَلِفَةِ أَعَادَ الدُّعَاءَ فَأُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ. قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَوْ تَبَسَّمَ - ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا الَّذِي أَضْحَكَكَ، أَضْحَكَكَ اللَّهُ سِنَّكَ؟ قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دُعَائِي، وَغَفَرَ لِأُمَّتِي، أَخَذَ التُّرَابَ، فَجَعَلَ يَحْتُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ، فَأَضْحَكَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ».

قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: «مِنْ»^(٣): زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْأَخْفَشِ، فَيَكُونُ مُبَالَغَةً وَاسْتِغْرَاقًا فِي غُفْرَانِ^(٤) الذُّنُوبِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَلْيَقُ بِأَهْلِ الْكُفْرِ حِينَ دُعُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِبُعْدِهِمْ عَنِ ذَلِكَ وَإِنْكَارِهِمْ، فَحُضُّوا لِدَلَالِكَ بِذَلِكَ. وَنُقِلَ عَنِ الْأَصَمِّ: أَنَّ «مِنْ» لِلتَّبَعِيضِ، وَالْمَعْنَى: أَنْكُمْ إِذَا تَبَّيْتُمْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ الذُّنُوبَ الَّتِي هِيَ الْكَبَائِرُ، فَأَمَّا الصَّغَائِرُ فَلَا حَاجَةَ إِلَى غُفْرَانِهَا، لِأَنَّهَا فِي نَفْسِهَا مَغْفُورَةٌ.

وقلت: وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ هَذَا، لِأَنَّ الدُّعَاةَ عَامَّةً، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَيُّهَا الشَّاكُونَ الْمَلُوثُونَ بِأَوْضَارِ^(٥) الشَّرِكِ وَالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي، إِنَّ اللَّهَ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ لِيُطَهِّرَكُمْ مِنْ أَجْنَاسِ أَنْجَاسِ^(٦) الذُّنُوبِ، فَلَا وَجْهَ لِلتَّخْصِيسِ، وَقَدْ وَرَدَ: ﴿إِنْ

(١) برقم (٣٠١٣).

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَرَوَايَةُ ابْنِ مَاجَةَ بِلَفْظِ: «مَا خَلَا الظَّالِمَ».

(٣) أَيُّ: الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾.

(٤) فِي (ح) وَ(و): «فَيَكُونُ مُبَالَغَةً اسْتِغْرَاقًا فِي غُفْرَانِ»، وَالمُتَّبِعُ مِنْ (ط).

(٥) الوَصْرُ: الدَّرَنُ وَالْوَسْخُ. «لِسَانَ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (وَضْر).

(٦) كَذَا فِي (ط) وَ(و) وَ(ف)، وَفِي (ح): «أَنْجَاسِ أَنْجَاسٍ»!

﴿وَيُوحِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتٍ قد سماه الله وبيّن مقداره، يُبلِّغكموه إن آمتم، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت.

﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تُخصّون بالنبوة دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنسٍ أفضل منهم وهم الملائكة، ﴿سُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحُجّة بيّنة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج، وإنما أرادوا بالسُلطان المبين آيةٍ قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً.

[﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾]

يَنْتَهُوْا يُعَفِّرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴿[الأنفال: ٣٨]، و«ما» للعموم، سيّما في الشرط، ومقام الكافر عند ترغيبه في الإسلام بسنط لا قبض، ولأنّ الكفار إذا أسلموا إنما اهتمامهم في الشرك ونحوه، لا في الصغائر.

يُؤَيِّدُهُ مَارَوْىِ الْمُسْتَفِّ (١): أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَالُوا: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّ مَنْ عَبَدَ الْأَوْثَانَ وَقَتَلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ لَمْ يُعَفِّرْ لَهُ، فَكَيْفَ وَلَمْ يُهَاجِرْ، وَعَبَدْنَا الْأَوْثَانَ، وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ؟! فَزَلَّتْ: ﴿قُلْ يَتَعْبَادُوا الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية، وقصةٌ وحشيّة مشهورة.

على أنّ الرّجّاج نصّ في بعض المواضع من «تفسيره» (٢): أنّ «من» للبيان.

قوله: (لجعلهم من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة)، الاتّصاف: «تهالك في مذهبه حتى اعتقد أنّ الكفار كانوا يعتقدون تفضيل الملك» (٣).

(١) في تفسير الآية المذكورة من سورة الزمر.

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعراجه» للزجاج (٥: ٤٢٨)، في الكلام على الآية ٤ من سورة نوح عليه السلام.

(٣) «الاتّصاف» لابن المنير (٢: ٣٧٠) بحاشية «الكشاف».

وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَبَ عَلَى مَاءٍ آذِيتُمْونَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١١-١٢﴾

﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تسليم لقولهم، وأنهم بشرٌ مثلهم، يعنون: أنهم
مثلهم في البشريّة وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم
تواضعاً منهم،

قوله: (تسليم لقولهم، وأنهم بشرٌ مثلهم) إلى قوله: (فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم)،
وهو كالقول بالموجب^(١)، لأن فيه إطماعاً بالمواقفة، وكذا إلى إجابتهم بالإبطال بقوله:
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي: إنما اختصنا الله بالرسالة بفضل منه وامتنان،
والبشريّة غير مانعة لمشيئته، وفي قول المصنّف: «إلا وهم أهل لاختصاصهم» شائبة من
الميل إلى المذهب، وفي^(٢) قول موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١] دلالة على أن الرسالة موهبة محضة من الله، لا مدخل
لعمَل العبد فيها.

(١) وهو أحد مباحث علم البيان عند علماء البلاغة، وعرفوه بأنه «ردّ كلام الخصم من فحوى لفظه»،
وهو «الأسلوب الحكيم» عند بعضهم - وتقدّم التعريف بـ«الأسلوب الحكيم» (٧: ٣١٥) تعليقاً
عند تفسير الآية ٨٠ من سورة التوبة - وفرّق بينها آخرون. وألف فيه العلامة صلاح الدين الصفدي
«الهُوَلُ الْمُعْجَبُ فِي الْقَوْلِ بِالْمَوْجِبِ». وانظر دراسة نقدية تحليلية للكتاب وطبعته في بحث الدكتور
بسام القواسمي، المنشور في مجلة الجامعة الإسلامية بغزة (سلسلة الدراسات الإنسانية)، ١٩م، عدد
١، ص ٩٥٧-٩٨٦، يناير ٢٠١١.

ومن علم البيان اقتبسّه الأصوليون والفقهاء، وعرفوه بأنه «تسليم مقتضى الدليل مع بقاء النزاع»،
وألف فيه الأئمة الأعلام تقي الدين الشبكي، وولي الدين العراقي، وابن حجر الهيتمي. وانظر
بحث «مسألة القول بالموجب» للدكتور خالد بن محمد العروسي، المنشور في مجلة جامعة أم القرى،
ج ١٩، عدد ٤٣، ذو الحجة ١٤٢٨.

(٢) في (ح) و(ف): «قوله: وفي»، فأوهم أن ما بعده من كلام الزمخشري في «الكشاف»، وليس كذلك.

واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استؤثروا بها على أبناء جنسهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتوها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمرٌ يتعلّق بمشيئة الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرٌ منهم للمؤمنين كافةً بالتوكّل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمرها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكّل على الله في الصبر على معاندتكم ومعادتكم وما يجري علينا منكم. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ ومعناه: وأيُّ عُذرٍ لنا في أن لا نتوكّل عليه ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ وقد فعل بنا ما يُوجب توكّلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحدٍ منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فإن قلت: كيف كرّر الأمر بالتوكّل؟ قلت: الأوّل لاستحداث التوكّل، وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه فليثبت المتوكّلون على ما استحدثوا من توكّلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم.

قوله: (وأمرها به)، الضمير راجع إلى «الأنفس»، وهو عطف على «قصدوا».

قوله: (الأول)، أي: الأوّل لاستحداث التوكّل، والثاني: للثبات عليه، وذلك أن قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تذييل للجواب عن قول القوم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، كأنهم قالوا: من حقنا أن نتوكّل على الله في الصبر على معاندتكم هذه، فلما ذكروا رفع الموانع من التوكّل، وأثبتوا السبب فيه، وهو الهداية، وتصريح الصبر على أذى القوم، كرّوا إلى اختصاص التوكّل عليه، فاللام في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ للعهد التقديري، بدلالة قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: الواجب علينا في اختصاصنا التوكّل على الله أن نُسمر له عن ساق الجد، وكلما تجدد الموجب نستجدُّ توكلاً على التوكّل.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [١٣-١٤]

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾، ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ﴾ لِيَكُونَنَّ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ لَا مَحَالَةَ؛ إِمَّا إِخْرَاجَكُمْ وَإِمَّا عَوْدَكُمْ حَالِفِينَ عَلَى ذَلِكَ.

فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها؟ قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية؛

قوله: (ليكوننَّ أحدُ الأمرين لا محالة)، وقد استقصينا الكلام [فيه] في قوله: ﴿فَقَنَلُوا نُبُؤَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] بسورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾.

قوله: (حاليفين على ذلك)، هو حال، وعاملها مُضَمَّر، أي: قالوا: لا بُدَّ مِنَ الْإِخْرَاجِ أَوْ الْعَوْدِ حَالِفِينَ، والدليل على القَسَمِ اللَّامَانِ فِي «لَنُخْرِجَنَّ» و«لَتَعُوذُنَّ».

قوله: (ولكنَّ «العود» بمعنى: الصيرورة)، قال صاحبُ «الفرائد»: ولو كان «عاد» بمعنى: صار، لقليل: لَتَعُوذُنَّ إِلَى مِلَّتِنَا، أي: لَتَصِيرُنَّ إِلَيْهَا، فلما عُدِّيَ بِ«فِي» ضَمَّنَ مَعْنَى: دَخَلَ، كقوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾ [الفجر: ٢٩]، أي: لَتَدْخُلَنَّ فِي أَهْلِ مِلَّتِنَا.

وقلت: إنما يلزم ذلك أن لو كان ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ صِلَةً ﴿لَتَعُوذُنَّ﴾، وليس كذلك، لأنَّ «عاد» إذا كان بمعنى: صار، لم يكن «في» من صِلَةِ «العود»، بل يكون خبراً لـ«عاد»، لأنَّ أخوات «كان» و«صار» من دواخِلِ الْمُبْتَدَأِ والخبر، ويُمكنُ أَنْ يُقَالَ: إنهم قالوا ذلك لِظَنِّهِمُ الْفَاسِدِ وَجَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِهِ، كقول فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]، قال (١): «أو جهل أمره، لأنه كان يُعَاشِرُهُمُ بِالْتَفِيَّةِ».

(١) أي: الزمخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة الشعراء (١١: ٣٣٤).

لا تكاد تسمعونهم يستعملون «صار»، ولكن «عاد»؛ ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال. أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد.

﴿لَتَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيجاء مجرى القول، لأنه ضرب منه. وقرأ أبو حيوة: «لِيَهْلِكَنَّ» و«لَيْسَكِنَّكُمْ» بالياء اعتباراً لـ «أوحى»، وأن لفظه لفظ الغيبة، ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولا يخرجن. والمراد بـ «الأرض»: أرض الظالمين وديارهم، ونحوه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]. وعن النبي ﷺ: «من أذى جاره ورثه الله داره»، ولقد عاينت هذا في مدة قريبة: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها، ويدخلون في دورها ويخرجون، ويأمرون وينهون، فذكرت قول رسول الله ﷺ، وحدثهم به، وسجدنا شكراً لله. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم، أي: ذلك الأمر حق ﴿لَمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي، وهو موقف الحساب، لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام. وقيل:

قوله: (أو على إقحام المقام)، وهو كقوله:

.....ونقيت عنه مقام الذئب.....^(١)

وسبق بيانه في أنه كناية.

(١) البيت للشماخ بن ضرار الغطفاني، كما في «ديوانه» ص ٩٢، ولفظه بتمامه:

دَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَقَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذَّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

وسياتي عند الزمخشري - بالقدر المذكور منه هنا - في تفسير الآية ٥١ من سورة فصلت (١٣):

(٦٢٥)، وسياتي عنده بتمامه في تفسير الآية ٥١ من سورة الرحمن (١٥: ١٧١).

خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله. والمعنى أن ذلك حق للمؤمنين، كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

[﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُئِنُ مِنْ مَّآءٍ صَٰدِرٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ. وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ١٥-١٧]

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾: واستنصروا الله على أعدائهم ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، أو: استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم؛ من الفتاحة، وهي الحكومة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو معطوف على ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾.

وقرئ: «واستفتحوا» بلفظ الأمر،

قوله: (والمعنى: أن ذلك حق للمؤمنين، كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾)، يريد: موقع قوله: ﴿لَمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ﴾ - الذي هو كناية عن «المؤمنين» في هذه الآية - بعد قوله: ﴿وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ موقع قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في قصة موسى عليه السلام، حيث قال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَغِيثُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ولهذا شبه قوله: ﴿وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بقوله: ﴿وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَسِّرْهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وهو في تلك القصة.

قوله^(١): (وقرئ: «واستفتحوا» بلفظ الأمر)، قال ابن جني: «قرأها ابن عباس ومجاهد وابن محيصن»^(٢).

(١) هذه الفقرة سقطت من (ح) و(ف)، وأثبتها من (ط).

(٢) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٦٠).

وَعَطْفِهِ عَلَى ﴿لَتُهْلِكَنَّ﴾ أَي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: لَنُهْلِكَنَّ، وقال لهم: اسْتَفْتِحُوا.

﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: فَنُصِرُوا وَظَفِرُوا وَأَفْلَحُوا ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، وهم قومهم. وقيل: واستفتح الكفار على الرُّسل، ظناً منهم بأنهم على الحق، والرُّسل على الباطل، ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ منهم ولم يُفْلِحْ باستفتاحه.

﴿وَمِن وَرَآيِهِ﴾ من بين يديه، قال:

قوله: (وَعَطْفِهِ عَلَى ﴿لَتُهْلِكَنَّ﴾)، يعني: «استفتحوا» على القراءة المشهورة: جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ معطوفةٌ على «أوحى»، يعني: لَمَّا قَالَ الْقَوْمُ: «لَتَخْرُجُنَّ أَوْ لَتَعُودَنَّ» عَقَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَحْيِ وَالْوَعْدِ بِإِهْلَاكِهِمْ، وَبَطَلَبِ نُصْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ. وَعَلَى الشَّاذَةِ: جُمْلَةٌ طَلَبِيَّةٌ معطوفةٌ على ﴿لَتُهْلِكَنَّ﴾ دَاخِلَةٌ فِي حُكْمِ الْمُوحَى - أَي: الْمُوحَى إِلَيْهِ - لِبَيَانِ الْوَعْدِ بِالْإِهْلَاكِ وَالْأَمْرِ بِطَلَبِ الْفَتْحِ، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ: إِخْبَارٌ عَنِ مَالِ الْحَالِ، وَهُوَ معطوفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ هُوَ مُرْتَبٌ عَلَى الْوَعْدِ بِالِاسْتِفْتَاكِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَنُصِرُوا وَظَفِرُوا وَأَفْلَحُوا وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».

فإن قلت: قوله: ﴿وَاسْتَفْتِحُوا﴾ طَلَبُ النَّصْرَةِ - سِوَاءِ كَانَ خَبَرًا أَوْ طَلَبًا - مَوْقِعُهُ قَبْلَ الْوَعْدِ بِالْإِهْلَاكِ، فَمَا الْحِكْمَةُ فِي تَأْخِيرِهِ؟ قلت: الواوُ لِلجَمْعِ الْمُطْلَقِ، كَأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنِ وُجُودِهِمَا، وَعَوَّلَ التَّرْتِيبَ إِلَى ذَهْنِ السَّامِعِ.

قوله: (وقيل: واستفتح الكفار)، عطفٌ على «﴿وَاسْتَفْتِحُوا﴾ واستنصروا»، لا على «استفتحوا» بلفظ الأمر، لأنه لا يدخل تحت الموحى، بل تحت الإخبار، فعلى هذا: ﴿وَحَابَ﴾ عطفٌ على ﴿وَاسْتَفْتِحُوا﴾.

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا، لأنه مُرْصَدٌ لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حين يُبعثُ ويوقف.

فإن قلت: علام عطف ﴿وَيُسْقَى﴾؟ قلت: على محذوفٍ تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى، ويُسقى من ماءٍ صديد، كأنه أشدُّ عذاباً،

قوله: (عسى الكرب الذي) البيت^(١)، صحَّ «أَمْسَيْتَ» على الخطاب، لأنَّ القائل يُسَّرُّ رجلاً محزوناً بالفَرَجِ القريب، وزوالِ الحزن، ووشكِ انكشافه، وحذف «أن» من الفعل بعد «عسى»، وهو قليل.

قوله: (مُرْصَدٌ بجهنم)، بفتح الميم وبالباء، وفي نسخة^(٢): «مُرْصَدٌ لجهنم» بضم الميم وباللام.

النهاية: «يُقَالُ: رَصَدْتُهُ؛ إِذَا قَعَدْتَ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ تَتَرَقَّبُهُ، وَأَرْصَدْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ؛ إِذَا أَعَدَدْتَهَا لَهُ، وَحَقِيقَتُهُ: جَعَلْتَهَا عَلَى طَرِيقِهِ كَالْمُتَرَقِّبَةِ لَهُ».

قوله: (أو وصف حاله في الآخرة حين يُبعثُ)، عطفٌ على قوله: «من بين يديه»، فسَّرَ «الوراء» بكلاماً معنيته لأنه من الأضداد، قال الجوهري: «وراء: بمعنى: خَلْفٌ، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى: قَدَامٌ».

قوله: (من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويُسقى من ماء)، قال صاحبُ «الفرائد»: «وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: هُوَ عَطْفٌ عَلَى الْمُقَدَّرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾، أَي: يَحْصُلُ لَهُ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ، وَيُسْقَى فِيهَا مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ». وما قدَّره المصنِّفُ أبلغ، والمقام له أدعى،

(١) لهذبة بن خشرم، كما في «الأمالي» لأبي علي القالي (١: ٧٢)، و«الزهرة» لابن داود الأصفهاني (١: ٤٦٦).

(٢) وهي النسخة التي بين أيدينا من «الكشاف».

فُحْصَصَ بِالذِّكْرِ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾؟ قلت: ﴿صَدِيدٍ﴾ عطف بيانٍ لـ ﴿مَّاءٍ﴾، قال: ﴿وَسُقِّنِي مِنْ مَّاءٍ﴾ فأبهمه إبهاماً، ثم بيّنه بقوله: ﴿صَدِيدٍ﴾، وهو ما يسيل من جلود أهل النار.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ دخل «كاد» للمبالغة.

يعني: ولا يقارب أن يسیغه، فكيف تكون الإساعة؟ كقوله: ﴿لَتُرِكَدَّ بِرَبِّهَا﴾ [النور: ٤٠]، أي: لم يقرب من رؤيتها، فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ كأن أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات، تفضيلاً لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْآلَامِ.

وقيل: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من جسده حتى من إبهام رجله. وقيل: من أصل كل

شعرة

والعاطف إذا جيء بغير معطوف عليه دلَّ على فخامة الأمر، ومن ثمَّ قدر: «يلقى ما يلقي»، أي: لا يدخل تحت الوصف، والجملة استثنائية.

قوله: (فُحْصَصَ بِالذِّكْرِ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾)، وإنما جمعها^(١) ليؤذن بالجمع بين الذوقين؛ ذوق مرارة الصديد، وذوق مرارة الغصص وما الموت دونه؛ تفضيلاً للأمر. فظهر من هذا أن قول المصنّف: «تفضيلاً لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْآلَامِ» علةٌ لمقدّر، أي: إنها^(٢) خصّه بالذكر وجمعه مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ تفضيلاً لِمَا يُصِيبُهُ.

قوله: (قد^(٣) تألبت)، الجوهري: «تألّبوا: اجتمعوا، وهم ألّب: إذا كانوا مجتمعين».

(١) في (ح) و(ف): «جمعها»، وأصلحته بحسب السياق.

(٢) من قوله: «جمعها ليؤذن بالجمع بين الذوقين» سقط من (ط).

(٣) في الأصول الخطية: «وقد» بالواو، والمثبت من «الكشاف».

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾: وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: فِي كُلِّ وَقْتٍ يَسْتَقْبَلُهُ يَتَلَقَّى عَذَابًا أَشَدَّ مِمَّا قَبْلَهُ وَأَغْلَظَ. وَعَنِ الْفُضَيْلِ: هُوَ قَطْعُ الْأَنْفَاسِ وَحَبْسُهَا فِي الْأَجْسَادِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ مَكَّةَ قَدْ اسْتَفْتَحُوا - أَي: اسْتَمَطَرُوا، وَالْفَتْحُ الْمَطَرُ - فِي سِنِي الْقَحْطِ الَّتِي أُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ بِدَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يُسْقَوْا، فَذَكَرَ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ حَيَّبَ رَجَاءَ كُلِّ جَبَّارٍ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ يُسْقَى فِي جَهَنَّمَ بَدَلًا سُقْيَاهُ مَاءً آخَرَ، وَهُوَ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ. وَ«اسْتَفْتَحُوا» عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مُنْقَطِعٌ عَنِ حَدِيثِ الرَّسْلِ وَأُمَّهِمْ.

قوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، أَي: فِي كُلِّ وَقْتٍ يَسْتَقْبَلُهُ، ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ظَرَفُ مَكَانٍ؛ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَكَأَنَّهَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ عَلَى شَفِيرِهَا»، وَفِي هَذِهِ: ظَرَفُ زَمَانٍ؛ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فِي كُلِّ وَقْتٍ»، وَإِنَّمَا فَسَّرَهُ بِالْوَقْتِ لِإِرْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ لِيَشْمَلَ الْأَمَكَةَ وَالْأَرْمَنَةَ.

قوله: (وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ مَكَّةَ)، عَطَفُ عَلَى قَوْلِهِ: «وَاسْتَفْتَحَ الْكُفَّارُ عَلَى الرَّسْلِ». قَوْلُهُ: (كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مُنْقَطِعٌ)، فَإِنَّ قُلْتَ: قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْاسْتِثْنَاءَ مُنَافٍ لِإِدْخَالِ الْعَاطِفِ، فَمَا هَذِهِ الْوَاوُ إِذْنٌ؟ قُلْتَ: قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْجُمْلَةَ مُنْقَطِعَةٌ عَنِ حَدِيثِ الرَّسْلِ وَأُمَّهِمْ، وَلَمْ يَذْكَرْ أَنَّهَا مُنْقَطِعَةٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ فِي مُفْتَتِحِ السُّورَةِ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢-٣]، وَالْمُرَادُ مِنْهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، وَوَسَّطَتْ قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ؛ لِيُذَكِّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، فَيَعْتَبِرُوا بِعَاقِبَةِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا، وَإِلْرشَادِ الرَّسُولِ ﷺ وَتَسْلِيَتِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِدْيِهِمْ، وَيَقْتَنِي آثارَهُمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى أَدْوَى الْقَوْمِ، وَالتَّشْمِيرِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ.

الآ تَرَى كَيْفَ طَابَقَ بَيْنَ الْإِرْشَادَيْنِ - أَعْنِي: قَوْلُهُ: ﴿لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاطُ الْعَبِيدُ ﴾ [١٨]

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيويوه، تقديره: وفيما يقص عليك ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾، و«المثل» مستعار للصفة التي فيها غرابة، وقوله: ﴿ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: ﴿ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾. ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا برّبهم. أو: هذه الجملة خبر للمبتدأ؛....

النور ﴿ [إبراهيم: ١] في خطاب الرسول ﷺ، وقوله: ﴿ أَنْتَ أَخْرَجْتَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم: ٥] من خطاب موسى عليه السلام - ووافق بين التذكيرين، أعني: تذكير هذه الأمة بالأنبياء والأئم، وتذكير أمة موسى عليه السلام بقوله: ﴿ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٥].

وإنما أخرج المصنف هذا الوجه، وفصل بينه وبين الوجه السابق، وأطال الكلام بينها، لأنه - بالنظر إلى الظاهر - بعيد التعلق، وعليه النظم المعجز كما ترى.

وأما إيراده في هذا المقام فعلى سبيل الاستطراد، فإنه تعالى لما ذكر حية الجبارين الذين تجبروا على الرُّسل، فإنهم لما قالوا: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣] حبيهم بقوله: ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ * وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿ [إبراهيم: ١٣-١٤]، كما استفتح أهل مكة بالمطر، وحييهم بالسقي من الماء الصديد.

والمراد بـ«سني القحط»: ما أكلوا فيها الجيف والعلهز^(١)، وهي الدخان في قوله: ﴿ فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٠-١١].

قوله: (أو: هذه الجملة خبر للمبتدأ)، عطف على قوله: «ويجوز أن يكون المعنى»، يعني: قوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ مُبتدأ، والخبر: ﴿ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ على تقدير

(١) العلهز: وبرّ يُحَلَطُ بدماء الحلم، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجذب. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (علهز).

أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرّضه مَصُونٌ وماله مَبْدُولٌ، أو يكون ﴿أَعْمَلْتُهُمْ﴾ بدلاً من ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على تقدير: مثل أعمالهم، و﴿كِرْمَادٍ﴾: الخبز.

وقرئ: ﴿الرِّيَّاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جعل العصف لليوم، وهو لَمًا فيه، وهو الرِّيحُ أو الرِّياح، كقولك: يومٌ ماطر، وليلةٌ ساكرة، وإنما السَّكُورُ ليريحها. وقرئ: «في يومٍ عاصِفٍ» بالإضافة. وأعمالُ الكفرة: المكارمُ التي كانت لهم، من صِلَةِ الأرحام، وعِتْقِ الرِّقاب، وفداءِ الأسارى، وعَقْرِ الإبلِ للأضياف، وإغاثةِ الملهوفين، والإجارة، وغير ذلك من صنائعهم، شَبَّهَهَا في حُبوطها وذهابها هباءً مثوراً لبنائها على غير أساسٍ من معرفةِ الله والإيمان به وكونها لوجهه: برمادٍ طيرتُهُ الرِّيحُ العاصِفُ.

﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القيامةِ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يُقدَرُ من الرمادِ المطيرِ في الرِّيحِ على شيءٍ،

حذف مضاف؛ لِيَسْتَقِيمَ إيقاعُ ﴿أَعْمَلْتُهُمْ كِرْمَادٍ﴾ خبراً عنه، أو تكونُ هذه الجملةُ - أي: ﴿أَعْمَلْتُهُمْ كِرْمَادٍ﴾ - خبراً على التاويل المذكور، ولا تُقدَرُ شيئاً^(١)، لأنه حيثنذ من التركيب السببي.

قوله: (أو يكونُ ﴿أَعْمَلْتُهُمْ﴾ بدلاً من ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ على تقدير: مثلُ أعمالهم، و﴿كِرْمَادٍ﴾: الخبز، قال أبو البقاء: «وهو بَدَلٌ اشْتِمَالٌ»^(٢).

قوله: (وليلةٌ ساكرة)، أي: ساكنة، عن الجوهري.

قوله: (الملهوفين)، الجوهري: «لَهْفٌ - بالكسر - يَلْهَفُ لَهْفًا؛ أي: حَزَنَ وَتَحَسَّرَ، والملهوف: المظلومُ يَسْتَعِيثُ».

(١) في (ح): «لا يقدرُونَ شيئاً».

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٦٦).

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ﴾ إشارة إلى بُعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب.
 ﴿بِالْحَقِّ﴾: بالحكمة والغرض الصحيح والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.
 [﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٩-٢٠﴾]

وُقِرَى: «خالق السموات والأرض»، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: هو قادر على أن يُعِدَمَ الناسَ ويخلق مكانهم خلقاً آخرَ على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلماً منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم،.....

قوله: (إشارة إلى بُعد ضلالهم عن طريق الحق)، أي: هذا الكلام إشارة إلى أن ضلالهم قد بُعد عن الطريق القويم^(١)، والمراد أنهم قد بُعدوا؛ على الإسناد المجازي أو الاستعارة المكنية كما سبق قبل هذا، وفيه من المبالغات ما بلغت غايتها، وذلك من إيقاع اسم الإشارة مُبتدأً، وتعريف الخبر، ووضفه بالبُعد، وتوسيط ضمير الفُصل.

قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة والغرض الصحيح، الانتصاف: «هذا اعتزالٌ خفيٌّ، سبقَتْ أمثاله، ثم قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ لأنه قادرٌ بالذات، لا اختصاص له بمقدورٍ دون مقدور، فإذا خلص له^(٢) الداعي وانتفى الصارِفُ يكونُ من غير توقُّف، وصرح بها كان خفيّاً، وما أقبَحَ قوله عن الله تعالى: خلص له الداعي وانتفى الصارِفُ»^(٣).

قوله: (وُقِرَى: «خالق السماوات»)، حمزة والكسائي^(٤).

- (١) من بداية الفقرة وَرَدَ فِي (ف) هكذا: قوله: إشارة إلى بُعد ضلالهم عن الطريق القويم، وفيه خلل.
 (٢) قوله: «بمقدور دون مقدور فإذا خلص له» سقط من (ح) و(ف)، وأثبت من (ط).
 (٣) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٧٢)، ولفظه عند قول الزمخشري: «قادر بالذات»: «وهذا اعتزالٌ خفيٌّ صُراح، لم يتفنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جلَّ جلاله...»
 (٤) انظر: «التيسير» لأبي عمرو الداني ص ١٣٤، و«حجة القراءات» ص ٣٧٦.

يَقْدِرُ عَلَى الشَّيْءِ وَجِنْسٍ ضِدَّهُ. ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بِمُتَعَدِّرٍ، بَلْ هُوَ هَيِّنٌ عَلَيْهِ سِيرٌ، لِأَنَّهُ قَادِرٌ الذَّاتِ لَا اخْتِصَاصَ لَهُ بِمَقْدُورٍ دُونَ مَقْدُورٍ، فَإِذَا خَلَّصَ لَهُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ وَانْتَفَى الصَّارِفُ تَكُونُ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ، كَتَحْرِيكِكَ أَصْبِعَكَ إِذَا دَعَاكَ إِلَيْهِ دَاعٍ وَلَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ صَارِفٌ.

وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال، وعظيم خطيئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له، الدالة على قدرته الباهرة، وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يُعبدَ، ويُخافَ عقابه، ويُرجى ثوابه في دار الجزاء.

[﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ حَمِيحًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ لَهَدَيْتَنَا كُفْرًا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرِنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ [٢١]

قوله: (وجنس ضده)، مُبَالَعَةٌ فِي الْاِقْتِدَارِ، يَعْنِي: أَنَّهُ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى الضَّدِّ فَقَطْ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى الضَّدِّ وَأَمْثَالِهِ، كَالْتَبَائِنِ وَالتَّمَائِلِ وَالتَّقَابِلِ وَالتَّظْيِيرِ وَالتَّنَدُّ (١) وَغَيْرِهَا. الْجَوْهَرِيُّ: «يُقَالُ: لَا ضِدَّ لَهُ وَلَا نَدٌّ؛ أَي: لَا تَظْيِيرَ لَهُ»، وَقَالَ الْمُصَنِّفُ (٢): «مَعْنَى قَوْلِهِمْ: لَيْسَ لِلَّهِ نَدٌّ وَلَا ضِدٌّ: نَفْيُ مَا يَسُدُّ مَسَدَّهُ، وَنَفْيُ مَا يُنَافِيهِ»، وَفِيهِ إِدْمَاجٌ لِإِبْطَالِ قَوْلِ الثَّنَوِيَّةِ (٣).

(١) فِي (ح): «وَالضَّدُّ».

وَانظُرْ: «الْفُرُوقُ اللَّغَوِيَّةُ» لِأَبِي هَلَالِ الْعَسْكَرِيِّ، ص ١٤٨ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمِثْلِ وَالتَّظْيِيرِ وَالفَرْقُ بَيْنَ الْمِثْلِ وَالشَّبهِ، وَص ١٤٧ الْفَرْقُ بَيْنَ التَّنَدِّ وَالْمِثْلِ.

(٢) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢٢ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢: ٣٠٩).

(٣) تَحْرُفٌ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «النَّبْوَةِ»، وَالْمُتَّبِعُ مِنْ (ط).

وَالثَّنَوِيَّةُ: هُمُ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ لِلْعَالَمِ أَصْلِينَ: النُّورَ وَالتَّظْلِمَةَ، وَكِلَاهُمَا قَدِيمٌ. وَهُمُ أَرْبَعُ فُرُقٍ: الْمَانَوِيَّةُ، وَالرِّيسَانِيَّةُ، وَالمَرْتُونِيَّةُ، وَالمَزْدَكِيَّةُ. انظُرْ: «اعْتِقَادَاتُ فِرْقِ الْمُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ» لِلْإِمَامِ فخر الدين الرازي ص ٨٨.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ وَبَرَزُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا جِيءَ بِهِ بِلَفْظِ الْمَاضِي، لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَزَّ وَعَلَا لِبِدْقِهِ كَأَنَّهُ قَدْ كَانَ وَوُجِدَ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وَنَظَائِرُ لَهُ. وَمَعْنَى بُرُوزِهِمْ لِلَّهِ - وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَتَوَارَى عَنْهُ شَيْءٌ حَتَّى يُبْرَزَ لَهُ -: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَتِرُونَ مِنَ الْعُيُونِ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ خَافٍ عَلَى اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ انْكَشَفُوا لِلَّهِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ. أَوْ: خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ فَبَرَزُوا لِحِسَابِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ كُتِبَ ﴿الضُّعْفَتُوا﴾ بِوَاوٍ قَبْلَ الْهَمْزَةِ؟ قُلْتَ: كُتِبَ عَلَى لَفْظٍ مَنْ يُفْحَمُ الْأَلْفَ قَبْلَ الْهَمْزَةِ فَيُمِيلُهَا إِلَى الْوَاوِ، وَنَظِيرُهُ ﴿عَلَّمْتُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

﴿الضُّعْفَتُوا﴾: الْأَتْبَاعُ وَالْعَوَامُّ، وَ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: سَادَاتُهُمْ وَكِبْرَاؤُهُمْ، الَّذِينَ اسْتَبَعُواهُمْ وَاسْتَعَوْهُمْ وَصَدُّوهُمْ عَنِ الْاسْتِمَاعِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ. ﴿تَبَعًا﴾: تَابِعِينَ، جَمْعُ تَابِعٍ عَلَى تَبِعٍ، كَقَوْلِهِمْ: خَادِمٌ وَخَدَمٌ، وَغَائِبٌ وَغَيْبٌ، أَوْ ذَوِي تَبِعٍ. وَالتَّبَعُ: الْأَتْبَاعُ، يُقَالُ: تَبِعَهُ تَبَعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ «مِنْ» فِي ﴿مَنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ وَبَيْنَهُ فِي ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؟ قُلْتَ: الْأُولَى لِلتَّبْيِينِ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبْعِيضِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا بَعْضَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ عَذَابُ اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّبْعِيضِ مَعًا، بِمَعْنَى: هَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا بَعْضَ شَيْءٍ هُوَ بَعْضُ عَذَابِ اللَّهِ؟ أَيُّ: بَعْضُ بَعْضٍ عَذَابِ اللَّهِ.

قوله: (بَعْضُ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ عَذَابُ اللَّهِ)، فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَابَقَ هَذَا التَّقْدِيرُ قَوْلَهُ: «مِنْ: الْأُولَى لِلتَّبْيِينِ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبْعِيضِ»؟ قُلْتَ: مِنْ حَيْثُ إِنَّ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ حَيْثُذِ مَفْعُولٌ ﴿مُغْنُونَ﴾، وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّقْلِيلِ، وَ﴿مَنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ حَالٌ مِنْهُ قَدِّمَتْ؛ لِأَنَّ ذَا الْحَالِ نَكْرَةٌ، وَالحَالُ وَصَاحِبُهَا فِي الْحَقِيقَةِ صِفَةٌ وَمَوْصُوفٌ.

قوله: (بَعْضُ شَيْءٍ هُوَ بَعْضُ عَذَابِ اللَّهِ)، فَعَلَى هَذَا: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بَدَلٌ ﴿مَنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾،

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتَكُمْ﴾؟ قلت: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم، وقولهم: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا﴾ من باب التبكيت؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرُونَ على الإغناء عنهم، فأجابوهم مُعتذرين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلُّوهم، إما مُورِّكين الذَّنْبَ في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا. ويدلُّ عليه قوله حكايةً عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. ويجوز أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطفِ فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وقيل: معناه لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم؛ أي: لأغنيا عنكم وسلكننا بكم طريق النجاة، كما سلكننا بكم طريق الهلكة.

على أن لا يكون المُبدل مُطرَحاً، والبَدل لَمَّا كَانَ كَالْيَاقِينِ لِلْمُبْدَلِ قَالَ: «هو بعض عذاب الله»، فيرجعُ حاصلُ المعنى إلى قوله: «مُعْتَنُونَ عَنَّا بِعَضِّ بَعْضِ عَذَابِ اللَّهِ».

قوله: (الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم)، أي: قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ توبيخ، لأنهم أخبروهم بما لم يخفَ عليهم، فأفادَ الإخبارُ في ذلك المقام التقرُّيعَ والتوبيخَ، فهو من لازمِ فائدةِ الخبرِ على المجازِ.

قوله: (إما مُورِّكين الذَّنْبَ)، الجوهرى: «وَوَزَّكَ فُلَانٌ ذَنْبَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ أَي: قَرَفَهُ [به]»، ولفظةُ «إما» تستدعي قريبتها؛ لأنها تفصيلية، وقريتها ما يدلُّ عليه قوله: «ويجوزُ أن يكونَ المعنى»، فالتقدير: لو كُنَّا من أهل اللطفِ فلطفَ بنا ربنا واهتدينا لهديناكم، قالوه إما مُورِّكين الذَّنْبَ، وإما مُعلِّقين فُقدانَ هدايتهم على فُقدانِ اللُّطفِ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ مُسْتَوِيَانِ عَلَيْنَا الْجَزَعُ وَالصَّبْرُ. والهمزة و«أَمْ» للتسوية. ونحوه: ﴿فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَكُمْ﴾ [الطور: ١٦]. وَرُوي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: تَعَالَوْا نَجْزَعْ، فَيَجْزَعُونَ خَمْسَ مِثَّةٍ عَامٍ، فَلَا يَنْفَعُهُمْ، فَيَقُولُونَ: تَعَالَوْا نَصْبِرْ، فَيَصْبِرُونَ كَذَلِكَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾.

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ بما قبله؟ قلت: اتصّاله من حيث إنّ عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه، فقالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾، يريدون: أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ؟ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر، والأمر من ذلك أطم.....

قوله: (مُسْتَوِيَانِ عَلَيْنَا الْجَزَعُ وَالصَّبْرُ)، الراغب: «الجزعُ أبلغُ مِنَ الحُزْنِ، فإنَّ الجَزَعُ حُزْنٌ يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ وَيَقْطَعُهُ، وَأَصْلُهُ: قَطَعَ الْحَبْلَ مِنْ نِصْفِهِ، يُقَالُ: جَزَعْتُهُ فَانْجَزَعَ، وَلِتَصَوَّرَ الْإِنْقِطَاعَ قِيلَ: جَزَعُ الْوَادِي؛ لِمُنْعَطِفِهِ، وَلا تَقْطَعُ اللَّوْنُ بِتَغْيِيرِهِ قِيلَ لِلخَرَزِ الْمَلُونِ: جَزَعٌ»^(١).

قوله: (كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ بِمَا قَبْلَهُ؟)، يعني: كَانَ مِنَ الظَّاهِرِ أَنْ يَقُولُوا: سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَجْرَعْتُمْ أَمْ صَبَرْتُمْ، لِأَنَّهُ جَوَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَعَنُونَ عَلْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وَهُوَ إِظْهَارُ الْجَزَعِ مِمَّا كَانُوا فِيهِ؟ وَأَجَابَ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا شَرَكُوا أَنْفُسَهُمْ مَعَهُمْ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي عِقَابِ الضَّلَالَةِ.

وقلت: وفيه أنّا كيف نُغْنِي عَنْكُمْ ذَلِكَ وَنَحْنُ مَعَكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ^(٢)، وَلَوْ قِيلَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ لَمْ يُفْهَدْ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْإِيْجَازِ.

قوله: (أَطْمَ)، النّهاية: «طَمَّ الشَّيْءُ: إِذَا عَظُمَ»^(٣)، وَطَمَّ السَّمَاءُ: إِذَا كَثُرَ، وَهُوَ طَامٌ، وَمِنْهُ

(١) «مفردات القرآن» ص ١٩٤-١٩٥.

(٢) من قوله: «علينا، بما قبله؟» إلى هنا، سقط من (ف).

(٣) في (ح): «الشيء إذا عظم»، دون «طم» في أوله، ومثله في (ف) لكن بزيادة: «فقد طم»، ومعناه =

أولاً: لَمَّا قَالُوا ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ﴾ طريق النجاة لأغنيانا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقنطار من النجاة فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: منجى ومهرب، جز عنا أم صبرنا.

ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا جميعاً: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾، كقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْتُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]. و«المحيص»: يكون مصدرًا كالغيب والمشيبي، ومكانًا كالمبيت والمصيف. ويقال: حاص عنه وجاض، بمعنى واحد.

[﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٢]

حديث أبي بكر رضي الله عنه: «ما من طامة إلا وفوقها طامة»^(١)، أي: ما من عظيم إلا وفوقه ما هو أعظم منه».

قوله: (كقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْتُ بِالْغَيْبِ﴾)، قال صاحب «التقريب»: وفيه نظر؛ إذ الاحتمالان هناك على البدل، وهاتنا على الجمع، إلا أن يُريد بالتشبيه أنه من كلام الفريقين مع ورود ظاهر عقيب قول المستكبرين، كما أن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْتُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] ورد عقيب قول المرأة، مع أنه قيل: إنه من كلام يوسف عليه السلام.

وقلت: وجه التشبيه هو أن هذا الكلام يحتمل أن يكون مقولاً للمستكبرين وخذهم، وأن يكون مقولاً للضعفاء والمستكبرين جميعاً، كما أن ذلك الكلام يحتمل أن يكون مقولاً

= صحيح، والمثبت من (ط) و«النهاية» لابن الأثير (٣: ١٣٩)، مادة (طمم).

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢: ٤٢٤).

وروي مرفوعاً من طرق ضعيفة، انظر: «المقاصد الحسنة» للمحافظ السخاوي ص ١٤٧ (حديث: «البلاء مؤكل بالمنطق»).

﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لَمَّا قُطِعَ الْأَمْرُ وَفُرِغَ مِنْهُ، وَهُوَ الْحِسَابُ، وَتَصَادُرَ الْفَرِيقَيْنِ وَدُخُولِ أَحَدِهِمَا الْجَنَّةَ وَدُخُولِ الْآخَرِ النَّارَ. وَرُوي: أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُومُ عِنْدَ ذَلِكَ حَظِيبًا فِي الْأَشْقِيَاءِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَيَقُولُ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ﴾ وَهُوَ الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ، فَوَقَّى لَكُمْ بِمَا وَعَدَّكُمْ، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ خِلَافَ ذَلِكَ، ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ مِنْ تَسَلُّطٍ وَقَهْرٍ فَأَقْسِرُكُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَأُلْجِنُكُمْ إِلَيْهَا، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ﴾ إِلَّا دُعَائِي إِيَّاكُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ بَوَسْوَسَتِي وَتَزْيِينِي، وَلَيْسَ الدُّعَاءُ مِنْ جِنْسِ السُّلْطَانِ، وَلَكِنَّهُ كَقَوْلِكَ: مَا تَحَيْتُهُمْ إِلَّا الضَّرْبَ.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حَيْثُ اغْتَرَزْتُمْ بِي وَأَطَعْتُمُونِي إِذْ دَعَوْتُمْكُمْ، وَلَمْ تُطِيعُوا رَبَّكُمْ إِذْ دَعَاكُمْ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ الشَّقَاوَةَ أَوْ السَّعَادَةَ وَيُحْضِلُهَا لِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا التَّمَكِينُ، وَلَا مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا التَّزْيِينُ. وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُ الْمَجْبُرَةُ لَقَالَ: فَلَا تَلُومُونِي وَلَا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ قَضَى عَلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَأَجْبَرَكُمْ عَلَيْهِ.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به؟ قلت: لو كان هذا القول منه...

ليوسف عليه السلام، وأن يكون مقولاً لها، وهذا القدر كافٍ في صحّة التشبيه.

قوله: (ما تحييتهم إلا الضرب)، جعل «التحية» نوعين: متعارف؛ وهي ما يقال عند الملتقى، وغير متعارف؛ وهي الضرب على التهكمية والادعاء، فأخرج بالاستيحاء أحد النوعين.

قوله: (ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوُموني ولا أنفسكم، فإن الله قضى عليكم الكفر)، وقلت: غاية هذا الاستدلال أن الشيطان أضاف اللوم إلى أنفسهم، ونحن نقول بموجبه، لأن العتاب والعقاب متوجهان إلى المكلف بسبب كسبه ومباشرته، لأنه في الظاهر كالمختار، ولأن قول الشيطان معطوف على قول الضعفاء، وكلتا القضييتين حكاية لقول الفريقين، ومخاصمة جرت بين الجزين، وهما تفصيلان لِمَا أُجْمِلَ في قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وذكر في الآية الأولى احتجاج المستكبرين على المستضعفين، وهو قولهم: ﴿لَوْ هَدَّنا اللَّهُ

باطلاً لَبَيِّنَ اللهُ بَطْلَانَهُ وَأَظْهَرَ إِنْكَارَهُ، عَلَى أَنَّهُ لَا طَائِلَ لَهُ فِي النَّطْقِ بِالْبَاطِلِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّكُمْ وَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿مَا أَنَا بِمُضْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضْرِحِي﴾ لا يُنْجِي بَعْضُنَا بَعْضاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا يُغِيثُهُ. والإصرار: الإغاثة.

لَهْدَيْنَكُمْ﴾، فكما دَلَّ قَوْلُ الشَّيْطَانِ عَلَى ظَاهِرِ مَذْهَبِكُمْ، دَلَّ قَوْلُ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى خِلَافِهِ. ولَعَمْرِي إنه تفسيرٌ بالرأي، وذلك أنه حينَ سَمِعَ أَنَّ قَوْلَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مُخَالِفٌ لِمَذْهَبِهِ قَالَ: «إِذَا مُورِكِينَ الذَّنْبِ وَإِذَا مُعْتَذِرِينَ بَعْدَ اللَّطْفِ»، وحينَ رَأَى الشَّيْطَانَ يَقُولُ بِمَا يُوَافِقُ مَذْهَبَهُ شَنَّعَ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ.

ثم إني بعدَ بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَانِ وَقَفْتُ عَلَى كَلَامٍ مِنْ جَانِبِ صَاحِبِ «الانْتِصَافِ»، وَهُوَ قَوْلُهُ: «حَمَلَ كَلَامَ الْكُفَّارِ فِي الْأَوَّلِ عَلَى الْإِبْطَالِ؛ إِذْ لَا يُوَافِقُ مَذْهَبَهُ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾، وَلَمَّا وَافَقَ قَوْلَ الشَّيْطَانِ مُعْتَقَدَهُ صَوَّبَهُ اتِّبَاعاً لِهَوَاهُ، وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْمَلَامَةَ إِنَّمَا تَتَوَجَّهُ عَلَى الْمُكَلَّفِ، وَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ تَوَجُّهِ تِلْكَ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لِلْعَبِيدِ اخْتِيَاراً يَجِدُهُ مِنْ نَفْسِهِ فِي الْأَفْعَالِ الْإِرَادِيَّةِ ضَرُورَةً، وَبِذَلِكَ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ، وَإِنْ سَلَبْنَا تَأْثِيرَ قُدْرَةِ الْخَلْقِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قُدْرَتُهُ سَارِيَةٌ^(١) فِي الْفِعْلِ، فَلَا تَنَاقُضَ لِأَنَّ تَوَجُّهَ اللَّوْمِ^(٢) إِلَى الْمُكَلَّفِينَ^(٣)، فَعَلِمْتُ تَوَارُدَ الْخَوَاطِرِ.

(١) قوله: «لأن الله تعالى قدرته سارية» سقط من (ط) و (ح).

(٢) كذا في الأصول الخطية! وفي «الانتصاف»: «فلا تناقض إذن بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف».

(٣) «الانتصاف» لابن المنير (٢: ٣٧٤-٣٧٥) بحاشية «الكشاف».

وقرئ: «بمُضْرِيَّ» بكسر الياء، وهي ضعيفة، واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قَالَ هَاهُلْ لِكَ يَاتَا فِي قَالَتْ لَهُ: مَا أَنْتَ بِالْمَرْضِيِّ

وكانه قدر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحرّكها بالكسر لِمَا عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح، لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو «عصاي»، فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرّت الياء الأولى تجرّي الحرف الصّحيح لأجل الإدغام، فكأنّها ياء وَقَعَتْ ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل.....

قوله: (قال لها: هل لك ياتافي)، «تا»: إشارة^(١) إلى المرأة، أي: هل لك رغبة فيّ يا هذه.

نقل الإمام عن الواحدي «أنها قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب^(٢)، قال الفراء: ولعلّ أنهم توهموا أنّ الباء في «بمُضْرِيَّ» خافضة لجملة هذه الكلمة، كما توهموا في قوله: ﴿تُولِيَهُ مَا تَوَلَّى وَتُضْلِيهِ﴾ [النساء: ١١٥] بجزم الهاء^(٣)، وظنّوا أنّ الجزم في الهاء، وليس كذلك، لأن ياء المتكلم والهاء خارجتان من نفس الكلمة»^(٤).

(١) أي: بمعنى: «هذه».

(٢) في الأصول الخطية: «الوثاب»، والمعروف في اسمه «وثاب» من غير «ال»، وكذا هو في «تفسير الرازي»، وقد تقدّم التعريف به ص ٣٨١ عند تفسير الآية ٦٥ من سورة يوسف. هذا وفي عزو المؤلف رحمه الله تعالى هذه القراءة إلى الأعمش ويحيى بن وثاب ما يؤهم أنها قراءة شاذة، وليس كذلك، فإنها قراءة حمزة - أحد السبعة الذين تواترت قراءاتهم -، كما في «التيسير» لأبي عمرو الداني ص ١٣٤، و«النشر» لابن الجزري (٢: ٢٩٨).

(٣) أي: «تُولِيَهُ مَا تَوَلَّى وَتُضْلِيهِ»، وهي قراءة أبي عمرو وحمزة من السبعة. انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص ٨٩.

(٤) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٩: ٨٨). وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢: ٧٥).

قلت: هذا قياسٌ حسنٌ، ولكنَّ الاستعمالَ المُستفيضَ الذي هو بمنزلة الخبر المتواترِ تتضاءلُ إليه القياساتُ.....

قوله: (ولكنَّ الاستعمالَ المُستفيضَ)، أي: فَتَحَ الياءَ، فالياءُ الأولى: ياءُ الجمعِ، والثانية: ضميرُ المتكلمِ، وَفَتَحَتْ لِثَلَا تَجْمَعُ الكسرتانِ والياءَ ان.

قال الزَّجَّاجُ: «قرأ حمزةُ والأعمشُ: «بمُصْرَخِي» بكسر الياءِ، وهي عندَ جميعِ النَحْوِيِّينَ مَرْدُولةٌ، وأجازها الفَرَّاءُ^(١)، لأنَّ أصلَ التِقَاءِ السَّاكِنِينَ الكَسْرُ^(٢)، وأنشد:

قال لها: هل لك يا تافي^(٣).

قال الزَّجَّاجُ: «هذا الشعرُ مما لا يُلْتَفَتُ إليه، وقائلُه مَن لا يُعَرَفُ، فلا يُحْتَجُّ به في كتابِ الله»^(٤).

(١) في كتابه «التصريف»، كما في «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥: ٢٩). أما في «معاني القرآن» للفراء (٢: ٧٥)، فقال: «ولعلها من وهم القراء طيبة يحيى، فإنه قل من سلم منهم من الوهم». وقد لاحظ العلامة السمين الحلبي في «الذر المصون» (٧: ٩٥) هذا الاختلاف، فقال رحمه الله تعالى: «قد اضطرب النقل عن الفراء في هذه المسألة كما رأيت من نقل بعضهم عنه التخطئة مرةً والتصويب أخرى، ولعل الأمر كذلك، فإن العلماء يسألون فيجيون بها يحضرون حال السؤال، وهي مختلفة».

(٢) فكانه قد رآه الإضافة ساكنة، وقبلها ياء ساكنة، فحركها بالكسر؛ لئلا عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح، لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف، نحو: عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟! قاله الإمام أبو حيان في «البحر المحيط» (٥: ٤٠٩).

(٣) من أرجوزة للأغلب العجلي، وهو شاعر جاهلي إسلامي - أي: محضرم -، أسلم وهاجر، ثم استشهد في وقعة نهاوند، كما في «خزانة الأدب» للبغدادي (٤: ٤٣١)، وقال أبو شامة في «إبراز المعاني من حرز الأمان» (٢: ٥٥١): «رأيتُه أنا في أول ديوانه».

قلت: وقبله - كما في «الحجة» لأبي علي الفارسي و«خزانة الأدب» للبغدادي -:

ماضي إذا ما همَّ بالمضي

وبعدَه - كما في «معاني القرآن» للفراء (٢: ٧٦)، و«المحتسب» لابن جني (٣: ٧٦) -:

قالت له: ما أنت بالمرضي

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٥٩-١٦٠).

وَنَقَلَ أَبُو عَلِيٍّ فِي «الْحَجَّة» عَنِ الْفَرَاءِ: «رَزَعَمَ الْقَاسِمُ بْنُ مَعْنٍ^(١) أَنَّهُ صَوَابٌ، وَكَانَ ثِقَةً بَصِيرًا، وَرَزَعَمَ قُطْرُبٌ أَنَّهُ لُغَةٌ بَنِي يَرْبُوعٍ^(٢)؛ يَزِيدُونَ عَلَيَّ الْإِضَافَةَ يَاءً»، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ، وَوَجَّهَهُ فِي الْقِيَاسِ: «أَنَّ الْيَاءَ لَا تَخْلُو مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ أَوْ جَرٍّ، فَالْيَاءُ فِي النَّصْبِ وَالْجَرِّ كَالهَاءِ فِيهِمَا، وَكَالْكَافِ فِي «أَكْرَمْتُكَ»^(٣)، فَكَمَا أَنَّ الهَاءَ قَدْ لَحِقَتْهَا الزِّيَادَةُ فِي «هَذَا لَهْوٌ»، وَالْكَافُ فِي «أَعْطَيْتُكَاهُ» وَ«أَعْطَيْتُكِيه»، فِيمَا حَكَاهُ سَبِيئِيَّةٌ^(٤)، وَهِيَ أَخْتَا الْيَاءِ، فَكَذَلِكَ أَلْحَقُوا الْيَاءَ [الزِّيَادَةَ مِنَ الْمَدِّ، فَقَالُوا: فَيِّي، ثُمَّ حُذِفَتِ الْيَاءُ]^(٥) الزَّائِدَةَ، كَمَا حُذِفَتِ الزِّيَادَةُ مِنَ الهَاءِ فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ:

لَهُ أَرْقَانٌ^(٦)

(١) هو أبو عبد الله القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الكوفي الهنلي المسعودي (بعد ١٠٠-١٧٥)، الإمام الفقيه المجتهد النحوي الأخباري، قاضي الكوفة ومفتيها في زمانه، من كبار أصحاب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، قال أبو حاتم الرازي: ثقة، كان أروى الناس للحديث والشعر، وأعلمهم بالعربية والفقه. ولأه المهدي قضاء الكوفة، وكان يُقال له: سبئي زمانه. «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٨: ١٩٠-١٩١).

(٢) وهو يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. انظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ص ٢٢٤ (٣) تحرف في المطبوع من «الحجة» لأبي علي الفارسي: «أكبر منك»، والعبارة فيه بتمامها: «وكالكاف في: في أكبر منك، وهذا لك»، وهي تُؤكِّد التحريف، فقد ذكر الجر والنصب، ثم مثل لهما، وقوله: «هذا لك» مثال الجر، فوجب أن يكون ما قبله مثال النصب، وهو ما يستقيم بـ «أكرمك» دون «أكبر منك». فلزم التنبية إليه.

(٤) انظر: «الكتاب» لسبئويه (٤: ٢٠٠).

(٥) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصول الخطية، وأثبتته من «الحجة» لأبي علي الفارسي.

(٦) يعني: قول الشاعر:

فَطَلَّتْ لَدَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ أُخَيْلُهُ وَمِطْوَايَ مُشْتَاقَانِ لَهْ أَرْقَانِ

والبيت لرجل من أزد السراة، وقيل: ليعلى الأحول، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (مطأ) و(ها). وانظر: «الخصائص» لابن جني (١: ١٢٩ و ٣٧١)، و«المقتضب» للمبرد (١: ٣٩ و ٢٦٧).

- والأَرْقَانُ: لُغَةٌ فِي الْبِرْقَانِ^(١)، وَرَعَمَ أَبُو الْحَسَنِ^(٢): أَمَّا لُغَةٌ^(٣)، وَحُدِفَتِ الزِّيَادَةُ مِنَ الْكَافِ فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ: «أَعْطَيْتُكَه» وَ«أَعْطَيْتُكَه»، وَكَذَلِكَ حَذَفُوا الْيَاءَ اللَّاحِقَةَ لِلْيَاءِ، وَأُقْرِبَتِ الْكِسْرَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْيَاءِ الْمَحذُوفَةِ، فَبَقِيََتِ الْيَاءُ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْكِسْرَةِ، وَكَمَا لَحِقَتِ الْكَافُ وَالْهَاءُ وَالتَّاءُ الزِّيَادَةُ، فَكَذَلِكَ لَحِقَ الْيَاءُ الزِّيَادَةُ بِالْحَاقِ الْيَاءِ^(٤)، نَحْوُ مَا أُنْشِدَ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

رَمَيْتِيهِ فَأَصْمَيْتِ وَمَا أَخْطَأَتِ الرَّمِيَةَ^(٥)

(١) قوله: «وَالْأَرْقَانُ لُغَةٌ فِي الْبِرْقَانِ» زِيَادَةٌ مِنَ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ فِي «الْحِجَّةِ»، أَفَادَهُ مِنَ «الصُّحَاغِ» لِلْجَوْهَرِيِّ، مَادَةٌ (أَرْق)، وَتَمَامُ كَلَامِهِ: «وَهُوَ أَفَةٌ تُصِيبُ الزَّرْعَ»، وَهَذِهِ التَّمَّةُ تُبَيِّنُ مَا وَقَعَ لِلْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ وَهَمٍ هُنَا، فَقَدْ انْتَقَلَ ذَهْنُهُ مِنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى، فَلِأَرْقَانَ - بِنْتِجِ الرَّاءِ - هُوَ الْآفَةُ، وَلَا مَدْخَلَ لَهُ هُنَا، وَالَّذِي فِي الْبَيْتِ: «أَرْقَانَ» بِكسْرِ الرَّاءِ، تَثْبِيهُ «أَرْق»، أَي: سَاهَرًا لَا يَأْتِيهِ النَّوْمُ، وَصَفَّ لـ «مِطْوَايَ»، أَي: صَاحِبَايَ مُشْتَقَانِ لَهُ سَاهِرَانَ.

(٢) يَعْنِي: الْأَخْفَشُ.

(٣) وَهِيَ لُغَةٌ الْأَزْدِ السَّرَاةِ، كَمَا فِي «الْخِصَائِنِ» لِابْنِ جِنِّي (١: ١٢٨ و ٣٧٠).

(٤) يُوضِّحُهُ قَوْلُ مَكِّيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي «مَشْكَلِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» (١: ٤٠٣-٤٠٤): «مَنْ كَسَرَ الْيَاءَ: فَلِأَصْلِهِ عِنْدَهُ فِي «مُضْطَرِّحِي» ثَلَاثُ يَاءَاتٍ؛ يَاءُ الْجَمْعِ، وَيَاءُ الْإِضَافَةِ، وَيَاءُ زَيْدَتِ لِلْمَدِّ كَمَا زَيْدَتِ فِي «بِهِي»؛ لِأَنَّ يَاءَ الْمُتَكَلِّمِ كِهَاءِ الْغَائِبِ، وَقَدْ زَادُوا يَاءَ مَعَ تَاءِ الْمُؤَنَّثِ حَيْثُ كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ هَاءِ الْغَائِبِ»، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ الْآتِيَّ فِي كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ بَعْدَ قَلِيلٍ، قَالَ: «ثُمَّ حُدِفَتِ الْيَاءُ الَّتِي لِلْمَدِّ، وَبَقِيََتِ الْيَاءُ الْمُسَدَّدَةُ مَكْسُورَةً، كَمَا تُحْدَفُ مِنْ «بِهِي»، وَتَبَقِيَ الْهَاءُ مَكْسُورَةً.

وَقَدْ كَانَ الْقِيَاسُ اسْتِعْمَالُ الْيَاءِ صِلَةً لِيَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، كَمَا فَعَلُوا بِهَاءِ الْغَائِبِ، لَكِنْ رَفَضُوا اسْتِعْمَالَ ذَلِكَ لِثِقَلِ الْكِسْرَةِ عَلَى الْيَاءِ. فَالْقِرَاءَةُ بِكسْرِ الْيَاءِ فِيهَا بُعْدٌ مِنْ جِهَةِ الْاسْتِعْمَالِ، وَهِيَ حَسَنَةٌ عَلَى الْأَصُولِ، لَكِنَّ الْأَصْلَ إِذَا طُرِحَ صَارَ اسْتِعْمَالُهُ مَكْرُوهًا بَعِيدًا.

(٥) وَمَعْنَى: «أَصْمَيْتِ»: أَصَبْتِ الصَّيْدَ وَقَتَلْتَهُ، كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَةٌ (صَمَا).

وَيُرْوَى الْبَيْتُ بِلَفْظِ: «رَمَيْتِيهِ فَأَقْصَدْتِ»، كَمَا فِي «خَزَانَةِ الْأَدَبِ» لِلْبَغْدَادِيِّ (٥: ٢٦٨-٢٦٩)، وَبَعْدَهُ:

بَسَهْمَيْنِ مَلِيحَيْنِ أَعَارَتْكِيهِنَّ الطَّيْبَةَ

«ما» في ﴿بِمَا﴾ مصدرية، و﴿مِنْ قَبْلِ﴾ متعلقة بـ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾، يعني: كفرت اليوم بإشراككم إيتاي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ومعنى كُفِرَ بِهِ بِأَشْرَاكِهِمْ إِيَّاهُ: تَبَرُّؤُهُ مِنْهُ وَاسْتِنكَارُهُ لَهُ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنْتُمْ مِمَّنْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحنة: ٤]، وقيل: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ يتعلّق بـ﴿كَفَرْتُمْ﴾، و«ما» موصولة؛ أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتموني به وهو الله عز وجل. تقول: شَرَكْتُ زَيْدًا، إِذَا نَقَلْتَ بِالْهَمْزَةِ قَلْتَ: أَشْرَكْتَنِيهِ فَلَانٌ؛ أَي: جَعَلْتَنِي لَهُ شَرِيكًا. ونحو «ما» هذه: «ما» في قولهم: سُبْحَانَ مَا سَخَّرَكُنْ لَنَا.

ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يُزَيِّنُهُ لَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهَا.

وإذا كانت الكسرة في الياء على هذه اللغة، وإن كان غيرها أفضى منها، وعَصَدَهُ الْقِيَاسُ كَمَا ذَكَرْنَا، لَمْ يَجْزُ لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْقِرَاءَةَ بِذَلِكَ لَحْنٌ؛ لِاسْتِفَاضَةِ ذَلِكَ فِي السَّمَاعِ وَالْقِيَاسِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ لِحْنًا^(١)، تَمَّ كَلَامُهُ^(٢).

قوله: (وَنَحْوُ «ما» هذه «ما» في قولهم: سُبْحَانَ مَا سَخَّرَكُنْ لَنَا)، يُرِيدُ: أَنَّ «ما» عَلَى أَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً يُرَادُ بِهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَ«ما» لَا تُسْتَعْمَلُ فِي ذَوِي الْعِلْمِ إِلَّا بِاعْتِبَارِ الْوَصْفِيَّةِ

(١) «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥: ٢٩-٣٠).

(٢) وقال ابن زنجلة في «حجة القراءات» ص ٣٧٧-٣٧٨: «وأهل النَّحْوِ يُلْحِنُونَ هَمْزَةً...، وَبَلِيسَ هَمْزَةً لِاحْتِنَاءِ عِنْدَ الْحَدَاقِ»، وَنَقَلَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَابْنِ الْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهَا بِالْخَفْضِ لِحْسَنَةٌ».

وقال ابن الجزري في «النشر في القراءات العشر» (٢: ٢٩٩): «وَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلِ الزَّمْخَشَرِيِّ وَغَيْرِهِ مَنَّ ضَعْفَهَا أَوْ لِحْنَهَا، فَإِنَّهَا قِرَاءَةٌ صَحِيحَةٌ، اجْتَمَعَتْ فِيهَا الْأَرْكَانُ الثَّلَاثَةُ - يَعْنِي: صِحَّةُ السَّنَدِ فِي السَّمَاعِ، وَاسْتِقَامَةُ الْوَجْهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَمُوَافَقَةُ الرَّسْمِ -، وَقِيَاسُهَا فِي النَّحْوِ صَحِيحٌ». انتهى باختصار.

وهذا آخرُ قولِ إبليس. وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ قولُ الله عزَّ وجلَّ، ويحتملُ أن يكونَ من جملةِ قولِ إبليس، وإتيا حكيَّ اللهُ عزَّ وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكونَ لطفاً للسامعينَ في النَّظَرِ لعاقبتهم والاستعدادِ لِمَا لا بدَّ لهم من الوُصولِ إليه، وأن يتصوَّروا في أنفسهم ذلك المقامَ الذي يقولُ الشيطانُ فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يُخلِّصهم منه ويُنجيهم.

وقرئ: «فلا يُلوموني» بالياء؛ على طريقة الالتفات، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِهَم﴾ [يونس: ٢٢]

[﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [٢٣]

وقرأ الحسنُ وعمرو بن عبيد: «وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا» على فعل المتكلم، بمعنى: وَأَدْخَلَ أَنَا، وهذا دليلٌ على أنه من قول الله، لا من قول إبليس. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقٌ بـ«أَدْخَلَ» أي: أَدْخَلْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ.

فيه وتعظيم شأنه، كقولهم: سُبْحَانَ مَا سَخَّرَكُنَّا لَنَا، أي: سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ الَّذِي سَخَّرَ أَمْثَالَكُنَّا لَنَا.

قوله: (ويحتملُ أن يكونَ من جملةِ قولِ إبليس)، فإذا^(١) كانَ من قولِ الله تعالى كانَ استثنافاً فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أشدَّ عذابَ الظالمين، كما قال المصنِّفُ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٤٥]: «فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم».

وإذا كانَ من قولِ الشيطانِ كانَ نداءً منه على الإقناطِ والإياس.

(١) في (ح) و(ف): «فإنها»، والمثبتُ من (ط).

فإن قلت: فبِمَ يتعلَّق في القراءة الأخرى، وقولك: وأدخِلهم أنا بإذن ربهم، كلامٌ غيرٌ ملتئمٍ؟ قلت: الوجهُ في هذه القراءة أن يتعلَّق قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بما بعده؛ أي: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ بإذن ربهم، يعني: أن الملائكةَ يُحيُّونَهُمْ بإذن ربهم.

قوله: (فبِمَ يتعلَّق في القراءة الأخرى)، أي: قراءة المتكلم؛ لأنه غيرٌ ملتئمٍ ظاهرًا، قال ابنُ جني: «قوله: «وأدخِل الذين آمنوا» على فعل المتكلم؛ قطعٌ للكلام واستئناف، فقال الله تعالى: «وأدخِل الذين آمنوا»^(١)، أي: أنا أدخِلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ بإذن ربهم، أي: بإذني، إلا أنه أعادَ ذكرَ «الرَّبِّ» ليُضيفه إليهم، فتقوى الملبسة باللفظ، فيكونُ أحنى عليهم وأذهب في الإكرام والتقريب منه، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، هذا كُلُّهُ تقرُّبٌ منه وانتسابٌ^(٢).

وقال في «الانتصاف»: «لِمَ لا يجعلُه الزمخشريُّ من الالتفات، لأنه انتقل من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿طه﴾ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١-٢]، ثم قال: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ [طه: ٤]؟»^(٣).

قال صاحبُ «الانتصاف»: «لأنَّ ظاهرَ «أدخِل» أنه لم يكن بواسطة، بل من الله مباشرة، وظاهرُ الإذن يُشعرُ بإضافة الدخولِ إلى الواسطة، وبينهما تنافرٌ، والأحسنُ أن يتعلَّق بـ﴿حَلِيدِينَ﴾، لأنَّ الخلودَ غيرَ الدخول، فلا تنافرٌ»^(٤).

وقلت: القول ما قاله ابنُ جني، لأنه من باب التجريد^(٥)، يعني: أنا أدخِل بتيسير^(٦)

(١) من قوله: «على فعل المتكلم» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) «المحتسب» لابن جني (١: ٣٦٢).

(٣) «الانتصاف» لابن المنير (٣: ٣٧٥) بحاشية «الكشاف».

(٤) المصدر السابق (٣: ٣٧٦).

(٥) تكرر ذكر المؤلف رحمه الله تعالى لمصطلح «التجريد» في هذا الكتاب، وهو من مباحث علم البلاغة، وانظر في بيانه ما سيأتي في تفسير الآية ١٤ من سورة الجاثية (١٤: ٢٤٧) والتعليق عليه.

(٦) كذا في (ح)، وفي (ف): «بتسهيل»، والمعنى واحد.

[**﴿الْمُ تَرَكَيفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** ٢٤-٢٥]

قُرئ: «الْمُ تَرَ» ساكنة الراء، كما قُرئ: «مَنْ يَتَّقِ»، وفيه ضعف.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ اعتمد مثلاً ووضعها، و**﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾** نصب بمضمر؛ أي: جعل كلمة طيبة، **﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾** وهو تفسير لقوله: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾** كقولك: شرف الأمير زيدا؛ كسأه حلة، وحمله على فرس. ويجوز أن يتصب **﴿مَثَلًا﴾** و**﴿كَلِمَةً﴾** بـ**﴿ضَرَبَ﴾**، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى جعلها مثلاً، ثم قال: **﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾** على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة **﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾** يعني: في الأرض ضارب بعروقه فيها، **﴿وَفَرْعُهَا﴾** وأعلاها ورأسها **﴿فِي السَّمَاءِ﴾**، ويجوز أن يُريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس.

مَنْ رَحِمَهُمْ وَلَطَفَ بِهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ بِأَنْ هَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ^(١)، كما قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾** [فُصِّلَتْ: ١٩] على قراءة النون^(٢)، وقال صلوات الله عليه: **﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾** ثم قال: **﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾** [الأعراف: ١٥٨].

قوله: (اعتمد مثلاً)، أي: جعله ما يعتمد عليه، الجوهري: «العُمدة: ما يعتمد عليه، واعتمدت على الشيء: اتكأت على».

قوله: (ويجوز أن يُريد: وفروعها)، عطف على **﴿وَفَرْعُهَا﴾**، والفرع: إما أن يُحمل

(١) ناقش العلامة الألويسي رحمه الله تعالى هذا الوجه، وختمه بقوله: «فما ذهب إليه ابن جني، واستطيه الشيخ الطيبي وارتضاه، ليس بشيء لمن سليم له ذوقه».

(٢) وهي قراءة نافع وحده من السبعة، كما في «السبعة» لابن مجاهد ص ٥٧٦، و«حجة القراءات» ص ٦٣٥.

وقرأ أنس بن مالك: «كشجرة طيبة ثابت أصلها».

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن في قراءة أنس أُجْرِيَتِ الصِّفَةُ عَلَى الشَّجَرَةِ، وإذا قلت: مررتُ برجلٍ أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررتُ برجلٍ قائم أبوه؛ لأنَّ المُخْبِرَ عنه إنَّها هو الأب لا رجل.

على أعلى الشجرة أو على أغصانها؛ بأن يُكْتَفَى باسم الجنس عن الجمع.

الجوهري: «فَرَعُ كُلِّ شَيْءٍ: أعلاه، وَتَفَرَّعَتْ أَغْصَانُ الشَّجَرَةِ: كَبُرَتْ».

قوله: (قراءة الجماعة أقوى معنى)، قال ابن جني: «لأنك إذا قلت: «ثابت أصلها» فقد أُجْرِيَتِ الصِّفَةُ عَلَى «شجرة»، وليس الثبات لها، إنما هو للأصل، ولعمري إنَّ الصِّفَةَ إذا كانت في المعنى لِمَا هو من سَبَبِ الموصوفِ جَرَتْ عليه، وإذا كانت له كانت أخصَّ لفظاً به، وإذا كان الثبات في الحقيقة إنما هو للأصل، فالمتعمد بالثبات هو الأصل، فالأحسن تقديم الأصل عناية به، ومن ثمَّ قالوا: «زيداً ضَرَبْتُهُ»، فقدموا المفعول، لأنَّ العَرَضَ هاهنا ليس ذَكَرَ الفاعل، وإنما هو ذَكَرَ المفعول، فُقدِمَ عنايةً بذكره، ثم لم يُنْعَمْ بذلك حتى أزالوه عن لفظِ الفِضْلَةِ، وجعلوه رَبَّ الجملة لفظاً، فَرَفَعُوهُ بالابتداء، وصار قوله: «ضَرَبْتُهُ» ذِيلاً له وَفِضْلَةً مُلتَحِقَةً به، فكذلك قولك: «مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أبوه قائم» أقوى معنى من قولك: «قائم أبوه»؛ لأنَّ المُخْبِرَ عنه بالقيام إنما هو «الأب» لا «رجل».

ومن هنا ذهب أبو الحسن^(١) في نحو قولنا: «قام زيد» إلى أن «قام» في موضع رفع، لأنه وقع موقع الاسم، لأن تقدير المحدث عنه أسبق رتبة من الحديث.

إلا أن لقراءة أنس وجهاً حسناً، وهو أن قوله: «ثابت أصلها» صفة لـ«شجرة»، وأصل الصِّفَةِ أن تكون اسماً مُفْرَداً، لأنَّ الجملة إذا وقعت صفة حُكِمَ على موضعها بإعراب المفرد، فإذا قال: «ثابت أصلها» فقد جَرَّتِ الصِّفَةُ على أصلها، وإذا قال: «أصلها ثابت»

(١) يعني: الأخفش.

والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد. وقيل: كل كلمة حسنة، كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله.

وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار، كالنخلة وشجرة التين والعنبر والرمان وغير ذلك. وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًا، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغرُ القوم - ورؤي: فمَنَعَنِي مَكَانَ عُمَرَ وَاسْتَحْيَيْتُ - فقال لي عمر: يا بُنَيَّ، لو كنت قُلْتَهَا لَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنها النخلة». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة.

وقوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ معناه: في جهة العلوِّ والصُّعود، ولم يُردِ المِطْلَةَ، كقولك في الجبل: طويلٌ في السماء؛ تريدُ ارتفاعه وشمُوخه، ﴿تُوَفِّيهِ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ تُعْطِي ثَمَرَهَا كُلَّ وَقْتٍ وَقَتَهُ اللهُ لِإِثْمَارِهَا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بِتَيْسِيرِ خَالِقِهَا وَتَكْوِينِهِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لِأَنَّ فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ زِيَادَةَ إِفْهَامٍ وَتَذَكِيرٍ وَتَصْوِيرٍ لِلْمَعَانِي.

فقد وُضِعَتْ مَوْضِعَ الْمَفْرَدِ، فَالْمَوْضِعُ إِذْنٌ لَهُ لَا لَهَا، فَقَوْلُهُ: «ثَابِتٌ أَصْلُهَا» لَا يَبْلُغُ صُورَةَ الْجُمْلَةِ، لِأَنَّ «ثَابِتًا» جَارٍ فِي اللَّفْظِ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَإِنَّمَا فِيهِ أَنَّهُ وَضِعَ «أَصْلُهَا» مَوْضِعَ الضَّمِيرِ الْخَاصِّ لِتَضَمُّنِهِ إِيَّاهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ «أَصْلُهَا ثَابِتٌ»، لِأَنَّهُ جُمْلَةٌ قِطْعًا.

قوله: (وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم) الحديث، وفي أكثر النسخ: «عن ابن عباس»، والرواية الصحيحة عن البخاريِّ ومُسلمٍ والترمذيِّ والدارميِّ^(١) عن ابن عمر قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ شَبِهَ - أَوْ كَالرَّجُلِ - الْمُسْلِمِ

(١) البخاري (٦١) و(٦٢) و(٧٢) و(١٣١) و(٢٢٠٩) و(٤٦٩٨) و(٥٤٤٤) و(٦١٢٢) و(٦١٤٤)، ومسلم (٢٨١١)، والترمذي (٢٨٦٧)، والدارمي (٢٨٢).

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [٢٦]
 ﴿ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ ﴾ كمثل شجرة خيثة؛ أي: صفتها كصفتها. وقري: «ومثل
 كلمة» بالنصب، عطفاً على كلمة ﴿طَيِّبَةٍ﴾. والكلمة الخيثة: كلمة الشرك. وقيل:
 كل كلمة قبيحة.

وأما الشجرة الخيثة: فكل شجرة لا يطيب ثمرها، كشجرة الحنظل والكشوث
 ونحو ذلك. وقوله: ﴿اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: في مقابلة قوله: ﴿أَصْلَهَا ثَابِتٌ﴾
 [إبراهيم: ٢٤]، ومعنى ﴿اجْتَنَّتْ﴾: استوصلت، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة كلها،
 ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: استقرار. يقال: قر الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثباتاً؛ شبه بها
 القول الذي لم يعصّد بحجة، فهو داحض غير ثابت،

لا يتحأت ورفؤها، ولا ولا ولا، تؤتي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها
 النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكريهت أني أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال
 رسول الله ﷺ: هي النخلة، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها
 النخل. فقال: ما منعك أن تتكلم؟ فقلت: ما رأيتمكم تكلمون، فكريهت أن أتكلم أو
 أقول شيئاً. فقال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا».

قوله: (والكشوث)، بالثاء المثلثة، الجوهري: «الكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر
 من غير أن يضرب بعرق في الأرض».

قوله: (وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة كلها)، الراغب: «جثة الشيء: شخصه الناتج،
 والجث: ما ارتفع من الأرض، كالأكمة^(١) والجثية سميّت [به] لئلا بانث جثته بعد
 طخينه^(٢)»^(٣).

(١) الأكمة: تل، وقيل: شرفة كالرابية، وهو ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد، وربما غلظ، وربما لم
 يغلظ، والجمع: أكم وأكمت. «المصباح المنير» للفيومي، مادة (أكم).

(٢) في «مفردات القرآن» للراغب، مادة (جث): «بعد طبعه».

(٣) «مفردات القرآن» ص ١٨٧ - ١٨٨.

والذي لا يبقَى إِنْما يَضْمَحِلُّ عن قَريبٍ لِبُطْلاَنِهِ، من قولهم: الباطلُ لَجَلَجَجٍ. وعن قتادة: أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في «كلمة خبيثة»؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مُستَقَرًّا، ولا في السَّماءِ مَصْعَدًا، إلا أن تَلْزَمَ عُنُقَ صاحِبِها حتَّى يُوافيَ بها القيامة.

[يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾]

﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الذي ثبت بالحُجَّةِ والبرهانِ في قلب صاحِبِهِ وتمكَّن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فُتِنوا في دينهم لم يزلُّوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحابُ الأُخدود، والذين نُشِّروا بالمناشير، ومُشِطَّتْ لِحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جَرَجِيسُ وشَمْسُونُ وغيرُهُما.....

قوله: (الباطلُ لَجَلَجَجٍ)، الجوهرى: «اللَّجَلَجَةُ والتَّلَجُّجُ: التردُّدُ في الكلام، ويُقال: الحقُّ أبلَجُ والباطلُ لَجَلَجَجٌ؛ أي: يتردَّدُ من غير أن ينفذ»، واستشهد به لأن ما يتردَّدُ في نفسه ولا ينفذُ في شيءٍ لا يكون ثابتاً.

قوله: (إلا أن تَلْزَمَ عُنُقَ صاحِبِها حتَّى يُوافيَ بها القيامة)، يعني: الكلمة الخبيثة، وهو مُقتَبَسٌ من قوله تعالى: ﴿وَكَأَلَّ إِسْنِ الْزَمَنَةَ طَلْبِرَةً فِي عُنُقِهِ وَخَرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، قال: «المعنى: أن عمَلَهُ لازِمٌ له لزوم القِلادةِ أو الغِلِّ، لا يُفكُّ عنه».

قوله: (كما ثبت جَرَجِيسُ)، وَجَدْتُ في كتاب «المبتدأ» المنسوبِ إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله الكِسائِيِّ^(١) أنه قال: إن جرجيسَ كان من الحواريِّين أصحابِ عيسى عليه السلام، وَعَلَّمَهُ اللهُ الاسمَ الذي يُحيا به الموتى، وكان بأرضِ الموصِلِ جَبَّارٌ يَعْبُدُ الصَّنَمَ، فدعاهُ جرجيسُ

(١) من أهل القرن الرابع الهجري، أحدُ القُرَّاءِ، وليس الكِسائِيُّ المشهور، له مُصنَّفاتٌ منها «عجائب الملوك»، و«المبتدأ»، ويُسمَّى أيضاً: «بدء الدنيا» و«خلق الدنيا وما فيها» و«قصص الأنبياء» وغير ذلك.

وكتاب «المبتدأ» طبع قديماً في ليدن سنة ١٩٢٢م، ثم في بيروت سنة ٢٠٠٤م.

وتثبتهم في الآخرة: أتهم إذا سُئلوا عند تَوَاقُفِ الأَشْهَادِ عن مُعْتَقِدِهِم ودينهم، لم يَتَلَعَثُوا ولم يُبْهَتُوا، ولم تُحَيِّرْهُم أهوالُ الحشر. وقيل: معناه الثباتُ عند سؤَالِ القبر. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ: ذَكَرَ قَبْضَ رُوحِ المؤمنِ فقال: «لَمَّا تَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فيقول: رَبِّي اللهُ، وديني الإسلام، ونبيي محمد،.....»

إلى عبادة الله، ونهاه عن عبادة الصنم، فأمر به، فشدَّ يديه ورجليه، ودعا بأمشاطٍ من الحديد، فسرحَ بها صدره وبدنه، ثم صبَّ عليه ماءً الملح، فصبره الله عليه، ثم دعا بمساميرٍ من حديد، فسمرَ عينيه وأذنيه، فصبره الله عليه، ثم دعا بحوضٍ من نحاس، فأوقدَ عليه حتى ابيضَّ، ثم ألقِيَ عليه وأطبَّقَ رأسه، فجعله الله له برداً وسلاماً، وزاده حسناً وجمالاً، ثم قُطِعَ إزباً إزباً^(١)، فأحياه الله، ودعاهم إلى الله وإحياء الموتى^(٢)، فلم يؤمن الملك، فأمر الله أن يُغيرَ بهم، وقلَّبَ بالمدينة عاليها وسافلها.

قوله: (لم يتلعثموا)، الجوهري: «تَلَعَثَ الرَّجُلُ فِي الأَمْرِ: إِذَا تَمَكَّثَ فِيهِ وَتَأَنَّى».

قوله: (وعن البراء بن عازب)، تمام الحديث على ما رواه أبو داود^(٣) عن البراء: «وأن الكافر - فذكر موته - فتعادُ رُوحُهُ إلى جَسَدِهِ، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، ويقولان له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: هاه، هاه! لا أدري، فيقولان: ما دِينُكَ؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري. فينادي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ كَذَبَ، فأفرشوه من النار»، الحديث.

وَنَظْمُ الآيَاتِ إِنَّمَا يَنْطَبِقُ عَلَى الحَدِيثِ لو أُريدَ بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الكُفَّار، لأنَّ قولَه:

(١) أي: عضواً عضواً، كما في «السان العرب» لابن منظور، مادة (أرب).

(٢) كذا في الأصول الخطية، ووجهه أن يكون التقدير: «ودعاهم إلى الإيمان بالله والإيمان بإحياء الموتى»، والله أعلم.

(٣) في «سننه» برقم (٤٧٥٣).

فِينَادِي مَنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لم يَتَمَسَّكُوا بِحُجَّةٍ فِي دِينِهِمْ، وَإِنَّمَا اقْتَصَرُوا عَلَى تَقْلِيدِ كِبَارِهِمْ وَشُيُوخِهِمْ، كَمَا قَلَّدَ الْمُشْرِكُونَ آبَاءَهُمْ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، وَإِضْلَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا: أَنَّهُمْ لَا يَثْبُتُونَ فِي مَوَاقِفِ الْفِتَنِ، وَتَزِيلُ أَقْدَامُهُمْ أَوَّلَ شَيْءٍ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَضَلُّ وَأَزَلُّ، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: مَا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ؛ لِأَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَابِعَةٌ لِلْحِكْمَةِ؛ مِنْ تَثْبِيثِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَأْيِيدِهِمْ، وَعِصْمَتِهِمْ عِنْدَ ثَبَاتِهِمْ وَعَزْمِهِمْ، وَمِنْ إِضْلَالِ الظَّالِمِينَ وَخِذْلَانِهِمْ، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَأْنِهِمْ عِنْدَ زَلَلِهِمْ.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ واقِعٌ فِي مُقَابِلَةِ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ إِذِ الْقَوْلُ الثَّابِتُ هُوَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، كَأَنَّ الْمَعْنَى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا^(١) بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الْمُوَيَّدِ بِالْعَمَلِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَيُزِيلُ اللَّهُ أَقْدَامَ الْمُشْرِكِينَ بِكَلِمَتِهِمُ الْخَبِيثَةِ الَّتِي اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، وَهِيَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ.

قوله: (لأنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَابِعَةٌ لِلْحِكْمَةِ)، مَذْهَبُهُ^(٢).

(١) من قوله: «إذ القول الثابت» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) والحكمة عند المعتزلة تابعة لأصلهم في التحسين والتقيح العقلين، فالحكمة أن يفعل الله الحسن دون القبيح، ولذا إرادته سبحانه وتعالى لا تتعلق عندهم بالقبيح، وإنما بالحسن، وعليه الله تبارك وتعالى لا يريد كُفْرَ الكافر ولا معصية العاصي، وإنما يقع ذلك بإرادة الكافر والعاصي نفسيهما. أما أهل السنة فيرون أنَّ كلاً من الحسن والقبيح واقعان بإرادة الله تعالى، ويُتَزَهَوْنَ اللهُ سبحانه وتعالى عن أن يقع في ملكه ما لا يشاء، ويقولون بأنه لا يلزم من إرادته سبحانه الكفر من الكافر المرتبة على علمه: رضاه به، وكذا المعصية من العاصي.

[﴿الَّذِينَ يَدُلُّوْنَ إِلَى الَّذِينَ يَدُلُّوْنَ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَادُونَ الْأَشْرَارَ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ٢٨-٣٠]

﴿يَدُلُّوْنَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: شُكِرَ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴿كُفْرًا﴾ لأنَّ شُكْرَهَا الَّذِي وَجِبَ عَلَيْهِمْ؛ وَضَعُوا مَكَانَهُ كُفْرًا، فَكَانَتْهُمْ غَيْرًا وَالشُّكْرَ إِلَى الْكُفْرِ وَبَدَّلُوهُ تَبْدِيلًا، وَنَحْوُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: شُكِرَ رِزْقُكُمْ حَيْثُ وَضَعْتُمْ التَّكْذِيبَ مَوْضِعَهُ. وَوَجْهٌ آخَرٌ: وَهُوَ أَنَّكُمْ بَدَّلْتُمْ نَفْسَ النِّعْمَةِ كُفْرًا؛ عَلَى أَنَّكُمْ لَمَّا كَفَرْتُمْ بِهَا سَلَبْتُمْ نِعْمَتَهُ، فَجَعَلْتُمْ نَفْسَ النِّعْمَةِ بِالْكَفْرِ، حَاصِلًا لَهُمُ الْكُفْرُ بِدَلِّ النِّعْمَةِ. وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ: أَسْكَنَهُمُ اللَّهُ حَرَمَهُ، وَجَعَلَهُمْ قَوْمًا بَيْتِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَفَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ بِدَلِّ مَا لَزِمَهُمْ مِنَ الشُّكْرِ الْعَظِيمِ. أَوْ أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِالنِّعْمَةِ فِي الرِّخَاءِ وَالسَّعَةِ لِإِيْلَافِهِمُ الرِّحْلَتَيْنِ، فَكَفَرُوا نِعْمَتَهُ، فَضَرَبَهُمُ بِالْفَحْطِ سَبْعَ سِنِينَ،

قوله: (أنهم بدلوا نفس النعمة كُفْرًا)، فعلى الأول: التبديل: التغيير في الوصف، وإليه الإشارة بقوله: «فكانهم غيروا الشُّكْرَ إِلَى الْكُفْرِ»، لأنهم إذا بدلوا شُكْرَ النِّعْمَةِ بِكُفْرَانِهَا فَقَدْ غَيَّرُوا صِفَةَ النِّعْمَةِ، وَعَلَى الثَّانِي: التَّغْيِيرُ فِي الذَّاتِ، كَمَا قَالَ: «بَدَّلُوا نَفْسَ النِّعْمَةِ كُفْرًا». فَعَلَى الْأَوَّلِ: النِّعْمَةُ بَاقِيَةٌ، لَكِنَّهَا مَوْصُوفَةٌ بِالْكَفْرَانِ، وَعَلَى الثَّانِي: النِّعْمَةُ زَائِلَةٌ مُبَدَّلَةٌ بِالْكَفْرَانِ، فَهِيَ إِذْ كَبَّرَةٌ فُقْرَاءٌ.

قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]: «التبديل: التغيير، وقد يكون في الذات، كقولك: بدلت الدراهمَ دنانير، وفي الأوصاف: كقولك: بدلتُ السَّحْلَقَةَ خَاتِمًا؛ إِذَا أَذْبَتَهَا وَسَوَّيْتَهَا خَاتِمًا».

قوله: (أو أصابهم)، عطفٌ عَلَى «أَسْكَنَهُمُ اللَّهُ حَرَمَهُ»، فِيهِ لَفٌّ وَنَشْرٌ، وَالْأَوَّلُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ التَّغْيِيرَ (١) فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ بِالْكَفْرَانِ، وَالثَّانِي عَلَى أَنَّ التَّغْيِيرَ فِي النِّعْمَةِ

(١) من قوله: «وقد يكون في الذات» إلى هنا، سقط من (ط).

فَحَصَلَ لَهُمُ الْكُفْرُ بَدَلَ النِّعْمَةِ، كَذَلِكَ حِينَ أُسِرُوا وَقُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ النِّعْمَةُ، وَبَقِيَ الْكُفْرُ طَوْقًا فِي أَعْنَاقِهِمْ. وَعَنْ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُمُ الْأَفْجَرَانِ مِنَ قَرِيشٍ: بَنُو الْمُغِيرَةَ وَبَنُو أُمَيَّةَ، فَأَمَّا بَنُو الْمُغِيرَةَ فَكُفِّتُمُوهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. وَأَمَّا بَنُو أُمَيَّةَ فَمُتُّعُوا حَتَّى حِينَ. وَقِيلَ: هُمُ مُتَنَصِّرَةُ الْعَرَبِ: جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْمَمِ وَأَصْحَابُهُ.

﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ﴾ مَن تَابَعَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دَارَ الْهَلَاكِ.

وَعَطْفُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ عَلَى ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ.

قُرِي: ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: الضَّلَالُ وَالْإِضْلَالُ لَمْ يَكُنْ غَرَضَهُمْ فِي اتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ، فَمَا مَعْنَى اللَّامِ؟ قُلْتَ: لَمَّا كَانَ الضَّلَالُ وَالْإِضْلَالُ نَتِيجَةَ اتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ، كَمَا كَانَ الْإِكْرَامُ فِي قَوْلِكَ: جِئْتُكَ لِتُكْرِمَنِي؛ نَتِيجَةُ الْمَجِيءِ، دَخَلَتْهُ اللَّامُ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَرَضًا - عَلَى طَرِيقِ التَّشْبِيهِ وَالتَّقْرِيبِ.

بِالْكَفْرِ، وَكَذَلِكَ حِينَ أُسِرُوا وَقُتِلُوا.

قَوْلُهُ: ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دَارَ الْهَلَاكِ، الرَّاغِبُ: «الْبَوَارِ: قَرْطُ الْكَسَادِ، وَلَمَّا كَانَ قَرْطُ الْكَسَادِ يُؤَدِّي إِلَى الْفَسَادِ - كَمَا قِيلَ: كَسَدَ حَتَّى فَسَدَ - عَبَّرَ بِ«الْبَوَارِ» عَنِ الْهَلَاكِ، يُقَالُ: بَارَ يَبُورُ بَوَارًا وَبُورًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَجَحَّرَ لَنْ تَكْبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (١).

قَوْلُهُ: (قُرِي: ﴿لِيُضِلُّوْا﴾)، ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو: بِفَتْحِ الْيَاءِ التَّحْتَانِيَّةِ، وَالباقونَ: بِضَمِّهَا (٢).

قَوْلُهُ: (وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَرَضًا عَلَى طَرِيقِ التَّشْبِيهِ)، أَي: الْاسْتِعَارَةَ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالنَّقَطَةُءُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

(١) «مفردات القرآن» ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٣٤، و«حجة القراءات» ص ٣٧٨.

﴿تَمَتَّعُوا﴾ إيدانُ بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم أمرٌ مُطاعٌ لا يسعهم أن يخالفوه، ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو أمرُ الشهوة. والمعنى: إن دمتُم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾. ويجوز أن يُراد الخذلانُ والتخلية، ونحوه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

[﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلُوفٌ﴾ ٣١]

المَقُولُ محذوف، لأنَّ جوابَ ﴿قُلْ﴾ يدلُّ عليه،.....

قوله: (ويجوزُ أن يُرادَ الخذلانُ)، عطفٌ على قوله: «قد أمرهم أمرٌ مُطاعٌ، وهو أمرُ الشهوة»، فعلى هذا: الأمرُ اللهُ على الخذلانِ، فقوله: «لانغماسهم في التمتع» علةٌ^(١) الأمرِ على الوجهين.

قال صاحبُ «الفرائد»: يُمكنُ أن يُقال: هذا أمرٌ تهديد، فهو كقولِ الطبيبِ بعدما أمرَ المريضَ بالاحتِمَاءِ مَرَّاتٍ، ولم يقبلَ منه: كُلُّ ما تُريد، فإنَّ مَصِيرَكَ إلى الموتِ، والمرادُ التهديدُ ليرتدَّعَ ويقبلَ ما يقول، وهو المرادُ من قولِ المُصنِّف: «إيدانُ بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر».

وقال القاضي: «وفي التهديد بصيغة الأمرِ إيدانُ بأنَّ المُهدِّدَ عليه كالمطلوب لإفضائه إلى المُهدِّدِ به، وأنَّ الأمرينِ كائنانِ لا محالة، ولذلك علَّله بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، وأنَّ المُخاطَبَ لانهماكِهِ فيه كالمأمور فيه»^(٢).

قوله: (المَقُولُ محذوف، لأنَّ جوابَ ﴿قُلْ﴾ يدلُّ عليه)، قال ابنُ الحاجب: «﴿يُقِيمُوا﴾:

(١) في (ح) و(ف): «على»، وهو خطأ، والمثبت من (ط).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ١٩٩).

وتقديره: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: أقيموا الصَّلَاةَ وأنفقوا ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا﴾،

جواب ﴿ قُلْ ﴾، أي: قُلْ لعبادي يقيموا، وحذف ما هو المقول استغناءً بتفسير الجواب، أي: قُلْ لهم ما يقتضي الإقامة. وما اعتُرض عليه من أن الإقامة ليست بلازمة للقول ليس بشيء، فإن الجواب لا يقتضي الملازمة العقلية، وإنما يقتضي الغلبة، وذلك حاصل، فإن أمر الشارع للمؤمنين بإقامة الصَّلَاة يقتضي إقامة الصَّلَاة منه غالباً^(١).

وقال أبو البقاء رحمه الله: «قال الأخفش: ﴿يُقِيمُوا﴾ جواب ﴿ قُلْ ﴾، وفي الكلام حذف، أي: «قُلْ لهم: «أقيموا الصلاة» يقيموا»، أي: إن تَقُلْ لهم: «أقيموا» يقيموا. ورُدَّ بأن قول الرسول ﷺ لهم لا يُوجب أن يقيموا، وهذا باطل، لأنه لم يُردَّ بـ«العباد»: الكفار، بل المؤمنين، وإذا قال لهم الرسول ﷺ: «أقيموا الصَّلَاة» أقاموها، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾.

وروي عن المبرد: أن التقدير: «قُلْ لهم: «أقيموا» يقيموا»، فـ«يُقِيمُوا» المُصرَّح جواب «أقيموا» المحذوف. وكذا حكى عن أبي علي^(٢): أنه جواب «أقيموا»^(٣)، وهو فاسدٌ لوجهين: أحدهما: أن جواب الشرط ينبغي أن يُخالِفَ الشرط، إما في الفعل أو في الفاعل أو فيهما، وأما نحو: «قُمْ تَقُمْ» فخطأ، والتقدير: إن يقيموا يقيموا.

وثانيهما: أن الأمر للمواجهة، و«يُقِيمُوا» على لفظ الغيبة، وهو خطأ إذا كان الفاعل واحداً، لأنه لا يجوز أن يُقال للمُخاطَبين: «يُقِيمُوا» بالياء^(٤). وكذا ردَّ ابن الحاجب^(٥).

(١) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١٢٠).

(٢) أي الفارسي، المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، رحمه الله تعالى.

(٣) ما بين علامتي الاعتراض زيادة من المؤلف على لفظ أبي البقاء، رحمه الله تعالى.

(٤) «التيبان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ٧٦٩-٧٧٠).

(٥) انظر: «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١٢٠).

وَجَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ: ﴿يُقِيمُوا﴾ ﴿وَيُنْفِقُوا﴾، بمعنى: لِيُقِيمُوا وَيُنْفِقُوا، ويكونَ هذا هو المَقُولُ، قالوا: وإنما جاز حذف اللام، لأنَّ الأمرَ - الذي هو ﴿قُل﴾ - عَوَّضَ منه، ولو قيل: «يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا» ابتداءً بحذف اللام، لم يَجْزُ.

قوله: (وَجَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ ﴿يُقِيمُوا﴾ ﴿وَيُنْفِقُوا﴾ بمعنى: لِيُقِيمُوا وَيُنْفِقُوا)، قَالَ الرَّجَّاجُ: «وجائزٌ أَنْ يُجَزَمَ بِاللَّامِ المَحذُوفَةِ، لِأَنَّ الأَمْرَ دَلَّ عَلَى الغَائِبِ، تَقُولُ: قُلْ لِيُزِيدَ: لِيُضْرِبَ عَمْرًا، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: قُلْ لِيُزِيدَ: يَضْرِبُ عَمْرًا، وَلَا يَجُوزُ: يَضْرِبُ زَيْدٌ عَمْرًا، لِأَنَّ لَامَ الغَائِبِ لَيْسَ لَهَا عَوَّضٌ إِذَا حَذَفْتَهَا»^(١)، وَذَكَرَ أَبُو البَقَاءِ^(٢) نَحْوَهُ.

وَقَالَ صَاحِبُ «الإِنصَافِ»^(٣): وَفَائِدَةُ التِّزَامِ اللَّامِ فِي الغَائِبِ: التَّنْبِيهُ بِهَا عَلَى أَنَّ الصَّيغَةَ أَمْرٌ، فَلَمَّا عَلِمَ الأَمْرُ مُخَاطَبَ افْتَقَرَ مَا سِوَاهُ إِلَى اللَّامِ مِنْ غَائِبٍ وَمُتَكَلِّمٍ وَغَيْرِ الفَاعِلِ فِي مِثْلِ: لِيَقُمَ زَيْدٌ لَأَقُمَ أَنَا، لِيَضْرِبَ عَمْرًا، فَتَقْدِيرُ «قُلْ» يُغْنِي عَنْهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ يُرِيدُ إِلَى أَنَّ المَأمُورَ مُبَلَّغٌ غَيْرُ مُخَاطَبٍ، فَهَاجَ مَقَامَ اللَّامِ. هَذَا أَجُودُ الأَوْجُهِ فِي إِعْرَابِ الآيَةِ وَاخْتِيَارِ الرَّجَّاجِ، وَالزَّمخَشَرِيُّ تَبَرَّأَ مِنْ عَهْدَتِهِ تَرْجِيحًا لِلأَوَّلِ.

وَقُلْتُ: نَبَّهَ عَلَى بَيَانِ تَبَرُّتِهِ صَاحِبُ «المِفْتَاحِ» حَيْثُ قَالَ: «إِضْمَارُ الجَازِمِ نَظِيرُ إِضْمَارِ الجَازِ»^(٤)، يَعْنِي: أَنَّهُ شَآءَ، نَحْوُ قَوْلِ رُؤْيَةَ: خَيْرٌ، لِمَنْ قَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ ثُمَّ قَالَ^(٥): «فَانظُرْ!»، أَي: انظُرْ إِلَى شُدُودِهِ، وَلَا تُحْمَلُ الآيَةُ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى أَنَّ الجَوَابَ عَلَى تَقْدِيرِ «قُلْ» لِعِبَادِي: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفِقُوا» فَإِنَّكَ إِنْ قُلْتَ لَهُمْ: أَقِيمُوا وَأَنْفِقُوا؛ يُقِيمُوا وَيُنْفِقُوا».

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للرجاج (٣: ١٦٢ - ١٦٣).

(٢) في «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ٧٧٠).

(٣) للعلامة عليم الدين العراقي، تقدّم التعريفُ به عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠).

(٤) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٣٢١.

(٥) أي: السكاكي، صاحبُ «المفتاح».

فإن قلت: علام انتصب ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟ قلت: على الحال، أي: ذوي سِرٍّ
وعلانية، بمعنى: مُسِرِّينَ ومُعَلِّنينَ، أو على الظرف؛

وقلت: يُمكنُ أن يُقال: إنه ليسَ نظيرَ ذلك، لأنَّ حذفاً فيه جائز، ألا ترى إلى حذفِ
اللام عن الحاضر. وقال المصنّف في قراءةٍ من قرأ: ﴿فِيذَلِكَ فَتَنًا مَّرْكُومًا﴾ - بالتاء^(١) - : «هو
الأصل والقياس»، وقد ذكرتُ عن ابنِ جنِّي هناك: أن أصلَ الأمرِ أن يكونَ بحرفِ الأمرِ،
وهو اللام، لكنّ لَمَّا كَثُرَ أمرُ الحاضرِ حَذَفُوهُ تخفيفاً، ودلَّ حاضِرُ الحالِ على أن المأمورَ هو
الحاضرُ المُخاطَبُ، فحذَفوا حرفَ المُضارعة، فلما حذَفوا حرفَ المُضارعة بقي^(٢) ما بعده في
أكثرِ الأمرِ ساكناً، فاحتيجَ إلى همزةٍ ليقعَ الابتداءُ بها، فقيل: اذهب، ويَدُلُّك على تمكُّنِ أمرِ
الحاضرِ أنك لا تأمرُ الغائبَ بنحو: «صَه» و«مَه» و«إيه» و«دُونَك» و«حَيْهَل»^(٣). تم كلامُه^(٤).

وإذا جازَ أن تُحذفَ اللامُ في الحاضرِ لكثرةِ الاستعمالِ جازَ أن تُحذفَ في الغائبِ
للدلالةِ قرائنِ الأحوالِ، فصَحَّ قولُ الزَّجاج: «جازَ أن يُقال: قُلْ لزيد: يَضْرِبْ عمراً، ولا
يجوز: يَضْرِبْ زيدٌ عمراً، لأنَّ لامَ الغائبِ ليسَ لها عَوْضٌ إذا حذَفَتْها»، وإليه أشارَ المصنّفُ
بقوله: «لأنَّ لامَ الأمرِ الذي هو «قُلْ» عَوْضٌ منه».

ومثله في النيبية عن الجارِّ الإضافة، قال الدار الحديثي^(٥): إنَّ المُضَافَ في «غلامُ
زيد» عمِلَ الجَرُّ لنيابته عن حرفِ الجرِّ لفظاً لأنه في موضِعِهِ^(٦)، كذلك هاهنا.

(١) أي: من الآية ٥٨ من سورة يونس، وهي - على قراءة حفص - : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

(٢) في (ح) و(ف): «هي»، وهو تحريف.

(٣) «صَه»: بمعنى: اسكُت، و«مَه»: بمعنى: انكفِ، و«إيه»: بمعنى: امضِ في حديثك أو زدني منه،
و«دُونَك»: بمعنى: حُدْ، و«حَيْهَل»: بمعنى: اثبت. انظر: «جامع الدروس العربية» للغلاييني (١: ١٥٨).

(٤) انظر: «المحتسب» لابنِ جنِّي (١: ٣١٣ - ٣١٤).

(٥) انظر ما تقدّم ص ٢١٩ تعليقا عند تفسير الآية ١١٣ من سورة هود.

(٦) أي: كان الأصل أن يُقال: «غلامُ لزيد».

أي: وَقْتِي سِرٌّ وعلانية، أو على المصدر؛ أي: إِنْفَاقٌ سِرٌّ وإِنْفَاقٌ علانية، المعنى: إخفاء المتطوع به من الصَّدَقَاتِ والإعلان بالواجب.

والخِلَالُ: المُخَالَّةُ. فإن قلت: كيف طابَقَ الأمرُ بالإِنْفَاقِ وَصَفَ اليومَ بأنه ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾؟ قلت: من قَبْلِ أَنْ النَّاسَ يُخْرِجُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي عُقُودِ الْمُعَاوَضَاتِ، فَيُعْطُونَ بَدَلًا لِيَأْخُذُوا مِثْلَهُ، وَفِي الْمَكَارِمَاتِ وَمُهَاذَاةِ الْأَصْدِقَاءِ لِيَسْتَجِرُّوا بِهَدَايَاهُمْ أَمْثَالَهَا أَوْ خَيْرًا مِنْهَا. وَأَمَّا الْإِنْفَاقُ لَوَجْهِ اللَّهِ خَالِصًا - كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠] - فلا يفعله إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الْخُلُصَّ، فَبِعَثُوا عَلَيْهِ لِيَأْخُذُوا بِدَلِّهِ فِي يَوْمٍ «لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ»، أي: لا انْتِفَاعَ فِيهِ بِمُبَايَعَةٍ وَلَا بِمُخَالَّةٍ، وَلَا بِهَا يُنْفِقُونَ بِهِ أَمْوَالَهُمْ مِنَ الْمُعَاوَضَاتِ وَالْمَكَارِمَاتِ، وَإِنَّمَا يُنْتَفَعُ فِيهِ بِالْإِنْفَاقِ لَوَجْهِ اللَّهِ. وَقُرِئَ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ بِالرَّفْعِ.

[﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

قوله: (كَيْفَ طَابَقَ الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ وَصَفَ الْيَوْمَ بِأَنَّهُ ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾)، يعني^(١):
أَيُّ فَائِدَةٍ فِي تَقْيِيدِ الْإِنْفَاقِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾؟

وأجاب: أَنَّ وَجْهَ الْإِنْفَاقِ وَأَعْرَاضَهَا مُتَعَدِّدَةٌ، مِثْلُ: أَخَذِ الْبَدَلِ، وَحُسْنِ الْأَحْدُوثِ، وَاسْتِجْرَارِ الْمَثَلِ فِي الْعَاجِلِ، وَالثَّوَابِ فِي الْآجِلِ، فَقَيَّدَ بِهَذَا الْأَخِيرِ لِيَخْتَصَّ بِهِ.

وتلخيصه: أَنَّ الْخِطَابَ لَيْسَ عَامًّا، بَلْ هُوَ مَعَ قَوْمٍ مَخْصُوصِينَ، وَوَصَفَ الْيَوْمَ بِذَلِكَ لِمَزِيدِ الْبَعْثِ عَلَى الْإِنْفَاقِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا جَزَمُوا وَأَيَقَنُوا بِحَيْثِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ عَمَلٌ، اغْتَنَمُوا الْفُرْصَةَ فِي الْإِنْفَاقِ لِوَجْهِ اللَّهِ.

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ بِالرَّفْعِ)، كُلُّهُمْ إِلَّا ابْنَ كَثِيرٍ وَأَبَا عَمْرٍو.

(١) من قوله: «عمل الجبر» إلى هنا، سقط من (ف).

الشَّمْرَتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٢﴾ - [٣٤]

﴿الله﴾ مبتدأ، و﴿الَّذِي خَلَق﴾ خبره، و﴿مِنَ الشَّمْرَتِ﴾ بيان للرزق؛ أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات. ويجوز أن يكون ﴿مِنَ الشَّمْرَتِ﴾ مفعول «أخرج»، و﴿رِزْقًا﴾ حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من «أخرج»، لأنه في معنى «رَزَقَ». ﴿بِأَمْرٍ﴾ بقوله: كُنْ.

﴿دَائِبِينَ﴾ يَدُأْبَانِ فِي سَيْرِهِمَا وَإِنَارَتَيْهِمَا وَدَرْزَيْهِمَا الظُّلُمَاتِ، وَإِصْلَاحِهَا مَا يُضْلِحَانِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَبْدَانِ وَالنَّبَاتِ. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يتعاقبان خَلْفَةَ لِمَعَاشِكُمْ وَسُبَاتِكُمْ.

قوله: ﴿مِنَ الشَّمْرَتِ﴾ مفعول «أخرج»، ف«مِنَ» على هذا تبعيض، أي: أخرج بعض الثمرات.

قوله: (يَدُأْبَانِ فِي سَيْرِهِمَا)، الجوهرية: «دَابَّ فُلَانٌ فِي عَمَلِهِ؛ أي: جَدَّ وَتَعَبَ»، وهو معنى التسخير.

قوله: (دَرْزَيْهِمَا)، الأساس: «دَرَأَ الْكَوْكَبَ: طَلَعَ، كَأَنَّهُ يَدْرَأُ الظُّلَامَ، أَي: يَدْفَعُهُ». قوله: (خَلْفَةَ لِمَعَاشِكُمْ)، يقال: هُنَّ يَمْشِينَ خَلْفَةَ؛ أي: تَذْهَبُ هَذِهِ وَتَجِيءُ هَذِهِ، وَيُقَالُ أَيْضاً: الْقَوْمُ خَلْفَةَ؛ أي: مُخْتَلِفُونَ، حَكَاهُ أَبُو زَيْدٍ^(١)، وَالْخَلْفَةُ أَيْضاً: اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يُرِيدُ: أَنَّ مَعْنَى تَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِبَنِي آدَمَ: بَيَانُهُ وَتَفْسِيرُهُ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، فَبَيَّنَ التَّسْخِيرَ

(١) يعني: سعيد بن أوس، المتوفى سنة ٢١٥هـ.

﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: «مِنْ» للتَّبَعِيض؛ أي: آتاكم بعض جميع ما سأَلْتُمُوهُ، نَظْرًا فِي مَصَالِحِكُمْ. وَقُرِئَ: «مِنْ كُلِّ» بِالتَّنْوِينِ، وَ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ نَفْيٌ وَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ؛ أَي: آتاكم مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ غَيْرَ سَائِلِيهِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» مَوْصُولَةً؛ عَلَى: وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَا احْتَجَّجْتُمْ إِلَيْهِ وَلَمْ تَصْلُحْ أَحْوَالِكُمْ وَمَعَايِشِكُمْ إِلَّا بِهِ، فَكَأَنَّكُمْ سَأَلْتُمُوهُ أَوْ طَلَبْتُمُوهُ بِلِسَانِ الْحَالِ.

فِيهِ بَأَنَّ جَعَلَهَا خِلْفَةً يَتَعَاقَبَانِ؛ يَجِيءُ هَذَا وَيَذْهَبُ ذَلِكَ، وَبَيَّنَّ فِيهِ حِكْمَةَ التَّسْخِيرِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: إرادة التذكُّر، وهو أَنْ يَتَفَكَّرَ الْمُكَلَّفُ فِي هَذِهِ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ، فَيَعْرِفَ كِمَالَ مُسَخَّرِهَا.

وثانيهما: إرادة الشكر، وهو أَنْ يَعْرِفَ بِذَلِكَ نِعْمَةَ السُّكُونِ بِاللَّيْلِ وَابْتِغَاءِ الْفَضْلِ بِالنَّهَارِ، وَيَشْكُرَ مُوَلِّيَهَا.

الراغب: «التسخير: سِيَاقَةُ الشَّيْءِ إِلَى الْغَرَضِ الْمُخْتَصِّ بِهِ قَهْرًا، فَالْمُسَخَّرُ هُوَ الْمُقْبِضُ لِلْفِعْلِ، وَالسُّخْرِيُّ: هُوَ الَّذِي يُقَهَّرُ أَنْ يَتَسَخَّرَ لَنَا، وَسَخَرْتُ مِنْهُ: إِذَا سَخَرْتَهُ لِلْهُزْءِ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُهُمْ مِنْكُمْ﴾ [هود: ٣٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠] قَدْ جُمِلَ عَلَى التَّسْخِيرِ وَعَلَى السُّخْرِيَّةِ^(١).

قوله: (وَقُرِئَ: «مِنْ كُلِّ» بِالتَّنْوِينِ)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: «وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَغَيْرِهِمَا، تَقْدِيرُهُ: وَأَتَاكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَأَلْتُمُوهُ أَنْ يُؤْتِيَكُمْ»^(٢).

قوله: (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ)، «ذَلِكَ» إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْآيَاتِ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْهَا عَنْ سُؤَالِهِمْ، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَسْتَغْنُوا فِي مَعَايِشِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَنْهَا، فَكَانَتْ سَأَلُوهَا بِلِسَانِ

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٠٢.

(٢) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣٦٣).

﴿لَا تَحْضُرُوهَا﴾ لا تحضروها ولا تطبقوا عدّها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدّوها على الإجمال،

حالمهم، وهو من باب التمثيل، وسبيل هذا السؤال سبيل الجواب في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

شَبَّهَ حَالَةَ الْإِنْسَانِ فِي كَوْنِهِ غَيْرَ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ مُفْتَقِرًا إِلَىٰ مَنْ يَقُومُ بِهِ، وَمَا تُقَامُ بِهِ نَفْسُهُ، وَتَكْمُلُ بِهِ حَيَاتُهُ، وَيَتَّصِلُ بِهِ إِلَىٰ غَايَتِهِ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي حَقِّهِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] بحالة الطفل أو الفرج الذي يحتاج إلى قيم يتعيش به حياته، ويُقيم به أودّه^(١)، إذ لولاه لَسَقَطَ مَتْنُهُ، وَيَبْقَىٰ مُهْمَلًا مُعْطَلًا، وَإِلَيْهِ يَنْظَرُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنِ الْكَلِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، أَي: أَعْطَىٰ خَلْقَتَهُ كُلَّ شَيْءٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَيَرْتَفِقُونَ بِهِ، ثُمَّ عَرَفَهُمْ كَيْفَ يَرْتَفِقُونَ بِهَا أَعْطَاهُمْ، وَكَيْفَ يَتَوَصَّلُونَ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله: ﴿لَا تَحْضُرُوهَا﴾ لا تحضروها ولا تطبقوا عدّها، قَالَ فِي «الْأَسَاسِ»: «هَذَا أَمْرٌ لَا أَحْصِيهِ؛ أَي: لَا أَطِيقُهُ وَلَا أَضِيطُهُ»، وَقَالَ الْقَاضِي: «يَعْنِي: لَا تُطَبِّقُوا عَدَّ أَنْوَاعِهَا، فَضْلًا عَنْ أَفْرَادِهَا، فَإِنَّهَا غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْمَفْرَدَ يُفِيدُ الْإِسْتِعْرَاقَ بِالْإِضَافَةِ»^(٢) «(٣)».

الرَّاعِبُ: «الْإِحْصَاءُ: التَّحْصِيلُ بِالْعَدِّدِ، يُقَالُ: أَحْصَيْتُ كَذَا؛ مِنْ لَفْظِ الْحِصَا، وَاسْتِعْمَالُ ذَلِكَ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ بِالْعَدِّدِ كَاعْتِمَادِنَا فِيهِ عَلَى الْأَصَابِعِ»^(٤).

(١) الأود: العوج، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (أود).

(٢) الإضافة من مُقْتَضِيَاتِ الْعُمُومِ، بَلْ عُمُومُ الْمَفْرَدِ الْمُضَافِ أَقْوَىٰ مِنْ عُمُومِ الْمَفْرَدِ (اسم الجنس) الْمَعْرُوفِ بِ«ال». انظر: «البحر المحيط» للإمام الزركشي (٣: ١٠٨).

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٠٠).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٢٤٠.

وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. ﴿لَظَلْمٌ﴾ يَظْلَمُ النِّعْمَةَ بِإِغْفَالِ شُكْرِهَا، ﴿كَفَّارٌ﴾ شَدِيدُ الْكُفْرَانِ لَهَا. وَقِيلَ: ظَلَمٌ فِي الشَّدَةِ يَشْكُو وَيَجْزَعُ، كَفَّارٌ فِي النِّعْمَةِ يَجْمَعُ وَيَمْنَعُ. و«الإنسان» للجنس، فَيَتَنَاوَلُ الْإِخْبَارُ بِالظُّلْمِ وَالْكَفْرَانِ مَنْ يُوجِدَانِ مِنْهُ.

[وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ مَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *]
[٣٦-٣٥]

قوله: (وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَلَا يَقْدِرُ)، «أما» يقتضي التكرير، فالتقدير: أما الإجمال فإنكم إن أردتم أن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وأما التَّفْصِيلُ فلا كلام في أنه ليس إليكم، فلا يحتاج إلى البيان، لأنه لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

قوله: (فَيَتَنَاوَلُ الْإِخْبَارِ)، الفاء جزائية، أي: التعريف في «الإنسان» للجنس الذي هو الْعَهْدُ الذَّهْنِي، وهو ما يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا هُوَ، فلما أتى بقوله: ﴿لَظَلْمٌ﴾ كَفَّارٌ ﴿ تَنَاوَلَهُمَا، فَصَارَ الْمَطْلُوقُ مُقَيِّدًا، كما أن التعريف في «اللئيم» في قوله:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسُّبني^(١)

للجنس، فَيَتَنَاوَلُ مَنْ تَعَرَّضَ لِسَبِّ الشَّاعِرِ^(٢).

ولو جُمِلَ التَّعْرِيفُ عَلَى الْإِسْتِعْرَاقِ فَيَخْتَصُّ بِمَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا، لَكَانَ أَوْلَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ٢-٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ

(١) صَدْرُ بَيْتِ لِسْمِيرِ بْنِ عَمْرٍو الْحَنْفِيِّ، وَتَمَامُهُ:

فَمَضَيْتُ نُمْتُ قُلْتُ: لَا يَغْنِينِي

وَانظُرْ مَا تَقَدَّمَ ص ٤٤٢ تَعْلِيقًا عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٠١ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ.

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «السب للشاعر»، وَأَصْلِحَتْهُ بِهَا تَرَاهُ.

﴿هَذَا الْبَلَدَ﴾ يعني: البلد الحرام، زاده الله أمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام، ﴿ءَامِنًا﴾: ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وبين قوله: ﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؟ قلت: قد سأل في الأول: أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يُخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً.

﴿وَأَجْنِبْنِي﴾: وقري: «وأجنيبي»، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه؛ فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره - بالتشديد -، وأهل نجد: جنبني شره وأجنبه، والمعنى: ثبتنا وأدمننا على اجتناب عبادتها.....

الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ [المعارج: ١٩-٢٢] إلى آخره.

قوله: (قد سأل في الأول: أن يجعله من جملة البلاد) إلى آخره، وهو أحد معاني «جعل»، وهو تصيير شيء شيئاً، فعلى الأول: تقدير الآية: اجعل هذا البلد بلداً ذا أمن، أو آمناً من فيه، كقولك: نهازه صائم^(١)، ف﴿ءَامِنًا﴾ صفة ﴿بَلَدًا﴾. وعلى الثاني: هذا البلد ذا أمن، ف﴿ءَامِنًا﴾ مفعول ثان، و«البلد» وُصِفَ للمفعول الأول، فلا بُدَّ من تقدير الخوف ليصح تصييره ذا أمن. فعلى الأول: كأنه ليس بلداً في ذلك الوقت، فسأل أن يجعله بلداً آمناً، وعلى الثاني: السؤال لحصول الأمن بعد وجدانه.

قال صاحب «التقريب»: «وحيث قال: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ سأل جعله بلداً موصوفاً، وحيث قال: ﴿هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ سأل صفة أمينه.

(١) في (ح) و(ف): «قائم»، والمثبت من (ط)، وهو الصواب.

وقال الراغب في «غرة التنزيل»^(١): «فيه وجهان: أحدهما: أن الدعوة الأولى وَقَعَتْ، ولم يَكُنِ المكانُ [قد جُعِلَ بَلَدًا، فكأنه قال: رَبِّ اجْعَلْ هذا الواديَ بَلَدًا آمِنًا، والدَّعْوَةُ الثانيةَ وَقَعَتْ، وقد جُعِلَ الوادي بَلَدًا]، فكأنه قال: اجْعَلْ هذا الواديَ بَلَدًا آمِنًا، لقوله: ﴿وَإِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، وَوَجْهٌ الكلام فيه تنكيرُ ﴿بَلَدًا﴾ الذي هو مفعولٌ ثانٍ، والدعوةُ الثانيةُ وقعت وقد جُعِلَ الوادي بَلَدًا، فكأنه قال: اجْعَلْ هذا^(٢) المكانَ - الذي صَيَّرْتَهُ كما أردت، وَمَصَّرْتَهُ كما سألت - ذا أَمْنٍ، فـ ﴿الْبَلَدَ﴾ على هذا عطفٌ بيانٍ عندَ سَيِّوِيهِ، وَصِفَةٌ عندَ المَبْرَدِ، و﴿آمِنًا﴾ مفعولٌ ثانٍ.

وثانیهما: أن تكونَ الدَّعوتانِ واقعتينِ بعدَما صارَ المكانُ بَلَدًا، والمطلوبُ الأَمْنُ، كما تقول: اجْعَلْ وَكَذَلِكَ هذا وَكَذَا أَدِيًّا، فلا تأمُرْهُ بأن يجعله وَكَذَا، لأنَّ ذلكَ ليسَ إليه، وإنما تأمُرْهُ بتأديبه، أي: اجْعَلْهُ على هذه الصِّفَةِ، وتقول: كُنْ رجلاً سَخِيًّا، ولا تأمُرْهُ بأن يكونَ رجلاً، بل تأمُرْهُ بما يجعله سَخِيًّا، فذكرَ الموصوفَ وَأَتْبَعَهُ الصِّفَةَ، وهو كما تقول: كَانَ اليَوْمَ يوماً حَارًّا، فتجعلُ «يوماً» حَبَرَ «كان»، و«حارًّا» صِفَةً له، ولم تقصِدْ أن تُخْبِرَ عن اليَوْمِ

(١) اِخْتَلَفَ في نسبة هذا الكتاب تبعاً لِمَا في نُسخِهِ الخطية، فقيل: للراغب الأصفهاني، وقيل: للخطيب الإسكافي، وقيل: غير ذلك.

ورَجَّحَ نِسْبَتَهُ إلى الراغب: الدكتور عمرُ الساريسي في مقالين: الأول منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (ج ١ م ٥ - ١٩٧٦)، والثاني منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني (كانون الثاني، ١٩٧٩)، ثم الدكتور صفوانُ داوودي في مقدمة تحقيقه لـ «مفردات القرآن» للراغب ص ٤. أما الدكتور محمد مصطفى آيدين، فقد حَقَّقَ الكتاب - وأصله أطروحة علمية -، وَحَرَّرَ في مُقَدِّمَتِهِ (١: ٩٥-١٢٨) البَحْثَ في مُؤَلَّفِهِ تحريراً علمياً دقيقاً، وانتهى إلى أنه للخطيب الإسكافي، وناقش الأقوال الأخرى مناقشةً علميةً رصينة.

أما نسبةُ المُؤَلِّفِ رحمه الله تعالى الكتابِ إلى الراغب فتبعاً لِمَا وقع في بعض النُسخِ المخطوطة، ليس إلا. (٢) من قوله: «بَلَدًا آمِنًا لقوله: ﴿وَإِنِّي أَسْكَنْتُ...﴾ إلى هنا، سقطن من (ح).

بأنه كان يوماً، لأنه غير مُفِيد، وإنما القصدُ أن تُخْبِرَ عن حَرِّ اليوم، فكانَ الأصل: كانَ اليومُ حاراً، وأعدت «يوم» لتَجْمَعَ بَيْنَ الصِّفَةِ والموصوف، فكانك قُلت: كانَ هذا اليومُ من الأيام الحارّة، فكذلك قولُه: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ يجوزُ أن يُراد: واجْعَلْ هذا البَلَدَ آمِنًا، فتدعُو له بالأمنِ من بعد ما قد صارَ بَلَدًا، ويكونَ مِثْلَ قولِه: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، وتكونُ الدَّعْوَةُ واحِدَةً، قد أُخْبِرَ اللهُ عنها في المَوْضِعَيْنِ.

فأما قولُ من يقول: إنه جَعَلَ الأوَّلَ نكرةً، فلما أعادَ ذَكَرَها أعادَ بلفظِ المعرفة فليس بشيء»^(١).

وأما بيانُ النَّظْمِ: فإنه تعالى لَمَّا عَجَّبَ رسولَه ﷺ من حالِ قُرَيْشٍ بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ يعني: ألم تَعَجَّبْ من حالِ قومٍ أنعمَ اللهُ عليهم بأنواعِ النِّعَمِ الجسيميّة؛ حيثُ أسكَنَهم حَرَمَهُ، وجَعَلَهم قومَ نبيّه، ليكونوا في كَنَفِ هذا البَلَدِ الذي جَعَلَهُ اللهُ حَرَمًا آمِنًا، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ من حولِهم، وأكْرَمَهم ببعثَةِ أفضلِ الرُّسُلِ؛ ليشكروا اللهُ ويُوَحِّدوه، فَعكسوا وجَعَلوا ما هو وسيلةٌ إلى الأمنِ من سَخَطِ اللهُ سَبَبًا لِلْحُلُولِ في دارِ البوارِ، وما هو ذريعةٌ إلى الهدايةِ والتوحيدِ سَبِيلًا إلى اتِّخَاذِ الأندادِ وإضلالِ الخلقِ!

ثم أمرَ رسولَه ﷺ بأن يُعرِضَ عنهم ويُكافِحَهم بكلمةِ المُتَارِكَةِ والمُؤادِعَةِ إقناطاً^(٢) وإياساً، وهي: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، ويُقْبَلُ إلى المُخْلِصِينَ من عِبَادِهِ، ويُجَرِّضُهم على شُكْرِ تلكِ النِّعَمِ التي لم يقوموا بِشُكْرِها بما هو أساسُ الحَسَنَاتِ، وأما العباداتُ - من إقامةِ الصَّلَاةِ وإيتاءِ الزكاةِ في حالِ السِّرِّ والعَلانِيَةِ - إلى قيامِ القِيَامَةِ إلى يومِ لا يَبِيعُ فيه ولا يَخْلَلُ.

(١) «دُرّة التنزيلِ وغرّة التأويلِ» للخطيبِ الإسكافي (١: ٢٧٢-٢٧٦) ومنه استدركتُ ما بين حاصرتين.
(٢) في (ف): «إقناطاً»، والمُتَبِّتُ من (ط) و(ح).

﴿وَبَقِيَ﴾ أراد: بنيه من صُلبه. وسُئِلَ ابنُ عِيسَى: كَيْفَ عَبَدَتِ العَرَبُ الأَصْنَامَ؟ فقال: ما عبد أحدٌ من ولدِ إِسْمَاعِيلَ صَنَمًا، واحتجَّ بقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾
 إِنَّمَا كَانَتْ أَنْصَابَ حِجَارَةٍ لِكُلِّ قَوْمٍ، قالوا: البَيْتُ حَجَرٌ،

ثم بعد ذلك يَعُدُّ عليهم مِنَ النِّعَمِ التي لا تُحصى كثرة؛ منها خَلَقَ هذه السَّمَاءَ التي كالمِظَلَّةِ على هذا القَرَارِ الذي هو مُسْتَقَرُّهُمْ ومكانُ عِبَادَتِهِمْ، ثم ما سَوَّاهُ من شِبهِ النِّكاحِ بَيْنَهُمَا بِانزَالِ المَاءِ وإخراجِ ما هو كالتبجيجِ من الثمراتِ رِزْقًا لَهُمْ؛ لِيَكُونَ ذلك مُعْتَبَرًا إلى النَّظَرِ المُوصِلِ إلى التوحيدِ، ونعمةٌ يُقَابِلُونَهَا بالعبادة، وحتى لا تجعلوا لله أندادًا، مثل أولئك الأَنْعَامِ الذين لم يَلْتَمِتُوا إلى هذه الآياتِ البينَاتِ، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنْسَانَ لَطُغُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

عَقَبَهُ لِيَذْكَرَ بما يُناسِبُهُ من قِصَّةِ الخليلِ عليه السَّلَامُ، ودُعَائِهِ في حَقِّ هذا البَيْتِ المُكْرَمِ وَالْحَرَمِ المُعَظَّمِ، واعتنائه بِشأنِ إقامَةِ الصَّلَاةِ فيه، وتوحيدِ اللَّهِ، ومُجانِبَةِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، فَمَنْ قامَ بِواجبِ ذلكِ من عِبَادَةِ المَلِكِ العَلَمِ، والمُجانِبَةِ عن عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، صَحَّحَ النَّسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَأَمِنَ في الدُّنْيَا والأخِرَةِ من سَخَطِ اللَّهِ وحُلُولِ نِكالِهِ، وَمَنْ عَكَسَ اسْتَوْصِلَ في الدُّنْيَا بالدِّمارِ، وفي العُقْبَى أَحَلَّ نَفْسَهُ وقومَهُ دارَ البوارِ، جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَبئسَ القَرَارِ.

والذي يُؤيِّدُ أَنَّ قِصَّةَ الخليلِ اسْتِطْرَادَ: العَوْدُ إلى تَهْدِيدِ الكُفْرَةِ بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾.

قوله: (إنما كانت أنصاب)، أي: ما عبد أحدٌ من ولدِ إِسْمَاعِيلَ صَنَمًا، وإنما التي تَوَلَّعُوا

بها كانت أنصاب حجارة.

فحيثما نَصَبْنَا حَجْرًا فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْبَيْتِ، فَكَانُوا يَدُورُونَ بِذَلِكَ الْحَجَرِ وَيُسَمُّونَهُ: الدُّوَارَ، فَاسْتُحِبَّ أَنْ يُقَالَ: طَافَ بِالْبَيْتِ، وَلَا يُقَالَ: دَارَ بِالْبَيْتِ.

﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ فَأَعُوذُ بِكَ أَنْ تَعْصِمَنِي وَبَنِيَّ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا جُعِلْنَ مُضِلَّاتٍ؛ لِأَنَّ النَّاسَ ضَلُّوا بِسَبَبِهِنَّ، فَكَأَنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَهُمْ، كَمَا تَقُولُ: فَتَتَّهُمُ الدُّنْيَا وَغَرَّتَّهُمْ، أَي: افْتَتَنُوا بِهَا وَاعْتَرَوْا بِسَبَبِهَا.

قوله: (وَيُسَمُّونَهُ الدُّوَارَ^(١))، في حاشية «الصَّحاح»: «قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: دُوَارٌ: بُدٌّ^(٢) كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَدُورُونَ حَوْلَهُ أَسَابِيعَ، يَتَشَبَّهُونَ بِأَهْلِ مَكَّةَ»، وَأَنْشَدَ فِي «الْمَغْرِبِ» لَامِرِي الْقَيْسِ:

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَانَ نِجَاجَهُ عَذَارِي دُوَارٍ فِي مُلَاءٍ مُذَبَّلٍ^(٣)

السَّرْبُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ الطُّبَّاءِ وَالْبَقَرِ، وَالنُّعَاجُ: جَمْعُ نَعْجَةٍ، وَهِيَ الْأَنْثَى مِنْ بَقَرِ الْوَحْشِ، وَالْعَذَارِي: جَمْعُ عَذْرَاءٍ، وَالدُّوَارُ: صَنَمٌ كَانَتْ تَنْصِبُهُ الْعَرَبُ وَتَدُورُ حَوْلَهُ. الْجَوْهَرِيُّ: «الْمُلَاءُ - بِالضَّمِّ وَالْمَدِّ - : الرِّبْطَةُ، وَالْجَمْعُ: مُلَاءٌ»، وَالْمُذَبَّلُ: الطَّوِيلُ الذَّنْبِلِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ حَمَلًا عَلَى اللَّفْظِ.

قوله: (فَاسْتُحِبَّ أَنْ يُقَالَ: طَافَ)، أَي: «دَارَ» بِمَعْنَى: طَافَ، وَمُنِعَ أَنْ يُقَالَ: «دَارَ»، وَاسْتُحِبَّ أَنْ يُقَالَ: «طَافَ»؛ لِئَلَّا يُتَأَسَّى بِالْفَظِ الْمَشْرِكِينَ.

(١) بِضَمِّ الدَّالِ وَتَخْفِيفِ الْوَاوِ، وَقَدْ تَشَدَّدَتْ. كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (دَوَّرَ).

(٢) قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: الْبُدُّ: الصَّنَمُ نَفْسُهُ الَّذِي يُعْبَدُ، لَا أَوَّلَ لَهُ فِي اللُّغَةِ، فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ، وَالْجَمْعُ: الْبُدَدَةُ.

نَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ»، مَادَّةُ (بَدَدَ).

(٣) «دِيوان امرئ القيس» ص ٧٥، مِنْ مُعَلَّقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا:

قِفَا نَبِكِ مِنْ ذَكَرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وَانظُرْ: «الْمَغْرِبُ فِي تَرْتِيبِ الْعَرَبِ» لِلْمُطَرِّزِيِّ (٢: ٨٦).

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ على ملّتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: هو بعضي لِفِرْطِ اختصاصه بي ومُلابسته لي، وكذلك قوله: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» أي: ليس بعض المؤمنين، على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي. وقيل: معناه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك.

[﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾]

[٣٧]

﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ بعض أولادي، وهم إسماعيل ومن ولد منه، ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي ..

قوله: ﴿﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: هو بعضي)، لا يريد أن «من» في قوله: ﴿مِنِّي﴾ تبعيضية، وإن صرّح بلفظ البعض، بل هي اتصالية، كقوله تعالى: ﴿﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾﴾، ولهذا قال: ﴿لِفِرْطِ اخْتِصَاصِهِ بِي وَمُلابسته لي﴾.

قوله: ﴿﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك)، يدل على أنه حمل «العصيان» في الوجه الأول على الشرك، لأنه مُقابل لقوله: ﴿﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ على ملّتي، وكان حنيفاً مسلماً»، أي: مؤحداً، والكلام مبني على التخيل والتورية، كما سبق في قوله تعالى: ﴿﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾﴾ [التوبة: ٨٠].

قال القاضي: ﴿﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾﴾ أي: تقدر أن تغفر له وترحمه ابتداءً أو بعد التوفيق للتوبة، وفيه دليل على أن كل ذنب فله أن يغفره حتى الشرك، إلا أن الوعيد^(١) فرق بينه وبين غيره^(٢).

(١) في الأصول الخطية: «الوعد»، والثبت من «تفسير البيضاوي».

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٢٠٠).

مَكَّة ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شيءٌ من زرعٍ قَطُّ، كقوله: ﴿قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرِ ذِي عَوْجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت: المحرّم، لأن الله حَرَّمَ التَّعَرُّضَ له والتَّهَؤُنَ به، وجعل ما حوله حَرَمًا؛ لكانه أو لأنه لم يزل مُنْعًا عزيزاً يهابه كلُّ جَبَّارٍ، كالشيء المحرّم الذي حقُّه أن يُجتنب، أو لأنه مُحْتَرَمٌ عظيمُ الحُرْمَةِ لا يحلُّ انتهاكُها، أو لأنه حُرَمٌ على الطوفان. أي: مُنِعَ منه، كما سُمِّي: «عَتِيقًا» لأنه أُعْتِقَ منه فلم يَسْتَوِلِ عليه، ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللامُ متعلِّقةٌ بـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كلِّ مُرتَفَقٍ ومُرتزِقٍ، إلا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ عند بيتك المحرّم، ويَعْمُرُوهُ بِذِكْرِكَ وعبادتك،

قوله: (لا يكون فيه شيءٌ من زرعٍ قَطُّ)، هذه المبالغة يُفيدُها معنى الكِنَاية، لأن نفي ذِي الزَّرْعِ يَسْتَلْزِمُ كَوْنَ الوادي غَيْرَ صالحٍ، لأنه نكرةٌ في سياقِ النفي.

قوله: (انتهاكُها^(١))، الجوهري: «انتهاكُ الحُرْمَةِ: تناوُلُها بما لا يحلُّ».

قوله: (ما أسكنتهم... إلا لِيُقِيمُوا الصلاة) إلى آخره، هذا الحصرُ وتلك الفوائد إنما يُفيدُها تَكريرُ ذِكْرِ ﴿رَبَّنَا﴾، لأنه للاهتمام بِشأنِ المَدْعُوِّ المطلوب، وَجَعَلَ ﴿لِيُقِيمُوا﴾ عِلَّةً للإسكانِ بواحدٍ موصوفٍ بهذين الوَصفَين؛ كونه غيرِ ذِي زَرْعٍ، وكونه عندَ بَيْتِكَ المحرّم، يعني: لا يَخْتَارُ أَحَدٌ مِثْلَ هذا المَوْضِعِ إلا للانقطاعَ للعبادةِ والتَّبَتُّلِ إلى الله، والتبرُّكِ به لِشَرَفِهِ، وَخَصَّ الصَّلَاةَ لأنها عَمُودُ الدِّينِ.

قوله: (البلقع)، الجوهري: «البلقعُ والبلقعة: الأرضُ القَفْرُ التي لا شيءٌ بها»^(٢).

قوله: (مُرتَفَقٌ ومُرتزِقٌ)، الأساس: «ارتَفَقْتُ به: انتَفَعْتُ به، تقول: بكرمك أُنُق، وعلى

(١) في الأصول الخطية: «انتهاكها»، والمثبت من «الكشاف».

(٢) هذه الفقرة قُدِّمَتْ في الأصلين قبلَ فقرة «قوله: (ما أسكنتهم إلا ليقيموا)»، ووردت في (ط) هنا، وهو المناسبُ لترتيب الكلام في «الكشاف».

وما تُعَمَّرُ به مساجدك ومُتَعَبِّدَاتِكَ، مُتَبَرِّكِينَ بِالْبَقْعَةِ الَّتِي شَرَّفْتَهَا عَلَى الْبَقَاعِ، مُسْتَسْعِدِينَ بِجِوَارِكَ الْكَرِيمِ، مُتَقَرِّبِينَ إِلَيْكَ بِالْعُكُوفِ عِنْدَ بَيْتِكَ، وَالطَّوَافِ بِهِ، وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ حَوْلَهُ، مُسْتَنْزِلِينَ الرَّحْمَةَ الَّتِي آثَرَتْ بِهَا سُكَّانَ حَرَمِكَ.

﴿أَفئِدَةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أفئدة من أفئدة الناس، و«مِنَ» للتَّبَعِيضِ، ويدلُّ عليه ما رُوِيَ عن مجاهد: لو قال: «أفئدة الناس» لَزَحَمْتُكُمْ عَلَيْهِ فَارِسُ وَالرُّومُ، وَقِيلَ: لَوْ لَمْ يَقُلْ: ﴿مِّنَ﴾ لَازْدَحَمُوا عَلَيْهِ حَتَّى الرُّومُ وَالتُّرْكُ وَالْهِنْدُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مِّنَ﴾ لِلْإِبْتِدَاءِ، كَقَوْلِكَ: الْقَلْبُ مَنِّي سَقِيمٌ؛ تَرِيدُ: قَلْبِي، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَفئِدَةٌ نَاسٍ، وَإِنَّمَا نَكَّرْتُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ فِي هَذَا التَّمْثِيلِ لِلتَّنْكِيرِ ﴿أَفئِدَةٌ﴾، لِأَنَّهَا فِي الْآيَةِ نَكْرَةٌ؛ لِتَنَاقُؤَ بَعْضِ الْأَفئِدَةِ.

سُودِدِكَ^(١) أَرْتَفِقُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَسَّنْتَ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]، وَيُقَالُ: مَا فِيهَا مِرْفَقٌ مِّن مَّرَاقِقِ الدَّارِ؛ نَحْوُ الْمُتَوَضُّعِ وَالْمَطْبَخِ^(٢).

قَوْلُهُ: (الْقَلْبُ مَنِّي سَقِيمٌ)، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، لَكِنَّهُ جَعَلَهُ^(٣) إِبْتِدَائِيَّةً لِتَفْخِيمِ الْأَمْرِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: نَشَأَ سَقَمُ هَذَا الْعُضْوِ الَّذِي يَصْلُحُ بِصَلَاحِهِ الْبَدَنَ، وَيَقْسُدُ بِفَسَادِهِ مَنِّي وَمِنْ جِهَتِي، فَعَلِيَ هَذَا: التَّعْرِيفُ فِي ﴿النَّاسِ﴾ لِلجِنْسِ، وَالْمُرَادُ قَوْمٌ مَّخْصُوصُونَ، أَي: نَشَأَ جَعَلَ الْأَفئِدَةَ مَائِلَةً إِلَى جِهَةِ الْكَامِلِينَ مِنَ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: (وَإِنَّمَا نَكَّرْتُ الْمُضَافَ إِلَيْهِ فِي هَذَا التَّمْثِيلِ)، أَي: فِي «الْكَشَافِ» فِي قَوْلِهِ: «فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَفئِدَةٌ نَاسٍ»، وَفِي الْآيَةِ مَعْرِفَةٌ؛ لِتَنَاقُؤَ بَعْضِ الْأَفئِدَةِ، قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: لَا يُجْتَنَبُ

(١) السُّودِدُ: الشَّرَفُ، وَيُقَالُ أَيْضاً: السُّودِدُ؛ بِلَا هَمْزٍ، وَالسُّودِدُ؛ بِضَمِّ الدَّالِ الْأُولَى، وَهِيَ لُغَةٌ طَيِّبَةٌ. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (سود).

(٢) بفتح الميم والباء: موضع الطبخ، وقد تُكسِرُ الميمُ تشبيهاً بِاسْمِ الْأَلَةِ. «المصباح المنير» للفيومي، مادة (طبخ).

(٣) أَي: جعل الحرب «مِنَ» إِبْتِدَائِيَّةً.

وَقُرِي: «أَفِدَّة»، بوزن: عافِدة. وفيه وجهان: أحدهما: أن يكونَ مِنَ القلبِ، كقولك: أدُر، في أدُور. والثاني: أن يكونَ اسمَ فاعِلة، من: أَفَدَتِ الرَّحْلَةَ: إذا عَجَلَتْ؛ أي: جماعة أو جماعات يَرْتَحِلُونَ إليهم ويُعَجِّلُونَ نحوهم.

وَقُرِي: «أَفِدَّة»، وفيه وجهان: أن تُطْرَحَ الهمزةُ للتخفيف، وإن كان الوجهُ أن تُخَفَّفَ بإخراجها بينَ بَيْنَ، وأن يكونَ من: أَفَدَ.

إلى جَعَلَ المعرفة نكرةً لجوازِ أن يُقال: المُضَافُ مُقَدَّر، أي: بعضُ أفئدةٍ من الناس، أو يُقال: «الناسُ» للجنس، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقلت: هذا هو الذي أرادَه المُصنِّف، فإنه أشارَ به إلى أن التعريفَ في ﴿النَّاسِ﴾ بمنزلةِ النكرة، كقولك: ادخُلِ السُّوقَ في بَلَدِ كذا، أي: سُوْقاً من الأسواق. وأما الوَجْهُ الأوَّلُ فساقطٌ يَظْهَرُ بالتأمُّل.

قوله: (بوزنِ عافِدة)، وفي «الأساس»: «اعتَمَدَ الرجلُ: إذا أغلَقَ البابَ ليموتَ جوعاً ولا يسألُ، ولقيَ رجلٌ جاريةً تبكي، فقال: مالك؟ قالت: تُريدُ أن نعتَمِدَ. وأنشدَ ابنُ الأعرابي:

وقائلةٌ ذا زمانَ اعتِقادٍ^(١)».

قوله: (من: أَفَدَتِ الرَّحْلَةَ؛ إذا عَجَلَتْ)، الجوهري: «أَفَدَ الرجلُ - بالكسر - يَأْفُدُ إِفْداءً؛ أي: عَجَلَ، فهو أَفِدٌ؛ على «فَعِل»، أي: مُسْتَعَجِل، وَأَفَدَ الترحُّلُ: إذا دنا وأزف».

قوله: (أن تُخَفَّفَ بإخراجها بينَ بَيْنَ)، قيل: فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الهمزةَ المُتحرِّكةَ الساكنَ ما قبلها إنما يكونُ تخفيفُها بالحذف، كما في «مسألة» و«الخَبء»، ولا يُمكنُ فيها بينَ بَيْنَ؛ المشهورَ ولا غيرَه، لأنَّ بينَ بَيْنَ: إما ساكنٌ أو قريبٌ من الساكنِ؛ على اختلافِ المذَهِبِينَ، فلو جُعِلَتْ هذه الهمزةُ بينَ بَيْنَ لَرَمَ التِّقَاءُ الساكنِينَ، أو ما هو في حُكْمِهِ.

(١) وتماؤه - كما في «أساس البلاغة» نفسه، مادة (عقد) -:

ومن ذلك يبقى على الاعتقاد

﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ وَتَطِيرُ نَحْوَهُمْ شَوْقًا وَنِزَاعًا، مِنْ قَوْلِهِ:

يَهْوِي مَخَارِمَهَا هَوِيَّ الْأَجْدَلِ

وَقَرَأَ: «تَهْوَى إِلَيْهِمْ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، مِنْ: هَوَىٰ إِلَيْهِ، وَأَهْوَاهُ غَيْرُهُ. وَ«تَهْوَى إِلَيْهِمْ»؛ مِنْ: هَوِيَّ يَهْوِي؛ إِذَا أَحَبَّ، ضَمَّنَ مَعْنَى: تَنَزَّعَ، فَعُدِّي تَعْدِيَّتَهُ. ﴿وَأَرْزُقَهُمْ مِنَ الشَّمْرَاتِ﴾ مَعَ سُكْنَاهُمْ وَادِيًا مَا فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا، بَأَنَّ تُجَلَّبَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبِلَادِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النِّعْمَةَ فِي أَنْ يُرْزَقُوا أَنْوَاعَ الشَّمْرَاتِ،

قوله: (يَهْوِي مَخَارِمَهَا هَوِيَّ الْأَجْدَلِ)، أوله (١):

وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الْفِجَاجَ رَأَيْتَهُ

قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ: «الْفَجَجُ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ فِي قُبُلِ جَبَلٍ، وَالْجَمْعُ: الْفِجَاجُ، وَالْمَخَارِمُ: جَمْعُ الْمَخْرَمِ، وَهُوَ مُنْقَطِعُ أَنْفِ الْجَبَلِ، وَالْحَرْمُ: أَنْفُ الْجَبَلِ، وَالْأَجْدَلُ: مَنْ جَدَلَ السَّخْلَقَ» (٢)، وَالْهَوِيُّ - بَضْمٌ آهَاءٌ - : هُوَ الْقَصْدُ إِلَى الْأَعْلَى. يَقُولُ: إِذَا وَجَّهْتَ هَذَا الْجِلْدَ فِي طَرْقِ الْجِبَالِ رَأَيْتَهُ يَقْصِدُ أَعَالِيهَا قَصْدَ الصَّقْرِ» (٣).

قوله: «تَهْوَى إِلَيْهِمْ»... مِنْ: هَوِيَّ [يَهْوِي]؛ إِذَا أَحَبَّ)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: «قَرَأَهَا عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هُوَ مِنْ: هَوَيْتُ الشَّيْءَ؛ إِذَا أَحْبَبْتَهُ، لَا تَقُولُ: هَوَيْتُ إِلَى فُلَانٍ، وَلَكِنْ: هَوَيْتُ فُلَانًا، لَكِنْ لَاحِظَ مَعْنَى: تَمِيلُ إِلَيْهِمْ» (٤)، وَهَذَا بَابٌ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ ذُو عَوَزٍ» (٥).

(١) زاد في (ح) و(ف) هنا: «لَتَأْبَطَ شَرًّا»، وليس هو له، بل لأبي كبير الهذلي - وهو عامر بن الحليس - ، كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢: ٥٦٢)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (خرم).
(٢) أي: حُسْنُهُ.

(٣) «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ٦٩).

(٤) يعني: أن الفعل «تَهْوَى» ضَمَّنَ الْفِعْلَ «تَمِيلُ»، فَعُدِّي تَعْدِيَّتَهُ.

(٥) «المحتسب» لابن جِنِّي (١: ٣٦٤).

حاضرة في وادي ياب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته، فجعله حرماً آمناً نجباً إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بوادٍ غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان، من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب، متعنا الله بسكنى حرمة، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا الشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

[«رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نَخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا نَحْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨-٣٩﴾]

قوله: (في وادي ياب)، الجوهرى: «أرض ياب: حراب».

قوله: (ثم فضله)، «ثم» للتراخي في الإخبار أو الزمان.

قوله: (على كل ريف)، الريف: أرض فيها زرع وخضب^(١).

قوله: (وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب)، «أي» فيه استيفامية، و«التي» صفة الأعجوبة، فإنه لما قال: «ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد»، قال: «في أي بلد»، أي: لا ترى الأعجوبة التي يريكها الله تعالى في مكة في بلاد الشرق والغرب أي بلد شئت.

قوله: (اجتماع البواكير)، الجوهرى: «الباكورة: أول الفاكهة».

(١) معنى «الريف» مستفاد من «الصّحاح» للجوهرى، مادة (ريف).

النِّدَاءِ الْمَكَرَّرُ دَلِيلُ التَّضَرُّعِ وَاللَّجَأِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، ﴿إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ﴾^(١) تعلم السرَّ كما تعلم العلنَ علماً لا تَفَاوَتْ فيه، لأنَّ غَيْباً مِنَ الْغُيُوبِ لَا يَحْتَجِبُ عَنْكَ. والمعنى: إِنَّكَ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِنَا وَمَا يُصْلِحُنَا وَمَا يُفْسِدُنَا مِنَّا، وَأَنْتَ أَرْحَمُ بِنَا وَأَنْصَحُ لَنَا مِنَّا بِأَنْفُسِنَا وَهَذَا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ وَالطَّلَبِ، وَإِنَّمَا نَدْعُوكَ إِظْهَاراً لِلْعِبُودِيَّةِ لَكَ، وَتَخَشُّعاً لِعَظَمَتِكَ، وَتَذُلُّاً لِعِزَّتِكَ، وَافْتِقَاراً إِلَى مَا عِنْدَكَ، وَاسْتِعْجَالاً لِئَنبِيْلِ أَيْدِيكَ، وَوَهْلاً إِلَى رَحْمَتِكَ، وَكَمَا يَتَمَلَّقُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ، رَغْبَةً فِي إِصَابَةِ مَعْرُوفِهِ، مَعَ تَوْفُرِ السَّيِّدِ عَلَى حُسْنِ الْمَلَكَةِ. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ رَفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى كَرِيمٍ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ النَّجْحُ، فَأَرَادَ أَنْ يُذَكِّرَهُ فَقَالَ: مِثْلُكَ لَا يُذَكِّرُ اسْتِقْصَاراً وَلَا تَوْهُماً لِلْغَفْلَةِ عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ، وَلَكِنْ ذَا الْحَاجَةِ لَا تَدَعُهُ حَاجَتُهُ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ فِيهَا. وَقِيلَ: ﴿مَا نُخْفِي﴾ مِنْ الْوَجْدِ لِمَا وَقَعَ بَيْنَنَا مِنَ الْفُرْقَةِ،

قوله: (كما تعلم العلن)، أشار إلى تكرير «ما»، وأن لم يقل: «تعلم ما نخفي ونعلن»؛ لِيُؤَدِّدَ بِاسْتِقْلَالِ إِيقَاعِ الْعِلْمِ عَلَى كُلِّ مِنَ السَّرِّ وَالْعَلَنِ، حَيْثُ لَا يَتَفَاوَتْ الْعِلْمُ فِيهِمَا^(١).
قوله: (وقيل: ﴿مَا نُخْفِي﴾ من الوجد)، عطف على قوله: «تعلم السرَّ كما تعلم العلن»، جَعَلَ «نُخْفِي» و«نُخْفِي» عَلَى الْأَوَّلِ مُطْلَقاً؛ عَلَى مَنَوَالٍ «يُعْطِي وَيَمْنَعُ»^(٢) تَمِيماً لِحَسَنِ الْمَطْلَبِ، يَعْنِي: هَذَا الَّذِي يَظْهَرُ مِنَ الطَّلَبِ لَيْسَ إِلَّا التَّمَلَّقُ وَالرَّغْبَةُ إِلَى إِصَابَةِ الْمَعْرُوفِ، لَا الْاسْتِقْصَارَ وَالْإِعْلَامَ، وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَهْزُكَ لَا أَنِي عَرَفْتُكَ نَاسِيَا لِأَمْرِي وَلَا أَنِي أَرَدْتُ التَّقَاضِيَا

(١) على حاشية النسخة الموصلة هنا فائدة، ونصها: «وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «كَمَا تَعَلَّمَ الْعَلَنُ» إِشَارَةً إِلَى فَائِدَةِ تَكَرُّرِ «مَا» كَمَا ذَكَرَهُ، وَإِشَارَةً أَيْضاً إِلَى ذِكْرِ الْعَلَنِ بَعْدَ السَّرِّ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ السَّرَّ عَلِمَ الْعَلَنَ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ، فَالنَّكْتَةُ فِي ذِكْرِ الْإِيدَانِ بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمَا وَعَدَمِ التَّفَاوُتِ كَمَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.»
(٢) أي: في مثل قولك: «زَيْدٌ يُعْطِي وَيَمْنَعُ»، وَلَا تَذَكَّرُ مَفْعُولٌ «يُعْطِي» وَمَفْعُولٌ «يَمْنَعُ»، فَيَمْدُ الْإِطْلَاقِ.

﴿وَمَا نُعَلِّنُ﴾ من البكاء والدُّعاء. وقيل: ﴿مَا نُخْفِي﴾ من كآبة الافتراق، ﴿وَمَا نُعَلِّنُ﴾ يريد: ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلمنا؟ قال: إلى الله أكلكم. قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف. ﴿وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. أو من كلام إبراهيم، يعني: وما يخفي على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان. و«من» للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفي عليه شيء ما.

ولكن رأيت السيف من بعد سلته إلى الهز محتاجاً وإن كان ماضياً^(١)

قوله: (ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلمنا؟)، هذا في حديث طويل رواه البخاري في «صحيحه»^(٢) عن ابن عباس قال: «جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر وبابنها إسماعيل، وهي تُرضعه، حتى وضعتها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعتها هناك، ووضع عند هاجر إناء فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم نئى إبراهيم مُنطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ قالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يروونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، فرفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

قوله: (﴿وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من كلام الله أو من كلام إبراهيم)، وعلى التقديرين:

(١) البیتان لشار بن بُرد، كما في «يتمة الدهر» للثعالبي (٢: ٢٥٠)، و«محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني (١: ٢٦٢)، و«غرر الخصائص الواضحة» للوطواط ص ٢٧٠. وانظر: «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (١: ٢٢١)، وقال: إنه «من أعجب الاعتذار في التقاضي».

(٢) برقم (٣٣٦٤) و(٣٣٦٥).

«عَلَى» - في قوله: ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾ - بمعنى «مع»، كقوله:

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ

هو تذييلٌ لِمَا سَبَقَ وتأكيدٌ له، ولهذا استشهد بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، لأنه من كلام الله تذييلاً لكلام بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً﴾ [النمل: ٣٤].

فعلُ الأول: كَانَ من الظاهر أن يقول: «صَدَقْتَ يا إبراهيم ما يخفى عليّ شيء»، أقام المظهرَ موضعَ المضمَر، وأتى باسمه الأقدس الجامع، أي: اقتضى عظمة جلاله وكبرياء سلطانه وشُمولُ علمه أن لا يُحَيَّبَ دُعَاك.

وعلى الثاني^(١): «وما يخفى عليك من شيء»، فعدّل ليؤدِّن أنه كيف تخفى عليه حاجتي، وعلمه شاملٌ لكلِّ غيبٍ وشهادة؟!!

قوله: («على») في قوله: ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾ بمعنى: «مع»، ويجوز أن تجري على حقيقتها، ويُقال: وَهَبَ لِي وَأَنَا مُتَمَكِّنٌ عَلَى الْكَبِيرِ، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدْمِرُ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، وهذا أنسب؛ لقوله: «لأن الولادة في تلك السنِّ العالية كانت آية».

قوله: (إني على ما ترين من كبري)، يقول: إني مع ما ترين من كبري^(٢) أعرف الأشياء حقَّ معرفتها، لأنِّي جرَّبْتُها ومارسْتُها، وإني الآن على ما كنتُ مع كبري سني وتغيَّرَ أحوالِ الحواس. وإليه أومئ بقوله: «وإنما ذكر حال الكبر، لأن المنة بهية الولد فيها أعظم».

قوله: (أعلم من حيث تؤكل الكتيف)^(٣)^(٤)، مثلٌ في التجربة، لأنَّ المجرَّب يأخذُ

(١) قوله: «وعلى الثاني»: أي: وعلى الثاني كان من الظاهر أن يقول: «ويخفى عليك» إلخ. انتهى من حاشية النسخة الموصلية.

(٢) قوله: «يقول: إني على ما ترين من كبري» سقط من (ح).

(٣) في (ح): «أعلم أن من أين تؤكل الكتيف»، ولا يستقيم به وزن البيت، ومثله في (ط) لكن دون «أن»، ووزنه مستقيم، وفي (ف): «أعرف من أين تؤكل الكتيف»، والمثبت من «الكشف».

(٤) البيت أنشده أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الأمثال»، انظر: «فصل المقال» لأبي عبيد البكري ص ١٤٢.

وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبيرٌ وفي حال الكبر. روي أن إسماعيلَ وُلد له وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاقُ وهو ابنُ مئةٍ وثنِي عشرة سنة، وقد روي أنه وُلد له إسماعيلُ لأربع وستين، وإسحاقُ لتسعين. وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيمَ إلا بعد مئة وسبع عشرة سنة. وإنما ذَكَر حالَ الكبرِ لأنَّ المِنَّةَ بهيئةَ الولدِ فيها أعظم، من حيث إنها حالٌ وُقوع اليأسِ من الولادة. والظَّفَرُ بالحاجة على عَقَب اليأسِ من أَجَلِ النَّعْمِ وأحلاها في نفس الظافر، ولأنَّ الولادةَ في تلك السنِّ العالِيَةِ كانت آيَةً لإبراهيم. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ كان قد دعا رَبَّهُ وسأله الولدَ، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١٠٠]، فشَكَرَ اللهُ ما أكرَمَه به من إجابته.

فإن قلت: اللهُ تعالى يسمعُ كلَّ دعاءٍ، أجابه أو لم يُجبه.

الكَتِفَ من أعلاه، لِيَجْذِبَ اللَّحْمَ عنه، وقيل: تُؤَكَّلُ من أسْفَلِهَا لِيَسْهُلَ.

قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ كان قد دعا رَبَّهُ، وسأله الولدَ إلى قوله: (فشَكَرَ اللهُ ما أكرَمَه به من إجابته)، وقلت: قَضِيَّةُ النَّظْمِ أن يكونَ قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ تعليلاً لإجابة دُعائِهِ السابقِ على سبيل التذييل، وأن يكونَ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ تذكيراً لِشُكْرِ نِعْمِهِ السابقة، ووسيلةً لاستِجابة هذا الدُّعاء، فإنَّ هذه الآيةَ كالأعراضِ بينَ أدعيةِ إبراهيمَ عليه السَّلَامُ في هذا المكان، كأنه عليه السَّلَامُ يقول: «اللَّهُمَّ استَجِبْ دُعائِي في حَقِّ دُرِّيَّتِي في هذا المقام، فإنك لم تَزَلْ سَمِيعَ الدُّعاء، وقد دَعَوْتُكَ على الكبرِ، وسألتُ أن تَهَبَ لي إسماعيلَ وإسحاقَ، فأجبتَ لي»، فذكره وسيلةً لاستِجابة الدُّعاء.

وفي تقييده تلك النعمة بالحمد دون إطلاقها: إشارة إلى التزام الشكر لهذه النعمة المستجدة.

قوله: (اللهُ يسمعُ كلَّ دعاءٍ أجابه أو لم يُجبه)، يعني: كيف استعملَ ﴿سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ بمعنى: مُجيبه، فإنه تعالى يسمعُ الدُّعاء، أجابه^(١) أو لم يُجبه؟ وما فائدة اختِصاصِهِ به؟

(١) في الأصول الخطية: «يُجيبه»، وأصلحته بحسب السياق.

قلت: هو من قولك: سَمِعَ الْمَلِكُ كَلَامَ فُلَانٍ: إِذَا اعْتَدَّ بِهِ وَقَبِلَهُ، وَمِنْهُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا أذَّنَ اللَّهُ لَشَيْءٍ كَأَذْنِهِ لِنَبِيِّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ».

فَإِنْ قُلْتَ: مَا هَذِهِ الْإِضَافَةُ، إِضَافَةُ «السَّمِيعِ» إِلَى «الدُّعَاءِ»؟ قُلْتَ: إِضَافَةُ الصِّفَةِ إِلَى مَفْعُولِهَا، وَأَصْلُهُ: لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. وَقَدْ ذَكَرَ سَبِيوِيهِ «فَعِيلًا» فِي جُمْلَةِ أُنْبِيَةِ الْمُبَالِغَةِ الْعَامِلَةِ عَمَلِ الْفِعْلِ، كَقَوْلِكَ: هَذَا ضَرْوْبٌ زَيْدًا، وَضَرْابٌ أَخَاهُ، وَمِنْحَارٌ إِبْلَهُ، وَحَذِرٌ أُمُورًا، وَرَجِيمٌ أَبَاهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ إِضَافَةِ «فَعِيلٍ» إِلَى فَاعِلِهِ، وَيُجْعَلُ دُعَاءُ اللَّهِ سَمِيعًا عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ. وَالْمُرَادُ: سَمِعَ اللَّهُ.

وأجاب: أَنَّ الْفَائِدَةَ أَنَّهُ اعْتَدَّ بِهِ^(١) وَقَبِلَ مِنْهُ، كَمَا إِذَا رَفَعَ شَخْصَانِ قِصَّتَهُمَا إِلَى الْأَمِيرِ، وَسَمِعَ كَلَامَهُمَا، وَقَبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَقَضَى حَاجَتَهُ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ، يُقَالُ: سَمِعَ قِصَّةَ فُلَانٍ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْآخَرِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ.

قوله: (مَا أذَّنَ اللَّهُ) الْحَدِيثُ، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ^(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَعْنِي: لَا يَعْتَدُّ بِشَيْءٍ كَاعْتِدَادِهِ لِنَبِيِّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، قَالَ فِي «الْفَائِقِ»: «الْأَذْنُ: الْإِسْتِمَاعُ، وَالْمُرَادُ بِالتَّغْنِي: تَحْزِينُ الْقِرَاءَةِ وَتَرْقِيقُهَا، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)^(٣)».

الرَّاعِبُ: «عَتَى أَغْنِيَةً وَغِنَاءً وَتَغْنَى، وَقِيلَ: تَغْنَى؛ بِمَعْنَى: اسْتَغْنَى، وَمِنْهُ: «مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٤)»^(٥).

قوله: (مِنْ إِضَافَةِ «فَعِيلٍ» إِلَى فَاعِلِهِ)، أَي: لَسَمِيعٍ دُعَاؤُكَ.

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «اعْتَدَّهُ».

(٢) الْبُخَارِيُّ (٥٠٢٤) وَ (٧٤٨٢) وَ (٧٥٤٤)، وَمُسْلِمٌ (٧٩٢) وَ (٧٩٣).

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٤٦٨)، وَالنَّسَائِيُّ (١٠١٥) وَ (١٠١٦)، وَابْنُ مَاجَةَ (١٣٤٢) مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٢٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِلَفْظٍ: «لَيْسَ مِنْ مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ».

(٥) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٦١٦.

[رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤٠-٤١﴾]

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ وبعضُ ذُرِّيَّتِي، عطفًا على المنصوب في ﴿اجْعَلْنِي﴾، وإنما بعضُ لأنه عَلِمَ بإعلام الله أنه يكون في ذُرِّيَّتِهِ كُفَارًا، وذلك قوله: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أي: عبادتي؛ ﴿وَأَعِزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: «ولوآلدي» يعني: إسماعيل وإسحاق. وقرئ: «لؤلدي» بضم الواو، والوُلْدُ بمعنى: الولد، كالعُدْم والعَدَم. وقيل: جمع وُلْد، ك«أُسْد» في: أسد. وفي بعض المصاحف: «ولذُرِّيَّتِي».

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلت: هو من مجوزات العقل، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف. وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء. وقيل: بشرط الإسلام، وبأبائه قوله: ﴿الْأَقْوَلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤]؛ لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يُسْتثنى الاستغفارُ الصَّحِيحُ من جملة ما يُؤْتَسَى فيه بإبراهيم.

في قراءة أبي: «ولأبوي». وقرأ سعيد بن جبیر: «ولوآلدي» على الأفراد،.....

قوله: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، استيهاذٌ لأنَّ الدعاءَ يبيحُ بمعنى العبادة.

قوله: (وبأبائه قوله: ﴿الْأَقْوَلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾)، يعني: هذا القولُ مردود، لأنه لو نوى إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: «إن أسلم»، لكان مثل هذا الاستغفار مما يُؤْتَسَى به ومأموراً به، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿الْأَقْوَلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤]، فالله تعالى

﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبت، وهو مُستعارٌ من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم: تَرَجَلَتِ الشَّمْسُ؛ إذا أشرقت وَثَبَتَ ضَوْوُهَا، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يُسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل: ﴿وَسَكَلَ الْقَرِيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبدُ أحدٌ من ولدهِ صنماً بعدَ دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات،

نهانا أن نأتسي به في هذا الاستغفار، ولو كان مشروطاً بالإسلام لكان مأموراً بالاتباع، فضلاً عن أن يكون منهياً عنه، وقد استقصينا الكلام عليه في «مریم»^(١)؛ ردّاً على المصنّف.

قوله: (وهو مُستعارٌ من قيام القائم)، أي: القيام مُستعارٌ للثبات، شُبِّهَ ﴿الْحِسَابُ﴾ في الوقوع والثبوت بإنسانٍ إذا كان على أقوى حاله، وهو القائم، ثم خيّل له ما يلازم الإنسان في هذه الحالة، وهو القيام، ثم شُبِّهَ هذا المتخيّل بمثله من المحقّق، ثم أُطلق المحقّق على ذلك المتخيّل، فهي استعارةٌ مكنيةٌ مُستلزمةٌ للتخييلية.

قوله: (وعن مجاهد: قد استجاب الله له)، بيانٌ لربط الآيات من ابتداء دعوة إبراهيم عليه السلام، فقوله: «فلم يعبد أحدٌ من ولدهِ صنماً بعدَ دعوته»: مبنيٌّ على ما سبق من جواب ابن عيينة: «ما عبد أحدٌ من ولدِ إسماعيلَ صنماً، وإنما كانت أنصاب حجارة»، وفي قوله: «وجعل في ذريته من يقيم الصلاة»: إشارةٌ إلى أن «من» في ﴿مَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعض، وقوله: «وأراه مناسكته وتاب عليه»: إشارةٌ إلى ما في البقرة: ﴿وَأَرَانَا مَنَاسِكَا وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقول ابن عباس: إما من تيمّة كلام مجاهد، أو أنه لما لم يذكره جاء به^(٢) ليستوعب جميع ما اشتملت عليه الآيات من المعاني.

(١) في تفسير الآية ٤٧ منها (١٠: ٣٦).

(٢) أي: لما لم يذكره مجاهد جاء به الزمخشري.

وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يُقيم الصلاة، وأراه مناسكها، وتاب عليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، رَفَعَهَا اللهُ فَوَضَعَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا رِزْقاً لِلْحَرَمِ.

[﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ [٤٣-٤٢]

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ - وهو أعلم الناس به - غافلاً حتى قيل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ غَفِلاً﴾؟ قلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ ففيه وجهان:

أحدهما: التثيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، كما جاء في الأمر: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

والثاني: أن المراد بالنهي عن حسبان غافلاً، الإيدان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه مُعاقِبُهُمْ على قَلِيلِهِ وكثيره، على سبيل الوعيد والتهديد، كقوله: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] يُريد: الوعيد. ويجوز أن يُراد: ولا تَحْسَبَنَّه يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْغَافِلِ عَمَّا يَعْمَلُونَ،

قوله: (الإيدان بأنه عالم بما يفعله^(١) الظالمون)، يُريد: أن قوله: ﴿غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ كناية أو مجاز في المرتبة الثانية عن الوعيد والتهديد، أي: لا تحسبن الله يترك عقابهم، لأنه جائر في كرمه ولطفه أن يعفو عنهم، لكن لا بد أن يعاقبهم على القليل والكثير.

قوله: (يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْغَافِلِ)، فعل هذا [هو] استعارة تمثيلية، كما مر في ﴿يُخَدِّعُونَ

الله﴾ [البقرة: ٩].

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «بما يفعل»، والأمر فيه قريب.

ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على التقير والقطمير.

وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه. وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه.

وقرئ: ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ بالنون والياء.

قوله: (التقير والقطمير)، الجوهري: «التقير: النقرة التي في ظهر النواة»، و«القطمير: الفوفة التي في النواة، وهي القشرة الرقيقة».

قوله: (تسلية للمظلوم، وتهديد للظالم)، يعني: الخطاب عام، فلا يختص به مخاطب دون مخاطب، لأن الناس بين ظالم ومظلوم، فإذا سمع المظلوم أن الله تعالى عالم بما يفعله الظالم ويتصبر له هان عليه ظلمه، والظالم إذا تصور أن الله تعالى عالم بما يفعله، ولا بد أن يجازيه على ظلمه، ربما ارتدع عن ظلمه.

وإنما غضب عليه^(١)؛ لأن السائل قصر التأويل على التقليد، وطلب منه الرواية، ولهذا قال: «إنما قاله من علمه»، أي: قاله صاحب الدراية.

وهذا مناسب لتأليف النظم؛ فإن الآية مردودة إلى قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ و﴿قُلْ لِعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم: ٣٠-٣١]، أمر صلوات الله عليه وسلامه بمشاركة القوم، وبأن يقول لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وبأن يشتغل بتبليغ الرسالة مع من يتفجع به بالعمل وباستعمال الفكر والاعتبار؛ بقوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] الآية، وبقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثم سلأه وهدد الظالم على سبيل العموم بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، وختم به وبما يتصل به السورة، والله أعلم.

(١) أي: وإنما غضب سفيان بن عيينة ممن قال له: «من قال هذا؟».

﴿تَشَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَرُ﴾ أي: أبصارهم لا تَقَرُّ في أماكنها من هَوْل ما تَرَى.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسْرِعِينَ إِلَى الدَّاعِي. وَقِيلَ: الإِهْطَاعُ: أَنْ تُقْبَلَ بِبَصْرِكَ عَلَى الْمَرْئِي تَدِيمُ النَّظَرِ إِلَيْهِ لَا تَطْرَفُ، ﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ رَافِعِيهَا ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَطْرِفُوا بِعُيُونِهِمْ، أَي: لَا يَطْرِفُونَ، وَلَكِنْ عُيُونُهُمْ مَفْتُوحَةٌ مَمْدُودَةٌ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيكِ لِلْأَجْفَانِ، أَوْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ نَظْرُهُمْ فَيَنْظُرُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ.

الهواء: الحلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلب فلان هواء؛ إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة. ويقال للأحمق أيضاً: قلبه هواء. قال زهير:

مِنَ الظُّلْمَانِ جُوجُؤُهُ هَوَاءٌ

قوله: (أي: أبصارهم لا تَقَرُّ في أماكنها)، الراغب: «الشَّخْصُ: سَوَادُ الْإِنْسَانِ الْقَائِمِ الْمُتْرَأِي مِنْ بَعِيدٍ، وَقَدْ شَخَّصَ مِنْ بَلَدِهِ: نَفَذَ^(١)، وَشَخَّصَ سَهْمَهُ وَبَصْرَهُ، وَأَشَخَّصَهُ صَاحِبُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَشَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَرُ﴾، وَقَالَ: ﴿شَخَّصَةً أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢) [الأنبياء: ٤٩٧]، أَي: أَجْفَأْتُهُمْ لَا تَطْرِفُ»^(٣).

قوله: (لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَطْرِفُوا)، الجوهري: «طَرَفَ بَصْرَهُ يَطْرِفُ طَرْفًا؛ إِذَا أَطْبَقَ أَحَدٌ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ، الْوَاحِدَةُ مِنْ ذَلِكَ: طَرْفَةٌ، يُقَالُ: أَسْرَعُ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ». قوله: (مِنَ الظُّلْمَانِ جُوجُؤُهُ هَوَاءٌ)، وَأَنْشَدَهُ^(٤) الزَّجَّاجُ^(٥)، صَدْرُهُ:

(١) قوله: «نفذ» سقط من (ط) و(ف)، وفيها: «شخص من بصره»، وفي (ح): «فقد»، والمثبت من «المفردات» للراغب، مادة (شخص).

(٢) في الأصول الخطية: «شاخصة أبصارهم»، وهو خطأ، والمثبت من «المفردات».

(٣) «مفردات القرآن» ص ٤٤٧.

(٤) في الأصول الخطية: «وأنشده»، وأصلحته بحسب السياق.

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ١٦٦).

لأنَّ النَّعَامَ مَثَلٌ فِي الْجُبْنِ وَالْحُمُقِ، وَقَالَ حَسَّانُ:

فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخِبٌ هَوَاءٌ

وعن ابن جريج: ﴿وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ صَفْرٌ مِنَ الْخَيْرِ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:
جَوِّفٌ لَا عَقُولَ لَهُمْ.

[﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ
نُحِبَّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ نَكُفِّرُوا بِنَفْسِنَا أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ نَكُفِّرُوا بِنَفْسِنَا أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ
فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ
وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُؤُنَا مِنْهُ أَلْبَابًا * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ، رُسُلُهُ إِنْ
اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ٤٤-٤٧]

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ^(١)

الصَّعْلُ: الصَّغِيرُ الرَّأْسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنَّعَامِ مِنْ غَيْرِ قَصْرِ الْعُنُقِ، وَالْجَوْجُؤُ مِنْ
الطَّائِرِ وَالسَّفِينَةِ: صَدْرُهُمَا، يُهْمَزُ وَلَا يُهْمَزُ، يَصِفُ مَطِيَّتَهُ بِالْقَلْقِ، يَقُولُ: كَانَ رَحْلٌ هَذَا
الْمَطِيَّ فَوْقَ ظَلِيمٍ - أَي: نَعَامَةٌ^(٢) - لَا قُوَّةَ فِي قَلْبِهِ، لِأَنَّ النَّعَامَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُبْنِ.
قَوْلُهُ: (فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخِبٌ هَوَاءٌ)، صَدْرُهُ:

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي^(٣)

يُقَالُ: رَجُلٌ مُجَوِّفٌ: لَا قَلْبَ لَهُ، كَأَنَّهُ خَالِي الْجَوْفِ مِنَ الْقَلْبِ، وَالنَّخِبُ: الْفَاسِدُ، رَجُلٌ

(١) انظر: «شعر زهير بن أبي سلمى» للأعلام الشَّتَمَرِي ص ١٢٧.

(٢) والأدقُّ من هذا أن يُقال: هو الذَّكَرُ مِنَ النَّعَامِ، وَجَمْعُهُ: أَطْلِمَةٌ وَظُلْمَانٌ وَظُلْمَانٌ. «لسان العرب» (ظلم).

(٣) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» ص ١٨.

وسياقي بتمامه عند الزمخشري في تفسير الآية ١٠ من سورة القصص (١٢: ١٧).

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ مفعول ثانٍ لـ «أُنذِر»، وهو يومُ القيامة. ومعنى: ﴿أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: رُدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا وَأَمَهَلْنَا إِلَىٰ أَمَدٍ وَحَدٍّ مِنَ الزَّمَانِ قَرِيبٍ، نَتَدَارَكُ مَا قَرَّطْنَا فِيهِ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِكَ وَاتِّبَاعِ رُسُلِكَ. أو أُرِيدُ بِ«اليوم»: يَوْمٌ هَلَاكِهِمْ بِالْعَذَابِ الْعَاجِلِ، أَوْ يَوْمٌ مَوْتِهِمْ مُعَذِّبِينَ بِشِدَّةِ السَّكْرَاتِ، وَلِقَاءِ الْمَلَائِكَةِ بِلَا بُشْرَى، وَأَتَمُّهُمْ يَسْأَلُونَ يَوْمَئِذٍ أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ رَبُّهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقْتُ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بَطْرًا وَأَشْرًا، وَلَمَّا اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ عَادَةِ الْجَهْلِ وَالسَّفَهَةِ، وَأَنْ يَقُولُوهُ بِلِسَانِ الْحَالِ حَيْثُ بَنَوْا شَدِيدًا وَأَمَلُوا بَعِيدًا، وَ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ جوابُ الْقَسَمِ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ الْخُطَابِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾، وَلَوْ حُكِيَ لَفِظُ الْمُقْسِمِينَ لَقِيلَ: مَا لَنَا مِنْ زَوَالٍ، وَالْمَعْنَى: أَقْسَمْتُمْ أَنْكُمْ بَاقُونَ فِي الدُّنْيَا لَا تُزَالُونَ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، وَقِيلَ: لَا تَنْتَقِلُونَ إِلَىٰ دَارٍ أُخْرَى؛ يَعْنِي: كُفَّرَهُمْ بِالْبَعْثِ، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، يُقَالُ: سَكَنَ الدَّارَ وَسَكَنَ فِيهَا.

نَخَبٌ - بِكسْرِ الخاء^(١) - : أَي جَبَانٌ لَا فُؤَادَ لَهُ، وَهَوَاءٌ: صِفْرٌ مِنَ الْخَيْرِ.

قوله: (أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ بَطْرًا وَأَشْرًا)، إشارةٌ إِلَى أَنْ الْقَوْلَ مُضْمَرٌ، أَي: أَلَمْ يَكُونُوا بَطْرِينَ أَشْرِينَ قَائِلِينَ: وَاللَّهِ مَا لَنَا مِنْ زَوَالٍ، أَوْ أَنْ يَقُولُوهُ بِلِسَانِ الْحَالِ، أَي: لَا قَوْلَ ثَمَّةٍ وَلَا قَسَمٍ، وَلَكِنْ دَلَّ بَطْرُهُمْ وَأَشْرُهُمْ مِنْ بِنَاءِ الْقُصُورِ وَالْأَمَلِ الْبَعِيدِ عَلَىٰ هَذَا الْمَعْنَى.

قوله: (يَعْنِي: كُفَّرَهُمْ بِالْبَعْثِ)، يُرِيدُ: أَنَّ قَوْلَهُمْ: «مَا لَنَا مِنْ زَوَالٍ» مَبْنِيٌّ عَلَىٰ إِنْكَارِ الْبَعْثِ، وَأَنَّ الْقَوْمَ دَهْرِيَّةٌ، يَعْنِي: لَمْ تَنْزَلْ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ، لِأَنَّ الْقَائِلِينَ بِالْقِدَمِ يَقُولُونَ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَهْلِكُكَ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنابية: ٢٤]، حَدَّثَهُمُ اللَّهُ.

(١) وَيُسَكُونُهَا أَيْضًا، وَفِيهِ لُغَاتٌ غَيْرُ هَاتَيْنِ، يُقَالُ: رَجُلٌ نَخَبٌ، وَنَخْبَةٌ، وَمُنْتَخَبٌ، وَمَنْخُوبٌ، وَمَنْخَبٌ، وَنَخَبٌ، وَيَنْخُوبُ، وَنَخِيبٌ، أَي: جَبَانٌ، وَالْجَمْعُ: نَخَبٌ. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (نخب).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لأن «السكنى» من السكن الذي هو اللبث، والأصل تعديه بـ«في»، كقولك: قر في الدار، وغني فيها، وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سُكونٍ خاصٍ تُصَرَّفُ فيه فقيل: سكن الدار، كما قيل: تبوأها وأوطنها.

ويجوز أن يكون «سكنوا» من السكن، أي: قرأوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يُحَدِّثُونَهَا بما لَقِيَ الأولون من أيام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا.

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بالإخبار والمُشَاهَدَةِ ﴿ كَيْفَ ﴾ أهلكتهم وانتقمنا منهم. وقرئ: «وُبيِّنَ لكم» بالنون.

﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

قوله: (ويجوز أن يكون «سكنوا» من السكن)، عطف على قوله: «سكن الدار وسكن فيها» من حيث المعنى، يعني: ﴿سكنتهم﴾ في الآية: إما من السكن الذي هو بمعنى اللبث والتبوء، أو من السكن بمعنى القرار، فإن كان الأول فاستعماله بـ«في» بالنظر إلى أصل الاستعمال؛ لا بالنظر إلى النقل بحسب العرف، فإنهم يستعملونه بغير «في».

وقوله: «لأن «السكنى» من السكن»: تعليل لقوله: «ومنه قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾»، أي: ﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾ من هذا الاستعمال، لأن «سكن الدار» - بمعنى: السكنى والتبوء - يُسْتَعْمَلُ بِالْجَارِّ عَلَى الْأَصْلِ، وَبِالْجَارِّ لِلنَّقْلِ إِلَى الْعُرْفِ، فَاسْتَعْمِلُ هَاهُنَا بِالْجَارِّ.

قوله: (وكيف كان)، عطف على قوله: «ما لقي» على سبيل البيان؛ على تأويل جواب «كيف»، أي: لا يُحَدِّثُونَهَا بِأَحْوَالِ عَاقِبَةِ ظَلَمِ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْهَلَائِكِ وَالْدَّمَارِ.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استقرغوا فيه جهدهم
 ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ لا يخلو: إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول، على معنى:
 ومكتوبٌ عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بـمكرٍ هو أعظمُ منه، أو يكون مضافاً إلى
 المفعول؛ على معنى: ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ الذي يـمكرهم به، وهو عذابهم الذي
 يـستحقونه، يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحسبون، ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ
 لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ ﴾ وإن عظم مكرهم وتبأغ في الشدة، فـضرب زوال الجبال منه مثلاً
 لتفاقمه وشدته؛ أي: وإن كان مكرهم مسوئاً لإزالة الجبال، مُعدّاً لذلك.

وقد جعلت «إن» نافية، واللام مؤكدة لها، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ
 إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بـمكرهم، على أن الجبال
 مثل آيات الله وشرائعه، لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً. وتنصّره قراءة ابن
 مسعود: «وما كان مكرهم».

وقرئ: «لتزول» بلام الابتداء؛ على: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ ﴾ من الشدة
 بحيث تزول منه الجبال وتقلع من أماكنها. وقرأ عليٌّ وعمر رضي الله عنهما: «وإن كان
 مكرهم».

قوله: (مكرهم العظيم)، إنما عظمه للإضافة، وهذا إنما يُصار إليه إذا علم شدّة
 شكيمته^(١) من أضيف إليه، وتماديهم في الطغيان، كأنه قيل: فما ظنك بـمكرٍ مباشره مثل
 صنديد قريش.

قوله: (وقرئ: «لتزول» بلام الابتداء)^(٢)، قال الزجاج: «قرئ: «لتزول» على الرفع
 وفتح اللام الأولى، المعنى: وعند الله مكرهم، وإن كان يبلغ في الكيد إلى إزالة الجبال، فإن

(١) الشكيمة: الأنفة، كما في «القاموس» للفيروزآبادي، مادة (شكم).

(٢) وهي قراءة الكسائي، كما في «التيسير» للداني ص ١٣٥، و«حجة القراءات» ص ٣٧٩.

﴿مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

فإن قلت: هلا قيل: مُخَلِّفَ رُسُلِهِ وَعْدَهُ؟ ولم تقدم المفعول الثاني على الأول؟ قلت: قدم الوعد ليُعلم أنه لا يُخلف الوعد أصلاً، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩]، ثم قال: ﴿رُسُلَهُ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يُخلف وعده أحداً، وليس من شأنه إخلاف المواعيد، كيف يُخلفه رُسُلُهُ الذين هم خيرته وصفوته؟ وقري: ﴿مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلِهِ﴾ بجرّ «الرُّسُلِ» ونصب «الوَعْدِ». وهذه في الضعف كمن قرأ: «قتل أولادهم شركائهم» [الأنعام: ١٣٧]. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُماكر ﴿ذُو أَنْقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

الله يَنْصُرُ دينه^(١). وعلى هذا: «إن» مُحْفَفَةٌ من الثقيلة، وعلى الأول: شرطية.

وقدّر «مُسَوًى» لتعلّق به اللام، لأنه خبر لـ «كان»، وهو من الشرط الذي يُعقّب به الكلام مُبالغة.

قوله: (يعني: قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾)، يعني: المراد بـ «الوَعْدِ» قوله هذا في غير هذا الموضع.

وقلت: ويمكن أن يُحمل «الوَعْدُ» على قوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ﴾، لأنه إيهاء إلى النصرة، يدلّ عليه قوله: «فهو مجازيهم عليه بمكرٍ هو أعظم منه»، وقوله: «وهو عذابهم».

قوله: (قدم الوعد ليُعلم أنه لا يُخلف الوعد أصلاً)، قال في «الانتصاف»: «وفيه نظر، لأن الفعل إذا تقيّد بمفعولٍ انقطع إطلاقه، فليس تقديم الوعد دالاً على إطلاق الفعل حتى يكون ذكر «الرُّسُلِ» ثانياً كالأجنبي، فلا فرق بين تقديم الوعد وتأخيرها، بل فيه الإيدان»

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ١٦٧).

[يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابُهُمْ مِنْ فِطْرَانٍ وَتَقْنُقُوا وَجُوهَهُمْ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٨-٥١﴾]

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ﴾ انتصابه على البدل من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾، أو على الظرف للانتقام. والمعنى: يوم تُبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة، وكذلك السماوات. والتبديل: التغيير، وقد يكون في الذوات كقولك: بدلت الدرهم دنانير، ومنه: ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و﴿وَيَدْلُوكَهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]، وفي الأوصاف، كقولك: بدلت الحلقة خاتماً؛ إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

بعناية المتكلم، وهذه الآية سبقت لتهديد الظالمين بما وعدهم الله على السنة الرُّسل، فالمهم ذكر الوعد، أما كونه على السنة الرُّسل فلا يقف التخويف عليه^(١).

وقال في «الإنصاف»^(٢): «هذا السؤال قوي، وإنما الذي ذكره الزمخشري هو القاعدة عند علماء البيان، قال الجرجاني^(٣) مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]: إنها قدم ﴿شُرَكَاءَ﴾ للإيدان بأنه لا ينبغي أن يتخذ الشركاء لله مطلقاً، ثم ذكر ﴿الْجِنَّ﴾ تحقيراً لهم، أي: إذا لم يتخذ من غير الجن، فالجن أحق أن لا يتخذوا شركاء، وإن كان السؤال متوجهاً على هذا أيضاً».

وقلت: صاحب «الإنصاف» ما أنصف من نفسه حيث قال: «هذا السؤال قوي» بعدما أقر السائل بأن لا فرق بين تقديم الوعد وتأخيرهِ إلا الإيدان بعناية المتكلم، ألا تسمع سيويه

(١) «الإنصاف» لابن المنير (٢: ٣٨٤) بحاشية «الكشاف».

(٢) للعلامة علم الدين العراقي، تقدم التعريف به عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠).

(٣) يعني: الإمام عبد القاهر، وذلك في «دلائل الإعجاز» ص ٢٨٦.

واختلف في تبديل الأرضِ والسَّمَاوَاتِ، فقيل: تُبَدَّلُ أوصافُها فتُسَيَّرُ عن الأرضِ جبالُها، وتُفَجَّرُ بحارُها وتُسَوَّى، فلا يُرَى فيها عِوَجٌ ولا أَمْتٌ. وعن ابن عباس: هي تلك الأرضُ وإنما تُغَيَّرُ، وأنشد:

وما النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ ولا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ

وتُبَدَّلُ السَّمَاءُ بِالنَّسَاءِ كَوَاكِبِهَا، وَكُسُوفِ شَمْسِهَا، وَخُسُوفِ قَمَرِهَا، وَانْشِقَاقِهَا، وَكَوْنِهَا أَبْوَابًا.

وقيل: يُخْلَقُ بَدَلُهَا أَرْضٌ وَسَمَاوَاتٌ أُخْرَى. وعن ابن مسعود وأنس: يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءٍ لَمْ يُخْطِئْ عَلَيْهَا أَحَدٌ خَطِيئَةً. وعن علي رضي الله عنه: تُبَدَّلُ أَرْضاً مِنْ فِضَّةٍ، وَسَمَاوَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ: أَرْضاً مِنْ فِضَّةٍ بِيضَاءٍ كَالصَّحَائِفِ. وَقُرِئَ: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ» بِالنُّونِ.

كَيْفَ قَالَ: فَإِنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الْأَهَمَّ وَمَا هُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى^(١)، فَإِذَا قُدِّمَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ وَقَعَ الْكَلَامُ فِيهِ أَصَالَةٌ، وَيَكُونُ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ تَبَعًا لَهُ، لَا أَنَّ الْفِعْلَ يَصِيرُ مُطْلَقًا كَمَا تَوَهَّمُ، حَقَّقْنَا الْمَعْنَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، فَإِذْ ن الْمَعْنَى مَا قَالَ الْمُصَنِّفُ: لَيْسَ مِنْ شَأْنِ اللَّهِ إِخْلَافُ الْمَوَاعِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩، والرعد: ٣١]، ثُمَّ قَالَ: ﴿رُسُلَهُ﴾، وَلَمَّا كَانَ السِّيَاقُ فِي تَهْدِيدِ الظَّالِمِينَ كَانَ ذِكْرُ الرُّسُلِ تَتَمِيمًا لِذَلِكَ التَّهْدِيدِ وَمُبَالَغَةً فِيهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّهِمْ خَيْرُهُ وَصَفْوَتُهُ، وَهُوَ عَلَى مِثَالِ قَوْلِهَا^(٢):

كَأَنَّهُ عَلَّمَ فِي رَأْسِهِ نَارَ

(١) انظر: «الكتاب» لسبويه (١: ٣٤).

(٢) أي: الخنساء، والبيت في «ديوانها» ص ٤٩، وانظر ما سيأتي في تفسير الآية ٣٢ من الشورى (١٤: ٦٦).

فإن قلت: كيف قال: ﴿الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾؟ قلت: هو كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأنَّ المُلْكَ إذا كان لواحدٍ غَلَّابٌ لا يُغَالَبُ ولا يُعَازَرُ، فلا مُسْتَعَاثَ لأحدٍ إلى غيرِه ولا مُسْتَجَارَ، كان الأمرُ في غاية الصُّعوبةِ والشَّدَّةِ. ﴿مُقَرَّرَيْنِ﴾ قُرْنٌ بعضهم مع بعض، أو مع الشَّيَاطِينِ، أو قُرْنَتُ أَيْدِيهِمْ إلى أَرْجُلِهِمْ مُغْلَلِينَ.

وقوله: ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾: إما أن يتعلَّقَ بـ ﴿مُقَرَّرَيْنِ﴾، أي: يُقَرَّنُونَ في الأصْفَادِ، وإما أن لا يتعلَّقَ به، فيكون المعنى: مُقَرَّرَيْنِ مُصَفَّدِينَ. والأصْفَادُ: القيود. وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامةَ بنِ جندل:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صِفَادًا يَعْضُ بِسَاعِدٍ وَيَعْظُمُ سَاقَ

وَسَقَطَ أَيْضاً قَوْلُ صَاحِبِ «الْإِنْصَافِ»: «أَمَا كَوْنُهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ فَلَا يَقِفُ التَّخْوِيفُ عَلَيْهِ».

قوله: (كيف قال: ﴿الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾؟)، أي: كيف ضَمَّ هذا مع قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾؟ وأجاب: أنَّ انضمامه معه يُفيدُ معنى الصُّعوبةِ والشَّدَّةِ كأنضمام قوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ مع قوله: ﴿لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

قوله: (إما أن يتعلَّقَ بـ ﴿مُقَرَّرَيْنِ﴾)، أي: يكونُ ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ ظَرْفًا لِنُغْوَا^(١)، وهو نَشْرٌ لقوله: ﴿قُرْنٌ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ أَوْ مَعَ الشَّيَاطِينِ﴾، أي: في الأغلال، وقوله: «وإما أن لا يتعلَّقَ به»، أي: يكونُ ظَرْفًا مُسْتَقَرًّا حالاً من ضميرِ المُجْرِمِينَ، وهو نَشْرٌ لقوله: ﴿قُرْنَتْ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَرْجُلِهِمْ مُغْلَلِينَ».

قوله: (وزيدُ الخيلِ قد لاقى صِفَادًا)^(٢)، قال ابنُ عبدِ البَرِّ في «الاستيعاب»: «هو زيدُ ابنِ مُهَلِّهِلِ بنِ زَيْدِ الطائِيّ، قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَسَمَّاهُ ﷺ زَيْدَ الْخَيْرِ، وَقَالَ لَهُ: مَا وُصِفَ

(١) انظر معنى «الظرف اللغو» فيما تقدّم تعليقا عند تفسير الآية ٥٨ من سورة يونس (٧: ٥١٢).

(٢) انظر: «ديوان سلامة بن جندل» ص ٧٠.

القَطْرَان: فيه ثلاثة لغات: قَطْرَان، وقَطْرَان وقَطْرَان؛ بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شَجَرٍ يُسَمَّى الأَبْهَلُ فَيُطْبَخُ، فَتُهْنَأُ به الإِبِلُ الجَرَبِيُّ، فيُحْرَقُ الجَرَبُ بَحَرِّه وَحِدَّتِهِ والجِلْدُ، وقد تَبْلَغُ حرارته الجَوْفَ، ومن شأنه أن يُسْرِعَ في اشتغال النار، وقد يُسْتَسْرَجُ به، وهو أَسْوَدُ اللَّوْنِ، مُتَيْنُ الرَّيْحِ، فَتُطْلَى به جُلُودُ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَعودَ طِلاؤُهُ لَهم كَالسَّرَابِيلِ وهي القُمُصُ، لِيَتَجَمَعَ عَلَيهِمُ الأَرَبُ: لَدَغُ القَطْرَانِ وَحُرْقَتُهُ، وإِسْرَاعُ النَّارِ في جُلُودِهِم، وَاللُّوْنُ الوَحْشُ، وَتَنُّ الرَّيْحِ. على أَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ القَطْرَانَيْنِ كالتَّفَاوُتِ بَيْنَ النَّارَيْنِ، وَكُلُّ مَا وَعَدَهُ اللهُ أَوْ وَعَدَ به في الآخِرَةِ، فبَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا نُشَاهِدُ من جَنَسِهِ ما لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَكَأَنَّهُ ما عَدَدْنَا مِنْهُ إِلا الأَسامي والمُسَمَّياتُ نَمَّةً. فبِكْرَمِهِ الواسِعِ نَعُوذُ من سَخَطِهِ، ونَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ فيما يُنَجِّينا من عَذابِهِ.

وَقُرِي: «من قَطْرِ آنٍ»، والقَطْرُ: النَّحاسُ، أَوْ الصُّفْرُ المُذابِ. وَالآني: المُتَناهِى حَرُّه.

﴿وَتَغَشَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾: كقولهِ تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿يَوْمَ يَسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] لأنَّ الوَجهَ أَعزُّ مَوْضِعٍ في ظاهِرِ البَدَنِ وَأَشْرَفُهُ، كَالقَلْبِ في باطنِهِ،

لي [أحد] في الجاهلية فرأيتُه في الإسلام [إلا رأيتُه] دونَ صِفَتِهِ غيرِكَ، وماتَ مُنصَرَفَهُ من عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ محمومًا^(١).

قوله: (وَقُرِي: «من قَطْرِ آنٍ»)، قال ابنُ جَنِّي: «وهي قِراءةُ ابنِ عَبَّاسٍ وأبي هُرَيْرَةَ وَجماعَةٍ من التابعين، وَالآني: مِن: أَنى الشَّيْءُ يَأْتِي أَنياً وَإِنى - مقصور -، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿عَبَّرَ نَظْرَيْنَ إِينَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أَي: بُلُوغَهُ وإِدْرَاكَهُ، قال أبو علي: ومنه: الإِناءُ، لأنَّهُ الظَّرْفُ الَّذِي قد بَلَغَ غايَتَهُ المُرادَةَ فِيهِ»^(٢).

(١) «الاستيعاب» لابن عبد البر (١: ٥٦٣-٥٦٤) بهامش «الإصابة» لابن حجر.

(٢) «المحتسب» لابن جَنِّي (١: ٣٦٦).

ولذلك قال: ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾ [الهمزة: ٧]. وقُرئ: (وتَغَشَىٰ وُجُوهُهُمْ)، بمعنى: تَغَشَىٰ، أي: يُفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ مَا يُفْعَلُ. ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ ﴿مُجْرِمَةٍ﴾ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ ﴿أَوْ كُلَّ نَفْسٍ مِنْ مُجْرِمَةٍ وَمُطِيعَةٍ، لَأَنَّهُ إِذَا عَاقَبَ الْمُجْرِمِينَ لِإِجْرَامِهِمْ عَلِمَ أَنَّهُ يُثِيبُ الْمُطِيعِينَ لَطَاعَتِهِمْ.

قوله: (بمعنى: تَغَشَىٰ)، أي: يَجِبُ حَمْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ عَلَى الْمُضَارِعِ، فَحَدَفَ إِحْدَى التَّائِيْنِ لِيُؤَافِقَ الْمَشْهُورَةَ.

فإن قلت: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ و﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ ﴿وَتَغَشَىٰ﴾ ثلاثتها أحوالٌ من ضمير ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، فَلِمَ خُولِفَ بَيْنَهَا؟ قلت: لِيُؤْذَنَ بِالترقي، فإن كَوْنَهُمْ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ دُونَ أَنْ تَكُونَ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ^(١)، فَجِيءَ بِهَا جُمْلَةً اسْمِيَّةً، وَغَشِيَانُ أَكْرَمِ الْأَعْضَاءِ وَاسْتِعْلَاءُ أَقْوَى الْعُنَاصِرِ عَلَيْهَا فَوْقَ الْكُلِّ، فَجَدَّدَ بِالْمُضَارِعِ الدَّالَّ عَلَى اسْتِحْضَارِ تِلْكَ الْحَالَةِ الْفُظْيَةِ^(٢) فِي مُشَاهَدَةِ السَّامِعِ. وَإِنَّمَا قُلْتُ: «فَجَدَّدَ» لِأَنَّ إِتْيَانَ «تَرَى» لِذَلِكَ.

قوله: (أي: يُفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ مَا يُفْعَلُ)، كِنَايَةٌ عَنِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَتِينَ، وَاللَّامُ تَعْلِيلٌ لِلْمَذْكُورِ.

قوله: (لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم)، عِلَّةٌ لِإِجْزَاءِ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ عَلَى الْعُمُومِ، يَعْنِي: أَنَّ ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ ﴿لَمَّا عَقَبَتْ ذَكَرَ﴾ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، خُصِّصَتْ بِنَفْسٍ مُجْرِمَةٍ وَكَانَتْ مُقَيَّدَةً بِهَا، أَوْ يُتْرَكُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَإِنْ كَانَ تَعْلِيلًا لِلْكَلَامِ السَّابِقِ.

قال القاضي: «وَيَتَعَيَّنُ ذَلِكَ إِنْ عُلِّقَ اللَّامُ بِ«بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ إِذَا عَاقَبَ الْمُجْرِمِينَ لِإِجْرَامِهِمْ، عَلِمَ بِالْمَفْهُومِ أَنَّهُ يُثِيبُ الْمُطِيعِينَ لَطَاعَتِهِمْ»^(٣).

(١) من قوله: «فَلِمَ خُولِفَ بَيْنَهَا» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) فِي (ف): «عَلَى اسْتِحْضَارِ الْقَطْعِيَّةِ»، وَفِي (ط): «عَلَى اسْتِحَالَةِ تِلْكَ الْحَالَةِ الْفُظْيَةِ»، وَكِلَاهُمَا تَحْرِيفٌ.

(٣) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبِيضَاوِيِّ (٣: ٢٠٤).

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوهُمْ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [٥٢]

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ كفاية في التذكير والموعظة، يعني بـ ﴿ هَذَا ﴾ هذا ما وصفه من قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] إلى قوله: ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. ﴿ وَلِيُنذِرُوا ﴾ معطوفٌ على محذوف، أي: لِيُنصَحُوا وَلِيُنذِرُوا، ﴿ بِهِ ﴾ بهذا البلاغ. وَقُرِي: «وَلِيُنذِرُوا» بفتح الياء؛

قوله: (يعني بـ ﴿ هَذَا ﴾ ما وصفه من قوله: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾)، قال القاضي: «﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى القرآن أو إلى السورة أو ما فيها من العظة والتذكير»^(١).

وقلت: إلى السورة هو الظاهر^(٢)؛ ليكون كالخاتمة لها، فإن الفاتحة - وهي قوله: ﴿ الرَّكْعَتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١] - وهلمَّ جراً إلى آخره دلَّ على التذكير والعظة^(٣) والإنذار، والله أعلم.

قوله: (وقرئ: «وَلِيُنذِرُوا» بفتح الياء) والذال، قال ابن جني: «قرأها يحيى بن عمر^(٤) وأحمد بن يزيد السلمي^(٥)، يقال: نذرتُ بالشيء: إذا علمت به فاستعددت له، فهو في معنى: فَهَمَّتْ وَعَلِمَتْهُ، وطبنتُ له^(٦): في وزن ذلك، ولم تستعمل العرب لقولهم^(١): «نذرتُ بالشيء»

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٣: ٢٠٤).

(٢) وإذا كان إشارة إلى السورة فالتذكير باعتبار الخبر. انتهى من حاشية النسخة الموصلية.

(٣) من قوله: «وقلت: إلى السورة ظاهر» إلى هنا، سقط من (ط).

(٤) الذارع، كما عيَّنه ابن جني نفسه، ويُنظر من هو؟

(٥) وهو أحمد بن يزيد بن أسيد السلمي، كما صرح به ابن جني نفسه، وهو أحد قواد طاهر بن الحسين (وهو القائد الذي وطَّد الملك للمأمون، وزحف إلى بغداد، وقتل الأمين، ولد ١٥٩، وتوفي ٢٠٧)،

وكان معه بالرقعة، كما في «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم (٣: ١٢٤٦)، وانظر ترجمة

طاهر بن الحسين في «تاريخ بغداد» (٩: ٣٥٣)، ففيها ذكر أحمد هذا.

(٦) أي: فطنتُ له، كما في «لسان العرب» مادة (طبن).

من: نَذَرَ به: إِذَا عَلِمَهُ وَاسْتَعَدَّ لَهُ، ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لَأَنَّهُمْ إِذَا خَافُوا مَا أَنْذَرُوا بِهِ، دَعَتْهُمْ الْمَخَافَةُ إِلَى النَّظَرِ حَتَّى يَتَوَصَّلُوا إِلَى التَّوْحِيدِ، لِأَنَّ الْخَشْيَةَ أُمَّ الْخَيْرِ كُلِّهِ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ، وَعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْ».

مَصْدَرًا، كَأَنَّهُ مِنَ الْفُرُوعِ الْمَهْجُورَةِ الْأَصُولِ، وَمِنْهُ: «عَسَى» لَا مَصْدَرَ لَهَا، وَكَذَلِكَ «لَيْسَ»، كَأَنَّهُمْ اسْتَعْنَوْا عَنْهُ بِـ«أَنَّ» وَالْفِعْلُ، نَحْوُ: سَرَّيْتُ أَنْ نَذَرْتُ بِالشَّيْءِ، وَيَسُرُّنِي أَنْ تَنْذَرَ بِهِ»^(٢).

قوله: (لَأَنَّهُمْ إِذَا خَافُوا مَا أَنْذَرُوا بِهِ، دَعَتْهُمْ الْمَخَافَةُ إِلَى النَّظَرِ حَتَّى يَتَوَصَّلُوا إِلَى التَّوْحِيدِ)، قَالَ الْقَاضِي: «اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ لِهَذَا الْبَلَاغِ ثَلَاثَ فَوَائِدَ، هِيَ الْغَايَةُ وَالْحِكْمَةُ فِي أَنْزَالِ الْكُتُبِ: تَكْمِيلُ الرُّسُلِ لِلنَّاسِ، وَاسْتِكْمَالُهُمُ النَّظَرَ إِلَى مُنْتَهَى كَمَالِهِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَاسْتِصْلَاحُهُمُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَهُوَ التَّنَدُّرُ بِلِبَاسِ التَّقْوَى. جَعَلْنَا اللَّهُ مِنَ الْفَائِزِينَ بِهَا.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

تَمَّتِ السُّورَةُ^(٣).

(١) فِي (ح): «بِقَوْلِهِ»، وَفِي (ف): «لِقَوْلِهِ»، وَفِي (ط): «لِقَوْلِهِ»، وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ «الْمَحْتَسِبِ» لِابْنِ جَنِّي.

(٢) «الْمَحْتَسِبِ» لِابْنِ جَنِّي (١: ٣٦٧).

(٣) قوله: «وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ» لَمْ يَرِدْ فِي (ف)، وَقَوْلُهُ: «تَمَّتِ السُّورَةُ» لَمْ يَرِدْ فِي (ح)، وَكِلَاهُمَا لَمْ يَرِدْ فِي (ط).

فهرس زُمر الآيات المُفسّرة

الصفحة

الآيات

سورة هود

٩-٥	[١]
١٣-١٠	[٤-٢]
١٧-١٣	[٥]
١٨-١٧	[٦]
٢٤-١٨	[٧]
٢٤	[٨]
٢٦-٢٤	[١١-٩]
٢٩-٢٧	[١٢]
٣٤-٢٩	[١٣]
٣٥-٣٤	[١٤]
٣٧-٣٦	[١٦-١٥]
٤٢-٣٧	[١٧]
٤٦-٤٢	[٢٢-١٨]
٤٧	[٢٣]
٥٠-٤٨	[٢٤]
٥١-٥٠	[٢٦-٢٥]

الصفحة	الآيات
٥٦-٥٢	[٢٧]
٦٣-٥٦	[٣١-٢٨]
٦٣	[٣٢]
٦٦-٦٣	[٣٥-٣٣]
٦٩-٦٦	[٣٧-٣٦]
٧١-٦٩	[٣٩-٣٨]
٧٨-٧١	[٤١-٤٠]
٨٣-٧٨	[٤٣-٤٢]
٩٠-٨٤	[٤٤]
٩٧-٩٠	[٤٦-٤٥]
٩٨	[٤٧]
١٠٠-٩٨	[٤٨]
١٠١-١٠٠	[٤٩]
١٠٥-١٠١	[٥٢-٥٠]
١٠٦-١٠٥	[٥٣]
١١٢-١٠٦	[٥٥-٥٤]
١١٤-١١٢	[٥٧-٥٦]
١١٥-١١٤	[٥٨]
١١٨-١١٥	[٦٠-٥٩]
١٢٥-١١٨	[٦٨-٦١]
١٣٨-١٢٥	[٧٣-٦٩]
١٤٠-١٣٨	[٧٥-٧٤]

الصفحة	الآيات
١٤٠	[٧٦]
١٤١-١٤٠	[٧٧]
١٤٦-١٤١	[٧٩-٧٨]
١٤٨-١٤٦	[٨٠]
١٥٢-١٤٩	[٨١]
١٥٦-١٥٣	[٨٣-٨٢]
١٦٦-١٥٦	[٨٦-٨٤]
١٦٨-١٦٦	[٨٧]
١٧٣-١٦٩	[٨٨]
١٧٥-١٧٣	[٩٠-٨٩]
١٨٥-١٧٦	[٩٥-٩١]
١٨٩-١٨٥	[٩٩-٩٦]
١٩٠-١٨٩	[١٠١-١٠٠]
١٩٠	[١٠٢]
١٩٥-١٩٠	[١٠٣]
١٩٥	[١٠٤]
١٩٨-١٩٥	[١٠٥]
٢٠٢-١٩٨	[١٠٧-١٠٦]
٢٠٩-٢٠٢	[١٠٩-١٠٨]
٢٠٩	[١١٠]
٢١٣-٢٠٩	[١١١]
٢١٥-٢١٣	[١١٢]

الصفحة	الآيات
٢٢١-٢٢٦	[١١٣]
٢٢٤-٢٢١	[١١٤]
٢٢٥-٢٢٤	[١١٥]
٢٣١-٢٢٥	[١١٦]
٢٣٢-٢٣١	[١١٧]
٢٣٣-٢٣٢	[١١٩-١١٨]
٢٣٥-٢٣٣	[١٢٢-١٢٠]
٢٣٦-٢٣٥	[١٢٣]

سورة يوسف

٢٤٢-٢٣٧	[٣-١]
٢٥٢-٢٤٢	[٤]
٢٥٨-٢٥٣	[٦-٥]
٢٥٨	[٧]
٢٦٠-٢٥٩	[٨]
٢٦٢-٢٦٠	[٩]
٢٦٤-٢٦٢	[١٠]
٢٦٨-٢٦٥	[١٢-١١]
٢٧٠-٢٦٩	[١٣]
٢٧١-٢٧٠	[١٤]
٢٧٣-٢٧١	[١٥]
٢٧٤-٢٧٣	[١٧-١٦]
٢٧٧-٢٧٤	[١٨]

الصفحة	الآيات
٢٨٠-٢٧٨	[١٩]
٢٨٢-٢٨١	[٢٠]
٢٨٥-٢٨٣	[٢١]
٢٨٧-٢٨٦	[٢٢]
٢٩١-٢٨٧	[٢٣]
٣٠٣-٢٩١	[٢٤]
٣١١-٣٠٣	[٢٩-٢٥]
٣٢٧-٣١١	[٣٢-٣٠]
٣٣٠-٣٢٧	[٣٤-٣٣]
٣٣١-٣٣٠	[٣٥]
٣٣٥-٣٣١	[٣٦]
٣٣٨-٣٣٥	[٣٨-٣٧]
٣٤١-٣٣٩	[٤٠-٣٩]
٣٤٢-٣٤١	[٤١]
٣٤٥-٣٤٢	[٤٢]
٣٥١-٣٤٥	[٤٣]
٣٥٥-٣٥١	[٤٤]
٣٥٧-٣٥٦	[٤٥]
٣٥٨-٣٥٧	[٤٦]
٣٦١-٣٥٨	[٤٩-٤٧]
٣٦٧-٣٦١	[٥١-٥٠]
٣٦٨-٣٦٧	[٥٢]

الصفحة	الآيات
٣٧١-٣٦٨	[٥٣]
٣٧٢-٣٧١	[٥٤]
٣٧٢	[٥٥]
٣٧٥-٣٧٣	[٥٦]
٣٧٥	[٥٧]
٣٧٦-٣٧٥	[٥٨]
٣٧٨-٣٧٦	[٥٩]
٣٧٨	[٦١]
٣٧٩-٣٧٨	[٦٢]
٣٨٠-٣٧٩	[٦٣]
٣٨١-٣٨٠	[٦٤]
٣٨٤-٣٨١	[٦٥]
٣٨٦-٣٨٤	[٦٦]
٣٩٠-٣٨٦	[٦٨-٦٧]
٣٩٢-٣٩٠	[٦٩]
٣٩٤-٣٩٢	[٧٢-٧٠]
٣٩٤	[٧٣]
٣٩٧-٣٩٥	[٧٥-٧٤]
٤٠٠-٣٩٧	[٧٦]
٤٠٤-٤٠١	[٧٧]
٤٠٤	[٧٨]
٤٠٥-٤٠٤	[٧٩]

الصفحة	الآيات
٤٠٩-٤٠٦	[٨٠]
٤١٠	[٨١]
٤١٢-٤١١	[٨٣-٨٢]
٤١٦-٤١٣	[٨٤]
٤١٨-٤١٦	[٨٥]
٤١٩-٤١٨	[٨٦]
٤٢٠-٤١٩	[٨٧]
٤٢١-٤٢٠	[٨٨]
٤٢٤-٤٢١	[٨٩]
٤٣١-٤٢٤	[٩٣-٩٠]
٤٣٣-٤٣١	[٩٦-٩٤]
٤٣٥-٤٣٣	[٩٨-٩٧]
٤٤٠-٤٣٥	[١٠٠-٩٩]
٤٤١-٤٤٠	[١٠١]
٤٤٤-٤٤١	[١٠٢]
٤٤٤	[١٠٤-١٠٣]
٤٤٥	[١٠٥]
٤٤٥	[١٠٦]
٤٤٦-٤٤٥	[١٠٧]
٤٤٧-٤٤٦	[١٠٨]
٤٤٩-٤٤٧	[١٠٩]
٤٥٢-٤٤٩	[١١٠]

الصفحة	الآيات
٤٥٣-٤٥٢	[١١١]
سورة الرعد	
٤٥٥-٤٥٤	[١]
٤٦٠-٤٥٥	[٣-٢]
٤٦٢-٤٦٠	[٤]
٤٦٥-٤٦٣	[٥]
٤٦٧-٤٦٥	[٦]
٤٦٩-٤٦٧	[٧]
٤٧٢-٤٦٩	[٩-٨]
٤٧٧-٤٧٢	[١١-١٠]
٤٨٦-٤٧٧	[١٣-١٢]
٤٨٩-٤٨٦	[١٤]
٤٩٠-٤٨٩	[١٥]
٤٩٣-٤٩٠	[١٦]
٤٩٩-٤٩٣	[١٧]
٤٩٩	[١٨]
٥٠١-٥٠٠	[١٩]
٥٠٨-٥٠١	[٢٤-٢٠]
٥٠٨	[٢٥]
٥١١-٥٠٨	[٢٦]
٥١٣-٥١١	[٢٩-٢٧]
٥١٤-٥١٣	[٣٠]

الصفحة	الآيات
٥٢٢-٥١٥	[٣١]
٥٢٢	[٣٢]
٥٢٧-٥٢٣	[٣٤-٣٣]
٥٢٩-٥٢٧	[٣٥]
٥٣١-٥٣٠	[٣٦]
٥٣٢-٥٣١	[٣٧]
٥٣٤-٥٣٢	[٣٩-٣٨]
٥٣٤	[٤٠]
٥٣٦-٥٣٤	[٤١]
٥٣٧-٥٣٦	[٤٢]
٥٤٠-٥٣٧	[٤٣]

سورة إبراهيم

٥٤٦-٥٤١	[٣-١]
٥٤٩-٥٤٧	[٤]
٥٥٢-٥٥٠	[٥]
٥٥٣-٥٥٢	[٦]
٥٥٥-٥٥٤	[٧]
٥٥٥	[٨]
٥٥٩-٥٥٦	[٩]
٥٦٣-٥٥٩	[١٠]
٥٦٥-٥٦٣	[١٢-١١]
٥٦٨-٥٦٦	[١٤-١٣]

الصفحة	الآيات
٥٧٢-٥٦٨	[١٧-١٥]
٥٧٥-٥٧٣	[١٨]
٥٧٦-٥٧٥	[٢٠-١٩]
٥٨٠-٥٧٦	[٢١]
٥٨٨-٥٨٠	[٢٢]
٥٨٩-٥٨٨	[٢٣]
٥٩٢-٥٩٠	[٢٥-٢٤]
٥٩٤-٥٩٣	[٢٦]
٥٩٦-٥٩٤	[٢٧]
٥٩٩-٥٩٧	[٣٠-٢٨]
٦٠٣-٥٩٩	[٣١]
٦٠٧-٦٠٣	[٣٤-٣٢]
٦١٣-٦٠٧	[٣٦-٣٥]
٦١٨-٦١٣	[٣٧]
٦٢٣-٦١٨	[٣٩-٣٨]
٦٢٦-٦٢٤	[٤١-٤٠]
٦٢٩-٦٢٦	[٤٣-٤٢]
٦٣٣-٦٢٩	[٤٧-٤٤]
٦٣٨-٦٣٤	[٥١-٤٨]
٦٤٠-٦٣٩	[٥٢]

* * *